المستوى الثاني/الكتاب الخامس

شرح

كتاب الكبائر

للعلامة شمس الدين الذهبي رحمه الله

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

حفظه الله تعالىٰ

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

من الدرس (١) إلىٰ االدرس (٤)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدرس الأول

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد ألَّا إلٰـه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد،

فإنّ بين يدينا كتاب مبارك ومؤلف قيم للإمام الحافظ الذهبي رحمه الله في موضوع **الكبائر**، والذي ينبغي على كل مسلم وليس فقط من هو معتنٍ بطلب العلم أن يعرف الكبائر التي أمره الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى باجتنابها ونهاه عن قربانها في غير ما آيةٍ من كتاب الله عز وجل، كذلك نبيُّه ﷺ في سنَّته، وهـٰذا الاجتناب للكبائر لا يكون إلا بعد العلم بها، فالأمر كما قال بعض السَّلف: **كيف يتقي من لا يدري ما يتقي**. كيف يتقي الكبائر ويجتنبها من لا يدري ما هي، ولا يعرف خطورتها، ولا يعرف ما جاء في نصوص الكتاب والسنة من الوعيد الشديد عليها وعلى فعلها.

ولهـٰذا كان متأكدا على كلِّ مسلم أن يعرف الكبائر، وأن تكون نيَّته في هـٰذه المعرفة اجتنابها والبعد عنها؛ كما قيل:

عَـرَفْـتُ الشَّـرَّ لا لِلـشَّـرْ ... رِ لٰـكِـنْ لِـتَـوَقِّـيـهِ
وَمَـنْ لا يَعْـرِفِ الـشَّـرَّ ... مِـنَ النَّـاسِ يَـقَـعْ فِـيـهِ

فيعرف المحرمات ويعرف الآثام، ويعرف هـٰذه الأمور التي تُسخط الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وتغضبه بنية اجتنابها والبعد عنها، والحذر من الوقوع فيها.

ولَمَّا كان هـٰذا المقام مقامًا عظيمًا وجانبا مهما من جوانب الدِّين؛ لأن الدين قائم على فعل المأمور وترك المحظور، وهـٰذه حقيقة تقوى الله جل وعلا: **العمل بطاعة الله على نورٍ من الله رجاء ثواب الله، وترك معصية الله على نورٍ من الله خيفة عذاب الله.**

وهـٰذا التوقي والاجتناب والترك لا يكون إلا بالعلم أولا، ولهـٰذا قيل في تعريف التقوى: (العمل بطاعة الله على **نورٍ من الله** وترك معصية الله على **نور من الله**) والمراد بالنور العلم الذي يميز به المسلم بين الحق

والباطل، والهدى والضلال، والسنة والبدعة، كل ذلك لا يتحقق للمرء معرفته إلا بالعلم؛ العلم النافع المستمد من كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

وقد اعتنى أهل العلم بهـٰذا الباب عنايةً فائقة، وكتبوا فيه قديمًا وحديثًا مؤلفات كبيرة، فكم ألف في هـٰذا الموضوع من مؤلفات بهـٰذا العنوان «**الكبائر**»، وأُخلصت تلك المؤلفات لعد الكبائر الكبيرة الأولى الكبيرة الثانية الثالثة، أخلصت لعدها فلماذا هـٰذا الجمع للكبائر وتتبع أدلتها وسردها في موضع واحد وفي مؤلف واحد؟

فالغَرض من هـٰذه المصنَّفات تعريف المسلمين، وتعريف الناس بكبائر الذنوب والموبقات المهلكات حتى يكون الناس على حذرٍ منها، وعلى بعدٍ من الوقوع فيها.

وهـٰذا الكتاب الذي هو كتاب الكبائر للذَّهبي هو من أحسن ما أُلِّف في هـٰذا الباب، ففيه جمعٌ مبارك وتحريرٌ متقن وانتقاء للأدلة من كتاب الله وسنَّة نبيه ﷺ مع تعليقاتٍ نافعة للغاية من مصنِّفه رحمه الله.

ويوجد في الساحة كتابان بهـٰذا العنوان «**الكبائر للذهبي**» أحدهما أكبر حجما من هـٰذا الكتاب الذي بين أيدينا وأوسع مادة علمية من هـٰذا الكتاب، ففيه سعة في ذكر النصوص والأدلة، وإن كان أقل عددا في ذكر الكبائر حيث فيه سبعين كبيرة، وهـٰذا الذي بين أيدينا فيه ست وسبعون كبيرة.

والكتاب الأول من يطالعه ويتأمله -الذي هو الكبير- قد يقع في نفسه شكٌّ من صحة نسبته للإمام الذهبي رحمه الله؛ لأنَّ للإمام الذهبي منهجٌ معروف في الروايات ونقدها والتنبيه على ما لم يصح منها، ولاسيَّما الموضوعات والواهيات، وذاك الكتاب فيه كثيرٌ من الأحاديث الموضوعة والأحاديث الواهية التي سيقت في الكتاب بلا تنبيه، مما هو مخالفٌ للطريقة التي عليها هـٰذا الإمام، بخلاف هـٰذا الذي بين أيدينا فإنه سليم من هـٰذا وفيه نفس الذهبي المعروف رحمه الله في مؤلفاته.

ولهـٰذا بعضهم قال: لعل الكتاب الأول جمعه الذَّهبي كمسوَّدة للباب، ثم بعد انتهائه منه كتب هـٰذا الكتاب.

وآخرون -ولعله هو الأقرب- يشكِّكون في صحة نسبة هـٰذا الكتاب أصلًا للذهبي، ويقال: لعله وجدت نسخة خطية ومشهور عن الذهبي أن له كتاب في الكبائر فنسبت إليه.

وعلى كلِّ حال المعتمد هو هـٰذه النسخة المختصرة المشتمِلة على ستٍّ وسبعين كبيرة، وليس فيها ما في ذلك الكتاب من الأخبار الواهية والأحاديث الموضوعة وقد يكون في بعضها في سنده مقال ينبه عليه رحمه

الله كما هي عادته في مصنفاته.

ونبدأ الآن بالقراءة في هـٰذا الكتاب، ومدَّة الدورة ستة أيام بعد صلاة الفجر والكتاب حجمه كبير؛ لكن نسأل الله جل وعلا أن ييسِّر لنا إتمامه، وأن يوفِّقنا للعلم بهـٰذه الكبائر بنية صالحة وقصدٍ مبارك، وأن يجعل ما نقرؤه ونتعلَّمه حجةً لنا لا علينا، وأن يجنِّبنا ما يُسخطه تعالى وأن يوفِّقنا لكل خيرٍ وعمل صالح يحبه ويرضاه.

❂❂❂❂

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم. [رَبِّ يَسِّرْ وَأَعِن.]

قَالَ الشَّيْخُ الإِمَامُ النَّاقد الْحَافِظُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بنُ أَحْمَدُ بنُ عُثْمَانُ بنُ قَايْماز الذَّهَبِيُّ [غَفَرَ اللهُ لَهُ]:

الْحَمْدُ للهِ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَمَلائِكَتِهِ وَأَقْدَارِهِ، وَصَلَّى اللهُ عَلى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَأَنْصَارِهِ صَلاةً دَائِمَةً تُحِلُّنَا دَارَ الْقَرَارِ فِي جِوَارِهِ.

عادة في الاستهلال وفي الغالب أن يكون في الاستهلال نكتة بديعة، وقد يسمى مثل هـٰذا الاستهلال ببراعة الاستهلال إذا كان فيه لفتٌ لمعنى عظيم يتعلق بالموضوع الذي ألّف المصنف لأجله، أو إذا كان الاستهلال عنوانا للمصنَّف بحيث إذا قرأت استهلال المصنف عرفت موضوع مصنفه بالاستهلال.

وهنا الذهبي رحمه الله استهل هـٰذا الكتاب بهـٰذا الحمد؛ حمد الله عز وجل على نعمة الإيمان، والله عز وجل يُحمد على أسمائه الحُسنى وصفاته العظيمة، ويُحمد على نعمه العظيمة ومننه على عباده التي أجلُّها وأعظمها وأكبرها قدرًا نعمة الإيمان.

والإيمان منَّةٌ الله جل وعلا على عباده المؤمنين ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ﴾ [الحجرات]، وقال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات:١٧]، فالإيمان مِنَّة الله، وهو أعظم منن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على عباده المؤمنين.

فاستهلَّ الإمام الذهبي رحمه الله هـٰذا الكتاب المبارك –كتاب الكبائر– بحمد الله على نعمة الإيمان: الإيمان بالله وبكتبه ورسله وملائكته وأقداره، مشيرًا بهـٰذا الحمد إلى أنَّ تحقيق هـٰذا الإيمان على الوجه الصحيح المطلوب يدفع عن العبد غشيان هـٰذه الكبائر، بينما إذا ضعُف إيمان العبد في قلبه مالت نفسُه إلى الكبائر، أما إذا آمن بالله وعرفه، وآمن باليوم الآخر وحقَّق الإيمان به، وآمن بالكتب وما جاء فيها وحقق الإيمان وآمن بالرسل وكمال دعوتهم والخير الذي في دعوتهم، إذا حقَّق هـٰذا الإيمان في قلبه وملأ قلبَه بهـٰذا الإيمان كان في بعدٍ كبير ومجانبة عظيمة للكبائر.

فإذن هنا الذهبي رحمه الله يحمد الله على هـٰذه النِّعمة العظيمة، وينبِّه من يقرأ الكبائر ويعرفها إلى أهمِّ أمر وأعظم أمر في تحقيق الاجتناب بأن يحقِّق العبد الإيمان بالله تعالى وبكل ما أمر تعالى عبادَه بالإيمان به من الإيمان بكُتبه والإيمان برسله والإيمان بأقداره وبالإيمان بملائكته والإيمان باليوم الآخر.

ولو أنك تتبّعت أثر الإيمان بهـٰذه الأصول الستة تفصيلا على تحقيق اجتناب الكبائر لوجدت بابا واسعا

وعظيما من الفقه في هـٰذا الباب، **معرفتُك لله وإيمانك به، وإيمانك بالملائكة**؛ الملائكة الكاتبين والملائكة الذين يتعاقبون، وكتابة الأعمال، **إيمانُك بالكتب** وتفاصيل الهداية التي وردت فيها، **إيمانك بالرسل** ودعوتهم أممهم إلى كل خير، «**ما بعث الله من نبيٍّ إلا كان حقا عليه أن يدل أمته إلى خير ما يعلمه لهم، ويحذِّرهم من شر ما يعلمه لهم**»، **إيمانك باليوم الآخر** وأنه دار الجزاء والحساب ولقيا رب العالمين، واليوم الذي يجد فيه الإنسان ما قدم في هـٰذه الحياة حاضرا، ما يذكره الإنسان من ذلك وما نساه ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ ﴾ [المجادلة:٦]، فهـٰذا الإيمان الذي استهلَّ به الذهبي رحمه الله مصنَّفه هو الذي تتحقق به سعادة العبد وإقباله على طاعة الله تعالى وبُعده عن كلِّ ما يُسخطه جل وعلا ويأباه.

ﮋﮋ◊ﮊﮊ

هٰذا كِتَابٌ نَافِعٌ فِي مَعْرِفَةِ الْكَبَائِرِ إِجْمَالًا وَتَفْصِيلًا، رَزَقَنَا اللهُ اجْتِنَابَهَا بِرَحْمَتِهِ.

ثم ذكر هنا ما هو موضع الكتاب فقال: (**هـٰذا كِتَابٌ نَافِعٌ فِي مَعْرِفَةِ الْكَبَائِرِ إِجْمَالًا وَتَفْصِيلًا**) (**إِجْمَالًا**) بالمقدِّمة التي أورد فيها الأدلة من القرآن والسنة على اجتناب الكبائر والتحذير منها، وبيان أن من الذنوب كبائر وصغائر، وبيان حد الكبيرة وضابطها الذي به تعرف، (**وَتَفْصِيلًا**) بعدّ الكبائر وسردها وذكر الأدلة على كل واحدة منها.

فـ(**هـٰذا كِتَابٌ نَافِعٌ فِي مَعْرِفَةِ الْكَبَائِرِ إِجْمَالًا وَتَفْصِيلًا، رَزَقَنَا اللهُ اجْتِنَابَهَا بِرَحْمَتِهِ.**) (**رَزَقَنَا اللهُ اجْتِنَابَهَا بِرَحْمَتِهِ**) هنا أيضا فائدة في موضوع اجتناب الكبائر إضافة إلى علم العبد بها وبخطورتها هو بحاجة ماسة إلى عون الله له على تركها واجتنابها، وإلَّا قد يكون الإنسان على علم بالكبيرة وعلى علم بخطورتها؛ ولكن نفْسَه أو شيطان أو قرناء السوء قد ينجر إلى كبيرة أو أكثر مع علمه بها وعلمه ببعض أدلتها وبخطورتها؛ لكنه ينزلق.

ولهـٰذا ينبغي على العبد أن يجمع مع العلم طلب العون دائما وأبدا من الله تعالى أن يرزقه التوفيق وأن يجنّبه الأمور التي تسخط الله جل علا.

ولهـٰذا شُرع للمسلم في كل مرة أن يخرج من بيته أن يقول: اللَّهُمَّ أعوذ بك أن أضل أو أضل، أو أزل أو أزل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل علي.

ولهـٰذا من المناسب جدًّا لنا أجمعين -وقد منَّ الله تعالى علينا بالاجتماع لمدارسة هـٰذه الكبائر وقراءتها- أن نسأل الله جل وعلا أن يجعل هـٰذا الاجتماع موجبًا لرضاه وأن يكون عونا على البُعد عنها واجتنابها إلى أن نلقاه تعالى وهو راضٍ عنا.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ۝٣١﴾ [النساء]، فَقَد تَكَفَّلَ اللهُ سبحانه وتَعَالَى بِهٰذَا النَّصِ لِمَنْ اجْتَنَبَ الْكَبَائِر بَأَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّة.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ۝٣٧﴾ [الشورى]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ [النجم:٣٢].

هـٰذه ثلاث آيات من القرآن الكريم في اجتناب الكبائر، وكلها جاءت بهـٰذا اللفظ -لفظ الاجتناب- وكذلك هـٰذا اللفظ جاء في السنة «**اجتنبوا السبع الموبقات**»، والأمر بالاجتناب أبلغ من الأمر بالترك أو النهي عن الفعل؛ لأنَّ الاجتناب ينتظم ترك الكبيرة والبُعد عنها.

ومثله النهي عن القربان أبلغ عن النهي عن الفعل أو الأمر بالترك؛ لأنَّ فيه ترك هـٰذا المنهي والبعد عنه.

فهـٰذه الآيات التي فيها الدعوة إلى اجتناب الكبائر مشتملة على أمرين:

على ترك غشيان الكبائر وفعلها.

والأمر الثاني البعد عنها بأن يكون العبد في جانب بعد عنها؛ بأن يغلق النوافذ والأسباب والسبل التي تفضي به إلى الكبائر وتجره في الوقوع فيها، فلا يفعلها ولا يحوم حول حماها، ولا يكون قريبا منها؛ بل يكون في جانب بعيد.

فهـٰذا معنى الأمر باجتناب الكبائر بأن يكون العبد بعيدا عنها بعيدا عن أماكنها، بعيدا عمن يدعوه إليها، بعيدا عن الوسائل التي تحركها في القلب، وقد كثرت في زماننا من القنوات السيئة والمواقع الخبيثة في شبكة الأنترنت والمجلات الهابطة وغير ذلك، فتنوَّعت الوسائل.

فعدم النظر إلى هـٰذه الأشياء وعدم سماعها داخلٌ في الاجتناب، وهو جزءٌ من الاجتناب، فليس الأمر بالترك فقط؛ بل الأمر فيما يتعلق بالكبائر هو أمر بالاجتناب بمعنى ألَّا يقارف الكبيرة ولا يفعلها ولا يفعل أيضا أي أمر يُفضي به إلى الكبيرة والوقوع فيها.

ذكر المصنف رحمه الله ثلاث آيات من القرآن الكريم في اجتناب الكبائر:

الآية الأولى من سورة النساء ذكر الله فيها تعالى أنَّ اجتناب العبد للكبائر يترتَّب عليه تكفير السيئات والمدخل الكريم وهو الجنّة، فهـٰذه ثمرة، ثمرة اجتناب الكبائر تكفير السيئات؛ يعني ما وقع فيه العبد من السيئات ومن الذنوب ومن اللمم فتكفَّر عنه سيئاته باجتنابه للكبائر، ويكون هـٰذا الاجتناب سببا لدخول الجنة.

والجنة تدخل برحمة الله تعالى بالإيمان والأعمال الصالحة، وعليه فهـٰذه الآية فيها فائدة عظمة ألَا وهي أن اجتناب الكبائر يعدّ عملا صالحًا يحبه الله ويرضاه من عبده، فالترك عمل ومن الأدلة على أن الترك عمل قول النبي ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**» فعدَّ الترك عملا صالحًا يُتقرب به إلى الله جل وعلا، فكما أن المرء يتقرَّب إلى الله تعالى بفعل الفرائض والرغائب والمستحبات، فإنه كذلك يتقرب إلى الله تعالى بترك المحرَّمات والبُعد عن المكروهات، وهـٰذه طاعة الله، طاعة الله تعالى وتقواه بفعل ما أمر وترك ما نهى عنه وزجر، فالطاعة تتناول الأمرين، كما أن معصية الله تعالى تتناول أمرين؛ ترك المأمور وفعل المحظور.

ترك المأمور هو الذنب الذي عصى به إبليس ربَّه، أمره بالسجود فاستكبر وأبى.

وفِعل المحظور هو الذنب الذي عصى به آدم ربَّه، نهاه عن الأكل من الشجرة ومنعه من الأكل منها فعل المحظور فعل ما نهاه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عنه.

فالمعصية تكون بهـٰذا وبهـٰذا، بترك المأمور؛ ترك الأوامر، ترك ما أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عباده به، وتكون بفعل المحظور أي فعل ما نهى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عنه، وطاعة الله جل وعلا تكون بفعل ما أمر وترك ما نهى عنه وزجر.

ثم الآية الثانية هي في بيان وصف عباد الله المؤمنين الكُمّل حيث ذكر في أوصافهم (﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧﴾ [الشورى]) وهـٰذه الآية فيها فائدة أن اجتناب الكبائر يكون به كمال الإيمان الواجب، والكمال في الإيمان كمالان: كمال واجب وكمال مستحب، واجتناب الكبائر يكون به كمال الإيمان الواجب، وفعلها والوقوع يكون به نقص الإيمان.

ولهـٰذا من يفعل الكبيرة يرتفع عنه الإيمان المطلق، ولا يكون بفعله للكبيرة مرتفعًا عنه مطلق الإيمان، بمعنى أنه كان بذلك كافرا؛ بل يرتفع عنه الإيمان المطلق التام الكامل الواجب على العباد، وهـٰذا جاء في الحديث الصحيح في «الصحيحين» وغيرها من حديث أبي هريرة ڤ أن النبي ﷺ قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن**»، فأفاد هـٰذا الحديث ارتفاع الإيمان -المطلق، أي: التام الكامل- فلم يكن بارتكابه بهـٰذه الكبائر من أهل الإيمان المطلق الذي هو الإيمان الكامل الواجب، ولا يكون أيضا في الوقت نفسه كافرا؛ لأن هـٰذه الكبائر لا يكون فِعلها مخرجا من الدِّين ناقلا من الملَّة؛ بل فاعلها يكون ناقص الإيمان، ضعيف الإيمان، رقيق الدِّين، وقد يتمادى أمره بها ويستفحل شأنه معها

إلى أن ينتقل من الدِّين بفعل الأمور المكفرة، وهـٰذه هي خطوات الشيطان وتدرجه في الإنسان خطوة خطوة حتى يجعله من أبعد ما يكون من دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فإذن هـٰذه الآية الثانية فيها فائدة عظيمة في موضوع اجتناب الكبائر ألا وهي أنَّ فيها دليلًا على أن اجتناب الكبائر فيه تحقيقٌ للإيمان التَّام الكامل الواجب، وأنَّ فعلها وارتكابها يُخرج العبد من الإيمان المُطلق، الإيمان الكامل، الإيمان الواجب؛ فيكون بذلك مؤمنا ناقص الإيمان، وهكذا قول النبي ﷺ: «**لا زني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» أي وهو مؤمن كامل الإيمان؛ بل يكون بهـٰذه الكبيرة مؤمنا ناقص الإيمان، مؤمنا ضعيف الإيمان، وهـٰذا المعنى ورد في قول النبي ﷺ: «**إذا زنى العبد ارتفع عنه الإيمان ارتفع عنه الإيمان وكان عليه كالظلة**» والظلة ملازمة لصاحبها، وهـٰذا فيه إشارة إلى الأمرين أنه خرج من الإيمان الكامل ولم يخرج من الدِّين مطلقا؛ لأن ظُلّة الشيء معه وملازمة له، فلا يكون بارتكابه للكبيرة مؤمنا الإيمان الواجب؛ بل يكون مؤمنًا ضعيف الإيمان.

أيضًا نستفيد من هـٰذه الآية ونظائرها ومن الحديث الذي أشرتُ إليه فائدة عظيمة جدًّا تتعلق بحد الإيمان وتعريفه عند أهل السنة والجماعة.

والفائدة التي نستفيدها هنا أن اجتناب الكبائر داخل في مسمى الإيمان، فكما أن الإيمان يتناول عقائد الدِّين ويتناول الأقوال الصّالحة والكلمات الزَّاكية التي يحبُّها الله تعالى من عبده، ويتناول الأعمال الصالحة التي يُتقرّب بها إلى الله جل وعلا، فهو في الوقت نفسه يتناول ترك المحرمات، وعندما قال السلف رحمهم الله: الإيمان قول واعتقاد وعمل. يدخل تحت قولهم: (وعمل) ترك الحرام؛ لأن ترك الحرام عمل صالح يحبُّه الله تعالى من عبده ويرضاه.

ثم الآية الثالثة (﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ [النجم:٣٢]) أفادت هـٰذه الآية ثمرة عظيمة من ثمار اجتناب الكبائر وهي نيل مغفرة الله تعالى، ولهـٰذا ختمت الآية بقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ وأهل العلم ذكروا قاعدة ومنهم العلامة ابن القيم في بعض كتبه والعلامة ابن سعدي في «القواعد الحسان» تتعلق بالآيات القرآنية المختومة بأسماء الله وصفاته، فثمة قاعدة في هـٰذا الباب ذكرها أهل العلم وهي أن كل آية خُتمت باسم من أسماء الله أو أكثر لذلك الاسم تعلق وارتباط بالمعنى المذكور في الآية.

والآية هنا في اجتناب الكبائر وختم الآية بذكر أن الله جل وعلا واسع المغفرة، والارتباط هنا بين موضوع الآية وخاتمتها أن مجتنب الكبائر له الحظ الوافر والنصيب العظيم من مغفرة الله جل وعلا.

ثم في هـٰذه الآيات الثلاث التي أوردها المصنِّف دلالة واضحة على أن الذنوب تنقسم إلى قسمين: كبائر وصغائر. وسيأتي عند المصنِّف رحمه الله الضَّابط الذي يميَّز به بين الصغيرة والكبيرة.

والآية الثالثة من هـٰذه الآيات فيها زيادة وضوح في الدلالة على هـٰذا التقسيم، قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ قال أكثر المفسرون: إلا الصغائر، ﴿ٱللَّمَمَۚ﴾ يعني: إلا الذنوب التي لا تصل إلى درجة أو إلى حدِّ الكبيرة.

ثم الآيتين الأخيرتين ذُكرت الكبائر والفواحش، والفاحشة هو أمرٌ يخالط الكبيرة فتصبح إضافة إلى كونها كبيرة فيها فُحش؛ يعني إضافة إلى كونها كبيرة ينضمُّ إليها ها الفحش الشناعة العظيمة في الأمر، فالفُحش هو أمرٌ يخالط الكبيرة فتزداد بمقاربته فحشًا وشناعةً وفضاعةً إلى شناعتها وفضاعتها.

يعني مثلا لو أنَّ إنسانا شرب الخمر، فهو ارتكب كبيرة، فلو شربه في نهار رمضان صار إضافة إلى كونه كبيرة فحشا. الزنى كبيرة لو زنى إنسان والعياذ بالله بمحارمه، إضافة إلى كونه كبيرة فحشا، وهكذا قد يخالط الكبيرة أمر من الأمور فينضاف إلى كونها كبيرة ينضاف إليها الفحش.

[والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[الدرس الثاني

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد ألَّا إلٰـه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد، فنواصل مستعينين بالله عز وجل في القراءة في كتاب الكبائر للإمام الذهبي رحمه الله]

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلى الْجُمُعَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِر»،

وهـٰذا الحديث المبارك فيه فضيلة اجتناب الكبائر وفضيلة المحافظة على الفرائض، وأن خيرية الإنسان وفوزه وسعادته في الدنيا والآخرة لابد فيه من الأمرين: المحافظة على الفرائض واجتناب الكبائر.

ولهـٰذا ذكر النبي ﷺ تحقق هـٰذا الخير بالأمرين، قال: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلى الْجُمُعَةِ، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهما ما لم تغش الكبائر**» يعني ما يتركب الإنسان الكبائر، فاجتمع في الحديث الأمران، فعل الفرائض والمحافظة عليها واجتناب الكبائر والبعد عنها، وأن الخير والسعادة للإنسان إنما تتحقق بهذين الأمرين معا.

❀❀◇❀❀

فَتَعَيَّنَ عَلَيْنَا الْفَحْصُ عَنِ الْكَبَائِرِ مَا هِيَ لِكَي يَجْتَنِبَهَا الْمُسْلِم.

هـٰذا تنبيه لطيف من المصنف إلى الفائدة من معرفة الكبائر، وقد يسأل سائل لماذا نتعلم الكبائر؟ لماذا نجلس لقراءة الكبائر؟ قد يسأل سائل: لماذا كتب أهل العلم مصنفات في الكبائر؟

والجواب على ذلك كما ذكر الإمام الذهبي رحمه الله هنا: (**فَتَعَيَّنَ عَلَيْنَا الْفَحْصُ عَنِ الْكَبَائِرِ**) يعني عندنا نصوص كثيرة في القرآن وفي السنة في الدعوة لاجتناب الكبائر وذكر الآثار المباركة والثمار العظيمة التي يجنيها المسلم باجتنابه للكبائر، فهـٰذه النصوص عِلْم المسلم بها يتعيَّن به أن يفحص عن الكبائر، أن يكشف عنها ويبحث عنها ويعرفها لماذا؟ ليجتنبها، فالاجتناب الذي أمرنا به في النصوص التي مضت لا يتحقق إلا بالفحص عن الكبائر ومعرفة الكبائر، وكما قدمت كيف يتقي من لا دري ما يتقي، من لا يعرف الكبائر من لا يعرف المحرمات كيف يتقيها.

فاجتناب الكبائر الذي أمرنا لابد فيه أولا من العلم ولهٰذا قال طلق بن حبيب في تعريفه للتقوى الذي أرشت إليه قال: تقوى الله أن تعمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله خيفة عذاب الله. قوله هنا: (على نور من الله) يعني على علم، يحتاج الإنسان إلى علم نافع يعرف به الكبائر، يعرف به المحرمات، يعرف به ما نهاه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عنه ليتحقق له هـٰذا الاجتناب الذي أمر به.

قال: (**فَتَعَيَّنَ عَلَيْنَا الْفَحْصُ عَنِ الْكَبَائِرِ مَا هِيَ لِكَي يَجْتَنِبَهَا الْمُسْلِم.**) وهنا أنبّه على فائدة عظيمة في هـٰذا الباب لعل الله تعالى أن ينفعنا بها.

الآن جمْع الذهبي رحمه الله هـٰذا المصنَّف الذي شاع وانتشر وقرأه خلق واستفاد منه كثيرون، كم لمصنِّفه رحمة الله عليه من الحسنات والآثار الطيِّبة بهـٰذه الدلالة المباركة؛ دلالة الناس على الكبائر وتعريفهم بها وبيانه لخطورتها لاجتنابها، واستهلَّ أيضا كتابه بدعوى لمن يقرأ بأن يرزقه الله الاجتناب.

وهـٰذا نستفيد منه فائدة أن الداعية لله عز وجل والمعلم، كما أنه ينبغي أن ينصح نفسه بمعرفة الكبائر ليجتنبها أن يعرف الكبائر أيضا ليحذِّر عباد الله عنها، خاصة في زمان كثُر فيه دعاة الباطل ودعاة الشهوات ودعاة المحرَّمات، فما من هـٰذه الكثرة الكاثرة من الدعوة للباطل لزم أهل الحق وطلاب العلم أن يعتنبوا بهذا الباب العظيم ليحذروا الناس ويبينوا خطورة هـٰذه المعاصي وجناياتها البالغة على الإنسان في دينه ودنياه.

قال: (**فَتَعَيَّنَ عَلَيْنَا الْفَحْصُ عَنِ الْكَبَائِرِ مَا هِيَ لِكَي يَجْتَنِبَهَا الْمُسْلِم.**) وقوله: (**الْفَحْصُ**) أي من خلال الأدلة ومن خلال مطالعة النصوص وقراءة القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ، والكبائر مذكورة في القرآن مذكورة في السنة؛ ولكن جهد العلماء في هـٰذا الباب هو بالفحص عنها والبحث عنها في الأدلة -أدلة القرآن وأدلة السنة- وجمْعها وتبويبها وترتيبها في مكان واحد.

❁❁◊❁❁

فَوَجَدْنَا الْعُلَمَاءَ قد اخْتَلَفُوا فِيهَا؛ فَقِيلَ: هِيَ سَبْعٌ. وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات ...»، فَذَكَرَ الشِّرْكَ، وَالسِّحْرَ، وَقَتْلَ النَّفْسِ، وَأَكْلَ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلَ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفَ الْمُحْصِنَاتِ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

من أهل العلم من قال: عدد الكبائر سبع. واستندوا إلى هـٰذا الحديث قول النبي ﷺ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات ...**» فوصف هـٰذه السبع بأنها موبقات؛ أي: مهلكات وهـٰذا دليل على أنها كبائر بوصف النبي ﷺ بأنها موبقة؛ أي: مهلكة لصاحبها.

فبعض العلماء أخذ من هـٰذا الحديث أنَّ عدد الكبائر سبع؛ ولكن الحديث ليس فيه حصر للكبائر بهـٰذا

العدد، وإنَّما ذكر فيه النبيُّ ﷺ جملةً من الكبائر، قد يكون المقام اقتضى التَّنصيص عليها لمقام السائل أو لأمرٍ معين، أو يكون أعلم بها عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ أولا ثم أعلم بغيرها فيما بعد، أو لغير ذلك من التعليلات التي ذكرها أهل العلم؛ لكن قطعًا أن الحديث ليس حاصرا للكبائر في هـٰذا العدد لدلالة الأحاديث الأخرى الكثيرة على أمور نُصّ في السنة على أنها من الكبائر، كما في الحديث الآخر وسيأتي عند المصنف «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور**» فعقوق الوالدين كبيرة، بل من أكبر الكبائر وشهادة الزور كبيرة، وليس من هـٰذه السبع وقد عده النبي ﷺ من الكبائر.

فإذن القول بأن الكبائر محصورة في سبع هـٰذا ليس عليه دليل واضح، والاستدلال بهـٰذا الحديث غير مستقيم بالأدلة الكثيرة على وجود كبائر نُصَّ في أدلة صريحة واضحة على أنّ الكبائر زائدة على هـٰذا العدد المذكور في هـٰذا الحديث.

وَجَاءَ عَن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا قَالَ: "هِيَ إِلى السَّبْعِينِ أَقْرَبُ مِنْهَا إِلى السَّبْعِ".

(جَاءَ عَن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا قَالَ: "هِيَ إِلى السَّبْعِينِ أَقْرَبُ مِنْهَا إِلى السَّبْعِ") هو سئل بناء على هـٰذا الحديث «**اجتنبوا السبع الموبقات**» ففُهِم أن الحديث حصر الموبقات بهـٰذه السبع، فابن عباس ﭭ: أهي سبع؟ قال: هي إلى السبعين أقرب. وجاء عنه في رواية أخرى: هي إلى السبعمائة أقرب.

والسبعين والسبعمائة وهـٰذا الرقم يستعمل في اللغة –في لغة العرب– للتكثير، كثيرا ما يؤتى به للتكثير، ويكون العدد لا مفهوم له، ليس مقصودا بذاته، كقوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة:٨٠]، المراد ليس هـٰذا العدد تحديدا، وإنما إن تستغفر لهم مرات عديدة جدًّا لن يغفر الله لهم، فقوله: (هِيَ إِلى السَّبْعِينِ أَقْرَبُ) هـٰذا إشارة إلى كثرتها لا إلى أيضا حصرها في هـٰذا العدد الذي هو السبعين، أو كذلك على الرواية أخرى السبعمائة، فهي ليست محصورة في عدد، وإنما الذي ينبغي في هـٰذا الباب أن ينظر في ضابط الكبيرة، وكل ما دلَّ النص على أنه كبيرة يجتنبه ويكون على حذرٍ منه تحقيقا لأمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالى بذلك وأمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

وَصَدَقَ وَاللهِ ابنُ عَبَّاسٍ، وَالْحَدِيثُ فَمَا فِيهِ حَصْرُ الْكَبَائِرِ.

قوله: (وَصَدَقَ وَاللهِ ابنُ عَبَّاسٍ ﭭ) لأن الإمام رحمه الله فحص النصوص والأدلة ووقف على الأدلة الواحضة والصريحة التي فيها ذكر خصال وخلال وأمور عدت في السنة من الكبائر، فقال: (صَدَقَ وَاللهِ) ثم

أشار إلى أن الحديث المتقدِّم والذي احتج به من قال: إنها سبعٌ أشار إلى أنه ليس حاصر للكبائر في هـٰذا العدد.

والذي يتَّجه ويقوم عليه الدليل أن من ارتكب حوبًا من هـٰذه العظائم مِمَّا فِيهِ حَدٌّ فِي الدُّنيَا؛ كَالْقَتْلِ وَالزِّنَى وَالسَّرِقَةِ، أَوْ جَاءَ فِيهِ وَعِيدٌ فِي الْآخِرَةِ مِنْ عَذَابٍ، وَغَضَبٍ، وَتَهْدِيدٍ، أَوْ لُعِنَ فَاعِلُهُ عَلى لِسَانِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فَإِنَّهُ كَبِيرَةٌ وَلابُدَّ.

هنا هـٰذا الكلام الذي ذكره الذهبي هو حد الكبيرة وضابطها وتعريف الكبيرة؛ يعني بعد هـٰذه المقدمات وبعد هـٰذا التنبيه على أنَّ الكبائر لست محصورة بهـٰذا العدد الذي هو السبع؛ لأنَّ الأقوال في العدد كثيرة وهي بنيت على فهم لبعض النصوص، يعني قيل: إنها أربع. وقيل: إنها سبع. وقيل: إنها تسع.. وقيلت أقوال في عدد الكبائر بناءً على فهم نصوص معينة أو بعض النصوص؛ لكن الصحيح أنها ليست محصورة في هـٰذه الأعداد وأنها كثيرة، وهي مذكورة في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

فإذن ما الذي ينبغي على المسلم في هـٰذا الباب، إذا كانت ليس هناك عدد معين بمعنى أن يقال عددها عشرين الأولى الثانية الثالثة.. لو كانت محصورة في هـٰذا العدد ما نحتاج لضابط، خلاص عرفت بأنها محصورة بهـٰذا العدد فتحفظ برقمها وعددها ولا يحتاج الإنسان في هـٰذا إلى ضابط.

فإذا كانت ليست محصورة بعدد فكيف يستقيم للإنسان معرفتها أو ما الضابط الذي به يعرف المسلم الكبيرة؟

فذكر الإمام الذهبي: (**والذي يتجه**) في هـٰذا الباب، يعني يتجه في معرفة الكبائر (**ويقوم عليه الدليل أن من ارتكب حوبا من هـٰذه العظائم**) حوبا أي: ذنبا، من هـٰذه العظائم أي: الذنوب كبيرة (**مِمَّا فِيهِ حَدٌّ فِي الدُّنيَا؛ كَالْقَتْلِ وَالزِّنَى وَالسَّرِقَةِ، أَوْ جَاءَ فِيهِ وَعِيدٌ فِي الْآخِرَةِ مِنْ عَذَابٍ وَغَضَبٍ وَتَهْدِيدٍ، أَوْ لُعِنَ فَاعِلُهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فَإِنَّهُ كَبِيرَةٌ وَلابُدَّ**) هـٰذا ضابط الكبيرة، **ضابط الكبيرة ما جاء فيه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة**، ولو أدرت أن تقتصر أكثر وقلت: **الكبيرة هو ما جاء فيه وعيد**. كل ذنب جاء فيه وعيد فهو كبيرة، والحد الذي في الدنيا هـٰذا وعيد على الذنب. وإن شئت التفصيل فكل ذنب جاء فيه حد في الدنيا بأن يقتل فاعله أو يرجم أو تقطع يده أو نحو ذلك، فكل ذنب جاء فيه حد في الدنيا أو جاء فيه وعيد في الآخرة بأن غضِب الله عليه أو لعنه، أو مثلا جاء في النص أنه لا يدخل الجنة، أو أنه لا يشمّ رائحتها، أو مثلا يدخل النار، أو نحو ذلك.. فكل نص جاء فيه وعيد من الكبائر.

وأيضا النصوص التي جاء فيها (لا يؤمن) أو (ليس منا) وسيأتي منها نماذج في هـٰذا الكتاب فهـٰذا أيضا

من الكبائر؛ لأنه لا يقال: (لا يؤمن) يعني لا يكون نفي الإيمان بفعل هـٰذا أمر مكروه ولا يكون هـٰذا النفي إلا بترك واجبٍ أو فعل محرَّم -كبيرة-، فما جاء فيه (ليس منا)، أو جاء فيه (لا يؤمن) فمثل هـٰذا النفي لا يكون إلا في الكبائر. فهـٰذا ضابط، فكل نص قيل فيه (ليس منا) أو (لا يؤمن) من فعل كذا، فهـٰذا يدل على أن هـٰذا الأمر من كبائر الذنوب، ومن ذلك الحديث الذي مرَّ قريبا «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن**»، فالإيمان المنفي عنه هنا ليس الإيمان المستحب، إنما الإيمان الواجب. فنفي الإيمان لا يكون إلا في كبيرة.

وبهـٰذا أيضا ذكر في الوسطية التي عليها أهل السنة في هـٰذا الباب الأحاديث التي جاء فيها نفي الإيمان، فليس القول فيها كما تقول الخوارج: إنه خرج من الدين وانتقل من الملة. وليست أيضًا القول كما تقوله المرجئة: إنها لا تؤثر على إيمانه؛ بل هو مؤمن كامل الإيمان مع فعله لها. بل الحق قوام بين ذلك، فهـٰذه الكبائر تنقص الإيمان وتضعفه ولا تخرج من الدين.

قال: (**مِمَّا فِيهِ حَدٌّ فِي الدُّنيَا؛ كَالْقَتْلِ وَالزِّنَى وَالسَّرِقَةِ، أَوْ جَاءَ فِيهِ وَعِيدٌ فِي الْآخِرَةِ مِنْ عَذَابٍ، أَوْ غَضَبٍ، أَوْ تَهْدِيدٍ، أَوْ لُعِنَ فَاعِلُهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فَإِنَّهُ كَبِيرَةٌ وَلابُدَّ.**) وأيضا مثل ما أشرت ما قيل فيه: (ليس منّا)، أو قيل فيه: (لا يؤمن)، أو وُصف صاحبُه بالنفاق -آية المنافق- أو نحو ذلك من الأمور التي يتضمنها الحديث مما يدل على عظم الأمر.

وكذلك أيضا ما نُصّ على أنه كبيرة في النصوص «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**» والحافظ ابن حجر رحمه الله في كتابه «فتح الباري» في المجلد الثاني عشر في آخره، جمع جمعا طيبا للنصوص التي نُصّ فيها على أمر من الأمور أنه كبيرة، نص أنه من الكبائر فبلغت العشرين في جمع الحافظ ابن حجر رحمه الله في آخر المجلد الثاني عشر من كتابه «فتح الباري».

هـٰذا الآن ضابط به عرفت به الكبيرة، على ضوئه يقال ما هي الصغيرة؟ على ضوء هـٰذا التعريف تستطيع أن تقول: والصغيرة هي ما دون الحدين؛ يعني إذا كانت الكبيرة هـٰذا حدها وهـٰذا ضابطها، فما دونها فمعني ذلك أن مادون الحدين –حد الدنيا وحد الآخرة فما دون ذلك فهو من الصغائر، فكل معصية أو ذنب لم يأتِ فيه حدٌّ في الدنيا ولم يأتِ فيه وعيد في الآخرة، لم يقل عن فاعله في النصوص: غضب الله عليه، أو لعنه، أو أنه لا يدخل الجنة، أو أنه في النار، أو أنه ليس منا، أو لا يؤمن.. أو غير ذلك من الضوابط التي مرت، فهـٰذا يكون من الصغائر.

فإذن الذنوب مقسمة إلى صغائر وكبائر، والكبائر هـٰذا ضابطها، وما دونها فهو من الصغائر.

والصغيرة كما نبّه أهل العلم قد يحتف بفعل الإنسان لها من الاستخفاف والاستهانة والإصرار عليها والدعوة إليها أو نحو ذلك ما يجعلها قد ترتقي إلى كبيرة أو إلى أن تكون كبيرة كما جاء عن ابن عباس ۞ في تتمة الأثر السابق: (ولا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار)؛ لأن الكبيرة إذا تاب منها انتهت، إذا تاب توبة صادقة إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى انتهت، ومن تابَ تاب الله عليه، والصغيرة قد يحتف بها من الإصرار عليها والاستخفاف والاستهانة وعدم المبالاة والدعوة إليها ما يجعلها ترتقي إلى أن تكون كبيرة.

مَعَ تَسْلِيمِ ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ الْكَبَائِرِ أَكْبَرُ مِن بَعضٍ، أَلا تَرى أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَدَّ الشِّرْكَ بِالله مِن الْكَبَائِرِ، مَعَ أَنَّ مُرْتَكِبَهُ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ وَلَا يُغْفَرُ لَهُ أَبَدًا فقَالَ تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦]. وَقَالَ تَعَالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة:٧٢]. وَلابُدَّ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ النُّصُوصِ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟» قَالَهَا ثَلاثًا. قَالُوا: بَلى يَا رَسُولُ الله!، قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بالله، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ»، وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَقَالَ: «أَلا وَقَوْلُ الزُّور». فَمَا زَالَ يُكَرِّرَهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

فَبَيَّنَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ أَنَّ قَولَ الزُّورِ مِن أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ. وَلَيسَ لَهُ ذِكرٌ فِي السَّبْعِ الْمُوبِقَاتِ، وَكَذَلِكَ الْعُقُوقِ.

هنا أيضا ينبه المصنِّف رحمه الله إلى فائدة تتعلق بالكبائر، فهـٰذه الذنوب التي وُصفت بأنها كبائر هي ليست على درجة واحدة، فبعضها أكبر من بعض وبعضها أشنع من بعض، فهي ليست على درجة واحدة، والنصوص دلت على أنّ الذنوب الكبائر بعضها أكبر من بعض، كما في الحديث الذي أشار إليه المصنِّف «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟» وعدَّ النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في جملة الكبائر وفي مقدِّمتها الشرك بالله وهو أظلم الظلم وأعظم الذنوب على الإطلاق، بل هو الذنب الذي لا يغفر لصاحبه إذا مات عليه، لهـٰذا أورد المصنف (قَالَ اللهُ تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦]. وَقَالَ تَعَالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة:٧٢].) فالشرك كبيرة، وهو أكبر الكبائر، وهو ذنب لا يغفره الله تعالى لصاحبه إذا لقي الله به.

أما الذنوب الأخرى الكبيرة التي هي دون الشرك ودون الكفر بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فأمرها تحت مشيئة الله

كما في الآية :﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾.

ثم ذكررحمه اللهالحديث «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟» وهـٰذا واضح وهو صريح في تفاوت هـٰذه الكبائر، وأنها ليست على درجة واحدة، قال: (فَبَيَّنَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ أَنَّ قَولَ الزُّورِ مِن أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ. وَلَيسَ لَهُ ذِكرٌ فِي السَّبْعِ الْمُوبِقَاتِ، وَكَذَلِكَ الْعُقُوقِ.). وهـٰذا فيه لفت انتباه إلى ما سبق الإشارة إليه وأن حديث السبع ليس حاصرا للكبائر في هـٰذا العدد، فلا بد من الجمع بين النصوص، والجمع بين النصوص لا يتأتّى إلا بالقول بعدم انحصار الكبائر في هـٰذا العدد الذي هو السبع.

هنا قبل الدُّخول في الكبائر أشير إلى بعض الأمور فيما يتعلَّق بالكبائر:

فالكبائر لها تقسيمات عند أهل العلم عديدة، ومن الْمُفيد لطالب العلم أن يعرف تقسيمات الكبائر، وأيضا الاعتبارات التي تكون بها تلك التقسيمات.

فالذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر، وهـٰذا التقسيم مر معنا.

تنقسم الكبائر إلى قسمين، أيضا مر معنا هـٰذا التقسيم:

فعل محظور: فالزنى كبيرة، وهو فعل محظور.

ترك مأمور: ترك الصلاة كبيرة، وهو ترك مأمور.

فالكبائر تنقسم إلى قسمين ترك مأمور وفعل محظور.

تنقسم الكبائر إلى قسمين أيضا باعتبار محلها:

فهناك كبائر في القلب. هناك أعمال قلبية هي من الكبائر.

وهناك كبائر في الجوارح، وهناك أعمال في الجوارح هي من الكبائر.

تنقسم إلى قسمين بهـٰذا الاعتبار.

تنقسم إلى قسمين باعتبار آخر:

قسم يتعلق بحقوق الله.

قسم يتعلق بحقوق العباد.

فالشرك كبيرة وهو متعلق بحق الله، ترك الصلاة كبيرة وهو يتعلق بحق الله.

أكل مال اليتيم، السرقة، القتل إلى غير ذلك من الكبائر تتعلق بحقوق العباد. وكلها هي حقوق لله تعالى ولكن قيل عنها: إنها حقوق للعباد؛ لأن للعباد فيها مطالبة ولهم فيها حقوق جعلها الله تَبَارَكَ وَتَعَالى لهم.

وأيضا هناك تقسيم للكبائر ذكره ابن القيم رحمه الله في كتابه «الجواب الكافي»، وهو تقسيم مفيد جدا للمسلم ولطالب العلم يتعلق بأصل الكبيرة وما يحرِّكها في الإنسان، فذكر ابن القيم رحمه الله أن الذنوب تنقسم إلى أربعة أقسام، قال:

القسم الأول: الذنوب أو المعاصي المُلْكية أي التي باعث العبد لفعلها أو المحرك للعبد لفعلها هو تعاليه وتكبُّره وجبروته وطغيانه وميله لهٰذا الأمر، فهٰذه ذنوب ملّكية، وهي أن تعاطى العبد الضعيف الفقير من صفات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ما لا يليق به مثل العظمة والكبرياء والجبروت ولهٰذا جاء في الحديث: «**العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النار**»، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [النحل]، والنصوص في هٰذا المعنى كثيرة، فهٰذه الذنوب يقع فيها العبد استعلاءً ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص:٤]، استعلاء وتكبّرا وتعاظما وتعاليا، فمن صفات الله تعالى ما لا يليق بالعبد، ومن ذلك ما أشرت إليه في الدرس «**العظمة إزاري، والكبرياء ردائي**».

وعقوبة أهل هٰذه الذنوب ما لم يتوبوا منها عند الله عظيمة، وعاقبته شنيعة، ولقد جاء في حديث صحيح: «**أن المتكبِّرين يحشرون يوم القيامة أمثال الذر يطؤهم الناس بأقدامهم**» وهٰذا جزاء من جنس العمل. فهٰذا قسم من أقسام أهل المعاصي والكبائر.

القسم الثاني: أهل المعاصي والذنوب الشيطانية، والتي يكون فعل العبد لها تشبّه بالشيطان وبخصال الشيطان وخلاله، ومن ذلكم الحسد والمكر والكيد والنفاق والغل والدعوة إلى المعاصي والذنوب والترغيب فيها والتحذير من الطاعات والنهي عنها والأمر بالبدع وبالأهواء والضلالات، وكل ما قارف هٰذه الأشياء صار متشبِّهًا بالشيطان؛ فهي دروب شيطانية؛ لأن فاعلها قد تشبه بفعلها بالشيطان وأتسى به، مثل أن يكون الإنسان والعياذ بالله داعية إلى الضلال، داعية إلى المعاصي والآثام، وأن يكون محذرا من الطاعات، مخذِّلا عن العبادات، ناهيا عن فعلها، هٰذا أخو الشيطان؛ بل هو شيطان كما قال الله عز وجل: ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]، فهو شيطان وأخ للشيطان لأنه ماثله في صفاته وشابهه في أفعاله خصاله، فهٰذا نوع من الذنوب وقسم.

القسم الثالث: الذنوب السَّبُعية، وهي الذنوب التي يتشبَّه فيها الإنسان بالوحوش الضارية والحيوانات المفترسة، هٰذه تسمَّى ذنوب سبعية؛ مثل الغضب وسُرعة الغضب، ومثل القتل ومثل ضرب النَّاس والاعتداء عليهم، فهٰذه الذنوب وأمثالها كالصوت العالي واللزج والهيجان والثوران.. كل هٰذه الصفات

التي تظهر في السباع فعل الإنسان لها هو من هـٰذا القبيل، الذنوب السبعية التي يفعلها الإنسان ويكون فيها مشابها للحيوانات المفترسة.

حتى إنه درج عند الناس ومعروف ربما يُسمع بعض الأحيان بعض الأشخاص الذي تظهر فيه مثل هـٰذه الأعمال يقول عنه بعض الناس: هـٰذا ليس إنسانا، هـٰذا حيوانا، أو يقول: هـٰذا وحش، أو يقول: هـٰذا من السباع. تأتي هـٰذه الكلمة؛ لأنهم رأوا فيه صفات ولا يعهدونها إلا في الحيوانات المفترسة، رأوا فيه صفات من هـٰذا القبيل.

فهـٰذه الذنوب وأمثالها تسمَّى الذُّنوب السبعية يعني التي فعل الإنسان لها هو نوع من التشبُّه بالحيوان السبعي أو بالوحوش.

القسم الرابع: الذنوب أو المعاصي البهيمية التي يتشبه فيها الإنسان ببهيمة الأنعام، ويجمع هـٰذا النوع الشره والحرص على شهوة البطن وشهوة الفرج؛ أن يقضي شهوة بطنه بجلب المال وتحصيل المال بأي طريقة، لا يبالي ولا يفكر؛ لأن الذي أمام عينيه وأنام ناظريه تحصيل شهوة بطنه كيفما اتفق، فلا يبالي يأكل مال اليتيم، يأكل ما ليس له بحق، كل هـٰذه الأمور لا يبالي بها، يأكل الأشياء المحرَّمة يتناول الأمور الممنوعة لا يبالي بذلك. وأيضًا همُّه شهوة فرجه وقضائها كيف ما اتفق زنى لواط.. أي طريقة المهم يقضي شهوة فرجه، فيكون بذلك شبيهًا ببهيمة الأنعام. فهـٰذا الصنف الذنوب تسمى الذنوب البهيمية.

ذنوب سبعية وذنوب بهيمية والله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:٧٠]، فالله عز وجل كرم الإنسان بالعقل، فكيف يتشبه بهـٰذه الحيوانات البهيمة وبهـٰذه الوحوش التي لا تعقل، كرمه الله وميزه فكيف يكون هـٰذا المكرم بالعقل وحشا ضاريا، أو كيف يكون الذي المكرم بالعقل حيوانا بهيما؟ ميزه الله بالعقل فينبغي أن يعمل عقله ويشغل عقله بأمور مفيدة ويبتعد عن الأمور المحرَّمة، ولاحظ في النصوص ولاسيما ما جاء في الصلاة النهي عن الإقعاء؛ كإقعاء الكلب وافتراش السبع ونقر الغراب.. وهـٰذا كله تكريم الله عز وجل لبني آدم، ولا يكون بهـٰذه الصلاة التي أشرف أعمال العبد يكون مثل هـٰذه الحيوانات إما يُقعي مثل الكلب، أو يفترش مثل السبع، أو ينقر مثل الغراب، أو يرمي نفسه رميا عندما يهبط إلى الأرض مثل الجمل «لا يبرك مثل بروك البعير»، أيضا ورد التفات الثعلب.

المهم أن الله عز وجل كرم الإنسان أن يكون مثل هـٰذه الحيوانات الوحشية أو الحيوانات البهيمية كرمه الله عز وجل.

فإذن هـٰذا تقسيم ذكره أهل العلم، وهو فيه جدًّا للإنسان حتى يعرف مداخل هـٰذا الذنوب على نفسه فيغلقها، فيقول: الله عز وجل كرمني وشرفني وفضلي، فلماذا أكون مثل البهيم أو مثل الوحش، أو أكون متشبِّها بالشيطان، أو أتعالى وأتعاظم وأخرج نفسي من كوني عبدًا فأدعي صفات الخالق الجليل والرب العظيم، وأتعالى على عباد الله عز وجل ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ١٨﴾ [لقمان]. ثم شرع المصنف رحمه الله بعده للكبائر.

[ونقف هنا، والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[الدرس الثالث

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد ألَّا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد، فنواصل مستعينين بالله عز وجل في القراءة في كتاب الكبائر للإمام الذهبي رحمه الله]

الكبِيرَةُ الأولى
هي الإشْراكُ باللّٰه

وَهُوَ أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ، وَتَعْبُدَ مَعَهُ غَيْرَهُ مِنْ حَجَرٍ، أَوْ بَشَرٍ، أَوْ شَمْسٍ، أَوْ قَمَرٍ، أَوْ نَبِيٍّ، أَوْ شَيْخٍ، أَوْ جِنِّيٍّ، أَوْ نَجْمٍ، أَوْ مَلَكٍ، أَوْ غيرِ ذَلِك.

قَالَ اللهُ تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦].

وقَالَ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ۝٧٢﴾ [المائدة:٧٢].

وقَالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ۝١٣﴾ [لقمان]. وَالآيَاتُ فِي ذَلِك كَثِيرَة.

فَمَنْ أَشْرَكَ بِالله تعالى ثُمَّ مَاتَ مُشْرِكًا فَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ قَطْعًا، كَمَا أَنَّ مَنْ آمَنَ بِالله وَمَاتَ مُؤْمِنًا فَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ الجَنَّةِ وَإِنْ عُذِّبَ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ الْإِشْرَاكُ بالله...» الْحَدِيث.

وَقَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات...»، فَذَكَرَ منها الشِّرْكَ.

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوه» حديث صَحِيحٌ.

هنا بدأ المصنف رحمه الله بسرد الكبائر وعدها واحدة تلو الأخرى، وبدأ رحمه الله بكبيرة الشرك وبدؤه بها هو اتِّباع للقرآن والسنة، فالقرآن والسنة في الأوامر يبدأ بأعظمها، وأعظمها التوحيد وفي النواهي يبدأ بأخطرها وأخطرها الشرك هـٰذا مطرد في القرآن ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾ [الفرقان:٦٨]، ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ

وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام:١٥١]، ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء]، ثم ذكر في السياق ثمانية عشر من الأوامر والنواهي، فالقرآن في عد الأوامر يبدأ بالتوحيد وهو أعظم الأوامر وأحسن الطاعات وأجلها وأساسها، وفي النواهي يُبدأ بالشرك بالله تعالى وبالتحذير منه وكذلك السنة.

وقد ذكر المصنف فيما سيأتي معنا حديثين في الكبائر وكل منهما بدئ بالشرك، فبدأ به المصنف رحمه الله.

والشرك هو أعظم الذنوب وأخطرها، وهو الذنب الذي لا يغفره الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لصاحبه إن مات عليه، فمن لقي الله مشركًا فمأواه جهنم خالدًا مخلَّدًا فيها أبد الآباد لا يقضى عليه فيموت ولا يخفف عنه من عذابها، كما قال الله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر]، فالشرك بالله هو أظلم الظلم وأكبر الذنوب، وهو الذنب الذي لا يغفره الله لصاحبه إن مات عليه.

والشرك بالله هو تسوية غير الله بالله في شيء من خصائص الله، سواءً خصائص الله في الربوبية، أو في الأسماء والصفات، أو الألوهية.

ولهٰذا كما أنَّ التوحيد ينقسم الأقسام الثلاثة -توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصِّفات- فإن الشرك ينقسم إلى أقسام ثلاثة: شرك في الربوبية وشرك في الأسماء والصفات وشرك في الألوهية. فمن أعطى غير الله شيئًا من خصائص الله في ربوبيته يكون جعل لله شريكًا في الربوبية، ومن أعطى غير الله شيئًا من خصائص الله في أسمائه وصفاته يكون جعله شريكًا لله في أسمائه وصفاته، ومن أعطى غير الله عز وجل من العبودية التي هي حقٌّ لله لا يجوز صرفها لغيره فقد جعله شريكا لله تعالى في ألوهيته.

فالشِّرك ينقسم إلى هٰذه الأقسام الثلاثة.

والشرك هو التسوية؛ تسوية غير الله بالله، كما قال الله عز وجل عن أهل النار عندما يدخلونها قالوا: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء]، فتسوية غير الله بالله في خصائصه هٰذا شرك بالله ناقل من ملّة الإسلام، وهو أيضا عدل غير الله به، والعدْل التسوية ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام]، أي يجعلون غيره عِدلًا له، أي: مثيلًا ومساويا.

والشرك هو أيضا التنديد، أن يجعل مع الله ند، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة]، فهٰذه حقيقة الشرك وهو أعظم الذنوب وأخطرها، وهو محبط للأعمال مبطلٌ لها، فالمشرك لا يقبل

الله منه عمل، ولا ينتفع بطاعة مهما كثُرت أعماله ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر].

قال المصنِّف رحمه الله: (وَهُوَ أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ، وَتَعْبُدَ مَعَهُ غَيْرَهُ مِنْ حَجَرٍ، أَوْ بَشَرٍ، أَوْ شَمْسٍ، أَوْ قَمَرٍ، أَوْ نَبِيٍّ، أَوْ شَيْخٍ، أَوْ جِنِّيٍّ، أَوْ نَجْمٍ، أَوْ مَلَكٍ، أَوْ غيرِ ذَلِك.) فكل هـٰذه مخلوقات لله، والمخلوق لا يُسوَّى بخالقه ولا يُعطى من خصائص خالقه، ولا يُجعلُ نِدًّا لخالقه، كيف يُسوَّى المخلوق من ترابٍ بربّ العالمين ومالك الرِّقاب تعالى؟! كيف يسوى المخلوق الناقص الفقير العاجز بالرَّب الغني العظيم؟! فهـٰذا أظلم الظُّلم وأشنعه على الإطلاق، أن يُسوَّى غير الله بالله.

وتأمَّل كلمة المصنف وهي مأخوذةٌ من الحديث قال: (أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ) وهـٰذا فيه لفتُ انتباهٍ لشناعة الشِّرك وشناعة أعمال المشركين، تفرَّد الله تعالى بخلقهم وإيجادهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا، فجعلوا له الشركاء ودعوا غيره من دونه، وأقبلوا بعباداتهم وطاعاتهم وسؤالاتهم وطلب حاجاتهم إلى غيرِ من خلقهم، وهـٰذا من أشنع ما يكون، تفرَّد بخلقهم ثم يتجهون بعبادتهم وحاجاتهم إلى غيره، وفي هـٰذا المعنى يقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة] أي: تعلمون أنه لا خالق لكم غيرُ الله، تعلمون أن الله تفرَّد بخلقكم؛ فلا تجعلوا له أندادًا، لا تجعلوا له شركاء في العبادة، مثلها أيضًا قوله: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٩٢] أي: تَفرَّدتُ بالربوبية، تَفرَّدتُ بالخلق، تَفرَّدت بالإيجاد، ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ أي: أخلصوا لي العبادة. (أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ) يعني تفرَّد بخلقك وإيجادك من عدم ثم يجعل له المشرك ندًّا وشريكًا.

وهـٰذه أمثلة من مخلوقات الله: الحجر، والشجر، والشيخ، والنبي، والقمر.. كل هـٰذه مخلوقات لله لا تستحق من العبادة شيئًا، العبادة حقٌّ للخالق العظيم، الرب الجليل تعالى.

(قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦].)، هـٰذه الآية فيها التنصيص على أن ذنب الشرك ذنب لا يُغفر لمن مات عليه، أما من كان مشركًا وتاب يتوب الله عليه، وكم من المشركين الكفار تابوا وقبلوا دعوات الأنبياء فتاب الله عليهم.

فإذن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ هـٰذا في حقِّ من مات على ذلك، أما قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣] هنا قال: ﴿ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ وهناك قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ قد يستشكل البعض الأمر، يعني في هـٰذه الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ وهناك

قال:﴿يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ بما فيها الشرك يغفره الله، وتوضيح الأمر أن آية النساء في حقِّ من مات على ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، وآية الزمر في حقِّ من تاب، فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ أي: لمن تاب، بما فيه الشرك، بدليل قوله: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ﴾ أي: توبوا، ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ فقوله: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ﴾ أي توبوا إلى الله؛ فإن الله يغفر الذنوب، لا يتعاظمه ذنبٌ أن يغفره مهما عَظُمَ الذَّنب وبلغ الجُرم وتعدَّد إذا تاب منه صاحبه تاب الله عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ هـٰذا في حق من تاب، وآية النساء في حق من مات على ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ أي من مات على ذلك.

ومن مات على الكبيرة غير تائبٍ منها ما حكمه؟

هو عرضةٌ للوعيد، ونصوص الوعيد يخشى عليه منها، ولكن نزول هـٰذا الوعيد يترتب على أمور، ولهـٰذا قال: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ فهو تحت مشيئة الله إن شاء عذَّبه وإن عذَّبه فإنه لا يخلُد في النار، ثم هؤلاء أهل الكبائر إذا دخلوا النار بموجب كبائرهم وذنوبهم فإنهم يخرجون منها على دفعات وجماعات جماعات؛ لأنهم متفاوتون في فعل هـٰذه الكبائر ليسوا فيها على درجةٍ واحدةٍ ولا مستوى واحدٍ؛ فلهـٰذا جاء في السنة عن النبي ﷺ أنه قال: «**ثم تميتهم النار إماتة، ثم يخرجون ضبائر ضبائر**» الحديث في الصحيحين، «**ثم يخرجون ضبائر ضبائر**» أي جماعات جماعات «**فيُلقَون في نهر الفردوس فيحيون بمائه كما تنبت الحِبّة في حميل السيل**»، أي التي يحملها السيل إذا جاء يطفح.

قال: (وقَالَ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢﴾ [المائدة:٧٢].) فمن مات مشركًا فهو واقع في أظلم الظلم وأكبر الجُرم، وعقوبته أنه مُحَرَّمٌ عليه دخول الجنة ومأواه النار مخلدًا فيها أبد الآباد، لا يُقضى عليه فيموت، ولا يُخفَّف عنه من عذابها، يعني لا يكون له موت فيسلم به من هـٰذا العذاب، ولا أيضًا يُخفَّف عنه من عذابها؛ بل دل القرآن على أن الكافر يزداد عليه العذاب في النار في قوله تعالى في سورة النبأ: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾، قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره لهـٰذه الآية: إن هـٰذه الآية أشد الآيات على الكفار أهل النار؛ لأنه قد يتطلع أو يؤمل أو يظن أنه سيُقضى عليه فيموت، أو يظن أنه سيُخفَّف عنه العذاب، ويُهوَّنُ عليه العذاب أو أنه يُخرج، فيأتيه الرد، يأتيه الجواب: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾؛ يعني ليس لكم في هـٰذه النار إلا الخلود فلا موت والعذاب المتزايد.

قال: (**وقَالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾** [لقمان].) وهـٰذا فيه أنَّ الشرك أعظم الظلم، والظلم وضع الشيء في غير موضعه، وأي وضعٍ للشيء في غير موضعه أشنع من أن توضع العبادة التي هي حقٌّ لله في غير موضعها فتُصرف للمخلوق؟! فهو ظلمٌ؛ لأن فيه وضعٌ للعبادة في غير موضعها، العبادة موضعها أن تُصرف لله وأن تُخلص لله تعالى وتكون خالصة له جل وعلا، فإذا وُضعت لغيره: من مَلَك أو نبي أو شجر أو حجر أو غير ذلك كان أظلم الظلم، قال: ﴿**إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣**﴾.

قال رحمه الله: (**فَمَنْ أَشْرَكَ بِالله تعالى ثُمَّ مَاتَ مُشْرِكًا فَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ قَطْعًا**).

(**ثُمَّ مَاتَ مُشْرِكًا**) هـٰذا قيد (**مَنْ أَشْرَكَ بِالله ثُمَّ مَاتَ مُشْرِكًا**) لكن من أشرك وتاب إلى الله تعالى ومات موحِّدا يكون من أهل التوبة ويتوب الله عليه؛ لكن من أشرك بالله ومات على الشِّرك فهو من أصحاب النار قطعًا وجزمًا، وهو من أصحابها المخلدين فيها أبد الآباد، (**كَمَا أَنَّ مَنْ آمَنَ بِالله وَمَاتَ مُؤْمِنًا فَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَإِنْ عُذِّبَ**)، فالموِّحد الذي لم يشرك بالله تعالى هو من أصحاب الجنة قطعًا، وقطعا سيدخل الجنة ما دام غير مشرك بالله، «**من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة**» ثم هـٰذا الدخول مختلفٌ، قد يكون دخولًا أوَّليًا –يعني بدون مرور بمرحلة تعذيب في النار–، وقد يكون دخولًا بعد مرور بمرحلة تعذيب في النار؛ ولهـٰذا الموحِّدون أو الذين سلموا من الشرك هم ليسوا على طبقة واحدة، وأقرأ في هـٰذا قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ [فاطر] ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ الواو هـٰذه في قوله: ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ شملت ماذا؟ شملت الثلاثة: السابق بالخيرات والمقتصد والظالم لنفسه؛ أي: الظالم لنفسه بالذنوب والكبائر التي دون الشرك بالله، فهؤلاء الثلاثة كلُّهم قال الله عزَّ وجل عنهم: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾، والعلامة الشِّنقيطي رحمه الله في تفسيره يُعظِّم من شأن هـٰذه الواو تعظيمًا عجيبًا ويُفخِّم من شأنها ودائما إذا مر على هـٰذه الواو في مواضع يقف عندها؛ لأنها شملت الظالم، فالثلاثة كلهم يدخلون الجنة؛ لكن السابق بالخيرات والمقتصد كلٌّ منهما يدخل الجنة بدون حساب ولا عذاب.

المقتصد هو الذي فعل الواجب وترك المحرم.

والسابق بالخيرات هو الذي زاد على فعل الواجب وترك المحرم المحافظة على الرغائب والمستحبات.

فهـٰذان كل منهما يدخل الجنة بدون حساب ولا عذاب دخولًا أوليًا.

والظّالم لنفسه أي: الذي ظلم نفسه فيما دون الشرك، الذي ظلمَ نفسَهُ فيما دون الشرك؛ لأن الظُّلم عندما يُطلَق في القرآن:

تارةً يُطلَق ويُرادُ به الظلم الذي هو المعاصي التي دون الشرك.

وتارةً يُطلَق ويُرادُ به الظلم الذي هو الشرك، كما مَرَّ معنا قريبًا ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان]، ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٥٤﴾ [البقرة].

ثم أيضًا لو تقرأ بقية السياق الذي معنا في سورة فاطر يأتي في تمام السياق بعد أن ذكر هٰذه الأقسام الثلاثة: المقتصد والسابق والظالم نفسه؛ لما ذكرهم ذكر ثوابهم عند الله تعالى انتقل إلى القسم الآخر وهو الكافر قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝٣٧﴾ [فاطر]، قوله هنا: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ غير ظالم لنفسه، هٰذا ظلم وذاك ظلم، هٰذا ظلمٌ الكفر موجب لدخول النار والخلود فيها أَبَد الآبَاد، وذاك ظلمٌ في ما دون الكفر وفي ما دون الشرك بالله، وهو عُرْضَة للوعيد عُرْضَة للعقوبة، هٰذا الذي هو ظالم لنفسه فيما دون الشرك - ظلمها بالمعاصي والذنوب التي هي دون الشرك- هو من أهل الجنة، لماذا؟ لأن الله قال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾؛ لكن لا يلزم من ذلك أن يكون دخولًا أوليًا، هو سيدخل الجنة قطعًا؛ لكن لا يلزم من ذلك أن يكون هٰذا الدخول أوليًا؛ مثل ما جاء أيضًا في الحديث قال عليهِ الصلاةُ والسلام: «من قال: لا إلٰـه إلا الله دخل الجنة يصيبه قبل ذلك أو لا يصيبه»؛ أي قد يكون عنده معاصي وذنوب ويدخل بها النار؛ ولكنه مآلُه ومصيره إلى الجنة.

ثم أيضًا دخول هؤلاء للنار هو دخولٌ من أجل التَّنقية والتمحيص والتطهير؛ مثل ما قال ابن القيم في بعض كتبه كلمة جميلة ومفيدة قال رحمةُ الله عليه: "هناك ثلاثة أَنْهُر في الدنيا من تَطَهَّر بها فقد طَهَّرَتْهُ وهي: الحسنات الماحية والتوبة النَّصُوح والحسنات المُكفِّرَة؛ فمن تَطَهَّر بها طَهَّرَتْهُ وإلا طُهِّر في نَهَر جهنم يوم القيامة"، فأصحاب المعاصي التي هي دون الشِّرك ودون الكفر بالله دخولهم النار دخول تطهير، لماذا؟ لأن الجنة دار الطِّيبِ المحض، ولاحظ كلمة ﴿طِبْتُمْ﴾ التي تُقال للداخلين ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝٧٣﴾ [الزمر]، فالذي طِيبُهُ شَابَهُ خبث يُطَهَّر من خبثه في النار إذا لم يكن قد تَطَهَّر منه في الدنيا، ثم يدخل الجنة مُطهَّرًا؛ ولهٰذا قال ابن القيم في كتابه «الوابل»: الدُّور ثلاثة: دار الطِيب المحض، ودار الخَبَث المحض، ودار الطِيب الذي شابَهُ خبث؛ وهي نار عُصاة الموحِّدين، فهٰذه النار التي هي لعُصاة الموحدين نارٌ يُعذبون فيها ويصلون عذابها ليُطَهَّرون؛ ولذلك لما كانت كبائرهم في الدنيا متفاوتة صار أيضًا خروجُهم من النار متفاوتًا دُفُعات تلو دفعات حتى يخرجون عن آخرهم، فلا يبقى في النار إلا أهلُها الذين هم أهلها أهل الكفر والشِّرك بالله تعالى، هٰذا معنى قول المصنِّف (**كَمَا أَنَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَمَاتَ مُؤْمِنًا فَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَإِنْ عُذِّبَ**).

وهنا تستفيد فائدة أنَّ التوحيد والإيمان موجبٌ لدخول الجنة؛ فإن كان توحيد مع تحقيق للإيمان وتتميمٌ له سواء كمّل الإيمان الواجب أو مع الإيمان الواجب كمّل الإيمان المستحب فهٰذا دخوله للجنة دخولٌ أولي، أو يكون عنده توحيد وإخلاص لله وبُعد عن الشرك؛ لكن عنده معاصي وظلم نفسي فهٰذا أيضًا من أهل الجنة؛ لكن لا يلزم من ذلك أن يكون دخوله لها دخولًا أوليا فقد يمر قبل ذلك بمرحلة تعذيب، قال: (فَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ الجُنَّةِ وَإِنْ عُذِّبَ).

(قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ الْإِشْرَاكُ بِاللهِ...» الْحَدِيث..)، «وعقوق الوالدين» وكان مُتكئًا فجلس وقال: «ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور» وما زال يكررها عليهِ الصلاةُ والسلام حتى قال الصحابة: ليته سكت.

فهٰذا الحديث فيه تنصيص على أن الشرك أكبر الكبائر، وفي مقدمة الكبائر، وهو أخطرها.

وكذلك قوله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات ...»، فَذَكَرَ منها الشِّرْكَ؛ بل في مقدمتها الشرك بالله عز وجل.

وقوله: «اجْتَنِبُوا»: سبق التنبيه على هٰذه الكلمة من فائدة.

وقوله: «الْمُوبِقَات»؛ أي: الْمُهلِكَات، سميت الكبائر موبقات لأنها تُهلك صاحبها، وأيضًا تُسمَى (الْمُقْحِمَات) لأنها تُقحِم صحابها في العذاب وفي الهلاك، وأيضًا تسمَّى (المهلكات)، وتسمَّى (الكبائر)، وتسمى (العظائم)؛ عظائم الذُّنوب.

(وَقَالَ ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوه»)، وهٰذا أيضًا فيه بيان هٰذه الكبيرة الكفر والشِّرك بالله بأن يُبدِّل دينه بدل التوحيد فينتقل إلى الشرك والتكذيب.

[ونقف هنا، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وأصحابه أجمعين.]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

]الدرس الرابع

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد ألَّا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد[

الكَبِيرَةُ الثَّانِيَةُ
قَتْلُ النَّفْسِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ۝٩٣﴾ [النساء].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ﴾ الآيات [الفرقان].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات...»، فَذَكَرَ قَتْلَ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ.

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ؛ وَقَدْ سُئِلَ أَيُّ الذَّنبِ أَعْظَم؟، قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟، قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يطعَمَ مَعَكَ»، قِيلَ: ثُمَّ أَيٌّ؟، قال: «أَنْ تُزَانِي حَلِيلَةَ جَارِك».

وَقَالَ ﷺ: «إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّار». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ هٰذا الْقَاتِلِ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟! قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ».

وَقَالَ ﷺ: «لا يَزَالُ الْمَرْءُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يَتَنَدَّ بِدَمٍ حَرَام».

وَقَالَ ﷺ: «لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ».

وَقَالَ بَشِيرُ بنُ مُهَاجِرَ، عَن [أبي] بُرَيْدَة، عَن أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَقَتْل مُؤْمِنٍ أَعْظَمُ عِندَ الله مِنْ زَوَالِ الدُّنيَا».

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «لا يَزَالُ المَرْءُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا» لَفْظُ البُخَارِيُّ.

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ».

وَقَالَ فِرَاس، عَن الشَّعْبِيِّ، عَن عَبْدِ الله بنِ عَمْرو قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ: الْإِشْرَاكُ بالله، وَقَتْلُ النَّفْس، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ...».

قال: حدّثنا حميد بنِ هِلالٍ، أَخْبَرنا بِشْرُ بنُ عَاصِمٍ، أَخْبَرنا عُقْبَةُ بنُ مَالِكٍ، عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ أَبَى عَلَيَّ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا» قَالَهَا ثَلاثًا، وَهٰذا عَلى شَرْطِ مُسْلِم.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنْ نَفسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلى ابنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَن ابنِ عَمْرو، عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ.

وَعَن أَبِي هُرَيْرَة ڤ، عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَلا مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدَةً لَهَا ذِمَّةُ الله وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَقَدْ أَخْفَرَ ذِمَّةَ الله وَلا يَرَحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا» صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

وَعَن أَبِي هُرَيْرَة ڤ، عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَعَانَ عَلى قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ لَقِيَ اللهَ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ الله». رَوَاهُ أَحْمَدُ وابنُ مَاجه، وَفِي إِسْنَادِهِ مَقَال.

وَعَنْ مُعَاوِيَة، سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ ذَنبٍ عَسَى اللهُ أَنْ يَغْفِرَهُ، إِلَّا الرَّجُلَ يَمُوتُ كَافِرًا، أَوْ الرَّجُلُ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا» أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ.

ثم ذكر المصنف كبيرة القتل؛ قتل النفس التي حرّم الله قتلُها، وهٰذا الذَّنب كبيرةٌ عظيمة، وقد جاءت في القرآن مقرونةً بالشِّرك بالله جلَّ وعلا في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفرقان:٦٨]، وأيضًا جاءت في حديث اجتناب السبع الموبقات مقرونة بالشرك «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات»، قالوا: وما هُنَّ يا رسول الله؟، قال: «الشِّرْكُ بِالله، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلَ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلا بِالْحَق»، فالقتل كبيرة عظيمة، وجريمة خطيرة، وهي إراقة الدَّم المعصوم الذي حرّم الله عز وجل إراقة دمِهِ، فهٰذه كبيرة عظيمة، والمصنِّف رحمه الله ساق الأدلة من القرآن والسُّنّة في بيان هٰذه الكبيرة، وبيان

خطورتها، وبيان ما يترتّب عليها من العقوبات المُعجَّلة والمُؤجَّلة.

فأورد أوَّلًا قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء]، فهٰذه الآية فيها عِظَم خطورة هٰذه الكبيرة، وما أعدَّ الله تعالى لفاعلها من العقوبات.

وقوله: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾: يخرج من هٰذه العقوبة من قتل غيرَهُ خطأً، لا عن عَمْدٍ، فهٰذه العقوبة للقاتل لغيره عمْدًا؛ وباشر قتله عمدًا وقصدًا لقتله، فعقوبة من كان كذلك جزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما.

وهٰذا الخلود في هٰذه الآية هٰذه عقوبته عند الله تعالى؛ ولكن إذا كان عنده التّوحيد مع هٰذه الجريمة ومع هـٰذا الذنب فالتوحيد مانع من الخلود لقوله ﷺ: «**يقول الله تَعَالَى: اخرجوا من النار من قال: (لا إلـٰه إلا الله) ومن في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان**» فالتوحيد مانع من الخلود، وهـٰذا جزاؤه عند الله، وإذا كان موحِّدًا مات مخلصا لله تعالى مع هـٰذا الذنب فإنّ خلوده في النار هو مكثٌ في النار، وتعذيبه في النار لمدة ثم مآله إلى الخروج ودخول الجنة.

وهٰذه الجريمة - قتل العمْد- فيها حقٌّ لله، وفيها حق للمقتول، وفيها حق لأولياء المقتول، قد جاء في حديث صحيحٍ عن النبي ﷺ أنه قال: «**دواوين الظلم يوم القيامة ثلاثة: ديوان لا يغفره الله، وديوان لا يتركه الله، وديوان لا يعبأ الله به**»، ثم بيّن ذلك، قال: «**الديوان الذي لا يغفره الله الشرك**»، فهـٰذا ديوان لا يُغفر لصاحبه بل يخلد في النار، والديوان الذي لا يتركه الله، ظلم العباد بعضهم لبعض، فالقتل فيه ظلم للمقتول، وفيه ظلم لأوليائه، فللمقتول حق، ولأوليائه حق، ولهٰذا جاء أن المقتول يأتي يحمل رأسه بين يديه يوم القيامة، ويقول: يا ربّ هـٰذا قتلني فيم قتلني، يطالب بحقه، ورأسه يحمله بين يديه، وأولياؤه لهم حق، ولهم العفو ولهم المطالبة، قال تَعَالَى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة:١٧٨].

هٰذه عقوبة القاتل عمدا، قال: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء].

ولا حجة في هٰذه الآية ونظائرها، لمن يكفر بالكبيرة ويخرج من الإيمان بالكبيرة، كالخوارج والمعتزلة، والآية إذا ضُمت لنصوص أخرى، القرآن الأخرى، وجمع بين آيات الوعد والوعيد، استبان الحكم، أما من يُعمل بعض النصوص ويهمل بقية النصوص لا شك أنه سيصل إلى مفاهيم خاطئة وتقريرات مغلوطة.

فالمعتزلة ومثلهم الخوارج يستدلُّون بهٰذه الآية على أن مرتكب الكبيرة خارج من الإيمان ومخلَّد يوم القيامة في النيران، والآية لا حجّة لهم فيها إذا ضممتها إلى قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء:٤٨]، القتل دون الشرك، والله عز وجل قال: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء:٤٨]، فهٰذه العقوبة معلّقة بالمشيئة، يعني إن شاء عذب وإن شاء غفر، والذّنب الذي هو الشرك قطع الله عز وجل لصاحبه بأنه إن مات عليه لا يغفر الله له، أما هـٰذه الذنوب فهي تحت المشيئة.

ولهٰذا يذكر أن أحد كبار المعتزلة وهو-بشر المرِّيسي- كما أورد هـٰذه القصة ابن قتيبة وغيره، أنه كان مرّة في مجلس وأراد أن يشكك على عوام المسلمين وجهّالهم في هـٰذه القضية، فقال -وأقبِح لقوله من قول- قال: "أنا إذا وقفت أمام الله يوم القيامة، سأقول له: إنَّ مرتكب الكبيرة مخلد في النار، فإن قال لي: وما حملك على ذلك يا بشر، سأقول له: أنت الذي قلت ذلك، فإن قال لي: أين؟ أقول له: أنت قلت في القرآن: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا﴾ [النساء:٩٣].

فهٰذا إضافة لما فيه من تقرير باطل، فيه أسلوب خبيث وشنيع جدًّا في الكلام وفي العرض، من أقبح ما يكون وأشنعه، إن قال لي، وأقول له، يعني هٰذا من أسوء ما يكون، فنحذَر التقرير وأيضا ما فيه من تشكيك للعوام والجهال، فكان أحد الحاضرين اسمه أنس - وكان أصغر من في المجلس-، فقال له: فإن قال لك: وأنا قلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦]، وقد شئت أن أغفر له. فماذا تقول له؟ فبهت.

فهٰذا فيه فائدة، أن نصوص الوعيد لا ينبغي أن تفهم بمعزل عن النصوص الأخرى، وهنا يقع الخطأ من يُعمل نصوص الوعيد مهملا نصوص الوعد، أو من يُعمل نصوص الوعد مهملا نصوص الوعيد، يقع الخطأ هناك خطأ المعتزلة، وهنا خطأ المرجئة، المرجئة يأتون إلى قول النبي ﷺ: «**من قال: لا إلـٰه إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق**» يقول: الزنى لا يضر، والسرقة لا تضر، والآخر يأتي ويقول: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»، فالزاني خارج من الإيمان.

والحق وسط بين ذلك، ولا تتحقق الوسطية والحق إلا بالجمع بين النصوص، أما بأن يُعمل بعضا ويهمل بعض فهٰذا الذي تخرج به عقائد أهل الضلال، فتجده يتمسك ببعض النصوص مهملا نصوصا أخرى.

قال: (وقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان])،

وهٰذا فيه أنّ التائب يتوب الله عليه مهما كان ذنبه، حتى القاتل إذا تاب، تاب الله عليه وقَبِل الله توبته، ويبقى حق المقتول وحق أولياء المقتول، ويكون القصاص، كما جاء في حديث المفلس، «**أتدرون من المفلس؟**» قلنا: المفلس من لا درهم له ولا دينار. قال: «**المفلس الذي يأتي يوم القيامة وقد ضرب هـٰذا، وأخذ مال هـٰذا، وسفك دم هـٰذا، فيؤخذ من حسناته فيُعْطَون، فإذا فنيت حسناته أُخذ من سيئاتهم فطرحت عليه فطرح في النار**»، قال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الفرقان:٦٨]، فيها -كما سبق- قرن القتل -هٰذه الجريمة العظيمة- بالشرك بالله عز وجل.

قال: (**وقال تَعَالَى: ﴿مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [المائدة:٣٢]**)

وهٰذا فيه شناعة القتل وحكم القاتل، وأنه بهٰذه المثابة وبهٰذه الصفة التي ذكر الله تَبَارَكَ وتَعَالَى ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾، لأنّه لم يصبح للدم عنده حرمه، فلم يبالِ، فكأنما قتل النّاس جميعا، ومن باشر القتل، وإراقة الدّم أصبح شأنه كشأن من لم يبالِ بدماء الناس، لأن الدماء معصومة، فمن يريق الدم بغير حق ويقتل النفس المعصومة بغير حق، فهو استباح حرمة الدِّماء، فكان بهـٰذه الصفة.

(**وقال تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩﴾ [التكوير]**) وهنا نوع من القتل وصِنف من القتل، والقتل أيضا درجات متفاوتة، ومن أصنافها قتل الولد خشية أن يَطعم معك، ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ [الإسراء:٣١]، أو كذلك قتل الأنثى لعدم رغبتها ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ۝٥٨﴾[النحل] وفي الآية الأخرى قال: ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ﴾ [النحل]، يعني، أيمسكه ويبقيها عنده على مضض وعلى كراهية وبغض، أو يدسه في التراب، وهٰذا حال أكثر المشركين في الجاهلية، إذا جاءته الأنثى دسّها في التراب؛ أي: دفنها في التراب.

حتى أن بعضهم من شدة جاهليتهم في هـٰذا الباب بعضهم وقت الولادة يحفر حفرة إلى جنب زوجته، ورأسًا إذا كانت أنثى ما تعيش ولا دقيقة واحدة ولا تبقى في الأرض ولا دقيقة واحدة، من شدة الكراهية التي ملأت قلوبهم في الإناث، ما يبقيها ولا دقيقة الحفرة جاهزة، والتراب جاهز ولا يذهب بها إلى مكان بعيد حتى لا تبقى ثواني ولا لحظات.

ذكر في بعضهم أن جاهليته في هٰذا الباب بلغت هـٰذا المبلغ، الحفرة إلى جنب الأنثى، وبمجرد ما يخرج المولود، ثواني إن كان ذكرا أبقاه، وإن كان أنثى دسَّهُ في التراب ودفن عليه.

وبعضهم قد ينتظر قليلًا ويصبر فترة، مثل ما ذكروا أيضا في طريقتهم في دس الأنثى في التراب، بعضهم

يصبر قليلا، يتركها حتى تنتهي من الرضاع ومن الفطام وتبدأ تمشى أربع سنوات، خمس سنوات، يتركها إلى هٰذا الوقت، ولا يزال الضيق في صدره يتفاعل، والكراهية في نفسه تزيد وهو يصبِّر نفسه، ويصبر نفسه، حتى ينفذ الصبر خلال أربع أو خمس سنوات، ثم يأتي لهٰذه الصغيرة كما ذكر في كتب الأخبار ويقول لأمها: زينيها وجمليها سآخذها معي، [فتمشي] لوداع هٰذه الصغيرة مع والدها ذاهبة في فسحة وفي نزهة وفي سرور وفرح، وفي مكان ما يكون مجهز لها الحفرة بزينتها بجمالها، بنته التي عمرها خمس سنوات، ست سنوات، فيأتي بها ويقول: انظري في هـٰذه الحفرة، تقف تنظر ما يُطلعها عليه والدها من منظر في داخل هٰذه الحفرة ببراءة، ثم من خلفها يدفعها بهٰذا التراب في هٰذه الحفرة ويهيل عليها التراب وينتهي منها، ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾ [التكوير]، هٰذا قتل، القتل كان عليه الجاهلية بشكل فظيع جدًّا.

ومنهم من يمسكها؛ ولكن يمسكها على ماذا؟ على هُون، وعلى كراهية وعلى بغضاء وجهه مسودٌ ويتوارى من الناس ولا أحد يراه، ولا يحب أن يُسمع ولا يحب أن يقول له: ماذا جاءك ما هو مولودك؟ كراهية شديدة.

وهـٰذه الجاهلية قد توجد في بعض المسلمين وتكون بدرجات أخف، يعني فيهم من جاهلية هؤلاء ولكن بدرجات أخف، نعم قد لا يقتلها ولكن ممسكٌ لها على هون وكاره وساخط ومبغض، وبعض من فيهم مثل هـٰذه الجاهلية طلق زوجته، قال: أنتِ ما تلدين إلا أنثى، كل مرة أنثى ويطلقها، هـٰذه كلها من الجاهلية التي كان عليها أولئك.

وأمور الجاهلية باقية كما دلت على ذلك نصوص كثيرة جدًّا أخبر بها النبي ﷺ: «**لتتبعن سنن من قبلكم شبرا شبرًا**»، «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ**»، «**اثنتان في الناس هما بهم الكفر**» إلى آخر الأحاديث في هـٰذا الباب.

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير]، هـٰذا نوع من القتل، وهو جريمة عظيمة، وهو فاحشة عظيمة جدًا وهي قتل الموءودة وقتل الطفلة الصغيرة وقتل الأنثى تخلّصا منها.

قال: (**وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات...»، فَذَكَرَ قَتْلَ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ.**) وهـٰذا الحديث سيتكرر معنا بحسب الكبائر السبع التي وردت في الحديث، كما أنه تقدّم معنا في مقدِّمة المصنّف في الكلام على الكبيرة.

«**قتْل النفس التي حرّم الله إلا بالحق**» يعني التي حرّم الله قتلها إلا بالحق، والحق في القتل جاء مُبيَّنًا في قول

النبيِّ ﷺ: «لا يحل دم امرئ إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيبُ الزَّاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

قال: (وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ؛ وَقَدْ سُئِلَ أَيُّ الذَّنبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»، قَالَ: ثُمَّ أَيّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»، قِيلَ: ثُمَّ أَي؟ قال: «أَنْ تُزَانِي حَلِيلَةَ جَارِك».).

قوله: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» هـٰذا هو الشاهد من الحديث، قتل نفسٍ معصومة، وقتل النّفس المعصومة محرم مهما كان المبرِّر.

المُبرِّر الأول عند الجاهلية يقول: لا أريد أنثى.

والمبرِّر الثاني عندهم أيضا في قتل الولد: خشية أن يطعم معه، يعني يقول: أنا فقير وما عندي نفقة ومن أين أصرف عليه؟ فيقتله خشية إملاق، يعنى خشية أن يجلب له هـٰذا الولد والثاني والثالث مسؤولية النفقة والطعام، وهو يرى نفسَه فقيرا فيقتله لذلك.

فهـٰذا من الجاهلية، وقتل النفس المحرمة هو محرم مهما كان المبرِّر.

وقوله: «أَنْ تُزْانِي حَلِيلَةَ جَارِك» هـٰذا فيه إشارة إلى كبيرة -ستأتي معنا- وهي الزِّنى؛ لكن الزِّنى مع أنه كبيرة فإنّ كبره أيضًا يتفاوت بحسب الفاعل، وبحسب من فُعل به، وبحسب الوقت، وبحسب المكان، ففيه أمور تحتف بهـٰذه الكبيرة فيتفاوت كبرها، هي كبيرة لكن يتفاوت كبرها، فالزنى من الشيخ الكبير أشنع من الزِّنى من الشاب، ولهـٰذا قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**ثلاثة لا ينظر الله إليهم ولا يكلمهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم**»، وذكر منهم: «**أُشيمط زانٍ**» يعنى شيخ كبير يزني؛ والكبير ضعُفت فيه المهيّجات لهـٰذا الأمر، فلم يبقَ فيه مهيِّجًا على فعله إلا فساده، فهـٰذه كبيرة وهـٰذه كبيرة لكنها من الشيخ أكبر.

الزنى بحليلة الجار -يعني زوجة الجار- أكبر لأن للجار حق، فإضافة إلى أنه زنى ففيه إفساد لفراش جاره، ففيه إضاعة لحق الجار، فهو أكبر.

والزنى بذوات المحارم أيضًا أكبر وأكبر، والزِّنى في رمضان، الزنى في الأماكن الفاضلة.. أو نحو ذلك.

فإذًا هـٰذه كبيرة؛ ولكن يتفاوت كبرها بحسب الفاعل، أو المفعول به، أو حسب الوقت، أو حسب المكان، إلى غير ذلك مما نبَّه عليه أهل العلم.

وتجدون تفصيلا جميلا في هـٰذا الباب في كتاب «الجواب الكافي» لابن القيمرحمه الله

(وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّار». قِيلَ: يَا رَسُولَ الله؛

هٰذا الْقَاتِلِ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟! قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ».) فهـٰذا فيه عقوبة القاتل وأنه في النَّار، وإذا التقى المسلمان بسيفيهما كلٌّ منهما يحاول قتل صاحبه متعمّدًا ذلك، فكلاهما في النار القاتل والمقتول، أمَّا القاتل فالأمر واضح وأما المقتول فقد استفسر الصحابة من النبيِّ ﷺ في ذلك فقال: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ» ولكن بَدَرَه صاحبه وسبقه إلى القتل.

قال: (وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «لا يَزَالُ الْمَرْءُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يَنْتَدَّ بِدَمٍ حَرَامٍ».) «اَنْتَدَّ»: أي تلمس يده -بقتله لغيره- الدم ويصيبه نداوة الدم، ينتد: أي تصيبه نداوة الدم وبلل الدم، «مَا لَمْ يَنْتَدَّ بِدَمٍ حَرَامٍ» أي أنه إذا انتدّ بدم حرام وباشر القتل، فلا يكون في فسحة؛ بل هو عُرضة للوعيد، ومنه ما جاء في الآية الأولى عند المصنف رحمه الله قال: «مَا لَمْ يَنْتَدَّ بِدَمٍ حَرَامٍ» يعني ما لم يصبه بلل الدّم.

قرأتُ قديمًا طريفة في هـٰذا الباب في بعض الصحف ذكروا خبر رجل قتل أكثر من ثلاثين نفسًا، وكلهم قتلهم بالخنق، وسئل عن ذلك: لماذا كل من قتلتهم هـٰذا العدد الكبير بهـٰذه الطريقة؟ فقال: لأني لا أحب رؤية الدماء! وربما أيضًا ما يريد أن ينتدّ بدم حرام! فكل من باشر قتله قتلهم بطريقة الخنق.

وعلى كل حال قوله: «مَا لَمْ يَنْتَدَّ بِدَمٍ حَرَامٍ» أنا أذكرها أيضا لفائدة أنه ليس بلازم أن يصيبه بلل الدم، ليس مقصود الحديث أن يصيبه نداوة الدم أو بلل الدم، فلو قتله برصاص، أو قتله مثل من ذكرت قصته بالخنق، أو قتله بسيفه ولكن لم يصب بدنه شيء من دمه فالحكم واحد؛ ولكن قوله: «مَا لَمْ يَنْتَدَّ بِدَمٍ»؛ لأن هـٰذا هو الغالب، فهـٰذا ليس قيدًا للحكم ولكنه وصف للغالب من هـٰذا الأمر، وهو أن القاتل إذا قتل أحدًا: ضربه بسيف أو..إلخ يصيبه دم، لكن لو قتله بسيف أو بسكين أو بخنجر أو غيره ولم يصبه دمه، أو قتله من بعيد برصاص أو قتله من قريب بخنق أو بغرق أو غير ذلك، فالحكم واحد.

قال: (وَقَالَ ﷺ: «لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ».) ومثل هـٰذا الحديث قول النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوقٌ وقتاله كفرٌ» والكفر هنا في الحديث الذي أشرت إليه هو كفر دون كفر، فليس هـٰذا بالكفر الناقل من الملة، فقوله: «لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ» ليس هـٰذا من الكفر الناقل من ملة الإسلام بل هو كفر دون كفر، ويدل على ذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة:١٧٨] سمَّى القاتل أخًا لأولياء المقتول، والمقصود أُخُوَّة الإسلام، فليس بكافر مع أنه قتله عمدًا؛ لكنه سمَّاه أخًا لأولياء المقتول فلا يكون كافرًا، وأيضًا قول الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ [الحجرات:٩] فقوله: «كفارًا» و«قتاله كفرٌ» هو كفر دون كفر؛ يعني ليس الكفر الذي ينقل من

الملة.

وأيضا في النص دلالة على شناعة القتل وعظم خطره وأن النَّبيَّ ﷺ وصفه بأنه كفرٌ، وهـٰذا أيضا مما يُعلم به أن الأمر كبيرة.

قال: (وَقَالَ بَشِيرُ بنُ مُهَاجِرَ، عَن [أبي] بُرَيْدَة، عَن أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَقَتْل مُؤْمِنٍ أَعْظَمُ عِندَ الله مِنْ زَوَالِ الدُّنيَا».) وهـٰذا أيضا فيه عظم وشناعة قتل النَّفس -نفس المؤمن المعصومة- وأنها أعظم عند الله من زوال الدنيا وأيضًا فيه شأن المسلم ومكانته ومنزلته عند ربه تعالى فقتله أعظم عند الله من زوال الدنيا.

(وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «لا يَزَالُ المَرْءُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا» لَفْظُ البُخَاريِّ).

والحديث مرَّ معنا معناه قريبًا، وقوله: «مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا» كما قدَّمت أن هـٰذا هو الغالب في طريقة القتل أن يصيب الدَّم، وإن كانت طريقته ليس فيها إصابة الدم وليس فيها إراقة دم، ولكن حصل القتل فالحكم هو الحكم؛ لكن هـٰذا الغالب في القتل.

(وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ».) وهـٰذا فيما يتعلق بحقوق الناس، أول ما يقضى بين الناس فيه من حقوقهم الدماء، وهناك حقوق كثيرة يقضى فيها بين الناس؛ لكن أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة الصلاة كما في الحديث الآخر، ولا تعارض بين الحديثين؛ لأن هـٰذا الحديث فيما يتعلق بالحقوق التي بين الناس، فأول ما يُقضى بين الناس -أي في الحقوق التي بينهم- يكون في الدماء.

وقال المصنف: (وَقَالَ فراس، عَن الشَّعْبِيِّ، عَن عَبْدِ الله بنِ عَمْرو قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ: الْإِشْرَاكُ بالله، وَقَتْلُ النَّفْس، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْن ...».)

قال: (وَحدّثنا حميد بنِ هِلالٍ، أَخْبَرنا بِشْرُ بنُ عَاصِمٍ، أَخْبَرنا عُقْبَةُ بنُ مَالِكٍ، عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ أَبَى عَلَيَّ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا» قَالَهَا ثَلاثًا، وَهٰذا عَلَى شَرْطِ مُسْلِم.) وهـٰذا أيضا فيه عقوبة القاتل، وما أعدَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى له من العقوبة.

قال في الهامش: (**رواه الحاكم من حديث عُقبة بن مالك قال: بعث رسول الله ﷺ سرية فأغاروا على قوم، فشذ رجل من القوم، فاتبعه رجل من السرية معه السيف شاهر، فقال الشاذ من القوم: إني مسلم، فلم ينظر فيها فضربه فقتله، فنمى الحديث إلى رسول الله ﷺ فقال قولًا شديدًا، فبلغ القاتل، فبينا رسول الله ﷺ يخطب إذْ قال القاتل: يا رسول الله؛ والله ما قال الذي قال إلا تعوُّذًا من القتل، فأعرض عنه رسولُ الله ﷺ وعمن قِبَلَهُ من الناس -يعني من جهته-، وأخذ في خطبته، ثم قال الثانية: والله يا رسول الله؛ ما قال الذي قال إلا**

تعوذًا من القتل، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعمن قِبَلَهُ من الناس وأخذ في خطبته، ثم لم يصبر أن قال الثالثة: والله يا رسول الله؛ ما قال الذي قال إلا تعوذًا من القتل. فأقبل عليه رسول الله ﷺ تُعرف المَساءة في وجهه - يعني الغضب في وجهه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- ثم قال: «إن الله أبى عليَّ من قتل مؤمنًا» قالها ثلاثًا)، فأعرض عنه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ هـٰذه المرات ثم قال: «إن الله أبى عليَّ من قتل مؤمنًا».

قال: (وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.) وهـٰذا فيه معنى قول النبي ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنة سيئة فله إثمها وإثم من عمل بها» فأول من سنَّ القتل هو قابيل في قتله لأخيه هابيل، فكل قتل بعد ذلك للقاتل الأول كفل من ذلك؛ لأنه أول من سنَّ هـٰذه السُّنة، وهـٰذا الأمر ينطبق على كل الضلالات، «من سن سنة سيئة- أيًّا كانت-فله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».

قال: (وَعَن ابنِ عَمْرو، عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ.

وَعَن أَبِي هُرَيْرَةَ، عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَلا مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدَةً لَهَا ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَقَدْ أَخْفَرَ ذِمَّةَ اللهِ وَلا يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا» صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.) هـٰذا الحديث والذي قبله في قتل المُعَاهد. والمُعَاهد: هو إنسان كافر ليس بمسلم، لكن دمه معصوم ونفسه معصومة، ولا يحل قتله، مع أنه كافر ليس بمسلم لكن نفسه ودمه معصوم، ويحرم قتله ولا يحل قتله. والمعاهد أو المُعَاهدين هم: الكفار الذين بينهم وبين المسلمين عهد، فـ«من قتل مُعَاهَدًا» يعني بينه وبين المسلمين عهدٌ «لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا» وهـٰذا مما يُعرف به أن الأمر كبيرة.

قد مر معنا في الضابط ما قيل فيه أنه لا يدخل الجنة ولا يشم ريحها فهـٰذا من كبائر الذنوب.

وفي الحديث الآخر قال: «أَلا مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدَةً لَهَا ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ» يعنى أُعطي عهدًا، وأعطي ذمة، «فَقَدْ أَخْفَرَ ذِمَّةَ اللهِ» يعنى: ضيَّعها، وفرّط فيها، «وَلا يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ» يعنى لا يشم رائحة الجنة «وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا» أي: أربعين عامًا، وهـٰذا فيه خطورة هـٰذه الجريمة، وبهـٰذا الحديث يُعلم أن الأصل في دم الكافر أنه محرّم، إلا إذا جاء موجب لقتله، فالكافر ليس مهمة المسلم أن يقتله أينما وجد، ومن ينظر في النصوص التي جاءت متعلِّقة بالجهاد يجد ما يبيِّن ذلك ويوضّح ذلك، فليست المهمة - مهمة المسلم- أن يقتل الكافر أينما وُجد؛ بل قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «إنما بعثتُ رحمة» فليس المطلوب أن

يُعجَّل بالكافر إلى النار، وإنما المطلوب إنقاذه من النار، فقتله متى وجده الإنسان هـٰذا تعجيل به إلى النار، والدين دين رحمة، والنبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ قال: «**إنما بُعثت رحمة**» ولما ذكروا له وطأة مُضر وشدتهم على المسلمين، وأيضًا في قصة دوس وطلبوا منه أن يدعو عليهم، فمد يديه، فلما مد يديه قال بعض الصحابة: هلكت مضر، «**اللّٰهُمَّ اهدهم وات بهم**» وقال في دوس: «**اللّٰهُمَّ اهد دوسًا واتِ بهم**»، وهدى الله كثيرًا منهم، فالإسلام دين رحمة، ليس المطلوب أن يعجَّل بالكافر إلى النار، وإنما المطلوب أن يُنقَذ من النار بدعوته ونصحه؛ ولهـٰذا تقرأ في كتب الآداب: باب الهدية للمشرك، تهديه تزوره ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة]، المطلوب البر والإقساط والإحسان؛ لعل الله عز وجل يفتح على قلوبهم ويهديهم، والمطلوب أن يُدعى لهم في الهداية وليس أن يُبادَر ويعجَّل بهم إلى النار.

ثم قال: (وَعَن أَبِي هُرَيْرَةَ، عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَعَانَ عَلى قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ لَقِيَ اللهَ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ». رَوَاهُ أَحْمَدٌ وابنُ مَاجَه، وَفِي إِسْنَادِهِ مَقَال.) والحديث كما بيَّن المصنِّف لا يصح، لكن الإعانة على القتل محرّم، والله عز وجل قال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة:٢].

قال: (وَعَنْ مُعَاوِيَةِ، سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ ذَنبٍ عَسَى اللهُ أَنْ يَغْفِرَهُ، إِلَّا الرَّجُلُ يَمُوتُ كَافِرًا، أَوْ الرَّجُلُ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتعَمِّدًا» أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ.) ودلّت النصوص فيما يتعلّق بالكافر أنه يُخلَّد في النار أبد الآباد، وأن القاتل إن لم يغفر الله له، وأدخله النار وعذَّبه فيها فإنه لا يُخلَّد فيها؛ لأنه لا يُخلَّد في النار إلا المشرك كما تدل على ذلك النصوص الواضحة.

ثم دخل بعد ذلك المصنف رحمه الله فيما يتعلق بكبيرة السحر، ولعلنا نقف عند هـٰذا الحد، والله أعلم.

الدرس الخامس ****

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

الحمد الله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد؛ نواصل القراءة في كتاب الكبائر للإمام الذهبي رحمه الله حيث انتهينا إلى الكبيرة الثالثة.

الكبِيرَةُ الثَالِثَةُ
السِّحْرُ

لِأَنَّ السَّاحِرَ لابُدَّ وَأَنْ يَكْفُرَ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠٢]. وَمَا لِلْشَيْطَانِ الْمَلْعُونِ غَرَضٌ فِي تَعْلِيمِهِ الإِنسَانَ السِّحْرَ إِلاَّ لِيُشْرِكَ بِهِ.

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْ هَارُوت وَمَارُوت: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ الآيَات[البقرة:١٠٢]، فَتَرَى خَلْقًا (كَثِيرًا) مِن الضُّلَّالِ يَدْخُلُونَ فِي السَّحِرِ وَيَظُنُّونَ أَنَّهُ حَرَامٌ فَقَط، وَمَا يَشْعُرُونَ أَنَّهُ الْكُفر، فَيَدْخُلُونَ فِي تَعَلُّمِ السِّيمْيَاءِ[١] وَعَمَلِهَا، وَهِيَ مَحَضُ السِّحْرِ، وَفِي عُقَدِ الْمَرْءِ عَنْ زَوْجَتِهِ وَهُوَ سِحْرٌ، وَفِي مَحَبَّةِ الزَّوْجِ لامْرَأَتِهِ وَفِي بَغْضِهَا وَبَغْضِهِ، وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ، بِكَلِمَاتٍ مَجْهُولَةٍ أَكْثَرُهَا شِرْكٌ وَضَلالٌ.

وَحَدُّ السَّاحِرِ الْقَتْلُ، لِأَنَّهُ كُفْرٌ بِاللهِ أَوْ ضَارِعَ الْكُفْرَ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات...». فَذَكَرَ مِنْهَا السِّحْر. فَلْيَتَّقِ الْعَبْدُ رَبَّهُ وَلا يَدْخُل فِيمَا يَخْسَرُ بِهِ الدُّنيَا وَالآخِرَة.

ويُرْوَى عَن الْنَبِيُّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَهُ بِالسَّيْفِ». وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ مِنْ قَوْلِ جندب. وقَالَ بجالَةُ ابنُ عَبَدَة: "أَتَانَا كِتَابُ عُمَرَ ؓ قَبْلَ مَوْتِهِ بِسَنَةٍ؛ أَن اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَة".

وَعَن أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، أَنَّ الْنَبِيَّ ﷺ قَالَ: «ثَلاثَةٌ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّة: مُدْمِنُ خَمْرٍ، وَقَاطِعُ رَحِمٍ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ.

وَعَن ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ مَرْفُوعًا: «الرُّقَى وَالتَّمَائِمُ وَالتِّوَلَةُ شِرْكٌ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُد. التِّوَلَةُ: نَوْعٌ مِن السِّحرِ، وَهُوَ تَحْبِيبُ الْمَرْأَةِ إِلى الزَّوْجِ. والتَّمِيمَةُ: خَرَزَةٌ تَرُدُّ الْعَيْنَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ كَثِيرًا مِن الكَبَائِرِ؛ بَلْ عَامَتِهَا إِلاّ الأَقَل، يَجْهَلُ خَلْقٌ (كَثِيرٌ) مِن الأُمَّةِ تَحْرِيمَهُ؛ وَمَا بَلَغَهُ الزَّجْرُ فِيهِ وَلا الْوَعِيدَ، فَهَذَا الضَّرْبُ فِيهِم تَفْصِيل؛ فَيَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَلَّا يَسْتَعْجِلَ عَلى الْجَاهِلَ؛ بَلْ يَرْفَقُ بِهِ وَيُعَلِّمَهُ مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ، وَلاسِيَّمَا إِذَا كَانَ قَرِيبَ الْعَهْدِ بِجَاهِلِيَّةٍ، قَدْ نَشَأَ فِي بِلادِ الْكُفْرِ الْبَعِيدَةِ، وَأُسِرَ وَجُلِبَ إِلَى أَرْضِ الإِسْلامِ،

(١)السِّيمْيَاء: السِّحْر، وَحَاصِلُهُ إِحْدَاث مَثَالات خَيَالِيَّة لا وُجُود لها فِي الحِسِّ.

وَهُوَ تُرْكَيٌّ كافر أو كُرْجِيٌّ(١) مُشْرِكٌ لا يَعْرِفُ بِالعَرَبِيِّ، فَاشْتَرَاهُ أَمِيرٌ تُرْكَيٌّ لا عِلْمَ عِنْدَهُ ولا فِهْمَ، فَبِالجُهْدِ إِنْ تَلَفَّظَ بِالشَّهَادَتَيْنِ، فَإِنْ فُهِّمَ بِالْعَرَبِيِّ حَتَّى يَفْقَهَ مَعْنَى الشَّهَادَتَيْنِ بَعْدَ أَيَّامٍ وَلَيَالٍ؛ فَبِهَا وَنِعْمَتْ، ثُمَّ قَدْ يُصَلِّي وَقَدْ لا يُصَلِّي، وَقَدْ يُلَقَّنِ الْفَاتِحَةَ مَعَ الطولِ إِنْ كَانَ أُسْتَاذُهُ فِيهِ دِينٌ مَا، فَإِنْ كَانَ أُسْتَاذُهُ يَفْجُر،(٢) فَمِنْ أَيْنَ لِهٰذا الْمِسْكِينُ أَنْ يَعْرِفَ شَرَائِعَ الْإِسلامِ وَالْكَبَائِرَ وَاجْتِنَابِهَا، وَالْوَاجِبَاتِ وَإِتْيَانِهَا؟! فَإِنْ عُرِّفَ هٰذا مُوبِقَاتُ الْكَبَائِرِ وَحُذِّرَ مِنْهَا، وَأَرْكَانُ الْفَرَائِضِ وَاعْتَقَدَهَا، فَهُوَ سَعِيدٌ، وَذَلِكَ نَادِرٌ. فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَحْمَدَ اللهَ تَعَالَى عَلَى الْعَافِيَةِ.

فَإِنْ قِيلَ: هُوَ فَرَّطَ لِكَوْنِهِ مَا سَأَلَ عَمَّا يَجِبُ عَلَيْهِ، قِيلَ: هَـٰذَا مَا دَارَ فِي رَأْسِهِ، وَلاَ اسْتَشْعَرَ أَنّ سُؤالَ مَنْ يعلِّمه يجبُ عليه ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠)﴾ [النور:٤٠]، فَلا يَأْثَمُ أَحَدٌ إِلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ، وَبَعْدَ قِيامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، وَاللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ رَؤُوفٌ بِهِم. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]. وَقَدْ كانَ سَادَةُ الصَّحَابَةِ بِالْحَبَشَةِ، وَيُنَزَّلُ الْواجِبُ(٣) وَالتَّحْرِيمُ عَلى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلا يَبْلُغُهُمْ تَحْرِيمُهُ إِلاّ بَعْدَ أَشْهُرٍ، فَهُم فِي تِلْكَ الْأَشْهُرِ مَعْذُورُونَ بِالْجَهْلِ حَتَّى يَبْلُغَهُمُ النَّصُ، فَكَذَلِكَ يُعْذَرُ بِالْجَهْلِ كُلُّ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ حَتَّى يَسْمَعَ النَّصَ. وَاللهُ تَعَالَى (٤)أَعْلَمُ.

قال المصنف رحمه الله: (**الكبيرة الثالثة: السحر**)، ومرّ معنا أن ذكر رحمه الله الكبيرة الأولى الإشراك بالله، والكبيرة الثانية القتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والكبيرة الثالثة السحر، وعند مراعاة الترتيب في الأخطر فتقديم السحر أولى على القتل؛ على قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، لأن السحر كفرٌ كما قال المصنف رحمه الله لأن الساحر لابد أن يكفر، يعني لابد أن يكون كافرًا، لا يمكن أن يتعاطى السحر إلا بالكفر بالله عز وجل وقد جاء السحر مقدّمًا على قتل النفس في حديث «**اجتنبوا السبع الموبقات**»، قال: وما هن يا رسول الله، قال: «**الإشراك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق**»، فالأولى تقديم السحر؛ لأنه قُدم في حديث اجتناب السبع الموبقات، ولأن الساحر لا يكون ساحرًا إلا بالكفر بالله تعالى .

ثم أورد المصنف رحمه الله بعض الأدلة الدّالة على كفر السّاحر، وصدّر كلامه على هـٰذه الكبيرة بقوله:

---

(١) نِسْـبَةٌ إلى كُرْجٍ، وَهِيَ نَـاحِيَةٌ مِن ثُغُورِ أَذْرَبِيجَان مِن الرُّوم، وَالْكُرْج: هُم جِيلٌ مِن النَّاسِ نَصَـارىٰ. اللُّبَاب، لابن الأَثِير٣/ ٩١.

(٢) في نسخة مشهور: شيها به، وفي نسخة متسو: نُسْخَةٌ مِنْهُ.

(٣)في «أ»: "وَتُنَزَّلُ الْوَاجِبَات".

(٤) في «أ»: "إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالىٰ".

(لِأَنَّ السَّاحِرَ لابُدَّ وَأَنْ يَكْفُرَ)، يعني لا يمكن أن يكون ساحرا إلا بالكفر بالله جل وعلا ؛ بل إن قوة سحره بحسب قوة كفره، فكلّما ازداد كفرًا بالله جل وعلا ازداد تمكنًا في السحر، والسحر أمر لا يُتوصّل إليه، ولا سبيل إلي تحصيله إلا بالكفر بالله جل وعلا والتقرب للشياطين وعبادتهم وطاعتهم من دون الله عز وجل.

وذكر هنا المصنف ما جاء في سورة البقرة فيما يتعلق بالساحر وكفره بالله جل وعلا حيث أورد قول الله جل وعلا ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠٢]، وهـٰذا الجزء من آية في سورة البقرة مع الآية التي قبلها، يعني مع تمام هـٰذه الآية التي هـٰذا جزء منها، والآية التي قبلها والآية التي بعدها، فيها دلالات عديدة من وجوه كثيرة على كفر الساحر، واكتفى المصنف بالإشارة إلى بعض المواضع من هـٰذه الآية للدلالة على كفر الساحر، فأشار إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة:١٠٢]، فهـٰذه ثلاثة مواضع في الآية تدل على كفر الساحر.

وإذا تأملت السياق بتمامه تجد أن هـٰذه الآيات في هـٰذا السياق دلت على كفر الساحر من وجوه سبعة:

الوجه الأول: في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [البقرة:١٠١]، فهـٰذا هو الوجه الأول في الدلالة على كفر الساحر، وبيان أن السحر لا يكون إلا بنبذ القرآن؛ بل لا يكون إلا بامتهانه، ومما يتقرّب به الساحر للشيطان ليتمكن في السحر: امتهان القرآن، وإلقاؤه، ووضع الأذى والقاذورات عليه، أو إلقاؤه في الخلاء.. أو غير ذلك، ولهـٰذا كلما كان النبذ للقرآن أشد كان هـٰذا أعظم تقربًا ممن يطلب السحر إلي الشيطان، فهـٰذا الوجه الأول.

الوجه الثاني: في قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة:١٠٢]، المرحلة الأولى نبذ القرآن والثانية اتباع الشيطان، وأتباع الشيطان عبادة له من دون الله، وطاعة له من دون الله، وهـٰذا كفرٌ بالله عز وجل.

الوجه الثالث: في قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ [البقرة:١٠٢]، ونفي الكفر عن نبي الله سليمان في هـٰذا السياق الذي فيه ذم السحر وبيان بطلانه وفساده، وتبرئة نبي الله منه، بتبرئته من الكفر، دليلٌ على كفر الساحر.

الوجه الرابع: هو ما ذكره المصنف فيما ذكر من الأدلة، ما ذكره أولًا وهو قول الله عز وجل: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠٢]، ففي الآية التنصيص على كفر الساحر لأن الساحر

تلميذٌ للشياطين وخرِّيج لمدرستهم ومتتلمذ على يديهم في هـٰذا الذي هو كفر كما هو منصوص الآية: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠٢].

فالساحر كافر وتلميذٌ لهـٰذه المدرسة الكفرية -مدرسة الشياطين-، فهو تلميذ للشيطان، ومتخرج في مدرسته، فهـٰذا الوجه الرابع، ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾.

الوجه الخامس: ما أورده المصنف وهو قول الله تعالى : ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢]، وهـٰذا في قصة هاروت وماروت اللذين جعلهما الله عز وجل فتنة للناس في هـٰذا الباب، وفي الآية التنصيص على أن تعلم السحر كفرٌ، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، إي بتعلمه، فلا تكفر إي بتعلمه، بتعلم السحر، فهـٰذا الوجه الخامس في دلالة هـٰذا السياق على كفر الساحر.

الوجه السادس: ما أشار وأورده المصنف رحمه الله وهو قول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة:١٠٢]، أي ليس له أي حقٌّ ونصيب يوم القيامة، الخلاق هو النصيب، فلا خلاق له: أي لا نصيب له ولا حظ يوم القيامة، وهـٰذا النفي للحظ والنصيب والخلاق عن الساحر يوم القيامة، هـٰذا من الدلائل على كفره.

الوجه السابع والأخير: في الآية التي تلي هـٰذه الآية، وهي قول الله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٣]، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾، هـٰذا دليل على أنهم ليسوا بمؤمنين بل هم كفار، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ يعني ولو أنهم تركوا السحر وتركوا الكفر وآمنوا بالله واتقوا الله جل وعلا لمثوبة من عند الله خير.

هـٰذه وجوه سبعة في هـٰذا السياق المبارك دالة على كفر الساحر، والمصنف رحمه الله صدّر الكلام على هـٰذه الكبيرة لبيان كفر الساحر، وأشار إلى بعض وجوه دلالات هـٰذا السياق على كفر الساحر، حيث أشار إلى وجوه ثلاثة، والوجوه الدالة على كفر الساحر لهـٰذا السياق سبعة.

ثم بيّن وجه من الوجوه التي يدخل بها السحر على بعض الناس، فيمارسونه ويتعاطونه، فقال: (خَلْقًا (كَثِيرًا) مِن الضُّلَّالِ يَدْخُلُونَ فِي السِّحرِ وَيَظُنُّونَ أَنَّهُ حَرَامٌ فَقَط) يظنونه حرامًا فقط وليس كفرًا، وعلمهم بأنه حرام وحده كافي في عدم الدخول فيه؛ ولكن بعض الناس والعياذ بالله مخذولًا في هـٰذا الباب، تجد أن ميول نفسه تنازعه لغشيان الكبائر وفعلها والتمادي فيها، حتى إن بعضهم يغالط نفسه في هـٰذا الباب في تهوين الأمر وتقليله:

فينازع أولًا في هل هو كبيرة أو صغيرة.

ثم هل هو كبيرة مجمع على أنها كبيرة أو لا.

ثم أيضًا يغالط نفسه في هـٰذا الباب هل هو كبيرة كبيرة عظيمة جدًا وإلا كبيرة يعني دون ذلك، فيبدأ يهون الأمر على نفسه.

ثم يصل إلى مرحلة ويقول كبيرة وليست شركًا وليست كفرًا، وهـٰذا كله من اتباع خطوات الشيطان في غشيان الكبائر والوقوع فيها، ولهـٰذا يقع كثيرٌ من الناس في الكبائر مع علمهم بأنها كبائر بسبب هـٰذه المغالطات النفسية التي يدخلونها على نفوسهم طمعًا في تحقيق أهوائهم وميولاتهم إلى هـٰذه الأشياء، فهـٰذا وجه أشار إليه المصنف إن بعض الضلال يظن أنه حرام وليس شركًا وليس كفرًا بالله عز وجل فيغشى هـٰذا الأمر.

وكما قدمت يعني كونه يعلم انه حرام وأن الله عز وجل حرمه علينا هـٰذا وحده كافي في بعده عنه واجتنابه له.

قال: (وَمَا يَشْعُرُونَ أَنَّهُ الْكُفْر)، ربما يعني يكون الأمر كذلك في بعض هؤلاء الضلال ما شعر أنه كُفر وظن أنه حرام مجرد، وربما أن هـٰذه نوع من المخالطة النفسية التي أشرت إليها، يغالط نفسه في تهوين الأمر المحرم الذي يغشاه، فيقول في نفسه هـٰذا محرم أو ليس تحريمه بحرمة شديدة، أو ليس هو بالكفر، يعني وإن كان هو كفرا يقول: ليس هو بالكفر الذي هو الناقل من الملة، أو نحو ذلك من المغالطات النفسية التي بها يزج بنفسه في فعل هـٰذه الكبائر؛ بل هـٰذه الكفريات الناقلة من الملة.

قال: (وَمَا يَشْعُرُونَ أَنَّهُ الْكُفْر، فَيَدْخُلُونَ فِي تَعَلُّمِ السِّيمْيَاءِ وَعَمَلِهَا)، (السِّيمْيَاءِ) هـٰذه كلمة أعجمية ليست عربية، وهي تعاطي أشياء ويكون فيها شيء من الإيهام والتخيّلات ونحو ذلك، فربما السيمياء ونظائرها من الأمور هي خطوات تأتي في مقدمة تعاطي السحر والتمكن فيه والضّلوع فيه، فيدخلون في تعلم السّيمياء وعملها، وربما أيضًا مثل الأشياء التي تسمى الآن في زماننا: خفة اليد أو الحركات السحرية أو الألعاب البهلوانية التي يعتمد بعضها على سرعة الحركة، وكثير منها يعتمد على تعاطي السحر، مثل أن يقف أحدهم في الهواء غير ممسك بشيء، أو يكون جالسًا في الهواء، أو يرتفع عن الأرض إلى درجة متر أو مترين ويبقى مرتفعًا، هـٰذا سحر، وهـٰذا من الشياطين وهي التي تقلهم، حتى وإن أقسم في المقابلة معه وسؤاله أنه ليس بساحر وأنه لا يتعاطى السحر، فهـٰذا كثير في الدجاجلة للتغرير بالناس وإيقاعهم في

الباطل، فهـٰذا ولا شك أنه من السحر ورفعه هـٰذا إنما هو من معونة الشياطين له وتعاملهم معه لإتباعه لهم وطاعته لهم وعبادته لهم من دون الله ولتقربه لهم، ولهـٰذا يحصل منه مثل هـٰذه الأشياء، وكثير من عوام المسلمين جهّالهم في مثل هـٰذا الباب تنطلي عليهم أكاذيب هؤلاء بقولهم: هـٰذه خفة يد أو مثلًا سرعة حركة أو مهارة أو أشياء من هـٰذا القبيل وهو سحر، وهو سحر قطعًا وهو من عمل الشيطان ومن تعاون الشياطين معهم.

قال: (فَيَدْخُلُونَ فِي تَعَلُّمِ السِّيمْيَاءِ وَعَمَلِهَا، وَهِيَ مَحْضُ السِّحْرِ)، يعني هي أعمال سحرية، وأيضًا هـٰذا يفيدنا فائدة في أن السحر له مجالات متعددة، وأيضًا ثمة طرائق عديدة للدخول فيه، وكلها تصبّ في مصب واحد جاءت الإشارة إليه في الآية الكريمة: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة:١٠٢]، اتباع الشيطان والتقرب إليه من أنواع القربات، طاعته في ما يأمر هـٰذا هو المدخل.

وقد حدثني شخصٌ هداه الله عز وجل من هـٰذا الأمر، وقد أوشك أن يدخل فيه، فقال: أنني أتيت ساحرًا، فقلت له: أرى عندك كذا وأرى عندك كذا، وأرى أنك تستطيع على كذا، وهو جارٌ لي، يقول: فقلت له: أنا أريد أكون مثلك، أريد أن تدلني على طريقة، يقول: أعطاني مقدمات طويلة، وقال: أريد أن أعطيك أمورًا تفعلها بدقة ولا تترك شيئا منها، وغدًا في الصباح ستكون مثلي تمامًا وعندك كل هـٰذه الأشياء، ولكن تلتزم بكل ما أوجهك إليه، فالتزمتُ له بذلك، يقول: فقال لي تذهب إلى شاطئ النهر عند غروب الشمس -والشمس تغرب بين قرني شيطان اختار له هـٰذا الوقت- وقربها من الغروب وتقف عند شاطئ النهر مستقبلًا الشمس بينك وبينه، قال: وأعطاني أسماء -وذكر لي هـٰذا الشخص الأسماء أو الاسم الذي أعطاه إياه، وهو اسم من اسماء الشياطين- قال: تقف عند الغروب، إذا دنت من الغروب تبدأ تنادي بهـٰذا الاسم، قال: فإذا ناديت كم مرة بصوت سيأتيك من داخل النهر حيوان مفزع ووصف له هيأته، وذكر لي هو هيئته، قال: فيشق النهر ويأتي إليك ويناديك باسمك وسيطلب منك أشياء، فكل ما يطلب منك استجب ولا تتردد، افعل كذا قل: أفعل. لا تفعل كذا، قل: لا أفعل فتستجيب له، يقول: فذهبت إلى حيث وجهني ووقفت في الوقت نفسه، ولما دنت الشمس من الغروب بدأت أنادي، يقول: بالفعل جاء حيوان من وسط البحر مقبلًا عليّ حتى قرب مني وهيئته مفزعة ناداني باسمي، قال: فلان. قلت: نعم، يقول: من توفيق الله لي أن أول طلب طلبه مني أن أقوم به أمرٌ نشأت نشأة قوية على المحافظة عليه، يقول: هـٰذا من نعمة الله عليّ ويحمد الله كثيرًا ويخبرني يقولك من نعمة الله علي أن أول أمر طلبه مني، أمر نشأت على من صغري على نشأ

قوية على المحافظة عليه، فأول ما بداني قال: تترك الصلاة، أول ما بدأ معي قال: تترك الصلاة، يقول: فرأسًا بدون تردد ولا امتنعت، قلت: الصلاة لا، الصلاة ما أتركها، يقول: فصاح بصوت وذهب وساخ في البحر ولم أراه.

يقول: بعد أيام لقيت من، لقيت جاري هـٰذا، فيقول: لما لقيته فإذا به مشتد غضبًا عليّ، وقال: آذيتني وغررت بي، يعني بمعنى انه أرسل له شخصًا غير مطاوعًا، والاتفاق معه ألَّا يرسل لهم إلا من هو مطاوع، فآذوه وتعرضوا له بالأذى؛ لأنه يعني أرسل لهم من ليس بمطاوع.

الشاهد من هـٰذا هو أن السحر لا يكون إلا بهـٰذه الطريقة، وإن قرأت تفسير ابن كثير أيضًا ذكر قصة طويلة فيها مثل هـٰذا الأمر، فيها التقرب للشيطان بنبذ القرآن، التقرب للشيطان بترك الصلاة، التقرب للشيطان بطاعته في الفجور والفواحش، التقرب للشيطان بالذبح لغير الله تعالى ، التقرب للشيطان بفعل العبادات المحرمة والأذكار المحرمة، وهجر القرآن والأذكار المشروعة، فهـٰذه كلها منافذ ومداخل تكون أو يكون بها الوقوع في السِّحر وتعاطيه.

ثم أشار المصنف رحمه الله إلى الآثار أو النتائج التي تقع من السحر والتأكيد على أن السحر منه ما هو حقيقة، يعني ليس السحر كله خيال:

منه ما هو خيال، يعني أشياء تخيلات للأبصار يضعوا سحرًا فيجعل الأبصار تتخيل مثل ما قال الله عز وجل: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه:٦٦]، فهي لا تتحول وإنما يكون خيالًا.

ومن السحر ما هو حقيقة، فيُمرض، ويقتل، ويفرق بين الزوجين.. ونحو ذلك.

فأراد المصنف أن ينبه على أن السحر له حقيقة، قال: (وَفِي عُقَدِ الْمَرْءِ عَنْ زَوْجَتِهِ وَهُوَ سِحْرٌ، وَفِي مَحَبَّةِ الزَّوْجِ لامْرَأَتِهِ وَفِي بَغْضِهَا وَبَغْضِهِ، وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ)، وهـٰذه كلها حقائق تنشأ عن السحر وتترتب عليه، وهو يسمى عند أهل العلم بسحر العطف والصرف، العطف قوله: (مَحَبَّةِ الزَّوْجِ لامْرَأَتِهِ)، هـٰذا سحر عطف، يعني عطف أحد الزوجين على الآخر، والصرف صرف أحدهما عن الآخر، (وَفِي بَغْضِهَا وَبَغْضِهِ) يعني إنشاء البغض بين الزوجين، فهـٰذه كلها من الأمور التي تترتب على السحر، ومنها الإضرار بالبدن ويعني حصول بعض الأمراض الشديدة والمزمنة والموت إلى غير ذلك من الأمور التي تترتب على السحر وتنشأ عنه.

قال: (وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ)، يعني هـٰذه مجرد أمثلة، (بِكَلِمَاتٍ مَجْهُولَةٍ أَكْثَرُهَا شَرْكٌ وَضَلالٌ)، قوله: (بِكَلِمَاتٍ مَجْهُولَةٍ) أي يقوم بها الساحر، بمعنى أن الساحر عند بدئه بالسحر يتمتم بكلمات مجهولة، طلاسم وكلمات

غير مفهومة، وأحيانًا يأتي معها بآيات من القرآن امتهانًا للقرآن وخلطًا له بهـٰذا الباطل وتقربًا للشياطين بذكر كلمات الله مع الشرك والباطل، ولهـٰذا قد يكتب الساحر ورقة فيها آية الكرسي، ويضع مع آية الكرسي أسماء شياطين أو يضع طلاسم أو يضع صلبان أو يضع شيئًا من القاذورات القليلة التي قد لا تُرى بالعين، يضعها مع آية الكرسي ويعطيها هـٰذا الشخص ويقول: علقها أو ضعها في مكان كذا، ويكون الساحر قد تقرب للشيطان بامتهان القرآن فيقع السحر، فهي كلمات مجهولة، غالبًا، هـٰذا نبه عليه عدد من أهل العلم، غالبًا السحر لا يُعمل إلا في الليل في الظلام، ولا يحب الساحر أن يعمل إلا في الظلام، وفي الظلام وفي الخفاء يقوم بممارسات أشياء لا يراها من عنده، وإذا كان عمل السحر في النهار فإنه يعمله في غرفة غير مضيئة، في غرفةٍ غير مضيئة، في الخفاء، وزيادة في الظلمة يأتي بأدخنة وأبخرة ويعجُّ المكان بالدخان والبخور وفي الظلام، في وسط الدخان وفي هـٰذه العتمة يعمل أعماله السحرية، ويقوم بتقرباته للشياطين، ويقوم بامتهانٍ للقرآن، ويقوم بوضع الأذى عليه، بأمور ربما لو رآها بعض من أتاه ممن عنده شيء من الإيمان لنفر وفر، ولكن غالبًا السحر لا يكون إلا في الليلة الظلماء أو في النهار في غرفة مظلمة، ومع أدخنة وجو معتم وفيه يتم تعاطي السحر.

قال:(**أَكْثَرُهَا شَرْكٌ وَضَلالٌ**) يعني الكلمات التي يقولها الساحر، وقوله: (**أَكْثَرُهَا شَرْكٌ وَضَلالٌ**)؛ لأن بعض ما يقوله الساحر أو ما يأتي به الساحر آيات، لكن لا يأتي بها ولا يقرأ مقاطع من الآيات على وجه التعبد لله والتقرب إليه بتلاوة كلامه وطلب الشفاء منه، لا، يأتي بالآيات بنية امتهانها ومزجها بالباطل، ويكتب الآيات بيده على الأوراق ليس تقرّبًا إلى الله بذلك، وإنما لإرادة امتهان القرآن تقرّبًا بذلك للشيطان.

قوله:(**وَحَدُّ السَّاحِرِ الْقَتْلُ**) أي: ضربة بالسيف، كما سيأتي فيما يروى مرفوعًا إلى النبي ﷺ:«**حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَهُ بِالسَّيْفِ**» أو«**ضربةٌ بالسيف**» فهـٰذا حده سيأتي معنا بعض الآثار عن الصحابة في قتل الساحر، وأنه يقتل بمجرّد أن يقبض عليه متلبّسًا بالسحر متعاطيًا له، يقتل مباشرة بدون استتابة، لا يُعرَض عليه أن يتوب فإن تاب لم يقتل وإن لم يتب قتل، إنما يقتل مباشرة دون استتابة، وهـٰذا معنى قول أهل العلم: الساحر يقتل ولا يستتاب، وهو معنى قولهم: الساحر لا توبة له، وليس معنى: الساحر لا توبة له، أي: أنه لو تاب بينه وبين الله توبة صادقة لا يقبل الله توبته، ليس هـٰذا المراد؛ فاللهعز وجل يقبل توبة من تاب مهما كان ذنبه ومهما بلغ جرمه؛ لكن قولهم: (لا توبة له) أي بينه وبين النَّاس، لا يقبلون منه توبة، فإذا قُبض وقال: إني تائب أو تبت إلى الله، فيضرب بالسيف، ويفصل رأسه عن بدنه وإن كان صادقًا في التوبة، يتوب الله عليه؛ لكن لا

تقبل له توبة، أي: عند النَّاس، إذا ضبط يعمل هـٰذا العمل لا تقبل له توبة قال.

قال:(**وَحَدُّ السَّاحِرِ الْقَتْلُ، لِأَنَّهُ كُفْرٌ بِاللهَ أَوْ ضَارَعَ الْكُفْرَ**)، قوله:(**أَوْ ضَارَعَ الْكُفْرَ**) هـٰذه لا يحتاج إليها لأن الأمر واضح، والأدلة التي ذكرها هو رحمه الله صريحة وواضحة الدلالة على كفر الساحر، وأن الساحر لا يتعلم السحر إلا بالكفر واتباع الشياطين، فالساحر يقتل لأنه كفر بالله تعالى، وهو بسحره مرتد عن الإسلام وخارج عن الملة مبدِّل لدينه، قد كفر باللهجل وعلا وعبد الشياطين وأطاعهم من دون الله جل وعلا.

قال: (**قَالَ النَبِيُّ ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات...». فَذَكَرَ مِنْهَا السِّحْر.**) والسحر ذكره مباشرة يلي الشرك باللهجل وعلا وهو من الشرك بالله، وهو من الكفر باللهعز وجل، ولا إشكال في عطف السحر على الشرك مع أنه شرك وكفر؛ لأنه قد يعطف على الشيء بعض أفراده تأكيدًا عليه، قد يعطف الخاص على العام، وقد يعطف على الشيء بعض أفراده، فالسحر هو من الكفر ومن الشرك بالله جل وعلا.

قال: (**فَلْيَتَّقِ الْعَبْدُ رَبَّهُ وَلا يَدْخُل فِيمَا يَخْسَرُ بِهِ الدُّنيَا وَالآخِرَة**)، قوله: (**وَلا يَدْخُل فِيمَا يَخْسَرُ بِهِ الدُّنيَا وَالآخِرَة**) هـٰذا فيه أن الإنسان بالسحر يبيع دينه، وبذهابه للساحر يكون بائعًا لدينه، فيخسر الدنيا والآخرة، وهـٰذه الحقيقة، الساحر من أذل الناس وأحقرهم في الدنيا وأقذرهم؛ فهو دائمًا عمله موحش؛ في الظلمة في القاذورات ومع القاذورات، في قذارة في شخصه، في هيئته، في مكانه، في بقعته، وهـٰذه خسارة له في الدنيا، وأما في الآخرة فكما قال الله تعالى: ﴿**مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ**﴾ [البقرة:١٠٢] أي: ماله من حظ، فالساحر خسر الدنيا والآخرة، لم يحصِّل لا في الدنيا وولم يحصل الآخرة، فهو باع دينه بالسِّحر، وكذلك من يأتيه فهو باع دينه بالسحر، فالسَّاحر بائع لدينه.

ويوجد رسالة صغيرة الحجم كبيرة الفائدة بعنوان (بائع دينه) ومطبوعة ومتداوله لفضيلة الشيخ عبد المحسن القاسم إمام المسجد النبوي، حقيقة رسالة قيِّمة جدًا بهـٰذا العنوان: (بائع دينه) وعنوانها مثل ما عندنا هنا في قول الإمام الذهبي: (**وَلا يَدْخُل فِيمَا يَخْسَرُ بِهِ الدُّنيَا وَالآخِرَة**)؛ لأنه إذا تعاطى السحر أو أتى الساحر فإنه يكون بذلك قد باع دينه.

وهنا أيضا بهـٰذه المناسبة أنبه إلى أن إتيان الساحر حتى وإن كان لقصد حلِّ سحرٍ فإنه يحرم، ولا يحل؛ وقد سئل النبيﷺ عن النُّشرة وهي حل السحر عن المسحور فقال: «**إنه من عمل الشيطان**»، وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنها عمل من عمل الشيطان أي: حلُّها بسحر آخر، وبالذهاب إلى السحرة، فهـٰذا من عمل

الشيطان، أما حلُّ السحر بالقرآن والرقى المشروعة فهـٰذا أمر يندب ويشرع؛ فقد رقى جبريل النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ لما سُحِر قال: «**باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، ومن شر كل شيطان وحاسد الله يشفيك. باسم الله أرقيك**» فيرقي بهـٰذا وبالقرآن وبالمعوذتين وبالأذكار المشروعة. كل ذلك يُفعل وهو مما يشرع. أما أن يؤتى الساحر لحل السحر فهـٰذا لا يَحِل، ولا يَحُلُّ السحر إلا ساحر، هـٰذا معنى قول السلف: (لا يَحُل السحر إلا ساحر) فلا يجوز أن يؤتى. أما حَلُّه بالقرآن والدعوات المأثورة والالتجاء إلى اللهتعالى فهـٰذا لا بأس به، وأما إتيان الساحر فلا يَحِل.

ومن ذهب لِحَلِّ السحر عن نفسه أو غيره، فإنه مثل من أراد أن يداوي زكامًا فسبب جذامًا، أراد أن يتخلص من مرض في بدنه أو في عضو من جسده فهدم دينه؛ لأنه بذهابه للساحر يهدم دينه فيكون أراد ليطبب شيئًا يسيرا أو مرضا يسيرًا يزول بإذن اللهعز وجل أو يصبر على المرض محتسبًا راجيًا ثواب الله تعالى له فيكون كفارة له، فلا يقنع بذلك ويذهب إلى الساحر ويبيع دينه عنده لعلاج أو للتخلص من هـٰذا المرض أو هـٰذه العلة التي أصابته. فعلى كل حال إتيان الساحر لا يحل، حتى وإن قصد بذلك حَلَّ السحر عن المسحور.

والقول بأنه يجوز (إتيان الساحر لحل السحر) هـٰذا إضافة لما فيه من شر وبلاء هو في الحقيقة فيه إقرار لوجود السحرة وإقرار للذهاب إليهم، بينما الواجب الشرعي والمطلوب من المسلم إذا علم بالساحر وبوجوده أن يبلغ عنه وان يوصل أمره إلى ولاة الأمر، لتخليص المسلمين من شره، لا أن يقال: إذهب إليه، ولا يحث الناس بالذهاب إليه بعلة حَلِّ السحر.

ثم أورد ما يدل على هـٰذا الحكم الذي ذكره، وهو أن حد الساحر القتل، فأورد هـٰذا الحديث، وقال: (**وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ مِنْ قَوْلِ جندب**) وقد صح عن جندب قتل الساحر، وأيضًا عن عمر كما أشار إلى هـٰذا المصنف (**أَتَانَا كِتَابُ عُمَرَ ۞ قَبْلَ مَوْتِهِ بِسَنَةٍ؛ أَن اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَة**) وكذلك صح عن حفصةرَضِيَ اللهُ عَنْها أنها أمرت بقتل ساحرة سحرتها. وجميع هـٰذه الآثار أوردها الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهابرحمه الله في كتابه التوحيد، باب ماجاء في السحر.

«**ثَلاثَةٌ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّة**» وذكرهم: «**مُدْمِنُ خَمْرٍ، وَقَاطِعُ رَحِمٍ**» وهاتان كبيرتان من الكبائر: إدمان الخمر وقطيعة الرحم، هـٰذه من الكبائر العظيمة ومن أكبر الكبائر، «**وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ**» هـٰذه هي كفر بالله جل وعلا «**من أتى كاهنًا أو عرافًا فصدّقه فيما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد**»، كيف يصدق بالسحر واللهعز

وجل في مواضع من كتابه على ما مرَّ معنا بيَّن كفر الساحر بآيات تتلى واضحات فكيف يصدق، فتصديق السحر كفر، وأما مدمن الخمر وقاطع الرحم فهـٰذه من الكبائر، وأما تصديق السحر فهو كفر باللهعز وجل.

ثم ذكر المصنف رحمه الله هـٰذا الحديث («الرُّقَى وَالتَّمَائِمُ وَالتِّوَلَةُ شِرْكٌ». رَوَاهُ أَحْمَدُ)، هـٰذه الأشياء التي ذُكرت في الحديث: الرقى، والتمائم، والتولة، غالبًا هـٰذه الأشياء توجد عند الساحر وهي من الأمور التي يمارسها، الساحر يمارس الرقية، وعنده هـٰذه الأشياء التولة والتمائم.

التمائم حجب وأشياء مثلًا رِقاع يكتب فيها وتغلّف وتوضع في علب أو في أشياء؛ أغلفة من الجلد أو نحوه، وتعطى لمن أتى إلى الساحر ليعلقها في بيته أو على رقبته أو في عضده أو نحو ذلك، فهـٰذه الأشياء يمارسها.

أيضًا الرقية، الساحر يرقي وهو يقرأ وهو ينفث، ينفث على من أتاه، وينفث أيضًا على الشيء الذي يعطيه للشخص من ورق أو من كتابات.

فالرقية عنده، والتمائم أيضًا عنده، والتولة والخرز والودع والصدف، كل هـٰذه الأشياء، أشياء توجد عند الساحر، ويمارس بها سحره، إضافة إلى العقد أو أيضًا ما يطلبه ممن أتاه، بأن يأتي له بأجزاء من شعر من أراد سحره، أو مثلًا بعض ملابسه أو نحو ذلك فهـٰذه كلها أشياء توجد عند الساحر، وعندما يضبط السحرة يذكر في الموجودات التي تضبط في حوزتهم مثل هـٰذه الأشياء، وهو دائمًا يوقف على مثل هـٰذه الأمور عند السحرة.

فالساحر عنده رقية؛ لكن رقيته طلاسم مثل ما مر، وتمتمة وكلمات سحرية، وقد يمزجها بقرآن أو آيات أو أحاديث أو أشياء من هـٰذا القبيل.

وأيضًا التمائم قد يكتب آيات قد يكتب آية الكرسي كاملة، أو سورة الاخلاص كاملة؛ لكن فوقها وتحتها وفي وسطها أسماء للشياطين وحروف وصلبان وكل ذلك قصد به التقرب للشيطان بامتهان القرآن الكريم.

وأيضًا التولة، فالنبي ﷺ قال: إن هـٰذا شرك، الرقى والمراد بالرقى أي الرقى المعهوده عند المشركين.

قال: (التِّوَلَةُ: نَوْعٌ مِن السِّحْرِ) قالوا في تعريف التولة: إنه شيء يزعمون أنه يحبب المرأة لزوجها، ويحبب الزوجين كل منهما إلى الآخر، والتميمة خرزة يزعمون أنها ترد العين، والتميمة هي ما يعلق سواء كانت خرزة ترد العين، أو أيضًا مثل ما ضرب الرقاع التي يكتب فيها، أو التعاليق التي ينفث فيها الساحر ويطلب ممن أتاه أن يعلقها.

ثم دخل المصنف هنا في مسألة الجهال والعوام ودخول السحر عليهم وذهابهم للسحرة بسبب الجهل وعدم العلم، وقد يكون هـٰذا في بعض العوام قد يكون فعلًا ما دار في رأسه ولا وقع في خلده أو لم يُخبر، مثل الأمثلة التي ذكرها وهي توضح الأمر عندما قال: شخص أسر وجلب إلى بلاد الإسلام ولسانه أعجمي ولا يعرف اللغة، وبالكاد فترة طويلة حتى يحفظ الفاتحة وحتى يعلم الصلاة، فهـٰذه المراحل التي تاخذ وقت طويل، وأشار المصنف أيضًا مثل هـٰذا متى أيضًا يقيض له أستـاذ صبور يصبر عليه حتى يعلمه، وإلا إذا كان أستـاذا فاجرا أو أستاذا لا يصبر على تعليم هؤلاء من أين له أن يتعلم هـٰذا أمر معروف، وربما يدركه كثير ممن يرون من يسلم في بلاد الغرب، فتجد الأمر فيه معاناة، وفيه طول، وبعضهم مثل ما قال الإمام الذهبي رحمه الله هنا: بعضهم قد يفتح الله عليه فيعرف الموبقات، ويعرف الكبائر، ويعرف أركان الاسلام، ويعرف فرائض الدين، فيكون سعيدا، وقد تحصل لبعض هؤلاء في فترة سريعة، نحن رأينا حتى بعضهم يعني ممن جاء ودرس هنا في المدينة، بعضهم نسأله يقول: لي في الاسلام ثلاث سنوات؛ لكن اذا رأيت معلوماته وعلمه بالنصوص وعلمه بالأدلة تجده أحيانًا أفضل من كثير ممن نشأوا في الاسلام، فهـٰذه منة الله عليه، ويقول الذهبي: هـٰذا نادر؛ لكن الغالب الأعم أن مراحل معرفته بالدين وعلمه به تأتي في زمن طويل، لكي يحفظ الفاتحة يحتاج شهور حتى يتمكن من قراءتها، وإذا أراد أن يعلّم فرائض الإسلام يحتاج الى وقت، فأمثال هؤلاء في مثل هـٰذه المرحلة التي هي مرحلة انتقالهم من الكفر إلى الاسلام وتعلمهم أعمال الإسلام بخطوات يعذر.

حتى المسألة التي أشار إليها قال: (فَإِنْ قِيلَ: هُوَ فَرَّطَ لِكَوْنِهِ مَا سَأَلَ عَمَّا يَجِبُ عَلَيْهِ) هـٰذه مراحل الآن هو يخطوها في تعلم الإسلام وما دار في خلده أن هـٰذا الأمر مثلًا محرم، وأنه يحتاج لهـٰذا الحكم ما دار في خلده مثل هـٰذا الأمر.

فالشاهد أن المسألة فيها تفصيل؛ لكن شخص نشأ في ديار الاسلام في وسط العلماء، وفي معقل الايمان، والعلم شائع، والخير منتشر، وحجة الله قائمة، فمثل هـٰذا ما يعذر، فالمسألة يفرق بين المثال الذي ذكره رحمه الله وبين من نشأ في الاسلام وديار المسلمين وبين العلماء، والكتب منتشرة، والعلم مشتهر، ووسائله تعددت، فالحجة عليه قائمة بذلك.

الكبيرَةُ الرَّابِعة
تَركُ الصَّلاةِ

قَالَ اللهُ تَعَالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَن تَابَ..﴾ الآية [مريم:٥٩-٦٠].

وَقَالَ تَعَالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥)﴾ [الماعون:٤-٥].

وَقَالَ تَعَالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣)﴾ [المدثر:٤٢-٤٣].

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُم الصَّلاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَر»، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «مَنْ فَاتَتْهُ صَلاةُ الْعَصْرِ حَبِطَ عَمَلُه»، وَقَالَ: «بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ تَرْكُ الصَّلاة»، وَعَنْهُ صَلَّى اللهُ تَعَالى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ تَرَكَ الصَّلاةَ مُتَعَمِّدًا فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ الله». قَالَهُ مَكْحُول عَنْ أَبِي ذَرٍّ وَلَمْ يُدْرِكْهُ.

وَقَالَ عُمَر ؓ: "أَمَا إِنَّهُ لا حَظَّ لِأَحَدٍ فِي الْإِسْلَامِ أَضَاعَ الصَّلَاةَ".

وَقَالَ أَيُّوبُ السِّخْتِيانِي مِثْلُ ذَلِكَ، وَرَوَى الْجُرِيرِي عَنْ عَبْدُ اللهِ بْنِ شَقِيق، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالى عَنْهُ، قال: "كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ لا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الْأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصَّلاة. أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ، وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ دُونَ ذِكْرِ أَبِي هُرَيْرَة. وَقَالَ ابْنُ حَزْمٍ: "لا ذَنْبَ بَعْدَ الشِّرْكِ أَعْظَمُ مِنْ تَرْكِ الصَّلاةِ حَتَّى يَخْرُجَ وَقْتَهَا، وَقَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيرِ حَقٍ".

وَرَوَى هَمَّامُ، نَبَّأَنَا قِتَادَةُ، عَن الْحَسَن، عَنْ حريب بْنِ قبيصة قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلاتُهُ، فَإِنْ صَلحتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجح، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ». حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ. وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُم وَأَمْوَالَهُم إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلام، وَحِسَابُهُم عَلَى الله». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ أَبِي سَعِيد؛ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولُ الله! اتَّقِ اللهَ!. فَقَالَ: «وَيْلَكَ أَلَسْتُ أَحَقّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ أَتَّقِي اللهَ؟!» فَقَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيد رَضِيَ اللهُ تَعَالى عَنْهُ: أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ يَا رَسُولُ الله! فَقَالَ: «لا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدُ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ تَعَالى عَنْهُمَا، عَن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَى الصَّلاةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلا بُرْهَانٌ وَلا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنَ خَلَف». لَيْسَ إِسْنَادُهُ بِذَلِك.

وَهٰذِهِ النُّصُوص تُشْعِرُ بِكُفْرِ تَارِكِ الصَّلاةِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِمُعَاذ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ

مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا حَرَّمَهُ عَلَى النَّارِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

فَمُؤَخِّرُ الصَّلاةِ عَنْ وَقْتِهَا صَاحِبُ كَبِيرَة، وَتَارِكُهَا بِالْكُلِّيَّةِ أَعْنِي الصَّلاةَ الْوَاحِدَةَ- كَمَنْ زَنَى وَسَرَقَ؛ لِأَنَّ تَرْكَ كُلِّ صَلاةٍ أَوْ تَفْوِيتَهَا كَبِيرَة، فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ مَرَّاتٍ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ، فَإِنْ لَازَمَ تَرْكَ الصَّلاةِ فَهُوَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ الْأَشْقِياءِ الْمُجْرِمِينَ.

ثم قال المصنف رحمه الله: (الكبيرة الرابعة ترك الصلاة)، والصلاة عماد الدين، وهي أعظم أركانه بعد الشهادتين، وهي أحد مباني الإسلام العظام، وترك الصلاة كبيرة من كبائر الذنوب، وموبقة من الموبقات؛ بل إن تركها كفر بالله عزوجل، على ما سيأتي ذكر الدلائل على ذلك عند المصنف رحمه الله.

والمصنف هنا أخذ يسوق الادلة الكثيرة من القرآن على خطورة ترك الصلاة، والتهاون بها، والتكاسل عن فعلها، وأن هـٰذا من الذنوب الكبيرة والأثام العظيمة.

ومن يترك الصلاة هو على حالتين:

إما أن يتركها جاحدًا لوجوبها وجاحدًا لفرضيتها، وأنها فريضة من فرائض الاسلام فهذا كافر باتفاق أهل العلم من ترك الصلاة جاحدًا لها فهـٰذا كافر باتفاق أهل العلم.

والحالة الثانية أن يترك الصلاة ليس جاحدًا؛ بل هو على علم على أنها فريضة وواجبة والله عزوجل يعاقبه على تركها ولكنه يتركها تهاونا يتعمد تركها تهاونًا واتباعًا لأهوائه، فهذا فيه خلاف في كونه كافر، والصحيح من أقوال أهل العلم أنه كافر للأدلة الواضحة الصريحة في ذلك، وقد ساق المصنف جملة منها تأتي معنا.

قال المصنف: (قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَن تَابَ ..﴾ الآية [مريم:٥٩-٦٠].) هـٰذه الآية فيها أن تارك الصلاة يلقى يوم القيامة غي، وقيل: إنه واد في جهنم.

قال المصنف رحمه الله: (وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥)﴾ [الماعون:٤-٥].) وهـٰذا أيضًا فيه التهديد تارك الصلاة والساهي عنها بأن له ويل، وقيل: هو العذاب الشديد وقيل هو واد في نار جهنم.

قال: (وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣)﴾ [المدثر:٤٢-٤٣].) وهـٰذا فيه أن أهل النار عندما يسألون ما الذي أدخلكم النار؟ ما الذي سلككم فيها وأوصلكم إليها؟ فيكون في أول إجاباتهم ترك الصلاة ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾.

قال المصنف: (وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُم الصَّلاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَر») وهـٰذا فيه أن الصلاة عهد على المؤمن يجب أن يوفي به ويحافظ عليه، وأن يلتزم به وألا يتركه، وفي الحديث التوثيق على أن تارك الصلاة كافر.

قال المصنف: (وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «مَنْ فَاتَتْهُ صَلاةُ الْعَصْرِ حَبِطَ عَمَلُه») وهـٰذا أيضا واضح، في أنَّ ترك الصلاةِ مُحبطٌ للأعمالِ؛ «من فاتته صلاة العصر حَبِط عمله».

قال : (وَقَالَ: «بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ تَرْكُ الصَّلاة») وفي بعض ألفاظ الحديث «بين العبد وبين الشرك والكفر تَركُ الصلاة» وهذا صريح في كفر الساحر، والشرك والكفر – مُعَرّفا لا يأتي إلا مُرادا بِه الشرك الأكبر والكفر الأكبر الناقل من المِلّة. فهـٰذا من أصرح ما يكون في أنَّ تارك الصلاة كافرٌ بالله. والحُكم هنا متعلق بالترك ليس بالجحود؛ قال: «بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة»، لم يقل جَحْدُها؛ جَحدُها هـٰذا كُفر آخر؛ لكن هنا الحُكم مُتعلق بتركِ الصلاة. والجحد، جحد أي شيء من أمور الدين المعلومة من الدين بالضرورة، حتى وإن لم يكن تَرْكُها كفرًا يكون بذلك كافر بالجحد. أما هنا الحُكم مُعَلّق بالتركِ نفسِه.

قال: (وَعَنْهُ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ تَرَكَ الصَّلاةَ مُتَعَمِّدًا فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ الله». قَالَهُ مَكْحُول عَنْ أَبِي ذَرٍّ وَلَمْ يُدْرِكْهُ.) وهـٰذا الحديث أيضا من الأدلة على كفر تارك الصلاة. قال «من ترك الصلاة متعمدا فقد بَرِئت منه ذمة الله»؛ ذمة الله؛ أي أمانه وعهده للمُحافظِ على دينه بالحفظ والعون، وهذا من الأدلة على كُفر تارك الصلاة، لأنه لو كان باقيا على إسلامه لكان له ذِمة الإسلام، فحفظُ الله وكلاءته ورعايته بما عنده من الإسلام، لكن برئت منه ذمة الله؛ أي ليس له هـٰذه الذمة التي مِنَ الله عز وجل تفضّلا وتكرّما على عباده المسلمين.

قال المصنف: (وَقَالَ عُمَر ؓ: "أَمَا إِنَّهُ لا حَظَّ لِأَحَدٍ فِي الْإِسْلَامِ أَضَاعَ الصَّلاةَ".) وهذا فيه أيضا دلالة على كفر تارك الصلاة، وأنه لا حَظَّ له في الإسلام.

ثم قال: (وَقَالَ عُمَر ؓ: "أَمَا إِنَّهُ لا حَظَّ لِأَحَدٍ فِي الْإِسْلَامِ أَضَاعَ الصَّلاةَ".
وَقَالَ أَيُّوبُ السِّخْتِيانِي مِثْلُ ذَلِكَ، وَرَوَى الْجرِيرِي عَنْ عَبْدُ اللهِ بْنِ شَقِيق، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، قال: "كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لا يَرَوْنَ شَيْئًا مِن الْأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصَّلاة. أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ، وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ دُونَ ذِكْرِ أَبِي هُرَيْرَة.)

وهذه بعض الآثار عن السلف في كفر تارك الصلاة، وأنَّ هذا الحُكم شائع بين الصحابة ومشهور بينهم؛

كانوا لا يرون شيء من الأعمال تَركُه كفرا غير الصلاة.

ثم قال: (وَقَالَ ابْنُ حَزْمٍ: "لا ذَنْبَ بَعْدَ الشِّرْكِ أَعْظَمُ مِنْ تَرْكِ الصَّلاةِ حَتَّى يَخْرُجَ وَقْتُهَا، وَقَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍ".) كلام ابن حزم هذا ممكن أيضا نأخذ منه فائدة في مسألة الترتيب، وإنْ كان الذهبي لم يلتزم فيما يظهر بقضية ترتيب الكبائر. ترك الصلاة مُقدّم على قتل النفس.

قال المصنف: (وَرَوَى هَمَّامٌ، نَبَّأَنَا قَتَادَةُ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ حريب بْنِ قبيصة قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلاتُهُ، فَإِنْ صَلحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ». حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ.) وهـٰذا يبين لنا مكانة الصلاة في الدين، ومنزلتها، وأنها أوّل الأعمال التي يحاسب عليها يوم القيامة. وأيضا فيه فائدة أنّ صلاح الصلاة صلاح للعمل وفسادها فساد للعمل، «فَإِنْ صَلحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ». فهـٰذا فيه مكانة الصلاة من الدين، وأنها أول ما يُحاسَب عليه العبد يوم القيامة.

وقوله: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أي من حقوق الله، وما افترضه على عباده. أما فيما يتعلق بحقوق العباد فقد مرَّ معنا حديث «أول ما يُقضى بين الخلائق يوم القيامة الدماء».

فهناك في ما يتعلق بحقوق العباد وهنا في ما يتعلق بحقوق الله عز وجل.

قال: (وَعَنْ أَبِي سَعِيد؛ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولُ الله! اتَّقِ اللهَ!. فَقَالَ: «وَيْلَكَ أَلَسْتُ أَحَقّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ أَتَّقِي اللهَ؟! » فَقَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيد رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ يَا رَسُولُ الله! فَقَالَ: «لا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.)، قال: «لا، لعله أن يكون يصلي» هذا هو الشاهد من الحديث، وفيه توضيح لما سبق في الحديث الأول: «فقد برئت منه ذمة الله» -من لا يصلي- أما الذي يصلي فهو في ذمة الله، «من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله، فلا [يطلبنكم] الله من ذمته بشيء» فالذي يصلي فهو في ذمة الله، والذي لا يصلي برئت منه ذمة الله؛ ولهذا قال هنا النبي ﷺ «لا، لعله أن يكون يصلي» فالذي يصلي هو في ذمة الله.

قال: (وَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدُ الله بْنِ عَمْرٍو-رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا-، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَى الصَّلاةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلا بُرْهَانٌ وَلا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنَ خَلَف». لَيْسَ إِسْنَادَهُ بِذَلِكَ.) ثم أورد هذا الحديث في مسند الإمام أحمد والحديث، حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وفيه أولا قال: ذُكرت الصلاة عند رسول الله ﷺ يوما فقال: «من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة. ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة يوم القيامة

وحُشر مع قارون وفرعون وهامان وأبيّ بن خلف»؛ أي أنه يُحشر يوم القيامة إذا لم يكن مُحافظا على الصلاة مع صناديد الكفر وأعمدة الباطل ورؤوس الضلال، يُحشر معهم. فقوله: «من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة» (نورا) أي في طريقه وفي سيره، فالصلاة نور تضيء للعبد الطريق ويهتدي لكل خير بالصلاة؛ (وبرهانا) أي على إيمانه وصدق دينه وصلاح دينه واستقامته على طاعة ربه والصلاة برهان، برهان على الإيمان، وإذا انتفى البرهان انتفى الإيمان الذي هو جُعلت الصلاة برهانا عليه؛ فالصلاة برهان ونجاة يوم القيامة؛ أي من عذاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فالصلاة نجاة، (مَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَى الصَّلاةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلا بُرْهَانٌ وَلا نَجَاةٌ) يوم القيامة، ثم إنه يُحشر مع صناديد الكفر قارون، فرعون، هامان، أبيّ بن خلف.

قال بعض أهل العلم ذِكر هـٰذه الأسماء لأن الشواغل عن الصلوات عند الناس متنوعة:

منهم من يشغله عن الصلاة رئاسته وزعامته، فهو بهذا مع فرعون.

ومنهم من يشغله عن الصلاة ماله وثراؤه وتجارته فهو مع قارون.

ومنهم من يشغله عن الصلاة مثلا وزارته وما إلى ذلك فهو مع هامان.. وهكذا.

فالشواغل عن الصلوات قد تكون الرئاسة، قد تكون الزعامة، قد تكون أمور، وكيفما كان فترك الصلاة سبيل لأن يُحشر الإنسان مع هؤلاء، وأن يكون لا نجاة له يوم القيامة.

وهذا الحديث إسناده حسن كما بيّن ذلك سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله في مواضع من كتبه، ومنها مجموع فتاواه.

قال: (هٰذِهِ النُّصُوص تُشْعِرُ بِكُفْرِ تَارِك الصَّلاةِ.) نعم بعضها شأنه كذلك يُشعر بكفر تارك الصلاة وليس صريحا؛ لكن فيها ما هو أدلة واضحة وصريحة. فقوله (تُشعر) هذا بعضها، أما عدد منها فهو واضح وصريح بأن تارك الصلاة كافر، ومن أوضحها قوله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة» وغيرها مما مرَّ معنا.

قال: (وَقَدْ قَالَ النَّبِيِّ ﷺ لِمُعَاذ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا حَرَّمَهُ عَلَى النَّارِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.) ثم أورد المصنف رحمه الله هـٰذا الحديث، والسنّة يُفسر بعضها بعضا ويُبين بعضها بعضا. فهذا الحديث يُوضحه الحديث الذي قبله، وقد أورده المصنف «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألَّا إلـٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله» وكذلك الأحاديث التي مرت معنا مُصرِّحةً بكفر تارك الصلاة.

قال: (فَمُؤَخِّرُ الصَّلاةِ عَنْ وَقْتِهَا صَاحِبُ كَبِيرَة، وَتَارِكُهَا بِالْكُلِّيَّةِ أَعْنِي الصَّلاةَ الْوَاحِدَةَ- كَمَنْ زَنَى وَسَرَقَ؛ لِأَنَّ تَرْكَ كُلِّ صَلاةٍ أَوْ تَفْوِيتَهَا كَبِيرَة، فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ مَرَّاتٍ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ، فَإِنْ لَازَمَ تَرْكَ الصَّلاةِ فَهُوَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ الْأَشْقِياءِ الْمُجْرِمِينَ) هذه محاولة من المصنف رحمه الله لتقريب هـٰذا الأمر وتوضيح حُكم تارك الصلاة باعتبار من يترك بعض الصلوات أو يترك كثيرا منها. فهذه محاولة؛ ولكن الأوضح مِثل ما مرّ معنا في الدلائل الواضحة المصرِّحة بكفر تارك الصلاة؛ وحتى أيضا من يتعمّد تأخيرها خلافا لما أمر الله عز وجل به ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣)﴾ [النساء:١٠٣] الذي يتعمد ألا يصلي الفجر إلا بعد طلوع الشمس، الذي يتعمد أن يوقت مُنبه الساعة على الدوام الوظيفي الساعة السابعة صباحا فيستيقظ في هـٰذا الوقت ويُصلي. فما يتعلق بدنياه لا يخرمه ويضبط وقته تماما، وما يتعلق بحق سيده وربِّه ومولاه لا يبالي به ويتعمّد تأخيره. الوظيفة قد لا يُضبط عليه في سيرته الوظيفية أنّه تأخّرَ عن الدوام دقيقة.

وأمّا الصلاة التي هي حقّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على عباده فعندما ينام الثانية والواحدة ليلا يضع المنبه على السابعة صباحا، يعني بعد طلوع وقت الصلاة. هذا تعمّد، بخلاف الذي يضع المنبه على وقت الصلاة وهو حريصٌ على القيام، هذا أمر آخر. وإذا كان مُستديما لهذا الأمر فهو على خطر عظيم ويُخشى أن يكون من الُمتهاونين في أمر الصلاة.

ثم بعد ذلك انتقل الُمصنف رحمه الله للكلام على كبيرة أخرى.

الكبيرة الخامسة
منع الزكاة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧)﴾ [فصلت:٦-٧]. وَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾ الآية[التوبة:٣٤-٣٥].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنْ صَاحِبِ إِبِلٍ وِلَا بَقَرٍ وَلَا غَنَمٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا زَكَاتَهَا إِلَّا بُطِحَ لَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَاعٍ قَرْقَرٍ تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا كُلَّمَا نَفِدَتْ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا عَادَتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ. وَمَا مِنْ صَاحِبِ كَنْزٍ لَا يُؤَدِّي

زَكَاتَهُ إِلَّا مُثِّلَ لَهُ كَنْزُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَع ...» الحديث.

وَقَدْ قَاتَلَ أَبُو بَكْر الصِّدِّيق ؓ مَانِعِي الزَّكَاةِ وَقَالَ: وَاللهِ لَو مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتُهُم عَلَى مَنْعِهَا.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَللهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران:١٨٠].

وَعَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَنْ مَنَعَ الزَّكَاةَ قَالَ: «مَنْ مَنَعَهَا فَإِنَّا آخِذُوهَا وَشَطْرَ مَالِهِ، عزمةً مِنْ عَزَمَاتِ رَبِّنَا». أَخْرَجَهُ أَبُو دَاود والنَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ.

وَ(عَنْ) يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِير، حَدَّثَنِي عَامِرُ الْعُقَيْلِيُّ؛ أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَّلُ ثَلاثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ: أَمِيرٌ مُسَلَّطٌ، وَذُو ثَرْوَةٍ لا يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ فِي مَالِهِ، وَفَقِيرٌ فَخُورٌ».

(وَعَنْ) شُرَيْك وَغَيْرِهِ، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ أَبِي الْأَحْوَص، عن عَبْدِ اللهِ قَال: أُمِرْتُم بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ، فَمَنْ لَمْ يُزَكِّ فَلا صَلاةَ لَهُ.

ثم ذَكر هـٰذه الكبيرة الخامسة وهي (**منع الزكاة**). والزكاة قَرينة الصلاة في كتاب الله عز وجل؛ فلا تكاد تُذكر الصلاة في القرآن إلاّ وتُذكر الزكاة مقرونة بها. فالزكاة رُكن من أركان الإسلام وأحد مبانيه كما قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**بُني الإسلام على خمس: شهادة ألّا إلـٰه إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة ...**».

والزكاة هي حقٌّ في المال في مال الأغنياء- جعله الله عز وجل حقًّا في مالِهم - حقا معلوما ومُحدَّدا في الشريعة أنواع الأموال الزَّكوية؛ أي إذا بلغت النصاب الزَّكوي ففيها حقٌّ معلوم في الشريعة للسائل والمحروم، في مصارفه الثمانية المـُبينة في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالى. فهـٰذا حق في المال قد جعله الله عز وجل للفقراء من مال الأغنياء. كما قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ في حديث معاذ عندما بعثه إلى اليمن: «**فإن هم أقاموها** – أي الصلاة – **فأعلمهم أن الله افترض عليه زكاة تُؤخذ من أغنيائهم وتُردُّ على فقرائهم**».

والزكاة لا تُؤخذ من كل أحد، وإنما تؤخذ من الأغنياء؛ الذي عنده مال بلغ النصاب، فيُؤخذ منه زكاةً تُعطى للفقراء. وفيها خير عظيم للمُزكي ولماله وللفقراء وللمجتمع، فيها فوائد لا حصر لها ولا عدّ، وهي بركة على مال المزكي وبركة عليه وعلى بيته، وفيها مواساة للفقراء والمحتاجين وفيها صدٌّ للحاجة وفيها تكافل اجتماعي وتحقيق للخيريّة، وفيها أيضا زوال كثير من الخصال السيئة والخلال القبيحة. ففيها ثمار وآثار

كثيرة لا حدّ لها، وهي من فرائض الإسلام.

وأخذ يسوق المصنف رحمه الله بعض الأدلة على وجوب الزكاة وفرضيتها، فأورد قول الله عز وجل: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت:٦-٧]

﴿لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قيل: المراد به الزكاة المفروضة التي هي حقٌّ في المال. وقيل: ﴿لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي لا يُزكّون أنفسهم بالتوحيد والإخلاص لله جل وعلا. ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ١٤-١٥]، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠]، ﴿زَكَّاهَا﴾ أي بالتوحيد والإيمان، و﴿دَسَّاهَا﴾ أي غمسها في الكفر والعصيان.

وقال رحمه الله: (وَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾ الآية[التوبة:٣٤-٣٥].) وهـٰذا من أدلة القرآن التي فيها الوعيد الشديد على من لا يُزكي ماله؛ أي لا يصرف من ماله زكاته التي فرضها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عليه، قال: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾، فيُعذبون بهـٰذه الأموال التي حبسوها ومنعوها ولم يُخرجوا حقّها الذي افترضه الله عليهم، فالله جلّ وعلا أعطاهم المال الكثير وطلب منهم أن يُنفقوا الشيء القليل، وجاءت النصوص مُبينةً أن هـٰذا الشيء القليل لا يُنقص ماله بل يزده ويُبارك فيه، فمنعوه فكانت هـٰذه عقوبتهم أن يُعذبوا بهـٰذا المال ﴿يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾.

ثم أورد المصنف (وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنْ صَاحِب إِبِلٍ وِلَا بَقرٍ وَلَا غَنَمٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا زَكَاتَهَا إِلَّا بُطِحَ لَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَاعٍ قَرْقَرٍ تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا كُلَّمَا نَفَدَتْ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا عَادَتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ. وَمَا مِنْ صَاحِب كَنْزٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاتَهُ إِلَّا مَثَلَ لَهُ كَنْزُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَع ...» الحديث.) هـٰذا الحديث وهو في الصحيحين وسياقه أطول من هنا، المصنف رحمه الله اختصر الحديث وفيه عقوبة تارك الزكاة يوم القيامة، وأن صاحب الإبل والبقر والغنم الذي لا يؤدي الزكاة بأنه يُبطح يوم القيامة؛ أي يُسحب مطروحا على الأرض بقاع قرقر؛ أي أرض منبسطة، فتنطحه بقرونها وتطؤه بأخفافها، وهـٰذه عقوبة له بالمال الذي كان يمتلكه؛ إنْ كان صاحب إبل أو بقر فإنها تنطحه يوم القيامة وتطؤه وهو مُنبطح على الأرض، وإن كان صاحب ذهب وفضة،

فكما مرَّ يُحمى عليها في نار جهنم فتُكوى بها الجباه والجُنوب والظهور.

وقال: «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» أي يوم القيامة. وهـٰذا فيه شاهد لما جاء في قول الله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤]، فالصحيح في معنى الآية من أقوال التي قيلت أنه (يوم القيامة)؛ ومما يشهد لهـٰذا هـٰذا الحديث في الصحيحين، قال: «حتى يُقضى بين الناس في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يُرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار». وهـٰذا فيه -إذا كان عدم دفعه للزكاة عن شُحٍّ في نفسه وعن تقصير- أنه مُرتكب لكبيرة من الكبائر وعظيمة من عظائم الذنوب، ولهـٰذا قال: «ثم يُرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» ولو كان مُنتقلا بذلك من الملّة لم يكن له سبيل إلا إلى النار؛ لا سبيل له إلى الجنّة.

أما إن كان تركه للزكاة عن جَحْدٍ لها، وإنكار لها، فهـٰذا كافر منتقل من المِلّة لا سبيل له يوم القيامة إلا إلى النار، لا سبيل له إلى الجنة.

قال المصنف رحمه الله: (وَقَدْ قَاتَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيق ؓ مَانِعِي الزَّكَاةِ وَقَالَ: وَاللهِ لَو مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتُهُم عَلَى مَنْعِهَا.) وهـٰذا فيه مانع الزكاة إذا امتنع الإنسان عن زكاة ماله، ولم يَقبل دفع ماله لجباة الزكاة الذين يُوظفهم وليّ الأمر لجبايتها فامتنع، فالحُكم أنه إذا امتنع يُلزم بدفعها، وإن امتنع وقاتل يُقاتل، إن قاتل في امتناعه يُقاتل ولو قُتل.

ثم قال: (قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران:١٨٠].) نُلاحظ في جميع هـٰذه النصوص التي مرّت في عقوبة تارك الزكاة أنها كلها تعذيبٌ له بِمالِه، فكان يجمع المال ويَعُدّه مُتعة ويتمتع به ولا يُؤدي حقه، فتكون عقوبته بهـٰذا المال الذي جمعه وكثّر منه وأخذ يتمتع به دون أن يؤدي حق الله تعالى فيه الذي جعله للفقراء والمحتاجين، فتكون عقوبته بهـٰذا المال.

قال رحمه الله: (وَعَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَنْ مَنَعَ الزَّكَاةَ قَالَ: «مَنْ مَنَعَهَا فَإِنَّا آخِذُوهَا وَشَطْرَ مَالِهِ، عزمةً مِنْ عَزَمَاتِ رَبِّنَا». أَخْرَجَهُ أَبُو دَاود والنَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ بَهْزِ بْنِ حَكِيم عَنْ أَبِيهِ عَنْ جِدِّهِ.) هـٰذا الحديث -وهو في سُنن أبي داوود والنسائي وغيرهما- فيه ما يتعلق بمن منع الزكاة، يعني طُلب منه الزكاة فامتنع. يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «من منعها فإنّا آخذوها وشَطر ماله» أي هـٰذه عقوبة له لامتناعه أن يُؤخذ منه الزكاة، وإضافة إلى ذلك يُؤخذ منه نصف ماله، فهـٰذه عقوبة له.

قال: «**عزمة من عزمات ربنا**» أي حُكم من الله تَبَارَكَ وَتَعَالى وأمر من أوامره جل وعلا.

قال: «**عزمة من عزمات ربنا**». وهـٰذا الحديث من أهل العلم من أخذ به على ظاهره، وقال: إنَّ من يمتنع عن الزكاة يُعاقب بهـٰذه العقوبة، يُؤخذ منه قصرا وقهرا الزكاة، وإضافة إلى ذلك يُؤخذ منه نصف ماله تعزيرا له وعقوبة لإمتناعه. ومن أهل العلم من قالوا إن هـٰذا الحكم. والله أعلم.

قال: (**وَ(عَنْ) يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، حَدَّثَنِي عَامِرُ الْعُقَيْلِيُّ؛ أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَّلُ ثَلاثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ: أَمِيرٌ مُسَلَّطٌ، وَذُو ثَرْوَةٍ لا يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ فِي مَالِهِ، وَفَقِيرٌ فَخُورٌ»**.) وهـٰذا فيه هؤلاء الثلاثة الذين يدخلون النار وهم أوائل الداخلين: «**أمير مُسلَّط**» يعني فيه تجبر وتسلط وطغيان وتعدي على رعيته وإلحاق للمشقة والأذى بهم.

والثاني -وهو الشاهد- «**وَذُو ثَرْوَةٍ لا يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ فِي مَالِهِ**»؛ «**ذُو ثَرْوَةٍ**» يعني ذو مال. «**لا يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ فِي مَالِهِ**» يعني لا يخرج الزكاة المفروضة، والزكاة حق لله تعالى في المال جعله للأصناف التي بينها تعالى في كتابه.

قال: «**وَفَقِيرٌ فَخُورٌ**»، قوله: «**فقير فخور**» مثل قوله في الحديث الآخر: «**عَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ**» يعني فقير ولا مال عنده، وفي حاجة، وفي عَوَز، وفي الوقت نفسه عنده كِبْر وتعالي على الناس، وهٰذا يقول فيه أهل العلم: توجد الخصلة الذميمة من غير وجود الباعِث لها والمحرك، يعني الغني أو الثري إذا تكبّر يُقال: الكبر دخل عليه من الباعث وهو المال أو الثراء أو مثلا الرئاسة أو الزعامة، فدخلت عليه من هٰذا. أمّا شخص فقير وفي عوز في حاجة ويتكبَّر! فالباعث على الكبر غير موجود، إذًا ما الذي جعله يتكبر؟ فساد عظيم في نفسه!، فساد عظيم في نفسه!؛ ولهٰذا كانت عقوبته أبلغ من غيره، مثل هٰذا «**الأشيمط** الزاني» (١): يعني الشيخ الكبير إذا زنا، الشاب إذا زنى من البواعث عليه قوة الشهوة التي به؛ لكن الشيخ الكبير المسن الشهوة عنده بردت وليس عنده قوة، فإذا زنى يكون زناه ليس مُحركًا له شهوة ثارت، وإنما فساد عريض فيه، ولهٰذا كان مثل هٰذا عقوبته أبلغ.

وفي هٰذا أيضا أنّ الذنب يتضاعف بسبب ما يحتفّ به، كما سبق الإشارة إلى ذلك وسيأتي أيضًا التنبيه عليه، فقد لا يحتف به إما من وقت أو من حال الشخص أو من مكانه أو غير ذلك.

---

(١)وعن ابن عمر ﭭ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله عز وجل إلى الأشيمط الزاني ولا العائل المزهو» تخريج الألباني:صحيح لغيره، انظر حديث رقم ٢٣٩٩ من صحيح الترغيب والترهيب.

قال هنا: «**وفقير فخور**»: يعني فخور ومُتعَالي ومُتكبِّر ويرى نفسه ويتعالى على الآخرين، وهٰذه من أبغض الخصال وأشنعها، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [البقرة:٢٥٤].

قال رحمه الله: ((**وَعَنْ) شُرَيْك وَغَيْرِه، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ أَبِي الْأَحْوَص، عن عَبْدِ الله قَال: أُمِرْتُم بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ، فَمَنْ لَمْ يُزَكِّ فَلا صَلاةَ لَهُ.**) هٰذا فيه مكانة الزكاة من الصلاة، وهي كما مرّ معنا قرينة الصلاة في كتاب الله جلّ وعلا.

الكبيرة السّادِسة
عقوق الْوالِدين

قَالَ اللهُ تَعَالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ الآيات[الإسراء:٢٣-٢٥].

ثمّ ذكر المصنف رحمه الله هٰذه الكبيرة، وهي كبيرة تتعلق بحقوق العباد، ما سبق يتعلق بحقوق الله، وهٰذه تتعلق بحقوق العباد، ولمّا بدأ ببعض الكبائر التي تتعلق بحقوق العباد، بدأ بالوالدين اللذَيْن هما أحق الناس بحسن الصّحبة وحسن المعاملة وطِيب المعاشرة وبالاهتمام، فبدأ بحق الوالدين، وهٰذا فيه لفت انتباه إلى أنهما أحق الناس بالبر والإحسان، وسيأتي معنا قول النبي ﷺ: «**أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك أدناك**» ، وفي الحديث قال: من أبر؟، قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟، قال: «**أباك**» إلى أن ذكر بعض القرابة، البدْء بالوالدين، والوالدة مقدمة وحقها أعظم.

فالمصنف بدأ بهٰذه الكبيرة التي تتعلق بهٰذا الحق العظيم الذي هو حق الوالدين، قال: (**الكبيرة السادسة: عقوق الوالدين**)، والعُقُوق: هٰذه الكلمة مأخوذة من العَقّ وهو الشَّق والقطع، وهنا سُميَّت الإساءة للوالدين والخروج عن البر الذي لهما عقًّا وقطعًا؛ لأنّ مَنْ أساء إليهما ولم يقم معهما بمقام الإحسان اللآئق قد شقّ هٰذا الحق وقطعه -الذي هو حق عظيم للوالدين- شقَّهُ وقطعه؛ ولهٰذا سُمِّيَ من لا يَبَرُّ والديه ولا يقم بحقهما "عاقًّا"؛ لأنه قطع وشق هٰذا الحق الذي جعله الله تَبَارَكَ وَتَعَالى للوالدين جزاء إحسانهما ومعروفهما وجميلهما الذي تحقق لهٰذا الولد على يديهما، فقال: (**عقوق الوالدين**)، ثمّ أخذ يذكر بعض الأدلة على ذلك.

فذكر قول الله عزّ وجل: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، وفي الآية قَرْنُ الإحسان

للوالدين بحقه جلّ وعلا وهو التوحيد، وهٰذا يأتي في القرآن كثير؛ كقوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان:١٤]، وقوله: ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء:٣٦]، وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام:١٥١]، فيأتي في القرآن في مواضع قَرْنُ حق الوالدين بحقه جلّ وعلا، وهٰذا فيه بيان عظم حق الوالدين والواجب الكبير الذي جعله الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لهما .

قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ هٰذه الكلمة التي طُلِبَ من العبد أن يُحققها مع والديه تتناول كل بر، فليس البر المطلوب للوالدين والإحسان المطلوب للوالدين نوعًا واحدًا أو مجالًا واحدًا؛ بل هو مجالات، فكل مجال من البر والإحسان، وحسن المعاملة، وطِيب المعاشرة، وغض الصوت، والرفق والإحسان إلى غير ذلك؛ كله داخل تحت قوله: ﴿إِحْسَانًا﴾، فكل ما كان من الإحسان والبر وطيب المعاملة فالوالدان أحق به، وإذا أراد الإنسان في هٰذا المقام ضابطًا لنفسه يعلم من خلاله ما هو الإحسان الذي ينبغي للوالدين، فأحسن ضابطٍ أظنه في هٰذا المقام أن يتصور الإنسان نفسه أنه هو الوالد، أو يتصوّر أنه هو الوالدة، ويتذكر ماذا قدّم لهٰذا الولد، ويستحضر ماذا قدمت الوالدة لهٰذا الولد، فيتذكر الحمل وأتعابه، والوَضْع وشدته، والرضاعة ومكابدتها، الرعاية...إلخ، يتذكر هٰذه الأمور، ثمّ لمّا يتذكرها ويستحضرها تمامًا، ينتقل إلى مرحلة ثانية وهي أن ينظر ماذا يريد إذا كان في هٰذا المقام، فكل ما يريده لنفسه إذا كان هو في هٰذا المقام يقدّمه لوالديه، هٰذا المعنى الذي أُشير إليه يدل عليه قول النبي ﷺ: «**أن تأتي للناس الشيء الذي تحب أن يؤتى إليك**»، فهٰذا هو حسن البر وحسن المعاملة، أن تأتى للوالدين الشيء الذي أنت تحب أن يؤتى إليك لو كنت والدًا، فلو كنت في مقامهما ماذا تريد لنفسك؟ هل تريد لنفسك أن تربي ولدك وتحسن رعايته وتحسن إطعامه والإنفاق عليه، وأيضا الأم والشدة التي كانت منها، والمعاناة الطويلة في الحمل تسعة أشهر، معاناة في حمل الجنين في بطنها؛ في قيامها؛ في قعودها؛ في نومها، مكابدة ما يعلمها إلا الله، ثمّ الوضع وشدَّته ثمّ الرضاعة، ثمّ سهر الليل حتى إنّ ابنها يمرض وتتمنى لو أنّ المرض فيها وليس فيه، ثمّ يكبر الابن وينسى هٰذا المعروف كله وهو ينسى هٰذا الإحسان.

فالشاهد أن بر الوالدين يكون باستحضار هٰذا الأمر، وتأملّوا هٰذا المعنى الذي أشير إليه في الوصيَّة التي جاءت في سياق وصية لقمان لابنه في سورة لقمان، قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان:١٤]، وفي الآية الأخرى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا

﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف:١٥]، فهٰذه الأمور تعين على البر، ولهٰذا ذكّر الله بها في القرآن، هٰذه الأمور استحضارها وتذكّرها يعين على البر، والغفلة عنها توقع في العقوق؛ لكن إذا استحضرها وأوردها على ذهنه، لو تجلس قليلا مع نفسك وتستحضر ما كان من معاناة من والدتك على وجه الخصوص ومن الوالد، والتّعب الشديد الذي كان، وتفكّر قليلا في الحمل ما هو؟ في الوضع ما هو؟ في الرضاعة ما هي؟ من غذائها تعطيك، ومن طعامها تطعمك، وأنت في رحمها وبعد أن ولدت، ولمّا تتذكر هٰذا الجميل السابق، البر يتحرك في القلب؛ لكن إذا نسيَ الابن الجميل السابق هٰذا كله وغاب عن ذهنه، ثمّ جاء يوم من الأيام وكان يريد حاجة في البيت ما تحقّقت، أمام هٰذه الحاجة التي يطلبها ويريدها ينسى المعروف بالكامل ويقول: ما رأيت خيرًا قط، والبيت هٰذا ما رأيت منكم خيرًا وما قدمتم لي شيئا، ينسى كل الخير أمام حاجة أو حاجتين أو ثلاث يريدها ولم تتحقق وهٰذا من العقوق، وهٰذا من العقوق، وباعثه نسيان الجميل السابق.

ولذلك فإنّ أنفع ما يكون في هٰذا الباب على الإنسان أن يستحضر دائمًا هٰذه المعان ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ [لقمان:١٤]، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف:١٥]، ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان:١٤]؛ يعني مدّة الرضاعة الطويلة عامين، فهٰذه الأمور حقيقة يعني تُشعِر لهـٰذا.

أحد الإخوة قال لي مرةً أنه عمل تجربة هو أراد أن يستفيد منها، قال: أنا يوما من الأيام أردت حقيقة أن أستحضر وأعرف ماذا قدمت لي الوالدة في الصغر من المعروف، يقول: أنا في غفلة عن هـٰذا، يقول: فيومًا من الأيام، من الفجر قلت لزوجتي: ولدي -وكان عمره سنة تقريبًا أو سنتين- قال: كل الأمور التي تتعلق به عندي، أنا الذي سأقوم بها، لا تفعلي معه أيَّ شيء، يقول: والله عانيت معاناة وتعبت تعبا شديدا في ذلك اليوم، -يعني: في تنظيف الوسخ الذي يخرج منه، في غذائه، في تسكيته إذا بكى، في تنظيف الـ..- يقول: عانيت معاناة في ذلك اليوم، ودخلني شعور، وإحساس بمعروف قُدِّم لي في الصغر، نسيته في كبري وانشغالي بأمور الحياة، نسيته تمامًا، لكن يقول: قمت بهـٰذا العمل أريد أن أتذكَّر.

ولو لم يعمل الإنسان هـٰذا الأمر يقرأ القرآن، يقرأ ما أرشده الله إليه في القرآن، مثل هـٰذه الآيات ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ [لقمان:١٤]، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف:١٥]، يقرأ هـٰذه الأمور ويقرأ هـٰذه المعاني، فهي التي تحرِّك في قلبه البر وإذا نسيها نسي البر.

أيضا يحرك في القلب البر أمر جاء أيضا في القرآن في هـٰذا الموضع -موضع البر بالوالدين- وهو قوله: ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان:١٤]، يعني تَذَكَّر أنَّ المرجع إلى الله، وأمامك نصوص كثيرة أورد المصنِّف جملة منها

هنا في عقوبة العاق، فالعقوق لا يذهب ويضيع، بل أمام الإنسان عقوبة، وعقوبة معجَّلة في الدنيا وعقوبة مؤجَّلة يوم القيامة «لا يدخل الجنة عاق» سيأتي معنا، ويأتي معنا نصوص، فإذن تَذَكّر أمرًا ماضيًا وتَذكر أمرًا مستقبلًا، فهـٰذا التذكر العظيم هو الذي -حقيقة يعني- فيه علاج للعقوق الذي يقع ولنقص البر الذي يقع، أن يتذكر هذين الأمرين ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾:

فقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ هـٰذا تَذَكُّر الماضي والجميل، السابق والإحسان المتقدم من الوالدين، فهـٰذا يعين على البر.

وقوله: ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ أمر يتعلق بالمستقبل: تَذَكُّر أنَّ المصير إلى الله والمرجع إلى الله وأنه سيحاسبك على هـٰذه الأمور التي قدمتها؛ أمرك بالبرِّ ولم تبر، نهاك عن العقوق ووقعت في العقوق، والحساب شديد عندما يقف الإنسان بين يدي الله جل وعلا.

ثم قال: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [الإسراء:٢٣]، هنا تكبر المشكلة، إذا كبر الوالدين دخلهما الضعف وأصبحا بحاجة إلى الرعاية والعناية والمتابعة، والابن كبر وشبَّ ودخل في معمعة الحياة ومشاغلها، والأولاد والمصالح الخاصة، وأموره وحاجياته، في مثل هـٰذه المرحلة هي المحكُّ في الغالب في باب البرِّ، ويتميَّز، وتظهر المعادن وأصناف الناس في مثل هـٰذا المقام وفي مثل هـٰذا المحكِّ، فإذا وصلا إلى هـٰذه المرحلة ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ لَمَّا يكون الأب نشيط وشاب وتعامله مع ابنه في نشاط وليس محتاجًا للابن، في مثل هـٰذا المقام ما تظهر معالم البرِّ والحاجة إليه؛ لأن الأب في نشاطه وفي قوته، وربما هو الذي يقدم الخدمات والمساعدات للابن؛ لكن هنا المحكُّ وموضع الاختبار: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا﴾، وكثير من الناس يسقط في هـٰذا الامتحان، وكثير منهم يملّ بسرعة ويتضجّر من الحاجة التي يحتاجها والده في كبره.

أنسي هـٰذا المتضجر أنه إذا كتب الله له الحياة وأمدَّ الله له في العمر سيكون مثلهما وسيكون في حاجة شديدة مثلهما، كما أنه الآن في نشاطه هما أيضًا في يوم من الأيام كانا في نشاطهما وقوتهما، بل أنشط منه وأقوى، لكن هـٰذه سنة الله الماضية في خلقه، فأنت الآن ستكون يومًا من الأيام مثلهما في الكبر وستكون -إن مدَّ الله في عمرك- ستكون طاعنًا في السن، لن يبقَ لك الشباب ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم:٥٤]، هـٰذا الذي سيكون، إن كُتبت لك حياة ستكون ضعيفًا وتكون محتاجًا لرعاية الأولاد والأبناء، فَيَصِلُ هـٰذا

المحك والاختبار هنا ليس في حال نشاط الأبوين، الاختبار هنا فيما ذكره الله في قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ كثير من الناس هنا يسقط، وتظهر منه مراتب العقوق وعلامته، يسقط هنا؛ ولهٰذا جاء التأكيد على مرحلة الكبر والتنبيه عليها من رب العالمين وخالق الخلق أجمعين تَبَارَكَ وَتَعَالَى قال: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ لماذا؟ لأن حالة الكبر وضعف الكبير ووهنه، وربما بعضهم تكثر مطالباته، ويضعف رأيه، ويضعف فكره؛ بل يصبح في عقلتيه قد رُدَّ إلى أرذل العمر في تعامله في مطالباته، يعني أشياء قد تكون مزعجة لكثير من الناس؛ فلا يحتمل فيبدأ يظهر التضجر والتنفّر والتأفف والنهر وأشياء من هٰذا القبيل.

وبعضهم في مثل هٰذا الامتحان الذي يسقط فيه يلقي بوالديه في دار العجزة، ويتخلص منهما بأي طريقة، وبعضهم يضع والديه في دار العجزة ولا يأتيه، يعني لقيت أنا في بعض دور العجزة مَن أبناؤه وهم يمشون وأحياء ونشطاء، وعندهم أموال، لهم عشر خمس عشرة سنة ما رأوا والدهم، وربما يموت ما يدرون عنه ويدفن ما..، ولا كأنه كان أبًا لهم، ولا كأنها كانت أمًا، ما هٰذا؟!

فهٰذا عرضة لعقوبة شديدة في الدنيا يراها أمثال هؤلاء، وعقوبة شديدة يوم القيامة عندما يلقون الله ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

فعقوق الوالدين كبيرة من الكبائر وعظيمة من العظائم، ولها عقوبة شديدة عند الله تعالى، في الدنيا معجَّلة، وفي الآخرة معجلة للعاق.

قال: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾، ﴿أُفٍّ﴾ هٰذه كلمة يؤتى بها للتضجُّر والتململ، وهي قريبة من اللسان؛ يعني يتنفس من الصدر من الضجر الذي فيه، فيخرج هٰذه الضجر تأففا من فمه، فعند المطالبة أو مطالبتين أو عرض حاجة معينة، وقد تكون الحاجة لمصلحته هو، فلقلة رعايته لهٰذا المقام يفرز هٰذه الكلمة فيقول: "أف" فنهى الله تعالى عن ذلك.

وانظر وصية الله تعالى العظيمة بالوالدين، رب العالمين يقول: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ يعني إياك والتململ والتضجر وإخراج مثل هٰذه الكلمات، فإذا كانت "أف" التي هي إخراج هٰذا الصوت من الهواء على وجه التململ والتضجر ينهى الله عنه، فكيف والعياذ بالله بسب الوالدين؟! فكيف بمجابهتهما بالشتم واللعن؟! وسيأتي ما يتعلق بهٰذا، يسب والديه ابتداءً، فيبادرهما بالسب واللعن أو الكلمات البذيئة أو الألفاظ السيئة والعياذ بالله.

قال: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ النَّهر: هو الزجر ورفع الصوت والتعالي عليهما ومنعهما، من فعل شيء أو بصوت، حتى ولو كان يريد أن ينهاهما عن منكر لا يجوز له أن يرفع الصوت عليهما؛ الله جل وعلا قال: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، ما قال: فعُقَّهما، قال: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ يعني حتى لو بلغا هـٰذا المبلغ، قال: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ ما قال: عقهما. فكيف بالأبوين المسلمين الصالحين المستقيمين الذين قدما للابن الخير الكبير والإحسان والجميل؟ قال: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء:٢٣] ولم يحدد، فهـٰذا يشمل كل كلمة حلوة كل لفظة عذبة وكل عبارة طيبة تقدمها للوالدين.

وبعض الناس يكون موفق في انتقاء أطايب الكلام مع أصحابه، يأتي عنده زميله الذي لم يقدم له من المعروف شيء، فإذا أراد أن يحدثه بشيء: "يا أخي الكريم، من فضلك، ممكن، تتكرم عليَّ بكذا" بصوت هادئ وبعبارة منخفضة، وبأدب جم. ثم يدخل البيت ويأتي بوجه آخر: أنتِ كذا، وبصوت عالٍ، وبكلام بذيء، ولَمَّا يأتي عند صديقه، وربما هـٰذا الصديق ما عرفه إلا من شهر أو من شهرين، فيأتي بصوت هادئ وبعبارة متطامنة وبكلمات جميلة وعذبة، وربما أصدقاءه يقولون: هـٰذا ليس له مثيلا في حسن الأخلاق؛ لكن لو رأوا معاملته في البيت مع أمه لعرفوا أنه من أسوأ الناس خلقا؛ لأن هـٰذا الكلام الجميل وهـٰذه المعاملة الطيبة وهـٰذا الخلق الطيب أحق الناس به الوالدين من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك» هـٰذه الكلمة ينبغي أن تُفقه، يعني كل هـٰذا اللطف وكل هـٰذا الرفق، وكل هـٰذه المعاملة الجميلة والطيبة التي يقدمها الإنسان لزملائه ورفقائه وإخوانه أحق الناس بها الوالدين، فعند الزملاء تفيض العبارات الجميلة، وعند الوالدين يكعّ عنها ولا يتمكن من الإتيان بشيء منها، ولا يحسن أن يتلفّظ، ومجرد ما يريد شيء: أعطــوني كذا، هـٰذه الكلمة ما يقولها لزميله، يُقدِّم قبلها بأربع خمس ست كلمات من التلطف حتى يصل إلى هـٰذه الحاجة، الوالدان أحق بهـٰذا، الوالدة هي الأحق أن تقول لها: يا أمي الكريمة، يا والدتي.

❀❀◊❁❁

وَقَالَ تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا..﴾ الآية[العنكبوت:٨].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟...» فَذَكَرَ مِنْهَا عُقُوقَ الْوَالِدَيْنِ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «رِضَا اللهِ فِي رِضَا الْوَالِدِ، وَسَخَطُ اللهِ فِي سَخَطِ الْوَالِدِ». صَحِيحٌ.

وَعَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَإِنْ شِئْتَ فَاحْفَظْ، وَإِنْ شِئْتَ فَضَيِّعْ». صَحَّحَهُ الْتِرْمِذِيُّ. وَعَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «الْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمَّهَاتِ».

وَجَاءَهُ(١) رَجُلٌ يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْجِهَادِ مَعَهُ فقال: «أَحَيٌّ وَالِدَاكَ ؟»، قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ».

وَقَالَ: «أُمَّكَ وَأَبَاكَ وَأُخْتُكَ وَأَخَاكَ وَأَدْنَاكَ أَدْنَاكَ».

وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَاقٌّ، وَلَا مَنَّانٌ، وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ، وَلَا مُؤْمِنٌ بِسِحْرٍ».

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولُ اللهِ! مَا الْكَبَائِرِ؟ قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللهِ». قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟، قَالَ: «ثُمَّ عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ». قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «ثُمَّ الْيَمِينُ الْغَمُوسُ».

هـٰذه النصوص والأدلة ساقها المصنف رحمه الله من كتاب الله جل وعلا وسنة النبي ﷺ لبيان مقام الوالدين ومالهما من الحق العظيم والواجب الكبير من الأبناء اتجاههما.

وحقيقة الآية التي صدر المصنف ذكرها في هـٰذه الترجمة أو في الكلام على هـٰذه الكبيرة آية عظيمة جدًا.

ومن الأمور التي ينبِّه عليها أهل العلم والمفيدة في هـٰذا الباب: مداواة النفس بالقرآن، بمعنى أن الإنسان ينظر إلى جوانب الخلل التي عنده والنقص ويداوي نفسه بالآيات.

فمثلا: من كان عنده عقوق أو تقصير يداوي نفسه بهـٰذه الآية بأن يقرأها ويكرِّر التدبر لها والتأمل في معانيها ودلالاتها، ويستعين بكتب التفسير وأقوال أهل العلم حتى تتحقق له هداية القرآن التي قال الله تعالى عنها: ﴿إِنَّ هـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، وهداية القرءان تُطلب بتدبره ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:٢٤]، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:٦٨]، فهداية القرءان تُطلب بتدبره ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩]، فما يكفي الإنسان أنه يمر عليها مرورًا دون أن يتأمّل ودون أن يتدبر ودون أن يتفكر في المعاني والدلالات.

فحقيقة مثل هـٰذه الآية لما تقف عندها مرة ومرتين وثلاث وأربع وتراجع كتب التفسير وتنظر في حالك، وتعرض حالك على الآية وتنظر ما هو حظك من الآية.

بمثل هـٰذه الطريقة يكون العلاج، فهـٰذا دواء ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ [الإسراء:٨٢]، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت:٤٤]، ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس:٥٧]، هو دواء؛ ولكن نحتاج إلى أن نتعالج، وطريقة التعالج وطلب الشفاء بالقرآن بأن يتدبر ويتفكر ويتأمل، ويعرض الإنسان نفسه وحاله وموقعه: ما هو موقعي من هـٰذه الآية؟ وتنظر معاملتك، فإذا كانت الأمور حسنة وطيبة تحمد الله

---

(١) في نسخة ب عند مشهور وأثبتها "وقال- عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وجاءه.."

وتزيد، وإذا كان هناك تقصير فأمامك الفرصة مفتوحة والمناسبة سانحة.

وَعَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَاقٌّ وَلَا مُكَذِّبٌ بِالْقَدَرِ».

وَرَوَى عِيسَى بْنُ طَلْحَة بْنُ عُبَيْدِ الله، عَنْ عَمْرُو بْنِ مرَّةَ الْجُهَنِيِّرَضِيَ اللهُ تَعَالى عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولُ الله! أَرَأَيْتَ إِنْ صَلَّيْتُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَصُمْتُ رَمَضَانَ، وَأَدَّيْتُ الزَّكَاةَ، وَحَجَجَّتُ الْبَيْتَ، فَمَاذَا لِي؟، قال: «مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ مَعَ النَّبِيِّنَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَّالحين إِلَّا أَنْ يَعَقَّ وَالِدَيْهِ».

وَعَنْ بَكَّار بْنِ عَبْدِ الْعَزِيز بْنِ أَبِي بَكْرَة، قال: حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ مَرْفُوعًا: «كُلُّ الذُّنُوبِ يُؤَخِّرُ اللهُ مِنْهَا مَا شَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا عُقُوقُ الْوَالِدَينِ؛ فَإِنَّهُ يُعَجِّلُ لِصَاحِبِهِ».

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالدًا إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَعَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ قَالَ: «لَعَنَ اللهُ الْعَاقَّ لِوَالِدَيْهِ». وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ». صَحَّحَهُ الْتِرمِذِيُّ.

وَعَنْ وَهْبِ بْنِ منبه قَالَ: إِنَّ اللهَ قَالَ: «يَا مُوسَى! وَقِّرْ وَالِدَيْكَ؛ فَإِنَّ مَنْ وَقَّرَ وَالِدَيْهِ مَدَدتُ فِي عُمُرِهِ وَوَهَبْتُ لَهُ وَلَدًا يَبرّهُ، وَمَنْ عَقَّ وَالِدَيْهِ قَصِرتُ عُمُرَهُ وَوَهَبْتُ لَهُ وَلَدًا يَعُقَّهُ».

وَقَالَ كَعْبُ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ اللهَ لَيُعَجِّلَ حَيْنَ(١)الْعَبْدِ إِذَا كَانَ عَاقًّا لِوَالِدَيْهِ لِيُعَجِّلَ لَهُ الْعَذَابَ، وَإِنَّ اللهَ لَيُزِيدَ فِي عُمُرِ الْعَبْدِ إِذَا كَانَ بَارًا بِوَالِدَيْهِ لِيُزِيدَهُ بِرًّا وَخَيْرًا".

وَقَالَ أَبُو بَكْرَ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ: "قَرَأْتُ فِي التَّوْرَاةِ: مَنْ يَضْرِبَ أَبَاهُ يُقْتَلُ".

وَقَالَ وَهْبُ: " قَرَأْتُ(٢) فِي التَّوْرَاةِ: عَلَى مَنْ صَكَّ(٣)وَالِدَهُ الرَّجْمُ(٤)".

فهـٰذه كلها نصوص في هـٰذا الباب العظيم.

والمصنف رحمه الله لم يذكر جميع ما ورد؛ لأن ما ورد في الكتاب والسنة في هـٰذا المقام أكثر من هـٰذا بكثير، وقد أفرد بعض أهل العلم مصنفات واسعة في جمع النصوص والأدلة -أدلة الكتاب والسنة- فيما يتعلق ببر

(١) حَيْن: الْحَيْن، بالفتح: الهلاك. وقد حان الرجل: أي هلك.

(٢) ليس في نسخة مشهور "قرأت" لكن " في التوراة"

(٣) صَكَّ: ضرب.

(٤)وفي هامش «ب»: نعم وبعض العقوق أكبر من بعض. ومنه قول النبي ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلعَنُ الرّجُلُ وَالِدَيْهِ». قَالُوا: يَا رَسُولُ الله؛ كَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟، قَالَ: «يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيُسّبُ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أَمَّهُ فيسب أُمَّهُ».

الوالدين.

واقتصر المصنف رحمه الله على بعض النصوص الواردة في هـٰذا الباب، وكما قدمت بدأ بهـٰذه الآية العظيمة من سورة الإسراء، وكما أيضا قدمت كم نحتاج إلى مداواة النفس بعرضها على مثل هـٰذه الآيات والتفكر فيها مرات وكرات، مع رجاء الهداية والتسديد والتوفيق من الله جل وعلا.

ثم أورد رحمه الله قول الله عز وجل: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت:٨] في سورة العنكبوت ثم ساق بعض الأحاديث.

الحديث الأول فيه: أن عقوق الوالدين كبيرة، بل هو من أكبر الكبائر، وهو نظير ما جاء في القرءان، قُرن حق الوالدين بحقه لأنه قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين» فهـٰذا نظير ما جاء في القرآن، قرن حق الوالدين بحقه تعالى.

أيضا نظير ذلك الحديث الذي يليه (وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «رِضَا اللهِ فِي رِضَا الْوَالِدِ، وَسَخَطُ اللهِ فِي سَخَطِ الْوَالِدِ».) والوالد يتناول الأم والأب في الحديث..

قال: (وَعَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ».) وهـٰذا أيضا فيه مكانة الوالدين، وأنهما باب من أبواب الجنة فيمن قام ببرهما ووفى بحقهما.

ونلاحظ أن النصوص المتعلقة بالوالدين فيها الترغيب والترهيب؛ الترهيب بالعقوبات الشديدة المعجلة والمؤجلة للعاق، والترغيب بذكر الثواب العظيم في الدنيا والآخرة لمن بر بوالديه.

قال: («الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَإِنْ شِئْتَ فَاحْفَظْ، وَإِنْ شِئْتَ فَضَيِّعْ».) يعني إن شئت احفظ هـٰذا الباب، وإن شئت ضيعه، الأمر بيدك الآن ما دمت في دار العمل، وقد تبقى في دار العمل ويفوتك حظا ونصيبا من هـٰذا الباب؛ بل يفوتك الحظ الأوفر والنصيب الأكبر إذا فقدت والديك، وكثير ما يقع الندم هنا على التفريط بدون فائدة.

قال: (وَعَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «الْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمَّهَاتِ».) هـٰذا بهـٰذا اللفظ لم يثبت عن النبي ﷺ، ولكن ثبت عنه فيما ما معناه قوله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ للرجل قال: «هل لك أم؟» قال: نعم، قال: «فألزمها فإن الجنة تحت رجليها». فهـٰذا من أعظم ما يكون في حق الأم وما لها من واجب من بر وإحسان من الأبناء. وأيضا يشهد لهـٰذا المعنى الحديث المتقدم «الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ».

ثم أورد الحديث في الرجل الذي استأذن النبي ﷺ (فِي الْجِهَادِ مَعَهُ فقال: «أَحَيٌّ وَالِدَاكَ ؟»، قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: «فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ».) وهـٰذا فيه أنه يشترط في الجهاد الكفائي وليس العيني أن يستأذن الأبوين ولا يخرج إلا بإذنهما؛ قال: «فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ».

ثم أورد قول النبي ﷺ: «أُمُّكَ وَأَبَاكَ وَأُخْتُكَ وَأَخَاكَ وَأَدْنَاكَ أَدْنَاكَ» يعني هـٰذا رعاية الحقوق، وقدَّم حق الأم ثم الأب ثم الأخت ثم الأخ، ولاحظ هنا تقديم الأخت على الأخ؛ لأن المرأة أضعف وهي أحوج؛ ولهـٰذا قدمت على الأخ في الحديث، المرأة ضعيفة وهي أحوج من الرجل، ولهـٰذا قدمت الأخت على الأخ، قال: «وَأَدْنَاكَ أَدْنَاكَ» يعني تراعي حقوق القرابة بحسب الأدنى فالأدنى والأقرب فالأقرب.

ومثل هـٰذا الحديث الآخر الذي سُئل فيه النبي ﷺ: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ -يعني طيب المعاملة- قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟، قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أبوك».

والحديث الآخر الذي قال رجل للنبي ﷺ: من أبرُّ؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟، قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أباك».

والإمام البخاري رحمه الله في كتابه الأدب المفرد وهو كتاب أُفرد في الآداب -آداب الشريعة الإسلامية- وهو كتاب حقيقة عظيم مبارك، للإمام البخاري لفتة بديعة جدا في هـٰذا الكتاب «كتاب الأدب» أول ما بدأ في كتاب الأدب، قال: بر الوالدين، أول باب يصادفك في كتاب الأدب المفرد للإمام البخاري، أول باب يصادفك: باب بر الوالدين، ثم ذكر هـٰذه النصوص أو جملة كبيرة منها.

وهـٰذه لفتة بديعة جدا يعني كأنه يقول: يا من تريد أن تتعلم الآداب وتتعرف عليها وتقف عليها، اعرف أن أحق الناس بها، الوالدان؛ أولاهما بها الوالدان. فأورد هـٰذه النصوص وبدأها بحديث «من أحقّ الناس بحسن صحابتي.. » أو حديث من أبرُّ؟ قال: «أمك»، إلى آخره.

ثم أورد هـٰذا الحديث (قَالَ: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَاقٌّ، وَلَا مَنَّانٌ، وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ، وَلَا مُؤْمِنٌ بِسِحْرٍ».)؛ و(عاقٌّ) أي عاق لوالديه؛ وعرفنا معنى (العقّ) في اللغة أنه: القطع والشق، وأنّ من أهدر حقوق الوالدين وأضاعها، التي أمره الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بها فهو بمثابة من شقّ وقطع هـٰذا الحق؛ ولهـٰذا سُمّي من يُضيّع حقوق الوالدين سُمّي عاقا في نصوص الشريعة.

قال: «لا يدخل الجنّة عاقٌّ ولا منّان.. » (المنّان) الذي لا يعطي شيئا إلا بالمنّة على الناس، يمنّ عليهم بما أعطاهم؛ فيُعطي ويُتبع عطاءه بالمنّ؛ يمتنّ على من أعطاه. ربما يوم من الأيام يعطي شخصا كأس ماء ثم كل ما قابله يقول: تذكُر كأس الماء الذي أعطيتك إياه اليوم الفلاني؟ كنتَ عطشانا عطشا شديدا وقدّمت لك

الماء. وإذا قابله مرة ثانية وثالثة ورابعة يمنّ عليه بما أعطاه، حتى أنّ من أعطي يتمنى في نفسه أنه ما عرفه ولا رآه ولا أخذ منه ويكرهه ويبغضه البغض الشديد. فهـٰذا المنان هو الذي يمنّ بالعطيّة: يُعطي ويمنّ؛ ولا يزال يُؤذي من أعطاه بما أعطاه، وربما يعطيه شيئا ويمنّ عليه ويُطالبه بأشياء، وكلّ مرة يطالبه بشيء ويقول له: أنت نسيت اليوم الفلاني؟ نسيت الموقف الفلاني؟ فلا يزال يمنّ عليه بعطيّته.

فالمراد من هـٰذا: الذي لا يعطي شيء إلا منّةً؛ يمتنّ على من أعطاه ويؤذيه بهـٰذه العطية.

قال: «**لا يدخل الجنَّة عاقٌّ ولا منَّان..** » وهـٰذا فيه وعيدٌ شديدٌ ودلالة على أنه من الكبائر. وقد عرفنا في ضابط الكبيرة أنّ من ضوابطها أن يُقال عن فاعلها (لا يدخل الجنة) أو (لا يشمّ رائحتها) أو الوعيد عليها بالنار؛ فهـٰذا كله من العلامات التي تُعرف بها الكبيرة.

قال: «**وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ**» أي المداوم على شربها وتعاطيها؛ وليس هـٰذا خاص بالخمر بعينه بل كل مسكر، كمدمن المسكرات والمخدرات الأمر فيه مثل ما جاء في الحديث.

قال: «**وَلَا مُؤْمِنٌ بِسِحْرٍ**» مؤمن به أي مصدّق. قد عرفنا أن التصديق بالسحر كفر بالله تعالى لأن الساحر لا يكون إلا كافر، ولا يُؤمن به ولا يصدق به إلا كافر مثله.

ثم أورد رحمه الله حديث عبد الله بن عمر ﭬ أن أعرابيا (**قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا الْكَبَائِرِ؟ قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللهِ». قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟، قَالَ: «ثُمَّ عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ». قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «ثُمَّ الْيَمِينُ الْغَمُوسُ»..**)

قوله: «**الإشراك بالله ثم عقوق الوالدين**» هـٰذا فيه ما سبق قَرْنُ حقّ الوالدين بحقه تعالى وقَرْنُ حقوقهما بالإشراك به تعالى؛ وهـٰذا يدلّنا على أن العقوق إثم عظيم وذنب خطير.

وقوله: «**ثُمَّ الْيَمِينُ الْغَمُوسُ**» هـٰذا يدلّنا على أن اليمين الغَموس كبيرة من الكبائر؛ وهي سُميت غموسا قيل لأنها تغمس صاحبها في النار. وهي اليمين الفاجرة التي يقتطع بها الحالف أو الْمُقْسِم أموال الناس بغير حق، ويأخذها بغير حق، وإنما يحلف كذبا وجورا بالله تعالى أنّ هـٰذا له وهو كاذب؛ فهـٰذه يمين غموس، وقيل: إنها سُميت بذلك لأنها تغمس صاحبها في النار.

ثم أورد رحمه الله قول النبي ﷺ («**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَاقٌّ وَلَا مُكَذِّبٌ بِالْقَدَرِ**».) وهـٰذا بمعنى ما سبق؛ ولكن فيه ذكر التكذيب بالقدر؛ والتكذيب بالقدر كفر بالله تعالى كما قال ابن عباس ﭬ: "القدر نظام التوحيد" يعني لا ينتظم التوحيد ولا يستقيم التوحيد ولا يستقيم الإيمان إلا بالإيمان بالقدر. قال: "القدر نظام التوحيد فمن آمن بالله وكذب بالقدر فقد نقض تكذيبُه توحيدَه". فالتكذيب بالقدر كفر بالله.

والقدر،كما يقول الإمام أحمد، "قدرة الله"؛ فأين إيمان من لا يؤمن بقدرة الله تعالى وأن الأمور بمشيئته وقدرته عز وجل.

ثم أورد رحمه الله حديث (عِيسَى بْنُ طَلْحَة بْنُ عُبَيْدِ الله، عَنْ عَمْرُو بْنِ مرَّةَ الْجُهَنِيّ رَضِيَ اللهُ تَعَالى عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولُ الله! أَرَأَيْتَ إِنْ صَلَّيْتُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَصُمْتُ رَمَضَانَ، وَأَدَّيْتُ الزَّكَاةَ، وَحَجَجَّتُ الْبَيْتَ، فَمَاذَا لِي؟ قال: «مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَّالحين إِلَّا أَنْ يَعَقَّ وَالِدَيْهِ»). فهـٰذا السياق يدلّ على خطورة عقوق الوالدين حتى مع المحافظة على هـٰذه الفرائض فهو على خطر عظيم؛ يعني حتى وإن كان محافظا على هـٰذه الفرائض؛ لكنه عاقٌ لوالديه فهو على خطر عظيم.

نبّه المحقق أن زيادة (إلا أن يعقّ والديه) قال: " إلا أنه ليس في الحديث قوله: (إلا أن يعقّ والديه)".

ونرجو من بعض الإخوة التكرّم بمراجعة الحديث في مصادره العديدة، والنظر هل هـٰذه الزيادة هي في مصادر أخرى ثابتة صحيحة أو لا؛ لكن المحقق نبّه وهنا أشار إلى أن الحديث رواه ابن حبان والبزار؛ فنرجو من الإخوة مراجعة المصادر الأخرى التي فيها تخريج هـٰذا الحديث وهل لهـٰذه اللفظة وجود أو لا.

ثم قال: (حدثنا بَكَّار بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي بَكْرَة، قال: حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ مَرْفُوعًا: «كُلُّ الذُّنُوبِ يُؤَخِّرُ اللهُ مِنْهَا مَا شَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا عُقُوقَ الْوَالِدَينِ؛ فَإِنَّهُ يُعَجِّلُ لِصَاحِبِهِ»). وهـٰذا أيضا فيه خطورة العقوق وأن العاق له عقوبة معجّلة وعقوبة مؤخرة يوم القيامة. والله جلّ وعلا يُعجّل للعاقّ عقوبةً إمّا بأولاد يعقونه أو بعقوبات أخرى تجري عليه جزاءً لعقوقه لوالديه.

ثم قال: (وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدًا إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ»). وهـٰذا فيه أن الابن مهما قدّم من البِرّ لا يدرك بعض جميل الوالدين. ومَن الذي يدرك جميل الحمل وشدة الوضع وفترة الرضاعة؛ يعني هـٰذه المدة التي هي قرابة الثلاث سنوات: تسعة أشهر حمل وسنتان للرضاعة. هـٰذه الفترة بالذات من الذي يُدركها مهما قدّم من الجميل والإحسان. والأم كانت تعاني المعاناة الشديدة مع الولد في هـٰذه الفترة وهي تتمنى صحته وعافيته وأن يُكرمه الله تعالى بالحياة الطيبة. وبعض من يحصل منه فعلا برّ الوالدين في الكِبَر ويعاني من الأتعاب التي يلقاها في الإحسان إليهما وهو ربما في قرارة نفسه يتمنى أمرا آخر لم يكن قائما في قلب أمه لما كانت ترعاه وتُكرمه وتحسن إليه وترعى حقه.

ومن يقرأ بالكتب وأيضا ما يأتي فيها من أخبار فيها يتعلق بالبِرّ وأخبار فيها يتعلق بالعقوق، في التاريخ من النماذج والشواهد الكثيرة التي تدلّ على هـٰذه المعاني والحقائق المشار إليها هنا.

فقوله: «لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدًا إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ» يعني مهما قدّم من البر والإحسان ما يستطيع أن يُدرك حق الوالدين إلا أن يشتريه، يجده مملوكا رقيقا فيُعتقه.

قال: (وَعَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ قَالَ: «لَعَنَ اللهُ الْعَاقَّ لِوَالِدَيْهِ».) وقد عرفنا أن الذنب إذا ذُكر صاحبه باللعن في القرآن والسنة، فهـٰذا من الدلائل على أنه كبيرة، واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله.

ثم أورد المصنف رحمه الله قول النبي ﷺ «الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ» وهـٰذه لفتة جميلة جدا من المصنف رحمه الله لما ساق الأحاديث ومن القرآن ومن السنة ببرّ الوالدين ختمها بهـٰذه اللفتة الرائعة، قال: «الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ» يعني وأنت تقرأ هـٰذه النصوص وهـٰذه الدلائل في حق الوالدة فتذكّر قول النبي ﷺ «الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ»؛ فهـٰذا يعني أن لها من البر والإحسان والصلة والتلطّف وحسن المعاملة شيئا كبيرا، فهي بمنزلة الأم.

فإذن هـٰذه لفتة جميلة جدا من المصنف رحمه الله.

ثم ختم الكلام على هـٰذه الكبيرة بذكر بعض الآثار وفيها من الأخبار التي تُروى عن بني إسرائيل وعن الكتب السابقة.

والمصنف رحمه الله لم يذكر هـٰذه الآثار ليعتمد عليها في الباب؛ لأن مثل هـٰذا لا يُعتمد ولا يُعد عمدة في الباب؛ ولكن جرت عادة العلماء أن مِثل هـٰذا ومِثل بعض القصص وبعض الأخبار ومِثل بعض الآثار والوقائع تُذكر على سبيل الاستئناس، ولهـٰذا يقولون (ذُكر للاعتضاد لا للاعتماد) أو (ذُكر استئناسا).

فالمصنف ذكر هـٰذه الأشياء لا لأنها عمدة في الباب؛ بل العمدة الآيات والأحاديث التي مرت؛ ولكن هـٰذه ذكرها رحمه الله على وجه الاستئناس، أثرُ وهب بن منبه وكعب والأثر الأخير الذي ختم الذي ختم به هـٰذه الترجمة.

ونسأل الله عز وجل أن يعيننا على البر وأن يُعيذنا من العقوق وأن يهدينا سواء السبيل، وأن يجزي والدينا عنا خير الجزاء، وأن يرحمهما كما ربيانا صغارا.

الكبيرةُ السَّابعة
أكلُ الرِّبا

قَالَ اللهُ تَعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَّ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِّ وَرَسُولِهِ..﴾ الآيتان [البقرة:٢٧٨-٢٧٩].

ثم عقد المصنف رحمه الله هذا العنوان لبيان هذه الكبيرة: (أَكْلُ الرِّبَا).

وأكل الرِّبا هو في الحقيقية هو أكلٌ لأموال الناس بالباطل وبغير حق وبغير عوض وبغير مقابل، وهو من أمر الجاهلية، والنبي ﷺ لّما حجّ حجة الوداع وخطب الناس وهدم أمور الجاهلية ووضعها تحدت قدميه، ومن ضمن ما قال في ذلك الربا، وأخبر أنّ الربا وغيره من أمور الجاهلية كلها وضعها تحت قدميه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، فالربا يوضع تحت القدم وليس أمرًا يُطلب ومقصدا يُسعى لتحصيله؛ بل هو أمر بغيض وأمر مهين مكانه تحت القدم.

ويشتغل للإنسان بالأعمال الصالحة والخيرات الزاكية وطلب المال مما شرع الله، بالوجه الذي أحلَّه.

والشريعة جاءت بتحريم الرِّبا لأنه يفسد المجتمع كله، حتى من يستحوذ على المال، الكل يفسد:

فأما الذي استحوذ على المال فهو مال ممحوق.

وأما الذي أُخذ منه المال بغير حق فيبقى صريع الفقر والحاجة والعوز.

فتكون الأموال مكدَّسة عند الأغنياء ممحوقة البركة، والفقر يشتد في المجتمع كأشد ما يكون، والحاجة تظهر على الناس أشد ما يكون، وأموال هؤلاء الفقراء والمحتاجين مكنوزة ومجموعة عند الأغنياء عن غير حاجة إليها؛ بل هي ممحوقة البركة، يعني أموال طائلة عندهم مجتمعة لا يستفيد منها ولا يَنتفع بها، وليس ببقائها عنده أي ثمرة عليه لا في دينه ولا في دنياه، المهم أن الخطر من أبلغ ما يكون؛ ولهذا جاء الإسلام بتحريمه، وجاء الإسلام بالصّفح والعفو والإحسان ومساعدة الآخرين ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة:٢٨٠]، مراعاة الحقوق، والتعامل بالتآخي والمحبة، معاني عظيمة جاء الإسلام بها.

وأما أكل الربا، فهـٰذا أكل لأموال الناس بالباطل والظلم والبغي والعدوان فجاءت بتحريمه.

وجاءت النصوص المحرِّمة للربا ببيان العقوبات الشديدة للمرابي، وهنا في الآية الأولى وصف المرابي بأنه محارب لله ورسوله قال: ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة:٢٧٩]، ومن كان بهذا الأمر -يعني أُذن له بحرب من الله ورسوله- فما أشد خسارته في دنياه وأخراه، خسارة في الدنيا والآخرة، قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة:٢٧٨- ٢٧٩].

والآية الثانية في تحريم الربا قال: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ [البقرة:٢٧٥]، ﴿لاَ يَقُومُونَ﴾: أي يوم القيامة من قبورهم، عندما يكون البعث والنشور لرب

العالمين لا يقوم المرابي إلا على هذه الصفة التي ذكرها الله ﴿لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ يعني يقوم مثقلًا مترنّحًا ثقيلًا في قيامه. قال بعض أهل العلم: لثقل بطنه وامتلاء بطنه بالمال المحرم الذي ملأ بطنه به في حياته، وجاء في الحديث: «كل جسد قام على السحت فالنار أولى به».

وَقَالَ تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ..﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الآية[البقرة:٢٧٥].

قوله: ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٢٧٥] إن كان مستحلا للربا فهو كافر مخلد في النار أبد الآباد، وإن كان غير مستحل له؛ ولكن غلبته نفسه فوقع في الربا أو وقع في بعض المعاملات الربوية، فهو مرتكب لجريمة عظيمة وجريمة كبيرة وإثمٍ عظيمٍ وهو عرضة للعقوبة.

فَهَذا وَعِيدٌ عَظِيمٌ بِالْخُلُودِ فِي النَّارِ كَمَا تَرى لِمَنْ عَادَ إِلَى الرِّبَا بَعدَ الْمَوْعِظَةِ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات» قَالُوا: وَمَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ؟! قَالَ: «الْشِرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ». وَقَالَ ﷺ: «لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَالْتِرمِذِيُّ فَزَادَ: «وَشَاهِدَيْهِ وَكَاتِبَهُ» وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ. وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «آكِلُ الرِّبَا وَمُوكِلُهُ وَكَاتِبُهُ إِذَا عَلِمُوا ذَلِكَ مَلْعُونُونَ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ.

كما قدمت إن كان مستحلا فحكمه الخلود في النار أبد الآباد لأنه كافر، وإن كان غير مستحل فيكون قوله تعالى: ﴿أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة٢٧٥] أي ما لم يمنع مانع، والتوحيد مانع من الخلود كما جاءت بذلك نصوص أخرى، ومنها قوله: «أخرجوا من النار من قال لا إلـٰه إلا الله » فالتوحيد مانع من الخلود ما لم يكن الإنسان كافرا بالله، ما لم يكن ناقضًا لتوحيده، فالتوحيد مانع من الخلود، وفهم هـٰذه النصوص يظهر بضم النصوص بعضها إلى بعض: نصوص الوعيد ونصوص الوعد.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات» قَالُوا: وَمَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ؟! قَالَ: «الْشِرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ

الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ».

هـٰذا الحديث ذكرت لكم فيما سبق أنه سيتكرر معنا بِحَسَب الكبائر، في الكبيرة القادمة أكل مال اليتيم سيأتي معنا، وعند قتل النفس سيأتي معنا، وعند السحر وعند الشرك مر، فهو يتكرر، والمصنف عادة في إيراده لهذا الحديث يذكر أول الحديث وموضوع الشاهد، في كل المواضع كان يذكر الحديث وموضع الشاهد، وهنا ذكر الحديث بتمامه مع أنه سبق أن ذكره بتمامه، وأظن -والله تعالى أعلم- أن هـٰذا نوع من النفع الذي قصد به المصنف قارئ الكتاب، يعني قرأته أولا ثم مرت عليك شواهد ولا يزال يتكرر معك، ثم يأتيكَ في موضع من هـٰذه المواضع أعاده لك بلفظه، لعله قصد ذلك حتى يذكرك ويثبت الأمور السَّبعة التي مرَّت معك في أول الحديث.

والشاهد من الحديث قوله فيه: « وَأَكْلُ الرِّبَا».

وَقَالَ ﷺ: «لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَالْتِرْمِذِيُّ وَزَادَ: «وَشَاهِدَيْهِ وَكَاتِبَهُ» وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «آكِلُ الرِّبَا وَمُوكِلُهُ وَكَاتِبُهُ إِذَا عَلِمُوا ذَلِكَ مَلْعُونُونَ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ.

قوله هنا: «لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ»، «آكِلَ الرِّبَا»: أي المرابي الذي يأخذ الأموال الربوية من الناس، فهذا آكل الربا، وقُدِّم في الذكر هنا؛ لأنه هو الذي يحصل له الانتفاع بهذه الأموال بأخذها، أما المعطي فهو مأخوذ منه، المعطي الذي قال فيه: «وَمُوكِلَهُ» أي معطيه، فالربا فيه آخذ وفيه معطي، فيه أخذ للربا وهو الذي ينتفع بالمال الربوي، وغالبا هـٰذا الصنف هم الأغنياء، يستغلون ما عندهم من مال لاستعماله في المراباة وأخذ ما عند الناس من الأموال بالباطل وسحب ما عندهم من الأموال بالباطل، فـ«آكِلَ الرِّبَا» هو الآخذ، «وَمُوكِلَهُ» هو المعطي، وقد جاء في حديث أخر «والآخذ والمعطي سواء» الآخذ هو الآكل، والموكل هو المعطي الذي أعطى المال الربوي لهذا الآخذ، قدَّم الآكل؛ لأن الأغلب في الانتفاع بهذا المال هو الذي ينتفع به، وخص الأكل بالذكر لأنه من وجوه الانتفاع، ليس كل الانتفاع، يعني ليس كل انتفاع المرابي بالمال أكل، عند بعض المرابيين من الأموال الطائلة لو أنهم أرادوا الأكل بها لاحتاجوا إلى بطون أكبر من بطونهم، يحتاج إلى بطن مثل المدينة الكبيرة حتى يملأه أكلا بالمال الذي عنده، عنده أموالًا طائلة لا حد لها حصَّلها من الربا، فبطنه الصغير ما يمكن أن يأكل به كل ما عنده من أموال، فهو سيأكل شيئًا قليلًا، وإلا لو كان يحتاج إلى أن

يأكل بكلِّ المال الربوي الذي عنده لأحتاج إلى مدينة كبيرة، بطن بحجم مدينة كبيرة حتى يستوعب أكل ماله، ولا تكفي مدينة بل يحتاج دولة حتى يأكل كل الطعام بالمال الذي عنده، فإذا هـٰذا وجه من وجوه الانتفاع قال: «آكل الربا» لأنه وجه؛ بل هو أبرز وجوه الانتفاع الأكل، وإلاَّ سواء أكل به أو بنى به أو اشترى به دابة.. إلخ فهذا كله يتناوله الحكم.

قال: «آكِلَ الرِّبَا وَمُوكلَهُ» أي معطيه، وموكل الربا الذي هو معطي الربا ملعون، ليس الملعون المرابي وحده، فتجد بعض الناس عندما يحتاج يرابي، وتضيع أمواله عند الأغنياء ثم يقول: لعنة الله على هؤلاء المرابين! نقول: اقرأ الحديث: «وَمُوكلَهُ» المعطي، أنت ممنوع أن تأتيه حتى إن كنت محتاج لا ترابي، تبحث عن طريقة مشروعة صحيحة، أما أن يعطي ثم تضيع أمواله على أيديهم ويقول: قاتل الله هؤلاء المرابين، لعنة الله على هؤلاء المرابين، وينسى الحديث! الحديث «لعن لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكلَهُ»، وقال: «الآخذ والمعطي سواء» لماذا المعطي؟ لأنَّه لو لم يعطِ لم يأخذ، فهو الذي أعانه على الإثم، وإلا لو امتنع النَّاس من إعطاء المرابين ما حصل.

فإذن هم الذين أعانوهم وتعاونوا معهم على الإثم والعدوان، فإذًا هـٰذا أمر مهم ينبغي أن يُنتبه له هنا، أن اللعن ليس خاصا بآكل الربا بل هو يشمل الآكل والموكِل الذي هو المعطي، يشمل الآخذ والمعطي، يشمل من أخذ الربا ومن أعطى الربا، كلهم يشملهم اللعن، بل قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «الآخذ والمعطي سواء» لأن هذا الربا عدوان وظلم اشتركا فيه، اشتركا فيه ذاك لحاجته لكثرة المال وهذا لحاجته لبعض المال، فحاجة مشتركة جعلتهما يدخلان في هذا الحُوب الكبير والذنب العظيم، فهما في الإثم سواء وكلٌ منهما جاء ملعونا .

إذًا أكل الربا حرام وإعطاء الربا حرام، وكل هـٰذا من التعاون، وليس هذا فقط، بل جاء في زيادة للحديث، وهي كما نبّه المحقق في مسلم أيضا قال: «وَشَاهِدَيْهِ وَكَاتِبَهُ»، «وَشَاهِدَيْهِ» يعني من شهد على الربا، مثل اثنان: آخذ ومعطي للربا، وأتيا إلى شخص ثالث أو شخصين وقالوا: عندنا معاقدة، اشهد لنا عليها فقال: أشهد. وأدلى بشهادته، أيضا هو يشمله اللعن؛ لأنه تعاون معهما على هـٰذا الأمر، يعني يشمله اللعن لأنه أعانهما على المحذور، وإلا لو أنهم ذهبوا إلى الشاهد والثاني والثالث وقالوا: ما نشهد على الجور، ما نشهد على الربا، ما نشهد على حرام، يمكن يمتنعون، ويمكن يمتنع أحدهما لأنه وُجد من يكفه ويمنعه: هـٰذا حرام ،كيف نشهد عليه؟!! هذا جور، هذا ظلم، كلما ذهبوا إلى واحد امتنع من الشهادة، والمرابي ما يريد أن يدفع ماله إلا بشهود حتى يضمن أن فعلا له هذا المال، فإذا امتنع الناس من الشهادة لم يوجد هـٰذا الربا في الغالب؛

لأن المرابي لابد عند المراباة أن يكون هناك شهود يضبطون.

وأيضا يحتاجون إلى كاتب يكتب لهما، فمن كتب لهما أيضا هو شريك لهما في الإثم؛ لأنه أعانهما على هـٰذه المعاملة الربوية.

إذًا هـٰذا فيه معنى قوله: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة:٢]، فآكل الربا ملعون، وموكل الربا -الذي هو معطيه- ملعون، والشاهد اثنين أو أكثر ملعونين، والكاتب -من يقوم بالكتابة- أيضا ملعون، وهذا كله أيضا يدلنا على خطورة الربا وشدة عقوبة صاحبه عند الله، وأيضا عقوبة من يعين عليه، وإن لم يراب بنفسه ولكنه أعان على الربا، أعان على هذا الإثم فله العقوبة الشديدة.

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «آكِلُ الرِّبَا وَمُوكِلُهُ وَكَاتِبُهُ إِذَا عَلِمُوا ذَلِكَ مَلْعُونُونَ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». [أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ.]

فهـٰذا الحديث نبَّه المحقِّق على أن سنده ضعيف، ولعْنُ آكل الرِّبا وموكله وكاتبه ثابت كما مرّ معنا في صحيح مسلم، قال: «آكِلُ الرِّبَا وَمُوكِلُهُ وَكَاتِبُهُ إِذَا عَلِمُوا ذَلِكَ مَلْعُونُونَ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ولعنهما على لسانه موجود في الحديث الذي قبله، ويزيد في هـٰذا الحديث قضية «إِذَا عَلِمُوا ذَلِكَ» يعني بلغهم الحكم وعرفوا حكم الله تعالى.

الكبيرةُ الثامنةُ
أكلُ مالِ اليَتيمِ ظلمًا

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠].

ثم ذكر هـٰذه الكبيرة: (أَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ظُلْمًا).

(الْيَتِيم) هو ذاك الولد الصغير أو البنت الصغيرة الذي مات عنه أبوه فأصبح يتيما، وترك له مالًا، وهو في صغره لا يدري عن مال والده ولا يدري عن حجمه ولا يستطيع أيضا أن يحفظه، فهو صغير وجاهل ولا معرفةَ له بالمال، بل لو أعطي المال له في صغره لضاع، فهـٰذا المال يحتاج إلى حفظ، واليتيم يحتاج إلى من يكفله ومن يرعاه ومن يقوم به مقام والده، ولهذا جاءت نصوص كثيرة جدا في فضل كفالة اليتيم قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين» وورد في كفالة اليتيم أجر عظيم جدًّا، فكافل اليتيم والمحسن إليه ومن

يرعاه هـٰذا له أجر عظيم وثواب وله منزلة عالية ورفيعة في الجنة لقاء هـٰذا الإحسان، وهـٰذا صنف من الناس يوفقهم الله جلّ وعلا، بعضهم ينفق من أمواله أموالا طائلة ليرعى بها الأيتام رأفة ورحمة وإحسانا وشفقة، وصنف آخر -والعياذ بالله- من الناس فيه شر وفيه فساد وفيه طمع وفيه شَرَه، فيتعدَّى على مال اليتيم.

وانظروا إلى أقسام الناس وأحوالهم وطبقاتهم:

يعني من الناس من فيه من الشفقة والرحمة والإحسان من يخرج من ماله ومن ينفق من ماله الشيء الكثير؛ رعاية للأيتام وشفقة ورحمة.

وقسم آخر غليظ وفيه شَرَه وفيه خصال بهيمية، فيتعدَّى على مال اليتيم ويستغل جهل اليتيم بالمال وعدم علمه فيبدأ يأخذ منه.

وهـٰذا الأخذ قد يكون أخذا تدريجيا، بمعنى أن يأكل بالمعروف؛ لأنّ الأكل إذا كان بالمعروف -كما أيضا سيأتي التنبيه على ذلك عند المصنف- لا شيء فيه، إذا كان يرعاه ويأكل من ماله بالمعروف؛ لأنه هو محتاج ولكنه جَنَّد نفسه لرعاية هـٰذا اليتيم أو رعاية هؤلاء الأيتام وتنمية مالهم فله أن يأكل بالمعروف، فقد يأتيه الشيطان هنا في قضية الأكل بالمعروف فيتأوّل لنفسه فيوسع دائرة المعروف، ويبدأ يأكل من مال اليتيم بشَرَه وبغير حدٍّ، وهو في نفسه متأوِّل أنه يأكل بالمعروف، فهـٰذا صنف ومن الناس.

وصنف آخر هو أصلا فاسد ويأكل أموال الناس بالباطل، واستغل حاجة هؤلاء وضعفهم وفقرهم وقلة علمهم وصغرهم فأكل أموالهم بالباطل، فجاءت الشَّريعة بحماية أموال الأيتام ورعايتها والتأكيد على حفظها، وعُدَّ في الشريعة أكل مال اليتيم كبيرة من الكبائر، عُدّ أكل مال اليتيم كبيرة من الكبائر، يعني ليس جرمًا صغيرًا ولا ذنبًا صغيرًا، وإنما هو ذنب من الذنوب الكبار، ووُصف بأنه موبق أي مهلك لصاحبه في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**» أي المهلكات، وذكر منها أكل مال اليتيم، ونصّ في الحديث على أنه من الموبقات؛ يعني من الذنوب الكبيرة المهلكة.

والله جلّ وعلا ذكر عقوبة أَكَلَةَ أموال اليتامى بالظلم قال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**﴾ [النساء:١٠]، وذنبه الذي اقترفه في الدنيا أكلٌ وضعه في بطنه ظلما، يعني أدخل في بطنه ظلما مالًا لا يحلّ له، وذِكْر الأكل هنا لأنّه الأغلب لا لأن الحكم متعلّق به فقط، سواء أخذ مال اليتيم أكلا أو أخذه بأمور أخرى ، يعني لو أنّ إنسانا أخذ من أموال اليتامى شيئا ولم يأكل

منه، أكل من ماله الخاص، وهـٰذه الأموال استخدمها في مشاريعه الخاصة وتموّلها وأخذها لنفسه هو داخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ لماذا ذُكر الأكل؟ لا لأن الحكم متعلق به مختص به، ولكن ذُكر الأكل لأنه هو الغالب في وجوه الانتفاع بالمال، الغالب الأكل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ الذنب أكلٌ والعقوبة أكلٌ، يأكل نارًا ويصلى سعيرًا في بطنه تتأجج يوم القيامة، هـٰذه عقوبته عند الله ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ..﴾ الآية[الأنعام:١٥٢].

قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يعني إذا أكل منه أو أخذ منه يأخذ منه في حدود المعروف وفي حدود الحاجة، لا أن يبتزّ ماله أو يأخذ ماله أو يتعدّى على ماله، وإنما يأخذ في حدود حاجته، ما دام أنه جنَّد نفسه لرعايته وخدمته وتربيته، وهـٰذا يتطلَّب منه الجهد، فلا بأس أن يأخذ منه بالمعروف شيئًا يسيرًا، والمعروف في كل مكان أو في كل وقت يقدَّر بقَدَرِه، لم يُقيّد بشيء معيَّن، ولكن يُنظر في كل موضع وكل مكان بحسبه.

قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ هنا أيضا انتبه، ما قال: لا تأكلوا، قال: ﴿لَا تَقْرَبُوا﴾ ما قال: لا تأكلوا أو: لا تأخذوا، وإنما قال: ﴿لَا تَقْرَبُوا﴾ وهـٰذا إضافة إلى ما فيه من النهي عن الأكل والأخذ، فيه نهي عن القربان، بمعنى كن بعيدا عن هـٰذا الحمى؛ لأنّ من حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، فقوله: ﴿لَا تَقْرَبُوا﴾ هنا، وأيضا قوله في الآية التي قبلها: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾ في سورة الإسراء نهي عن الأمر ونهي عن قربانه وعن كل وسيلة تُفضي بالإنسان إليه. قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾.

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ..» فَذَكَرَ مِنْهَا أَكْلَ مَالِ الْيَتِيمِ.

وهـٰذا الحديث كما قدمت يتكرر، والشاهد منه هنا قوله: «أكل مال اليتيم» حيث عدّ النبي ﷺ أكل مال اليتيم كبيرة من الكبائر.

فَكُلُّ وَلِيٍّ لِيَتِيمٍ كَانَ فَقِيرًا فَأَكَلَ بِالْمَعْرُوفِ فَلَا بَأْسَ عَلَيْهِ، وَمَا زَادَ عَلَى الْمَعْرُوفِ فَسُحْتٌ(١) حَرَامٌ.

قال: (فَكُلُّ وَلِيٍّ لِيَتِيمٍ كَانَ فَقِيرًا) يعني لاحظ هـٰذه التقييدات، (كَانَ فَقِيرًا) يعني هو محتاج وبذل نفسه لرعاية هـٰذا اليتيم وتنمية أمواله وحفظ أمواله، فله حق لهذا الجهد الذي قدَّمه، وإن كان غنيا فيحتسب ذلك عند الله تعالى؛ لأنه غني وهـٰذا حق لهذا اليتيم .

(فَكُلُّ وَلِيٍّ لِيَتِيمٍ كَانَ فَقِيرًا فَأَكَلَ بِالْمَعْرُوفِ فَلَا بَأْسَ عَلَيْهِ) يعني إذا كان أكل بالمعروف، يعني في حدود الحاجة، فهـٰذا لا بأس عليه، (وَمَا زَادَ عَلَى الْمَعْرُوفِ فَسُحْتٌ حَرَامٌ) وفي الحديث «**كل جسد قام على السحت فالنار أولى به**»، فإذا زاد عن المعروف وتمادى في أكل مال اليتيم صار عُرضة لهذه العقوبة، عُرضة لهذا الوعيد الذي مرّ معنا في النصوص.

وَالْمَعْرُوفُ يُرْجَعُ فِيهِ إِلَى عُرْفِ النَّاسِ الْمُؤْمِنِينَ الْخَالِينَ مِن الْأَغْرَاضِ الْخَبِيثَةِ.

هـٰذا حقيقة ضابط جميل جدا لنعرف به المعروف في هـٰذا الباب، يعني لو أن إنسانا أراد أن يرعى مال يتيم، شخص فقير ومحتاج وأراد أن يرعى مال يتيم وأن يتكفّل برعايته بحيث أنه يأخذ من ماله بالمعروف، فكيف يَضبط المعروف؟

لو ذهب إلى شخص من المعروفين بالابتزاز وأكل الأموال بالباطل وعدم الورع، لو استشار مثل هـٰذا وقال له: ما هو المعروف في أكل مال اليتيم؟ ماذا سيقول له؟ إذا ذهب إلى مثل هـٰذا الشخص المعروف بالابتزاز والأكل يمكن يقول له: فرصتك التي لا تضيع، التي ليس بعدها فرصة، ولا تضيّعها، إن ضيعتها فإنك أحمق، هـٰذه فرصتك الآن، من يلقى مثل هـٰذه الفرصة، مادام أنت الآن ستخدمه وسترعى ماله خذ من ماله، لأنك أنت الآن ستتعب وتضيع منك أوقات، ويبدأ يُدخل عليه أشياء هي من الشيطان ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]، هـٰذا شأن دعاة الباطل؛ ولهذا مثل هـٰذه الأمور ما يستشار فيها إلا مثل ما قال الذهبي، الآن أعطانا ضابطا في هـٰذا الباب قال: (وَالْمَعْرُوفُ يُرْجَعُ فِيهِ إِلَى عُرْفِ النَّاسِ الْمُؤْمِنِينَ الْخَالِينَ مِن الْأَغْرَاضِ الْخَبِيثَةِ.) أما من عنده أغراض خبيثة في الأموال وفي الابتزاز وعدم مراعاة حرمة المال ونحوه، مثل هـٰذا ما يستشار، لأنه لو استشار فسينفق بمشورته ما عنده:

---

(١) سُحْت: حرام لا بركة فيه ولا خير.

كل إناء بالذي فيه ينضح

فالذي ينضح فيه هو خبث عنده واعتاد عليه، فالذي سينضح فيه توجيهه ومشورته هو ما عنده؛ ولهذا الخبيث أو الذي عنده أغراض خبيثة ما يستشار، وإنما يستشار أهل الصلاح وأهل التقى، الذين يوجهونه الوجهة الحسنة ويدلونه على المعروف الذي يمكن أن يأخذ في حدوده.

ونقف هنا، والله تعالى أعلم، وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الدرس الثالث

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألّا إلـٰه إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله، وصلّى الله وسلّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أمّا بعد؛ نواصل مستعينين بالله عز وجل في القراءة في كتاب الكبائر للإمام الذّهبي رحمه الله.

الكبِيرَةُ التَّاسِعَةُ
الْكَذِبُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ

قَدْ ذَهَبَ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ الْكَذِبَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ كُفْرٌ يَنْقُلُ عَنِ الْمِلَّةِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ تَعَمُّدَ الْكَذِبِ عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ فِي تَحْلِيلِ حَرَامٍ أَوْ تَحْرِيمِ حَلَالٍ كُفْرٌ مَحْضٌ، وَإِنَّمَا الشَّأْنُ فِي الْكَذِبِ عَلَيْهِ فِي مَا سِوَى ذَلِكَ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى غَيْرِي، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

قال المصنّف رحمه الله: (الكَبِيرَةُ التَّاسِعَةُ: الْكَذِبُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ)، الكذب هو الإخبار عن الشّيء على خلاف ما هو عليه، وهو من قبائح الأعمال وسيّئ الأقوال، وعندما يكون هـٰذا الإخبار إخبارًا عن الله، أو عن رسوله ﷺ، فإنّه يكون من شنائع الأعمال وأعظمها ومن كبائر الذّنوب وأشدِّها، وقد عقد المصنّف رحمه الله هاهنا هـٰذه الكبيرة أو عنون لهذه الكبيرة -مع أنّه سيأتي عنده لاحقا الكلام عن الكذب أو عن هـٰذه الكبيرة من حيث هي- تنبيهًا على أنّ الكذب على الله والكذب على رسوله ﷺ ليس كالكذب على أيّ أحد؛ بل يترتّب عليه من المفاسد والأخطار والأضرار ما لا حدّ له ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلسِنَتُكُم الكَذِبَ هَذَا حلاَلٌ وهَذَا حَرَامٌ﴾ [النحل:١١٦]، الكذب على الله والكذب على رسوله ﷺ يترتّب عليه بِناء أحكام عند

أقوام، إذا ظنّوا أنّ هـٰذا الكذب صدقا وأنّه فعلا من كلام الله جلّ وعلا سيُبنى على ذلك أحكام وأعمال وتحليل وتحريم، ولهذا خصّ هذا النّوع من الكذب بالكلام عليه هنا -مع أنّه سيأتي الكلام على الكذب عموما.

وذكر المصنّف رحمه الله عن طائفة من أهل العلم أنّ الكذب على النّبي ﷺ كفرٌ ينقل من الملّة، يعني أيّا كان هـٰذا الكذب، ثمّ فصّل المصنّف رحمه الله في هـٰذه المسألة، وذكر أنّ الكذب على النّبي ﷺ على نوعين:

- **نوع** واضح أنّه كفر ناقل من الملّة وهو الذي قال فيه: (وَلَا رَيْبَ أَنَّ تَعَمُّدَ الْكَذِبِ عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فِي تَحْلِيلِ حَرَامٍ أَوْ تَحْرِيمِ حَلَالٍ كُفْرٌ مَحْضٌ)، فهـٰذا النّوع الذي هو في تحليل ما حرّم الله أو في تحريم ما أحلّ الله تعالى هـٰذا كفرٌ محض، وحتّى أيضا الإتيان بأحكام وشرائع ودين لم يأذن به الله جلّ وعلا فهذا كفرٌ محض؛ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى:٢١]، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، فالإتيان بأحكام وشرائع وأحكام والادّعاء بأنّها هي حكم الله وحكم رسوله ﷺ هو من هـٰذا القبيل.

- **والنّوع الآخر** من الكذب هو: أن يكذب ولا [يأتي] بحُكمه، مثل: ما يفعل بعض القصّاص أو الوعّاظ الذين يقولون، أو قال بعضهم عن فعلة قال: "نحن نكذب له لا عليه"، فيكذبون مثلا في التّرغيب في قراءة القرآن أو في قراءة سور معيّنة أو في المحافظة على الصّلاة المفروضة أو من هـٰذا القبيل.

فالذّهبي رحمه الله ذكر أنّ النّوع الأوّل واضح أنّه كفر، وهـٰذا النّوع الثّاني إن لم يكن كفرا فهو من كبائر الذّنوب ومن عظائمها؛ لأنّ كذبًا عليه ﷺ ليس ككذب على أحد و«مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِن النَّارِ»، وسيأتي معنا من الأحاديث التي ساقها المصنّف رحمه الله مبيّنةً شناعة هـٰذا العمل وفظاعته.

قال النّبي ﷺ: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى غَيْرِي، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِن النَّارِ»، الكذب عليه ليس كالكذب على غيره؛ لأنّ الكذب على غيره لا يترتّب عليه بِنَاء أحكام وشرائع ودين، بخلاف الكذب على النّبي ﷺ فإنّه يترتّب عليه تحليل أمور وتحريم أمور.

❀❀◈❀❀

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي جَهَنَّم» صَحِيحٌ.

قال: (وَقَالَ ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي جَهَنَّم»)، وهـٰذا من العقوبات التي أعدّها الله جلّ وعلا لمن يكذب على النّبي ﷺ أنّه يُبنى له بيت في جهنّم: أي يُعذّب فيه.

❀❀◈❀❀

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ يَقُلْ عَنِّي مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

أي أنّ الله عز وجل يُعِدّ له لقوله على النّبي ﷺ ما لم يقل مقعدًا في نار جهنّم يُعذّب فيه.

۞

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الْخِيَانَةَ والْكَذِب».

ثمّ ذكر هذا الحديث، وسنده ضعيف، وهو في الكذب عموما، وإذا كان المؤمن ليس من خصاله الكذب فكيف يكون من خصاله الكذب على النّبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ؟!، ليس الكذب من خصال المؤمن، فكيف يكون من خصال المؤمن الكذب على النّبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ أو الكذب على الله جلّ وعلا؟!

۞

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ رَوَى عَنِّي حَدِيثًا وَهُوَ يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ». فَلَاحَ لَكَ بِهَذَا أَنَّ رِوَايَةَ الْمَوْضُوعِ لَا تَحِلُّ.

ثمّ ختم رحمه الله هذه الكبيرة ببيان عدم جواز رواية المكذوبات والموضوعات على النّبي ﷺ، ومن روى هـٰذه الموضوعات ونقلها ونشرها في الأمّة فهو من أعوان هؤلاء الذين هم كَذَبَة على الله وعلى رسوله ﷺ، فهي لا يحلّ ذكرها إلاّ ببيان كذبها ووَضْعِهَا على رسول الله ﷺ، ولهذا قال المصنّف: (**فَلَاحَ لَكَ بِهَذَا أَنَّ رِوَايَةَ الْمَوْضُوعِ لَا تَحِلُّ**) لا تحلّ حتّى ولو كان المراد برواية الموضوع الترغيب في عملٍ صالح أو التّرهيب من عملٍ سيّء فإنّ هذا لا يحلّ، في كتاب الله عز وجل وسنّة نبيّه ﷺ من المواعظ والزواجر والعظات ما فيه كفاية وغُنية.

قال: «**مَنْ رَوَى عَنِّي حَدِيثًا وَهُوَ يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ**» و«**يُرَى**» بضمّ الياء بمعنى يظنّ، وجوّز بعضهم الفتح: وهو «**يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ**»، وبالفتح تكون بمعنى يعلم؛ يعني وهو على علم أنّه كذب ثمّ يرويه، والرّواية الأخرى «**وَهُوَ يُرَى**» أي يظنّ أنّه كذب، وهـٰذا فيه أنّ الإنسان لا يروي الحديث إلاّ وهو على يقين من أنّه من كلام الرّسول ﷺ.

قال: (**فَلَاحَ لَكَ بِهَذَا أَنَّ رِوَايَةَ الْمَوْضُوعِ لَا تَحِلُّ**) بهذه اللّفتة التي أشار إليها الذّهبي رحمه الله يتبيّن لنا أنّ النّسخة الثّانية من كتاب الكبائر والتي أشرنا إليها وفيها من الأحاديث الموضوعة والرّوايات الواهية دون أن يُنبَّه عليها ليس هـٰذا من منهج الذّهبي رحمه الله في مؤلّفاته، فإمّا أن تكون ليست له ونُسبت إليه وهو الأقرب والأقوى، أو تكون مُسَوَّدَة جمع فيها مادّةً للكتابة في الكبائر ثمّ حرّرها في هـٰذا الكتاب، والأوّل هو الأقرب، والله أعلم.

الكبِيرَةُ العاشِرَةُ
إفطارُ رمضانَ بلا عُذرٍ

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَفْطَرَ يَوْمًا مِنْ رَمَضَانَ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ وَلَا رُخْصَةٍ لَمْ يَقْضِهِ صِيَامُ الدَّهْرِ وَلَوْ صَامَهُ مَا دَامَ لَمْ يَصُمْهُ».

ثمّ ذكر رحمه الله هذه الكبيرة (إِفْطَارُ رَمَضَانَ بِلَا عُذْرٍ)، وصيام رمضان فريضة من فرائض الإسلام وركنٌ من أركانه، كتبه الله تَبَارَكَ وَتَعَالى على عباده المؤمنين لعلّهم يتّقون، فهو فريضة من فرائض الإسلام وركن من أركانه، ووقت صيام رمضان هو نهار رمضان، من طلوع الفجر إلى غروب الشّمس، هـٰذا وقت صيام هذه الفريضة في شهر رمضان، فإن جاء هـٰذا الوقت المعيّن والمحدّد شرعًا للصيام ولم يصم بلا عذر، ولم يصم دون عذر من مرض أو مانع أو عارض وإنّما تعمّد ترك الصّيام، فهل صيامه يُقبل لو صام بعد رمضان وهو قد تعمّد عدم الصّيام في الوقت المعيّن؟

أورد المصنّف هنا هذا الحديث ونبّه على أنّه لم يثبُت عن النّبي ﷺ «مَنْ أَفْطَرَ يَوْمًا مِنْ رَمَضَانَ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ وَلَا رُخْصَةٍ لَمْ يَقْضِهِ صِيَامُ الدَّهْرِ وَلَوْ صَامَهُ»، والحديث كما نبّه المصنّف رحمه الله لم يثبُت؛ لكن بعض أهل العلم استدلّ على هـٰذا الحكم وأنّ صيامه لا يُقبل ويردّ عليه بعموم قوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، أي مردودٌ على صاحبه غير مقبولٍ منه، فهـٰذه فريضة وقتها المعين لأدائها هو نهار رمضان، فمن تعمّد تركها في هـٰذا الوقت ثم أتى بها في وقتٍ آخر يكون قد أتى بها على خلاف ما ورد عن النبي ﷺ وعلى خلاف عمله، بخلاف من عرض له عارض المرض، أو كانت له رخصة كالسفر فهـٰذا حكمه واضح؛ لكن من يتعمد، وعلى كلّ حال وهذا يدلنا على خطورة هـٰذا الذنب وعظم هـٰذه الكبيرة: تعمد ترك صيام رمضان أو بعض أيامه في الوقت المعين والوقت المحدد الذي افترض الله تَبَارَكَ وَتَعَالى على المسلمين الصيام فيه.

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانِ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ».

ثم أخذ يسوق بعض النصوص التي فيها مكانة الصيام من الإسلام، ومنزلته من الدين، وما يترتب على المحافظة عليه وحفظه من الثمار والآثار، فذكر أولا: قول النبي ﷺ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى

«الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانٍ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ»، ففي هـٰذا الحديث من فوائد صيام شهر رمضان: أنه مكفّر للذنوب ما اجتنبت الكبائر؛ لأن الكبائر أو الكبيرة لا يُكفّرها إلا التوبة؛ التوبة منها إلى الله تعالى، وأما صغائر الذنوب واللّمم وما دون الكبائر فهـٰذه تُكفَّر بالمحافظة على الفرائض: الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، هـٰذه تكفر ما بينها من الصغائر التي تقع بينها، وأما الكبائر فلا يُكفّرها إلا التوبة، وقد ذكر بعض العلماء أن قوة هـٰذه الفرائض؛ قوة استمساك العبد بهذه الفرائض وقوة حفظه لها ومحافظته عليها قد يكون فيها تكفيرا للصغائر ويَلْقَى فيها قوة تُكفّر بعض الكبائر كما أشار إلى هـٰذا ابن القيم ومن قبله شيخ الإسلام ابن تيمية وبعض أهل العلم- هي ليست مكفرة للكبائر؛ لأن في الحديث: «مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ»؛ لكن قد تكون في هـٰذه المحافظة على الفرائض وهـٰذه الطاعات العظيمة وما يكون فيها من خشوع وخضوع وذل لله جل وعلا ما يكون به أيضا تكفير لبعض الكبائر، وهـٰذا شيخ الإسلام ابن تيمية انتصر له وتوسع في الكلام عليه في كتابه (الإيمان).

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

فيه أنّ الصيام؛ صيام رمضان من مباني الإسلام الخمسة، والإسلام بمثابة البناء، والبناء لا يقوم إلا على عماد كما قيل:

وَالْبَيْتُ لاَ يُبْتَنَى إلاَّ بِأَعْمِدَةٍ	وَلاَ عِمَادَ إِذَا لَمْ تُرْسَ أَوْتَادُ

وعماد الإسلام هـٰذه المباني الخمسة، فهي دعائم الإسلام التي عليها قيامه.

وَقَالَ حَمَّادُ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ عَمْرُو بْنِ مَالِكَ الْبَكْرِيّ، عَنْ أَبِي الْجُوْزَاءِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسَ رَّضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا قال: "عُرَى الْإِسْلَامِ وَقَوَاعِدِ الدِّينِ ثَلَاثَةٌ: شَهَادَةُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَالصَّلَاةُ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، فَمَنْ تَرَكَ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ فَهُوَ كَافِرٌ". وَتَجِدُهُ كَثِيرَ الْمَالِ وَلَمْ يَحُجْ وَلَمْ يُزَكِّ وَلَا يَحِلُّ دَمَهُ. هَذَا خَبَرٌ صَحِيحٌ.

ثم أورد الذهبي رحمه الله هـٰذا الأثر الموقوف على ابن عباس ﭭ في عُرَى الإسلام، والعُرْوَة: ما يُتمسك به ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ﴾ [البقرة:٢٦٥]، العُرْوَة ما يُتمسك به، وعُرَى الإسلام: أي أصوله وقواعده -وكما مرّ- مبانيه: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»، (عُرَى الْإِسْلَامِ وَقَوَاعِدُ

الدِّينِ)، وقوله: (**وَقَوَاعِدُ الدِّينِ**) توضح قوله: (**عُرَى الْإِسْلَامِ**).

قال: (**ثَلَاثَةٌ: شَهَادَةُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَالصَّلَاةُ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ**) كون هـٰذه الثلاثة من عُرَى الإسلام وقواعد الدين يشهد له الحديث الذي قبله «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ**» وذكر الشهادتين والصلاة والصيام.

قال: (**فَمَنْ تَرَكَ وَاحِدَةً مِنْهُا فَهُوَ كَافِرٌ**)، قال: (**وَتَجِدُهُ كَثِيرَ الْمَالِ وَلَمِ يَحُجْ وَلَمْ يُزَكِّ وَلَا يَحِلُّ دَمَهُ. هَذَا خَبَرٌ صَحِيحٌ.**) يعني هـٰذا فيه التأكيد على عُرى الإسلام التي هي الشهادتين والصلاة والصوم؛ ولكن هـٰذا الأثر لم يثبت عن ابن عباس ﷺ، وللشيخ الألباني رحمه الله كلام على سنده وذِكْر لتخريجه في كتابه السلسلة الضعيفة برقم (٩٤).

❀❀◇❀❀

وَعِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ مُقَرَّرٌ أَنَّ مَنْ تَرَكَ صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ بِلَا مَرَضٍ وَلَا عَرَضٍ؛ أَنَّهُ شَرٌّ مِن الزَّانِي، وَالْمَكَّاسِ، وَمُدْمِنَ الْخَمْرِ. بَلْ يَشُكُّونَ فِي إِسْلَامِهِ، وَيَظُنُّونَ بِهِ الزَّنْدَقَةَ وَالانْحِلَالَ.

هذا متقرر مثل ما ذكر الإمام الذهبي رحمه الله عند المؤمنين، وتعظيم الصيام أمر مُرتكز في نفوس كثير من المؤمنين، حتى إن بعضهم يعني يحصل منه لا يفرط في الصيام، والصلاة التي هي أعظم من الصيام ولا قبول للصيام إلا بها لا يحافظ عليها ولا يعتني بها؛ لكن الصيام يعني أمره متمكن في قلوب المؤمنين حتى صار بهذه الصفة أن من ترك صوم رمضان بلا مرض ولا عرض أنه شر من الزاني والمَكّاس ومدمن الخمر؛ بل يشكون في إسلامه ويظنون أنه من الزنيدقة، إذا تبين لهم أنه لا يصوم أو يُفطر أو رأوه يأكل في رمضان، ويرونه متهاونا في الصلاة ولا يقع فيهم هـٰذا الإحساس، مع أن شأن الصلاة أعظم وأكبر.

وعلى كل حال هـٰذه لفتة أشار إليها الذهبي رحمه الله في بيان واقع الصيام ومكانة الصيام في نفوس الناس.

❀❀◇❀❀

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ وَالْجَهْلَ فَلَا حَاجَةَ لله بِأَنْ يَدَعَ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ». صَحِيحٌ.

ثم أورد رحمه الله هـٰذا الحديث ليبين أن الصيام لابد فيه أيضا من حفظ الصيام نفسه، والإتيان به على ما شرع الله جلّ وعلا وأمر عباده، وألّا يكون صيامه مجرد امتناع عن الطعام والشراب والجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس؛ بل يحقق غاية الصيام ومقصده وهو تقوى الله جل وعلا بالبُعد عن الحرام والآثام والجهل وقول الزور والعمل بالزور. فجاء في الحديث: «**مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ وَالْجَهْلَ فَلَا حَاجَةَ لله بِأَنْ يَدَعَ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ**»؛ بل ترك الطعام والشراب الغرض منه التقوى، فإذا لم يدع قول الزّور والجهل

والعمل به ما [ظهر] عليه أثر الصيام، فنبه المصنف رحمه الله أن الصيام النافع والذي يكون به تكفير السيئات هو الذي يحقق للعبد تقوى الله عز وجل، وكل ما كان أبلغ ذلك في العبد كان ذلك أعظم أثرا وأكبر أجرا.

وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «رَغِمَ أَنفُ امْرِئٍ أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ».

ثم أيضا نبه على هـٰذه المسألة بهذا الحديث وهو قول النبي ﷺ: «**رَغِمَ أَنفُ امْرِئٍ أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ**»؛ أي أن شهر رمضان موسم لمغفرة الذنوب، فيجدُر بالمسلم مع صيامه وحفظه لفريضة الصيام أن يستغل هذا الموسم للإقبال على الله تعالى والاستكثار من الطاعات والتوبة من الخطايا والسيئات لعله يكون من عتقاء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من النار، ولعله يكون ممن كتبت لهم المغفرة والرحمة، فشهر رمضان موسم عظيم مبارك للعتق من النار وغفران الذّنوب وفيه إقبال القلوب على الله تعالى، فإذا كان قلب الإنسان خاملا ضعيفا متوانيا لم يُقبِل على الله تعالى في هذا الشهر العظيم متى يقبل على الله؟، وإذا لم تحصل منه الإنابة والاستغفار والتوبة في هـٰذا الموسم الكبير ولم يتحرك قلبه متى عسى قلبه أن يتحرك؟ «**من أدرك رمضان ثم خرج فلم يغفر له فأبعده الله**» كما جاء في الحديث الآخر، وهنا قال: «**رَغِمَ أَنفُ امْرِئٍ**»؛ لأنه دخل في موسم عظيم للغفران وللعتق من النار والفوز برحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وهو سَادر في غَيِّه مُعرِض عن طاعة ربه فيدخلُ موسم الغفران ويخرج ولم يتحرك مقبلا على طاعة الله جلّ وعلا.

الكبيرَة الحَادِيَة عشرَة
الفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال:١٦].

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ... » فَذَكَرَ مِنْهَا التَّولِي يومَ الزَّحْفِ.

ثم أورد رحمه الله هـٰذه الكبيرة (الفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ) وقد جاءت معنا في حديث السبع الموبقات وسيذكر المصنف هنا. و"الفِرَارُ يوم الزَّحْفِ" أي التولي والهروب من القتال عندما يزحف صف المسلمين متجها إلى صف الأعداء.

التولي يوم الزحف: أي عندما يزحف صف المسلمين متجها إلى صف الأعداء، وهذا محك للصبر والصمود والإقبال عند معاينة المجابهة والملاقاة، فالتولي يوم الزحف في زحف جيش المسلمين لملاقاة

الأعداء، هـٰذا كبيرة من الكبائر إلا في حالتين جاءتا استثناؤهما في القرآن الكريم:

﴿إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ﴾ يعني يرجع، يفر ليكر، يرجع ليعود، يَرجِع ليذهب إلى جهة أحوج، فهذا فِرارٌ أو رجوعٌ من أجل مصلحة الجهاد، ليس هروبا منه، فهذا لابأس به.

﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ..﴾ يعني احتاجت فئة أخرى إلى وقوفه معها، ففرّ وذهب إلى الجهة الأخرى.

فهاتان الحالتان لا إثمَ فيهما لأنه عملٌ من مصلحة الجهاد، لكن الفرار –من حيث هو– والتولّي يوم الزحف هـٰذا كبيرة.

وإذا كان التولّي يوم الزحف كبيرةً من شخصٍ رغِب في الجهاد، وأقبل على الجهاد، وأقدم على الجهاد، وحمل سيفه في الجهاد واتجه إلى مقابلة الأعداء، لكن لمّا وصل إلى مرحلة المجابهة فرَّ، إذا كان هـٰذا كبيرةً، فكيف بمن يكون عونا للكفار على المسلمين، أو يُمارس أمورا من هـٰذا القبيل؟ إذا كان من يفرّ مع أنه مضى للجهاد، وسعى لتحقيق هذا القُربة، لكن عند المجابهة فرَّ، فكيف بمن يُعين الكفار على المسلمين؟ لا شك أن هـٰذا أشنع وأعظم.

وهـٰذا وجهٌ مما استدل به أهل العلم على أن هـٰذا الحديث ليس حاصرا للكبائر، بل إنّ من الكبائر المذكورة أعمالٌ في الباب نفسه أشنع منها وأعظم؛ فإذن هـٰذا ليس حصرا للكبائر؛ بل إن هناك كبائر كثيرة ذُكرت في السُنّة ودلت عليها النصوص زائدة على هـٰذا القدر الوارد في حديث «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ». والفرار من الزحف كبيرة لأنه له خطر عظيم، يعني لو لم يأت أصلا للجهاد ربما يكون أهون؛ لأنه إذا حصلت الملاقاة، يحتاج من الصفّ الإسلامي إلى الصمود وثبات وإقدام وإقبال، هـٰذا الذي يحتاجه هذا المقام؛ فإذا فرّ واحد وفرّ الثاني وفرّ الثالث صار للصف كُلّه ضعف وتقليل، وأيضا صار للأعداء تقوية على المسلمين عندما يرون بعضهم بدأ يلوذ بالفرار، ففيه أضرار كثيرة وخطر على المسلمين، ولهذا كان كبيرة من الكبائر.

الكبِيرةُ الثّانيةَ عشْرَة
الزّنى، وبعضُهُ أكبَرُ إثما مِنْ بعضٍ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢].

ذكر المصنف رحمه الله هـٰذه الكبيرة، كبيرة الزنى، وهي إتيان الإنسان لهـٰذه الفاحشة المعروفة التي هي عدوان (قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون:٥-٧]) أي المتعدّون لحدّ الشريعة

وحدود الإسلام، فالزنى جريمة كبيرة، وفيه فساد عريض للمجتمعات، ويترتّب عليه من الآفات والأخطار والأضرار ما لا حدّ له ولا عدّ؛ ولهذا من نعمة الله بهذه الشريعة -شريعة الإسلام- تحريم الزنى، وعدّه فاحشة عظيمة وحُوبًا كبيرا، حرّمه الإسلام ومنعه ونهى الناس عنه لما فيه من الأخطار التي لا حدّ لها ولا عدّ.

وذكر المصنف رحمه الله أنّ الزنى بعضه أكبر إثما من بعض، الزنى كله كبيرة كيفما كان، ولكن بعضه أكبر من بعض. وسيأتي في النصوص التي يوردها المصنف رحمه الله ما يُبيّن لنا تفاوت هـٰذه الجريمة -جريمة الزنى- في الكِبَر وأن بعضه أكبر من بعض.

أورد أولا قول الله عز وجل: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢] وصف الله جلّ وعلا الزنى بأنه ﴿فَاحِشَةً﴾، والفاحشة هو ما قَبُح من الذنوب والمعاصي، أو ما اشتدّ قُبحه من الذنوب والمعاصي يُقال: فاحشة، فالزنى فاحشة. ﴿وَسَاء سَبِيلًا﴾ أي: أن سبيل الزنى سبيلٌ بالغٌ مبلغا عظيما في السوء والقُبح والشناعة، ويُدرك الناس قبحه بفِطَرهم حتى من يمارسه، بدليل أنه ما يرضاه لبيته ولا يرضاه لأهله، إلا من زاد في ممارسة هـٰذا العمل وزاد فيه فإنه يصل إلى مرحلة -يأتي الكلام عليها- وهي مرحلة الدياثة (إقرار الخَبَث في أهله) -والعياذ بالله-، وهـٰذه أيضا من نتائج ممارسة هذه الفاحشة، أن تذهب الغيرة وتُنتَزع من الصدر ويكون ديوثا، يرضى الخَبث في أهله ولا يتأثر لحصوله أو لوقوعه.

قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى﴾ وتأمل هنا النهي عن الزنى جاء بهذا اللفظ: النهي عن قربانه، وهـٰذا فيه دليل على أن الزنى محرّم، وأن كل طريق يُفضي إليه محرّم، والوسائل لها أحكام المقاصد، فالوسيلة التي تفضي إلى الزّنى وتؤدي إليه فهي محرمة وهي داخلة تحت قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى﴾.

ويدخل تحت قوله: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى﴾ النظر المحرّم والسماع المحرم، وإتيان الأماكن التي يُخشى على الإنسان أن تجرّه إلى هـٰذه الفاحشة وأن تُحرك قلبه إليها، فهـٰذا كله داخل تحت قوله: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى﴾.

وقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ الآيات [الفرقان:٦٨].

في هـٰذا السياق، ما يدل على خطورة هذه الجريمة -جريمة الزنى-؛ حيث إن الله عز وجل ذكرها مضمومة إلى الشرك بالله والقتل، فهـٰذا فيه دليل على أن الزنى من أكبر الكبائر، وذُكر في كتاب الله عز وجل مقرونا بالشرك بالله وقتْل النفس التي حرم الله إلا بالحق، ووصف الله وأخبر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن فاعل ذلك

﴿يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا(٦٩) إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان:٦٨٧٠].

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ...﴾الآية[النور:٢].

وهـٰذا الدليل فيه ذِكرُ حَدٍّ في الدنيا لهـٰذه الجريمة وهو الجَلد. قال: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ ..﴾ [النور:٢]، فهذا حدٌّ في الدنيا، غير الوعيد الذي أعدّه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى للزواني والزنية يوم القيامة.

وقد سبق أن عرفنا في المقدمة أنّ مما تُعرف به الكبيرة أن يُذكر لها حدٌّ في الدنيا، فالكبيرة ضابطها: ما فيه حدٌّ في الدنيا أو وعيد في الآخرة.

إذن هـٰذا الدليل، أورده المصنف للدّلالة على أن الزِّنى كبيرة من الكبائر لهذا الحدّ الذي ذُكر لفاعله في الدّنيا إضافة إلى ما سبق من النّصوص الصحيحة الواضحة في أنّه من الكبائر بالوعيد في الآخرة على فعله بالنار، والعقوبة وسخط الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وقوله: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾ هـٰذا إذا كان الزّاني بِكرًا، فهـٰذه عقوبة أو هذا حدّه، أما إذا كان محصنا بالزواج فإن حدّه الرّجم حتى الموت كما جاء ذلك مُبيَّنا في السُّنّة.

وَقَالَ: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٣].

ثم ذكر هـٰذه الآية وفيها بيان شناعة الزنى، وما يترتب عليه من الخطر على من مارسه ومن عُرف به، فقال الله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ..﴾ لماذا؟ لأن من زنى العفيفة لا تقبله ولا ترضاه لنفسها، فمن كان زانيا لا يجد إلا إنسانة بهذه الصفة، أو مشركة لا تؤمن بالله، فلا تبالي أن ترضى بمثله، أما المرأة المؤمنة العفيفة الصالحة إن علمت أنّ من تقدّم لها من الزنية أو من أهل هـٰذه الفاحشة لا ترضاه لنفسها ولا تقبل. وكذلك ﴿الزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾، إذا عُرفت المرأة بالبغي والزنى والفاحشة فإن العفيف من الرجال لا يرضاها لنفسه ولا يقبلها، ولا يُقبل عليها إلا من هو على شاكلتها، أو مشرك لا يؤمن بالله وليس عنده وازع يجعله يقيس هـٰذه الأمور؛ فلا يبالي إذا أعجب بشكلها أو بمنظرها أو أشياء من هـٰذا القبيل، فهذا المقياس عنده في هـٰذا الباب.

فإذن الزاني والزانية من الأشياء التي تترتب عليه أن يكون مرفوضا في المجتمع وليس له مكانة، ولا يقبله أهل الإيمان ولا يُقبلون عليه، هـٰذا هو المعنى في قوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ﴾ نكاح الزانية وحُرِّمَ على المؤمنة أن تنكح الزاني إذا كانت تعلم أنه رجل يمارس هـٰذه الفاحشة، فيحرم عليها أن تأخذه؛ بل بعض أهل العلم ذكر أن مثل هذا النكاح محرّم وباطل ولا ينعقد إذا كانت تعلم يقينًا أنّ الرجل على هـٰذه الصفة، وأما إذا عُلم أن الشخص أنه تاب وصدق مع الله في توبته، ومع المدة وطول الزمان تبيّن فعلا استقامته وندمه وتوبته، فإن مثل هـٰذا لا يقال عنه أنه من الزنية؛ بل يقال عنه: إنه من التائبين.

وَقَالَ ﷺ وَسُئِلَ أيُّ الذَّنْبِ أعْظَمُ؟ قَالَ: «أنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ، قَالَ: ثُمَّ أيٌّ؟ قَالَ: أنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أنْ يَطْعَمَ مَعَكَ، قَالَ: ثُمَّ أيٌّ؟ قَالَ: أنْ تُزانِي حَلِيلَةَ جَارِكَ».

ثم ذكر المصنف رحمه الله هـٰذا الحديث عن النبي ﷺ أنه (وَسُئِلَ أيُّ الذَّنْبِ أعْظَمُ؟ قَالَ: «أنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ، قَالَ: ثُمَّ أيٌّ؟ قَالَ: أنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أنْ يَطْعَمَ مَعَكَ، قَالَ: ثُمَّ أيٌّ؟ قَالَ: أنْ تُزانِي حَلِيلَةَ جَارِكَ») وهـٰذا الحديث ذُكر فيه على الترتيب الأمور الثلاثة المذكورة في الآية ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨].

والشاهد من الحديث قوله: «أنْ تُزانِي حَلِيلَةَ جَارِكَ». وحليلة الجار أي زوجة الجار، وهنا هـٰذا الحديث هو من الدلائل على تفاوت هـٰذه الكبيرة، فالزنى بحليلة الجار أعظم من الزنى ببعيدة الدار؛ لأنّ في هـٰذا الزنى أي بحليلة الجار تَعدٍّ على حق الجار، وفي الحديث «لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه»، فهو كبيرة من جهة الزنى، وكبيرة من جهة تعديه على جاره، وعدوانه على جاره، وإفساده لفراش جاره، فهو كبيرة من جهة كونه زنا، ومن جهة كونه تَعدَّى على الجار، وقد قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه» وقد مرّ معنا أن نفي الإيمان لا يكون إلا عن كبيرٍ، نفي الإيمان لا يكون إلا عن كبير، لا يكون نفي الإيمان عن مستحب أو أمور من الرغائب والمستحبات، فلا يكون نفي الإيمان إلا عن كبير.

فنفي الإيمان هنا دليل على أن من يعتدي على الجار ومن يمارس العدوان مع جاره مرتكبا لكبيرة، وأي عدوان أعظم وأشنع من أن يفسد على جاره فراشه، ومثله هو الذي يكون فيه معونة لجاره بحفظ فراشه وحفظ أولاده وحفظ بيته فإذا بلغ هذا المبلغ من السوء فهـٰذا كبير وأكبر من مجرد الزنى، فالزنى إذًا يتفاوت

وبعضه أكبر من بعض بحسب المكان وبحسب الفاعل وبحسب المفعول به وبحسب الزمان، وسيأتي عند المصنف رحمه الله أيضا أدلة تشهد لهـٰذا المعنى .

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «لاَ يَزْنِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، ولاَ يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ».

وهـٰذا الحديث فيه دليل واضح على أن الزنى كبيرة؛ لأن النبي ﷺ نفى عن الزاني الإيمان فقال: «لاَ يَزْنِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»، وعرفنا أن نفي الإيمان لا يكون إلا عن كبير، لا يُنفى الإيمان عن أمر صغير، وإنما يُنفي الإيمان عن أمر كبير، إما ترك واجب أو فعل محرم، لا يأتي نفى الإيمان إلا في هذين الحالتين: إما بترك واجب، أو في فعل محرم .

ولا يأتي في النصوص أبدا نفي الإيمان لترك مستحب أو لفعل أمر مكروه أو صغيرة من الصغائر، لا يأتي نفي الإيمان في مثل هـٰذا.

فإذًا نفي الإيمان هنا دليل على أنّ الزنى كبيرة.

وفي الحديث فائدة أخرى عظيمة جدًّا يحسُن أن نتنبه لها تتعلق بتعريف الإيمان وحدّه، حيث دلّ الحديث على أن ترك المعاصي إيمان، وأن تركها داخل في مسمى الإيمان} لأن الإيمان نُفي بفعلها فتركها إيمان؛ لأنه بفعلها نُفي الإيمان، إذًا بتركها ومجانبتها والبعد عنها يتحقق الإيمان. فإذًا ترك المعاصي وترك الكبائر هذا داخل في مسمى الإيمان؛ إذًا الإيمان كما أنه يشمل فعل الطاعات فإنه أيضا يشمل ترك المحرّمات، والحديث واضح الدّلالة على ذلك.

والمراد بالإيمان المنفي ليس أصل الإيمان، يعني ليس المراد «لاَ يَزْنِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ» أي أنه خرج من الدين وصار به كافرا، ليس هـٰذا المراد، وإنما الإيمان يُنفى بترك واجب من الواجبات أو فعل أمر من المحرمات، فيُنفى الإيمان ،ويكون على هـٰذا المنفي ليس أصل الإيمان، وإنما المنفي كمال الإيمان الواجب بمعنى أن من زنى أو سرق أو شرب الخمر لم يصبح مستحقا للإيمان المطلق، ولم يكن في الوقت نفسه خارجا من مطلق الإيمان، فأصل الإيمان باقي؛ لكن خرج من الإيمان المطلق أي الإيمان الواجب التام الكامل الذي رُتب على فعله وعلى تحقيقه حصول الثواب والسلامة من العقاب، أما من زنى لم يكن من أهل هـٰذا الإيمان، وأيضا لم يكن من الخارجين من الدين؛ لأنه لا يخرج من الدين بكبيرة؛ لكنه لا يؤمن يعني ليس من أهل الإيمان الذين لهم الوعد بالثواب العظيم والجنة والنجاة من النار، ليس من أهل الإيمان الذي له هـٰذا الوعد.

إذًا قوله «لَا يَزْنِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ» المنفي هنا الإيمان الواجب ليس المنفي أصل الإيمان، وليس المنفي أيضا الإيمان المستحب، وإنما المنفي هو الإيمان الواجب.

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «إِذَا زَنَى العَبْدُ خَرَجَ مِنْهُ الْإِيمَانُ فَكَانَ كَالظُّلَّةِ عَلَى رَأْسِهِ، ثُمَّ إِذَا أَقْلَعَ رَجَعَ إِلَيْهِ الإِيمَانُ» هَذَا عَلَى شَرْطِ البُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ.

ثم أورد رحمه الله هـٰذا الحديث «إِذَا زَنَى العَبْدُ خَرَجَ مِنْهُ الْإِيمَانُ فَكَانَ كَالظُّلَّةِ» ومن المعلوم أن "الظلة" ملازمة للشيء ليست منفكة عنه تماما، وإنما هي ملازمة للشيء ومرتبطة به نوع ارتباط، فالحديث لا يدل على أن من زنى خرج من الملة وصار بزناه كافرا، وقوله: «إِذَا زَنَى العَبْدُ خَرَجَ مِنْهُ الْإِيمَانُ فَكَانَ كَالظُّلَّةِ»، "الظلة" ملازمة للشيء ولها به نوع ارتباط، فدل ذلك على أنه أصل الإيمان باقٍ عنده؛ ولكنه بالزنى خرج منه الإيمان الواجب الذي وُعد صاحبه بالثواب والجنة والنجاة من النار والعقوبة وسخط الله تَبَارَكَ وَتَعَالى، يكون خرج من هذا الإيمان، ولا يكون خرج من الدين كلية؛ لأن الظلة كما علمنا لها ارتباط ونوع صلة وهي ملازمة للشيء؛ ملازمة لما هي ظل له وليست منفكة عنه تماما، فهـٰذا يدلنا على أن من زنى خرج من الإيمان الواجب ولم يخرج من الدين كلية كما هو واضح في هذا الحديث.

قال: «إِذَا أَقْلَعَ رَجَعَ إِلَيْهِ الإِيمَانُ» يعني رجع إليه الإيمان الواجب الذي خرج منه، الذي خرج منه ليس أصل الإيمان، وإنما الذي خرج منه الإيمان الواجب، فينبغي أن يُفهم هـٰذا الأمر حتى لا يذهب بالإنسان الفهم إلى مذهب سيئ فيظن في الحديث دلالة على ما ذهب إليه الخوارج أو المعتزلة بخروج المرتكب لهذه الكبيرة الخروج من الإيمان كلية، بمعنى أنه أصبح كافرا أو خارجا من ملة الإسلام، فالحديث لا يدل على هـٰذا لا من قريب ولا من بعيد، فالإيمان الذي خرج هو الإيمان الواجب الذي لصاحبه الوعد والسلامة من الوعيد، وإذا رجع ونزع عنه هذه الكبيرة رجع إليه هذا الإيمان الواجب، أما أصل الإيمان لا يخرج بمجرد ارتكاب هذه الكبيرة .

وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ زَنَى أَوْ شَرِبَ الخَمْرَ نَزَعَ اللهُ مِنْهُ الإِيْمَانَ كَمَا يَخْلَعُ الإِنْسَانُ القَمِيصَ مِنْ رَأْسِهِ» إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ.

أورد المصنف رحمه الله هـٰذا الحديث وهو قوله ﷺ: «مَنْ زَنَى أَوْ شَرِبَ الخَمْرَ نَزَعَ اللهُ مِنْهُ الإِيْمَانَ كَمَا يَخْلَعُ الإِنْسَانُ القَمِيصَ مِنْ رَأْسِهِ» هـٰذا الحديث يختلف في سياقه عن الحديث السابق.

(الظلة) أمرها مثل ما أشرنا ملازمة لما هي ظل له؛ لكن أمر **(القميص)** يختلف، والشيخ الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة برقم (١٢٧٤) حقق القول بأنّ هـٰذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي ﷺ، وإذا كان هذا الإسناد ضعيفا، لا يصح أن يقال أن الحديث الأول شاهدا له؛ لأن المثال مختلف، المثال في الحديثين مختلف، هناك **(كالظلة)** وهنا **(كالقميص)** فالمثال مختلف.

فعلى كل حال فالحديث لم يثبت، وإن ثبت الحديث فإنه يُحمل معناه على معنى الحديث السابق وعلى أيضا معنى عموم الأدلة والنصوص في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ التي فيها الدلالة الواضحة على أن الإنسان لا يخرج بكبيرته من الإيمان.

فيكون معنى الحديث إن صح **«مَنْ زَنَى أَوْ شَرِبَ الخَمْرَ نَزَعَ اللهُ مِنْهُ الإِيْمَانَ»** أي الواجب وليس أصله، فالذي يُنزع ويخرج: الإيمان الواجب الذي لصاحبه الوعد والسلامة من الوعيد، هـٰذا إن صح هذا الحديث وكما قدمت الشيخ الألباني -رحمة الله عليه- حقق القول بضعف هـٰذا الحديث.

وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: «ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

ثم أورد رحمه الله هـٰذا الحديث، والشاهد منه قوله: «**شَيْخٌ زَانٍ**» والشيخ (الرجل الكبير)؛ وجاء في بعض الأحاديث «**الأشيمط الزان**» أي الرجل الـمُسنّ. وهـٰذا الحديث ساقه المصنّف رحمه الله ليُبيّن ما ذكره في العنوان (**وبعضه أكبر إثما من بعض**)؛

فالزنى من الشيخ ليس كالزنى من الشاب، وكل منهما كبيرة من كبائر الإثم وذنب عظيم؛ لكن الزنى من الشيخ أعظم وأشنع وأقبح؛ قال أهل العلم: لأنّ زنى الشاب له ما يحركه ويحتاج أن يقاوم ويدافع قوة الشهوة التي تأتي الشباب؛ لكن الشيخ الكبير بردت شهوته وضعفت فلا يكون المحرك له لفعل هـٰذا الأمر شهوة ثائرة دفعته لمباشرة هـٰذا الأمر، وإنّما يكون الباعث له فساد فيه؛ ليس الذي حركه الشهوة، وإنّما الذي حرّكه الفساد الذي فيه. فهـٰذا يدلّنا على أن الزنى يتفاوت بحسب الفاعل وبحسب أيضا المفعول به -كما سيأتي.

الزنى بذوات المحارم أشنع؛ أو مثل ما تقدّم بحليلة الجار أشنع.

أيضا يتفاوت بحسب الزمان؛ في رمضان أشنع؛ المكان أيضا، المكان الفاضل والبلد الفاضل والبقعة الفاضلة؛ أشنع.

فإذن هو كله كبيرة كيفما كان؛ ولكنه يزداد حجمه بحسب إما الفاعل أو المفعول به أو المكان أو الزمان أو

نحو ذلك. قال: «شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»، «وَمَلِكٌ كَذَّابٌ» هـٰذه ستأتي معنا فيما ما بعد؛ «وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ» أي رجل فقير ويتكبّر ويتعالى على الناس؛ فهـٰذا ليس فيه ما يهيّج التكبر بنفسه؛ لأن المال والرئاسة والجاه ونحو هذه الأمور -إن وُجدت- قد تؤثر على بعض الناس لضعف إيمانه فيقع في الكبر؛ لكن رجل فقير ومُتقع وليس عنده طَول ولا مال ثم يتكبر، ما الذي حرّك فيه الكِبر؟ الجواب هو ما سبق؛ حرك فيه الكبر فساد في نفسه؛ ليس هناك أمور أثارت الكبر فيه وإنّما الذي أثار الكبر فيه فساد في نفسه.

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلًا مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ فَيَخُونُهُ فِيهِمْ إِلاَّ وُقِفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَأْخُذُ مِنْ عَمَلِهِ مَا شَاءَ، فَمَا ظَنُّكُم؟» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وهـٰذا ساقه المصنف في بيان الأمر نفسه؛ أن جريمة الزنى تتفاوت بحسب أمور من ضمنها بحسب من فُعل به؛ وهنا ذكر الزنى -والعياذ بالله- بامرأة المجاهد، التي ذهب زوجها في الجهاد في سبيل الله والقتال في سبيل الله؛ وحق امرأته أن تُصان وأن تُرعى وأن تُكرم لا يُمارَس معها هـٰذه الفاحشة وأن تُغرى بهذه الفاحشة أو تُوقع في هـٰذه الفاحشة.

وذكر النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ أن حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم؛ فإذن هـٰذا زنا؛ ولكنه أفضع من كل الزنى؛ لأنه زنى بنساء المجاهدين، وحرمة نساء المجاهدين عند الله كحرمة نكاح الأم؛ يعني أن ينكح الرجل أمه أو ينكح زوجة مجاهد هما في الحرمة سواء. هـٰذا معنى قوله «حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ» ؛ أي أن الحكم في التحريم أو درجة الحرمة واحدة «كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ».

ثم قال: «وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلًا مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ فَيَخُونُهُ فِيهِمْ إِلاَّ وُقِفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» يعني وُقف هذا القاعد يوم القيامة للمجاهد ويقال للمجاهد: "خذ من عمله ما شئت"؛ يعني خذ من حسناته وأعماله الصالحة، خذ منها ما شئت.

يقول النبي ﷺ «فَمَا ظَنُّكُم؟» يعني كم سيأخذ؟ يأخذ حسنة واحدة ويكتفي، هل سيُبقي له شيئا؟ مقام طلب حسنات ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٧]، فكيف إذا جاء في هـٰذا المقام وأُوقِف له شخص وقيل له: "خذ ماشئت من حسنات"؟ يقول عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ : «فَمَا ظَنُّكُم؟» يعني كيف سيأخذ؟ حسنة واحدة ويقول: سامحتك

في الباقي؟ حسنتين، عفوتُ عنك في الباقي؟ ثلاثة؟ «فَمَا ظَنُّكُم؟» الجواب على هـٰذا واضح من كل أحد.

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «أربعةٌ يُبْغِضُهُمُ اللهُ: الْبَيَّاعُ الْحَلاَّفُ، والفقيرُ الْمُخْتَالُ، والشيخُ الزاني، والإمامُ الجائرُ» أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

ثم أوردرحمه الله هذا الحديث؛ ذِكر أربعة يُبغضهم الله؛ «الْبَيَّاعُ الْحَلاَّفُ» يعني الذي ينفق سلعه بالحلف والأيمان؛ «والفقيرُ الْمُخْتَالُ» بمعنى ما سبق «العائل المستكبر»؛ «والشيخُ الزاني» هـٰذا هو موضع الشاهد من الحديث؛ «والإمامُ الجائرُ».

وَأَعْظَمُ الزِّنَى الزِّنَى بِالأُمِّ وَالأُخْتِ وَامْرَأَةِ الأَبِ وَبِالْمَحَارِمِ، وَقَدْ صَحَّحَ الحَاكِمُ وَالعُهْدَةُ عَلَيْهِ: «مَنْ وَقَعَ عَلَى ذَاتِ مَحْرَمٍ فَاقْتُلُوهُ».

ثم ذكر المصنف رحمه الله قال: (وَأَعْظَمُ الزِّنَى الزِّنَى بِالأُمِّ وَالأُخْتِ وَامْرَأَةِ الأَبِ وَبِالْمَحَارِمِ عُمُومًا) وهـٰذا أيضا توضيح للعنوان السابق أن الزنى بعضه أشد من بعض؛ فذكر هنا أنّ أعظمه (الزنى بالأم) أو الأخت أو امرأة الأب أو بالمحارم. ثم ساق دليلا، فقال: (وَقَدْ صَحَّحَ الحَاكِمُ وَالعُهْدَةُ عَلَيْهِ: «مَنْ وَقَعَ عَلَى ذَاتِ مَحْرَمٍ فَاقْتُلُوهُ»). هنا الذهبي -رحمة الله عليه- قال: (وَالعُهْدَةُ عَلَيْهِ)؛ لكن في تلخيصه للمستدرك الحاكم تعقبه بقوله: "قلت: لا" يعني لما قال الحاكم: "صحيح" قال الذهبي في «المستدرك» -وهو كثيرا ما يتعقّب إما بتأييد أو بردّ-: "قلتُ: لا" يعني لا يصح هـٰذا الحديث؛ وهنا جعل العُهدة عليه وهناك استدرك. مثل هـٰذه اللفتات قد يستفيد منها البعض في معرفة أي الكتابين متأخرًا عن الآخر، كتاب الكبائر أو تلخيص الذهبي رحمه الله للمستدرك.

وَفِي البَابِ أَحَادِيثُ، مِنْهَا حَدِيثُ البَرَاءِ، أَنَّ خَالَهُ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى رَجُلٍ عَرَّسَ بِامْرَأَةِ أَبِيهِ أَنْ يَقْتُلَهُ وَيُخَمِّسَ مَالَهُ.

ثم أورد هذا الحديث وهو الصحيح، وهو يُغني عن الحديث السابق، أن (النَّبِيُّ ﷺ إِلَى رَجُلٍ عَرَّسَ بِامْرَأَةِ أَبِيهِ) أي: مارس معها هـٰذا العمل- (عَرَّسَ بِامْرَأَةِ أَبِيهِ أَنْ يَقْتُلَهُ)؛ وقد يكون عرّس بها يعني (نكحها)؛ فقال: (أَنْ يَقْتُلَهُ وَيُخَمِّسَ مَالَهُ). وذكر أهل العلم في هـٰذا -الذي هو من عرّس بامرأة أبيه أو بذات المحرم- أنه يُقتل ولا يُفرّق في هـٰذا بين المحصن وغير المحصن؛ ولا يُفرق أيضا بين ما هو زنى أو نكاح؛ يعني مارس

هـٰذا العمل سواءً بعقد نكاح أو مارس هـٰذا العمل زنى أو كان الممارس محصنا أو كان بكرا؛ كلهم الحكم فيهم القتل.

الكبيرةُ الثَّالِثةَ عشْرَة
الإمامُ الغاشُّ لِرعيتهِ، الظَّالِمُ، الجبَّارُ

قَالَ اللهُ تَعَالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى:٤٢].

ذكر رحمه الله هـٰذه الكبيرة: (الإِمَامُ الغَاشُّ لِرَعِيَتِهِ، الظَّالِمُ، الجَبَّارُ.)

أي الظالم للرعية، الجائر في معاملاته وأحكامه و(الجور) هو التعدّي؛ فهـٰذا من الكبائر، والأصل في الحاكم أن ينصح للرعيّة وأن يرفُق بهم، وأن يسعى في مصالحهم، وألَّا يكون غاشّا لهم، أو ظالما، أو خائنا أو جائرا؛ فإذا كان بهذه الصفة، كان مرتكبا لكبيرة عظيمة وحوب كبير. ويزداد إثمه بازدياد المضار والأخطار التي تترتب أو ينالها الرعيّة بسبب ظلمه وجوره؛ فكلما ازداد الظلم والجور زادت العقوبة عليه عند الله تعالى وسيأتي في الأدلة التي ساقها المصنف رحمه الله ما يُبيّن خطورة هذا الأمر.

والإمام الغاشّ لرعيّته الظالم لهم يتناول هـٰذا الإمامة العظمى والولاية العظمى، وأيضا يتناول الولايات الصغرى؛ «مَنْ وَلِيَ مِنْ أمرِ هَذِهِ الأُمَّةِ شَيْئًا» كما سيأتي، «وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَتِهِ». فحتى الولايات الصغرى، يعني ولاية الرجل في بيته على أولاده؛ والمدير في إدارته ونحو ذلك. أيضا إذا كانت المعاملة له في هـٰذه الولاية بالغش فهو عرضة للوعيد، وسيأتي في النصوص ما يبين ذلك.

قال: (قَالَ اللهُ تَعَالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى:٤٢].)

يعني هـٰذا الظلم الذي توعّد الله تعالى فاعله بالعذاب الأليم والبغي هو لمن بيده ولاية أنكل ممن ليس بيده ولاية؛ قد يكون الإنسان يريد أن يبغي؛ لكن ما بيده سلطة فلا يتمكن؛ لكن من بيده السلطة إذا صار فيه صفة البغي والظلم والعدوان يترتّب على ذلك الأخطار العظيمة والأضرار الكبيرة في المجتمع الذي هو والٍ عليه.

وَقَالَ تَعَالى: ﴿كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٩].

قال: (وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٩].)، التناهي عن المنكر مطلوب من كلّ أحد، ويتأكّد في حق الوالي؛ لأنّ الوالي هو الذي بيده السّلطة، سواءً الوالي في الولاية العامّة أو الوالي الذي هو على أهله وولده في بيته، فبيده السّلطة وبيده التغيير، فإذا كان الله تعالى يقول: ﴿كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾، فهـٰذه الآية يؤخذ منها معنى واضح في خطورة الأمر على الوالي سواء الولاية العامّة، أو غيرها من الولايات إذا لم يكن ناصحا لهم في هـٰذا الباب الذي هو باب حماية المجتمع من المنكرات.

۞۞◊۞۞

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ...».

ذكر المصنّف رحمه الله هذا الحديث في المقدّمة حتى لا يقول قائل: هـٰذا لا يعنينا، هـٰذه الترجمة لا تعنينا وهـٰذه الأحاديث لا تعنينا، هذه خاصّة بالوالي ولا تعنينا، وأنا لست الوالي ولست الحاكم، الحاكم هو فلان فلا يعنيني هـٰذا الباب، وربّما إذا وصل إليه يفتح الصفحات التي فيها الأحاديث في هـٰذا الباب ويقرأ التي بعدها، يقول: "هـٰذا ليس فيه شيء يخصّني أو يتعلّق بي"، فبدأ المصنّف بهذا الحديث وذكره في أوائل الكلام على هـٰذه الكبيرة حتى يتنبّه كلّ من يقرأه، يقال له: انتبه، لا يقع في نفسك الكلام في هذا المعنى، وتقول: أنا خارج من هـٰذا الموضوع، ولست الوالي ولست أنا الحاكم، فإن النّبي ﷺ يقول: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»، ثمّ بيّن ذلك، وقال: «الوالد راع وهو مسؤول عن رعيّته والأمّ راعية ومسؤولة عن بيت زوجها»، فبيّن ذلك عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، فدلّ ذلك على أنّ النصوص الواردة في الباب كما أنها تتناول الولاية العامّة فهي أيضا تتناول الولاية الخاصّة؛ ولاية الرّجل لبيته، ولاية المرأة لشؤون بيت زوجها، ولاية المدير في إدارته، الأستاذ مع طلاّبه، إلى غير ذلك من الأمور التي فيها ولايات، فمن كان عنده ولاية ولو في جزء يسير فكان غاشّا، كان ظالما، كان جائرا، كان معتديا، فيشمله أو يكون له حقّ من الوعيد.

فبَدْء المصنّف رحمه الله في هـٰذا بهذا الحديث هذه لفتة مهمّة وتنبيه لمن يقرأ، عليه أن يتنبّه، ولا يقول أنّ هـٰذه الأمور لا تعنينا.

۞۞◊۞۞

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا».

(وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا».)، وهـٰذا أيضا ما تعرف به الكبيرة على ما سبق بيانه، الكبيرة تعرف بأمور منها قول النّبي ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا» كما في هـٰذا الحديث: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»، وكما سيأتي

لاحقا: «ليس منّا من لطم الخدود، وشقّ الجيوب ودعا بدعوى الجاهليّة»، فهـٰذا مما يُرى به أنّ الأمر كبيرة، وقوله: «لَيْسَ مِنَّا» أي أهل الإيمان التّام الواجب، فليس المراد هنا بـ«لَيْسَ مِنَّا» نفي أصل الإيمان على ما تذهب إليه الخوارج، وليس أيضا المراد على ما تقول المرجئة ليس من خيارنا وأماثلنا، فقوله: «لَيْسَ مِنَّا» أي ليس من أهل الإيمان الواجب الذي يكون لصاحبه الوعد والسّلامة من الوعيد، والنّجاة من الوعيد، فليس منّا من كان بهذه الصّفة، قال: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»، وغشّ النّاس يتناول خداعهم، والتّدليس عليهم، والتلبيس، والاحتيال، والمكر بهم، وترويج البضائع الفاسدة أو الكاسدة، أو مخادعتهم، إلى غير ذلك، هـٰذا كلّه من الغشّ الذي قال النّبي ﷺ عن فاعله أنّه «لَيْسَ مِنَّا».

❁❁◊❁❁

وَقَالَ ﷺ: «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ».

(وَقَالَ ﷺ: «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ».) أي ظلمات على صاحبه، وهـٰذا فيه خطورة الظّلم، وخطورة عمل الظّالم إذا لقي الله تعالى يوم القيامة بظلمه، سيكون ظلمه ظلمات يوم القيامة.

❁❁◊❁❁

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «أَيُّمَا رَاعٍ غَشَّ رَعِيَّتَهُ فَهُوَ فِي النَّارِ».

«أَيُّمَا رَاعٍ» يتناول كلّ راع على العموم الذي مرّ معنا «كُلُّكُمْ رَاعٍ»، قال: «أَيُّمَا رَاعٍ» وهنا نتنبه أنّه ليس مراد الحديث الولاية العامّة كما قد يُظنّ أو كما يظنّ بعض النّاس، فإذا نظرت في التّعميم هنا «أَيُّمَا رَاعٍ» ونظرت في لفظ الحديث السّابق «كُلُّكُمْ رَاعٍ» فالأمر واضح، فهذا يشمل كلّ أحد «أَيُّمَا رَاعٍ غَشَّ رَعِيَّتَهُ فَهُوَ فِي النَّارِ»، وهـٰذا من الدّلائل على أنّ الغشّ؛ غش الرّعية كبيرة من الكبائر عقوبة فاعله النّار.

❁❁◊❁❁

وَقَالَ ﷺ: «مَنِ اسْتَرْعَاهُ اللهُ رَعِيَّةً ثُمَّ لَمْ يُحِطْهَا بِنُصْحِهِ إِلاَّ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ». وَفِي لَفْظٍ: «يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلاَّ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ» مُتَفَقٌ عَلَيْهِ.

وَفِي لَفْظٍ: «لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ».

ثمّ ذكر هـٰذا الحديث وفيه الوعيد الشّديد للراعي الذي لم يحط رعيّته بنصحه أو عامل رعيّته بالغش لها، فذكر الوعيد الشّديد: «إِلاَّ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ»، وفي لفظ: «لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ»، هـٰذا وعيد شديد ودليل على أنّ هـٰذا من كبائر الذّنوب وعظائمها، وفي هـٰذا الحديث وغيره من أحاديثه استدلّ الشّيخ "ابن العثيمين" – رحمة الله عليه– في بعض فتاويه على خطورة من يجلب لأولاده في البيت أدوات الفساد، من القنوات الهابطة،

والمجلاّت الخليعة، والأمور التي تهيّئ للفساد، هـٰذا من الغشّ لولده، هـٰذا من الغشّ لهم، فهو على خطر عظيم، يُخشى عليه من هـٰذا الوعيد الوارد في هـٰذا الحديث؛ لأنّه غش أولاده، وإذا جلب لهم هذه الوسائل التي هي وسائل فساد أفسدهم وجنى عليهم، حتّى وإن قال: لم أُرِد أن يفسدوا، جئت بها لم أرد أن يفسدوا، يكون واقعه كما قيل:

أَلقَاهُ فِي اليمِّ مَكتوفًا وَقالَ لهُ		إيّاكَ إيَّاكَ أن تَبتلَّ بالماءِ

ما يمكن يضعه أمام وسائل الفساد وفي الوقت نفسه يقول أريد له السّلامة!، وكثير منهم رأى فساد ولده وندم؛ ولكنّه لم ينفعه ندمه؛ لأنّه دخل بيته دخولا واسعا وعريضا في الفساد؛ بل بعض أبناء المسلمين لم يكن ما طاله من هـٰذه القنوات فساد أخلاقي؛ بل ارتقى الأمر إلى بعضهم إلى فساد ديني وانحراف عقدي، ودخول في شكوك في الإيمان، وأيضا الدّخول في ممارسات شركيّة وكفريّة من السّحر والحظوظ وأشياء روّج لها أهل الباطل وأدرجوها وأدخلوها على أبناء المسلمين من خلال القنوات الفضائيّة، السّحر يروّج له بشكل واسع، والمراصد السحريّة يروّج لها بشكل واسع، وأيضا الدعوات إلى الأديان الباطلة والمذاهب المنحلّة يُروّج لها بشكل واسع، ولم تصبح القضيّة قضيّة شهوات؛ بل دخل على كثير ممّن يشاهدون هذه القنوات، دخل عليهم في عقائدهم شكوك وشبهات وأوهام، وبعضهم فعلا دخل في بعض العقائد الباطلة، فمن الغشّ من الرّاعي الذي هو الأب في بيته أن يجلب لولده وبنيه ما يكون به فسادهم، والله عز وجل ائتمنه على ولده وأمره أن يقيه من النّار: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا قُوا أنفُسَكم وأهلِيكُم نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ والحِجارةُ﴾ [التحريم:٦].

๏๏◊๏๏

وَقَالَ ﷺ: «مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ إلاَّ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مَغْلُولَةً يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ، أَطْلَقَهُ عَدْلُهُ أَوْ أَوْثَقَهُ جَوْرُهُ»(١).

هـٰذا فيه أنّ الأمير ولو كان على عدد قليل على خطأ، وأنّه «**يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مَغْلُولَةً يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ، أَطْلَقَهُ عَدْلُهُ أَوْ أَوْبَقَهُ جَوْرُهُ**»، إمّا أن يكون عادلا فيطلقه عدله، ويكون بهذا العمل ناجيا من العقوبة، أو يوثقه جوره أي ظلمه وتعدّيه.

๏๏◊๏๏

وَقَالَ ﷺ: «اللَّهُمَ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ شَيْئًا فَرَفَقَ بِهَا فَارْفُقْ بِهِ، وَمَنْ شَقَّ عَلَيْهَا فَاشْقُقْ عَلَيْهِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

---

(١) في نسخة: «أَوْ أَوْبَقَهُ جَوْرُهُ».

وهذه دعوة من النّبي ﷺ لمن وَلِيَ من أمر الأمّة شيء، ومن يَلُون من أمر الأمّة على قسمين:

قسمٌ: يرفقون بمن وَلُوا عليهم.

وقسمٌ: يشقون عليهم.

فالنبي ﷺ دعا بهذه الدّعوة: «مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ شَيْئًا فَرَفَقَ بِهَا فَارْفُقْ بِهِ، وَمَنْ شَقَّ عَلَيْهَا فَاشْقُقْ عَلَيْهِ»، فالمحسن الرّفيق جزاؤه الإحسان والرّفق، والمسيء الذي يُلحق بالأمّة المشقّة جزاؤه العقوبة وأن يشقّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عليه جزاء وفاقا.

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «سَيَكُونُ أُمَرَاءُ فَسَقَةٌ جَوَرَةٌ، فَمَنْ صَدَّقَهُمْ فِي كَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَنْ يَرِدَ عَلَيَّ الحَوْضَ».

ثمّ أورد هـٰذا الحديث الذي فيه قال النبي ﷺ أنّه سيكون أمراء يَلُون من أمر المسلمين شيئا، ووصفهم بأنّهم «فَسَقَةٌ جَوَرَةٌ»، فسقة في أعمالهم، وجورة في أحكامهم ومعاملاتهم للنّاس، قال: «فَمَنْ صَدَّقَهُمْ فِي كَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ»، «فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ»؛ يعني الذي يصدّق هؤلاء ويكون عونا لهم على الظّلم مؤيّدا لهم على الظّلم مساندا لهم على الظّلم أو مصدّقا لهم في هـٰذا الظّلم فحكمه حكم هؤلاء، فهم أهل غش، ومن صدّقهم وأيّدهم على هذا فهو مثلهم، هناك قال: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»، وهنا قال: من صدّقهم وأعانهم على ظلمهم، قال: «لَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ»، والقول في معنى: «لَيْسَ مِنِّي» هو كما سبق بيانه في حديث «من غشّنا فليس منّا»، «وَلَنْ يَرِدَ عَلَيَّ الحَوْضَ»؛ لأنّه ثبت أنّه يُذاد أقوام عن الحوض ويقال: إنّك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك.

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالمَعَاصِي هُمْ أَغَشُّ وَأَكْفَرُ مِمَّنْ يَعْمَلُهُ، ثُمَّ لَمْ يُغَيِّرُوا إِلاَّ عَمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ».

ثمّ أورد رحمه الله قول النّبي ﷺ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالمَعَاصِي هُمْ أَغَشُّ وَأَكْفَرُ مِمَّنْ يَعْمَلُهُ، ثُمَّ لَمْ يُغَيِّرُوا إِلاَّ عَمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ»، و«عِقَاب» نكرة، فتدل على خطورته، ولم يعيّن العقاب، فهـٰذا أيضا فيه الدلالة على خطورته وكبره، لم يقل: فعقابهم كذا أو عقابهم ..لم يحدد مما يدل على عظم هـٰذه العقوبة.

و«مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالمَعَاصِي» المجتمع الذي تُعمل فيه المعاصي -على ضوء الحديث- لا يخلو من

حالتين:

١- إما حالة قوة لأهل الاستقامة وأهل الدين.

٢- وحالة ثانية يكون لهم ضعف.

فـ «مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَعَزُّ وَأَكْثَرُ مِمَّنْ يَعْمَلُهُ، ثُمَّ لَمْ يُغَيِّرُوا إِلاَّ عَمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ» إذا لم يغيروا.

ثم هنا قضية التغيير يُنظر فيها على ضوء الطرائق المشروعة والأعمال المسنونة، ولا يصح أن يأتي آتٍ ويدخل من خلال أمثال هـٰذه العمومات بأعمال منكرة بحجة أنّه يريد أن يغير المنكر، وقد قيل قديما: "ليكن أمرك بالمعروف بالمعروف ولا يكن تغييرك للمنكر بالمنكر" وإنما يغيَّر المنكر بالمعروف، فالتغيير ليس كيفما أراد الإنسان، وإنما يغير بالوسائل المشروعة، وهنا يخطئ كثير ويضل أقوام تأخذه الحمية والغيرة وإرادة تغيير المنكر فيسلك مسالك غير مشروعة. أحيانا تحت مسمّى تغيير المنكر تراق دماء بريئة وتُتلف أموال محترمة ويُتعدى ويحصل جور على المسلمين باسم تغيير المنكر، فهـٰذا لا يُعدُّ تغييرا وإنما هذا إجراما وفعلا منكرا، هو بنفسه من الأمور المنكرة التي جاء الإسلام بتحريمها والنهي عنها.

فإذًا قوله: (لَمْ يُغَيِّرُوا) التغيير مطلوب، ويكون التغيير بالوسائل المشروعة، والنبي ﷺ قال: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» والتغيير باليد فيما للإنسان فيه عليه ولاية أو له فيه سلطة.

وَرَوَى أَبُو عُبَيْدَةَ بنِ عَبْدِاللهِ بنِ مَسْعُودٍ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الْمُسِيءِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الحَقِ أَطْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ يَلْعَنُكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ -أَيْ بَنِي إِسْرَائِيلَ- عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ».

ثم أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث العظيم في التأكيد على هـٰذه الشعيرة المباركة، شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويصدّر النبي ﷺ تأكيده على هـٰذه الشعيرة بالقسم بالله تعالىٰ، قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الْمُسِيءِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الحَقِ أَطْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ يَلْعَنُكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ» أَيْ بَنِي إِسْرَائِيلَ) الذين كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه.

وَعَنْ أغْلَبَ بنِ تَمِيم، حَدَّثَنَا المُعَلَّى بن زِيَادٍ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بنِ قُرَّةَ، عَنْ مَعْقِلِ بنِ يَسَارٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ: «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي لَنْ تَنَالُهم شَفَاعَتِي: سُلْطَانٌ ظَلُومٌ غَشُومٌ، وَغَالٍ فِي الدِّينِ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ وَيَتبرَأُ مِنْهُم».

(أَغْلَبُ) ضَعِيفٌ، وَقَدْ رَوَاهُ ابنُ المُبَارَكِ فَقَالَ: حَدَّثَنَا مَنِيعُ، حَدَّثَنِي مُعَاوِيَةُ ابنُ قُرَّةَ بِنَحْوِهِ، وَمَنِيعُ لاَ يَدْرِي مَنْ هُوَ؟!.

ثم أورد رحمه الله هـٰذا الحديث، والشيخ الألباني أورده في الصحيحة في (٤٧٠) كما هو في الهامش. قال: «صِنْفَانِ مِن أُمَّتِي لَنْ تَنَالُهم شَفَاعَتِي» وذكر: «سُلْطَانٌ ظَلُومٌ غَشُومٌ، وَغَالٍ فِي الدِّينِ»، والسلطان الظلوم الغشوم هـٰذا هو الشاهد هنا لهذه الكبيرة، أن السلطان الظلوم الغشوم في تعامله أو معاملته للرعية مرتكب لكبيرة، ولا تناله شفاعة النبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ. و«وَغَالٍ فِي الدِّينِ» كلٌ من هذين لا تنالهم الشفاعة: السلطان الظلوم الغشوم والغالي في الدين. نلاحظ هنا ملاحظة حقيقة مفيدة جدا من خلال هذا الحديث: أن الغالي في الدين ودخل في باب الغلو أصبح مع الوالي في رتبة واحدة، هو وإياه لا تنالهم الشفاعة، وقد يكون غلوا في الدين تجاوز في باب ما ينبغي أن يكون عليه المسلم في تعامله مع المؤمنين ومع جماعة المسلمين ومع وحدة صف المسلمين، فكون غلوّه في الدين إذا أراد به تغييرا لحال الأمة فأصبح هو والوالي الظلوم الغشوم، كلٌ منهما لا تناله الشفاعة، لا تناله شفاعة النبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي لَنْ تَنَالُهم شَفَاعَتِي».

والحديث فيه دلالة على أن شفاعة النبي ﷺ تُنال بالأعمال الصالحة، قال رجل للنبي ﷺ: أسألك مرافقتك في الجنة، قال: «أعني على نفسك بكثرة السجود» فلابد من الأعمال الصالحة، ولابد أيضا من ترك الأعمال المحرمة، ونبينا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ نهانا عن المحرمات وأمرنا بالفرائض والواجبات، فهذا السبيل لنيل الشفاعة؛ ولهذا جاء في الحديث الذي في البخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ ذكر الغلول يومًا وعظّم أمره وقال في خطبة عظيمة: «لا يأتين أحدكم يوم القيامة وعلى رقبته شاة لها ثغاء، فيقول: يا رسول الله أغثني! فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغت. لا يأتين أحدكم يوم القيامة وعلى رقبته بعير له غوار، فيقول: يا رسول الله أغثني! فأقول له: لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك. لا يأتين أحدكم يوم القيامة وعلى رقبته فرس له حمحمة، فيقول: يا رسول الله أغثني! أقول: لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك. لا يأتين أحدكم يوم القيامة وعلى رقبته رِقاع تخفُق» الرقاع هـٰذه هي مظالم للناس وحقوق وتعديات يحملها على رقبته يوم القيامة «يقول:

يا رسول الله أغثني! فأقول: لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك. لا يأتين أحدكم يوم القيامة وعلى رقبته صامت» العرب يقسمون المال إلى قسمين: صامت وناطق، الصامت مثل الذهب والفضة والناطق مثل البقر والغنم والإبل ونحوها «**لا يأتين أحدكم وعلى رقبته صامت**» يعني أموال من الذهب والفضة أخذها، فيأتي بها يحملها يوم القيامة على رقبته، ولو كانت الملايين يأتي بها على رقبته يحملها «**فيقول: يا رسول الله أغثني! فأقول: قد أبلغتك**».

فهذا يدل على أن الظلم ما تنفع فيه ولا ينال صاحبه الشفاعة «**لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك**» قال: «**سُلْطَانٌ ظَلُومٌ غَشُومٌ، وَغَالٍ فِي الدِّينِ**».

ثم ذكر من صفة هـٰذا الغالي في الدين أنه ماذا؟ قال: «**يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ وَيَتَبرَأُ مِنْهُم**» أي المؤمنين، أي هـٰذه صفته وهـٰذه نحلته وهـٰذه طريقته؛ ولهذا السّلف قالوا -كما في شرح الإبانة لابن بطة العكبري وغيرها من كتب السلف- قالوا: "الشهادة بدعة والبراءة بدعة" ومرادهم بالشهادة مثل ما جاء هنا في الحديث: الشهادة على أهل الإيمان بالكفر والبراءة من أهل الإيمان، يتبرأ منهم ويشهد عليهم، وتكون مهمته الشهادة والبراءة: أشهد على هـٰذا بأنه كذا وأبرأ من...، لكن عمل ونصح وسعي في الخيرية في الأمة ونفع المسلمين لا يعتني بذلك، وإنما جالس في مكانه أو مع رفقائه ويشهد على هذا ويتبرأ من ذاك، أما إصلاح ونصح ودلالة على الخير هـٰذا كله مجانب له؛ بل إنه لا يزال في هذه الطريقة حتى ينفك عن جماعة المسلمين ويصبح شاذا خارجا على جماعة المسلمين منفصلا عنهم، يشهد عليهم بالكفر ويتبرأ منهم، فينفصل عن الجماعة ويشذ عن الجماعة، ويد الله على الجماعة، والمطلوب من المسلم أن يكون مع جماعة المسلمين مصلحا ناصحا ساعيا لهم بالخير، لا أن ينفك عنهم وتكون مهمته الشهادة عليهم والبراءة منهم، ولهذا قال السلف: "الشهادة بدعة والبراءة بدعة"؛ لأن هذا عُرف في المبتدعة ولاسيما الخوارج ومن هم على شاكلتهم، ليس لهم همّ إلا الشهادة والبراءة، وهـٰذا هو المعنى المراد هنا، قال: «**يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ وَيَتَبرَأُ مِنْهُم**».

❀❀◈❀❀

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ جُحَادَةَ، عَنْ عَطِيَّةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ مَرْفُوعًا: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِمَامٌ جَائِرٌ»

أورد هـٰذا الحديث وفيه عقوبة الإمام الجائر عند الله جلّ وعلا، والحديث في إسناده ضعف على ما هو مبيّن في الهامش.

❀❀◈❀❀

وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ! مُرُوا بِالمَعْرُوفِ وَانْهَوا عَنِ الْمُنْكَرِ قَبْلَ أَنْ تَدْعُوا اللهَ فَلاَ يَسْتَجِيبُ لَكُمْ، وَقَبْلَ أَنْ تَسْتَغْفِرُوا اللهَ فَلاَ يَغْفِرَ لَكُمْ، إِنَّ الأَحْبَارَ مِنَ اليَهُودِ وَالرُّهْبَانَ مِنَ النَّصَارَى لَمَّا تَرَكُوا الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لَعَنَهُمُ اللهُ عَلَى لِسَانِ أَنْبِيائِهِمْ ثُمَّ عَمَّهُمْ بِالبَلاَءِ».

أورد هذا الحديث وفيه خطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما يترتب عليه من الأضرار، وقد سبق أن مرّ معنا، ورد في الباب أحاديث كثيرة جدا، وهذا الحديث أورده الهيثمي في المجمع وقال: "فيه من لم أعرفهم".

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلاَمُ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ».

ثم أورد هذا الحديث وهو قاعدة من قواعد الدين (قَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلاَمُ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ».) وأورده هنا في "الإمام الجائر والظالم والغشوم" لأن هـٰذا الأمر بحكم الولاية قد يعمّ المجتمع كله، بخلاف من ليس واليا إذا أحدث حدثا قد يكون حدثا يخص نفسه، أو يخص من حوله ممن يقبلون دعوته، أما الوالي إذا كان الحدث في الدين منه ضرره على المجتمع كله، ولهذا قال أبو هريرة عندما ذكر بيان حال القلب من البدن قال: "القلب مَلِك، فإذا طاب الملِك طاب الجند، وإذا فسد الملِك فسد الجند" فالحدث من الوالي له خبر واسع وعريض جدا على عموم الرعية إلا من رحم الله؛ ولهذا أورد المصنف لهذه النكتة هذا الحديث هنا «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ».

وَقَالَ:« مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لاَ يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلاَ عَدْلًا».

أي لا يقبل الله منه فريضة ولا نفلا، وهـٰذا فيه خطورة الحدث في الدين من كلّ أحد، وهو من الوالي ، أو من بيده السلطة أشدّ؛ لأن الأضرار التي تترتّب على الحدث من مثله أخطر وأشنع.

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلاَمُ: «مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ».

وَقَالَ: «لاَ يَرْحَمُ اللهُ مَنْ لاَ يَرْحَمُ النَّاسَ».

(وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلاَمُ: «مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ»). أيضا أورد هذا الحديث؛ لأن من بيده ولاية وسلطة على الناس، قدرة على الحكم بالسلطة والولاية، قدرة على الظلم، وقدرة على التعدي، فَسَاقَ هـٰذه

النصوص تأكيدا على لزوم مراعاة من بيده ولاية للرحمة، ورعاية الرحمة لمن هم تحت سلطته، فأخبر النبي ﷺ أن « مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ»، وأنه «لاَ يَرْحَمُ اللهُ مَنْ لاَ يَرْحَمُ النَّاسَ»، فمن لا يرحم لا يرحمه الله، من لا يرحم الناس لا يرحمه الله؛ بل أورد المصنف هـٰذا؛ لأن من بيده السلطة، بيده القدرة على الظلم، فيتأكد في حقه ملاحظة الرحمة وملاحظة أيضا قدرة الله عليه، وأنه إذا عامل الرّعية بغير الرّحمة فمعنى ذلك أنه جلب لنفسه سخط الله عز وجل.

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلاَمُ: «مَا مِنْ أَمِيرٍ، يَلِي أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ لاَ يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ لَهُمْ إلاَّ لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الجَنَّةَ».

ثم أورد هـٰذا الحديث وفيه عظم مسؤولية الوالي بأن يجهد النصيحة للرعية وتحقيق ما فيه الخير والسعادة والإيمان والاستقامة والصلاح وحفظ الدين والأسباب التي بها حفظ الدين والدنيا، فإذا لم يجهد ولم ينصح لم يدخل معهم الجنة.

وَعَنْهُ ﷺ قَالَ: «مَنْ وَلاَّهُ اللهُ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ وَفَقْرِهِمُ احْتَجَبَ اللهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقْرِهِ يومَ القِيَامَةِ»رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ.

وهـٰذا فيه أن الجزاء من جنس العمل، إذا كان وَلِيَ مصالح المسلمين ولكنه احتجب عنهم، ولا يمكن لهم أن يجدوا طريقا للوصول إلى مصالحهم لاحتجابه عنهم: احتجاب إما بنفسه أو بعدم وضع نوّاب عنه، وهناك ينوبون عنه في النظر في مصالح الرّعية، فمحتجبا عنهم وعن تحقيق مصالحهم وسدّ خَلاّتِهِم، فهذا على خطر عظيم، على خطر عظيم، والجزاء من جنس العمل، قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «احْتَجَبَ اللهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقْرِهِ يومَ القِيَامَةِ».

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلاَمُ: «الإِمَامُ العَادِلُ يُظِلُّهُ اللهُ فِي ظِلِّهِ».

ذكر هـٰذا الحديث في فضل العدل، كما أن الأحاديث التي مرّت في خطورة الجور، فذكر هـٰذا الحديث في فضل العدل، والمصنف رحمه الله أخذه في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وذكر منهم الإمام العادل.

وقال ﷺ: «الْمُقْسِطُونَ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا».

قوله المقسطون بيّنها في الحديث، أي: «الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»، هذا هو المقسط، يعني العادل، الذي يحكم بالعدل ويسوُسُ رعيته بالعدل، فمن كان بهذه الصفة يظله الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلا ظله كما في الحديث السابق، ويكون يوم القيامة على منابر من نور.

۞

وقال ﷺ: «شِرَارَ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله! أَفَلاَ نُنَابِذُهُم؟ قَالَ: «لاَ، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ» رَوَاهُمَا مَسْلِمُ.

(رواهما مسلم) أي هـٰذا الحديث والذي قبله، الذي هو «الْمُقْسِطُونَ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ».

وقال ﷺ: «شِرَارَ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ،»، «شِرَارَ» هـٰذه صفة لـ«أَئِمَّتِكُمُ» وهم من يكون رعيته يبغضونه وهو يبغضهم ويلعنونه ويلعنهم، يعني فيه التنافر والتباغض وعدم رضا وعدم الوئام بينه وبينهم، والأصل في الراعي والرعية أن يكونوا على قلب واحد، بينهم المحبة وبينهم المودة، ولكنه مُيّز عليهم بالسياسة في أمرهم؛ لأن أمر الناس لا يصلحُ إلا بإمام، فإذا كان الإمام بلغ مبلغا في الشر والسوء، وُجِدَ التنافر بينه وبين الرعية.

قال: «تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»، وهـٰذا إخبار لما يقع، إخبار بالذي يقع عندما يبلغ الإمام هـٰذا المبلغ في الشر، وليس دعوة من النبي ﷺ للّعن، ليس دعوة للّعن، وتَوَجُّهْ للّعن، وإنما هـٰذا إخبار بالذي يقع؛ لأنه يحدث بينه وبين الرعية التنافر والتباغض والتعادي والتهارج والتّساب، وليس دعوة للّعن، وإلا المطلوب هو الدعاء، الدعاء بالهداية بالصلاح.

والسُّنة مضت عند عامة أهل السنة بأن يُدعى للوالي ولا يدعى عليه، يُدعى له أي الصلاح والاستقامة والهداية والرشاد.

حتى في زمن الإمام أحمد رحمه الله والفضيل، قال: "لو كانت لي دعوة صالحة لجعلتها للإمام"، هـٰذا من كمال الفقه، لأن صلاح الإمام صلاح للرعية، قال: "لو كانت لي دعوة مستجابة " يعني دعوة واحدة مستجابة،لم أجعلها لنفسي، جعلتها للسلطان، هـٰذا قاله الفضيل بن عياض. علّق على هذا عبد الله بن المبارك قال: "لم يقدر على هـٰذا إلا مثله"، يعني هذا، ما يقدر على هذا إلا من عنده فقه كبير جدًا، أما كلّ أحد، أو ضعيف الفقه فرأسا يتجه إلى خاصة نفسه، لكن الفقيه والذي ينظر لمصالح المسلمين، له أن يخص بدعوة مستجابة يجعلها لمن فيه صلاح المجتمع كلّه.

وقوله : «لاَ»، عندما سألوه: (أَفَلاَ نُنَابِذُهُم؟)، قال: «لاَ، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ»، بعض الأحاديث: «ما لم تروا كفرًا بواحًا»، إذا جمعنا بين هـٰذا وهـٰذا نعرف أيضا قدر الصلاة ومكانتها في الإسلام.

قال: «لاَ، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ»؛ أي ما كانوا في هـٰذه الحال لا ينابذون بالسيف، ولا يخرج عليهم بالسيف، ولا تنزع اليد من الطاعة.

ثم أيضا لو رأى الناس الكفر البواح ولم يُقِمْ الولاة الصلاة، لا يجوز الخروج عليهم إذا كان يترتّب على الخروج مفسدة، أو مفاسد عظيمة بإراقة دماء المسلمين وانتهاك أعراضهم والتعدي على حرماتهم واختلال أمنهم، وذهاب طمأنينتهم، إذا كان يترتب عليه مفاسد؛ ليس المطلوب جلب المفاسد، المطلوب جلب المصالح.

فحتى لو رأى الناس الكفر البواح الذي فيه عندهم من الله برهان، لا يجوز لهم الخروج، إذا كان الخروج مفسدة ظاهرة ومفسدة راجحة، لا يجوز؛ لأن هـٰذا ضرر على المسلمين، وشرّ ووبال، ولا يترتب عليه مصالح لهم.

❀❀◊❀❀

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وكَذلك أَخْذُ ربِّكَ إذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢] »مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

ثم أورد رحمه الله هـٰذا الحديث في أنّ الله تعالىٰ «يُمْلِي لِلظَّالِمِ»، يعني يمهله؛ لكن لا يهمله، لا يتركه، يملي له بإبقائه، ويبقى على ظلمه وقتا؛ لكن لا يتركه، وإذا أخذه أخذه بغتة، وتلا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ : ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

❀❀◊❀❀

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ لِمُعَاذٍ لَمَّا بَعَثَهُ إِلَى اليَمَنِ: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَها وَبَيْنَ الله حِجَابٌ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

ثم أورد هـٰذا الحديث للتحذير من الظلم من الولاّة، وفيه أنّ النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال له: «وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ» يعني لا تظلم أحدًا، وبيّن أن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، أي أنها دعوة مستجابة لا ترد.

❀❀◊❀❀

وقال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الحُطَمَةُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

(وقال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الحُطَمَةُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.) أظن أنها مضبوطة بالفتح وهي بكسر الرّاء.

الحطمة من الرجال هو: العنيف في سَوْقِ الإِبِلْ، العنيف في سَوْقِ الإبل يقال له: الحطمة، يعني يسوقها بعنف وشدّة، فمن كان عنيفا في سوق الإبل، يسوقها بشدة يقال له: حطمة.

وضُرِبت هـٰذه مثلا، أو جُعِلت مثلا للوالي الظالم الذي يَسُوسُ رعيته بالظّلمِ والجَوْر والتعدي فهو يُقال عنه: حطمة.

قال: «إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ»؛ يعني الولاة ومن بيدهم الرعاية «الحُطَمَةُ»، يعني الذين يسوقون الناس مساق الشدّة وعدم الرفق والمشقة، بالشدّة والمشقة وعدم الرفق.

وهـٰذا الحديث له قصة، والحديث في صحيح مسلم من حديث عائذ بن عَمْرو وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، أنه دخل على عبيد الله بن زياد وكان واليًا فقال: أيْ بُنَيّْ. عائد يقول لعبيد الله ، يقول لهذا الوالي أو لهذا الأمير، يقول له: أيْ بُنَيّْ. لاحظ التّلطف في المخاطبة، قال: "أيْ بُنَيّْ ، إنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الحُطَمَةُ» فإيّاك أن تكون منهم"، وهـٰذه نصيحة جميلة، تكلّم مع الأمير وقال: إيّاك أن تكون من هؤلاء. فقال: اِجلِسْ؛ يعني قال هـٰذا الأمير الذي هو عبيد الله لعائد ۞، قال له: اِجلِسْ ، فإنّما أنت من نُخَّالة أصحاب محمد عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ. (النُّخَّالة) الحُثالة، وعادة النخالة تُرمى ولا يُعبَأ بها، فقال له: إنما أنت من نُخَّالة أصحاب محمد؛ يعني كأنه يقول له: ومن تكون؟ وماذا تكون؟ وهـٰذا فيه دليل على أنه تضجّر وتململ من هـٰذا الحديث الذي ساقه، والمَقام يقتضي أن يقول: جزاك الله خير على هـٰذا الحديث الذي أخبرتني به، ورَجَوْتَ ألّا أكون من أهله.

فقال: اجلس، إنّما أنت من نُخالة أصحاب محمد ﷺ، فقال عائد كلمة جميلة جدّا: وهل كانت لهم نُخالة؟ يعني أصحاب محمد عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ هل كانت لهم نُخالة؟ إنّما النُقالة كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم، أصحاب محمد ليس فيهم النُخالة كلهم عدول، كلهم عدول، وكلهم مشهود لهم بالفضل والخيرية، زكّاهم الله في القرآن وزكّاهم النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ في السنّة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]، «خير الناس قرني» وأحاديث هـٰذا الباب كثيرة، قال: ما فيهم نخالة، النخالة بعدهم، وهـٰذا فيها أيضا فائدة في مكانة الصحابة وأيضا في خطورة الوقيعة في الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم أو النيل منهم أو من بعضهم، فالصحابة عدول كلهم وليس فيهم نقالة، والنقالة هي إنّما كانت بعدهم.

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ... » فَذَكَرَ مِنْهُمُ «المَلِكُ الكَذَّابُ».

ثمّ أورد رحمه الله هـٰذا الحديث والحديث تكرّر معنا واقتصر هنا على الشاهد فقال: «المَلِكُ الكَذَّابُ»، يعني من الثلاثة الذين لا يكلّمهم الله: الملك الكذاب، سبق أن مرّ بنا هـٰذا الحديث «العائل المستكبر والشيخ الزاني»، الشيخ الزاني ليس فيه ما يهيّجه للزنى، والعائل المستكبر ليس فيه أيضا ما يهيّجه للاستكبار، وإنّما الذي أوقعه الفساد الذي فيه، وهنا «المَلِكُ الكَذَّابُ» عادة الذي يوقعه في الكذب مقامه الضعيف، عادة الذي يدفع للكذب المقام الضعيف حتى يبرر نفسه، هل فعلت كذا؟ يعني الذي فوقه في السلطة يقول له: هل فعلت كذا؟ فيخاف وهو في مقام ضعف فيقول: لا، لم أفعل، فيدفع للكذب، غالبا يدفع للكذب الضعف أو التخلص من مواقف معيّنة ونحو ذلك؛ لكن الملك، الملك ما الذي يدفعه للكذب، هو الذي بيده السلطة، هو الذي بيده السلطة، الضعيف ربما يكذب حتى يتخلص ممن هو أقوى منه أو ممن هو فوقه أو من له سلطة عليه أو ممن له ولاية، فقالوا الكذب هذا الذي يدفع إليه، فإذا كان الملك يكذب أو الوالي أو السلطان يكذب، فليس هناك ما يدفع للكذب؛ لأنه هو الذي بيده السلطة، فيكون الكذب دليل على فساده، دليل على فساده، ولهذا يكون الأمر اشتد في حقه وعرفنا أنّ الكذب كبيرة وعظيمة من عظائم الذنوب؛ لكن أيضا يختلف حاله من حال إلى حال ومن أمر إلى أمر.

❀❀◊❀❀

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

وهـٰذا أيضا فيما يتعلق بأمر الولاة وأنّ الدار الآخرة أعدها الله تعالى وجعلها ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أمّا إذا كان من شأن الوالي العلو في الأرض والفساد في الأرض، هـٰذا لاحظ له في الدار الآخرة؛ لأنّ الله تعالى جعلها ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾.

❀❀◊❀❀

وقال النبي ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الإِمَارَةِ، وسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ القِيَامَةِ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

ثمّ هنا فيما يتعلق بالإمارة وأنّ الإنسان لا ينبغي أن يحرص عليها أو أن يطلبها وأن يبحث عنها وإذا ابتلي بها يصبر وينصح ويسعى فيما فيه نفع العباد والمسلمين.

قال: «إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الإِمَارَةِ، وسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ القِيَامَةِ» الندامة يوم القيامة ليست لكل من ولي؛ بل الإمام العادل يظله الله في ظله يوم لا ظلّ إلّا ظله، والمقسطون على منابر من نور، فليست ندامة لكل أحد،

وإنّما هي ندامة على من عمل بالولاية على غير الحق وإنما عمله بالجور والظلم والتعدي، فمن كان كذلك فهي ندامة عليه.

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «إنَّا وَاللهِ لا نُوَلِّي هَذَا العَمَلَ أحَدًا سَأَلَهُ أوْ أحَدًا حَرِصَ عَلَيْهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وفيه أنّ من يحرص عليه لا يكون أهلًا، لا يكون أهلًا؛ يحرص عليه ويطلبه ويسأله ويطالب به، لا يكون أهلًا للولاية.

الآن في قضية الانتخابات في طلب الولاية تجد الإنسان يعني يضع شعارات واسعة جدا ودعوة به وأنا فلان وأنا الذي سأفعل وأنا الذي سأترك ولا تجدوا مثلي ويمدح نفسه، سآتي بما لم يأت به الأوائل وسترون مني ما..، يقوم بجهود كبيرة، مما يتناسب مع مثل هـٰذا الحديث لأنّ الإنسان لا ينبغي له أن يحرص على هـٰذا، وقد ينظر إلى هذه المسألة بنظرة أخرى من باب ما تعم به البلوى، وقد يكون لبعض الناس اجتهادات يعني في هـٰذا الباب؛ ولكن عموما حرص الإنسان وسعيه وطلبه وعرضه لنفسه هـٰذا محل إشكال.

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «يَا كَعْبُ بنُ عُجْرَةَ! أَعَاذَكَ اللهُ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ، أُمَرَاءٌ يَكُونُونَ مِن بَعْدِي لاَ يَهْتَدُونَ بِهَدْيِي، وَلاَ يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي» صَحَحَهُ الحَاكِمُ.

ثمّ ذكر عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ هـٰذا الحديث فقال: «يَا كَعْبُ بنُ عُجْرَةَ! أَعَاذَكَ اللهُ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ، أُمَرَاءٌ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِي لاَ يَهْتَدُونَ بِهَدْيِي، وَلاَ يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي»، فإذن إمارة السفهاء صفتها أنّ أهلها لا يهتدون بهدي النبي ﷺ ولا يستنّون بسنته.

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «ثَلاَثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٍ لاَشَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ المَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ المُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ» سَنَدُهُ قَوِيٌّ.

ثمّ أورد رحمه الله هـٰذا الحديث؛ بل ختم به فيما يتعلق بكبيرة الوالي الظالم منها لخطورة الظلم، وأنّ المظلوم دعوته مستجابة ولا ترد.

الكبِيرَةُ الرَّابِعَةَ عشْرَة
شُرْبُ الْخَمرِ وإن لَّمْ يسْكرْ مِنْهُ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ...﴾ الآية [البقرة:٢١٩].

أورد رحمه الله هـٰذه الكبيرة كبيرة شرب الخمر، قال: (وَإِن لَّمْ يَسْكَرْ) وهـٰذا تنبيه جميل من المصنف رحمه الله، (شُرْبُ الْخَمْرِ وَإِن لَّمْ يَسْكَرْ مِنْهُ)، يعني وإن شرب منه قليلا لم يصل به إلى حد الإسكار فشُربه له كبيرة، «**وما أسكر كثيره فقليله حرام**»، حتى وإن لم يسكر؛حتى وإن لم يصل إلى درجة الإسكار ما شرب منه فهو يعد كبيرة من الكبائر، أورد قول الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ...﴾ وهـٰذا فيه تنصيص على عظم إثم من يشرب الخمر وكبر ذنبه.

وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة:٩٠-٩١].

وَثَبَتَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﭬ قَالَ: لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ مَشَى الصَّحَابَةُ بَعْضُهُم إِلَى بَعْضٍ وَقَالُوا: حُرِّمَتِ الْخَمْرُ وَجُعِلَتْ عَدْلًا لِلشِّرْكِ.

أورد المصنف رحمه الله قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ وهـٰذه الآية هي التي نزلت بتحريم الخمر والأمر باجتنابه قال: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ مثل ما قال: «**اجتنبوا السّبع الموبقات**» ومثل ما قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء:٣١]، فأمر باجتنابها، وهو أبلغ من الأمر بالترك كما سبق، الأمر بالاجتناب أبلغ من الأمر بالتّرك، يعني كونه في منأى وفي بعد عنه، فهـٰذه الآية التي نزلت بتحريم الخمر.

أنظروا إلى حكم الصحابة لما نزلت هـٰذه الآية، لمّا نزلت الآية يقول ابن عباس: (مَشَى الصَّحَابَةُ بَعْضُهُم إِلَى بَعْضٍ) يعني يتناقلون هـٰذا الخبر ويقول بعضهم لبعض: (حُرِّمَتِ الْخَمْرُ وَجُعِلَتْ عِدْلًا لِلشِّرْكِ)، لماذا؟ لأنّ الآية التي نزل فيها تحريم الخمر ذُكر الخمر مع الشرك؛ الأنصاب وهي الأصنام التي تعبد من دون الله، فالخمر ذُكر معه، وهم يعرفون خطر الشرك وشدّة ضرره فقالوا: (جُعِلَتْ عِدْلًا لِلشِّرْكِ).

حقيقة هنا فقه عظيم للصحابة ينبغي أن تستفيد منه ليس في هـٰذا الموضع؛ بل في كل موضع عندما يأتيك الذنب قد ذُكر مع الشرك، الشّرك هو أعظم الذّنوب فلما يذكر أمر مع الشرك في مقام النهي أو الشناعة أو العقوبة، لمّا يذكر أمر مع الشرك يدل على خطورة هـٰذا الذنب.

فإذًا من فقه الصحابة هنا قولهم: (جُعِلَتْ عِدْلًا لِلشِّرْكِ) هـٰذا من حكمهم وهو مأخوذ من الحديث.

وسيأتي معنا في تمام التّرجمة قول النبي ﷺ «مُدْمِنُ الْخَمْرِ إِنْ مَاتَ لَقِيَ اللهَ كَعَابِدِ وَثَنٍ» وسيأتي الكلام على

معناه في حينه.

❁❁◈❁❁

وَذَهَبَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرٍ إِلَى أَنَّ الْخَمْرَ أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ.

(وَذَهَبَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرٍ ڤ إِلَى أَنَّ الْخَمْرَ أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ)، قوله: (أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ) يعني ما كان من هـٰذا الباب، لا يعني مثلا أنه مثلا أكبر من الشرك أو نحو ذلك وإنّما يعني ما كان من هـٰذا الباب، فالخمر أكبر الكبائر لماذا؟ لأنها أم الخبائث، لأنها أم الخبائث، ومعنى أنها أم الخبائث أنها تجمع لصاحبها الخبائث إذا تعاطى الخمر؛ لأنه بتعاطي الخمر يذهب عنه عقله الذي أعطاه إياه، وقد جاء عن عثمان بن عفان ڤ في توضيح معنى الحديث «**أن الخمر أم الخبائث**» أن رجلا عرضت عليه ثلاثة أشياء: أن يقتل نفسا بغير حق، أو أن يزني بمحارمه، أو أن يشرب قليلا من الخمر، فقال: بل الخمر أخف، فلمّا شرب ذهب عقله وفعل تلك الأشياء وزاد عليها؛ فالخمر أم الخبائث لأنه يجمع الخبائث وتتحقق في متعاطيه الخبائث؛ لأنه [باع] عقله بشربه للخمر.

❁❁◈❁❁

وَهِيَ بِلَا رَيْبٍ أُمُّ الْخَبَائِثِ، وَقَدْ لُعِنَ شَارِبُهَا فِي غَيْرِ مَا حَدِيثٍ.

قال: (وَهِيَ بِلَا رَيْبٍ أُمُّ الْخَبَائِثِ، وَقَدْ لُعِنَ شَارِبُهَا فِي غَيْرِ مَا حَدِيثٍ.)، فقد جاء عن النبي ﷺ أنه لعن في الخمر عشرة جاء في مقدمتهم شاربها.

❁❁◈❁❁

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فَاجْلِدُوهُ، فَإِنْ عَادَ فَاجْلِدُوهُ، فَإِنْ شَرِبَهَا فَاجْلِدُوهُ، فَإِنْ شَرِبَهَا الرَّابِعَة فَاقْتُلُوهُ». صَحِيحٌ.

ثمّ ذكر حدّ شارب الخمر في الدنيا، وهو أنه يُجلد، وكنّا قد عرفنا فيما سبق أنّ من علامات الكبيرة أو ما تُعرف به الكبيرة الحد في الدنيا أو الوعيد في الآخرة.

❁❁◈❁❁

وَعَنْ عَمْرِو بنِ الْحَارِثِ، حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ شُعَيْب عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنُ عَمْرُو، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ سُكْرًا مَرَّةً وَاحِدَةً فَكَأَنَّمَا كَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا فَسُلِبَهَا، وَمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ سُكْرًا كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ؟ قَالَ: «عُصَارَةُ أَهْلِ جَهَنَّمَ». سَنَدُهُ صَحِيحٌ.

ثمّ أورد رحمه الله هـٰذا الحديث في خطورة شرب الخمر وما يترتب عليه من أضرار، ومن أضرار شرب

الخمر الاستهانة بالصلاة بسبب شربه وتعاطيه، وهنا في العقوبة قال: «مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ سُكْرًا مَرَّةً وَاحِدَةً فَكَأَنَّمَا كَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا فَسُلِبَهَا، وَمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ سُكْرًا» يعني بسبب السكر «كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ»، ما هي طينة الخبال؟ سأل الصحابة ﭬ رسول الله ﷺ فقال: «عُصَارَةُ أَهْلِ جَهَنَّمَ» يعني صديدهم وقيحهم وما يخرج من نتن لهم؛ بحرق النار وصليّ النار لهم، فتارك الصلاة أربع مرات بشربه الخمر كان حقا على الله أن يسقيه عصارة أهل النار، ومن تاب تاب الله عليه.

وَعَنْ جَابِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ عَلَى الله عَهْدًا لِمَنْ يَشْرَبُ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ» قِيلَ: وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ؟ قَالَ: «عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ» أَوْ قَالَ: «عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ». خرَّجَهُ مُسْلِمٌ..

ثم أورد هـٰذا الحديث في عقوبة شارب المسكر يوم القيامة أن يسقيه من طينة الخبال، وفي عامة النصوص الجزاء من جنس العمل، ولو تتبّعون خاصة في مثل هـٰذا الكتاب ذكر الكبائر، ذكر عقوبات الكبائر، عامة الذنوب تجد الجزاء من جنس العمل، آكل الربا: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء:١٠]، شارب الخمر: يشرب من طينة الخبال، فتجد في النصوص كبيرا العقوبة من جنس العمل كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ:٢٦].

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا حُرِمَهَا فِي الْآخِرَةِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وهـٰذه من جنس ما سبق، الجزاء من جنس العمل، فمن شرب الخمر فيحرم شربها في الآخرة، وفي الجنة خمر ﴿لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ [محمد:١٥]، كما أخبر الله تعالىٰ، فمن شرب الخمر في الدنيا حُرِمَها في الآخرة.

وَعَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «مُدْمِنُ الْخَمْرِ إِنْ مَاتَ وَلَمْ يَتُبْ لَقِيَ اللهَ كَعَابِدِ وَثَنٍ». رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ.

ثمّ أورد هـٰذا الحديث، قال: «مُدْمِنُ الْخَمْرِ إِنْ مَاتَ وَلَمْ يَتُبْ لَقِيَ اللهَ كَعَابِدِ وَثَنٍ»، وعابد الوثن مشرك كافر بالله تعالى، وشرب الخمر ليس كفرًا، ولهذا قال بعض العلماء في هـٰذا الحديث: يشبه أن يكون معنى هـٰذا الحديث «مُدْمِنُ الْخَمْرِ إِنْ مَاتَ» يعني مدمن الخمر مستحلًا له ومات على ذلك، يعني مدمنا له مستحلًا لشربه لقي الله كعابد الوثن؛ لأنه استوى هو والكافر في الكفر، لأنه استوى هو وإياه في الكفر، لقي الله كعابد الوثن لأنه استحلّ ما حرم الله، أمّا إذا كان يشرب الخمر ومعتقد الحرمة فهـٰذا من عصاة الموحدين وليس من الكفّار.

الكبيرةُ الخامسةُ عشرَة
الكِبرُ والفخرُ والخيلاءُ والعجبُ والتّيهُ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر:٢٧].

ثمّ ذكر رحمه الله هـٰذه الكبيرة، كبيرة (الْكِبْرُ وَالْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ وَالْعُجْبُ والتِّيهُ)، وكلها تدور حول معاني متقاربة: الكبر والفخر والخيلاء والتعالي والترفع والتيه والعجب بالنفس ونحو ذلك، كلها تدور حول معنى واحد.

وهـٰذه الكبيرة من أشنع الكبائر وأفظعها، لأنّ العبد يتعالى بنفسه ويترفّع ويرى أنه أرفع من الناس وأعلى من الناس وأميز منهم؛ ولهـٰذا له من العقوبة ما ليس لغيره كما سيأتي في النصوص.

بدأ أولًا بقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر:٢٧]، وهـٰذا فيه أن الكبر يرتقي بصاحبه إلى جحد الحقائق وغمط الناس وبطر الحق، إضافة إلى ما فيه من التعالي والترفع.

وفي الآية أن الإنسان يتعوّذ بالله من الكبر ويتعوّذ بالله من المتكبّرين.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل:٢٣].

وهـٰذا فيه أن المستكبر يبغضه الله ولا يحبه.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [غافر:٥٦].

ثمّ أورد هـٰذه الآية، وفيها أيضا خطورة الكبر على صاحبه وأن من خطورته المجادلة بآيات الله بغير سلطان، ويكون الباعث على هـٰذه المجادلة الكبر الذي في صدر الإنسان، فالكبر خطره عظيم على صاحبه، ومن خطورته أنه يردّ الحق ولا يقبله، ويجادل بغير علم كبْرا، لما قام في قلبه من الكبر، قال: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾(١).

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(١) وأيضا موجودة في السور التالية: الأعراف الآية (٢٠٠)، النحل الآية (٩٨)، فصلت الآية (٣٦).

وهـٰذا يدل على خطورة الكبر وعقوبة المتكبرين، أن من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر لا يدخل الجنة.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي بُرْدَيْهِ إِذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

هـٰذه عقوبة له من جنس عمله، هو تعالى فوضعه الله، خسف به الأرض «فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا» يتقلب فيها إلى يوم القيامة، ويتردى فيها إلى يوم القيامة.

وَقَالَ ﷺ: «يُحْشَرُ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ، يَطَؤُهُمُ النَّاسُ».

وهـٰذا جزاء من جنس العمل، يعني هم تكبّروا وتعالوا فوضعهم الله، ويؤتى بهم يوم القيامة أمثال الذّر يطؤهم الناس بأقدامهم.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: أَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللهُ بِهِ الْكِبْرُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤]. فَمَن اسْتَكْبَرَ عَلَى الْحَقِّ كَمَا فَعَلَ إِبْلِيسُ لَمْ يَنْفَعْهُ إِيمَانُهُ.

ثمّ ذكر بعض قول بعض السلف أن أول ذنب عُصي به الله الكِبر، وأورد الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤]، أول ذنب عُصي الله به الاستكبار، والاستكبار ترتّب عليه الامتناع من السجود، أمره الله تعالى بالسجود فامتنع للكبر الذي قام في نفسه، فأوّل ذنب عصي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى به هو الكبر، فمن تكبّر شابه إبليس.

وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْكِبْرُ سفهُ الْحَقِّ وَغَمْصُ النَّاسِ» وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ».

وهـٰذا أمارة الكبر وعلامته مبيّنة في هـٰذا الحديث، «الْكِبْرُ سفهُ الْحَقِّ وَغَمْصُ النَّاسِ»، أو «الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ» كما في اللفظ الثاني، فهـٰذه علامة الكبر إذا وُجِدت، هـٰذا دليل على الكبر، أن يقابل الحق بالسفه وأيضا يغمط الناس حقوقهم، فإذا كان بهـٰذه الصفة فهـٰذا متكبّر، ولهـٰذا مرّ معنا أولا ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ [غافر:٥٦]، فهـٰذا كلّه مما يُورثه الكبر.

أيضا إبليس الكبر الذي قام في نفسه جعله يأبى السجود كما أمره الله جلّ وعلا.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان:١٨].

ثمّ أورد هـٰذه الآية وفيها أن المختال والفخور لا يحبهما الله تعالى، المختال في مشيته، الاختيال في المشي، يمشي متبخترا مختالا يرى نفسه أزيد من غيره، وهو الفخور بكلامه، فالاختيال في الفعل، والفخر بالكلام والقول.

وَقَالَ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالى: الْعَظَمَةُ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي فَمَن نَّازَعَنِي فِيهِمَا أَلْقَيْتُهُ فِي النَّارِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ. الْمُنَازَعَةُ: الْمُجَاذَبَةُ.

ثمّ أورد هـٰذا الحديث في خطورة التكبر والتعالي والترفع على الناس، أن الله تعالى يقول: «الْعَظَمَةُ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي» والمعنى أن العظمة بمثابة الإزار والكبرياء بمثابة الرداء، يعني بمنزلته، فصفة الله هنا هي العظمة والكبرياء، فقوله: «الْعَظَمَةُ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي» أي هما بمثابة بمنزلة الإزار والرداء، مثل هـٰذا قول النبي ﷺ في الحديث: «الأنصار دثار والناس شعار»، فالدثار هو الذي يلي البدن من اللباس وهو أقرب، فالأنصار بمنزلته، والدثار هو اللباس الذي يكون فوقه، وعموم الناس بمنزلته، فإذًا قول: «الأنصار دثار والناس شعار» هـٰذا المراد به أنه بمنزلة الشعار بمنزلة "الدِّثَار" وهٰذا معنى معروف في اللّغة.

الصفة هنا العظمة والكبرياء، ابن تيمية رحمه الله استنبط من هٰذا الحديث استنباطا لطيفا أُشير إليه عندما تحدث عن التكبير الوارد في الصلاة وأنّ افتتاحها التكبير، قال: "ولا يغني عنه لفظ آخر حتى ولو كان بمعناه أو بما يقاربه"؛ بمعنى لو أنّ قائلًا قال: الله أعظم لا يحصل افتتاح للصّلاة بذلك، وهو تحدّث عن هٰذا الموضوع وأطال، قال: "والتكبير شأنه أعظم من التعظيم"، التكبير فعلا أعظم من التعظيم، وأورد هٰذا الحديث مُستدلًّا به قال: «الْعَظَمَةُ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي»، قال: "الرداء أعلى من الإزار"، والرداء أعلى، وهٰذه لفتة لطيفة جدًّا في الاستنباط في هٰذا الموضوع، موضوع المفاضلة.

وَقَالَ ﷺ: «اخْتَصَمَتْ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ إِلَى رَبِّهِمَا، فَقَالَت الْجَنَّةُ: يَا رَبِّ، مَا لِي لَا يدْخُلنِي إِلَّا ضُعَفَاءِ النَّاسِ وَسُقَّاطُهُمْ، وَقَالَت النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْجَبَّارِينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ، فَقَالَ اللهُ تعالى لِلْجَنَّةِ: إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي»، الْحَدِيثُ.

قوله: «اخْتَصَمَتْ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ إِلَى رَبِّهِمَا» هٰذا اختصام حقيقة، والجنة تكلمت حقيقةً قالت هٰذا الكلام: «يَا رَبِّ، مَا لِي يدْخُلنِي ضُعَفَاءِ النَّاسِ وَسُقَّاطُهُمْ»، وهٰذا قولٌ بلسان المقال لا بلسان الحال؛ بل هٰذا قول حقيقة تكلمت الجنة والنار أيضا تكل|مت قالت: «أُوثِرْتُ بِالْجَبَّارِينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ»، هٰذا كلام حقيقي، والله على كل

شيء قدير، إن الله على كل شيء قدير، والله عز وجل ينطقها وينطق الجنة، والشواهد على ذلك في أدلة كثيرة جدًّا، ولا يصح أن يقال هٰذا كلام بلسان الحال؛ بمعنى أنها لم تتكلم حقيقة ولكن حالها هو هٰذا، لا؛ هٰذا تأويل، فهي تكلّمت كما أخبر النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، وفي القرآن السمٰوات والأرض قالتا: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:١١]، وفي القرآن قال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]، والنّصوص في هٰذا المعنى كثيرة.

الصحابة ق سمعوا حصى في يد النبي ﷺ يقول: "سبحان الله، سبحان الله "، والنبي ﷺ قال: «إني لا أعلم في مكة حجرًا يُسلِّم علي إلا مررت عليه».

فهٰذا الكلام حقيقي بلسان المقال ليس بلسان الحال والله على كل شيء قدير، ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس:٦٥]، الرِّجْل تتكلم يوم القيامة واليد تتكلم، الله تعالى على كل شيء قدير، فلا يصح أن يقال هٰذا الكلام بلسان الحال.

الشاهد من الحديث: قول النار: «أُوثِرْتُ بِالْجَبَّارِينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ»، وفيه أن المتكبّر والجبار من أهل النار الذين أُوثرت بهم النار وكانوا من أهلها.

وقوله في الحديث: «إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي»، قوله في الحديث للجنة: «إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي»، (الرحمة) هنا مصدر مضاف إلى الله تعالى، مصدر مضاف إلى الله، وقال بعض العلماء أن المصدر المضاف إلى الله تارة يراد به الصفة وتارة يراد به أثرها وهٰذا يُعلم بالسياق، فإذا نظرت السياق هنا قول: "الرحمة" قول الله جلّ: «إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي» السياق يدل على أن هٰذا المصدر المضاف إلى الله صفة أو أثر الصفة؟ أثر الصفة، بينما قوله: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ [الروم:٥٠]، "الرحمة" هنا المضافة إلى الله الصفة وليس الأثر.

❀❀◇❀❀

وقال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

والآية هٰذه فيها أن الله عز وجل جعل الآخرة لمن ليسوا أهل كبر وأهل علو في الأرض وتَرفُّع على الناس، وسبق أن مرت معنا هٰذه الآية فيما يتعلق بالإمام الجائر.

❀❀◇❀❀

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان:١٨]. أَيْ: لَا تَمِلْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ مُعْرِضًا مُستكبِرًا. وَالمَرَحُ: التَّبَخْتُرُ.

ثمّ أورد هٰذه الآية، وقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تمله كما قال المصنف، وقيل أن أصل الكلمة من: "الصَّعر" وهو داء يصيب الإبل في رقابها ويؤذيها ويؤلمها فتميل رقبتها بسببه فتصبح تمشي وهي مائلة برأسها ورقبتها بسبب الصَّعَر الذي أصابها في رقبتها وآلمها فأصبحت الرقبة مائلة، يقال: إنّ هٰذا أصلها، فهنا قال: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لا تُمِل خدّك للناس على وجه التكبر والتعالي، وعادةً المتكبر يُظهر لمن أمامه كِبْرَه بتصعير خده، يُصْعِر يعني يُظهر تكبره وتعاليه بإمالة خده لمن أمامه أو لمن يتكبر عليه.

والأمر الثاني: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي مختالا في مشيتك متعاليا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، الآية الأخرى في سورة الإسراء قال: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء:٣٧]، وهٰذه لو تَفكَّر فيها المختال المتكبِّر منعته من الكبر؛ لأنه مهما ترفعت وتعاليت فطول الجبال إلى جنبك لن يبلغ طولك طول الجبال، فمهما تعاليت بجسمك وترفَّعْت لن يبلغ طولك طول الجبال، ولهٰذا جاءت السنة إذا صعد الإنسان عالٍ ورأى نفسه رفيع ومرتفع وعال قد يدخل في نفسه شيء من الكبر فيُسَن له في هٰذا المقام أن يقول: الله أكبر حتى ينطرد عنه الكبر وتتطامن نفسه، فمهما ترفَّع الإنسان فإنه لن تبلغ طوله طول الجبال، حتى ولو كان أطول رجل في العالم ما يبلغ طوله طول الجبال، و﴿لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ يعني وإن مشيت متبخترا فمشيك لا يؤثر في الأرض، من تكون أنت؟!، فهٰذا بيان لحقارة المتكبر ووضاعته، وأنه لو تفكر في هٰذا المحيط الذي حوله، الأرض التي يمشي عليها والجبال التي جنبه هٰذا كافٍ في طرد الكبر عنه وحصول التواضع.

وفي هٰذا أيضا دعوة للتفكر، وهٰذا باب عظيم حقيقة في الذّل والتواضع لله والبُعد عن التكبّر، وأبين لكم هٰذا بشكل واضح: عندما يدخل إنسان في تفكّر في هٰذا الباب فينظر أولا كما في الآية: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾، ينظر في الأرض التي يمشي عليها وفي الجبال المحيطة به، وينظر لخلق نفسه مع خلقها، يجد أنه لا شيء بالنسبة للجبال والأرض التي هي محيطة به، وسِّع الدائرة وانظر لحالك مع الأرض كلّها وما فيها، ماذا تكون أنت؟!، وسّع الدائرة أكبر وانظر لحالك مع السمٰوات والأرض، وسّع الدائرة وتفكر في الكرسي الذي وسع السمٰوات والأرض، وسّع الدائرة وانظر إلى العرش العظيم، الكرسي في العرش كحلقة في فلاة، تجد نفسك شيء صغير يَذهب عنك التكبّر، أنت شيء صغير جدًّا، ذرّة في ملك عظيم يجعلك تتواضع لله وتذل وتنكسر ويَذهب عنك رؤيتك لنفسك، ينطرد عن قلبك رؤيتك لنفسك وإعجابك بشخصك يذهب كله، ما أنت إلا ذرة صغيرة من ذرات خلقها ربّ العالمين وأوجدها، فتعرف من أنت!

ولهذا المتكبر لم يعرف نفسه! لم يعرف نفسه، وإلا لو عرف نفسه وعرف ماذا يكون لما وقع فيه هٰذا الكبر.

وَقَالَ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ: أَكَلَ رَجُلٌ عِندَ النَّبِيِّ ﷺ بِشِمَالِهِ، فَقَالَ: «كُلْ بِيَمِينِكَ» قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ. مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ. قَالَ: «لَا اسْتَطَعْتَ». فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ بَعْدُ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وهٰذا فيه خطورة الكبر على الإنسان، المتكبر يعني من أخطر ما يكون عليه في كبره أنه يرد الحق، دائما بسبب الكبر الذي عنده يرد الحق، بينما إذا كان متواضعا تجد أنه إذا قيل له الحكم أو بيّن له الأمر يسمع ويقول لك أعرف ويُصغي ويلوم نفسه بسبب التواضع الذي عنده؛ لكنّ المتكبر نفسه متجهة دائما إلى رد الحق ومنعه، وهٰذا أخطر ما يكون على المتكبّر وهو يجني عليه جناية بالغة، ولهٰذا لو عدنا نتفكّر في ذات الكبر من خلال النصوص التي وردت، مرّ معنا في الآية الذين يردون آيات الله قال الله: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ [غافر:٥٦]، وهنا فيه قضية سهلة غير مكلفة قال له النبي ﷺ: «كُلْ بِيَمِينِكَ» وهٰذه دعوة مباركة اليمين أنظف وأنقى وأكمل وأحسن يعني دعوة إلى خير؛ لكن لم يمنعه من القبول إلا الكبر، لم يمنعه من القبول إلا الكبر، قال: (مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ) فكانت العقوبة قال: «لَا اسْتَطَعْتَ» ولاحظ أن المتكبر الذي منعه كبره من قبول الحق يكون عنده المخاصمة والمجادلة بالباطل، المخاصمة والمجادلة بالباطل، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ [غافر:٥٦]، فهنا الرجل قال له: «كُلْ بِيَمِينِكَ»، قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ)، وهو مستطيع، ليس المانع عدم الاستطاعة إنما المانع هو الكبر، فالواجب على المسلم أن يتلقى الشريعة كلها بماذا؟ بانشراح صدر، ولو رد سنّة من السنن لا يردها إلا لشيء من الكبر ولو قليل في نفسه، وإلا لو طرد عنه الكبر وأصبح متواضعا قَبِل.

وأيضًا هنا نستفيد فائدة أن الإنسان لا يستهين بأمور السنن، فهٰذه قضية قد يراها بعض الناس قضية سهلة، وربما يقول بعضهم يعني إيش المشكلة الكبيرة لو أن الإنسان شرب بيساره؟!، فبعض الناس يستهين بها أو يستهين بالأمر.

ومن العادات الآن حقيقة انتشرت في الآونة الأخيرة شرب الماء على الطعام أو شرب العصير أو المشروبات الباردة على الطعام باليد اليسار، هٰذا كثير ما يحصل، الشرب باليد اليسار بحُجة أن اليد اليمين فيها طعام وممسكة بالطعام فتجد إذا جاء وقت الشرب يمسكن الماء بيساره ويشرب، وهو في نفسه يعني كأنه قال: أنا أريد أن أعمل أمر طيب أني لا أريد أن ألوث كأس الماء، والكأس سيُغسل سيُغسل؛ يعني على كل حال سيُغسل، فكثير من الناس يلاحظ، هٰذه الملاحظة انتشرت في الآونة الأخيرة عند الطعام الماء والعصير وهٰذه الأمور كلها باليسار وأيضا نوع الطعام الحديث (الساندوتش) في اليد اليمين وكأسة عصير حدث ولا

حرج بالشرب باليسار، اليمين فيها (الساندوتش) واليسار فيها العصير، ويأكل بهٰذه ويشرب بهٰذه، هٰذا مُحَرَّم، لا يجوز الأكل باليسار إلاّ لمن فعلا يده اليمين غير مستطيعة، لا يكون أن يمنعه من عدم الأكل بها مانع آخر.

الحديث (لَا أَسْتَطِيعُ) يدلّ على أنّ غير المستطيع معذور، إذا كان غير مستطيعا فعلا فهو معذور، لكن هنا هـٰذا أمره آخر قال: (مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ)، إذًا لو كان فعلا الذي منعه عدم الاستطاعة معذور، لكن هـٰذا ليس الذي منعه عدم الاستطاعة، وإنما الذي منعه هو الكبر.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ: كُلِّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

ثمّ أورد قول النّبي ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ: كُلِّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ»، العتلّ: الغليظ الشّديد في كلّ شيء، والجوّاظ: هو المختال في مشيته وقيل الفاجر، والمستكبر: أي المتكبر، فهؤلاء أخبر النّبي ﷺ أنّهم من أهل النّار.

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ يُونُس الْيَمَامِي، حَدَّثَنا أَبِي، نَبَّأَنَا عِكْرِمَة بْنَ خَالِد، أَنَّهُ لَقِيَ ابْنَ عُمَرَ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقُولُ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ وَيَتَعَاظَمُ فِي نَفْسِهِ إِلَّا لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ» هٰذَا عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ.

وهـٰذا فيه غضب الله تعالى على المتعاظم المختال.

وَصَحَّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «أَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ: أَمِيرٌ مُتَسَلِّطٌ، وَغَنِيٌّ لَا يُؤَدِّي الزَّكَاةَ، وَفَقِيرٌ فَخُورٌ».

قُلْتُ: وَأَشَرُّ الْكِبْرِ مَنْ تَكَبَّرَ عَلَى الْعِبَادِ بِعِلْمِهِ، وَتَعَاظَمَ فِي نَفْسِهِ بِفَضِيلَتِهِ، فَإِنَّ هٰذا لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ، فَإِنَّ مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِلْآخِرَةِ كَسَرَهُ عِلْمُهُ، وَخَشَعَ قَلْبُهُ، وَاسْتَكَانَتْ نَفْسُهُ، وَكَانَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمِرْصَادِ، فَلَمْ يَفْتَرْ عَنْهَا؛ بَلْ يُحَاسِبْهَا كُلَّ وَقْتٍ وَيُثَقِّفُهَا؛ فَإِنْ غَفَلَ عَنْهَا جَمَحَتْ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ وَأَهْلَكَتْهُ. وَمَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِلْفَخْرِ وَالرِّيَاسَةِ، وَنَظَرَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ شَزَرًا، وَتَحَامَقَ عَلَيْهِمْ، وَازْدَرَى بِهِمْ؛ فَهٰذَا مِنْ أَكْبَرِ الْكِبْرِ، وَلَا يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَال ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ.

ثم نبّه المصنّف في خاتمة هـٰذا الكلام على هـٰذه الكبيرة، على أن أشرَّ الكبر من تكبّر على العباد بعلمه، من تكبّر على العباد بعلمه، لأنّ العلم هو الذي يهدي ويدلّ إلى التّواضع ويرشد إليه، فبالعلم يعرف قدر التّواضع

وفضيلته، ومكانة التّواضع، فإذا كان الإنسان بالعلم الذي به يُعرف التّواضع وخطورة الكبر يتكبّر، هـٰذا أشرُّ النّاس، هـٰذا من أشرِّ النّاس.

الكبيرةُ السَّادِسة عشْرَة
شهادَةُ الزُورِ

قَالَ اللهُ تعَالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ الآية [الفرقان:٧٢].

ثمّ ذكر رحمه الله الكبيرة السّادسة عشرة، وهي شهادة الزور، وهي الشهادة الجائرة التي يقتطع بها حقوق الناس ويعتدى على أموالهم بغيا وظلما وعدوانا، فهـٰذه من الكبائر أن يشهد الإنسان على زور.

(شهادة الزّور) أن يشهد الإنسان على زور أو على ظلم أو على جور.

وأورد أوّلا قول الله عز وجل: ﴿وَالذِينَ لاَ يَشهَدُونَ الزُّورَ﴾ في صفات عباد الرّحمـٰن في سورة الفرقان.

وَفِي الْآثَارِ: عَدَلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ بِالْإِشْرَاكِ بِالله.

قَالَ اللهُ تَعَالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج:٣٠].

وأيضا يشهد لهذا المعنى الحديث الذي مرّ معنا «ألا أنبّئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى، قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزّور».

وَفِي الْحَدِيثِ الثّابت: «لَا تَزُولُ قَدَمَا شَاهِدِ الزُّورِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى تَجِبَ لَهُ النَّارُ».

ثمّ أورد هـٰذا الحديث، أنّ شاهد الزّور يوم القيامة لا تزول قدماه، يعني لا يتحرّك حتّى تجب له النّار لشهادته الزّور.

المصنّف قال: (وَفِي الْحَدِيثِ الثّابت)، والمحقّق يقول أنّه موضوع؛ في سنده محمد بن الفُرات، كذّبه غير واحد، والمصنّف نفسه رحمه الله أدخله في ميزان الاعتدال وأورد له هـٰذا الحديث هناك.

قُلْتُ: شَاهِدُ الزُّورِ قَدِ ارْتَكَبَ عَظَائِمَ:

أَحَدِهَا: الْكَذِب وَالافْتِرَاء، وَاللهُ تَعَالى يَقُولُ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:٢٨]. وَفِي الْحَدِيثِ: «يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ لَيْسَ الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ»

وَثَانِيهَا: أَنَّهُ ظَلَمَ الَّذِي شَهِدَ عَلَيْهِ حَتَّى أَخَذَ بِشَهَادَتِهِ مَالَهُ وَعِرْضَهُ وَرُوحَهُ.

وَثَالِثِهَا: أَنَّهُ ظَلَمَ الَّذِي شَهِدَ لَهُ؛ بِأَنْ سَاقَ إِلَيْهِ الْمَالَ الْحَرَامَ، فَأَخَذَهُ بِشَهَادَتِهِ وَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِن مَّالِ أَخِيهِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِن النَّارِ».

وَرَابِعُهَا: أَنَّهُ أَبَاحَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَعَصَمَهُ مِن الْمَالِ وَالدَّمِ وَالْعِرْضِ؛ قَالَ ﷺ: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: مَالُهُ وَدَمُهُ وَعِرْضُهُ».

وَقَالَ النَّبِي ﷺ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ اَلْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ». فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

ثمّ أنهى الكلام على شهادة الزّور بذكر العظائم التي اجتمعت لشاهد الزور، وأنّه اجتمع فيه عدّة عظائم، ذكر أوّلها: الكذب والافتراء، لأنه شهادة كذب وهو كاذب، وهذه عظيمه. والعظيمة الثّانية: أنّه ظلم الذي شهد عليه، لأنّه أخذ من ماله بغير حقّ فظلمه بذلك. وأيضا: ظلم الذي شهد له لأنّه ساق له مالا لا حقّ له فيه، فسيق له هـٰذا المال بهذه الشّهادة الظّالمة. وأمر رابع: أنّه أباح ما حرّم الله وعصمه من المال والدّم والعرض، يعني بهذه الشّهادة، وقد قال عليه الصّلاة والسّلام: «**كلّ المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه**»، فإذن شاهد الزّور مرتكب لعدّة عظائم.

الكبِيرَة السَّابِعَة عشرَة
اللّوَاط

قَدْ قَصَّ اللهُ عَلَيْنَا قِصَّةَ قَوْمِ لُوطٍ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ مِنْ الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ، وَأَنَّهُ أَهْلَكَهُمْ بِفِعْلِهِمُ الخَبِيثِ.

وَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ المِلَلِ أَنَّ التَّلَوُّطَ مِنَ الكَبَائِرِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦].

واللِّوَاطُ أَفْحَشُ مِنَ الزِّنَى وَأَقْبَحُ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ» إِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

وَعَنْهُ ﷺ قَالَ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ» إِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: "يُنْظَرُ إِلَى أَعْلَى بِنَاءٍ فِي القَرْيَةِ فَيُلْقَى مِنْهُ، ثُمَّ يُتْبَعُ بِالْحِجَارَة.

وَيُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سِحَاقُ النِّسَاءِ زِنًى بَيْنَهُنَّ» إِسْنَادُهُ لَيِّنٌ.

وَمَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ رحمه الله أَنَّ حَدَّ اللُّوطِيِّ حَدُّ الزِّنَى سَوَاءً.

وَأَجْمَعَتِ الأُمَّةُ عَلَى أَنَّ مَنْ فَعَلَ بِمَمْلُوكِهِ فَهُوَ لُوطِيٌّ مُجْرِمٌ.

ثمّ ذكر هـٰذه الكبيرة (كبيرة اللّواط)، وهي أن يفعل الإنسان عمل قوم لوط، ألا وهو إتيان الذّكران، إتيان الذّكران وهـٰذا عمل قبيح مستقرّ في الفطر بُغضه وكرهه وشناعته، بل كما قال أهل العلم: حتّى عند الحيوان البهيم يعدّ هـٰذا الأمر أمرًا مشينا، حتّى عند الحيوان البهيم، ولهذا لا يعرف أنَّ تيسا ينزو على تيس أو حمارا ينزو على حمار، هـٰذا لا يعرف حتّى عند الحيوان البهيم، ولكن إذا فسدت فطرة الإنسان وانتكس، فعل فعلا حتّى الحيوان البهيم لا يفعله.

وذكر المصنف بعض النصوص فيمن يفعل هذه الجريمة، وذكر إجماع المسلمين وغيرهم من أهل الملل أن التلوط من الكبائر، وذكر قول الله عز وجل في وصفه لقوم لوط بـأنهم ﴿قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:١٦٦] أي لحرمات الله تعالى وحدوده، ونصّ رحمه الله على أن اللواط أفحش من الزنى وأقبح؛ ولهذا عقوبته الأخروية والدنيوية أعظم، ولهذا قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «اقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ».

وأورد الحديث الذي فيه لعن من عمل هـٰذا العمل (عمل قوم لوط).

والعلماء اختلفوا في طريقة قتله، واتفقوا على أنّه يقتل، ولكن اختلفوا في طريقة قتله، وابن عباس نقل عنه المصنف رحمه الله أنه يُلقى من شاهق من مكان عالٍ ويُتبع بالحجارة. وأورد فيما يتعلق بالسّحاق، وهـٰذا يقع بين المرأة والمرأة، وهـٰذا أيضا من الأفعال الشَّنيعة. والحديث لم يثبت، لكن هـٰذا فعل شنيع وأمر منكر، وهو من الفساد وقلة الدِّين.

وقال: (وَمَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ رحمه الله أَنَّ حَدَّ اللُّوطِيِّ حَدُّ الزِّنَى سَوَاءً. وَأَجْمَعَتِ الأُمَّةُ عَلَى أَنَّ مَنْ فَعَلَ بِمَمْلُوكِهِ فَهُوَ لُوطِيٌّ مُجْرِمٌ.) مملوكه: أي من تحت يده من العبيد.

نقف، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس الرابع

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين،

أما بعد؛ نواصل القراءة مستعينين بالله عز وجل في كتاب الكبائر للإمام الذهبي رحمه الله:

الكبِيرَةُ الثامِنَةُ عشْرَة
قذفُ المحصَنات

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:٢٣].

قوله رحمه الله: (قَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ) القذف أصله الرمي بشدة، وأطلق في الشّرع على الرمي بالزنى أو الفاحشة، و(المحصنات) أي العفيفات البريئات مما رمين به سواء كن ثيبات أو أبكارا، فالمحصنة هنا أي العفيفة؛ لأن الإحصان أو المحصنة له إطلاقان:

إطلاق يطلق تارة في النصوص ويراد بها العفيفة كما هنا.

ويطلق تارة في النصوص ويراد به من ليست بكرا؛ أي ثيبا، أحصنت بالزواج.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي العفيفات ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ أي عمّا رمين به أي الشيء الذي رمين به وهو الفاحشة هن غافلات عنه لم يخطر في قلوبهن ولم يدر في نفوسهن، فهن بريئاتٌ منه غافلات عنه، ﴿الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله عز وجل، وهـٰذا دليل على القذف من كبائر الذنوب.

﴿﴾ ◊ ﴿﴾

وَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً...﴾ الآيتان [النور:٤-٥].

في هذه الآية أن الرمي أو القذف بدون البينه وهم الشهداء؛ وعددهم أربعة من الرجال، يشهدون بأن هذا الأمر حصل وأنهم رأوه بأعينهم يباشر هـٰذا الأمر، إذا لم يكن هناك شهداء على هذا القذف فيجلد، وقد عرفنا أنّ الحد في الدنيا دليل على أن الأمر كبيرة من كبائر الذنوب.

﴿﴾ ◊ ﴿﴾

وَقَالَ ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ...» فذكر منها: «قَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ».

وَقَالَ ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ».

سيأتي عند المنصف هـٰذا الحديث وبعده بعض الأحاديث هي في حفظ اللسان عموما وصيانته من نيل النّاس وأذاهم، فتتناول هذه الأحاديث بعمومها القذف؛ بل هو من أشدّ الأذى الذي يكون باللسان.

❊ ❊ ❊

وَقَالَ ﷺ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ! وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟».

وقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨].

نعم، جميع هـٰذه النصوص عامة في الإيذاء وإطلاق اللسان والتعدي باللسان، فهي نصوص عامة ومما تتناوله بعمومها القذف.

❊ ❊ ❊

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ بِالزِّنَى أُقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إلاَّ أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

«مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ» أي ملك يمينه من العبيد الذين يملكهم إذا قذفه بالزنى وهو بريء «أُقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وهـٰذا يدل على أن هذا الأمر كبيرة؛ سواء قذف بالزنى من هو حر أو من هو عبد، فهـٰذا محرّم وكبيرة من كبائر الذنوب.

❊ ❊ ❊

أَمَّا مَنْ قَذَفَ أُمَّ الْمُؤمِنِينَ عَائشَةَ رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْها بَعْدَ نُزُولِ بَرَاءتِها مِنْ السَّماءِ فهُو كَافِرٌ مُكذِّبٌ للقُرآنِ، فيُقْتَل.

أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها أنزل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في براءتها ثمانية عشر آية في القرآن الكريم في سورة الفتح فمن رماها بما برأها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى به في آيات تتلى في القرآن الكريم فهو كافر مكذب بكلام الله جل وعلا.

وأم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها لما رميت بالفاحشة وأخذ الناس يتكلمون كانت تتحرّى أن تأتي براءتها من الله تعالى، ولما نزلت ثمانية عشرة آية في القرآن في تبرئتها تواضعت رَضِيَ اللهُ عَنْها وقالت: ولشأني في نفسي أحقر من أن يُنزل الله فيه وحيًّا يُتلى رَضِيَ اللهُ عَنْها وأرضاها وعلى كل حال من رماها بهذه الفاحشة وفي تبرئتها ثمانية عشرة آية من القرآن الكريم فهو كافر مكذب للقرآن.

❊ ❊ ❊

الكبِيرَةُ التّاسِعةَ عشْرَة
الغُلُولُ مِنَ الغَنِيمَةِ ومِنْ بَيْتِ المَالِ والزَّكَاةِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:١٦١].

الغلول من الغنيمة التي تكون في الحرب أو بيت مال المسلمين أو من أموال الزكاة، هـٰذا من الكبائر، والغلول أخذ الإنسان ما ليس له حق، أو ما ليس له حق فيه فهـٰذا غلول ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:١٦١]، سواء غل من الغنيمة أو من بيت المال أو من أموال الزكاة إذا كان عاملا عليها فأخذ يختلس منها، فهذا كله من كبائر الذنوب؛ لأنه تعدي على أموال المسلمين، وأورد الآية الكريمة ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يأتي به يحمله يوم القيامة وزرا يحاسبه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عليه ويعذبه عليه.

❀❀◊❀❀

قَالَ أَبُو حُمَيْد السَّاعِدِي: اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا مِنَ الْأَزْدِ يُقَالُ لَهُ ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هٰذَا لَكُمْ وَهٰذَا أُهْدِيَ لِي، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ فَيَقُولُ: هٰذَا لَكُمْ، وَهٰذَا أُهْدِيَ لِي، أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ إِنْ كَانَ صَادِقًا، وَاللهِ لَا يَأْخُذَ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا لَقِيَ اللهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا أَعْرِفَنَّ رَجُلًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللهَ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ».

ثم أورد الحديث في قصة ابن اللتبية فكان عاملا على الزكاة، فكان يأتي بأموال ويقول: هـٰذا لي وهـٰذا أهديته، ولو جلس في بيته أو لم يكن عاملا على هـٰذه الصدقة أو هذه الزكوات، لم يعطَ هـٰذه الهدايا، وإنما أعطيها بسبب عمله وقيامه على هـٰذا العمل ولهذا أرشد النبي ﷺ لهذا فقال: «لولا جلس في بيته» يعني لو جلس في بيته ما أعطي هـٰذه التي سماها هدايا فهي لا تحل وهي من الغلول، الأموال التي يأخذها العمال، أو يأخذها من هو على وظيفة من المراجعين أو نحو ذلك كلها داخلة في هـٰذا الحديث الذي في قصة ابن اللتبية الذي جعله النبي ﷺ عاملا على الصدقة فكان يأتي ببعض الأموال ويقول: هـٰذا أهديته وهـٰذا لكم. ثم خطب النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهـٰذا فيه كمال نصحه صلوات الله وسلامه عليه للأمة، فلم يكتفِ بتوجيه نصحًا لهذا الشخص بعينه، وإنما خطب خطابة عامة للجميع يحذر من هـٰذا الأمر بهذا المناسبة التي وقعت.

وقوله ﷺ: «وَاللهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلَّا لَقِيَ اللهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» هـٰذا يعد قاعدة وضابط في هـٰذا الباب يُعرف به نظائره، فكل أخذ للمال بغير حق أو بغير وجه شرعي هو من الغلول الذي يأتي به صاحبه يوم القيامة يحمله، وقد أشرت في درس ماضي إلى حديث أبي هريرة وهو بهذا المعنى أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو في صحيح البخاري أن النبي ﷺ ذكر يوما الغلول وعظم أمره وخطب الناس فيه فقال: «لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ.. » وذكر الإبل وذكر الخيل، وذكر الذهب والفضة، وذكر الرِّقاع في كل ذلك يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: فيقول: يا رسول الله أغثني. وأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك. فالغلول شأنه خطير ولو أن الذي غله الإنسان شيئا يسيرًا أو أمرًا تافها لا يُؤبه بِهِ كما سيأتي معنا في بعض النصوص التي أوردها المصنف.

❖

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْهُ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ، فَلَمْ نَغْنَمْ ذَهَبًا وَلَا وَرِقًا، غَنِمْنَا الْمَتَاعَ وَالطَّعَامَ وَالثِّيَابَ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا إِلَى الْوَادِي وَمَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَبْدٌ لَهُ، وَهَبَهُ لَهُ رَجُلٌ مِنْ جُذَام، فَلَمَّا قَامَ عَبْدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَحُلُّ رَحْلَهُ، فَرُمِيَ بِسَهْمٍ فَكَانَ فِيهِ حَتْفُهُ. فَقُلْنَا: هَنِيئًا لَهُ بِالشَّهَادَةِ يَا رَسُولَ اللهِ!، فَقَالَ: «كَلَّا، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ الشَّمْلَةَ لَتَلْتَهِبُ عَلَيْهِ نَارًا، أَخَذَهَا مِنَ الْغَنَائِمِ يَوْمَ خَيْبَرَ لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ». قَالَ: فَفَزِعَ النَّاسُ، فَجَاءَ رَجُلٌ بِشِرَاكٍ أَوْ شِرَاكَيْنِ فَقَالَ: «شِرَاكٌ أَوْ شِرَاكَانِ مِنَ النَّارِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وهـٰذا مما يبين أن الغلول ولو كان في أمر تافه أو أمر لا يؤبه به مثل الذي يوضع على ضرع النوق أو بهيمة الأنعام يعني أمر تافه لا يؤبه به، وكذلك الشراك في الحديث الآخر الرجل الذي تدارك نفسه فجاء بشراك وشراكين، هـٰذه أمور يعني يسيرة؛ لكن الغلول محرم ولو كان في شيء يسير لا يحل ومن غل ولو شيء يسير يأتي بما غلّ يوم القيامة، وفي الحديث دلالة على أنّ العبرة ليست بظاهر الأعمال عند الله عز وجل وإنما بالظاهر والباطن، إقامة الباطن والظاهر والبعد عن ما حرم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وفي الحديث نهي النبي ﷺ عن التزكية كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم:٣٢] قالوا: هنيئًا له الشّهادة هـٰذه تزكية له بأنه شهيد، ولا يزكى أحد بمثل هـٰذه التزكية لا يقال الشهيد فلان أو فلان الشهيد لأن هذه تزكية وجزم له بالشهادة والمجزوم له بالشهادة جزم له بالجنة، ولهذا في صحيح البخاري عقد رحمه الله (باب لا يقال فلان شهيد)؛ ولكن من أبلى بلاء حسنا وظهر منه الخير والإحسان لا يُجزم له بالتزكية، وإنما يقال: نحسبه من الشهداء، نرجو أن يكون من الشهداء. ونحو ذلك مما فيه الرّجاء وليس فيه الجزم.

ﮩﮩ◊ﮩﮩ

وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ شُعَيْب، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ؛ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ حَرَّقُوا مَتَاعَ الْغَالِّ وَضَرَبُوهُ.

وهـٰذه عقوبة تدلّ على أنّ هـٰذا الأمر من شنائع الأمور وطبائع الأعمال؛ عقوبة له وجزاءً على عمله، حرقوا متاعه يعني المتاع الذي كان على دابته يُنزع، ثم يحرَّق، وضربوه تأديبا له على ما حصل منه.

ﮩﮩ◊ﮩﮩ

وَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ عَمْرٍو: كَانَ عَلَى ثَقَلِ رَسُولَ الله ﷺ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: كِرْكِرَة، فَمَاتَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هُوَ فِي النَّارِ». فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَجَدُوا عَبَاءَةً قَدْ غَلَّهَا.

(كِرْكِرَة) وتضبط في بعض المصادر (كَرْكَرة) بالفتح، بفتح الكاف أو كسرها. (كَانَ عَلَى ثَقَلِ رَسُولَ الله) والثقل: ما يثقل حمله من المتاع، فكان مسؤولًا عن الأمتعة الثقيلة، هـٰذا معنى قوله: (كَانَ عَلَى ثَقَلِ رَسُولَ الله ﷺ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: كِرْكِرَة، فَمَاتَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هُوَ فِي النَّارِ») فأخذ الصحابة يتحرون عن السبب، فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلَّها، وهـٰذا لأن الغلول كبيرة من الكبائر وموجب لدخول صاحبه النار.

ﮩﮩ◊ﮩﮩ

وَفِي الْبَابِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ، وَيَأْتِي بَعْضُهَا فِي بَابِ الظُّلْمِ.

وَالظُّلْمُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

أَحَدِهَا: أَكْلُ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ.

وَثَانِيهَا: ظُلْمُ الْعِبَادِ بِالْقَتْلِ وَالضَّرْبِ وَالْكَسْرِ وَالْجِرَاحِ.

وَثَالِثِهَا: ظُلْمُ الْعِبَادِ بِالشَّتْمِ وَاللَّعْنِ وَالسَّبِّ وَالْقَذْفِ.

وَقَدْ خَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ بِمِنَى فَقَالَ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هٰذَا فِي شَهْرِكُمْ هٰذَا فِي بَلَدِكُمْ هٰذَا» مُتَّفَقٌ عَلَيْه.

قوله رحمه الله: (وَالظُّلْمُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ)، أي ظلم العباد، وذكر الأقسام الثلاثة:

القسم الأول يتعلق بالأموال.

والقسم الثاني يتعلق بالدماء.

والقسم الثالث يتعلق بالأعراض، ثم اتبع هـٰذا التقسيم الحديث الدال عليه «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ

وَأَعْرَاضَكُمْ» فهي أقسام ثلاثة كلها حرام والتعدي عليها ظلم، فظلم العباد ينقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة: ظلمهم في أموالهم، ظلمهم في دمائهم، ظلمهم في أعراضهم.

ظلم الإنسان في ماله، بأكله بغير حق.

وظلمه في دمه بالقتل أو الضّرب أو الكسر أو الجرح.

ظلمه في عرضه بالشتم أو اللعن أو السب أو القذف.

فهـٰذا تقسيم الظلم الذي هو ظلم العباد.

أما تقسيم الظلم من حيث هو فإنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام دلّ عليها قول النبي ﷺ: «**دواوين الظلم يوم القيامة ثلاثة: ديوان لا يغفره الله، وديوان لا يتركه الله، وديوان لا يعبأ الله به**»

أما الديوان الذي لا يغفر الله الشرك بالله، وأما الديوان الذي لا يتركه الله فهو ظلم العباد بعضهم لبعض، وهو الذي يدخل تحته الأقسام الثلاثة التي ذكرها المصنف، وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به، أي لا يبالي به فهو ما دون ذلك، وسيأتي إشارة للحديث عند المصنف في كبيرةٍ قادمة.

وَقَالَ ﷺ: «لَا يَقْبَلُ اللهُ صَلَاةً بِغَيْرِ طُهُورٍ وَلَا صَدَقَةً مِنْ غُلُولٍ».

وهـٰذا فيه خطورة الغلول، وإن صدقات الغال أو ما يُتصدق به الغال لا ينفعه، يعني أن يأخذ الأموال بالظلم وبغير حق ثم ينفق منها، لا يقبله الله منه؛ لأن المال لا حق له فيه، ومثل ما قال القائل: ومطعمة الأيتام من كدّ فرجها. يعني تزني حتى تنفق على الأيتام، أو يسرق أو يغل حتى يتصدّق، هـٰذا لا يُقبل منه، لا يقبل الله منه صدقته لأن المال الذي أخذه وتصدق منه لا حق له فيه.

وَقَالَ زَيْدُ بْنُ خَالِدَ الْجُهَنِيُّ: إِنَّ رَجُلًا غَلَّ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ، فَامْتَنَعَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَقَالَ: «إِنَّ صَاحِبَكُمْ غَلَّ فِي سَبِيلِ اللهِ». فَفَتَّشْنَا مَتَاعَهُ فَوَجَدْنَا فِيهِ خَرَزًا مَا يُسَاوِي دِرْهَمَيْنِ. خَرَّجَهُ أَبُو دَاوُدَ والنَّسَائِيُّ.

ما غلَّه هـٰذا الرجل شي تافه، الصحابة قالوا: (**ما يساوي درهمين**) يعني شي تافه جدا، ما يساوي درهمين يبينوا أن الأمر تافه، ولكن النبي ﷺ امتنع أن يصلي عليه لِما علم من حاله أنه غلَّ هاتين الخرزتين أو هـٰذا الخرز.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدَ: مَا نَعْلَمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَرَكَ الصَّلَاةَ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَى الْغَالِّ وَقَاتِلِ نَفْسِهِ.

وهـٰذا من الإمام أحمد تنبيه لهذا الأمر، ومثل قول الإمام احمد رحمه الله: (مَا نَعْلَم) تأتي هـٰذه الكلمة من رجل صاحب استقراء للسنة والأدلة وتتبع للأحاديث، قال: (مَا نَعْلَم أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَرَكَ الصَّلَاةَ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَى الْغَالِّ وَقَاتِلِ نَفْسِهِ)، والنفي أشد من الإثبات، الإثبات يمكن تقف على حديث واحد وتثبت من خلاله، أما مثل هذا النفي لا يكون إلا عن استقراء.

ولاحظ دقه عبارة الإمام أحمد؛ لم يقل: لم يمتنع النبي ﷺ عن الصلاة إلا على الغال وقاتل نفسه، وإنما قال: (مَا نَعْلَم)، فنفى علمه، وهذا هو الصحيح في التعبير في مثل هذا المقام، لا يقول القائل: لا يوجد دليلا على كذا، وإنما يقول: لا أعلم دليلا على كذا، أو لم أقف على دليلٍ يدل على كذا، حسب اطلاعي وما رأيت، أو نحو ذلك من العبارات.

الكبِيرةُ الحَادِيةُ والعِشرُون
السَّرِقَةُ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة:٣٨].

قوله: (السَّـرِقَـةُ) هذه كبيرة من الكبائر، والسرقة أخذ الأموال -أموال الناس- خِلْسَة من حرزها وأماكن حفظها فهذه تسمى سرقة، يأخذ أموال الناس خِلْسَة أو خُفْيَة من حرزها أو الأماكن التي حُفظت فيها، فهذا من كبائر الذنوب، وفيه حدٌّ في الدنيا، وفيه عقوبة في الآخرة، قال: ﴿فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللهِ﴾ أي عقوبة من الله عز وجل، فهذا حدٌّ دنيوي للسارق.

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ يَسْرِقُ الْحَبْلَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ».

وهذا وجهٌ آخر في الدلالة على أن السرقة كبيرة أن فيها لعن «لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ»، فاللعن والطرد والإبعاد من رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالى، وهذا من الدلائل على أن السرقة كبيرة، نعم.

وقَالَ ﷺ: «لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا».

أي أن السارق أيًا كان ومهما كان قدره أو مكانته فإن هذا حكمه وهذا حدُّه في الشريعة.

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا».

وقالَ ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ؛ وَلَكِنَّ التَّوْبَةَ مَعرُوضَةٌ بَعْدُ» صَحِيحٌ.

وهـٰذا وجهٌ ثالث في الدّلالة على أن السّرقة من الكبائر: نفي الإيمان عن السارق لقوله: «وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»، والنّفي هنا هو نفيٌ لكمال الإيمان الواجب، وليس نفيًا لأصله على ما سبق بيانه وتفصيله.

وَعَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ هِلالِ بْنِ يِسَاف عَنْ سَلَمَةَ بْنِ قَيسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَلَا إِنَّمَا هُنَّ أَرْبَعٌ: أَلَّا تُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَسْرِقُوا».

هـٰذا سمعه سلمة بنُ قيس من النبي ﷺ في حجة الوداع كما جاء منصوصًا عليه في بعض الروايات، قال: سمعت رسول الله ﷺ في حجة الوداع يخطب ويقول: «أَلَا إِنَّمَا هُنَّ أَرْبَعٌ: أَلَّا تُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَسْرِقُوا».

قوله: «أَلَا إِنَّمَا هُنَّ أَرْبَعٌ» هـٰذا من كمال نصحه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وجمال بيانه، «أَلَا إِنَّمَا هُنَّ أَرْبَعٌ» بهذا القدر من هذه الجملة تشوفت النفوس إلى الأمر، «أَلَا إِنَّمَا هُنَّ أَرْبَعٌ»: أي فاحذروها يا أمة الإسلام، «أَلَا إِنَّمَا هُنَّ أَرْبَعٌ»، ثم ذكرها قال: «أَلَّا تُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَسْرِقُوا».

وهـٰذه الأربع تنقسم إلى قسمين: حقٌّ لله، وحقٌّ للعبيد.

حقُّ الله في قوله: «أَلَّا تُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا» أي أخلصوا له العبادة.

وحق العبيد في هذه الأمور الثلاثة: «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَسْرِقُوا».

وإذا ربطت بين هذا النهى وبين قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في خطبته أيضًا في حجة الوداع: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا» تجد أن هـٰذا المقام العظيم يؤكد عليه النبي ﷺ مرات وكَرَّات وبأساليب متنوعة.

قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ» هنا قال: «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ». وقوله هناك: «وَأَعْرَاضَكُمْ»، هنا قال: «وَلَا تَزْنُوا». وقوله هناك: «وَأَمْوَالَكُمْ»، يقابل قوله هنا: «وَلَا تَسْرِقُوا».

فرجع ما في هـٰذا الحديث إلى ما في الحديث الأول: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا» وهـٰذا يؤكد لنا خطورة ما يتعلق بالدماء والأموال والأعراض، وتحذير

النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ وفي خطابته في الحج أكد على هذا القضية مرات كثيرة وفي أكثر من موضع وبأساليب متنوعة؛ منها قوله في حجة الوداع: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنْ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهُمْ وَأَعْرَاضِهُمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِن لِّسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ عَلَى طَاعَةِ اللهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ» هـٰذا قاله أيضا في خطابته في الحج، وفيه تأكيد على هذه القضية المهمة العظيمة: مسألة الدماء والأموال والأعراض.

ﮊﮊ♦ﮋﮋ

قُلْتُ: وَلَا يَنْفَعُ السَّارِقَ تَوْبَتُهُ إِلَّا بِأَنْ يَرُدَّ مَا سَرَقَهُ، فَإِنْ كَانَ مُفْلِسًا تَحَلَّلَ مِنْ صَاحِبِ الْمَالِ.

التوبة لها شروط لتكون مقبولة، وشروطها ثلاثة: وهي أن يندم الإنسان على فعله للذنب، وأن يُقلِع عن الذنب، وأن يعزم على عدم العودة إليه، هذا في عموم الذنوب.

إما إذا كان الذنب يتعلق بحقوق الناس كالسرقة مثلا، فيقول الإمام الذّهبي رحمه الله: (وَلَا يَنْفَعُ السَّارِقَ تَوْبَتُهُ) يعنى لو أنه جاء بالتوبة بشروطها المذكورة: ندِم، وأقلع؛ يعنى لم يَعُد للسرقة يفعلها مرة ثانية، وعزم عزمًا أكيدًا ألا يعود للسّرقة، إلى هذا الحد لا تُقبل توبته؛ لأن باق في ذمته حقوقا للناس وأموال للناس سرقها، فإلى هـٰذا الحد لا تكون التوبة مقبولة؛ يعنى لو أن إنسانا سرق أموالا ثم ندم على السرقة وعزم ألا يعود للسرقة، وأقلع عن السرقة لم يعد يسرق مرة ثانية، إلى هـٰذا الحد لا تكون توبته مقبولة، وإنما تُقبَل -كما يقول الإمام الذهبي رحمه الله- بأن يرد ما سرق، يذهب إلى أصحاب الحقوق ويعيد لهم أموالهم، المهم أن تصل أموالهم إليهم سواء قال: "هـٰذه سرقتها منكم" وأقدم بشجاعة وقدّمها، أو جعل وسيطًا بينه وبينهم ثقةً يُسلِّمها لهم ويقول: "هـٰذه يعنى أُخذت منكم، أخذها شخص منكم وهو تائب الآن" أو نحو ذلك، المهم أن تصل هـٰذه الأموال إلى أصحابها.

و(إِنْ كَانَ مُفْلِسًا) يعنى ليس عنده قدرة على إعادة هـٰذه الأموال؛ فإنه يتحلل هؤلاء: يعنى يطلب منهم أن يسامحوه وأن يعفوا عنه، فإن عفوا عنه وسامحوه قُبلَت توبته، وإن لم يسامحوه بقى الأمر في ذمته.

ﮊﮊ♦ﮋﮋ

الكبِيرَةُ الثّانِيَةُ والعِشْرُون
قطْعُ الطّرِيق

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

[المائدة:٣٣].

فمُجرَّدُ إخَافَتِهِ السَّبيلَ هُوَ مُرْتَكِبٌ الكَبِيرةَ، فَكَيْفَ إذا أخَذَ المَالَ؟!

وَكَيفَ إذا جَرَحَ أو قَتَلَ وفَعَلَ عِدَّةَ كَبائِرٍ؟!

مَعَ مَا غالِبُهُم عَلَيهِ مِنْ تَرْكِ الصَّلاةِ وإنْفاقِ مَا يأْخُذُونَهُ فِي الخَمْرِ والزِّنا.

قطع الطريق هو اعتداء وظلم، وأكلٌ لأموال الناس بالباطل، وفيه إخافة للسبيل، وقطع الطريق هو أن يقف جماعة أو أفراد -قلّوا أو كثروا- في طريق الناس وفي جادَّتهم، ثم إذا مرّت القوافل المسافرة قطعوا عليهم طريقهم بسلْب أموالهم، وهؤلاء الّذين هم قطّاع للطريق محارِبُون لله ولرسوله ﷺ ومن السّاعين في الأرض بالفساد؛ ولهذا جاءت عقوبتهم أشد من عقوبة من يسرق المال خِلسة -كما سبق أن مرّ معنا- لِما في قطع الطريق من إخافة السبيل وإخلال الأمن وإيذاء الناس والتعدِّي على أموالهم، وأيضًا لما يكون في قُطاع الطريق من غلظة وفساد وشر وعدوان وتعاطي للمحرّمات وتهاون في الفرائض، وهـٰذا حالهم في الغالب الأعم، من كان بهذه الصفة فالغالب الأعمّ أنه فيه هـٰذه الصفات، وقد جاءت عقوبة قاطع الطريق كما في الآية التي بيّن المصنِّف أو التي أورد المصنف: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [المائدة:٣٣] وهـٰذا بحسب الأمر الذي كان منه؛ لأنّ هـٰذه الجريمة متفاوتة في حجمها ولهذا العقوبة تكون متفاوتة.

وذكر المصنف رحمه الله في تعليقه أن مجرّد إخافة السّبيل كبيرة من الكبائر؛ يعني إخلال الأمن وإخافة سبيل الناس وطريقهم وإدخال الخلل على الأمن هذا بمجردِهِ كبيرة، فكيف إذا انضمّ إليه أخذ المال بالباطل، وانضم إليه جرح الناس بسبب ضربهم أو أيضا القتل، وانضمّ إليه فعل عدة كبائر مثل: شرب الخمر والتهاون في الصلاة والفواحش.. وغير ذلك من قُطَّاع الطريق.

❀❀◇❀❀

الكبِيرَةُ الثالِثَةُ والعِشْرُونَ
اليَمِينُ الغَمُوسُ

قَالَ عَبْدُ الله بنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبيِّ ﷺ: «الْكَبَائِرُ: الْإِشْرَاكُ بِالله، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ: الَّتِي يُتَعَمَّدُ فِيهَا الْكَذِبَ، سُمِّيَتْ غَمُوسًا لِأَنَّهَا تَغْمِسُ الْحَالِفَ فِي الْإِثْمِ.

«الْيَمِينُ الغَمُوسُ»: قيل «الغَمُوسُ» لأنها تَغمِس صاحبها في الإثم وفي العقوبة وفي النار؛ ولهذا سُميت غَمُوسا لعِظَم شأنها وشدة خطورتها، قال: «الْيَمِينُ الغَمُوسُ».

قال: (قَالَ عَبْدُ الله بنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبيِّ ﷺ: «الْكَبَائِرُ: الْإِشْرَاكُ بِالله، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وقَتْلُ النَّفْسِ، وَاليَمِينُ الغَمُوسُ» أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ.

قال: (وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ: الَّتِي يُتَعَمَّدُ فِيهَا الْكَذِبَ، سُمِّيتْ غَمُوسًا لِأَنَّهَا تَغْمِسُ الْحَالِفَ فِي الْإِثْمِ.)

واليمين الغموس كما بيّنت هي أن يحلف يمينًا فاجرةً كاذبةً خاطئة يتعدّى بها على حقوق الناس ويأخذ بها أموالهم، فهي يمين غموس وهي من كبائر الإثم.

❀❀◈❀❀

وقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «قَالَ رَجُلٌ: وَالله لَا يَغفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الذي يَتَأَلَّى عليَّ أَنِّي لَا أغْفرُ لِفُلانٍ؟! قَدْ غَفَرتُ لهُ وأحبَطْتُ عَمَلَكَ».

هـٰذا من أشد ما يكون في اليمين الغموس: التألِّي على الله جلّ وعزّ، هـٰذا من أشد ما يكون في اليمين الغموس؛ التألي على الله، ومن التألِّي على الله أن يقول القائل: «وَالله لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ» يحلف بأن الله لا يغفر لفلان؛ يعني لِمَا يراه في شخص من كثرة فسقه أو كثرة عصيانه أو كثرة مخالفاته، ثم يحلف يمينا أنّ الله لا يغفر له فهذا فيه تألِّي على الله، الله عز وجل مغفرته وسعت كل شيء، ورحمته كتبها لمن شاء من عباده، فمن قال :"والله لا يغفر الله لفلان" أو "لا يرحم الله فلانا" فهذا تَحْدِيث وتألِّي على الله تَبَارَكَ وَتَعَالى وقول على الله بلا علم، فهي يمين غموس، يمينٌ فاجرة.

قال: («قَالَ رَجُلٌ: وَالله لَا يَغفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللهُ عز وجل: مَنْ ذَا الذي يَتَأَلَّى عليَّ أَنِّي لَا أغْفرُ لِفُلانٍ؟! قَدْ غَفَرتُ لهُ وأحبَطْتُ عَمَلَكَ»)، وحبوط عمل هـٰذا المتألِّي دليلٌ على أن تألّيه كبيرة، دليلٌ على أن تأليه على الله كبيرة من كبائر الإثم أوجبت حبوط عمله.

❀❀◈❀❀

وَقَالَ ﷺ: «ثَلَاثةٌ لَا يُكَلِمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: المُسْبِلُ إِزَارَهُ، وَالمَنَّانُ، وَالمُنفِقُ سِلْعَتَهُ بالحَلِفِ الكاذِب».

ثم ذكر هـٰذا الحديث فيمن لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، فذكر «المُسْبِلُ إِزَارَهُ، وَالمَنَّانُ، وَالمُنفِقُ أو المُنَفِّقُ- سِلْعَتَهُ بالحَلِفِ الكاذِب» فهـٰذه الأمور الثلاثة كلها من الأمور العظيمة؛ بدليل أن النبي ﷺ قال: «ثَلَاثةٌ لَا يُكَلِمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» فهي كلّها من عظائم الذّنوب؛

مع أن بعض النّاس فيما يتعلق بإسبال الإزار يرون أنه من الأمور التي ليست بالمهمّة وليست بالعظيمة، وإذا قيل لهم في هـٰذا الأمر تضايقوا وتضجروا وقالوا: "كل شيء حرام؛ يعني ماذا يضير إذا كان ثوب الإنسان يسترخي قليلا ويلامس الأرض، ماذا في هذا؟!" ولو أنهم تخلّوا عن أهوائهم وقرؤوا هـٰذا الحديث وحده -وهو في صحيح مسلم- لكفاهم زاجرا، يقول عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، وهـٰذا الحديث مفيد جدًّا في مناصحة المسبل بأن يُذكر له الحديث أولًا؛ يعني يُذكر له هـٰذه المقدمة أولا، يقال: جاء في صحيح مسلم عن النبيّ ﷺ أنه قال: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، ثم يقول: نسأل الله أن يحفظنا وإياكم من هـٰذه؛ وألّا نكون من هؤلاء، ويُوضح لهم خطورة الأمر، وإذا استشعرت القلوب خطورة الأمر يقول: سبحان الله أوّل واحد من هؤلاء «الْمُسْبِلُ إِزَارَهُ» نسأل الله العافية، هـٰذا له وقع، وجربه الكثير من الإخوة له وقع في إصلاح الناس في هـٰذا الأمر، إضافةً إلى الأحاديث الأخرى، والناس فيهم خير ولله الحمد؛ يعني إذا ذُكرت لهم النصوص وعُرضت عليهم الأدلة بأسلوب مناسب وطريقة مناسبة وبحُسن تلطف في النصيحة ينفعهم الله بذلك.

وعمر بن الخطاب ڤ لما طعنه المجوسي جاءه غلام وقال له: "هنيئًا لك يا خليفة رسول الله، صحبت رسول الله ﷺ وقُتلت في سبيل الله" ثم مشى الغلام بعد هـٰذه التهنئة لعمر ڤ، فلما مشى قال عمر ڤ :"ادعوا لي الغلام" والدم يثعب من بطنه، إذا سقوه الحليب خرج من بطنه، وكان في تلك الحال يُغمى عليه ويُفيق والدماء تسيل من بطنه، فقال: "ادعوا لي الغلام"، فدعوا له الغلام، فقال له: "يا غلام ارفع ثوبك"؛ يعني لم ينس المناصحة في هـٰذا الباب في هـٰذه الحالة!، "**ارفع ثوبك، فإنه أتقى لقلبك وأنقى لثوبك**"، فالأمر ليس بالهيِّن، كيف يكون هيِّنا ونبينا عليه الصّلاة والسّلام يقول: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»؟!، في مثل هـٰذا الحديث الصحابة في موضع آخر قالوا: "خابوا يا رسول الله وخسروا من هم؟"، ومن يسمع هـٰذا الكلام لابد أن يؤثر فيه، وكيف لا يؤثر فيه ونبينا ﷺ يقول: «لَا يُكَلِمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»؟!، سبحان الله!، كيف يتغافل الإنسان ويتعامى ويتّبع هواه ويدع قول رسول الله ﷺ في التحذير الكبير من هذا الأمر؟!، وفي الحديث الآخر قال: «مَا أَسْفَلَ الْكَعْبَيْنِ مِنَ الْإِزَارِ فَفِي النَّارِ».

وهنا أذكر أمرًا يدلّ على حال المُتَّبع هواه، بعض المستقيمين وقفوا على بعض الأحاديث الصحيحة: «أُزْرَةَ الْمُسْلِمِ إِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ» وعملوا بهذا الحديث، وبعضهم عمل بقوله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «مَا أَسْفَلَ

الْكَعْبَيْنِ مِنَ الْإِزَارِ فَفِي النَّارِ» فجعل إزاره فوق الكعب، وهذا كله سُنَّة، المهم ألّا يسترخي الإزار ولا ينزل عن الكعب، فأولئك الذين جعلوا إزارهم إلى أنصاف الساقين صاروا مثارًا للسّخرية من بعض غير المُتديِّنين ويتهكَّمون بهم ويسخرون منهم، هـٰذا قبل سنوات، ثم بعد فترة من الزمان حدثت موضة في الغرب يلبسون البنطال إلى الركبة؛ فقلدهم هؤلاء الشباب ولبسوا البنطال إلى الركبة وصاروا يخرجون بالبنطال إلى الركبة في الشارع!، وكانوا قبل سنوات قلائل يسخرون ممن إزاره إلى نصف السّاق! وهو متّبع للسنة، وهم فيما بعد جعلوا بنطالهم إلى الركبة متبعين للغرب، وكانوا قبل فترة قليلة يسخرون ممن إزاره إلى نصف الساقين.

فعلى كلّ حال هذه مصيبة المتبع لهواه، فمصيبة المتبع لهواه يصبح في مثل هذه المنزلقات عياذًا بالله.

وعلى كلِّ حال الواجب على المسلم أن ينصح لنفسه، وأن يُعطِي نفسه قاعدة في هـٰذا الباب أن السنة كلها بركة، كلها خير، كلها فضيلة، ويطّرح هواه، ويتبع سنة رسول الله ﷺ.

❁❁❁

وَعَنِ الْحَسَنِ بْنِ عُبيدِ اللهِ النَّخَعِي، عَنْ سَعيدِ بنِ عُبَيْدَةَ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ». وفي لَفْظٍ: «فَقَدْ أَشْرَكَ» إسْنادُهُ عَلَى شَرْطِ مُسْلِم.

هذا أشد ما في مسألة الحلف؛ أن يحلف الإنسان بغير الله، والحلف بغير الله شرك وكفركما هو واضح؛ كأن يحلف بالنبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ أو بالكعبة أو بأي مخلوق من المخلوقات، الحلف بالله جل وعلا «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ»، الحديث الآخر قال: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ وَلَا أُمَّهَاتِكُمْ، مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ»، وفي حديث ابن عمر هنا قال: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ» أو «أَشْرَكَ»، وهذا أشد ما يكون في باب الحلف؛ ولهذا من فقه الصحابة ڤ قول ابن مسعود ڤ: "لَأَن أحلف بالله كاذبًا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا"، فالحلف بالله توحيد، والكذب كبيرة، لاحظ في كلٍ من الأمرين حتى يتبين لنا الأمر، في كلٍ من الأمرين حسنة وسيئة:

الأمر الأول: فيه حسنة التوحيد، وكبيرة الكذب.

والأمر الثّاني: قال: "أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا" فيه سيّئة الشّرك، وفضيلة الصّدق، وعندما تُقارن تجد أنّ حسنة التّوحيد لا توازيها حسنة، وتجد في المقابل أنّ سيّئة الشّرك مُبطِلة للحسنات، فهـٰذا من فقه الصّحابة ڤ "لَأَن أحلف بالله كاذبا أحبّ إليّ من أن أحلف بغيره صادقا"، وهو بعيد عن الأمرين؛ ولكن هـٰذا لتوضيح الأمر ولبيان الحكم.

❁❁❁

وقَالَ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلمٍ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ». قِيلَ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا؟ قَالَ: «وَإِنْ كَانَ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ».

تقدم معنا هذا الحديث، نعم.

وَصَحَّ تَغْلِيظُ إِثْمِ الْحَالِفِ كَاذِبًا بَعْدَ العَصْرِ، وَعِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

لفضيلة المكان؛ يعني الروضة جاء في فضلها «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِن رِّيَاضِ الْجَنَّةِ»، وعادةً الإنسان عندما يكون في زمانٍ فاضل وفي وقتٍ فاضل قد صلّى العصر في المسجد، وجالس في الروضة، فهي في مكان فاضل ووقت فاضل، وعلى إِثْرِ عبادة، ثمّ يحلف فهذا أشدّ إثما وأعظم ذنبا.

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

الحلف باللات والعزّى شرك، والشرك لا يكون الخلاص منه إلاّ بالرّجوع إلى التوحيد، و(لا إلـٰه إلا الله) هي كلمة التّوحيد، نعم.

وَكَانَ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ مَنْ هُوَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِالحَلِفِ بِهَا، فَرُبَّمَا سَبَقَهُ لِسَانُهُ بِالْحَلِفِ بِهَا، فَأَمَرَهُ [النَّبِيُّ ﷺ] أَنْ يُبَادِرَ بِقَوْلِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

حديث العهد بالشيء: إذا اقتنع بالحكم قد ينفلت لسانه بحكم مألوفه ومعتاده، قد ينفلت لسانه بحكم مألوفه ومعتاده، وقد أرشد النبي ﷺ إلى (لا إلـٰه إلاّ الله) لتكون كفّارةً، ففي كلّ مرّة قد انفلت لسانه وأتى بهذا الحلف الذي كان قد اعتاد عليه وسبق أن اعتاد عليه، فيأتي بهذه الكفّارة، يأتي بهذه الكفّارة يقول: (لا إلـٰه إلا الله).

وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَحْلِفُ عَبْدٌ عِنْدَ هَذَا الْمِنبَرِ عَلَى يَمِينٍ آثِمَةٍ، وَلَوْ عَلَى سِوَاكٍ رَطْبٍ إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ.

مثل ما مرّ لفضل المكان، عندما يكون الإنسان في مسجد ولاسيما مسجد النّبي ﷺ أو في الرّوضة ثمّ يتغافل عن هذا المكان وهيبته وفضيلته ثمّ يحلف اليمين الفاجرة ويقتطع بها أموال النّاس، فلا شكّ أنّ هذا أعظم إثما.

الكبِيرةُ الرَّابعةُ والعِشرُون
الكذّابُ فِي غالِبِ أقوالِهِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللهَّ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:٢٨].

قال: (الكَبِيرةُ الرَّابِعَةُ والعِشْرُون: الكَذَّابُ فِي غَالِبِ أقْوالِهِ)، والكذب كلّه مفسدة؛ لكن تتفاوت مفسدته من أمر إلى أمر؛ إلاّ شيئا يسيرا منه قد يكون فيه شيء من إرادة الإصلاح أو الإحسان أو نحو ذلك، وقد جاء في الشّريعة ما يدلّ على عدم المنع منه، ثمّ ما كان في الكذب من مفاسد هي متفاوتة، والأضرار التي تنجم عنها وتترتّب عليها متفاوتة، ولهذا جاء في الحديث الصّحيح أن النّبي ﷺ عدّ الكذب من صفات المنافقين، وأنّه ليس من صفات المؤمن وأنّ المؤمن مجانب للكذب بعيد عنه، قال: (الكَذَّابُ فِي غَالِبِ أقْوالِهِ: قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللهَّ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾)، قال فيه خطورة الكذب على الكذّاب أنّه يكون سببًا في إغلاق باب الهداية عليه وحرمانه من الخير، وهذا المعنى هو أيضا يدلّ عليه ما جاء في الحديث: «لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهَّ كَذَّابًا».

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُتِلَ الخَرّاصُونَ﴾ [الذّاريات:١٠].

الخرّاص: هو الذي يقول ما لا يعلم بالتخرّص والظنّون، ويخبر بأشياء ليس متحقّقا عنها فيكون بذلك كثير الكذب.

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللهّ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران:٦١].

هـٰذه الآية تسمّى آية المباهلة، تسّمى المباهلة، وتكون بين الاثنين كلّ منهما يدّعي أنّه هو الذي على الحقّ، يدّعي أنّه هو الذي على الحقّ وهو الذي على الهدى، فالمباهلة خطيرة جدًّا، والإقدام عليها من الكاذب جناية على نفسه بالغة وخطيرة، يعلم من نفسه أنّه كاذب وأنّه خاطئ ثمّ يباهل، يباهل من أمامه بأنّ لعنة الله على الكاذب وهو يعلم من نفسه أنّه هو الكاذب؛ هـٰذا من أخطر وأشدّ ما يكون في باب الكذب.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهَّ كَذَّابًا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

هـٰذا فيه تنبيه على خطورة الكذب من جهة أنّ وقوع الإنسان في شدته وفي أنواع الكبيرة هو عبر خطوات

صغيرة في البداية؛ يعني يبدأ بكَذْبَة ثمّ يُلحقها بثانية ثمّ ثالثة ثمّ يُكتب كذّابا عند الله؛ ولهذا يُغلَق الإنسان على نفسه هـٰذا الباب حتّى في تربية الأولاد الصّغار ينبغي أن يلاحظ هـٰذا الأمر، وكثير من الناس لا يتّقي الله في أولاده ولا يتّقي الله في أولاد المسلمين، فيفعل عندهم أفعالا تُنشِّئهم على كذب، مثل أن يقول: تعال أعطيك حلوى، أو يوهمه أنّ بيده شيء ثمّ يصل الطّفل ويفتح اليد ولا يجد فيها شيء، كثيرًا ما يُداعب الأطفال بمثل هذه الطّريقة: يُغلق يده ويقول: تعال خذ، ثمّ يصل الطّفل فرحان يظنّ أنّ في يده حلوى فيفتح اليد لا يجد فيها شيئا، هـٰذا تدريب على الكذب؛ لأنّ الطّفل ولد على الصّدق وبُغض الكذب، فإذا كان يُعامل بهذه الطّريقة أو مثلا يقول: تعال أو سأعطيك كذا أو نحو ذلك ثمّ لا يحصل هـٰذا الأمر، هذا كلّه تدريب له على الكذب والجناية على فطرته، والكذب يبدأ مع الإنسان مراحل وخطوات وقد يكون بعض النّاس الذي بلغ مبلغا واسعا في الكذب، وصار من كبار الكذّابين بدايةُ كذبه على يد والده أو على يد أحد أقربائه هو الذي غرس فيه الكذب، ولا يعلم ذلك، ولا يعلم الجناية التي جناها على ولده، ولهذا هـٰذه ممارسة خاطئة تُفعل كثيرًا، وهي جناية على النَّشْء، وغرس للكذب في نفوسهم، ولهذا يكثر الكذب في الأطفال؛ بسبب هـٰذه المخالفة من الآباء والأمّهات والأقارب في التّعامل مع الأطفال، ولهذا ينبغي أن يكون من أمام الطّفل قدوات صالحة يعلّمونه الصّدق ولا ينشّئونه على الكذب وغيره من المخالفات.

❁❁◊❁❁

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ».

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

في هـٰذا الحديث والذي قبله دليل على خطورة الكذب وأنّه من صفات المنافقين وليس من صفات أهل الإيمان، المؤمن مجانبٌ للكذب، كما قال ذلك أبو بكر ﭬ: "المؤمن مجانب للكذب"، والكذب من آيات النّفاق؛ يعني علامات النّفاق.

❁❁◊❁❁

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَفْعَلَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

«مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ» يعني قال لإخوانه: إنّني رأيت البارحة في المنام كذا وكذا، وهو لم ير ذلك، وإنّما يُخبر برؤيا مناميّة كاذبة، فيقول: رأيت في المنام كذا وكذا، البارحة أو قبل ليلتين رأيت في المنام أنّني ذهبت إلى

كذا أو حصل لي كذا أو نحو ذلك، وهو كاذب؛ يعني أن يُخبر بهذا وهو كاذب، «كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، «شَعِيرَتَيْنِ» الشّعيرة هي الحبّة المعروفة، فيُعطَى حبّتين من الشّعير ويُقال: اعقد بينهما أو اربط الشّعيرتين بعضهما ببعض ولا يستطيع أن يفعل ذلك ويُعذّب، ويُعذّب على هـٰذا الكذب، يُطلَب منه «أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ» أي حبّتين من الشّعير، وهنا هـٰذا الحديث حقيقةً حديث عظيم في إغلاق باب مفسدة وشر على الأمّة، باب مفسدة وشرّ عندما يتذكّر النّاس هـٰذا الحديث فيه إغلاق باب مفسدة وشرّ كثير من أرباب البدع والضّلالات روّجوا بدعهم بمثل هـٰذا الكذب، وأدخل على النّاس من العقائد ومن الأعمال بمثل هـٰذا الكذب، وأوهم النّاس أنّ له منزلة عند الله ومكانة يوم يقول: رأيت النّبي ﷺ بالمنام، ويوم يقول: رأيت أَبُو بَكْر، ويوم يقول رأيت عُمَر، واليوم الثّالث جاءني عَلِيّ، يقول: "هـٰذا من أولياء الله المقرّبين!، كل يوم يأتيهم واحد من الصّالحين"، وهو يكذب، وهو يريد من ذلك أن تُقبّل يده، ويريد من ذلك أن يعظم جاهه، ويريد من ذلك أن تزداد مكانته عند النّاس، وكلّ مرّة يأتيهم بكذبة جديدة ويزداد الإقبال عليه، ويبدأ النّاس يعطونه من أموالهم، ويبدأ النّاس يتسابقون على القُرب منه؛ لأنه بمثل هـٰذا الكذب الفاضح أخذ يزكّي نفسه عندهم.

وكثير ما يستعمل أرباب البدع والضّلال مثل هـٰذا الباطل.

أذكر أنّني مرّة وقفت على كتاب ملئ بالأذكار المُحدَثة وفي بعضها شركيّات! وبعضها طلاسم!، حتّى إنني وأنا أقلّب الكتاب قلتُ: "سبحان الله من يقبل هـٰذا الكتاب؟!"، كتاب يعني عباراته مفكّكة وفيه شركيّات وفيه بدع وفيه كلمات معقّدة غير مفهومة، قلت في نفسي: "سبحان الله من يقبل هذا الكتاب؟!"، ثمّ لّما وصلت خاتمة الكتاب وجدت المؤلّف قال: "إنّني بعد ما ألّفت هـٰذا الكتاب توقّفت في نشره، وتردّدت في طبعه، وبقيت فترة من الزّمن متردّدا في طبعه، ثمّ يقول: جاءني الرّسول ﷺ في المنام وقال: يا فلان لماذا هـٰذا التّأخير؟! لماذا لا تبادر؟!، النّاس في حاجة إلى كتابك!!"، ويقول: "وأيضا توقّفت"، يقول: "وجاءني غدا أبو بكر ۏ يقول: لماذا وقد جاءك النّبي ﷺ في المنام؟!، وجاءني عمر، ووجدت أني مضطر لطبعه وأنّ الناس يستفيدوا منه، وإلاّ أنا كنت متردّد أصلا في طبع الكتاب"، العوام مساكين والجهّال؛ يعني أبو بكر جاء وعمر جاء، وقبل ذلك النّبي ﷺ فيأخذون الكتاب مأخذ التّسليم ومثل هـٰذا الكذب، راجت بدع على النّاس، وراجت ضلالات، ومن لا يتّقون الله عز وجل روّجوا لباطلهم بين النّاس بمثل هـٰذه الطّريقة، وهذه العقوبة، والنّبي ﷺ أغلق بهذا الحديث العظيم المبارك مثل هـٰذا الباب لمن يخاف الله عز وجل ويتّقيه.

❂❂◈❂❂

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ أَفْرَى الْفِرَى: أَنْ يُرِيَ الرَّجُلُ عَيْنَيْهِ مَا لَمْ تَرَيَا» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا.

«أَفْرَى الفِرَى» أي أشدّ الكذب، و"الفرية" الافتراء وهو الكذب، و«أَفْرَى الْفِرَى» يعني أشدّ الكذب «أَنْ يُرِيَ الرَّجُلُ عَيْنَيْهِ مَا لَمْ تَرَيَا»: يعني يقول: رأيت كذا وهو كاذب، "يُريها" يعني يدّعي أنها رأت ما لم تر.

وَأَخْرَجَ حَدِيثَ سَمُرَةَ بنَ جُنْدُبٍ بِطُولِهِ فِي مَنَامِ النَّبِيِّ ﷺ وَفِيه: «وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي رَأَيْتَهُ عَلَيْهِ يُشَرْشَرُ شِدْقَيْهِ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنَيْهِ إِلَى قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ، فَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ تَبْلُغُ الآفَاقَ».

ثم أشار إلى حديث سمرة بن جندب، وهو حديث طويل في منام النّبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ واصطحابه في المنام لجبريل، وذَكَر عقوبات في هـٰذا الحديث لمن يثقل رأسه عن الصّلاة وللزناة وللذي يكذب الكذبة تبلغ الآفاق، حديث عظيم، من لم يقف عليه ينبغي أن يقف عليه وهو في صحيح البخاري ويقرأه بطوله، وهو حديث مليء بالفوائد في باب العقوبات والتحذير من الكبائر.

والمصنفرحمه الله اقتصر هنا على موقع الشاهد فيما يتعلق بالكذب قال: «وَأَمَّا الرَّجُلُ» والقائل هنا جبريل للنبي عليه الصّلاة والسّلام قال: «أَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي رَأَيْتَهُ» أي: يا رسول الله، «يُشَرْشَرُ شِدْقَيْهِ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنَيْهِ إِلَى قَفَاهُ» يعني "الشرشرة": القطع، "يُشرشَر الشدق إلى القفا" يعني يُؤخذ بطرف الفم ويُرفع إلى الخلف بأن يُقطع إلى الخلف، وأيضا في شرشرة العين إلى القفا تُقطع إلى الخلف.

والله أعلم أن هـٰذه العقوبة من جنس العمل؛ لأنه يكذب بفمه، ويُخبر عن شيء بعينه رآه وهو لم يره، فالكذب متعلق بالعين ومتعلق بالفم، والشرشرة إلى قفاه ستمرّ على الأذن قطعا فهـٰذه عقوبة من جنس عمله، تُقطع هـٰذه الآلات التي استخدمها لترويج الكذب: "والله رأيت بعيني وسمعت بأذني" هـٰذا غالبا ما يكون من الكذّاب؛ يُخبر عن شيء سمعه أو عن شيء رآه بفمه كاذبا، فتكون له هـٰذه العقوبة: "يُشرشر شدقه إلى قفاه وتُشرشر عينه إلى قفاه" يعني تُقطع ثم تعود ثم تُقطع، وهكذا لا يزال يُعذّب بسبب الكذب.

قال: «الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ، فَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ تَبْلُغُ الآفَاقَ» سبحان الله! هـٰذا الحديث في زماننا يعني تتحقق بشكل واسع جدا في مسألة الكمبيوتر والإنترنت، يجلس الإنسان في حجرته وفي بيته ويكتب بيده أو ينطق بفمه بالكذبة، وفي ثانية واحدة تصل العالم كله، كل من عنده جهاز إنترنت تصله هذه الكذبة، تبلغ الآفاق في ثانية، مجرّد ما أن يكتبها ويرسلها في نفس اللحظة تصل إلى الدنيا كلها، «تَبْلُغُ الآفَاقَ»، قديما كانت تبلغ الآفاق؛ ولكن تحتاج إلى وقت؛ يعني يتناقلها أهل المدينة ثم مسافر يذهب إلى مدينة أخرى، وهكذا حتى تنتشر عبر زمن طويل، أما في زماننا تبلغ الآفاق في ثانية واحدة!، الكذبة تبلغ الآفاق في ثانية واحدة.

وهـٰذا الحديث فيه تنبيه وفيه فائدة لمن يتعامل مع الإنترنت: أن يتقي الله تعالى، وألا يضع فيه شيء من الباطل والكذب والضلالات التي تبلغ الآفاق ويبوء بإثم كل من بلغته هـٰذه الكذبة وكل من انطلت عليه وكل من ترتب على رواجها عنده مفاسد، فهذا يدل على خطورة الأمر، وأن الإنسان يعني هو قد يظن أنه في حجرته ويكتب الكلمة وتذهب وما يقول، لا، الله مطلّع عليك، وهـٰذه تُكتب في أعمالك، وكل من تضرر وجنى عليه قولك أو عملك هذا كل ذلك يُكتب في موازين سيئات الإنسان.

❀❀◊❀❀

وَعَنْهُ ﷺ: «يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ لَيْسَ الخِيَانَةَ وَالكَذِبَ» رُوِيَ بِإسنَادَيْنِ ضَعِيفَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَعَنْهُ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْمَعَارِيضِ لَمَنْدُوحَةٌ عَنِ الْكَذِبِ».

إذا الإنسان أصابه موقف معيّن ووجد نفسه مضطر فـ«فِي الْمَعَارِيضِ لَمَنْدُوحَةٌ عَنِ الْكَذِبِ» يُعرِّض ولا يأتي بالكذب الصُراح وإنما يُعرِّض، والتعريض أن يأتي بكلام موهم يعني ليس كذبا صريحا وإنما كلام موهم، ويتخلص به من الموقف الذي كان مضطرًّا فيه للكذب.

❀❀◊❀❀

وَقَالَ ﷺ: «كَفَى بِالمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّث بِكُلِ مَا سَمِعَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

تحديث الإنسان بكل ما سمع هذا هو قناة الكذب وسبيلها: أن يحدِّث بكلّ ما سمع، وأن تكون مطيَّته: زعموا، وقيل، وسمعت، وينقل كل ما يسمع، هـٰذا فيه خطورة على الإنسان والجناية عليه وقناة تُفضي به إلى الدّخول في الكذب، ولهذا قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «كَفَى بِالمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِ مَا سَمِعَ».

❀❀◊❀❀

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلاَبِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ» رَوَاهُ مُسْلِم.

تشبُّع الإنسان بما لم يُعط نوعٌ من كذب، "أنا الذي فعلت كذا ، أنا الذي حصل مني كذا"، يتشبَّع بما لم يعط، يُخبِر عن نفسه بأمور ليس فيها حقيقة أو واقعا فيه، فيريد أن يجلب لنفسه مدحةً أو ثناء أو مكانةً عند الناس فيبدأ يذكر عن نفسه من الخصال أو الصفات أو الأعمال تشبُّعا بما لم يعط فهو «كَلاَبِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ».

❀❀◊❀❀

وَقَالَ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحدِيثِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

أيضا هـٰذا من الأمور التي هي قناة للكذب: اتباع الظن، والتحدث والإخبار بالأمور الظّنّية التي لم يتيقن منها الإنسان، ولهذا قال : «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ» يعني احذروه «فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحدِيثِ».

❀❀◊❀❀

وَقَالَ ﷺ: «ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ...» الحَدِيثَ. وفِيهِ: «مَلِكٌ كَذَّابٌ» رَوَاهُ مُسْلِم.

مرّ معنا هـٰذا الحديث وعرفنا أن الذّنب إذا لم يكن هناك الباعث عليه فالجرم يكون أخطر، والملِك هو ليس بحاجة إلى الكذب لأنه بيده سلطة، عادة الكذب من الضّعيف، فإذا كان وُجد فيه الكذب فهذا دليل على فساد، ولهذا جاءت العقوبة الشّديدة له إن كان كذلك.

الكبِيرةُ الخامِسةُ والعِشرُون
قاتِلُ نفسِهِ وهِيَ مِنْ أعظمِ الكبائِرِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا (٣٠) إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا (٣١)﴾ [النساء:٢٩-٣١].

ثم ذكر هـٰذه الكبيرة (قاتِلُ نَفْسِهِ) وهو ما يسمّى في زماننا بالانتحار، وقاتل النّفس سواء قتلها بسكين أو أغرق نفسه أو رمى نفسه من شاهق أو أحرق نفسه أو بأي طريقة كانت فهو مرتكب لكبيرة هي من أعظم الكبائر وأشد الآثام.

وأورد المصنف قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، قوله: ﴿لَا تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾ هـٰذا هو الشاهد من الآية: قتل النفس، ﴿لَا تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾: أي لا يقتل الإنسان نفسه، قال: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ بل عليه أن يطلب رحمة الله ويسعى في تحصيلها ويستجلبها لنفسه.

قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ وهـٰذا فيه قيد قال: ﴿عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾، أمّا إذا وقع هذا خطأً أو عن غير تعمُّد أو عن غير قصد أو نحو ذلك فلا يكون شاملا له هـٰذا الحكم؛ لكن هذا فيمن يفعل هذا الأمر عدوانا وظلما قال: ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾.

ثم قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ﴾ الإثم وهـٰذا وذكر هـٰذا في هـٰذا السياق دليل آخر ووجه آخر في الدّلالة على أن قتل النفس كبيرة من الكبائر.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الآية [الفرقان:٦٨].

الشاهد من الآية: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، ومن النّفوس التي حرّم الله قتلها: أن

يقتل الإنسان نفسه، فالآية بعمومها دالةٌ على تحريم قتل الإنسان لنفسه.

وعَنْ جُنْدُبِ بنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ بِهِ جُرْحٌ فَجَزِعَ، فَأَخَذَ سِكِّينًا فَحَزَّ بِهَا يَدَهُ، فَمَا رَقَأَ الدَّمُ حَتَّى مَاتَ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: بَادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ، حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وهـٰذا فيه دليل على أنّ قاتل نفسه مرتكب لكبيرة، قال: «حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ»، وفي الحديث الآخر: «أنّه في النّار» عقوبته أنه في النار، وهـٰذا رجل أصابه جرح فما تحمَّل؛ جزع، فحزّ يده بالسِّكين يعني وخزها بالسكين «فَمَا رَقَأَ الدَّمُ» يعني ما توقف إلى أن مات، فكان بذلك قاتلا لنفسه، فقال الله: «بَادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ أوجبت له النار أو: حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ».

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِسُمٍّ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا» مُتَّفَقٌ عَلَيه.

ثم ذكر هـٰذا الحديث في عقوبة قاتل نفسه بأي طريقة كانت بالسمّ أو بالسِّكين أو بغير ذلك، وأن عقوبته النار خالدا مخلّدا فيها أبدا، والقول هنا كالقول الذي سبق معنا في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء:٩٣] فهـٰذه عقوبته، وإذا وُجد مانع التوحيد والإخلاص فإنّ مرتكب الكبيرة لا يكون في النّار خلوده أبد الآباد، وإنما يبقى فيها على قدر جرمه وعلى قدر ذنبه، ثم يخرج بالتّوحيد الذي هو مانع من موانع الخلود، كما أيضا يدل على هـٰذا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾ [النساء:١١٦]، وكما يدلّ أيضا عليه: «أخرجوا من النّار من قال: لا إلـٰه إلّا الله وفي قلبه أدنى مثقال ذرّة من إيمان»، ونظائر ذلك من النصوص الواردة في الكتاب والسنة.

وفِي الصَّحِيحِ حَدِيثَ الَّذِي آلَمَتْهُ الجِرَاحُ فَاسْتَعْجَلَ المَوْتَ فَقَتَلَ نَفَسَهُ بِذُبَابِ سَيْفِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ».

رَوَى يَحْيَى بن أَبِي بُكَيْرٍ، عَنْ أَبِي قِلابَةَ، عَنْ ثَابِتِ بنِ الضَّحَاكِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَعْنُ المُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ، وَمَنْ قَذَفَ مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَاتِلِهِ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عذَّبَهُ اللهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

الشاهد من الحديث آخره: «وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عذّبَهُ اللهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وفي الحديث دلالة على خطورة لعن المؤمن، وسيأتي هـٰذا في كبيرة قادمة والقذف وسبق معنا في كبيرة ماضية.

الكبِيرَةُ السَّادِسَة والعِشْرُون
القاضِي السُّوء

قَالَ اللهُ تعَالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة:٤٤].

(القَاضِي السُّوء) هو الذي لا يحكم بالعدل ولا يحكم بما شرع الله له أن يحكم به، وإنّما يحكم بهواه فيتجلّى ويظلم ويُسيء إلى النّاس، ولا تكون أحكامه عادلة، وإنّما يتّبع فيها هواه ولا يتّبع فيها ما شرع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى له أن يحكم به.

وأورد جملة من النّصوص الدّالة على أنّ هٰذا من الكبائر، منها قوله الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ظالمون لأنفسهم بهٰذا الحكم، وظالمون لمن حكموا لهم بغير الحقّ، وظالمون لمن حكموا عليهم بغير الحقّ، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة:٥٠].

تَرْك التّحاكم بحكم الله تعالى الذي شرعه لعباده هو من التّحاكم بحكم الجاهليّة المبني على اتّباع الأهواء.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩].

وهٰذا ممّا قد يفعله القاضي السّوء: أن يكتم الحقّ أن يكتم ما يعرف من البيّنات والهدى؛ لأنّه قاضي سوء يقضي بالسّوء، لا يقضي بالبيّنات والهدى الذي عَلِمَه من كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ، والعقوبة: ﴿أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾.

وَقَدْ رَوَى الْحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ بِإِسْنَادٍ لَا أَرْضَاهُ أَنَا، عَنْ طَلْحَةَ بنِ عُبَيْدِ الله عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَقْبَلُ اللهُ صَلَاةَ إِمَامٍ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ».

وَصَحَّحَ الْحَاكِمُ أَيْضًا، وَالْعُهْدَةُ عَلَيْهِ، مِنْ حَدِيثِ بُرَيْدَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَاضٍ فِي الْجَنَّةِ وَقَاضِيَانِ فِي النَّارِ: قَاضٍ عَرَفَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ، وَقَاضٍ عَرَفَ الْحَقَّ فَجَارَ مُتَعَمِّدًا فَهُوَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ قَضَى

بِغَيْرِ عِلْمٍ فَهُوَ فِي النَّارِ».

الحديث الأوّل الذي قال: (لا أرضى إسناده) نبّه المحقّق في الهامش أنّ في سنده عبد الله بن محمد العدوي وهو وضّاع.

والحديث الثّاني أخبر النّبي ﷺ: أنّ القضاة ثلاثة قاض في الجنّة وقاضيان في النّار، وبيّن ذلك عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ أنّ القاضي الذي في الجنّة هو الذي عرف الحقّ وحكم به، وأنّ القاضي الذي في النّار فالذي «عَرَفَ الْحَقَّ فَجَارَ»: يعني كتم الحقّ ولم يحكم به، أو قاضٍ قضى بغير علم، فهٰذان في النّار.

قُلْتُ: فَكُلُّ مَنْ قَضَى بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا بَيِّنَةٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ عَلَى مَا يَقْضِي بِهِ، فَهُو دَاخِلٌ فِي هٰذَا الْوَعِيدِ.

نعم، منصوص عليه في الحديث: «وَقَاضٍ قَضَى بِغَيْرِ عِلْمٍ».

وَرَوَى شُرَيْكٌ، عَنِ الأعْمَشِ، عَنْ سَعْدِ بنِ عُبَيدَةَ عَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَاضِيَانِ فِي النَّارِ وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ...» وَذَكَرَ الحَدِيثَ. قَالُوا: فَمَا ذَنْبُ الَّذِي جَهَلَ؟ قَالَ: «ذَنْبُهُ أَلَّا يَكُونَ قَاضِيًا حَتَّى يَعْلَمَ» إسْنَادُهُ قَوِيٌّ.

هٰذا بمعنى ما سبق قال: «وَقَاضٍ قَضَى بِغَيْرِ عِلْمٍ»، ذنبه أنّه حكم بغير علم، نعم.

وَأقْوَى مِنْهُ حَدِيثُ مَعْقِلِ بنِ سِنَانٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ أحَدٍ يَكُونُ عَلَى شَيءٍ مِنَ أُمُورِ هَـٰذِهِ الأُمَّةِ فَلا يَعْدِلُ فِيهِمْ إلاَّ كَبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ».

والعدل فيهم يكون ناتجا عن العلم بشرع الله، فمن عرف الشّرع ولم يحكم لم يعدل، ومن حكم بغير معرفة الشّرع لم يعدل.

وَرَوَى عُثْمَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْأَخْنَسِيِّ -وَهَوَ صَدُوقٌ- عَنِ الْمَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ جُعِلَ قَاضِيًا بَيْنَ النَّاسِ فَكَأَنَّمَا ذُبِحَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ».

وهٰذا يدل على خطورة القضاء، وأنّ القاضي في أمر خطير، ويحتاج إلى أن يجاهد نفسه دائمًا وأبدًا على موافقة حكم الله وإقامة الحُكم، ويجاهد نفسه على التوسّع بمعرفة الدّلائل والأحكام والفقه في دين الله جلّ وعلا، ومراجعة المسائل، فالأمر ليس بالهيِّن، أمر خطير، «فَكَأَنَّمَا ذُبِحَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ»، ولا يسلم إلاّ من سلّمه

الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، بتحرّي الإنصاف وملازمة العدل ومراجعة الأحكام، وسؤال الله عز وجل التّوفيق.

ﮐﮐ ◊ ﮑﮑ

أَمَّا إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ وَقَضَى بِمَا قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى صِحَّتِهِ، وَلَمْ يَحْكُمْ بِرَأْيِ فَقِيهٍ، وَقَدْ لَاحَ لَهُ ضَعْفُ ذَلِكَ الْقَوْلِ فَهُوَ مَأْجُورٌ وَلَابُدَّ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «وَإِنْ اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَيْنِ، وَإِنْ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

هٰذا في حقّ من يحكم بعلم، هٰذا في حقّ من يحكم بعلم ويتكلّم بعلم ويقضي بعلم، ويبني أحكامه على اجتهاد في معرفة النّصوص والأدلّة، فمن كان بهٰذه الصّفة إن أصاب فله أجران للإصابة وللاجتهاد، وإن أخطأ فله أجر واحد والذّنب مغفور؛ لأنّه ليس كلّ مجتهد مصيبًا للحق، ليس كلّ مجتهد مصيبا للحق، قد يخطئ، فإذا كان متحريّا للحق حريصا على إصابة الحق متّبعا للدّليل؛ ولكنّه مع تحرّيه واجتهاده أخطأ، فالخطأ مغفور وله أجرٌ على تحرّيه واجتهاده.

ﮐﮐ ◊ ﮑﮑ

فَرَتَّبَ النَّبِيُّ ﷺ الْأَجْرَانِ إِذَا اجْتَهَدَ فِي الْحُكْمِ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ مُقَلِدًا فِيمَا يَقْضِي بِهِ فَلَمْ يَدْخُلْ فِي هٰذا الْخَبَرِ فَلَا يَدْخُل فِي الْخَبَرِ.

يعني إذا كان لا يبني الأمر على الدّليل وعلى مراجعة الأدلّة وكلام الله وكلام رسوله ﷺ فإنّه لا يكون قد اجتهد، والحكم هنا خاصٌّ بمن اجتهد في ضوء الأدلّة ونظر فيها وبنى عليها.

ﮐﮐ ◊ ﮑﮑ

وَيَحْرُمُ عَلَى الْقَاضِي أَنْ يَحْكُمَ وَهُوَ غَضْبانٌ، لَاسِيَّمَا مِنَ الْخَصْمِ.

لاسيما من خصم؛ يعني إذا كان غضبه من الخصم نفسه، فإذا كان غضبان من الخصم يُوقِف الحُكم، لا يحكم حال الغضب؛ لأنّ الإنسان حال غضبه قد يسيطر عليه الغضب فيحكم بغير الحق وبغير الصّواب، ولهٰذا جاء في الحديث: «**أَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا**»، كلمة الحقّ في الرّضا يعني قد تكون سهلة؛ لكن كلمة الحقّ في الغضب صعبة، ولهٰذا أُمِرَ الغضبان كما في السنّة: «**إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ**» يعني لا تتكلّم وقت غضب؛ لأنّ الغالب على كلام الإنسان وقت غضبه عدم الانضباط، الغالب على كلام الإنسان وقت غضبه عدم الانضباط؛ فلهٰذا يسكت حتّى يسكن الغضب، والقاضي إذا كان غضبان ولاسيما من الخصم فلا يحكم، وإنّما ينتظر أو يؤجّل حتّى يسكن ويهدأ غضبه، ثمّ يحكم بعد ذلك.

ﮐﮐ ◊ ﮑﮑ

وَإِذَا اجْتَمَعَ فِي الْقَاضِي قِلَّةُ عِلْمٍ وَسُوءُ قَصْدٍ وَأَخْلَاقٌ زَعِرَةٌ وَقِلَّةُ وَرَعٍ، فَقَدْ تَمَّتْ خَسَارَتُهُ، وَوَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ

يَعْزِلَ نَفْسَهُ وَيُبَادِرَ بِالْخَلَاصِ مِنَ النَّارِ.

إذا اجتمعت في القاضي هٰذه الخصال: قلّة العلم، وسوء القصد، وأخلاق زَعرة يعني أخلاق سيّئة وعنيفة وشديدة، مع قلّة ورع، فهٰذا قد تمّت خسارته، والواجب عليه أن يتدارك نفسه ويعزل نفسه عن القضاء؛ لأنّ بقاءه في القضاء بهٰذه الطّريقة تزايد في الإثم وكثرة في الذّنوب يلقى الله بها يوم القيامة، فأولى له أن يعزل نفسه حتّى يريح نفسه من هٰذا المنصب الذي هو ليس أهلًا له وليس صالحا للبقاء فيه.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الرَّاشِي وَالْمُرْتَشِي» صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

هٰذا الحديث إذا أورده المصنّف في باب القاضي السّوء للمناسبة؛ لأنّ القاضي إذا كان قاضي سوء فهو يرتشي؛ يعني لسوئه قد يرتشي، يأخذ الرّشوة ليحكم لأجل الرّاشي، فلعن النّبي ﷺ الراشي والمرتشي، الرّاشي الذي يدفع الرّشوة، والمرتشي الذي يأخذها، فقاضي السّوء قد يصل به سوؤه أن يرتشي يعني يقبل الرِّشوة، لأجل أن يحكم لصالح من رشاه؛ من أعطاه الرّشوة، فلهٰذه المناسبة أورد المصنّف رحمه الله هٰذا الحديث وإن كان ليس مختصًّا في باب القضاء وإنّما هو في كلّ مجال، الرّشوة مُحرّمة في كلّ مجال؛ ولكن لمّا كان القاضي السّوء قد يصل به الأمر إلى هٰذا الموصل نبّه المصنّف أو أشار المصنّف رحمه الله إلى هٰذا الحديث، ثمّ تغيير الأسماء لا تُغيِّر الحقائق، تغيير الأسماء لا تُغيِّر الحقائق، فالعبرة في الحقائق ولو غُيِّرت الأسماء، وكثير من هٰذه الكبائر والمحرّمات يغيّر النّاس أسماءها، ثمّ يمضي متعاملا بها، فالرّشوة بعضهم يُسمّيها إكراميّة، يُسمّيها بعضهم إكراميّة، والرّبا يُسمّونه فائدة، والخمر يُسمّونه مشروبًا روحيًّا، والشّرك بالله يسمّونه توسُّلا، فهٰذه التغييرات في الأسماء ما تُغيّر الحقائق، لا تُغيّر الحقائق، العبرة بحقائق الأمور، فإذا دفع رشوة وسمّاها باسم طيّب إكراميّة أو شيء من هٰذا القبيل ما يتغيّر الحكم، الحكم باقٍ، وهو يغالط نفسه في هٰذا.

الكبيرة السّابعة والعشرون
القوّاد المُستحسن على أهله

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٣].

(القَوَّادُ) هٰذه كبيرة من الكبائر، والقوّاد من القَوْد وهو أخذ الإنسان وقيادته إلى مكان ما، وأُطلقت هٰذه الكلمة في الشّرع على من يقود إلى فعل الفاحشة ويجُرّ، ويقال له القوّاد وأيضا يقال له الجرّار؛ لأنّه يجرّ إلى فعل الفاحشة، وسواء قاد إلى الفاحشة في أهله -والعياذ بالله- مثل ما قال: (القَوَّادُ الْمُسْتَحسِنُ عَلَى أَهْلِهِ)، أو

قادها إلى الآخرين سواء كان رجلا أو امرأة، فهٰذا كبيرة من كبائر الإثم وعظيمة من عظائم الذّنوب، والدّال على الشرّ كفاعله، و«من دعا إلى ضلالة»؛ يعني مثل هٰذه العمومات أيضا تشمل في عمومها شناعة هٰذا العمل وفظاعته، قال الله تعالى: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، الحديث في عمومه -كما مرّ- يدلّنا على خطورة هٰذا الفاحشة، وأيضا يدلّنا على أنّ من يمارس هٰذه الفاحشة تقع في قلوب النّاس البُغْضَ له، ولهٰذا يصل حاله عند النّاس أنّ الزّانية لا يرضى بها العفيف ولا يقبلها، فلا يرضاها إلاّ زانٍ مثلها أو مشرك غير مؤمن بالله تعالى، فهٰذا يدلّ على شناعة الزّنى وقبحه وحرمته على المؤمنين، فإذا كان الأمر بهٰذه الصّفة وبهٰذه الشّناعة وبهٰذا القبح كيف يصل الأمر بإنسان أن يكون قوّادًا إليه!، أمر وصفه الله عز وجل بهٰذه الصّفة وبهٰذه الشّناعة فكيف يقبل الإنسان به السوء والخبث إلى أن يكون قوّادًا لهٰذا الأمر الذي حرّمه الله وبيّن شناعته وبيّن أنّه حتى بلغت الشناعة عند المؤمنين أنّ من تمارس الزنى لا يقبلها الرجل العفيف، فلا يقبلها إلا من هو على شاكلتها أو من هو مشرك بالله عز وجل.

فالأمر والحالة هٰذه، كيف يصل الإنسان به مبلغا في الخبث فيكون قوادا لهٰذا الأمر الذي حرّمه الله عز وجل ورتّب عليه الحدّ في الدنيا والعقوبة الأليمة في الآخرة؟!

وَعَنْ سُلَيْمَانَ بنِ بِلالٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ يَسَارٍ الأَعْرَجِ، قَالَ: حَدَّثَنَا سَالِمُ بنُ عَبْدِ الله، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ: العَاقُّ [لِـ]وَالِدَيْهِ، وَالدَّيُوثُ، وَرَجُلَةُ(١)النِّسَاءِ» إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، لَكِنَّ بَعْضَهَم يَقُولُ: عَنْ أَبِيهِ عَنْ عُمَرَ مَرْفُوعًا.

فَمَنْ كَانَ يَظُنُّ بِأَهْلِهِ الفَاحِشَةَ وَيَتَغَافَلُ لِمَحَبَّةٍ فِيهَا،(٢) فَهُوَ دُونَ مَنْ يُعَرِّسُ عَلَيْهَا، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لا غَيْرَةَ لَهُ.

ثم ذكر هٰذا الحديث في الثلاثة الذين لا يدخلون الجنة وهم: العاق والديه، قدّ مرّ معنا في كبيرة سبقت (٣)، والديوث وهو موضع الشاهد هنا.

والديوث: هو الذي يقرّ الخَبَث في أهله ولا يَغار على أهله وحريمه، ولا يبالي يعلم عنهم أنهم يمارسون

---

(١) الرَّجُلَةُ: المُتَرَجِّلَةُ، وهي المرأة التي تَتَشَبه بالرَّجلِ في الزِّيِّ والهَيْئَة.

(٢) في نسخة: أَوْ لأَنَّ لَهَا عَلَيْهِ دَيْنٌ وَهُوَ عَاجِزٌ، أَوْ صَدَاقٌ ثَقِيلٌ، أَوْ لَهُ أَطْفَالٌ صِغَارٌ، تَرْفَعُهُ إِلَى القَاضِي وَتَطْلُبُهُ بِفَرْضِهِمُ.

(٣) الكبيرة السادسة.

الفاحشة وتحصل منهم فلا ينزعج ولا يتضجّر ولا يهتمّ بالأمر ولا كأن شيئا حصل!!، فمن كان بهٰذه الصفة فهو دَيُّوث، وهو ممن أخبر النبي ﷺ عنهم أنه لا يدخل الجنة.

فهٰذا يدلّنا على أن الدَّيَاثَة كبيرة من الكبائر وعظيمة من عظائم الذّنوب.

قوله في العنوان: (القَوَّادُ الـمُسْتَحْسِنُ عَلَى أَهْلِهِ)، ما أدري هل العنوان هكذا في كل النسخ (القَوَّادُ الـمُسْتَحْسِنُ عَلَى أَهْلِهِ) ؟، غالبا النُّسخة التي مع الإخوان، نسختنا؛ لكن طبعات أخرى، معك طبعة أخرى؟

هٰذا الكتاب الذي معك طبعة مختلفة؛ هٰذه الطبعة التي قلنا: إنّها يعني إما أن تكون منسوبة للذهبي أو تكون يعني مُسوَّدة وهي مختلفة عن التي معنا في التّرتيب، في هٰذه الطبعة، قال: (الدّيوث المستحسن على أهله والقوّاد السّاعي بين الاثنين بالإفساد).

أنا يلوح لي والله أعلم أن العنوان: (القَوَّادُ وَالْمُسْتَحْسِنُ عَلَى أَهْلِهِ)، فلعلّ بعضكم يُحقق ويراجع.

والقَوَّادُ: هو الساعي بين الاثنين؛ يعني يجرّ سواء على أهله أو على غيره، هٰذا هو القواد، والدَّيُوث: المستحسن على أهله، والنّصوص التي ذكرها المصنف رحمه الله تشمل هٰذا وهٰذا.

الكبيرةُ الثّامنةُ والعشرُون
الرّجلَةُ مِنَ النّساءِ والْمُخنّثُ مِنَ الرّجالِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ [الشورى:٣٧] الآية.

قال: (الكَبِيرَةُ الثَّامِنَةُ والعِشْرُون: الرَّجُلَةُ مِنَ النِّسَاءِ وَالْمُخَنَّثُ مِنَ الرِّجَالِ).

(الرَّجُلَةُ مِنَ النِّسَاءِ) هي المسترجلة التي تتشبه بالرجال، (وَالْمُخَنَّثُ مِنَ الرِّجَالِ): هو الذي يتأنث ويتشبه بالنساء، وكل منهما ملعونٌ على لسان رسول الله ﷺ.

أورد أولا قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾، فالآية بعمومها تدلّ على شناعة هٰذا الأمر، دلالتها بعمومها.

قَالَ ابنُ عَبَّاس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمُخَنَّثِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالْمُتَرَجِّلَات مِنْ النِّسَاءِ» صَحِيحٌ.

وعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَعَنَ اللهُ الرَّجُلَةَ مِنَ النِّسَاءِ» إِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

هٰذا الحديث والذي قبله فيهما اللالة على أن الرّجلة من النساء والمخنث من الرجال كلٌّ منهما مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب؛ لأنّها مستوجبة للّعن، واللّعن: هو الطرد والإبعاد من رحمة الله عز وجل.

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبسَةَ الْمَرْأَةِ، والْمَرْأَةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ» إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وهٰذا مثل ما سبق؛ يعني التّشبه باللباس أو بالمشي أو بالكلام أو غير ذلك، كلّه مستوجب للّعن.

وَقَالَ ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مَائِلَاتٌ مُمِيلَاتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَتُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

الشاهد: من الحديث ذِكْرُ النبي ﷺ لهٰذا الصنف من أهل النار: «**نِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ**»، «**كَاسِيَاتٌ**»: يعني عليهن ثياب، «**عَارِيَاتٌ**»: أي أن الثياب ليست ساترة ولا محتشمة، إمّا أن تصف العورة أو تشفّ عنها أو تحجّمها أو تبينها، فهي في الظاهر كاسية وفي الحقيقة عارية فاتنة.

«**مَائِلَاتٌ مُمِيلَاتٌ**»؛ يعني مائلات في مشيهنّ أمام الناس، مميلات للرجال بطريقتهن في الحركة والمَشْيِ فِتْنَةً، ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١]؛ لأنّ هٰذا فيه إمالة للرجال، ومُتنافي مع العفّة التي ينبغي أن تكون عليها المرأة.

«**رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ**»؛ يعني تجمع شعرها فوق رأسها بهٰذه الصفة كأسنمة البخت المائلة.

قال ﷺ: «**لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَتُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا**» أي مسافة بعيدة.

وَقَالَ ﷺ: «أَلَا هَلَكَ الرِّجَالَ حِينَ أَطَاعُوا النِّسَاءَ».

هٰذا «**أَلَا هَلَكَ الرِّجَالَ حِينَ أَطَاعُوا النِّسَاءَ**» هٰذا لم يثبت عن النبي ﷺ، والمرأة في عقلها أضعف وعقلها أقصر؛ لكن لا يعني هٰذا أنه ليس عندها رأي أو لا فَهم عندها، ليس هٰذا هو المعنى.

لكن صحّ عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن المرأة ناقصة عقل ودين، ولهٰذا في الشهادة شهادتها على نصف شهادة الرجل، فهي دونه، وهٰذا جعله الله تعالى، وهٰذا لا يعني انتفاء العقل أو عدم حصول فهم، ليس هٰذا هو المراد؛ لكن عقلها ناقص كما أخبر عليه الصلاة والسلام: «**ناقصات عقلٍ ودين**»، وبعض النساء

التي ليس عندها مكانة، ليس في قلبها مكانة عظيمة للسّنّة قد تنزعج من هٰذا الحديث، وربما بعضهن؛ يعني يبلغ بها المبلغ أن تكتب معترضة كيف تكون (المرأة ناقصة عقل) وهي التي فعلت وهي التي حصل وهي...، وتبدأ تنتقد، ولهٰذا يقولون من الطرائف، يقولون بعض النساء أتين إلى أحد العلماء معترضات على هٰذا الحديث، وبدأن عنده يعترضن: كيف يقال عن المرأة: إنّها ناقصة عقل ودين؟ وكيف؟ وكيف؟ والمرأة كذا؟، فلما انتهين من الاعتراض، قال: انتهيتنّ؟ قلن: نعم، قال -وهو رجل من علماء مصر-: النبي ﷺ، قال: "النبي ﷺ لما قال النساء ناقصات عقل ودين لم يقصدكن"، فأصابهن شيء من الفرح الآن خرجن من الحديث، قال: "لما قال ناقصات عقل ودين لم يقصدكن، وإنما قصد نساء الصحابة ومن كُنَّ على طريقة نساء الصحابة، أمّا أنتن لا عقل ولا دين!، أما أنتنّ لا عقل ولا دين"، كيف تعترضن على [الحديث]؟، يقولون: النساء واحدة منهن سمينة جدا وأرادت أن تلطف الموقف، قالت: "أليس النبي ﷺ قال: «**رفقا بالقوارير؟**»، قال: "إي نعم، قال: «**رفقا بالقوارير**»، ما قال: رفقا بالبراميل"، كان مُغضب من الموقف.

على كل حال يعني هٰذه كانت إجابته، وربما يعني أنه الموقف جعله يغضب ويتكلم بهٰذه الطريقة، لكن الشاهد: أنه يوجد من النساء من يعني إذا قلّ حظّها من التعظيم للسّنّة في قلبها لا تبالي وتعترض بهٰذه الطريقة على حديث رسول الله ﷺ.

❁❁◈❁❁

فَمِنَ الأَفْعَالِ الَّتِي تُلْعَنُ عَلَيْهَا المَرْأَةَ إِظْهَارُ الزِّينَةِ وَالذَّهَبِ وَاللُّؤْلُؤِ مِنْ تَحْتِ النِّقَابِ، وَتَطَيُّبِهَا بِالمِسْكِ وَالعَنْبَرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَلُبْسُهَا الصِّبَاغَات والمُدَلَّسِ، إِلَى مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ القَبَائِحِ.

يعني كل هٰذه الأمور التي هي من إظهار المرأة للزينة وهي فتنة للرجال، تُظهِرُ الذهب أو الحلي أو يعني تُبيّن من تحت النقاب محاسنها أو كذلك تتطيب بالمسك والعنبر وما له رائحة، فتجذب الناس إليها، أو نحو ذلك، أيضا تلبس "المداس" يعني الذي لا يستر قدمها، فكل هٰذه من الأمور التي قال عنها المصنف: من القبائح التي لا تليق بالمرأة المسلمة العفيفة.

❁❁◈❁❁

الكبِيرَةُ التَاسِعَةُ والعِشْرُون
المُحلّلُ والمُحلّلُ لهُ

صَحَّ مِنْ حَدِيثِ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ «لَعَنَ المُحَلِّلَ وَالمُحَلَّلَ لَهُ» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَإِسْنَادُهُ جَيِّدٌ.

المُحَلِّلْ وَالمُحَلَّلُ لَهُ هٰذا في النكاح، أن يُطلّق الرَّجل زوجة الطلقة الثالثة ﴿فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة:٢٣٠]، فيأتي المحلل ويُسمى "التّيس المستعار"، يأتي به لينكحها فقط ليُحلِّلُها له؛ يعني ينكحها لمجرّد أن يحللها له.

فالمُحَلِّلْ وَالمُحَلَّلُ لَهُ كل منهما مَلْعُون؛ لأن من باشر هٰذا العمل ليكون مُحلِّلا الزّوجة لزوجها أو طلب هٰذا العمل الزوج -الذي هو المُحلَّل له- طلب هٰذا العمل لتُحلّل له زوجته، فكل منهما ملعون.

و هٰذا يدلّ على أن الأمر من الكبائر، وهو واضح أنه من الكبائر للّعن، لَعَنُ النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، وإن كان المصنف كأنه يعني عنده شيء من التردّد في هٰذا؛ لأنه في الأخير قال أمور يحتمل أنها من الكبائر وأورد هٰذا الحديث، أورد من ضمنها يعني هٰذا الحديث.

فالحديث واضح أنه من الكبائر، واللعن لا يكون إلا عن أمر كبير.

وَعَنِ عَلِيٍّ ؓ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلُهُ. رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ إِلاَّ النَّسَائِي.

وَلَكِنَّ فَاعِلَ هَذِهِ القَاذُورَةِ مُقَلِّدٌ عَامِلٌ بِرُخَصِ المَذَاهِبِ، لَمْ يَبْلُغْهُ النَّهْيُ، فَلَعَلَ اللهَ أَنْ يَعْذُرَهُ وَيُسَامِحَهُ.

يعني هٰذا نوع من الاعتذار من المصنف رحمه الله في حقِّ من لا يعلم أو أُفتِي فتوى خاطئة وظنَّ أن الأمر صحيح، لعلّ مثل هٰذا يقول: يكون معذورا.

الكبيرة الثلاثون:
أكلُ الميتةِ والدّم ولحم الخنزير

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ...﴾ [الأنعام:١٤٥] الآيَةَ.

فَمَنْ تَعَمَّدَ أَكْلَ ذَلِكَ لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ فَهُوَ مِنَ الْمُجْرِمِينَ، وَمَا أَحْسَبُ أَنَّ مُسْلِمًا يَتَعَمَّدُ أَكْلَ لَحمِ الخِنْزِيرِ، وَرُبَمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ زَنَادِقَةُ الجَبَلِيةِ وَالتَّيامِنَةُ الخَارِجِينَ مِنَ الإِسْلامِ، وَفِي نُفُوسِ المُؤْمِنِينِ أَنَّ أَكْلَ الخِنْزِيرِ أَعْظَمُ مِنْ شُرْبِ الخَمْرِ.

وَصَحَّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ لَحمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ، النَّارُ أَوْلَى بِهِ».

ثم قال المصنف رحمه الله: (أَكْلُ المَيْتَةِ والدَّمِ ولَحْمِ الخِنْزِيرِ) أي أن هذا من الكبائر. والخنزير هو الحيوان المعروف، وقد حرّم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أكله في القرآن الكريم؛ قال جلّ وعلا ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ

مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ...﴾ [الأنعام:١٤٥]

وهـٰذا فيه أن الأصل في الأطعمة الحِلّ إلا ما حرّمه الله، ومن ذلك هـٰذه المحرّمات، وأيضًا ما جاء تحريمه في سنّة الرّسول الكريم عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَم.

ثم بيّن شأن الخنزير وأنه لا يظنّ أنّ الإنسان الأصل فيه أنه ما يظن أن مسلمًا يتعمّد أكله بغير ضرورة لظهور شناعة أكله عند المسلمين.

ومما ذُكر -يعني ذكره عدد من أهل العلم- في الآثار السيئة لأكل لحم الخنزير أنه يميت الغيرة ويولِّد الدّياثة فيمن يأكل هـٰذا اللحم؛ ولعل في اللحم من الفساد أو الضرر ما يجلب للإنسان خلل في سلوكه وفي خُلقه وفي معاملته، فهـٰذا أمر لا ريب أنّ الله عز وجل جعل فيه تأثيرًا، بل إن الأمر ليس فقط بالأكل؛ رعي الغنم يعطي السكينة والطُّمأنينة.

فعلى كل حال هذا أمر محرم في كتاب اللهعز وجل، وأكل لحم الخنزير كبيرة من الكبائر، يقول الذهبي: (وَفِي نُفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ أَكْلَ الخِنْزِيرِ أَعْظَمُ مِنْ شُرْبِ الخَمْرِ) والخمر مرّ معنا أنها أم الخبائث، إذا شرب الخمر، أكل لحم الخنزير، وزنى وفعل كل المحرّمات وقول النبي ﷺ الذي أورده المصنف: «لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ، النَّارُ أَوْلَى بِهِ»، هـٰذا -بعموم- يدلّ على تحريم أكل الخنزير وأنه من الكبائر.

❁❁◈❁❁

وَقَدْ أَجْمَعَ المسْلِمُونَ عَلَى تَحْرِيمِ اللَّعِبِ بِالنَّرْدِ، وَيَكْفِيكَ مِنْ حُجَجِهِمْ عَلَى تَحْرِيمِهِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي ثَبَتَ عَنْهُ: «مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرَ فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ الخِنْزِيرِ وَدَمِهِ».

هـٰذا استدلال لطيف أورده المصنف رحمه الله هنا ليُبيّن الشّناعة القائمة في النفوس لأكل لحم الخنزير؛ فالنبي ﷺ لّما ذمّ اللعب بالنّرد -وهو يُعرف في هـٰذا الزمان بالشطرنج وهي لعبة قديمة-، فلمّا ذمّ اللعب بالنرد (أو النردشير) بـيّن شناعة هـٰذه اللعبة لأمر متقرر في النفوس، قال: «فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ الخِنْزِيرِ وَدَمِهِ» يعني وقد قام في النفوس شناعة هـٰذا الأمر: أن تُصبَغ اليد بلحم الخنزير ودم الخنزير، قائم في النفوس قذارة هـٰذا وشناعته، فهذا وجه لطيف أورده المصنف هنا رحمه الله لبيان شناعة لحم الخنزير، أي أنّه من المتقرّر في نفوس المؤمنين أنه أمر شنيع: أن يُلطخ الإنسان يده بلحم الخنزير ودمه؛ ولهذا جعل النبي ﷺ مَثَل تحريم النّرد مثل هـٰذا الذي قام في النفوس قذارته وشناعته وهو أن يلطخ الإنسان يده بلحم الخنزير ودمه.

❁❁◈❁❁

وَبَلا رَيْبٍ أَنَّ غَمْسَ المُسْلِمِ يَدَهُ فِي لَحْمِ الخِنْزِيرِ وَدَمِهِ أَعْظَمُ مِنَ اللَّعِبِ بِالنَّرْدِ، فَمَا الظَّنُّ بِأَكْلِ لَحْمِهِ وَشُرْبِ

دَمِهِ؟!! أَجَارَنَا اللهُ مِنْ ذَلِكَ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

هٰذا وجه الاستدلال للمسألة، قال: إنه لا ريب أنَّ غمس اليد في لحم الخنزير ودمه أعظم من اللعب، فكيف بالأكل، أكل لحم الخنزير وشرب دمه، يعني الأمر أفظع.

واللعب بالنّرد ذمّه السّلف قديما وجمعوا فيه مصنفاتهم، وممن أفرده في مصنَّف: الآجريّ رحمه الله له كتاب قيّم في تحريم النرد والشطرنج وهو مطبوع متداول.

قد جاء عن علي بن أبي طالب ڤ أنه مرَّ على قوم يلعبون بالنرد أو الشطرنج، فقال: "ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟" والأدوات التي تُحرَّك على رقعة الشطرنج هي تماثيل: تمثال لملك، وتمثال لحصان، وتمثال لجنود؛ تماثيل، ويعكفون عليها الساعات لهذه التماثيل، لهذا رآها علي ڤ فقال: "ما هٰذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟".

ومثل هٰذه التماثيل، التماثيل التي في اللعبة التي تسمى بالفرفيرة يعني توضع كرة، وهناك تماثيل على شكل لاعبين، ثم يلعب اثنان متقابلان على هذه اللعبة وكلّ له مقابض يُمسكها من جهته وهو يمارس هذه اللعبة، وأمامه هذه التماثيل، وإحكام هٰذه اللعبة -لعبة الفرفيرة- تتطلب من اللاعب أن يركع في كل مرة يريد أن يُتقن الإصابة، فيكون على هذه الحالة السيئة أمام هذه التماثيل، يركع ركوعا من بعد ركوع أمام هٰذه التماثيل -نسأل الله السلامة والعافية.

وكنت كتبتُ عنها كتابة مختصرة وقرأتها زمان- على الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله، ومضمونها هٰذا المضمون، فقال لي رحمه الله أن هٰذه اللعبة مثل ما في التقرير الذي ذكرته له، يعني واضح أنها محرمة ولا تجوز ولا يصح اللعب بها، وهي تماثيل واضحة، وإتقان اللعبة لا يكون إلا عن ركوع أحيانا حتى يجيد ضبط الفوز على ما يتعاملون به، وتكثر هٰذه اللعبة في رمضان، ويا سبحان الله! المسلمون في الليل في المساجد ركعا وسجدا في بيوت الله يرجون رحمة من الله ورضوانا، والشّباب وأهل اللهو أشغلتهم أمثال هٰذه اللعب ونظائرها عن الإقبال على طاعة الله تعالى والفوز برحمته عز وجل.

❦❦◊❧❧

الكَبِيرَةُ الحَادِيَةُ وَالثَّلَاثُون:
عَدَمُ التَّنَزُّهِ مِنَ البَوْلِ، وَهُوَ شِعَارُ النَّصَارَى

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر:٤].

ثم ذكر هـٰذه الكبيرة (عَدَمُ التَّنَزُّهُ مِنَ البَوْلِ، وَهُوَ شِعَارُ النَّصَارَى)؛ النصارى، إذا جاءه البول، في أي مكان، ثم يلبس ملابسه ولا يبالي بالقاذورات والنجاسة التي تؤذيه أو تكون فيه.

وأذكر أننا مرة كنا في سفر، وكان معي في ذلك السفر رجل كفيف، فكان في أثناء السفر ونركب الطائرة ونجلس في أماكن، فكان إذا مرّ أحدهم يلتفت عليه يقول: "مرّ نصراني" يقول: "عرفته من رائحته"؛ كلّ ما مرّ يقول: "عرفته من رائحته"؛ لأنه يمرّ ثم تمرّ الرائحة الكريهة معه، فكلّما مرّ يلتفت عليّ ويقول لي: هـٰذا نصراني مرّ، -أو عبارة من مثل هـٰذا القبيل- من الرائحة. هـٰذه طريقتهم، ما يستنزهون من البول، ولهذا رائحتهم كريهة، ويضع الطيب لكن الطيب ما يرقّع الرائحة، فالرائحته الخبيثة تغلب الطيب، والطيب فترته محدَّدة ثم تذهب رائحة الطيب ويبقى خَبثه، ويريد أن يرقّع الرائحة بوضع الطيب والطيب يطير ما يبقى، يعني يبقى نصف ساعة، ساعة بالكثير ثم تذهب رائحة الطيب ويبقى الخبث، وفي حال وجود الطيب فهو طيب ممزوج بالخَبث، والغالب على الخبث أنه يغلبه ثم تذهب رائحة الطيب ويبقى خبثا محضا ورائحة كريهة. فالنصارى هـٰذه طريقتهم، لا يستنزهون من البول.

فعدم التنـزّه من البول كبيرة وهو من التشبّه بالنّصارى، فعدم التنـزّه من البول كبيرة، واستدل بذلك بعموم قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤].

فهـٰذا فيه الاستنـزاه من البول.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ ومَرَّ بِقَبْرَيْنِ: «إِنَّهُمَا يُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَنْزِهُ مِنْ بَوْلِه، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

أذكر رفيقي هـٰذا، أحيانا إذا مرّ يضع شماغه -بهذه الطريقة- ثم إذا انتهى مروره قال: "نصراني مرَّ" يعني مرّ، رائحته تؤذيه جدا، فأوّل ما تراه أقبل يضع الشماغ بهذه الطريقة ثم إذا انتهى قال: "أفّ نصراني مرّ" والرائحة هذه ناتجة من عدم الاستنزاه من البول.

الحديث الذي ساقه المصنف رحمه الله واضح في أن عدم الاستنزاه من البول كبيرة. قال: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ» تأتي بعض روايات الحديث «أما إنه لكبير» فقوله: «وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ» ليس المراد أن هذا الأمر ليس من كبائر الذنوب، وإنما المراد ليس كبيرا على النفوس، يعني أمر سهل ليس أمرا عظيما يشقّ على الناس، بل أمر سهل جدا:

الأول: عدم الاستنزاه من البول، والاستنزاه من البول سهل، يعني أن يتبوّل الإنسان باحتياط يعني لا

يطير عليه من رشاشه، وإذا انتهى غسله كما جاء في السنّة، أو استجمر كما جاء في السنّة، أمر سهل جدا يعني لا يشقّ على الإنسان.

وعدم المشي بالنميمة أيضا سهل، كلّه عملية كفّ للسان، فليس أمرا كبيرا يعني ليس أمرا عظيما.

فهذا المراد بقوله: «وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ» أي في أمر كبير على النفوس.

ثم قال: «أما إنه لكبير» يعني من الأمور الكبيرة ومن الذّنوب الكبيرة، وهـٰذا استدراك؛ حتى لا يُفهم القول الأول خطأ.

«أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَنْزِهُ مِنَ الْبَوْلِ» يعني لا ينظِّف نفسه من البول ولا يحتاط بنفسه من رشاش البول.

«وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ» والنّميمة كبيرة، وهي القالة بين الناس والمشي بينهم بنقل الكلام على وجه الإفساد بينهم.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ الطُّرُقِ التِي فِي الصَّحِيحَيْنِ لهذا الحديث فيها: «فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ بَوْلِهِ».

«لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ بَوْلِهِ» المعنى آخر «لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ بَوْلِهِ» يعني إذا ذهب ليتبوَّل لا يستتر عن أعين الناس، فلا يبالي أن يروه على هذه الحال ، وكان النبي ـ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ ـ إذا أراد أن يقضي حاجته أبعد ،وفي آداب لقضاء الحاجة معلومة في السنة وفي كتب الأحكام، فعدم الاستتار هو عدم رعاية لحفظ العورة وسترها عن أعين الناس، فالإنسان إذا احتاج إلى التبوُّل لا بد أن يُبعِد وأن يتوارى عن الناس حفظًا لعورته وسترا لها ، ففي بعض ألفاظه «لا يستتر» من الاستتار، وفي بعضها «لا يسْتَنْزِه» يعني من التنزه وهو التنظف من آثار البول.

[المتن]

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تَنَزَّهُوا مِنَ الْبَوْلِ فَإِنَّ عَامَّةَ عَذَابِ الْقَبْرِ مِنْهُ» رَوَاهُ الدّارقُطْنِي.

وهـٰذا فيه شاهد للمعنى الأول في الحديث السابق «كَانَ لَا يَسْتَنْزِهُ مِنْ الْبَوْلِ» هنا قال :«تَنَزَّهُوا مِنَ الْبَوْلِ فَإِنَّ عَامَّةَ عَذَابِ الْقَبْرِ مِنْهُ».

[المتن]

ثُمَّ إِنَّ مَنْ لَمْ يَحْتَرِزْ مِنَ البَوْلِ فِي بَدَنِهِا وثِيَابِهِ فَصَلاَتُهُ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ.

الصلاة لا تُقبل إلا بالطهارة ، مرَّ معنا قريبا «لا تُقبل صلاة بلا طهور» فإذا كان لا يسْـتَـنْزه من البول فيكون صلّى على غير طهارة ولا تكون صلاته مقبولة.

الكبِيرَة الثَّانِيَة والثَّلاثون: المكَّاسُ

وَهُوَ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى:٤٢].

(المَكَّاسُ) والمكْس هو أخذ للأموال ووضع ضرائب على الأموال وأخذها بغير حق، أخذ للمال بغير حق فيُسمّى "المكس"، يدل على تحريمه عموم قول الله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فكل بغيٍ وظلمٍ للناس بغير الحق في المال أوفي الأعراض أو في الدماء فهو محرّم ، ومن ذلكم المكس الذي هو أخذٌ لأموال الناس بغير الحق.

وَفِي الحَدِيثِ، فِي الزَّانِيَةِ الَّتِي طَهَّرَتَ نَفْسَهَا بِالرَّجْمِ: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ، أَوْ لَقُبِلَتْ مِنْهُ».

قوله: «لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ» يدل على أن صاحب المكس على كبيرة وعلى ذنب عظيم ويدل على كِبَر هذا الذنب قول النبي ـ ﷺ ـ : «تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ»)يعني ذنب صاحب المكس عظيم جدا، وهـٰذه التوبة التي تابتها هذه المرأة من الزنى ، لو تابـها صاحب مكس لقُبلت منه يعني لقوة التوبة التي حصلت منها، فهذا في مفهومه يدل على أن صاحب المكس ذنبه عظيم وجرمه كبير جدّا .

والمَكَّاسُ فِيهِ شَبَهٌ مِنْ قَاطِعِ الطَّرِيقِ، وَهُوَ شَرٌّ مِنَ اللِّصِّ، فِإنَّ مَنْ عَسَفَ النَّاسَ وجَدَّدَ عَلَيْهِمْ ضَرَائِبَ فَهُوَ أَظْلَمُ وَأَغْشَمُ مِمَّنْ أَنْصَفَ فِي مَكْسِهِ وَرَفَقَ بِرَعِيَّتِهِ.

ثم بيّن يعني خطورة المكّاس وأنها أشدّ وأشرّ من السارق، وهو شبيه بقاطع الطريق ووجه الشبه بينه وبين قاطع الطريق لأن كلًا منهما يقعد في الطريق ويقعد للأخذ، كلٌّ منهما يقعد في الطريق للأخذ ولهذا قال: (فِيهِ شَبَهٌ مِنْ قَاطِعِ الطَّرِيقِ) لأن كُلًا منهما قاعد في الطريق للأخذ.

[المتن]

وَجَابِي المَكْسِ وَكَاتِبُهُ وَآخِذُهُ مِن جُنْدِيٍّ وَشَيْخٍ وَصَاحِبِ زَاوِيَةٍ شُرَكَاءُ فِي الوِزْرِ، أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ.

يعني الأمر في المكس يتناول الكاتب والآخذ والجندي وكل مَنْ هم متعاونون على هـٰذا الأخذ.

✡✡✡✡

الكبِيرَة الثَالِثة والثَلاثون:
الرِّياءُ وهُو مِن النِّفَاقِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى عن المنافقين : ﴿يرَآءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَّ إِلاَّ قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢].

فالرياء كبيرة من الكبائر وهو من النفاق وهو من خصال المنافقين كما قال الله تعالى في وصف المنافقين: ﴿يرَآءُونَ النَّاسَ﴾ و**"الرياء"** يُظْهِر الإنسان من العمل ما لا يُبطن، يُظهر الصلاح ويُبطن الفساد، يُظهر الإخلاص ويُبطن خلاف ذلك، والمراءاة هي أن يُرِي الناس بأعينهم ما ليس حقيقتُه قائمةً في نفسه، يعني ما ليس له حقيقة قائمة في نفسه، فهـٰذا هو الرياء.

والرياء نوعان:

رياء خالص ﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة:١٤]، ﴿إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهَّ﴾ [المنافقون:١]، ففي رياء خالص فهـٰذا صاحبه كافر، من المنافقين الذين هم في الدَّرْك الأسفل من النار.

والنوع الثاني: يسير الرياء صاحبه مخلص لكن أحيانا وفي بعض الأعمال يخالط عمله رياء ،يزين عملا صالح لرؤية أحد له كما قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**إنَّ أخْوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي: يقوم الرجل فيُزَيِّن صلاته لِما يرى من نظر الرَّجل**» يعني يزيِّن عمله لكون أحدا رآه، فهذا يسير الرياء، وليس محبطا للأعمال كلّها ناقلا من الملّة ، ولكنه محبط للعمل الذي قام فيه لا يقبله الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ منه.

[المتن]

وقَالَ تَعَالَى: ﴿...كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ﴾ [البقرة:٢٦٤] الآية.

هذا مثال من أمثلة الرياء **"الرياء في النفقة"** ينفق يعني مالا يعطيه للفقراء والمحاويج رياءً ليس طلبا لثواب الله تعالى والله لا يقبل العمل ،النفقة أو غيره إلا إذا كان خالصا لوجه الله تعالى.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوَّلُ النَّاسِ يُقْضَى عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ اللهُ نِعَمَتَهُ فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: مَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِيُقَالَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ اللهُ نِعَمَتَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ .ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، فقَالَ: مَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهِ لَكَ، قَالَ:كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ. فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ سُحِبَ إلى النَّارِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

ثم أورد المصنف ـ رحمه الله ـ هذا الحديث في بيان كبيرة الرياء ، والرياء يكون في كل الأعمال الصالحة، يكون في الجهاد ويكون في الصلاة ويكون في طلب العلم ويكون في الإنفاق والبذل، يكون في الأعمال الصالحة، فمن عمل عملا صالحا ليقال عنه أي ليُثنى عليه وليُمدح وليُطرى عند الناس فإنه لا يُحصِّل عند الله شيئا، لأنه لم يعمل لله، ولا يقبل الله العمل إلا إذا كان له ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء:١٩] فإذا كانت لله وقدَّم العمل متقرِّبا به إلى الله كان في صالح عمله، أما إذا قدَّم العمل للنّاس فإنه يُحصِّل ما عند الناس بأن يقولوا: فلان جريء، فلان عالم، فلان منفق. وتنتهي بموته، تنتهي هذه الأمور بموته ، ولا يجد عليها ثوابا يوم القيامة بل إنه يُسحب إلى النار كما جاء في الحديث: «فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ» لأنه لم يتقرّب بهذه الأعمال لله، وهي أعمال لا يُتقرّب بها إلاّ إلى الله ،و لكنه فعلها ليُمدح وليُثنى عليه، وليقال عنه جريء، أو يقال عنه عالم أو ليقال عنه مجاهد أو يقال عنه منفق أو نحو ذلك.

فالشاهد أن الحديث دليل على أن الرياء من الكبائر وذلك للوعيد لفاعله بأنه يوم القيامة يُسحب على وجهه حتى يلقى في النار، نسأل الله جلّ وعلا العافية والسّلامة.

[المتن]

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْهُمَا أَنَّ أُنَاسًا قَالُوا لَه: "إِنَّا نَدْخُلُ عَلَى أُمَرَائِنَا فَنَقُولُ لَهُمْ بِخِلافِ مَا نَتَكَلَّمُ به إِنْ خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِمُ." قَالَ ابْنُ عُمَرَ: "كُنَّا نَعُدُّ هَذَا نِفَاقًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ". رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

ثم أورد الإمام الذهبي رحمه الله هـٰذا الحديث لبيان وجه من وجوه المراءاة أن يتظاهر الإنسان بأقوال أو أشياء من هـٰذا القبيل في مقام من المقامات ثم لا يكون عليه في مقام آخر ، فيكون يتزين لما يرى، يتزين بالصلاح يتزين بالتُّقى، يتزين بنحو ذلك لما يرى من نظر الرجل إليه، سواء أمير أو وزير أو غير ذلك ثم لا يكون في معتاد وقته كذلك، فيقول ابن عمر: «كُنَّا نَعُدُّ هَذَا نِفَاقًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ».

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

ثم ذكر هـٰذا الحديث في خطورة الرياء وعقوبة المرائي والعقوبة من جنس العمل « مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ » أي أن الله عزَّ وجلَّ يفضحه يوم القيامة ،و كذلك المرائي والمسَمِّع ،"**المسمِّع**" هو الذي يُسمِّع بعمله يُسمِّع الناس بعمله ، والمرائي الذي يُرِي الناس عملَه، المسمّع هو الذي يسمّع بعمله أن الذي كذا وكذا وأنا الذي كذا ، فيذكر أعماله للناس جلبا للمدح أو جلبا للثناء، والمرائي هو الذي يرائي أي يري الناس عمله والعقوبة من جنس العمل «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ ، وَمَنْ رَاءى يُرَائِي اللهُ بِهِ».

وَعَنْ مُعَاذٍ رضي الله تعالى عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْيَسِيرُ مِنَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ» صَحَّحَهُ الْحَاكِمُ.

«الْيَسِيرُ مِنَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ» يعني شرك أصغر، والرياء الخالص شرك أكبر ناقل من الملَّة ، أمّا اليسير من الرياء فهو شرك أصغر لا ينتقل به صاحبه من الملَّة، والنبي ﷺ أرشد إلى دعوة نافعة في هـٰذا الباب لأنّ الإنسان يحتاج إلى مُجاهدة تامّة للخلاص من الرياء والسمعة، يحتاج إلى مجاهدة، وقد تغلبه نفسه في مقامات ومقامات ، فأرشد النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ الصحابة إلى دعاء نافع في هـٰذا الباب وهو في الأدب المفرد للبخاري وغيره بسند ثابت أن النبي ﷺ قال : «الشّرك فيكم أخفى من دبيب النّمل، ألا أدلكم على شيء إذا قلتموه أذهب عنكم قليل الشرك وكثيره». قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «اللّهمّ إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم»؛ لأنه قد يتسلل إلى نفس الإنسان أشياء خفية تدخل إلى قلبه ولا يشعر بها، فالمواظبة على هذا الدعاء نافع جدا ومفيد للمسلم، كما أرشد إلى ذلك رسول الله ﷺ: «اللّهمّ إنـي أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم».

الكبِيرةُ الرَّابعةُ والثَّلاثون: الخِيَانَة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لا تَخُونُوا اللهَّ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٢٧].

الخيانة ضدّ الأمانة، ومن أوصاف المؤمنين الأمانة، والمؤمن صاحب أمانة، ولا إيمان لمن لا أمانة له، فالخيانة ليست من صفات أهل الإيمان، الخيانة ضدّ الأمانة، وهي من أوصاف المنافقين، والمنافق إذا اؤتمن خان، يعني لا يفي ولا يلتزم بما اؤتمن عليه، بل يخون، فالخيانة من أوصاف المنافقين وليست من صفات أهل الإيمان، وهي من الكبائر.

ومن الأدلّة على هذه الكبيرة قول الله تعالى: ﴿لا تَخُونُوا اللهَّ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وفيها خطورة الخيانة، وأعظم الخيانة أن يخون الله ورسوله فيما ائتمنه عليه من القيام بدين الله، لأنّ الدّين أمانة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللهَّ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب:٧٢-٧٣]، هـٰذه أحوال النّاس مع الأمانة (أمانة الدّين)، وهم ينقسمون مع هـٰذه الأمانة إلى أقسام ثلاثة:

القسم الأوّل: حمل الأمانة في الظّاهر والباطن خراب تباب وهو المنافق.

والقسم الثّاني: لم يحمل الأمانة لا في ظاهره ولا في باطنه، وهو المشرك.

قال الله تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللهَّ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾.

القسم الثّالث: هو من حمل الأمانة في باطنه وظاهره، وسرّه وعلنه، وهو المؤمن، قال الله تعالى: ﴿وَيَتُوبَ اللهَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

هذه أحوال الناس مع الأمانة وفي حمل الأمانة التي هي حمل الدّين، وأعظم الخيانة الخيانة في هـٰذه الأمانة؛ لهذا قال الله تعالى: ﴿لَا تَخُونُوا اللهَّ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ [الأنفال:٢٧]، وهـٰذا نوع من الخيانة، خيانة الأمانة التي تكون بين الناس فيما يأتمن بعضهم بعضا عليه.

❀❀◊❀❀

وقال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللهَّ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف:٥٢].

وهـٰذا خطورة الخيانة وجنايتها على صاحبها، قال: ﴿وَأَنَّ اللهَّ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾.

❀❀◊❀❀

وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَومٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾ [الأنفال:٥٨].

هـٰذا إذا كان بين المسلمين وبين الكفار عهد، إذا كان؛ فالواجب على المسلمين أن يفوا بالعهد وأن يلتزموا به، وإذا بلغ الأمر أنّ المسلمين خافوا من الكفّار ألاّ يلتزموا، يعني ظهرت منهم علامات واضحة أنّهم لن يلتزموا بالعهد الذي بينهم وبين المسلمين، فإذا بلغ حال الكفّار هـٰذا المبلغ ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ يعني تخبرهم أنّ العهد الذي بيننا أنهيناه، أو توقّفنا عنه، فليس بيننا وبينكم عهد، يعني إذا ظهر منهم علامات الخيانة وعدم الالتزام ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ يعني انبذ إليهم العهد الذي بينك وبينهم.

ومن دلائل الآية في الباب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾ فهـٰذا يدلّ على أنّ الخيانة كبيرة وعمل لا يحبّه الله.

❖

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ، وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَ عَهْدَ لَهُ».

النّفي كما سبق نفي للإيمان الواجب، ليس نفيا لأصل الإيمان، وإنّما هو نفي للإيمان الواجب، ولا يكون إلاّ عن أمر كبير وأمر عظيم، فالحديث دليل على أنّ الخيانة وعدم الأمانة كبيرة من كبائر الذّنوب.

❖

وقال ـ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ ـ: «آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ».

«آية المنافق» أي: علامته، علامة النّفاق، وذكر منها «إذا اؤتمن خان»، وهو موضع الشّاهد من الحديث.

❖

وَالخِيَانَةُ فِي كُلِّ شِيءٍ قَبِيحَةٌ، وَبَعْضُهَا شَرٌّ مِنْ بَعْضٍ، وَلَيْسَ مِنْ خَانَكَ فِي فِلْسٍ كَمَنْ خَانَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ وَارْتَكَبَ العَظَائِمَ.

أراد المصنّف رحمه الله أن يختم هنا في بيان تفاوت الخيانة في درجتها، يعني ليست الخيانة في رتبة واحدة، حتى الخيانة بين الناس، وضرب على ذلك مثالا قال: (من خانك في فلس) يعني في شيء قليل ويسير جدا من النّقود والمال (وَلَيْسَ .. كَمَنْ خَانَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ وَارْتَكَبَ العَظَائِمَ)، فأراد أن يبيّن أنّ الخيانة كلّها مذمومة، وهي متفاوتة في كبرها وحجمها وقبحها.

❖

الكبيرةُ الخامسةُ والثلاثون:
التعلّمُ للدُّنيا وكِتمانُ العِلمِ

قَالَ اللهُتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَّ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨].

ثم ذكر هـٰذه الكبيرة وهي (التَّعَلُّمُ لِلدُّنيَا وَكِتْمَانُ العِلْمِ)، هاتان كبيرتان:

الأولى: التعلّم للدّنيا، يعني أن يطلب العلم للدّنيا، والعلم عبادة وقربى لله تعالى، فطلب العلم للدّنيا كبيرة، أن يتعلّم العلم ليطلب به الدّنيا هـٰذا كبيرة.

وكذلك كتمان العلم كبيرة من كبائر الذّنوب، والعلم عبادة وقربى وطاعة لله تعالى لا يطلبه الإنسان إلاّ لطلب رضا الله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَّ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، فهـٰذا هو ثمرة العلم الصّحيح والعلم النّافع، أنّه يورث الخشية والإقبال على الله تعالى، لا الإقبال على الدّنيا وقصدها بطلب العلم.

ﬡﬡ۞ﬢﬢ

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُّ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩].

هـٰذه الآية فيها تحريم كتمان العلم، تحريم كتمان العلم ممّن آتاه الله عز وجل البيّنات والهُدى، وأخبر الله عز وجل أنّ كاتم العلم يلعنه الله ويلعنه اللاّعنون، وكتمان العلم إخفاؤه وعدم إظهاره، هـٰذا المراد بكتمانه، وقت الحاجة إليه، إخفاءً للعلم وإخفاءً للحق وإخفاءً للهدى وتضليلا للنّاس، فهـٰذا كبيرة من كبائر الذّنوب.

أمّا إذا كان الغرض صيانة العلم، يعني كتمه عن بعض النّاس صيانةً للعلم عمّن لا يحمله ولا يُحسن حمله، أو إذا كان الإنسان منزلته في العلم لم يصل إلى مثل بعض المسائل المتقدّمة، فلا يجيبه، لا يجيبه بالعلم، ليس هـٰذا كتمانًا وإنّما هـٰذا مصلحة.

ﬡﬡ۞ﬢﬢ

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُّ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [البقرة:١٧٤].

(وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُّ مِنَ الْكِتَابِ﴾) أيضا هـٰذه نظير الآية التي قبلها في سورة البقرة في بيان عقوبة وحكم مرتكب هـٰذه الكبيرة، وهي كتمان العلم.

ﬡﬡ۞ﬢﬢ

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُّ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران:١٨٧] الآية.

ثمّ أيضا ذكر هـٰذه الآية وفيها خطورة كتمان العلم، وأنّ الله أخذ الميثاق على أهل العلم أن يبيّنوا العلم للنّاس ولا يكتمونه، فمن كتمه خالف هـٰذا الميثاق وهـٰذا العهد الذي أخذه الله عز وجل على من آتاه الله العلم.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ تعلَّمَ عِلما مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجهُ الله، لا يتعلَّمُه إلا ليُصِيبَ بِهِ عَرَضا مِن الدُّنيا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يومَ القِيامَةِ» يعني: رِيحها. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

هـٰذا فيه عقوبة الذي يتعلّم العلم الذي يُبتغى به وجه الله لا يتعلّمه إلاّ ليصيب به عرض الدّنيا، يعني نيّته فيه ليست خالصة لله وإنّما نيّته في طلبه نيْل عرض الدّنيا، فعقوبته أنّه لا يجد عرْف الجنّة أي رائحة الجنّة.

وَقَدْ تقدّمه حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي الثَّلاثَةِ الذِينَ يُسْحَبُونَ إِلَى النَّارِ، أَحَدُهُمُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ: «إِنَّمَا تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَدْ قِيلَ».

روى يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ، عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ مَرْفُوعًا: «لَا تَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ تُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ، وَلَا تَخيزوا بِهِ الْمَجَالِسَ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالنَّارُ النَّارُ» رَوَاهُ ابْنُ وَهْبٍ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ فَأَرْسَلَهُ.

هـٰذا ممّا يتنافى مع الإخلاص في طلب العلم، أن يتعلّم المرْء العلم ليباهي به العُلماء، يعني ليحصل له المباهاة والمفاخرة في مجالس أهل العلم.

ومن الأمثلة على ذلك أن يضبط مسألة من المسائل الدّقيقة ثمّ يذكرها في مجلس عالم، ثمّ يبدأ يتكلّم فيها لأنّه راجعها مراجعة واسعة حتّى يحصل له المفاخرة والمباهاة وأنّه عنده ما ليس عند العالم، ويقصد بذلك في قرارة نفسه أن يبرز وأن يظهر، وأن يكون له الفخْر، وأن يفتخر في المجلس، فهـٰذه نيّة فاسدة، ولو جلس ليالي يضبط مسألة لا تكون في صالح عمله، لأنّه ضبطها للمفاخرة والمباهاة، وهـٰذا ممّا يتنافى مع الإخلاص.

وكذلك مماراة السّفهاء، مماراة السّفهاء لأجل الخصومة والجدل، والظّهور في المجالس، وغلبة الآخرين، حتّى ولو كان على غير الحقّ يحرص أن يكون له الغلبة، وإفحام الآخرين وإسكاتهم، هـٰذه مماراة السّفهاء؛ يعني طلب العلم من أجل مماراة السّفهاء.

أو كذلك ليحيز به المجالس، أن تكون المجالس له، ويشتهر ويفخر على النّاس، هـٰذا كلّه يتنافى مع الإخلاص، فلا يكون عمل الإنسان مقبولًا، بل هو يتنافى مع الإخلاص، يتنافى مع طلب العلم قاصدا به

وجه الله تعالى، العقوبة قال: «فالنّار النّار».

ﮋﮋ◊ﮊﮊ

وَرَوَى إِسْحَاقُ بنُ يَحْيَى، عَنْ عَبْدُ الله بنِ كَعْبِ بنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنِ ابْتَغَى العِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ العُلَمَاءَ أَوْ يُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ تُقْبِلَ أَفْئِدَةُ النَّاسِ إِلَيْهِ فَإِلَى النَّارِ» وَفِي لَفْظٍ: «أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ» أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، لَكِنَّ إِسْحَاقَ وَاهٍ.

نعم، وهو بمعنى ما سبق.

ﮋﮋ◊ﮊﮊ

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ» إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، رَوَاهُ عَطَاءٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

هـٰذه عقوبة كاتم العلم أنّه يوم القيامة يُلجم بلجام من نار، يعني ليس كاللُّجُم التي في الدّنيا، اللّجام الذي يوضع على الدّابة من القماش، يوضع على فمها حتّى لا تأكل، إذا أراد صاحبها أنّها لا تأكل يضع عليها لجاما على فمها، فلا تستطيع أن تأكل، والذي يكتم العلم ويمنعه مع حاجة النّاس إليه يُلجم يوم القيامة ليس بقماش وإنّما بلجام من نار، لجام لا كاللُّجُم، وإنّما لجام من نار عقوبة له على كتمانه للعلم.

ﮋﮋ◊ﮊﮊ

وقال عبد الله بن عيّاش القتباني، عن أبي أبيه، عن أبي عبد الرحمـٰن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «من كتم علمًا ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار» قال الحاكم على شرطهما، ولا أعلم له علة.

نعم، وهو بمعنى ما سبق.

ﮋﮋ◊ﮊﮊ

وقال النبي ﷺ: «اللَّهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع».

قوله في الحديث: «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع**» فيه تعوذ بالله من العلم الذي لا ينفع؛ إما أن يكون العلم نفسه غير نافع أو أن يكون العلم نفسه نافع لكن لا ينتفع به صاحبه، ولهـٰذا جاء في الدعاء الآخر «**اللهم علمني ما ينفعني وانفعني بما علمتني**» فقد يكون العلم نافعا لكن صاحبه لا ينتفع به، يحصّله ولكن لا ينتفع به، فالإنسان يتعوذ بالله من العلم الذي لا ينفع، ومقصود العلم العمل كما قال علي بن أبي طالب ؓ:

يهتف بالعلم العمل فإن أجابه وإلا ارتحل.

ﮋﮋ◊ﮊﮊ

وعن النبي ﷺ قال: «من تعلم علما لغير الله –أو أراد به غير وجه الله– فليتبوأ مقعده من النار» حسنه

الترمذي.

وهـٰذا يدلّ عليه ما سبق لأن العلم عبادة، والعبادة لا تقبل إلا إذا كانت خالصة لله، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَّ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:٠٥].

وعن ابن مسعود ۏ قال: من تعلم علما لم يعمل به لم يزده الله إلا كبرا.

(من تعلّم علما لم يعمل به) يعني لم يكن محافظا على العمل بما يتعلم يصاب بالكبر؛ ويصاب بالكبر، والكبر مرّ معنا قُبْحُه وبيان الأدلة في ذمّه، فالذي يتعلم ولا يعمل يصاب بالكبر، ولهـٰذا تطامن الإنسان وتواضعه أن يكون كلّما ازداد علما ازداد عملا، يقول ابن القيم رحمه الله: كل علم لا يزداد به الإنسان عملا مدخول. يعني نية صاحبه فيه مدخولة؛ لأنه لو كانت خالصة لازداد به عملا وصلاحا وإقبالا على الله عز وجل.

وروي عن أبي أمامة ۏ عن النبي ﷺ قال: «يجاء بالعالم السوء يوم القيامة فيقذف في جهنم فيدور بقصبه كما يدور الحمار بالرحى، فيقال: بم لقيت هـٰذا وإنما اهتدينا بك؟ فيقول: كنت أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه».

هـٰذا الحديث ثابت في الصّحيحين من حديث أسامة بن زيد ۏ، والحديث فيه عقوبة العالم السوء يوم القيامة أنه يؤتى به يوم القيامة ويقذف به في النار، ويطاف بها كما يطاف بالحمار بالرحى، يعني يدور وتندلق أمعاءه كما جاء في الحديث، ويسأله أهل النار: أي فلان ما كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر فآتيه. فهـٰذه عقوبته يوم القيامة أن يُلقى في النار على هـٰذه الصفة (كنت أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه)، وفي قول شعيب لقومه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود:٨٨].

ولهـٰذا يقول بعض العلماء: ثلاث آيات في القرآن ينبغي على كل متعلم أن يجعلها نصب عينيه هـٰذه الآية ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود:٨٨].

والآية الثانية قول الله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢)﴾ [الصف:٠٢].

والآية الثالثة في سورة البقرة: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٤٤)﴾ [البقرة:٤٤].

وقال هلال بن العلاء: طلب العلم شديد، وحفظه أشد من طلبه، والعمل به أشد من حفظه والسلامة منه

أشد من العمل به .

أي أنّ هـٰذا المقام مقام مجاهدة قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩]:

مجاهدة أولا على الطلب والتحصيل.

مجاهدة على الفهم والاستذكار.

مجاهدة على العمل والتطبيق.

مجاهدة على إخلاص النية في ذلك كله لله.

مجاهدة على الثبات على ذلك حتى المات.

فالأمر يحتاج إلى مجاهدة متواصلة.

الكبيرةُ السَّادِسَة والثَّلاثون
المنَّان

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤].

(المَنَّــان) هو الذي يعطي ويُتبع عطيته بالمنّ على من أعطاه، بذكر عطيته وتذكيره بها، وإيذائه بها، هـٰذا هو المنان الذي يمنّ على أعطى بها أعطاه، (قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾) يعني الذي يتصدق ويتبع ما تصدق به بمنٍّ وأذى على من أعطى هـٰذا مبطل للصدقة، والمنان عمله هـٰذا من كبائر الذنوب.

وَفِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «ثَلاثَةٌ لا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: المُسْبِلُ إِزَارَهُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ».

هـٰذا الحديث سبق أن مر معنا والشاهد منه قوله: (الْمَنَّانُ).

عُمَرُ بْنُ يَزِيد الشَامِيُّ، عَنْ أَبِي سَلاَّمٍ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ ت قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلاَثَةٌ لاَ يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُمْ صَرْفًا وَلاَ عَدْلًا: عَاقٌّ، وَمَنَّانٌ، وَمُكَذِّبٌ بِالْقَدَرِ» عُمَرُ: صُوَيْلِحٌ.

ثم ذكر رحمه الله هـٰذا الحديث «ثَلاَثَةٌ لاَ يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُمْ صَرْفًا وَلاَ عَدْلًا: عَاقٌّ، وَمَنَّانٌ، وَمُكَذِّبٌ بِالْقَدَرِ» الشاهد منه قوله: (وَمَنَّانٌ)

الكبيرة السابعة والثلاثون:
المكذب بالقدر

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)﴾ [القمر:٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ [الصافات:٩٦].

وقال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف:١٨٦]،

وقال: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣].

وقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠]

وقال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) ﴾ [الشمس:٠٨].

قوله رحمه الله: (المُكَذِّبُ بالقَدَر) هـٰذا كبيرة؛ بل هو كفر بالله عز وجل؛ لأن الإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان والتكذيب به كفر بالله عز وجل، وقد قال ابن عباس ﭬ: القدر نظام التوحيد فمن آمن بالله وكذب بالقدر نقض تكذيبُه توحيدَه. فلا يكون مؤمنا ولا يكون موحدا من يكون مكذبا بالقدر التكذيب بالقدر كبيرة وهو كفر بالله تعالى.

وقد ساق المصنف رحمه الله تعالى جملة من آيات القرآن الكريم الآيات الدالة على الإيمان بالقدر وأنه أصل من أصول الإيمان؛ قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)﴾ وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾، ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾، ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾، ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)﴾، هـٰذه واضحة في الدلالة على أن الأمور كلها بقدر، والآيات التي أوردها المصنف رحمه الله فيها إشارة إلى مراتب القدر، ويحتاج أن يضاف إليها آية واحدة حتى تجمع مراتب القدر الأربعة التي لا يكون العبد مؤمنا بالقدر إلا بها؛ وهي العلم والمشيئة والكتابة والإيجاد، والآيات التي ذكرها اشتملت على المراتب عدا مرتبة الكتابة ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الحج:٧٠]، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢)﴾ [القمر:٥٢]، آيات كثيرة فيها الكتابة، فمراتب القدر التي لا يكون العبد مؤمنا بالقدر إلا بها أربعة وهي العلم والكتابة والمشيئة والإيجاد جمعها بعضهم بقوله:

علم كتابة مولانا مشيئته وخلقه وهو إيجاد وتكوين

[المتن]

وفي الصحيح حديث جبريل عليه السلام، قال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته

وكتبه ورسله والبعث بعد الموت، والقدر خيره وشره».

عدّ النبي ﷺ في هـٰذا الحديث الإيمان بالقدر أصلًا من أصول الإيمان وركنا من أركانه، والحديث من رواية ابن عمر عن أبيه وهو في صحيح مسلم، وفيه عن ابن عمر ۞ أن نفرا من العراق أتوه وذكروا له أن من قبلهم أقواما ينكرون القدر فقال: أخبروهم أني بريء منهم وأنهم مني برءاء. ثم قال: والذي يحلف به ابن عمر لو أن أحدهم أنفق مثل أحد ذهبا ما تقبل منه ما لم يؤمن بالقدر. وهـٰذا فيه دليل على أنّ عدم الإيمان بالقدر كفر محبط للأعمال.

[المتن]

قال عبد الرحمـٰن بن أبي الموالي حدثنا عبيد الله بن موهب عن أبي بكرة بن محمد بن عمرو بن حزم عن عمرة وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ستة لعنتهم ولعنهم الله وكل نبي مجاب: المكذب بقدر، والزائد في كتاب الله، والمتسلّط بالجبروت، والمستحل حرم الله، والمستحلّ من عترتي ما رحم الله، والتارك لسنتي» إسناده صحيح.

ثمّ ذكر هـٰذا الحديث، ونقل المحقق في الهامش، عن الذهبي رحمه الله في تلخيصه لمستدرك الحاكم أنه قال: الحديث منكر بمرّة، وأورد هنا الشاهد الذي فيه والمكذب للقدر؛ ولكن يغني عنه الأدلة الأخرى في الباب منها ما مر ومنها ما سيأتي.

[المتن]

روى سليمان بن عتبة الدمشقي، حدّثنا يونس بن ميسرة، عن أبي إدريس، عن أبي الدّرداء ۞ عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنّة عاق ولاَ مُكذّبٌ بِقدرٍ ولا مدمن خمر» سليمان ضُعف رواه عنه جماعة.

ثمّ ذكر هـٰذا الحديث فيمن لا يدخل الجنّة، ونفي الدّخول هنا سبق أن مرّ معنا في أحاديث نظير هـٰذا في كبائر ليست كفرا، فالنّفي هنا ليس المراد به النّفي المطلق لدخولها، فإنّ مرتكب الكبيرة مآله إلى الجنّة ما دام من أهل التّوحيد. فالنّفي هنا ليس نفيا مُطلقا، وإنّما نفي إمّا لرتب عالية في الجنّة، أو لدُخول أوّلي، أو لا يدخلها إلاّ بعد أن يُعذّب على كبائره، وليس المراد أنّه يُنفى عنه دخول الجنّة نفيًا مطلقًا، يعني لا يكون النّفي لأصل الدّخول، وإنّما يكون النّفي لكمال رُتبة الدّخول أوليًّا، أو الدّخول في منزلة عالية في الجنّة أو نحو ذلك.

[المتن]

قَالَ عَبْدُ العَزِيزِ بنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَن ابنِ عُمَرَرَضِيَ اللهُ تعالى عَنْهُماعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «القَدَرِيةُ مَجُوسُ

هَذِهِ الأُمَّةِ، فَإِنْ مَرِضُوا فَلاَ تَعُودُوهُم، وَإِنْ مَاتُوا فَلاَ تَشْهَدُوهُم» رُوَاتُهُ ثِقَاتٌ لَكِنَّهُ مُنْقَطِعٌ.

هـٰذا الحديث ورد من طرق وحسّنه بعض العلماء.

ووصف النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام للقدريّة بأنّهم «مجوس هـٰذه الأمّة»، لأنّهم شبيهين بالمجوس، والمراد بـ"القدريّة" هنا نفاة القدر الذين يقولون: لا قدر، والأمور ليست بمشيئة الله، وأفعال العباد مخلوقة للعبد وليست مخلوقة لله. فهؤلاء مجوس الأمّة؛ لأنّهم يشبهون المجوس من جهة أنّ المجوس قالوا بخالقين: خالق للنّور وخالق للظّلمة، وهؤلاء القدرية قالوا بخالقين: الله خالق للإنسان، والإنسان خالق لفعل نفسه، ولهذا كانوا مجوس هـٰذه الأمّة لشبههم بالمجوس من جهة القول بخالقين: الله خالق الإنسان، والإنسان خالقُ فعْلِ نفسه، لأنّ الأفعال عندهم ليست مخلوقة لله، وإنّما هي مخلوقة للإنسان نفسه.

[المتن]

وَقال ابنُ عُمَرَ ـ رضي الله تعالى عنهما ـ، سَمِعْتُ رسول الله ﷺيَقُولُ: «سَيَكُونُ فِي أُمَتِي قوم يُكَذِّبُونَ بِالْقَدَرِ» وَهَذَا عَلَى شَرْطِ مُسْلِم.

ثمّ أورد هـٰذا الحديث على وجه التّحذير للأمّة والنّصح لها «سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي مكَذِّبُونَ بِالْقَدَرِ» يعني فاحذروهم، مثل قوله في الحديث الآخر: «لا تقوم السّاعة حتّى يعبد فئام من أمّتي الأوثان» يعني هـٰذا الأمر سيوجد، فاحذروا من هـٰذا الأمر واحذروا الوقوع فيه، سيكون في الأمّة من يعبد الأوثان، سيكون فيه من يكذّب بالقدر، سيكون فيهم من يتّبع من كان قبلنا «لتّتبعنّ سنن من كان قبلكم»، فهـٰذه الأمور أخبر النّبيّ ﷺ أنّها ستوجد، وهو الذي لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه وهـٰذا ذكره على وجه التّحذير.

[المتن]

وَصَحَّحَ التِّرمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي صَخرٍ عَنْ نَافِعٍ، أَنَّ ابنَ عُمَرَرَضِيَ اللهُ تعالى عَنْهُما جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ:إنَّ فُلاَنًا يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلاَمَ، فَقَالَ: إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّهُ قَدْ أَحْدَثَ، فَإِنْ كَانَ قَدْ أَحْدَثَ فَلاَ تُقْرِئْهُ مِنِّيَ السَّلاَمَ؛ إِنِي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِﷺ يَقُولُ: «يَكُونُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ خَسْفٌ وَمَسْخٌ، أَوْ قَذْفٌ فِي أَهْلِ القَدَرِ».

يعني عقوبة لهؤلاء الذين هم «أهل القدر» يعني القدريّة المكذّبين له أو المكذّبين به، فسيكون فيهم هـٰذه العقوبة: الخسف والمسخ أو القذف، عقوبة لهم على ذلك.

وفيه ابن عمر تبرّؤه ممّن يُحدث في الدّين ومن أحدث في الدّين قال: بلغني عنهم كذا وكذا، وأيضا في كلامه اعتدال وإنصاف قد يعزّ وجوده، قال: (إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّهُ قَدْ أَحْدَثَ، فَإِنْ كَانَ قَدْ أَحْدَثَ فَلاَ تُقْرِئْهُ مِنِّي

السَّلاَمَ) يعني جاء بكلام على وجه طلب التثبّت من الأمر لا على وجه الجزم به بمجرّد أن بلغه، وهـٰذا فيه أنّ الإنسان لا يكتفي بمجرّد ما يبلغه بعض الأمور، فيجعلها حقيقة أو يقبلها مقبل التّسليم، بل يتثبت ويتأنى، ولاسيما النّقول التي تكون بين النّاس: فلان قال: كذا، فيتأنّى الإنسان حتى لا يظلم الآخرين، ولهذا قال: (إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّهُ قَدْ أَحْدَثَ، فَإِنْ كَانَ قَدْ أَحْدَثَ فَلاَ تُقْرِئْهُ مِنِّي السَّلاَمَ) كأنّه يقول استثبت أنت من الأمر، وجعل المسؤوليّة مسؤولية هـٰذا الشّخص، استثبت وتأكد فإن كان الأمر كذلك (فَلاَ تُقْرِئْهُ مِنِّيَ السَّلاَمَ).

[المتن]

روى مَنْصُورٌ، عَنْ رِبْعِيِّ بنِ خِرَاشٍ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِأَرْبَعٍ: يَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إلاَّ اللهَ وَأَنِي رَسُولُ اللهِ [بَعَثَنِي بِالحَقِّ]، وَيُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ، وَيُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ» أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَسَنَدُهُ جَيْدٌ. وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: عَنْ رِبْعِيٍّ عَنْ رَجُلٍ عَنْ عَلِيٍّ.

ثمّ أورد هـٰذا الحديث وفيه نفي الإيمان عن العبد حتّى «يُؤْمِنَ بِأَرْبَعٍ: يَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إلاَّ اللهَ وَأَنِي رَسُولُ اللهِ وَيُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ وَيُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ» وكلّ هـٰذه الأربعة، عدم الإيمان بها كفر ناقل من الملّة، فعدم وجودها ينتفي به أصل الإيمان.

[المتن]

عن بَقِيَّة، قال: حَدَّثَنَا الأَوْزَاعِيُّ، عَنِ ابنِ جُرَيْجٍ، عَنِ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ الْمُكَذِّبُونَ بِأَقْدَارِ اللهِ، إِنْ مَرِضُوا فَلاَ تَعُودُوهُم، وَإِنْ مَاتُوا فَلاَ تُصَلُّوا عَلَيْهِم، وَإِنْ لَقِيتُمُوهُم فَلاَ تُسَلِّمُوا عَلَيْهِم» رَوَاهُ أَبُو بَكْرِ بنِ أَبِي عَاصِمٍ فِي السُّنَةِ.

هـٰذا يوضّح لنا الحديث الماضي: «القَدَرِيةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ» ما المراد بالقدريّة؟ الجواب هنا المكذّبون بالقدر، فالقدريّة نفاة القدر، لأنّ القدريّة نوعان: قدرية مـُجْبِرة وقدرية نفاة:

القدرية المـُجْبِرة: الذين يثبتون القدر، قدرة الله، ويكون العبد مجبور، هؤلاء أطلق عليهم العلماء " القدريّة المجبرة " أو "القدريّة الجبريّة".

والقدرية النّفاة: هؤلاء المعنيون بهـٰذا الحديث، فقوله في الحديث أوّلا: «القَدَرِيةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ» يوضّحه هنا «إِنَّ مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ الْمُكَذِّبُونَ بِالقدر» فأطلق عليهم القدريّة لأنّهم مكذّبون بالقدر.

والقدريّة النفاة يفرّون من هـٰذا ويقولون: نحن لسنا قدريّة، نحن نفاة للقدر، ويقولون: القدريّة هم المثبتون له، أمّا نحن لسنا قدريّة نحن نفاة للقدر، فهنا في الحديث قال: «إِنَّ مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ الْمُكَذِّبُونَ بِالقدر»

فالقدريّة هم المكذّبون بالقدر، نفاته، وإن تبرّأ أولئك من هـٰذه النّسبة وقالوا: نحن لا يقال عنّا: قدريّة لأنّنا نفاة، حتّى إنّي وقفت لأحدهم -أحد القدريّة المتقدّمين- ألّف كتابا عنوانه "الردّ على القدريّة" وفي مقدّمة الكتاب قال: لسنا قدريّة، القدريّة من أثبتوه وأمّا نحن فلسنا قدريّة، فهـٰذه اللّفظة في هـٰذا الحديث توضّح المراد بالقدريّة، أنّهم من ينفون القدر ويُكذّبون به، قال: «إِنَّ مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ المُكَذِّبُونَ بِالقدر».

[المتن]

وفي الباب عدّة أحاديث فيها مقال أوردها ابن أبي عاصم.

(**وفي الباب عدّة أحاديث فيها مقال أوردها ابن أبي عاصم**) الحديث ورد من طرق كثيرة، ومن مجموع طرقه حسّنه بعض أهل العلم.

[المتن]

روى بَقِيةُ، عَنْ أَبِي العَلاَءِ الدِّمَشْقِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بنِ جُحَادَةَ، عَنْ يَزِيدَ بنِ حُصَيْنٍ، عَنْ مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا قَطُّ إِلاَّ وَفِي أُمَّتِهِ قَدَرِيَّةٌ وَمُرْجِئَةٌ، إِنَّ اللهَ لَعَنَ القَدَرِيَّةَ وَالمُرْجِئَةَ عَلَى لِسَانِ سَبْعِينَ نَبِيًّا».

هـٰذا الحديث سنده ضعيف.

[المتن]

روى بَقِيّة، عَنْ أَرْطَاةَ، عَنْ المُنْذِرِ، عَنْ أَبِي بُسْرٍ، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْهُ مَرْفُوعًا: «ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِمُهُم اللهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمُ: المُكَذِّبُ بِالْقَدَرِ، وَالمُدْمِنُ بِالخَمْرِ، وَالمُتَبَرِّئُ مِنْ وَلَدِهِ».

مرّ معنا الحديث بلفظ «**والعاقّ لوالديه**»، والشّاهد من الحديث هنا «**المُكَذِّبُ بِالْقَدَرِ**».

[المتن]

روى سُفْيَانُ الثَّوْرِيِّ، عَنْ مَوْلَى غُفْرَةَ، عَنْ رَجُلٍ، عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لِكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوسٌ، وَمَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَلَّا قَدَرٌ».

ثمّ أورد هـٰذا الحديث أيضًا، سنده ضعيف «**لِكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوسٌ، وَمَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَلَّا قَدَرٌ**».

[المتن]

وَعَنِ الحَسَنِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ» وَهَذِهِ الأَحَادِيثُ

لاَ تَثْبُتُ لِضَعْفِ رُوَاتِهَا.

هـٰذا من الطّرق الكثيرة الذي ورد بها الحديث المتقدّم، وهو بمجموع هذه الطرق حسّنه بعض أهل العلم.

[المتن]

رَوَى المُعَافَا بنِ عَمْران وَغَيْرِ وَاحِدٍ، عَنْ نِزَارِ بن حَيَّانٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا: «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي لَيْسَ لَهُمْ فِي الإِسْلاَمِ نَصِيبٌ: الْقَدَرِيَّةُ وَالْمُرْجِئَةُ».

هـٰذا أيضا لم يثبت سنده، ضعيف وبيّن الذّهبي ذلك قال:

[المتن]

نِزَارٌ: تَكَلَّمَ فِيهِ ابنُ حِبَّانٍ، وَقَدْ تَابَعَهُ غَيْرُهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ. قَالَ مُحَمَّدُ بنُ بِشْرٍ العَبْدِيِّ: حَدَّثَنَا سَلاَّمُ بنِ أَبِي عَمْرَةَ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا نَحْوُهُ.

روى أَبُو عَاصِمِ النَّبِيلِ وَمُحَمَّدُ بنُ مُصْعَبِ القَرْقَسَانِيِّ، عَنْ عَنْبَسَةَ عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بنِ المُسَيَّبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله تعالى عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُخِّرَ كَلاَمٌ فِي الْقَدَرِ لِشِرَارِ هَذِهِ الأُمَّةِ».

قوله: «أُخِّرَ كَلاَمٌ فِي الْقَدَرِ لِشِرَارِ هَذِهِ الأُمَّةِ» يعني أنّه يأتي كلامٌ في القدر، باطل، متأخر، لشرار هـٰذه الأمّة، يأتي كلام متأخر في القدر يتكلّم به شرار هـٰذه الأمّة، فهو أمرٌ أُخِّر لهم، وهو لائق بهم، شرار هـٰذه الأمّة سيتكلّمون في القدر.

[المتن]

روى أَبُو مَالِكٍ الأَشْجَعِيِّ، عَنْ رِبْعِيٍّ، عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَلَقَ اللهُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنْعَتَهُ».

ثمّ أورد هـٰذا الحديث وهو دليل على أنّ الأمور كلّها بقضاء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وقدره، قال: «خَلَقَ اللهُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنْعَتَهُ»، فالله عز وجل خالق الصّانع، يعني الإنسان الذي يصنع شيئا أو يعمل شيئا أو يقوم بأعمال، وصنعتـه أيضا ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصّافّات:٩٦]، وقال: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزّمر:٦٢].

الكبيرة الثامنة والثلاثون
المتسمّع على النّاس ما يسرُّونه

وَلَعَلَّهَا لَيْسَتْ بِكَبِيرَةٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات:١٢].

ثم قال رحمه الله: (الكَبِيرَةُ الثَّامِنَةُ والثَّلاَثُون: المُتَسَمِّعِ عَلَى النَّاسِ مَا يسرّونه) يعني المتصنّت، الذي يتصنّت

على النّاس فيما يسرّونه من أحاديث، وهو التّجسّس، وقد ذمّه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابه، قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات:١٢]، وأيضًا جاء في السّنّة عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «لا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا».

فهٰذا ممّا يتنافى مع الأخوّة الإيمانية ومقتضياتها، التّجسّس والتّحسّس والتّصنّت على الإخوان.

وقال النبي ﷺ: «مَنِ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ صُبَّ فِي أُذُنَيْهِ الآنِكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ صَوَّرَ صُورَةً عُذِّبَ وَكُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرّوح، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ» الآنك الرصاص المذاب، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

قول النّبيّ ﷺ: «مَنِ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ» هذا هو المتسمّع على النّاس ما يسرّونه، وذكر فيه هذه العقوبة: «صُبَّ فِي أُذُنَيْهِ الآنِكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» والآنك: هو النّحاس المذاب، يعني أُحْرق حتّى انصهر بالنّار ثمّ يُصبّ في أذنيه، فهٰذه العقوبة تُشعر أنّ هٰذا الذّنب من كبائر الذّنوب.

والله أعلم، وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمّد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الخامس

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألَّا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صَلَّى الله وسَلَّم عَلَيه وَعَلى آلِه وأصحَابِه أجمَعين.

أما بعد،

فنواصل القراءة في كتاب الكبائر للذهبي ووصلنا إلى كبيرة اللَّعَـان.

الكبِيرَة التَاسِعة والثَلاثون
اللّعَان

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

قال المصنف رحمه الله: (الكَبِيرَةُ التَّاسِعة والثَّلاثون: اللَّعَّان) أي من هو صاحب لعن يجري على لسانه، اللعن، لعن المسلمين، واللعن: هو دعاء على الملعون بالطرد والإبعاد من رحمة الله عز وجل، وليس هـٰذا من شأن المؤمن الذي قام في قلبه الرّحمة والشفقة والمحبة والإحسان، قال عَلَيهِ الصَّلاة والسَّلام: «إنّما بُعثتُ رحمة»، فمُقتضى الرّحمة الدعاء للمسلم لا الدعاء عليه، الدعاء له بالخير، بالصلاح، بالاستقامة، لا الدعاء عليه باللعن والطرد والإبعاد من رحمة الله وحلول غضب الله عليه؛ فصفة المؤمن الشفقة والرحمة؛ ولهـٰذا يأتي عند المصنف قول النبي ﷺ: «لَيْسَ الْمُؤمِنُ بِالطَّعَانِ وَلاَ اللَّعَانِ»؛ أي ليس هـٰذا من صفات أهل الإيمان، ولا يُبادر إلى اللعن، لا لعن الناس ولا لعن الدواب ولا لعن الأشياء، وإنما على الإنسان الدعاء بالخير لا الدعاء بالشرّ.

فهـٰذه ترجمة في بيان هـٰذه الكبيرة، كبيرة اللعن، وأن من يجري على لسانه اللعن ويُبادر إليه هـٰذا مرتكب لكبيرة عظيمة وجُرم كبير.

ثم أخذ يسوق من النصوص ما يدلّ على خطورة اللعن، لعن المسلم، فذكر أولا قول النبي عَلَيهِ الصَّلاة والسَّلام («لَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.)

لعنه: أي الدعاء عليه باللعن، كأن يقول "لَعَنَه الله" ونحو ذلك، فهـٰذا كقتله.

وَقَالَ ﷺ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ».

«سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ» وهـٰذا هو موضع الشاهد من الحديث للكبيرة، أنّ السباب -ومنه اللعن- فسوق، والفسق هو الخروج عن الطاعة، طاعة الله عز وجل.

قوله: «وَقِتَالُهُ كُفْرٌ» أي كفر أصغر، ليس بالكفر الأكبر الناقل من الملّة؛ لأنه لا ينتقل من الملّة بالقتل إلا إذا استحلّ قتل المسلمين، أما بمجرد القتل فإنه كفر دون كفر، وقد دلّت نصوصٌ على أن القاتل لا يكون كافرا، سبق الإشارة إلى بعضها.

وَقَالَ: «لاَ يَكُونُ اللَّعَانُونَ شُفَعَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

اللعانون وكذلك الطعانون مثل ما سيأتي معنا «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَانِ وَلاَ اللَّعَانِ» اللَّعان: هو الذي يدعو على غيره باللعنة وبالشر، والطَّعان: هو الذي يخبر عن غيره بالشر، يعني يطعن فيه بالشر. ولاحظ الأمرين وهما منفيان عن المؤمن كما سيأتي: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَانِ وَلاَ اللَّعَانِ».

اللعان: هو الذي يدعو على غيره بالشر، والطعان هو الذي يخبر عن غيره بالشر، يعني يطعن فيه بالشرّ.

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لاَ يَكُونُ اللَّعَانُونَ شُفَعَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ».

لماذا؟ لأنّ الذي يكون يوم القيامة هو ما قام عليه الإنسان في الحياة الدنيا، فإذا كان الإنسان في الحياة الدنيا حَفظ لسانه من الطعن في الناس والشهادة عليهم بالشر وصان لسانه من الولوغ في أعراضهم والطعن فيهم والسخرية إلى غير ذلك، كان مؤهلا أن يكون شهيدا لهم يوم القيامة، شهيدا لهم في الخير، أما إذا كان يلِغ في أعراضهم ويطعن فيهم ويقدح، وصاحب هَمزٍ ولمزٍ فمثل هـٰذا ليس أهلا أن يكون يوم القيامة شهيدا لهم.

واللعان الذي يشتغل في الدنيا بلعن المسلمين ليس أهلا أن يكون يوم القيامة شفيعا لهم؛ لأنهم في الدنيا ما سلموا منه، لسانه يجري عليه لعنهم، فلا يصلح يوم القيامة أن يكون شهيدا؛ لأنّ الشهيد هو الذي يُخبر عن غيره بالخير، والشفيع هو الذي يطلب له الخير ويدعو له بالخير، فمن كان في الدنيا طعّانا لعّانا ليس مؤهلا أن يكون يوم القيامة شهيدا شفيعا؛ لأنّه في الدنيا لم يكن كذلك، لم يكن في الدنيا إلا طعّانا ولم يكن إلا لعّانا. وهـٰذا المعنى اللّطيف الذي في هـٰذا الحديث نبّه عليه العلامة ابن القيّم رحمه الله في كتابه (الصواعق المرسلة).

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لا تَلاعَنُوا بِلَعنَةِ الله وَلا بِغَضَبِ الله وَلا بِالنَّار».

وهـٰذا يُعطينا أن مفهوم اللّعن ليس مقتصرا على هـٰذه اللفظة، كأن يقول القائل: "لعن الله فلانا" أو نحو ذلك، وإنما يشمل هـٰذه اللفظة، وكذلك دعاء بالغضب أو بالنار كأن يقول لغيره: "لعنه الله" أو يقول: "سخط الله عليه" أو "غضب الله عليه" أو "أحرقه الله بالنار"، "حرّم الله عليه الجنة"، أو نحو ذلك.

«لا تَلاعَنُوا بِلَعنَةِ الله وَلا بِغَضَبِ الله وَلا بِالنَّار» فالمؤمن ليس هـٰذا من شأنه، إذا أُخطئ عليه، دعا على من أخطأ عليه باللعنة أو دعا عليه بالغضب أو بالسخط، أو دعا عليه بالحرمان من الجنة، أو دعا عليه بدخول النار؛ هـٰذا ليس من شأن رحمة الإسلام القائمة في قلوب المسلمين.

فإذن هـٰذا يدل على أن مفهوم اللعن واسع لا يقتصر على هـٰذه اللفظة.

◊

وَقَالَ ﷺ: «لاَ يَنْبَغِي لِصِدِّيقٍ أَنْ يَكُونَ لَعَّانًا».

الصِدّيق: هي رتبة عَليّة من رُتب الدين ومنزلة رفيعة فيه، فالصدِّيقيّة ليس من شأن أصحابها وأربابها اللعن، وإنما من شأن أصحابها صيانة اللسان وحفظه وشغله بذكر الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يفيد.

◊

وَعَنْهُ قَالَ: «لَيْسَ المُؤْمِنُ بِالطَّعَانِ وَلاَ اللَّعَانِ وَلاَ الفَاحِشِ البَذِيءِ» حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ.

قوله: «لَيْسَ المُؤْمِنُ» أي أنّ هـٰذه ليست من خصال أهل الإيمان، والمراد بأهل الإيمان أهل الإيمان الكامل الواسع، أما إذا نقص الإيمان وضعف، قد يقع في لسان من ضعُف إيمانُه ونقص إيمانه أمثال هـٰذه الألفاظ، مثل: اللعن والطعن ونحو ذلك.

وقوله: «الطَّعَانِ .. اللَّعَانِ» هـٰذه صيغة مبالغة، وصيغة المبالغة في الغالب يكون مقصودًا بها المبالغة، لكن قد تأتي صيغة المبالغة ولا يكون مرادًا بها المبالغة، مثل هـٰذا الحديث، فقوله: «اللعان...الطعان» ليس المراد نفي كثرة اللّعن واستدامته؛ بل نفي وجوده على ألسنتهم، فيكون المراد هنا: ليس بِذِي لعن وليس بِذِي طعن، يعني هو بعيد عن اللعن وبعيد عن الطّعن، ليس من صفاته مثل هـٰذا الأمر، وإن وقع منه شيء نادر واستغفر الله عز وجل وتاب لم يهبط من رتبته، هـٰذه الرتبة، رتبة الإيمان الكامل، إذا كان شيئا نادر وبادر إلى التوبة والاستغفار والدعاء بالخير، بدل هـٰذه الكلمة التي انفرطت من لسانه.

فإذن هنا المراد بقوله: «الطَّعَانِ .. اللَّعَانِ» أي ليس بِذِي لعن وليس بِذِي طعن، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ...﴾ [فصلت:٤٦] الآية، هـٰذه صيغة مبالغة، لكن ليس المراد هنا المبالغة، وإنما المراد نفي الظلم

أصلا، فالمعنى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ...﴾ أي ليس بذي ظلم.

«وَلاَ الفَاحِشِ البَذِيءِ» يعني الفاحش في قوله، البذيء بلسانه، بكلماته السيئة وألفاظه النابية.

وَعَنْهُ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا صَعِدَتْ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاغًا رَجَعَتْ إِلَى الَّذِي لُعِنَ: فَإِنْ كَانَ أَهْلًا لِذَلِكَ وَإِلَّا رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِهَا» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدٍ.

هـذا يدل على أنّ اللعن في غاية الخطورة؛ هي ليست مجرّد كلمة تخرج من اللسان وانتهى الأمر، وإنما هي تصعد كما أخبر عَلَيهِ الصَّلاة والسَّلام، فإن لم تجد مساغا رجعت، ترجع هـذه الكلمة إلى من لُعن، فإذا كان أهلًا وإلا رجعت على صاحبها، يرجع اللعن على اللاعن نفسه، ولهـذا قد يكون بعض الناس يجلب لنفسه اللعن في اليوم عشرات المرات والعياذ بالله.

وَقَدْ عَاقَبَ النَّبِيُّ ﷺ الَّتِي لَعَنَتْ نَاقَتَهَا بِأَنْ سَلَبَهَا إِيَّاهَا، فَقَالَ عِمْرَانُ بنُ حُصَيْنٍ وَأَبُو بَرْزَةَ، وَالحَدِيثُ لِعِمْرَانَ، قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَامْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى نَاقَةٍ، فَضَجِرَتْ فَلَعَنَتْهَا، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا؛ فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ» قَالَ عِمْرَانُ: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهَا الآنَ تَمْشِي فِي النَّاسِ مَا يَعْرِضُ لَهَا أَحَدٌ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وهـذا يدل على أنّ المسلم لا يحل له أن يلعن شيئا: لا الجمادات ولا الحيوانات، لا يحلّ له أن يلعن.

وهـذه المرأة لما حرنت هـذه الناقة وتمنّعت، تضجّرت منها وبادرت إلى هـذه اللعنة، فقال النبي ﷺ: «خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا؛ فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ» وهـذا يدلنا على خطورة اللعنة وضررها.

وعن ابنُ لَهِيعَةَ، عَنْ أَبِي الأَسْوَدِ، عَنْ يَحْيَى بنِ النَّضْرِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَرْبَى الرِّبَا اسْتِطَالَةُ الْمُسْلِمِ فِي عِرْضِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ».

«إِنَّ أَرْبَى الرِّبَا» أي أخطره وأشدّه.

«اسْتِطَالَةُ الْمُسْلِمِ فِي عِرْضِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ» أن يتطاول على عرض أخيه بالنيل منه وقيعة وسبًّا وسلبا.

هـذا فيما يتعلّق بعموم اللّعن، وأمّا -والعياذ بالله- لعن الدّين أو لعن النبيّ الكريم عليه الصّلاة والسّلام أو ربّ العالمين فهـذه ردّة عن الإسلام، محُبطة للأعمال، ولا يُعذر فيها أحد، ولا يُقال: معذور جاهل، ما

يُعذر أحد، وكلّ واحد يُدرِك فظاعة هـٰذا الأمر؛ ولهـٰذا لا يكون لعن الدّين أو لعن الإسلام أو لعنُ ربِّ العالمين، لا يكون من مسلم، هـٰذا لا يكون إلا من مرتدّ ليس بمسلم.

الكبِيرةَ الأربَعون
الغادِرُ بأميرهِ وغيْرِ ذلِكَ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء:٣٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة:١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [النحل:٩١].

ثمّ أورد المصنّف رحمه الله هـٰذه الكبيرة (**الغادِرُ بِأَمِيرِهِ وغَيْرِ ذَلِكَ**) أي ممّن له عليه عهد، فالغدر كبيرة من كبائر الذنوب، وقد جعله أو عدّه النبيّ ﷺ في أوصاف المنافقين، قال: «**آية المنافق ثلاث...** »، وذكر منها: «**إذا عاهد غدر**»، فمن صفات أهل النفاق الغدر والخيانة وعدم الالتزام بالعهد.

وإذا كان بايع أميرًا وقام عليه عهد والتزم بالبيعة ثمّ غدر، فهـٰذا ارتكب كبيرة وجُرما عظيما، جاء التحذير منه في نصوص عامّة وخاصّة: أمّا النّصوص العامّة فهي التي بدأ المصنّف رحمه الله بها، من الآيات القرآنيّة التي فيها الأمر بالوفاء بالعهود والعقود التي على الإنسان، فيدخل في عموم هـٰذه الآيات الوفاء بالعهد الذي بين الرّعيّة والرّاعي، فهـٰذا عهد اؤتمن المسلم عليه، وهو مُطالَب بالوفاء به والتزامه، فإذا غدر في هـٰذا العهد الذي هو عليه والتزم به ثمّ غدر، فهو مرتكب لجريمة كبيرة وذنب كبير.

وسيأتي في الباب نصوص خاصّة يوردها المصنّف رحمه الله.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا حَقًّا: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا اؤتمِنَ خَانَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

الشّاهد من الحديث قوله: «**وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ**» فهـٰذا من صفات المنافقين.

والحديث بعمومه يشمل غدر الرّاعي بأميره الّذي عليه عهد أن يلتزم بطاعته وبيعته له قائمة.

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اسْتِهِ يُقَالُ: هـٰذِه غَدْرَةُ فُلاَنٍ، أَلاَ وَلاَ غَادِرَ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرِ عَامَّةٍ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

ثمّ أورد رحمه الله هـٰذا الحديث، أنّ النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ قال: «لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ»، المراد بـ**"اللّواء"** علامة يشتهر بها عند النّاس، والغادر له يوم القيامة علامة تكون عند أُسته يعني عند مَقْعدته التي يجلس عليها، تكون علامة عليه «هـٰذه غدرة فلان بن فلان» علامة يُعرف بها على الأشهاد يوم القيامة، ويفتضح بها بين النّاس، فغدرته التي كانت منه في الدّنيا تكون تحت أسته أي تحت مقعدته؛ علامة وإشارة تشهيرا به أمام النّاس يوم القيامة، يُقال: «هـٰذه غَدْرَةُ فُلاَنٍ».

«أَلاَ وَلاَ غَادِرَ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرِ عَامَّةٍ»، قوله: «مِنْ أَمِيرِ عَامَّةٍ» **لأهل العلم هنا قولان:**

«لا أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرِ عَامَّةٍ» أي أن يغدر الأمير بالعامّة، فيكون المراد بالغادر هنا الأمير نفسه، بأن يغدر بالعامّة فيخون العهود ويخون المواثيق التي بينه وبينهم، وبينه وبين غيرهم، ممّا يسبّب الدّمار والأخطار والشّرور والجناية على المجتمع، والنّووي رحمه الله في شرحه لمسلم قال: **"وهو المشهور في معنى الحديث"**.

والمعنى الثّاني: وهو أنّ المراد بـ**"غدر أمير عامّة"** أي أن يغدر به أحد من رعيّته، فقوله: «أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرِ عَامَّةٍ» أي أعظم غدرٍ، الغدرُ بأمير العامّة، فيكون من رعيّته من يغدر به، فهـٰذا من الكبائر وهو معنى معروف في الحديث.

وإيراد الذّهبيّ رحمه الله الحديث هنا " **الغادر بالأمير**" يدلّ على أنّه أراد هـٰذا المعنى لا المعنى الأول.

❁❁◈❁❁

وَقَالَ ﷺ: قَالَ تَعَالَى: «ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا، فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

ثمّ أورد هـٰذا الحديث في الثلاثة الذين يكون الله تعالى خصْمهم يوم القيامة، ثمّ ذكرهم:

الأوّل: وهو الشّاهد من الحديث لهـٰذه الكبيرة، «رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ»، **"بـي"** أي بالله، ومعنـى **"أعطى بالله"** أي أعطى عهدا يلتزم به، أقسم عليه بالله، كأن يقول لغيره أو لأمير أو نحو ذلك: "والله الذي لا إلـٰه إلاّ هو لك عليّ عهد أن ألتزم بالطّاعة أو ألتزم بكذا" ثمّ يغدر، فيكون من هؤلاء الثلاثة الذين الله عز وجل خصمهم يوم القيامة «أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ» وهو الشّاهد للكبيرة من هـٰذا الحديث.

الأمر الثاني: «وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا، فَأَكَلَ ثَمَنَهُ »، «رَجُلٌ بَاعَ حُرًّا»أي باع رجلا حرّا، وجد رجلا حرّا فأخذه وقال: إنه رقيق لي، ثمّ باعه وأكل ثمنه.

وقوله : «أَكَلَ ثَمَنَهُ» هـٰذا باعتبار الغالب في وجوه الانتفاع أنه الأكل، لكن لو باعه واستفاد بثمنه غير الأكل، أمرا آخر غير الأكل، كأن يشتري ثيابا، أو يشتري بيتا، أو يشتري دابّة أو نحو ذلك، الحكم واحد،

فذِكْرُه الأكل ليس على وجه التّعيين والتّخصيص وإنّما على اعتبار أنّ هـٰذا هو الغالب في وجوه الانتفاع.

الثالث: «وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ»، **"استوفى منه"** يعني ما طلب منه أن يقوم به من عمل وصناعة استوفاها منه كاملة، ثمّ لـمّا جاء وقت دفع الأجرة لم يعطه، فهـٰذا من الثّلاثة الّذين يكون الله تعالى خصيمهم يوم القيامة.

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

قوله: «**وَلاَ حُجَّةَ لَه**»، **" الحُجَّة"** الدِّين، والدِّين جاء بالأمر بالطّاعة في الكتاب والسنّة، فمن خلع اليد من الطّاعة لا حُجَة له، ليس عنده إلا الأهواء واتّباع النّفس واتباعه للشّرّ والفساد، أمّا القرآن والسنّة لا حُجَّة لمن يخلع اليد من الطّاعة، لا حُجَّة له في كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ.

ومن يقرأ النّصوص الواردة في هـٰذا الباب لا يجد فيها دعوة إلى خلع اليد من الطّاعة، وإنّما فيها الدعوة إلى السّمع والطّاعة والصّبر والدّعاء وإصلاح النّفس، وغير ذلك من المعاني الواردة في نصوص الباب، فلا يكون له حُجَّة، يلقى الله عز وجل ولا حُجَّة له.

قال : «وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» وأهل الجاهليّة الذين يموت ميتتهم كانت حالهم عدم السّمع والطّاعة، ويأنف الواحد منهم أن يكون يسمع أو يطيع أو أن يكون له أميرا، فجاهليّتهم تأبى ذلك، مع أنّ فيه مصلحة لهم وللمجتمع، لكن جاهليّتهم تأبى ذلك ولا ترضاه، فمن خصال الجاهليّة عدم السّمع والطّاعة، ولهـٰذا شيخ الإسلام محمّد بن عبد الوهّاب رحمه الله لمّا ألّف كتابه **" مسائل الجاهليّة"** التي جاء الإسلام بمخالفتها، فذكر في أوّل ثلاث خصال مسائل الجاهليّة **"عدم السّمع والطّاعة"**، ما ينطوون تحت أمير، وإنما هم متمزّقون ومتفرّقون، ولهـٰذا بينهم تطاحن وحروب وعداوات وشرّ؛ والإمرة لا ينتظِم أمرُ الجماعة إلا بها، فلا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بسمع وطاعة، فإذا لم يكن هناك سمع وطاعة وكان بدل ذلك الافتيات على وليّ الأمر ونزع اليد من الطّاعة وشقّ العصا والخروج، هـٰذا الذي هو يفرّق الكلمة ويشقّ الصّف ويُوجِـد التطاحن والحروب وإراقة الدّماء وانتهاك الأعراض إلى غير ذلك فـ«مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» لأن هـٰذه الخصلة التي هو عليها إلى أن مات هي من خصال أهل الجاهليّة؛ فيلقى اللّـهَ تعالى بعمل أهل الجاهليّة، ولا يلقى اللّـه تعالى بعمل أهل الإسلام.

وقالﷺ: «مَنْ أَحبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يؤمن بالله واليوم الآخر، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ ما يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ فَلْيُطِعْهُ إِنْ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فاضربوا عُنُقَ الآخر» رواه مسلم.

ثمّ ذكر هـٰذا الحديث المشتمل على التَّرغيب العظيم لمن أراد لنفسه أن يُزحْزح عن النّار ويُدخَل الجنة ﴿وَمن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥] ، فذكر عليه الصّلاة والسّلام أنّ من أحبّ ذلك «فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يؤمن بالله واليوم الآخر، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ ما يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ».

وهـٰذه قاعدة عظيمة جمعت الدّين كلّه في المعاملة بين الله والمعاملة بين العباد:

أما المعاملة مع الله فبالإيمان به واليوم الآخر، وما يتطلّب هـٰذا من استعداد وسعي له بسعيه.

وأمّا المعاملة مع العباد بأن يأتـي لهم الشيء الذي يحب أن يؤتى إليه، قال: «وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ ما يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»، وهـٰذا الحديث يُعتبر قاعدةً في باب الأخلاق والمعاملة، قاعدة عظيمة؛ بل لا تجد أوفى منها بيانا ولا أحسن منها إيضاحا لحقيقة الخلُق الحسن والمعاملة الكريمة.

ولو قيل لك: أعطنا ضابطا في حسن المعاملة وحسن الأخلاق، لما وجدت جوابا أوفى من هـٰذا الحديث، حسن والمعاملة وكمال الأخلاق أن تأتي للناس بالشّيء الذي تحب أن يؤتى إليك، وهـٰذه قاعدة عظيمة.

بمعنى لو سألت ما هو الخلق الحسن مع الوالدة؟ طبّق الحديث أن تأتي لها الشّيء الذي تحب أن يؤتى إليك، يعني لو كنت أنت الوالدة، ما الذي تريد؟

ما الخلق الحسن مع من أشتري منه بضاعة، أن تأتي له الشّيء الذي تحبّ أن يؤتى إليك لو كنت أنت الذي تبيع.

زميلك ما المعاملة التي تحب أن يعاملك بها، وما الخلق الحسن الذي ترجوه منه أن تأتي إليه الشّيء الذي تحب أن يؤتى إليك.

فهـٰذا حقيقة قاعدة من أروع ما يكون في حسن المعاملة، فحسن المعاملة وكمال الأخلاق يكون بتحقيق هـٰذا الحديث، وهو أن يأتي للنّاس الشّيء الذي يحب أن يؤتى إليه، أي الذي يحب أن يتعامل النّاس معهم به ، مثل هـٰذا الحديث قوله ﷺ «لاَ يُؤمِن أَحدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لأخِيه مَا يُحبَّ لِنفسِه»، وقوله: «يحبّ لأخيه» هـٰذا فيما يخص القلب اتجاه الإخوان، والحديث الذي أورده الذّهبي هنا يتعلّق بالمعاملة الظّاهرة كيف تكون بين

المسلم وبين إخوانه، والشّاهد من الحديث قوله: «وَمَن بَايَعَ إمَامًا فأعطاه صَفْقَةَ يدِه وَثمرَةَ قَلبِه » يعني التزم له بالطّاعة والتزم بالعهد وبايعه ، فليطعه إن استطاع، «فإن جاء أحدٌ يُنازِعه فَاضرِبُوا عُنقَه»، وهـٰذا هو الشّاهد «إنْ جَاءَ أحدٌ يُنازِعُه»، يعني غدر وخرج عن العهد ونازع الإمام وغدر به، قال: «فاضربوا عنقه»، وهـٰذا الدّليل على أنّ هـٰذا العمل كبيرة ، لأنّ فيه حدّ وهو أن يقتل .

❖

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَّ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللهَّ، وَمَنْ يُطِعْ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

الشّاهد من الحديث «ومن يُطع الأَميرَ فَقد أَطَاعَنِي، وَمن يَعصِ الأَميرَ فَقدْ عَصَانِي» ، لأنّ النّبي عليه الصّلاة والسّلام جاءت عنه نصوص متكاثرة في الأمر بطاعة الأمير ، والسّمع له، والعلماء رحمهم الله بسطوا هـٰذه الأحاديث في مصنّفات خاصّة، وأفردوا لها أبوابا خاصّة لكثرتها في الكتب الجوامع ، ككتاب الإمارة في «صحيح مسلم»، ساق فيه كثير من الأدلّة في السنّة فيما يتعلّق بحقوق الوُلاة والسّمع والطّاعة لهم.

وينبغي أن يعلم المسلم هنا أنّ الذي أمر بالسّمع والطّاعة للأمير هو الذي أمر بالصّلاة، وهو الذي أمر بالصّيام، وهو الذي أمر بالحجّ، الذي أمر بالسّمع والطّاعة للأمير هو الذي أمر بهـٰذه الطّاعات؛ بل جاء في بعض الأحاديث ذكر السّمع والطّاعة للأمير مضموما إلى هـٰذه الطّاعات وأنّه من أسباب دخول الجنّة، كما ثبت عن النّبي ـ ﷺ ـ أنّه قال في حجّة الوداع في خطبة له، قال «اتّقُوا رَبّكُم وَصَلّوا فَرضَكُم، وَصُومُوا شَهرَكُم، وَأدُّوا زَكَاةَ مَالِكُم، وَأَطيعُوا ذَا أَمرِكُم تَدخُلُوا جَنّةَ رَبِّكُم»، فذكر طاعة وليّ الأمر مضمومة إلى الصّلاة والصّيام والزّكاة، ذكرها مضمومة لفرائض الإسلام وجعل كلّ ذلك من موجبات دخول الجنّة، قال: «تَدخُلُوا جَنّةَ رَبّكُم»، فالذي أمر بطاعة الأمير هو الذي أمر بالصّلاة وهو الذي أمر بالحجّ، وهو الذي أمر بالزّكاة، ولكن بسبب الأهواء التي تدخل النّفوس وتلج إلى الصّدور، يتضجّر بعض النّاس من الأحاديث التي تتعلّق بالسّمع والطّاعة لولاة الأمر، فتجده مثلا لو قرأ في صحيح مسلم، إذا قرأ كتاب الصّلاة يقرأ بصدر منشرح غير منزعج أبدا، وإذا قرأ كتاب الصّيام في صحيح مسلم لا يجد أيّ انزعاج بل يقرأ بإقبال وحرص ونهم ورغبة، فإذا قرأ كتاب الزّكاة كذلك الحال، الحج، وإذا وصل كتاب الإمارة، وجد في قلبه حسيكة هـٰذه بسبب الأهواء، أنّ الإنسان يجد تضجُّر، أو يسمع مثلا موعظة أو خطبة في حقّ الأمير تورد فيها الآيات والأحاديث فينزعج ويتضجّر، هـٰذا من الأهواء ، لأنّ الذي أمر بالسّمع والطّاعة للأمير، هو الذي أمر بالصّلاة، وهو الذي أمر بالصّيام، وهو الذي أمر بعموم العبادات، فلماذا يجد الإنسان في صدره

هنا وينشرح صدره هناك إلاّ لوجود الهوى، الهوى هو الذي يحرّك في النّفوس ما يحرّك.

والواجب على المسلم أن يطّرح الأهواء، وأن يكون ملزما لنفسه بالسنّة في كلّ أبواب الدّين، يكون ملزما لنفسه بالسنّة في كلّ أبواب الدّين، والسنّة خير وبركة، والأهواء خطر على الإنسان وضرر في دينه ودنياه.

ولهٰذا خروج الإنسان عن قواعد الشّريعة فيما يتعلّق بالسّمع والطّاعة للولاة ينشأ عنه اختلال الأمن ، واختلال الأمن ينشأ عنه عدم قرار النّاس في عبادتهم، فلا تؤدّى الصّلاة ولا يؤدّى الحجّ ولا يؤدّى الصّيام، ولا يطلب العلم، كلّ هـٰذه الأمور لا تؤدّى إلاّ مع قلق وخوف وعدم اطمئنان، تجد الإنسان قد يخرج للصّلاة وقد لا يخرج، يخشى على نفسه، يخشى على بيته، أمّا الحجّ ففيه خطر عظيم في الذّهاب إليه لاختلال الأمن، أمّا الطاعات الأخرى أيضا لا تتيسّر لاختلال الأمن، فالأمن يختل، والطّاعات لا تتيسّر للنّاس، ولا يتيسّر للنّاس أن يؤدّوا عبادة الله عز وجل بطمأنينة إلاّ بجماعة ولا جماعة إلاّ بإمام ولا إمام إلاّ بسمع وطاعة، ولهٰذا جاءت النّصوص متكاثرة بالسّمع والطّاعة «عَليكُم بِالسَّمعِ وَالطَّاعَة»، أحاديث كثيرة في هـٰذا الباب ،والواجب أن تُتلقّى هـٰذه الأحاديث بالقبول وانشراح الصّدر، وأن يعلم المسلم أنّ الذي قال هـٰذه الأحاديث هو الذي جاءت عنه أحاديث الصّيام، وجاءت عنه أحاديث الحجّ، فإذا كنتُ قبلتُ أحاديث الصّيام وأحاديث الحجّ وأحاديث الزّكاة وغيرها بانشراح صدر، فهـٰذه أيضا يجب أن نتلقّاها بانشراح صدر ، لأنّه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ لا يأمر إلاّ بخير ولا ينهى إلاّ عن شرّ، أمّا إذا دخلت الأهواء ودخلت الجاهليّة على الإنسان، وقال: لا كيف أسمع وأطيع وأنا ابن فلان، وأنا كذا وأنا الذي كذا، ولا يمكن أن أسمع أو أطيع، هـٰذه الجاهليّة، هـٰذه هي الجاهليّة ، وهـٰذه أعمال الجاهليّة، عدم السّمع والطّاعة والخروج على الجماعة، جماعة المسلمين.

࿇

وَقَالَ: «مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصبِرْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِن السُّلطانِ شِبرا مَاتَ مِيتَة جَاهِلِيَّة» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ

الخروج من السّلطان ولو قدرا يسيرا هو من أعمال الجاهليّة، ومن مات على ذلك مات على خصالهم، لأنّ الجاهليّة من شأنهم في هـٰذا الباب عدم السّمع والطّاعة، ويرى الواحد منهم أنّ سمعه وطاعته للأمير ينقص من قدره ، ويتنافى مع شأنه ومع مكانته ،وأنّه صاحب المكانة الفلانيّة والشّأن الفلاني ، فكيف يكون... ! هـٰذه هي الجاهليّة، لا يراعي مصلحة الأمّة ولا يراعي مصلحته، ولا يراعي ما يترتّب على خروجه من الفساد والشّر، وإنّما الذي أمام ناظريه أنّ مكانته لا يليق بها أن يكون منها سمع وطاعة للأمير، أمّا الأمور الأخرى والتّبعات والأضرار والمفاسد والأخطار التي تترتّب على عدم السّمع والطّاعة، كلّ هـٰذه لا يلتفت

إليها، فهـٰذه جاهليّة وهـٰذا من عمل الجاهليّة، فلو خرج من الطّاعة ولو شبرا، يعني ولو قدرا يسيرا، وأمرا قليلا ومات على ذلك، يعني مات ولم يتب من ذلك، مات ميتة جاهلية.

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الْجَمَاعَةِ شِبْرا فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلامِ مِنْ عُنُقِهِ» وَهـٰذا صَحِيحٌ مِنْ وُجُوهٍ عِدَّةٍ صِحَاحٍ.

وهـٰذا أيضا فيه خطورة الخروج ولو شيئا قليلا، وأكيد أنّه يترتّب عليه ما يترتّب من الانحلال واللّحوق بخصال الجاهليّة وأعمالهم وصفاتهم.

وَأَيُّ جُرْمٍ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تُبَايِعَ رَجُلًا ثُمَّ تَنْزِعَ يَدَكَ مِنْ طَاعَتِهِ وَتَنْكُثَ الصَّفْقَةَ وَتُقَاتِلَهُ بِسَيْفِكَ، أَوْ تَخْذُلَهُ حَتَّى يُقْتَلَ؟

هـٰذه خلاصة ذكرها المصنّف عندما أنهى إيراد هـٰذه الأحاديث قال: (**أيّ جرم أعظم من أن تبايع رجلا..**) إلى آخره، يعني على ضوء ما وقفنا عليه من النّصوص والأدلّة، أيّ جرم أعظم أن يكون الإنسان بهـٰذه الصّفة وبهـٰذه المصادمة والمخالفة لهـٰذه النّصوص العظيمة عن رسول الله ﷺ.

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنا السِّلاحَ فَلَيْسَ مِنّا» صَحِيحٌ

قوله: «**فَلَيْسَ مِنّا**» هـٰذا دليل على أنّ هـٰذا الأمر كبيرة «**مَن حَمَلَ علينا السِّلاحَ**» يعني من حمل علينا السّلاح وأشهره، وشقّ العصا، ونزع اليد من الطّاعة، وحمل السّلاح ، فقال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**فَليسَ مِنّا**».

الكبِيرَةُ الحَادِيَة والأرْبَعُون
تَصْدِيقُ الكَاهِن والمُنجّم

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

الكاهن والمنجّم كلّ منهما يدّعي علم الغيب، كلّ منهما يدّعي علم الغيب،ومثلهما العرّاف والرمّال، ومن يقرأ ما يسمّونه قارئ الكفّ، أوقارئ الفنجان، أو ما يسمّى بأهل الحظوظ، أو غير هؤلاء ممّن يدّعون علم

الغيب، ممّن يدّعون علم الغيب،والغيب أمر اختصّ به ربّ العالمين جلّ وعلا ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥]، فالغيب لله تعالى هو الذي يعلم الغيب، ويعلم ما يكون وما كان، ومالم يكن ولو كان كيف يكون، ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢]، هـٰذا أمر اختصّ به ربّ العالمين، سمع نبيّنا ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ امرأة تمدحه تقول في مدحها له: "وَ فِينَا رَسُول الله يَعلمُ مَا فِي غدٍ"، فغضب قال: «لاَ يَعلَمُ مَا فِي غَدٍ إلاَّ الله، لاَ يَعلمُ مَا فِي غَدٍ إلاّ الله»، فهؤلاء الكاهن والمنجّم والعرّاف والرمّال وأهل الضّرب بالحصى، وأيضا المشتغلون بالأباجاد حروف المعجم، ويرتّبونها ترتيبات معيّنة ومن خلال ذلك يدّعون معرفة علم الغيب، أو من يخطّ بالأرض، أو يطرق بالحصى، أو ينظر في كفّ الإنسان أو في غير ذلك، ويدّعي من خلال هـٰذه الأشياء وهـٰذه الأمور أنّه يعلم علم الغيب، فهـٰذا مدّع لعلم الغيب، وعلم الغيب لله تعالى، فمن صدّقه فقد كفر، وارتكب كبيرة من كبائر الذّنوب.

من صدّق الكهان أو صدق المنجّم أو صدق العرّاف أو صدق الرَّمَّال أو صدق أشباه هؤلاء فهو مرتكبٌ لكبيرة؛ بل وقع في الكفر -كما سيأتي في النصوص التي أوردها المصنف رحمه الله.

ثم أورد نصوصًا عامّة في البعد عن هـٰذه الأشياء. قال: (قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦]. وَقَالَ: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢]. وَقَالَ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن:٢٦]). فهـٰذه النّصوص العامة يُستفاد منها عدم تصديق هؤلاء، وأن تصديق من يدَّعي علم الغيب من كاهن أو منجّم أو عرّاف قُفُو من الإنسان بما ليس له به علم، أي علم يُحصَّل من خلال الكهانة أو من خلال التنجيم أو من خلال الضرب بالحصى أو من خلال الخط في الأرض أو غيرها؛ فكل منهم وكل من هؤلاء وكل مصدق لهؤلاء قافٍ لما ليس له به علم ومتبع للظن، فهـٰذه نصوص عامة في التحذير من هـٰذا الأمر، وسيأتي نصوصا خاصة في الباب.

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ» إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، رَوَاهُ عَوْفٌ، عَنِ ابْنِ سِيرِينَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنَهُ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ.

ثم أورد رحمه الله هـٰذا الحديث قال: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا».

العرَّاف: الذي يدَّعي معرفة الأمور، والعراف وصف جامع يتناول الكاهن ويتناول الْمُنجِّم ويتناول الرَّمَّال وأهل الضرب بالحصى وغيرهم، كلهم هؤلاء عرافون يدعون معرفة الأمور المغيبة ونحو ذلك.

والكاهن: هو من يتكهّن ويدّعي أنه يعرف الأمور المستقبلة بكهانته، "يوم كذا سيحدث لك كذا"، "يوم

كذا يموت كذا أو يمرض كذا أو يغنى فلان" أو غير ذلك.. بالكهانة.

فالعراف يتناول هؤلاء كلهم، وقيل العراف: هو من يدعي معرفة الأشياء المفقودة، والكاهن: يدعي معرفة الأشياء المستقبلة بكهانته. أما العراف: الذي يدعي معرفة الأشياء المفقودة الغائبة على الإنسان من مسروق أو غيره فيدعي معرفته، وكل منهما يتعامل بإدعاء علم الغيب، وعلم الغيب لله تعالى، ومُصدِّق الكاهن والعراف وأشباههم كافرٌ كما هو مبين هنا في الحديث قال: «فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»؛ لأن الذي أُنزل على محمد عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ هو عدم التصديق لهؤلاء، هـٰذا الذي أُنزل عليه، فمن صدقهم فقد كفر بالذي أُنزل على محمد عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ.

وَقَالَ ﷺ صَبِيحَةَ لَيْلَةٍ مَطِيرَةٍ: «يَقُولُ اللهُ عز وجل: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ، فَمَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَمَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

وهـٰذا من التّنجيم ومن أعمال أهل التنجيم، ولا يُصدَّقون فيما يكون منهم من أقوال بالتنجيم وبالنظر إلى النجوم أو إسناد الحوادث الأرضية للنجوم، لا يُسندونها إلى رب العالمين، لا يقول: إذا نزل المطر: "مطرنا بفضل الله ورحمته"، وإنما يقول: "مطرنا بنوء كذا وكذا"، فيربطون الحوادث الأرضية من أمطار وخيرات بالنجوم لا بالله، لا يقولون: "مُطرنا بفضل الله ورحمته"، "صلح نباتنا بفضل الله ورحمته"، وإنما يقولون: "بنوء كذا وكذا". وهـٰذا كما جاء في الحديث مؤمن بالكوكب كافر بالله، ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل:٨٣] أي بإضافتها لغير الْمُنعِم والْمُتفضِّل بها وهو الله تعالى، حتى فيما جعله الله سببا، النعمة تُضاف للمُنعِم وهو المتفضل وهو الله جل وعلا.

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

في بعض ألفاظ الحديث يأتي بدون "صَدَّقَه"، ولهـٰذا جمع العلماء بين هـٰذا الحديث والحديث الأول: أن من أتاه مصدقا مؤمنا به فهـٰذا كافر ليس بمسلم، ومن أتاه غير مصدق له؛ ولكن لاعتبار آخر أو لأمر آخر وقصده فبهـٰذا الإتيان وبهـٰذا القصد لا تُقبل منه صلاةٌ أربعين يوما.

وَقَالَ ﷺ: «مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

«اقْتَبَسَ» أي أخذ أو اقتطع، «شُعْبَةً» أي خصلة أو جزءًا «مِنَ النُّجُومِ»؛ أي من علم النجوم، وعلم النجوم هنا المراد [به]: علم النجوم المذموم؛ لأن علم النجوم على نوعين: علم تأثير، وعلم تسيير، فعلم التأثير هـٰذا الذي جاءت النصوص بذمه، أما علم التسيير وهو أن يعرف الطريق من خلال النظر إلى النجوم أو يعرف القبلة هـٰذا لا شئ فيه، هـٰذا النظر في النجوم لا شئ فيه، قال الله تعالى: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٦]، فلا شيء أن يعرف الإنسان قبلته أو طريقه من خلال نظره إلى النجوم، فـ«مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ» بتعلم هـٰذا العلم الذي هو علم التنجيم الذي يُدَّعَى فيه معرفة الأمور المُغيَّبة أو الحوادث الأرضية من خلال النظر إلى النجوم فمن فعل ذلك فقد «اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ»، جاء في بعض ألفاظ الحديث «زاد ما زاد» أي كلما زاد من هـٰذا الاقتباس زاد حظه من السحر؛ ولهـٰذا التنجيم يعدّ نوع من أنواع السحر.

الكبِيرَةُ الثَّانِيةُ والأرْبعُون
نُشُورُ المرْأَةِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي المَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ...﴾ [النساء:٣٤].

ثم ذكر رحمه الله هـٰذه الكبيرة (نُشُوزُ المَرْأَةِ) أي خروجها عن طاعة الزوج؛ لأنها مأموره بطاعته وله القوامة، له الطاعة، فهي مأمورة أن تكون مطيعة لزوجها، وهـٰذا شأن المؤمنات، فشأنهن أنهن ﴿قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ﴾ [النساء:٣٤]، فقانتة مطيعة لله تعالى وحافظة لبيت زوجها مطيعة له، قائمة بحقوقه. فالمرأة الناشز هي المرأة التي خرجت عن الطاعة، فالمرأة إذا خرجت عن الطاعة تكون بهـٰذا الخروج مرتكبة لكبيرة، وسيأتي معنا من النصوص ما يدل على فظاعة هـٰذا الأمر وكبره وما فيه من العقوبة والوعيد لفاعلته عند الله تعالى مما يدل على فظاعة هـٰذا الأمر وكبره.

والآية التي بدأ بها المصنف رحمه الله فيها تأديب المرأة الناشز؛ أي التي خرجت على الطاعة؛ طاعة الزوج، وأن الطريق في هـٰذا أن تؤدب بالأسهل فالأسهل؛ يعني يبدأ معها بالتأديب بالأسهل فالأسهل كما قال الله تعالى: ﴿فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي المَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾، أن يتدرج معها في معالجة هـٰذا النشوز، فيبدأ معها بالوعظ: يعظها اتقي الله يا أمة الله!، خافي الله، الله يقول كذا، الرسول ﷺ يقول كذا، لا يحل لك أن تفعلي هـٰذه الأمور، يكرر عليها الوعظ والتخويف بالله تعالى والتذكير، ويمضي في هـٰذه الطريقة واعظا مذكرا

ناصحا مبيّنا، فقد تكون هـٰذه المواعظ كافية في صلاحها وتركها لهـٰذا النشوز، أن يذكرها بوعيد الله تعالى، ونبيه ﷺ، وما يترتب على النشوز من خطأ، يبين لها، وهـٰذا يبين لنا فضيلة العلم ومكانة الإصلاح؛ ولهـٰذا العوام والجهال عندما يقع في البيوت شيء من النشوز ما يستطيع يعالج؛ لأنه لا يحمل علما ولا يحفظ نصوصا ولا يحفظ أدلة، بينما النصوص إذا ذُكِرَت فالقرآن له بركة، السنة لها بركة، فإذا ذُكِرَت النصوص بين أهل الإسلام وبسطت قال الله تعالى، قال ﷺ أينك من هـٰذه الآية، أينك من هـٰذا الحديث، اتقي الله، خافي الله، هـٰذا كلام الله، هـٰذا كلام رسوله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، الكتاب والسنة فيهما أبلغ زاجر وأعظم وعظ، والمرأة تحتاج إلى ذلك، أن تُذكر لها النّصوص، وإذا كان الرجل جاهلا بالأحاديث وجاهلا بالأدلة ليس عنده إلا مد اليد وهـٰذا خطأ، هـٰذا من الخطأ، لا يلجأ الإنسان إلى مد اليد وإلى الضرب؛ بل هـٰذا آخر ما يكون، آخر الدواء الكيّ، ولا يصار إليه ابتداءً؛ بل بعض حمقى العوام وجهال العوام يوصون به في أول ليلة من الزواج، أول ما تدخل عليها ابدأ بالضرب!! حتى تعرف رجولتك وتعرف شهامتك!، وبعضهم يقول: أول ما تبدأ في ليلة الزواج تأتي معك بديك أو بدجاجة تتركها معكم في الغرفة التي فيها الدخول على الزوجة وفي لحظة من اللحظات امسك رأس الديك واقطعه! حتى تعرف شدتك وقوتك وشهامتك!!، هـٰذا جهل العوام وسفه العوام!! هـٰذه الأمور كلها من الجاهلية ومن الجهل وقلة الدين، فلا يصار إلى ذلك، وإنما أول ما يبدأ الكلمة الطيبة والموعظة الخفيفة وذكر الآيات وذكر الأحاديث وكلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ.

ثم ينتقل بعد ذلك إذا جرّب إذا كرر ومر وقتا ووجدها لم تنتفع ولم تستفيد، وعظها بآية ثم وعظها بأخرى ثم ذكرها بحديث ثم ذكرها بحديث آخر، ولا يكتفي بمرة واحدة ويأتي بالآية سريعا ويقول: وعظتُها!، لا، الموعظة تحتاج إلى شيء من الصبر والإعادة والتكرار، أما أن يقرأ عليها الآية ثم بعد قراءة الآية بثانية يبطش بها، ويقول: وعظتها بالقرآن ووجدتها ما تنجر بالقرآن ولا تستفيد، قرأتُ عليها القرآن وما استفادت، لا، هـٰذا ما فعل المأمور به، وإنما يتأنّى ويصبر ويترفّق ويكرر عليها المرة تلو الأخرى، ثم إن وجدها معاندة وفعلا ناشز ولا تبالي ولا تسمع ولا تُصغي ومستهينة بالأمر يلجأ إلى الطريقة الثانية أو الدواء الثاني وهو: الهجر، والهجر يكون في المضاجع؛ يعني يترك المبيت معها في الفراش مدة بقدر ما تحتاج إليه من علاج، وبعض النساء قد لا يفيد فيها الهجر؛ يعني الموعظة والهجر ما يفيد مثل أحد العوام قيل له: اهجرها، قال: كم يوم يعني مثلا؟، قال: يعني عشرة أيام حسب حاجتها، قال: عشرة أيام تهجرها، قال: والله إذا هجرتها

عشرة أيام وانتهت العشرة أيام أحتاج أني آتي إليها وهي معطية لي ظهرها وأقبل رأسها حتى ترجع وتوافق؛ يعني ما يفيد فيها الهجر ولا ينفع!، فبعض النساء حتى هـٰذا الدواء ما يفيدها مما فيها من العناد والعنجلية وعدم الطواعية، ما يفيد فيها، فمثل هـٰذه الحالة يُؤتَى إلى المرحلة الأخيرة الذي هو آخر الدواء الكي، ثم أيضا إذا وصل إلى هـٰذه المرحلة مرحلة الضرب: أيضا الضرب له ضوابط في الشريعة «إِذَا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجه».

وغالب ما يحصل الضّرب في الوجه والعياذ بالله، وهـٰذا له سرٌّ وله سبب، غالبا الضّرب يكون في الوجه وله سبب وهو: أنّ المُشادّة التي تكون بين الزّوج والزّوجة أو بين المتخاصمَيْن مُشادّة بالكلام، والكلام يخرج من الفم، فالسبب الذي جاء الضّرر منه هو الفم ولهـٰذا اليد تتّجه إلى المصدر، إلى هـٰذا المكان الذي صدر منه ما أغضبه، فدائمًا الضّرب يتّجه إلى الفم وإلى الوجه يلطم الوجه أو يضرب الوجه؛ ولهـٰذا جاءت السنّة بالمنع من ذلك لأن غالبًا النّفس تتّجه إلى هـٰذا المكان قال: «إِذَا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجتنبْ الْوَجْهَ فَإِنَّ اللهَّ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»، وفي بعض الرّوايات: «على صورة الرّحمن»، فهـٰذا فيه النّهي الشّديد على أن يكون الضرب على الوجه، قرأت مرةً فتوى: امرأة أو رجل يستفتي أحد أهل العلم وفي قصة الفتوى أنّ زوجها ضربها بجُمع يده فهشّم أسنانها في غضبه عليها، أيُّ تأديب هـٰذا؟! هـٰذا دمار هـٰذا!، هـٰذا ليس تأديبا، أو ربّما يضربها على وجهها فيفقأ عينها!، هـٰذا ليس تأديبا! هـٰذا دمار!، فإذا لجأ الإنسان إلى الضّرب في مرحلة ضيّقة واضطر إليه بعد أمور وبعد محاولات فيضرب ضربًا يجتنب فيه الوجه وأيضا ضربًا غير مُبرِّح؛ يعني لا يكسر عظمًا ولا يُدمي جلدا، وإنما يكون ضربًا رفيقا يحقّق المقصود.

فعلى كلّ حال إذا حصل النّشوز يتدرّج في العلاج الأسهل فالأسهل بالموعظة ثمّ الهجر ثمّ الضّرب.

❀❀◊☙☙

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ، فَلَمْ تَأْتِهْ فَبَاتَ غَضْبَانًا عَلَيْهَا لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْه.

وهـٰذا دليل على أنّ النّشوز كبيرة، نشوز المرأة كبيرة، ومن نشوزها: تأبّيها عن طواعيّة الزّوج في الفراش، فإذا دعاها؛ دعا امرأته إلى فراشه «فلم تأته» يعني تأبّت وامتنعت، «فَبَاتَ غَضْبَانًا عَلَيْهَا» يعني بات الزوج غضبانا عليها لامتناعها عن الفراش، فإنّ الملائكة تلعنها، وهـٰذا دليل على أنّ هـٰذا الأمر من كبائر الذنوب؛ لأنّ اللّعنة لا تكون إلا في كبير.

[المتن]

وَفِي لَفْظٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ».

وهـٰذا في معنى ما سبق: «هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا»؛ يعني متأبيّة عليه وممتنعة وليست مهيَّأةً نفسَها له، وإنما معرضة عنه «هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ». وفي الحديث دليل على ضرورة اهتمام المرأة بفراش الزّوج وعنايتها به وتحسينها له، من حيث هي أن تتهيّأ وتترتب وتعتني بهـٰذا الأمر عناية كبيرة جدّا، فإذا كانت مهملة له، متأبيّة، ممتنعة، والزّوج لا يجد حاجته عندها ويبيت غضبان فإنها تلعنها الملائكة.

ﮋﮋ ◊ ﮊﮊ

وَفِي لَفْظٍ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهَا فَتَأْبَى عَلَيْهِ إِلَّا كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا زَوْجُهَا».

«**إِلَّا كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا**» يعني ربّ العالمين، وهـٰذا من الأدّلة على علوّ الله تعالى على خلقه.

وقوله: «**إِلَّا كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا**» هـٰذا كبير، يدل على أن الأمر كبير جدّا يسخط عليها ربّ العالمين، فمثل هـٰذه النّصوص لو أنّ المرأة قرأتها ثمّ قرأتها ثمّ تدبّرت فيها ثمّ تأملت تَصْلُح حالها ويستقيم أمرها، وكثير من النّساء تُؤْتى من جهلها، فإذا قرأت هـٰذه النّصوص ووقفت على هـٰذه النّصوص اعتدل أمرها واستقامت حالها؛ لأنّ الكتاب والسنّة فيهما الهداية لأقْوَم الطّرق وأحسن السُّبل، ولهـٰذا حقيقةً مثل هـٰذه النّصوص ينبغي أن يُعْتَنى بها في التّعليم ولاسيما مَن هنّ مقبلات على الزّواج، من أهمّ ما ينبغي أن تتعلّمه المقبلة على الزّواج أن تقف على هـٰذه النّصوص وعلى هـٰذه الأدلّة حتّى تدخل حياتها الزّوجيّة على بصيرة بالأمر عارفة بالحقوق، وكان الأمر قديما يُعلَّمنّ عند إقبالهنّ على الزّواج مثل هـٰذه الضوابط ومثل هـٰذه الأمور، ولهـٰذا العناية بها في المرأة تعليما وتوجيها وإرشادا حتّى تدخل هـٰذا الباب ببصيرة، ولا تعرّض نفسها لسخط الله ولا تعرّض نفسها للعنة الملائكة ولا تعرّض نفسها لعقوبة الله تعالى؛ بل تكون قائمة بحقّها مؤديّةً له على التّمام سائلةً الله تعالى الذي لها، تؤدّي الذي عليها وتسأل الله تعالى الذي لها.

ﮋﮋ ◊ ﮊﮊ

وَقَالَ ﷺ: «لاَ يَحِلُّ لامْرَأَةٍ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلا بِإِذْنِهِ، وَلا تَأْذَنُ فِي بَيْتِهِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وهـٰذا أيضا يدل على حقّ الزّوج، والصّيام يحصل به امتناع ما يكون بين الزّوجين، فلا يحلّ لها أن تصوم إلا بإذنه، تستأذنه تقول: اليوم تأذن لي أن أصوم أو لا؟ فإذا قال: نعم. تصوم ولا حرج عليها، أمّا أن تكون صائمة بغير إذنه ثمّ تتأبّى منه بحجّة الصّيام وتمتنع، لا، لا يحلّ لها، لا يجوز، يحرُم عليها، «**لاَ يَحِلُّ لامْرَأَةٍ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلا بِإِذْنِهِ**»، أمّا إذا كان غائبا فالأمر لا يحتاج إلى استئذان؛ لكن إذا كان شاهدا موجودا

في البلد قد يأتي بعد لحظة أو بعد ساعة أو نحو ذلك فلا يحلّ لها أن تصوم إلا بإذنه.

كذلك فيما يتعلق بالبيت، البيت بيته فلا يحلّ لها أن تستضيف فيه وأن تدعوَ إليه إلاّ بإذن الزّوج؛ لأنّه بيته ومكانه.

وَقَالَ ﷺ: «لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ غَيْرَ اللهِ لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا» صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

والمراد بـ: "السّجود" هنا: سجود التّحية؛ يعني أن تسجد له تحيّةً له؛ ولكن عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ يقول: «لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ غَيْرَ اللهِ لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا»، فالمراد بالسّجود هنا: سجود التّحيّة لا سجود العبادة؛ لأنّ من يقول أنّ المراد سجود العبادة سيكون المعنى ماذا؟ لو كنت آمرا أحدا أن يعبد أحدا لأمرت، هـٰذا لا يقوله النبي عليه الصّلاة والسّلام، فالمراد هنا سجود التّحيّة، أن تسجد له على وجه التّحيّة له؛ لكن هـٰذا الأمر لا يجوز، ولو كان مشروعا للأمّة لأمر النبيّ ﷺ كما أخبر في هـٰذا الحديث المرأة أن تسجد لزوجها، وهـٰذا يدلّ على عِظَم حقّ الزّوج وأنّ الواجب على المرأة أن تلقى زوجها بالاحترام، بالأدب، بالتّقدير، بالتّحية، حقُّه بلغ هـٰذا القدر «لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا»، فإذا كانت مطالَبَة بالاحترام والتوقير بدلالة هـٰذا الحديث فإنّ الواجب عليها أن تكون دائما على هـٰذا هو الطريق والأسلوب الذي تلقى به زوجها، تلقاه بالتّحيّة، بالاحترام، بالتّقدير، بالانبساط، بانشراح الصدر، بحسن الاستقبال، هـٰذا حقّ من حقوقه كما يدلّ عليه ويرشد إليه هـٰذا الحديث.

وَقَالَتْ عَمَّةُ ابْنِ مِحْصَنٍ وَذَكَرَتْ زَوْجَهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «انْظُرِي أَيْنَ أَنْتِ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ جَنَّتُكِ وَنَارُكِ» رَوَاهُ النَّسَائِي.

«انْظُرِي أَيْنَ أَنْتِ مِنْهُ» أي زوجك أين أنت منه؟ هل أنت منه امرأة مطيعة سمحة قائمة بالحقوق أم بخلاف ذلك؟ فيك النّشوز وفيك الإساءة، فيك عدم الطّواعيّة، أين أنت منه؟

«فَإِنَّهُ جَنَّتُكِ وَنَارُكِ» فطاعته من أسباب دخول الجنّة، وعصيانه من أسباب العقوبة واللّعنة والنّار، «أَيْنَ أَنْتِ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ جَنَّتُكِ وَنَارُكِ» ولهـٰذا جاء في الحديث أنّ النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام قال: «إذا صامت المرأة شهرها وصلّت فرضها وأدت زكاة مالها وأطاعت بعلها قيل لها ادخلي الجنّة من أيّ أبوابها شئت». فقال: «فَإِنَّهُ جَنَّتُكِ وَنَارُكِ» يعني إذا كنت مطيعة قائمة بحقوقه فلك الجنّة، وإذا كانت عاصية وناشزا وليست قائمة بالحقوق فهي عُرضة للعقوبة بالنّار.

﴿ ﴾

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لاَ يَنْظُرُ اللهُ لِامْرَأَةٍ لاَ تَشْكُرُ لِزَوْجِهَا وَهِيَ لاَ تَسْتَغْنِي عَنْهُ» إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ.

قوله في الحديث الذي مرّ: «فَإِنَّهُ جَنَّتُكِ وَنَارُكِ» هـٰذا يدلّ على عظم حق الزّوج، فالمسألة ليست بالهيّنة، المسألة جنّة ونار، وماذا يكون تقول بعض النساء- إذا لم أستجب أو إذا لم أطعه؟ لا، المسألة جنّة ونار ليست المسألة هيّنة فإنها هو: «جَنَّتُكِ وَنَارُكِ». والجنة لها طريقة في التعامل مع الزّوج، والنّار أيضا لها طريقة في التعامل مع الزّوج، وقوله: «أَيْنَ أَنْتِ مِنْهُ»؛ يعني انظري إلى الطّريقة التي تكونين عليها معه، ففيه طريقة تكون سببا للجنّة، وفيه طريقة تكون سببا للعقوبة والنّار، فالأمر ليس بالهيّن.

والحديث الآخر قال: «لاَ يَنْظُرُ اللهُ لِامْرَأَةٍ لاَ تَشْكُرُ لِزَوْجِهَا وَهِيَ لاَ تَسْتَغْنِي عَنْهُ»، «لاَ تَشْكُرُ لِزَوْجِهَا» شُكْر الزّوج من شُكْر الله و«لا يشكر الله من لا يشكر النّاس»، فإذا كانت المرأة بهـٰذه الصّفة لا تستغني عن الزّوج ثمّ لا تشكره؛ بل تكفر النّعمة كما قال في الحديث الآخر: «إنكنّ تَكْفُرْنَ العشير» يعني المرأة تطول أيْمَتُها وتتمنّى أن يأتيها الزّوج، وكلّ يوم تنتظر: يا ربّ، يا ربّ يسّر لي الزّوج ، ثمّ يُكرمها الله عز وجل بزوج، وهـٰذا الزّوج أيضا يحسن إليها ويكرمها وينفق عليها الطّعام والشّراب واللّباس، ثمّ إذا غضبت منه يوم من الأيّام نسيت طول الأيْمة التي كانت فيها بانتظار الزّوج، ونسيت نفقته عليها من طعام وشراب وكساء إلى آخره، وقالت بملء فِيها: ما رأيت منك خيرا قَطّ! ما رأيت منك حسنة! هـٰذا معنى «إنّكنّ تَكْفُرنَ العشير»، تطول أيْمتها وهي تتمنّى أن يأتيها زوج: يا ربّ أن ترزقني زوجا، ثمّ يكرمها بزوج، ثمّ ينفق عليها طعام، شراب، لباس، مسكن إلى آخره، ثمّ إذا نقص عليها حاجة أو طلبت شيئا تريده فلم يتيسّر أولم يتحقّق فتقول هـٰذه الكلمة بملء فيها: ما رأيت منك خيرا! لم أر منك خيرا! منذ تزوّجتك ما شفت الخير! كلمات تقولها بعض النّساء، فهـٰذا الحديث فيه بيان خطورة هـٰذا الأمر «لاَ يَنْظُرُ اللهُ لامْرَأَةٍ لاَ تَشْكُرُ لِزَوْجِهَا وَهِيَ لاَ تَسْتَغْنِي عَنْهُ» وهـٰذا يدلّ على أنّ هـٰذا الأمر أمرٌ عظيم.

﴿ ﴾

وَيُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِ زَوْجِهَا لَعَنَتْهَا المَلاَئِكَةُ حَتَّى تَرْجِعَ أَوْ تَتُوبَ» وَفِي البَابِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ.

خروج المرأة من بيت الزّوج لابدّ أن يكون بإذنه، وهـٰذا جزْء من الذي على المرأة من الطواعيّة والقوامة للرّجل، فليس لها أن تخرج من بيته إلاّ بإذنه، تستأذنه فإذا أذن تخرج وإلاّ فإنّه لا يحلّ لها، والحديث الذي

ساقه المصنّف لم يثبُت عن النّبي ﷺ.

الكبِيرَةُ الثّالِثَةُ والأرْبعُون
قاطِعُ الرَّحِم

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ [النساء:١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد:٢٢-٢٣].

(الكَبِيرَةُ الثَّالِثَةُ والأَرْبعُون: قَاطِعُ الرَّحِم)، يعني الذي يقطع رحمه ولا يصل الرّحم الذي أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى به أن يوصل، والرّحم هو الذي يجمع الإنسان به رحم؛ قرابة، وصلة الرّحم أيضا تتفاوت بحسب الأقرب فالأقرب، مثل ما سبق معنا «أمّك وأباك ثمّ أختك وأخاك ثمّ أدناك أدناك»، فالرّحم تُوصل ولا تُقطع، ويُعتنى بالرّحم بحسب الأقرب فالأقرب، يُعتنى بها بحسب الأقرب فالأقرب، ويصلهم طاعة لله، وتقرّبا له وطلبا لثوابه تعالى، وصِلةً بما أمر الله به تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يوصل، وفي صلة الرّحم ثواب عظيم ومنافع كثيرة في الدّنيا والآخرة، وفي قطيعة الرّحم شرّ عظيم ووعيد شديد على فاعله في الدّنيا والآخرة، أورد أوّلا قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ بفتح الميم أي واتّقوا الأرحام، والمعنى اتّقوا الأرحام بصلتها وعدم قطيعتها وليكن الواحد منكم واصلًا لها، هـٰذا معنى قوله: «واتَّقُوا الأرحَامَ»، و«اتَّقُوا الأرحام»، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾؛ أي واتّقوا الأرحام بالصّلة وعدم القطيعة والقيام بحقوق الرّحم، وأيضًا قول الله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾، فاللّعن يدلّ أنّ الأمر كبير.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ».

قوله: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ» هـٰذا دليل على أنّ الأمر كبيرة؛ لأنّ الكبيرة تُعْرف بأمور؛ منها: القول بعدم دخول الجنّة، وقوله: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ» هـٰذا دليل على أنّه كبيرة، وقد سبق أن مرّ معنا معنى هـٰذا الحديث، معنى «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ» ليس النّفي هنا لأصل الدّخول، نعم.

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

قوله: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»؛ أي أنّ صلة الرّحم من مقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر؛ لأنّ الله عز وجل من الإيمان به طاعته فيما أمر، والله أمر بصلة الرّحم، واليوم الآخر هو يوم الجزاء والحساب، الذي يصل رحمه يجد الثّواب العظيم، والذي يقطع رحمه يجد العقاب، فمن كان يُؤمن بالله ربًّا إلهًا مطاعًا ويؤمن باليوم الآخر وأنّه يوم حساب وعقاب ويجازى النّاس فيه على أعمالهم؛ فليصل رحمه.

❊❊❊

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُم قَامَتِ الرَّحِمُ فَقَالَتِ: هـٰذا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ. قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

ثمّ أورد هـٰذا الحديث؛ لأنّ الله تعالى لمّا خلق الخلق قامت الرّحم، قامت وتكلّمت، والله عز وجل قدير على كلّ شيء، فنطقت بهـٰذه الكلمات، قالت: «هـٰذا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ» يعني أنا مستعيذة بك من القطيعة، والعائذ هو طالب العَوْذ، طالب العوذ، فهي قالت: «هـٰذا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ» يعني استعاذت بالله تعالى من القطيعة -قطيعة الرّحم-، «قَالَ: نَعَمْ» أي قال ربّ العالمين: «نَعَمْ»؛ يعني أعاذها، وقال لها: «أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى» يعني رضيت بذلك، فهـٰذا فيه أنّه من وصل رَحِمَه وصله الله، ومن قطعها قطعه الله.

❊❊❊

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَجَلِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَجَلِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» فيه أنّ الصّلة، صلة الرّحم من أسباب بسط الرّزق يعني سعته والبركة فيه، ومن أسباب أن يُنسأ للإنسان في أجله يعني أن يطوّل له في أجله، بأن يبارك له في حياته وفي عمره، فالحديث أفاد أنّ صلة الرّحم من أسباب البركة في الرّزق وأسباب البركة في العمر.

❊❊❊

وَقَالَ ﷺ: «الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَقُولُ: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ» وَفِي لَفْظٍ: «يَقُولُ اللهُ: مَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ».

قول الرّحم هنا: «مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ» هو مبني على إخبار الله لها بذلك، «قَال ألا ترضين بكذا، قَالَت: بَلى»، فصارت هي تقول: «مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ»؛ لأنّ الله عز وجل قال: «أمَا ترضَين بِهـٰذا، قَالَت: بَلَى»، فصارت بعد ذلك تقول «مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي

قَطَعَهُ اللهُ»، وفي لفظ يقول الله: «مَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّه» أي قطعته.

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد:٢٥].

قوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ هو الشّاهد من الآية هـٰذه الكبيرة، وممّا أمر الله به أن يوصل الرّحم، وجاء فيها نصوص كثيرة في الكتاب والسنّة، فمن قطع هـٰذا الذي أمر الله به أن يوصل تعرّض للّعنة، كما في تمام الآية ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بنُ عَمْرٍو عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ڤ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللهُ: أَنَا الرَّحْمَنُ وَهِيَ الرَّحِمُ، مَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ»

وهو بمعنى ما سبق ويدلّ على مكانة الرّحم، وأنّ من وصل رحمه وصله الله، ومن قطعها قطعه الله.

فَنَقُولُ: مَنْ قَطَعَ رَحِمَهُ الْفُقَرَاءِ وَهُوَ غَنِيٌّ فَهُوَ مُرَادٌ وَلَابُدَّ، وَكَذَا مَنْ قَطَعَهُمْ بِالْجَفَاءِ وَالإِهْمَالِ وَالْحُمَقِ.

وهـٰذا بيان من المصنّف لبعض معاني قطيعة الرّحم، فمن ذلكم أن يكون الرّجل غنيّا ووسّع الله تعالى عليه بالمال فيقطع رحمه الفقراء، يقطع رحمه الفقراء؛ يعني لا يحسن إليهم ولا يتصدّق عليهم ولا ينفق عليهم من ماله، من هـٰذا المال الذي وسّع الله عليه فيه، فهـٰذا من قطيعة الرّحم، يغنيه الله ويوسّع عليه في المال ولا يبالي بالعوز الشّديد والفقر الشّديد والحاجة الشّديدة التي عليها قرابته؛ بل بعض النّاس ربّما أنّ أخاه القريب أو أخته القريبة تبيت اللّيالي طاوية لا تجد طعاما تأكله أو لباسا، أو لا تجد بيتا لتأوي فيه، ويكون عنده مال واسع جدّا وثراء؛ ولكنّه شَحيح لا ينفق، ولو تفكّر في هـٰذا الأمر، لو كان مقامها هي الغنيّة وهو الفقير لما رضي ذلك منها؛ لكنّه في غفلة المال وفي غفلة الثّراء لم يبال بهـٰذا الأمر، وإلاّ لو تفكّر قليلا وقال لو أنّ هـٰذا المال عندها، فهل أرضى لنفسي هـٰذه المعاملة؟، يدرك بهـٰذه الطّريقة خطأ نفسه، وشناعة ما هو عليه؛ لكنّه في غفلة المال وفي غفلة الثّراء يكون بهـٰذه الصّفة.

وكذلك من أنواع القطيعة ملاقاة القرابة بالجفاء والإهمال؛ يعني فظاظة وغلظة وكلمات سيّئة وقلّة أدب وسوء معاملة، فهـٰذا أيضا من القطيعة.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بُلُّوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالسَّلاَمِ».

يعني أنّ باب صلة الرّحم واسع، ومن أقلّ ما يكون في هـٰذا الباب: السّلام، أن يلقي السّلام، يبلّ الرّحم، حتّى تبقى الرّحم طريّة، وتبقى الصّلة قائمة، ولا تكون الوحشة بين الأرحام والقطيعة، فتُبل ولو بالسّلام، يعني بين الفينة والأخرى يلقي السّلام عليهم حتّى تبقى الصّلة، ويبقى التّواصل، فـ«بُلُّوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالسَّلاَمِ»، والسّلام هو أقل ما يكون، ومع السّلام الذي ينبغي للإنسان أن يجتهد في حسن الكلام وطيب المعاملة وحسن التودّد ومداومة الصّلة، والبعد عن الأذى، والتّعاون والمساعدة إلى غير ذلك ممّا تقتضيه الصّلة.

الكبِيرَةُ الرَّابِعَةُ والأَرْبَعُون
المُصَوِّرُ فِي الثِّيَابِ والحِيطانِ ونَحوِ ذلِكَ

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ».

التّصوير من الكبائر، التّصوير من الكبائر، ومن موجبات سخط الله وحلول اللّعنة، وقد ورد فيها نصوص شديدة في الوعيد عليه والتّهديد على فعله، سواءً صوّر الإنسان في ورقة، أو صوّر على حائط، أو في ثوب أو غير ذلك، فهـٰذا العمل هو من كبائر الذّنوب، وقد جاءت نصوصٌ كثيرة في التّهديد والوعيد للمصوّرين، والتّصوير والبناء على القبور هما في قديم الزّمان وحديثه أعظم أسباب الشّرك؛ ولهـٰذا قال النّبي عليه الصّلاة والسّلام لعليّ عندما بعثه، قال: «لاَ تَدعْ صُورة إلاَّ طَمَستَهَا، وَلاَ قَبرًا مَشيدًا إلاَّ سَوّيتَه»، فالبناء على القبور والتّصوير هـٰذا من أعظم أنواع الشّرك في قديم الزّمان وحديثه؛ ولهـٰذا أيضا قال النّبي ﷺ لزوجه أمّ سلمة لّما ذكرت ما رأت في الكنيسة التي رأتها في الحبشة، قال: «أُولئِكَ شِرارُ الخَلق، إذَا مَاتَ فِيهم الرَّجلَ الصَّالحَ بَنَوا عَلَى قَبرِهِ مَسجدًا، وَاتَّخَذُوا لَه صُورًا»، فاتّخاذ الصّور وكذلك البناء على القبور والقباب على القبور ونحو ذلك هـٰذا من أعظم أسباب الشّرك في قديم الزّمان وحديثه.

وأورد المصنّف في بعض النّصوص في التّحذير من هـٰذه الكبيرة قال: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ»، يعني كلّ صورة صوّرها يُطلب منه يوم القيامة أن ينفخ فيها الرّوح، «يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»؛ يعني أنت صوّرت هـٰذه الصّور فأحييها أُنفخ فيها الروح، «وَلَيْسَ بِنَافِخٍ»، فيُعذّب يوم القيامة بكلّ صورة صوّرها، كانت عشر أو كانت مئة أو كانت ألف أو ألفين، كلّما ازدادت الصّور ازداد

العذاب.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ. يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

أشد النّاس عذابا، الأشديّة هنا إمّا أن تكون مطلقة: فيكون هـٰذا الوعيد في حقّ من صوّر للشّرك؛ يعني قصدا للشّرك؛ لأن تعبد من دون الله، وأن تكون أصناما تعبد من دون الله.

أو تكون الأشديّة هنا بالنسبيّة، بالنسبة للذنوب والمعاصي التي هي مثل هـٰذه المعصيّة «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا**» في الكبائر التي دون الشرك «**المصوّرون**»؛ إلا إذا قُصد بالتصوير الذي هو تصويرها للتّعاون على الشّرك وإقامة الشّرك، فهـٰذه الأشديّة مطلقة قال: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ، يُقَالُ لَهُمْ:** » -أي يوم القيامة- «**أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ**» وهـٰذا هو معنى قوله: «**يؤمر أو يُكلَّف أن ينفخ فيها الروح**» يقال له: أحيي ما خلقت؛ يعني أحيي ما صوّرت، ثمّ يعذّب بكلّ صورة صوّرها، نعم.

وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْهَا: قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ سَفَرٍ، وَقَدْ سَتَرْتُ سَهْوَةً لِي بِقِرَامٍ فِيهِ تَمَاثِيلُ، فَهَتَكَهُ، وَتَلَوَّنَ وَجْهُهُ، وَقَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلق اللهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

السَّهْوَةَ: كَالْمَجْلِسِ وَالصُّفَّةِ فِي البَيْتِ.

والقِرَامُ: السِّتْرُ الرَّقِيقُ.

ثمّ أورد هـٰذا الحديث فيما ذكرته أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: (**قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ سَفَرٍ، وَقَدْ سَتَرْتُ سَهْوَةً لِي بِقِرَامٍ**)، (**والقِرَامُ: السِّتْرُ الرَّقِيقُ**) يعني الخفيف و" **السّهوة** ": قسم من البيت.

ومن فوائد الحديث: أنّ المرأة ينبغي لها أن تهيّئ البيت، وخاصّة إذا كان الزوج قادم من السّفر؛ ولهـٰذا أيضا نُهي أن يطرق الزّوج بيته ليلا قال: «**حتى تمتشط الشَّعِثة وتستحدّ المغيّبة**»؛ يعني تتهيأ في نفسها وتتهيأ أيضا في بيتها، تُهيئ البيت وتهيئ نفسها له، وهـٰذا من فوائد الحديث.

قالت: (**قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ سَفَرٍ، وَقَدْ سَتَرْتُ سَهْوَةً لِي بِقِرَامٍ فِيهِ تَمَاثِيلُ**) يعني تهيّأت، هيّأت البيت بمناسبة مقدم النّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ يعني أدخلت على البيت شيئا من التّحسين أو نحو ذلك.

(**فَهَتَكَهُ، وَتَلَوَّنَ وَجْهُهُ**)؛ لأنه كان فيه تماثيل؛ أي فيه صور، (**فتلوّن وجهه**)؛ يعني تغيّر وجه النبيّ عليه الصّلاة والسّلام (**وهتكه**) أي قطعه، وقال: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللهِ**».

وأيضا هنا يمكن أن نستفيد فائدة في المعنى السّابق في قوله: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا**» إذا كان صوّر قاصدا

المضاهاة فهو في الأشديّة على الإطلاق، أو صوّر قاصدا الشّرك وعبادة غير الله فالأشدية على الإطلاق.

أما إذا كان التصوير لأغراض أخرى دون ذلك فالأشديّة هنا بالنسبة للذنوب والكبائر التي دون الشرك، فلا يكون من كان كذلك أشد عذابا من المشرك، نعم، فالمسألة فيها تفصيل بحسب هـٰذه المعاني.

وَفِي السُّنَنِ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ: «يَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ فَيَقُولُ: إِنِّي وُكِّلْتُ بِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، وبِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبالْمُصَوِّرِينَ» صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

ثمّ ذكر هـٰذا الحديث في الوعيد للمصورين أنه يوم القيامة «**يخرج عنق من النّار**» يعني جانب طويل من النّار فيقول: «**إِنِّي وُكِّلْتُ بِكُلِّ مَنِ دَعَا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، وبِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبالْمُصَوِّرِينَ**»؛ يعني بهؤلاء الثّلاثة: المشرك والجبار المتكبّر والمصوّر، فهـٰذا العنق وُكِّل بهؤلاء؛ يعني أن يعذّبهم وأن يكون فيه تعذيب لهؤلاء، وهـٰذا العنق من النار يتكلّم بهـٰذه الكلمات حقيقةً كما أخبر النّبيّ ﷺ في هـٰذا الحديث.

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ الَّذِينَ يَصْنَعُونَ هـٰذه الصُّوَرَ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وهـٰذا دليل على أن هـٰذا الأمر كبيرة، أن المصوّرين الذين يصنعون الصور «**يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ**» وما هم بقادرين على ذلك فيُعَذّبون بكلّ صورة صوّروها.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْهما: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ، يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسًا، فَتُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وهـٰذا بمعنى ما سبق، ويدلّ على خطورة التّصوير: أنّ كلّ مصوِّرٍ في النّار «**يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسًا، فَتُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ**»؛ يعني نفس الصّورة التي هو صوّرها يجعل الله فيها نفسا وتكون من الوسائل التي يُعذَّب بها في النّار، وكلّ ما زاد عدد الصور التي صوّرها زاد عدد هـٰذه الأنفس التي يُعذَّب بها في نار جهنّم والعياذ بالله.

وقول النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام: «**كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ**» يجعل الإنسان يحتاط لنفسه في باب التّصوير غاية الاحتياط ولا يستهين ولا يفتح على نفسه باب الرُّخص، هـٰذه ليست بصورة وهـٰذه ليست بكذا ويبدأ يُدخل على نفسه باب التّساهل والتّهاون والاستهانة بالأمر والتهوين من شأنه، فالأمر ليس بالهيّن، عقوبات شديدة وعقوبات مغلّظة ووعيد شديد، فيجب على الإنسان أن يحتاط لنفسه بالبعد عن ذلك ولا يفعل شيئا منه إلاّ

إذا كان هناك ضرورة ملّحة تقتضي ذلك فإنه يفعله وهو كاره ليس راغبا ولا محبّا ولا منشرح الصدر، وإنّما يفعله كارها للضّرورة التي ألجأته إلى الصورة قال: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ».

وَقَالَ ﷺ: يَقُولُ اللهُ عز وجل: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ خَلْقًا كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً، فَلْيَخْلُقُوا شَعِيرَةً، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وهـٰذا فيه وصف هؤلاء بالظلم، وأنهم من أشدّ النّاس ظُلما؛ الذي يذهب ويخلق خلقا كخلق الله؛ يعني يضع صورا يضاهي بها خلق الله، وهؤلاء يُقال لهم يوم القيامة: اخلقوا حبّة، اخلقوا شعيرة، اخلقوا ذرّة. فما هم بخالقين، ولهـٰذا يُعذّبون يوم القيامة بكلّ صورة صوّروها.

وَصَحَّ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَعَنَ اللهُ الْمُصَوِّرَ».

واللّعن يدلّ على أن الأمر كبيرة من الكبائر.

الكبيرةُ الخامسةُ والأربعون
النمَّام

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم:١٠-١١].

ثم أورد المصنّف رحمه الله هـٰذه الكبيرة (النّمّام)، وأورد قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾، والنّمام: هو الذي يمشي بين النّاس بالقالة، القالة بين النّاس على وجه الإفساد والوقيعة بينهم وإيجاد العداوات، والنّمّام مفسد، يفسد بين الزّوجَيْن ويفسد بين الأخوين ويفسد بين الأقارب ويفسد في المجتمعات، والفساد الذي يترتب على النّمّام فساد عريض حتى قال بعض العلماء وهو يحي بن أبي كثير اليماني قال: **"يفسد النّمّام في ساعة مالا يفسده السّاحر في سنة"**، فالنّمّام له خطورة بالغة، والواجب أن يُتّقى النّمّام وتُتّقى النّميمة، فلا يكون الإنسان نمّاما ولا يكون الإنسان أيضا قابلا للنّميمة بحيث أنّه تؤثر فيه فينشأ الفساد، وهـٰذا المعنى واضح في قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ لا تطع المشّاء بالنّميمة لا تسمع له، لأنّك إذا أعطيته سمعك وأرخيت له سمعك، أفسد العلاقات التي بينك وبين إخوانك، أنت منهي عن طاعته وعن السّماع له؛ لأنّ السّماع له طاعة فهي التي توجد الفساد، والنّميمة من الكبائر.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

«لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ» أي من يمشي بالنّميمة بين النّاس مفسدا علاقاتهم، هـٰذا لا يدخل الجنّة، والمراد بنفي الدّخول ليس نفيا لأصله وإنّما نفيا لكمال الدّخول الذي هو الدّخول أوليا أو الدخول في المنازل العالية والرُّتب العليّة في الجنّة، وإلاّ النّميمة ليست مانعة من أصل الدّخول، فهو كبيرة فإذا كان النّمام موحّدا فإنّ مآله إلى الجنّة.

ﮋﮋ ◊ ﮊﮊ

ومَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِقَبْرَيْنِ فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ: أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِى بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

سبق الكلام على هـٰذا الحديث عند كبيرة "عدم الاستنزاه من البول".

ﮋﮋ ◊ ﮊﮊ

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَجِدُ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ، هُوَ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ».
وفِي لَفْظٍ: «تَجِدُ شِرَارَ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

ذو الوجهين هو وجها يتظاهر به بالإصلاح ووجها آخر وهو حقيقة مراده ومقصده الإفساد، فهـٰذا ذو الوجهين وهو من شرار النّاس وهو يدلّ على خطورة النّميمة والقّالة بين النّاس.

ﮋﮋ ◊ ﮊﮊ

وَعَنْ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «لاَ يُبَلِّغْنِي أَحَدٌ عَنْ أَصْحَابِي شَيئًا؛ فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْهِمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

هـٰذا السّند فيه كلام؛ لكن المعنى حقّ وهـٰذا الذي ينبغي أن يكون بين المسلمين، ما ينبغي أن يُبْلَغَ الإنسان عن أصحابه بشيء يؤثّر على العلاقة حتّى لو زلّ لسان الإنسان تجاه صاحبه بكلمة، فنقلُها لصاحبه ليس فيه خير وليس فيه فائدة بل هو يُوجِد العداوة والبغضاء، وبعض النّاس ينقل ما يسمع ويزيد عليه أو يعرضه بعرض يعني يجعل له وقعا في النّفس، فمثلا تكون صدرت من شخص تجاه أخ له كلمة جاءت يعني هكذا عَرَضًا ولم يُلق لها بالا وما كان قاصدا لها وإنما صدرت منه مثل ما يعبَّر الآن عفويا مثلا فسمعها هـٰذا النّمام فأقام عليها مثل ما يقولون: أقام من الحبّة قُبّة، فأقام عليها بناء كبيرا جدّا فذهب إلى صاحبه وقال: "أنا اليوم والله العظيم الذي لا إله إلاّ هو، بأذني سمعت زميلك وصاحبك والذي يدّعي أنّه صديقك ويدّعي أنّه معك سمعته بأذني يتكلم فيك بكلام شنيع وكلام سيّئ"، ويضع عليها كلاما طويلا جدّا، والخلاصة أنّ الكلمة

خرجت يعني ما كانت مقصودة وكانت خرجت هكذا؛ لكن بنى بناءً، يعطي أيمان وقسم: "والله أنا لك ناصح وعليك مشفق، والله ما أردت لك إلا الخير، وحتى تعرف مكانة هـٰذا الشّخص وكيف شأنه"، ويعطيه محاضرة طويلة والنتيجة أن العداوة تنشب، وهـٰذا عمل النّمام، عداوة بين هـٰذا وذاك، والآخر والثاني، ولا تقَر عينه ولا يأمن قلبه ولا يسعد إلا إذا نشبت العداوة، إذا نشبت العداوة ورأى نارها تتأجّج عندئذ يجد ....، فالعياذ بالله هـٰذا لا يطاع ولا يُستمع له ويوقف عن المواصلة في الحديث ويُقال له: إيش الثمرة الآن؟، لم تنقل لي هـٰذا الكلام؟، إيش الثمرة؟، إيش ترجو؟

وليكن أنّه قال، وأيش الفائدة أنّك تنقلها الآن؟، أنا عفوت عنه إن كان قال ذلك، هـٰذه تطفئ جمرة النّمّام وتجعله يكف؛ لكن إذا وجد الآذان مرخاة له، كلّ من ذهب إليه يسمع، فينشأ الفساد العريض.

ولهـٰذا ينبغي للإنسان أن يحذر هو من النّميمة، وأن يحذر أيضا من سماع النّمّامين، ولا يفتح لهم المجال، أوّل ما يبدأ بمحاضرته يقطعها عليه، أوّل ما يبدأ المحاضرة، أوّل ما يكتشف من كلامه أنّه يريد الكلام من هـٰذا القبيل يقول له: لحظة، ويدخله في موضوع آخر مفيد.

وَعَنْ كَعْبٍ قَالَ: "اِتَّقُوا النَّمِيمَةَ، فَإِنَّ صَاحِبَهَا لاَ يَسْتَرِيحُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ".

وَعَنْ كَعْبٍ قَالَ: "اِتَّقُوا النَّمِيمَةَ، فَإِنَّ صَاحِبَهَا لاَ يَسْتَرِيحُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ". الحديث مرّ معنا قريبًا بهـٰذا المعنى.

وَرَوَى مَنْصُورٌ عَنْ مُجَاهِدٍ: حَمَّالَةُ الحَطَبِ. قَالَ: "كَانَتْ تَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ".

يعني هـٰذا ممّا قيل في معنى قول: "حَمَّالَةُ الحَطَبِ"؛ يعني أنّها كانت تحمل النّميمة وتسعى بها؛ لكن كانت هي تحمل نميمةً هي شرّ نميمة وُجِدت؛ يعني نميمة بين النّاس للصّد عن النّبي عليه الصّلاة والسّلام ودعوته، فكانت تحمل شرّ نميمة، والنّميمة تبلغ أوج فسادها وأعلى وذروة فسادها عندما تكون صدّ عن الدّين، وعن الدّعاة إلى الدّين، وعن العلماء، هـٰذا أخطر ما يكون، عندما تكون بهـٰذه الرّتبة، صدّ عن العلماء وصدّ عن دعاة الهدى ودعاة السّنّة ودعاة الحقّ، فهـٰذه أشد ما يكون، وهي أضرّ من النّميمة التّي هي إيقاع بين المتحابَّيْن والمتآخِيَيْن.

الكبيرةُ السَّادِسَة والأرْبَعُون

النّياحة واللّطم

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اثْنَتَانِ هُمَا بِالنَّاسِ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

"النّياحة" برفع الصّوت بالبكاء، و**"اللّطم"** يعني لطم الخدود وكذلك شَقّ الجيوب عندما تحلّ بالإنسان المصيبة، هـٰذا من أعمال الجاهليّة، فمن أعمالهم: لطم الخدود وشقّ الجيوب والصّياح، فهـٰذه من أعمال الجاهليّة وهو من الكبائر، وقد جاءت نصوص كثيرة جدّا تدلّ على أنّ هـٰذا العمل من الكبائر وأنّه من أعمال الجاهليّة، منها هـٰذا الحديث الذي بدأ به المصنّف: «**اثْنَتَانِ**» أي خصلتان، «**هُمَا بِالنَّاسِ كُفْرٌ**» والمراد بـ**"الكفر"** هنا كفر دون كفر، ليس بالكفر النّاقل من الملّة؛ لكن وصفه بأنّه كفر دليل على أنّه من كبائر الذنوب.

«**الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ**» أي الوقيعة في أنساب النّاس بغيا وعدوانا.

«**وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ**» النّياحة رفع الصّوت بالبكاء والعويل، فهـٰذا من أعمال الجاهليّة وهو كفر.

وَفِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ لِمُسْلِمٍ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ أُلْبِسَتْ دِرْعًا مِنْ جَرَبٍ، وَسِرْبَالًا مِنْ قَطِرَانٍ يَوْمَ القِيَامَةِ».

وهـٰذا دليل على أنّ النّياحة كبيرة، وخُصَّت المرأة بالذّكر هنا، لا لأنّ الحكم مختص بالنّساء وإنّما لأنّ هـٰذا الغالب وجوده في النّساء، فلهـٰذا خُصّت بالذّكر، وإلاّ الحكم للرّجال والنّساء.

وقوله: «**النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ**»؛ يعني إذا حصل من المرأة نياحة ثمّ تابت وأنابت ورجعت، من تاب تاب الله عليه، إذا استوفت شروط التّوبة: بالنّدم والإقلاع وعدم العودة، فمن تاب تاب الله عليه ولهـٰذا قال: «**إِذَا لَمْ تَتُبْ**»، أمّا إذا ماتت على هـٰذه الكبيرة فإنّها والعياذ بالله تُقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب، و" **القطران**" هو النّحاس المذاب، و**"الجرب"** معروف، فتُقام يوم القيامة وهي على هـٰذه الصّفة، تُعذّب بذلك جزاءً لهـٰذه النّياحة التي كانت منها.

وَقَالَ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ».

قوله: «**لَيْسَ مِنَّا**» يعني أهل الإيمان الواجب، الحقيقين بها وجب عليهم من الإيمان، «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ**».

و«**دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ**» في مثل المصيبة؛ التّسخّط ورفع الصوت بالبكاء وعدم الرّضا بالقضاء ونحو ذلك من الأمور التي قد تصدر منهم، فيقول عليه الصّلاة والسّلام : ليس منّا من فعل هـٰذه الأمور عند المصيبة.

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ».

قوله: «إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ» هـٰذا لا يتنافى مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام:١٦٤]؛ لأنّ إذا كان هـٰذا الأمر بإقراره أو بوصية منه ورضي بذلك وأحبّه وربّى أهله وولده عليه فإنّه يُعذّب؛ لأنّه سبب في ذلك، أمّا إذا كان لا يرضى ذلك أو أوصى، وكان بعض السلف يوصي، يكتب في وصيّته: "أنّني لا أرضى وأبرأ إلى الله أن يُناح عليّ أو أن يُشقّ عليّ ثوبا أو أن يُضرب خدا" بعضهم كان يكتب في وصيّته ذلك، فإذا كان لا يرضى ذلك ولا يُقرُّ به وينهى عنه ويُحذّر منه فلا يضرّه بكاؤهم؛ لكن إذا كان يقرّ ذلك أو ربّاهم عليه أو مثلا أوصاهم به قال: "إذا أنا متُّ فلا تتركوا النّياحة وافعلوا كذا وافعلوا كذا وهـٰذا من صلتي" فهـٰذا يُعذّب ببكاء أهله، أمّا إذا كان لا يُقرّ ذلك ولا يرضاه وينهى عنه أو نحو ذلك فهـٰذا لا يضرّه كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام:١٦٤].

وَبَرِئَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الصَّالِقَةِ وَالحَالِقَةِ وَالشَّاقَةِ.

اتَّفَقَا عَلَى الأَحَادِيثِ الثَّلَاثَةِ.

هـٰذا كلّه برئ النّبيّ ﷺ منه، **"الصّالقة"** التي ترفع صوتها بالبكاء والعويل، و**"الحالقة"** التي تحلق شعرها أو تمزّق شعرها أو تُقطّع شعرها عند المصيبة، وهـٰذا يحصل من النّساء؛ نساء الجاهليّة، ومن فيهنّ جاهليّة يحصل منهنّ هـٰذا عند المصيبة، تمسك بشعر رأسها وتمزّقه وتقطّعه، وأيضا تمسك بثيابها **"الشّاقّة"** يعني التي تشقّ ثوبها تقطّعه وتمزّقه، وأيضا تضرب خدّها وجسمها بيدها، فكل هـٰذه الأعمال من أعمال الجاهليّة، والنّبيّ ﷺ برئ منها، وكلّ مسلم ينبغي ويجب عليه أن يبرأ من هـٰذه الأمور وألاّ يرضاها، وأن يُبغضها وأن يبغض فعلها، وأن يُحذّر منها وأن يُبيّن حرمتها.

الكبيرة السَّابعة والأربعون
الطَّعنُ فِي الأنساب

قَدْ صَحَّ أَنَّ ذَلِكَ كُفْرٌ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اثْنَتَانِ هُمَا بِالنَّاسِ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ».

(الطّعن في النّسب) كبيرة من الكبائر؛ لأنّ النّبيّ ﷺ عدّه كفرا ولهذا قال المصنّف: صَحَّ عن النّبيّ ﷺ أنّه

عدّ ذلك كفرا، وأورد على ذلك الحديث.

الكبيرة الثامنة والأربعون
البغي

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى:٤٢].

ثمّ ذكر كبيرة " **البغي** " وهي الاستطالة على النّاس ومجاوزة الحدّ والتّعدّي عليهم سواء في أعراضهم أو أموالهم أو أنفسهم؛ دمائهم، فالبغيّ كبيرة ومحرّم، وأورد عليه بعض الأدلّة منها قوله: ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فهـٰذا من كبائر الإثم، قال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فهـٰذا دليل على أنّه كبيرة. وقوله: ﴿يَبْغُونَ﴾ شامل للبغيّ على النّاس في أموالهم أو في أعراضهم أو في أنفسهم ودمائهم.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَّ أَوْحَى إِلَيَّ: أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

ثمّ ذكر هذا الحديث، وفيه التّحذير من البغيّ، وذِكْر العلاج الذي تكون به السّلامة منه، وهو علاج ناجع ودواء نافع: «أَنْ تَوَاضَعُوا»، "**التّواضع**" هو الذي يسلم به الإنسان من البغيّ والعدوان، قال عليه الصّلاة والسّلام: «إِنَّ اللهَّ أَوْحَى إِلَيَّ: أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»، وهذا دليل على أنّ الإنسان إذا خرج من حدّ التّواضع جرّه ذلك إلى البغي وإلى الفخر والخُيَلاء، فعدم تواضعه يجرّه إلى البغي على النّاس، والتّعدّي على حقوقهم وأموالهم وأعراضهم، ويرى أنّ الأموال التي عندهم -وهي حقّ لهم- ليسوا أهلًا لها وليست بحقّ لهم فيبغي، فالخروج عن التّواضع يُفضي لأمور منكرة وشنيعة كبيرة جدًا، ولهذا التّواضع دواء نافع ومفيد للإنسان، مفيد له في دينه وعبادته لله، ومفيد له أيضا في تعامله مع النّاس.

وفي بعض الآثارِ: "لَوْ بَغَى جَبَلٌ عَلَى جَبَلٍ، لَجَعَلَ اللهُ البَاغِيَ مِنْهُمَا دَكًّا".

وهـٰذا فيه خطورة البغي حتّى ولو من الجمادات، "لَوْ بَغَى جَبَلٌ عَلَى جَبَلٍ، لَجَعَلَ اللهُ البَاغِيَ مِنْهُمَا دَكًّا"؛ أي أنّ الباغي معرّض لعقوبة الله عز وجل وسخطه ومقته.

وَقَالَ ﷺ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُّ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ اللهُ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنَ

الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ».

وهـٰذا فيه خطورة البغي، وخطورة أيضا قطيعة الرّحم وهي كبيرة مرّت، وأنّه ذنب يُخشى على صاحبه أن تبادره عقوبة الله وأن تُعجّل له العقوبة في الدّنيا مع -أيضا- ما ادّخره الله له عقوبةً يوم القيامة، فتُجمع له العقوبتان: العقوبة الدنيويّة والعقوبة الأخرويّة.

وَقَالَ ابْنُ عَوْنٍ، عَنْ عَمْرِو بن سَعِيدٍ، عَنْ حُمَيْد بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنَ قَالَ: قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: قَالَ مَالِكٌ الرَّهَاوِيُّ: يَا رَسُولَ اللهِ! قَدْ أُعْطِيتُ مِنَ الْجَمَالِ مَا تَرَى، وَمَا أُحِبُّ أَحَدًا يَفُوقَنِي بِشِرَاكِ[نَعْلِي]، أَفَذَاكَ مِنَ البَغْيِ؟ قَالَ: «لَيْسَ ذَلِكَ مِنَ الْبَغْيِّ، وَلَكِنَّ الْبَغْيَّ بَطَرُ الحَقِّ -أَوْ قَالَ: سَفَهُ الحَقِّ- وَغَمْطُ النَّاسِ» إِسْنَادُهُ قَوِّيٌّ.

وهـٰذا من الأدلّة على حرص الصّحابة على الخير -ﭫ وأرضاهم- وشدّة ورعهم واحتياطهم لأنفسهم، فهـٰذا الصّحابيّ ﭬ كان جميلا وكان أيضا يحبّ أن يكون مظهره جميلا في لباسه وفي حذائه وفي هيئته؛ ولكنّه أراد أن يطمئنّ لنفسه، هل هـٰذا نوع من البغيّ والتّعدّي والتّطاول أو أنّه ليس بذلك؟، وهـٰذا من حرص الصّحابة وكمال رغبتهم في الخير، وبعدهم عن الشرّ، فجاء ﭬ إلى النّبيّ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ قال: (يَا رَسُولَ اللهِ! قَدْ أُعْطِيتُ مِنَ الْجَمَالِ مَا تَرَى، وَمَا أُحِبُّ أَحَدًا يَفُوقَنِي بِشِرَاكِ) يعني من حيث مظهره وهيئته ولباسه؛ يعني يحبّ أن يكون مظهره طيّب ومظهره حسن، وما يحبّ أن يفوقه أحد في هـٰذا، قال: (أَفَذَاكَ مِنَ البَغْيِّ؟) على النّاس، هل أكون بغيت وارتكبت البغيّ الذي حرّمه الله وجاء عليه الوعيد؟، هل أنا من هؤلاء؟ قال: «لَيْسَ ذَلِكَ مِنَ الْبَغْيِّ» ثمّ بيّن البغيّ، قال: «وَلَكِنَّ الْبَغْيَّ بَطَرُ الحَقِّ -أَوْ قَالَ: سَفَهُ الحَقِّ- وَغَمْطُ النَّاسِ» فمن كان بهـٰذه الصّفة فهو باغٍ، يردّ الحقّ لا يقبله وأيضا يؤذي النّاس بالسّفه وغمط الحقوق.

وَقَدْ خَسَفَ اللهُ بِقَارُونَ لِبَغْيِهِ وَعُتُوِّهِ.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَالخَشَاشُ: الحَشَرَاتُ.

البغي محرّم حتّى في بهيمة الأنعام، بهيمة الأنعام والحيوانات تعامَل بالرّحمة، ولا تعامل بالبغي والأذيّة، فهو محرّم، والبغي معرِّض صاحبه للعقوبة ولو كان في حيوان، لو كان بغيه في حيوان، فهـٰذه امرأة دخلت النّار في هرّة، لأنّها بغت على هـٰذه الهرّة، حبستها في حجرة في دارها، فـ«لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا» عندما حبستها،

«وَلَا هِيَ» أيضا «تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»، يعني الحشرات التي في الأرض، فبغت، يعني عاملت هذه الهرّة بالبغي، فدخلت النّار بسبب ذلك، فالبغي محرّم، ليس البغي على النّاس، بل حتّى البغي على الحيوانات، والحيوانات تُعامل بالرّفق وبالرّحمة وبالإحسان، ومن بغى ولو على حيوان تعرّض للعقوبة، وفي المقابل معاملة الحيوان بالرِّفق سبب للرّحمة، مثل ما جاء في قصة المرأة البغي التي دخلت الجنّة في كلب، وجدت كلبا اشتدّ به الظّمأ والعطش فرحمته، ونزلت في بئر وملأت خفّها ماءً، وأمسكت بخفّها بفمها وأخرجته وسقت هـٰذا الكلب، سقت هـٰذا الكلب فغُفر لها.

ابن القيّم رحمه الله نبّه في هـٰذا الحديث على تنبيه فريد جدّا، كثير من النّاس يقرأ الحديث ولا ينتبه له، قال: يدلّ هـٰذا الحديث على عظم حسنة التّوحيد، هل انتبهتم لهـٰذه الفائدة وأنتم تقرؤون الحديث؟ قال: هذا يدلّ على حسنة التّوحيد؛ لأنّ هذه المرأة قامت بهذا العمل الشّاق العظيم تريد ثواب الله مخلصة، لم تفعله أن يراها فلان ويمدحها، أو يراها علاّن فيثني عليها، ويقول: إنّها فعلت، لا، ما فيه إلاّ هي والكلب، فقام في قلبها رحمة وشفقة، ونزلت إلى البئر وقامت بهـٰذا العمل الشّاق المضني تريد ثواب الله، قامت به مخلصة موحّدة ترجو به ثواب الله، فهـٰذه حسنة التّوحيد، وإلاّ لو قامت بهـٰذا العمل وأشدّ منه وأشق منه، وهي تريد ثناء أحد عليها، وتريد مدح النّاس لها، ولم ترد وجه الله لا تُغفر ذنوبها به، لأنّ الله عز وجل لا يقبل من العمل إلاّ الخالص، فهـٰذه فائدة عظيمة وجليلة نبّه عليها ابن القيّم، قال: فهـٰذا يدلّ على عظم مقام التّوحيد وعظم فائدته، وإلاّ لو كانت هـٰذه المرأة قامت بهذا وأمثاله وأكثر منه لا تبتغي به وجه الله لم تكن مخلصة به لله، وإنّما للرّياء والسّمعة ولمدح النّاس ونحو ذلك لا يكون هـٰذا سببا للغفران، فهذا فيه دلالة على عظم مكانة التّوحيد.

❀❀◈❀❀

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ ﭬ: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وهـٰذا من البغي والعياذ بالله، يعني أن يتخّذ شيء فيه الرّوح غرضا، يعني هدفا للرّمي، مثل أن يأتي الإنسان بطير ويتعلّم عليه الرّمي وإصابة الهدف، يعني لا يريده ليأكله أو ليطعمه، وإنّما ليجعله غرضا للرّمي فهـٰذا من البغي، ولهـٰذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا»، يعني غرضا له للرّمي ولإصابة الهدف، فهـٰذا والعياذ بالله من البغي.

❀❀◈❀❀

وَقَالَ أَبُو مَسْعُودٍ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ» فَلَمْ أَفْهَمِ

الصَّوْتَ مِنَ الغَضَبِ، فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ». فَقُلْتُ: لاَ أَضْرِبُ مَمْلُوكًا لِي بَعْدَهُ أبدا.

وَفِي لَفْظٍ: فَسَقَطَ السَّوْطُ مِنْ يَدِيَّ مِنْ هَيْبَتِهِ.

وَفِي رِوَايَةٍ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ! هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ. فقال: «أَمَا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

هـٰذا الحديث فيه كمال رغبة الصّحابة في الخير وسرعة استجابتهم للرّسول عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، وكنت اقترحت على بعض الإخوة -وأذكر أنّ أحدهم قطع في هـٰذا البحث شوطا كبيرا- أن تُجمع الأحاديث التي من هـٰذا القبيل وتكون تحت عنوان (سرعة استجابة الصّحابة للرّسول ﷺ)، وهذا فيه نماذج كثيرة وفيه تربية للإنسان وتأديب له، بعض النّاس يُذكر له الحديث فيبدأ يتعلّل، ويحاول أن يوجد المخارج والاحتمالات، وربّما ولعلّ وهكذا، أمّا الصّحابة ﭫ ففيهم استجابة عجيبة وسريعة جدّا لما يأتيهم من توجيه من رسول الله ﷺ، هذا نموذج:

أبو مسعود ﭬ كان عنده غلام وقد أغضبه واشتدّ غضبه عليه، فأخذ سوطا وأخذ يضربه، وأخذ يضربه وهو مغضب، حتّى إنّه لمّا ناداه الرّسول عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ ما فهم الصّوت من الغضب الذي كان عليه، لهذا يقول: (فَلَم أفهَم الصَّوتَ مِنَ الغَضَب)، وهذا يدلّنا على أنّ الغضب يؤثّر على الإنسان، يؤثّر عليه في كلامه وفي فهمه وفي استيعابه، في أيضًا تقديره للأمور ووزنه للأشياء؛ ولهـٰذا أُمر من غضب أن يسكت، يعني أن يسكت فلا يتكلّم، وأن يجلس فلا يُباشر عملًا، وقت الغضب يكفّ لسانه ويكفّ جوارحه حتّى يسكن الغضب، أمّا كفّ اللّسان ففي قوله: «إِذَا غَضِبَ أَحَدكُم فَليَسكُت»، وأمّا في كفّ الجوارح ففي قوله: «إذا غضب أحدكم فليجلس، فإن سكن غضبه وإلاّ فليضطجع»، الشيطان يأتيه هنا في هـٰذا المقام يقول، يُغضبك بالكلام: تضطّجع؟! أين الرّجولة؟! ويجعله ما يضطجع، ويجعله ما يسكت، يقول: تقعد وأغْضَبَكَ؟! ولا وأعظم من ذلك تضطجع أيضا! أين رجولتك، وأين شهامتك؟! وينفخ فيه حتّى يجعله يفعل، ولهـٰذا الشّيطان من أعظم فرصه للدّخول على الإنسان في وقت الغضب، ولهذا أُمر الغضبان أن يكفَّ عن الأمرين معا: عن الكلام وعن الفعل، أمّا عن الكلام قال: «إذا غضب أحدكم فليسكت»، وأمّا عن الفعل: «إذا غضِب أحدُكم فَليَجلِس، فإِن سَكَن غَضبُهُ وإلاَّ فليَضطَّجع»، لا تباشر شيئا أبدا وقت غليان الغضب، لأنّ كلامك، حركاتك، تفكيرك، عقلك، كلّها غير موزونة وقت الغضب، فأنت تنتظر دقيقة، دقيقتين، ثلاث، إذا برد الغضب قم وتكلّم، وقت الغضب ما يمكن أن تقول: يا أخي الكريم أنت أخطأت

علي، ما تقول هـٰذا، وقت الغضب هـٰذا الكلام المعتدل الهادئ لا يمكن أن يخرج، يخرج سب، يخرج شتم، يخرج كلام غليظ، فإذا جلست وسكتّ إلى أن يذهب الغضب، تجدك تستطيع أن تتكلّم كلامًا معتدلا؛ ولهذا الإنسان مأمور وقت الغضب أن يمتنع عن الحديث، ويمتنع عن مباشرة العمل؛ لأنّ أيّ حديث وأي عمل سيكون غير معتدل، ولن يكون موزونًا.

أبو مسعود يقول: (**فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللهِﷺ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ**: «**إِنَّ اللهَ أقدَر عَليكَ مِنكَ علَيهِ**»، وهـٰذه أيضا فائدة وفيها تربية للإنسان، يعني إذا وجد نفسه متّجهة لإنسان بضرب أو نحو ذلك أو شدّة، يتذكّر قدرة الله عليه، يعني إذا كنت أنت قادرا على هذا فتذكّر قدرة الله عليك، وقد يسلّط الله عليك من هو أقوى منك، ومن هو أشدّ منك، وفي الأمثال قديما يقولون: "إذ كُنت ريحًا فقَد لاَقيتَ إعصَارًا"، قد يتسلّط عليك من هو أشدّ منك، فلا تستعمل قوّتك وشدّتك بقسوة، قال: «**إِنَّ اللهَ أقدَر عَليكَ مِنكَ علَيهِ**»، فقلت: (**لاَ أَضرِب مَملُوكًا لِي بَعدَهاَ أبدًا**)، لاحظ سرعة الاستجابة (**لاَ أَضرِب مَملُوكًا لِي بَعدَهاَ أبدًا**)، هـٰذه واحدة، والثّانية سقط السّوط من هيبة الرّسولﷺ، من هيبته سقط من يده السّوط، وهـٰذا من كمال أدبه وحُسن إيمانه ۏ وأرضاه، وفي رواية قال: (**هو حرّ لِوجهِ الله**)، ويعني هـٰذا من الأشياء التي هي آثار مباركة، فالنّبي ﷺ قال: «**إِنَّكَ لَو لَم تَفعَل لَلفَحتكَ النّار**»، هذا يدلّ على أنّ الأمر كبير وعظيم الذي هو البغي على المملوك بشدّة الضّرب.

ﮋﮋ ◈ ﮊﮊ

وَقَالَﷺ: «مَنْ ضَرَبَ غُلاَمًا لَهُ حَدًّا لَمْ يَأْتِهِ، أَوْ لَطَمَهُ، فَإِنَّ كَفَّارَتَهُ أَنْ يُعْتِقَهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

إذا ضربه أو لطمه فله العقوبة على ذلك، ولهـٰذه العقوبة كفّارة أن يُعتقه.

ﮋﮋ ◈ ﮊﮊ

وَقَالَ النَّبِيُّﷺ: «إِنَّ اللهَّ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وهـٰذا خطورة البغي، الذي يعذّب النّاس ويؤذي النّاس ويتسلّط على النّاس ويستطيل على النّاس، يعذّبه الله جلّ وعلا.

ﮋﮋ ◈ ﮊﮊ

وَمَرَّ رسول اللهﷺ بِحِمَارٌ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: «لَعَنَ اللهُّ مَنْ وَسَمَهُ» إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وهـٰذا من البغي، وسْمُ الحيوان في وجهه، وهـٰذا إيذاء له، فهـٰذا من البغي، فقال النّبي ﷺ: «**لَعَنَ اللهُ من وَسَمهُ**».

ﮋﮋ ◈ ﮊﮊ

وَقَالَ ﷺ: «مِنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدَةً بِغَيْرِ حَقِّهَا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ خَمسمائة عَامٍ» وَهَذَا عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ.

البغي ولو كان على إنسان كافر أيضا حرام، وكبيرة من الكبائر، ولهذا جاء في هذا الوعيد قال: «لَمْ يَجِدْ رَائحَةَ الجَنَّة»، فالمعاهد إنسان كافر بين المسلمين وبينه عهد، فمن قتله فهـٰذا بغي ، فالبغي محرّم، ولو كان المبغي عليه كافرا، وفيه هـٰذا الوعيد.

الكبِيرَة التَّاسِعة والأرْبَعُون
الخُرُوجُ بِالسَّيفِ والتَّكفِيرُ بِالكبَائِرِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦]

ثمّ ذكر هاتين الكبيرتين (الْخُرُوج بِالسَّيْفِ) يعني الخروج على جماعة المسلمين بالسيف، و(التَّكْفِيرُ بِالكَبَائِرِ) تكفير المسلمين بالكبائر، يكفِّرهم بفعلهم للكبائر، فهـٰذا الأمر من كبائر الذنوب.

وأورد أدّلة عامّة ثمّ أورد أدّلة خاصّة:

أولا : قول اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠]، فالخروج اعتداء والتّكفير اعتداء.

وأيضا قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦]؛ لأنّ الله عز وجل نهى عن ذلك، ورسوله ﷺ نهى عن ذلك، فهـٰذا ضلال مبين، مَن ارتكب هـٰذا الذي نهى الله عنه فقد وقع في هـٰذا الضّلال المبين.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ قَالَ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ: يَا كَافِرُ! فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا».

هـٰذا يدلّ على خطورة التّكفير فـ«مَنْ قَالَ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ: يَا كَافِرُ! فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا» يعني إن كان الذي قيل فيه أنّه كافر فهي له وإن لم يكن كذلك رجعت على القائل، فهذا يدلّ على خطورة التّكفير، إن كانت الكلمة منطبقة على من قيلت في حقّه ولا تكون منطبقة إلاّ إذا كان قالها بعلم وفهم، علم بالنّصوص والأدلّة وعلم بحال من أطلقها عليه، وهـٰذا يدلّ أنّ التّكفير ما يصير من كلّ أحد، وإنّما من أهل العلم وأهل الفهم وأهل الدّراية، أمّا عوام النّاس وأشباههم فليس لهم هـٰذا الأمر، فإذا قال: يا كافر! أو قال: فلان كافر، إن

كان كذلك وإلاّ رجعت عليه، فهـٰذا يدلّ على خطورة التّكفير.

وَقَدْ وَرَدَ فِي وَصْفِ الخَوَارِجِ آثَارٌ كَثِيرَةٌ، وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي تَكْفِيرِهِمْ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِيهِمْ: «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ» وَقَالَ فِيهِمُ: «شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، خَيْرُ قَتْلَى مَنْ قَتَلُوهُ».

ثمّ ذكر الخوارج لأنّهم مشهورون بهـٰذا الأمر، مشهورون بالتّكفير والخروج على الجماعة، وشقّ العصا، ونزع اليد من الطّاعة، فهم مشهورون بهـٰذا، فذكر بعض النّصوص التي جاءت في الخوارج، فذكر أنهم مستحلّون للدّماء والتّكفير، يكفّرون عثمان وعليًّا وجماعة من سادات الصّحابة، ثمّ ذكر الحديث في الخوارج أنّهم كلاب النّار.

فَالْخَوَارِجُ مبتدعة مُسْتَحِلُّونَ الدِّمَاءَ وَالتَّكْفِيرَ، يُكَفِّرُونَ عُثْمَانَ وَعَلِيًّا رضي الله تعالى عنهما وَجَمَاعَةً مِنْ سَادَةِ الصَّحَابَةِ ڤ

روى إِسْحَاقُ الأَزْرَقُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ ابْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْهُقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «الخَوَارِجُ كِلَابُ [أَهْلِ] النَّارِ».

رَوَى حَشْرَجُ ابْنُ نُبَاتَةَ: قَالَ: حَدَّثَنِي سَعِيدُ ابْنُ جُهْمَانَ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى ابْنِ أَبِي أَوْفَى وَهُوَ مَكْفُوفٌ فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: سَعِيدُ بْنُ جُهْمَانَ. قَالَ: مَا فَعَلَ وَالِدُكَ؟ قُلْتُ: قَتَلَتْهُ الأَزَارِقَةُ، فَقَالَ: قَتَلَ اللهُ الأَزَارِقَةَ، ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُمْ كِلَابُ النَّارِ. قُلْتُ: الأَزَارِقَةُ وَحْدَهَا؟ قَالَ: الخَوَارِجُ كُلُّهَا.

(الأَزَارِقَة) فرقة من الخوارج، والصّحابيّ هنا يسأل سعيد بن جُهمان يقول: (مَا فَعَلَ وَالِدُكَ؟) قال: قتلته الخوارج، (فَقَالَ: قَتَلَ اللهُ الأَزَارِقَةَ، ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُمْ كِلَابُ النَّارِ). (أَنَّهُمْ) أي الخوارج، والأزارقة فرقة منهم ، فكان فَهِم سعيد بن جُهمان أنّ الحديث نصّ للأزارقة نفسهم، والحديث في عموم الخوارج، والصّحابي ڤ قال: (أَنَّهُمْ كِلَابُ النَّارِ) يعني الخوارج الذين هؤلاء فرقة منهم، ولكن هـٰذا سعيد ما فهم، ظنّ أن الحديث نصّ في هؤلاء، فقال: (الأَزَارِقَةُ وَحْدَهَا) يعني نصّ عليهم؟ قال: (الخَوَارِجُ كُلُّهَا)، فالحديث عام في الخوارج كلّهم، الأزارقة وغيرهم.

الأثر له قصّة يعني له بقيّة، يمكن أن تُراجع في مصادر الحديث فيها فائدة، لأنّ سعيد هـٰذا لمّا انتهى ابن أبي أوفى من هذا البيان قال: (الأمراء فعلوا والأمراء فعلوا) فأعطاه نصيحة جميلة جدًّا ممكن أن تطالعوها.

يعني مع أنّه اكتوى بنار الخوارج وأذاهم؛ لكنّه مع ذلك عنده بعض الأمر، قال: "والأمراء فعلوا، والأمراء فعلوا" يعني هـٰذه النّصوص في ذمّ الخوارج، طيّب والأمراء فعلوا والأمراء فعلوا، كأنّه يستروح لهـٰذا الأمر، فعلى كلّ حال يمكن أن تطالعوا بقيّة القصّة.

روى حَمَّادُ بنُ سَلَمَةَ، حَدَّثَنا أَبُو حَفْصٍ، أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ الله ابْنُ أَبِي أَوْفَى وَهُمْ يقاتلُونَ الخَوَارِجِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «طُوبَى لِمَنْ قَتَلَهُمْ وَقَتَلُوهُ».

ثمّ أيضا هذا فيما يتعلّق بالخوارج، وأيضا قتال الخوارج وما فيه من الأجر، وأنّ من قتلهم أو قتلوه طوبى له، وهي الجنّة أو الثّواب العظيم من الله جلّ وعلا.

الكبيرةُ الخمسُون
أذيّةُ المسلِمين وشتمُهم

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات:١٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ الآية [الحجرات: ١١]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الهمزة:١].

ثمّ ذكر هـٰذه الكبيرة (أَذِيَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَشَتْمُهُمْ) والأذيّة والشّتم هما من الكبائر، ولا يختصّ بنوع واحد، فالأذيّة باليد والأذية باللسان والأذيّة كيفما كانت، وكذلك الشّتم أنواع وأصناف، فهذا كلّه من الكبائر؛ ولهـٰذا سنرى أنّ النّصوص التي يسوقها المصنّف هنا متنوّعة في ذكر أنواع وأفراد من الأذى الذي هو داخل في عموم هذه الكبيرة: إيذاء المسلمين والمؤمنين بغير ما اكتسبوا، التّجسّس والغِيبة، السّخريّة والاستهزاء، الهمز واللّمز، هـٰذه كلّها أفراد داخلة تحت الأذيّة والشّتم.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ الله مَنْ وَدَعَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ».

أي من اشتدّ في أذاه يتّقيه النّاس.

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ».

وَقَالَ ﷺ: «عِبَادَ اللهِ! إِنَّ اللهَ وَضَعَ الحَرَجَ إلاَّ مَنِ اقْتَرَضَ عِرْضَ أَخِيهِ، فَذَاكَ الَّذِي حَرِجَ أَوْ هَلَكَ».

هـٰذا جاء في الحجّ أيضا في خطابة النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام في الحجّ و«اقْتَرَضَ عِرْضَ أَخِيهِ» يعني تسلّط على عرض أخيه بالنّيْل منه والوقيعة، فمن كان كذلك فقد «حَرِجَ أَوْ هَلَكَ».

وَقَالَ ﷺ: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ عِرْضُهُ وَدَمُهُ وَمَالُهُ. التَّقْوَى هَهُنَا، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ» أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ.

في الحديث ذكر حرمة الدّماء والأموال والأعراض، ثمّ إشارة النّبيّ ﷺ إلى الصّدر دليل على أنّ الصّدر هو منبع الخير أو الشّرّ، وأنّ الإنسان ينبغي عليه أن يُصْلح قلبه وينقّيه، وفيما يتعلق بإخوانه يصلحه وينقّيه من الغلّ والحقد والحسد، ويَعْمُره بالخير والمحبّة والرّحمة والشّفقة والمعاني الطّيّبة حتّى تستقيم جوارحه تبعًا له.

وَقَالَ ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ وَلا يَخْذُلُهُ وَلا يَحْقِرُهُ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

هـٰذه كلّها تتنافى مع الأخوّة: ظلم الأخ وخذلانه في وقت الحاجة إليه واحتقاره وازدراءه، هـٰذا كلّه يتنافى مع الأخوّة الإسلاميّة.

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور:١٩].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ».

وَقَالَ ﷺ: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ» لَفْظُ مُسْلِمٍ.

«لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ» يعني شرّه وأذاه، الجار الذي لا يأمن جاره شرّه ولا يأمن أذاه، هو واقع في هـٰذه الكبيرة وله هـٰذا الوعيد «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ».

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «واللهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ». قِيلَ : مَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ».

وَفِي لَفْظٍ عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحَيْنِ: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَبْدٌ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ».

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلا يُؤْذِ جَارَهُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

مثل ما سبق، هـٰذا من مقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر، وكثيرا ما يأتي مثل هٰذا في النّصوص " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يفعل كذا أو فليفعل كذا " لأنّ هـٰذه الأعمال الصّالحة والبعد عن الأعمال السيّئة هو من مقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر.

✿✿◊✿✿

وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ». روى الأَعْمَشُ، عَنْ أَبِي يَحْيَى مَوَلَى جَعْدَةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْهُ يَقُولُ: قِيلَ: يَا رَسُولَ الله! إِنَّ فُلاَنَةَ تُصَلِّي اللَّيْلَ وتَصُومُ النَّهَارِ، وَفِي لِسَانِهَا شَيْءٌ، تؤْذِي جِيرَانَهَا، سلْطة، فَقَالَ: «لاَ خَيْرَ فِيهَا هِيَ فِي النَّارِ» صَحَّحَهُ الحَاكِمُ.

وهـٰذا –والعياذ بالله– فيه خطورة الأمر على المرأة وكذلك الرّجل الذي هو سلْط أو سلْطة على الجيران بالكلام والوقيعة والسبّ والشّتم وغيبة والنّميمة والسّخرية، حتى لو كانت من تفعل هذا أو يفعل هذا يُصلّي ويصوم فمثل ما قال: «**لاَ خَيْرَ فِيهَا هِيَ فِي النَّارِ**» مصلّيّة وصائمة محافظة على العبادة، لكنّها كانت سلطة؛ يعني لسانها سليط، تقع في جاراتها وفي النساء وتغتاب وتقع في الهمز، فذُكر للنّبيّ ﷺ من حالها وصلاتها قال: «**لاَ خَيْرَ فِيهَا هِيَ فِي النَّارِ**» لأنّها تؤذي جيرانها أي بلسانها، فهـٰذا يدلّ على خطورة هـٰذا الأمر وأنّه من الكبائر.

✿✿◊✿✿

وَقَالَ ﷺ: «اذْكُرُوا مَحَاسِنَ مَوْتَاكُمْ، وَكُفُّوا عَنْ مَسَاوِئِهِمْ» صَحَّحَهُ الحَاكِمُ.

ذكر النّاس بالخير وعدم الوقيعة فيهم بالسبّ ونحوه يشمل الأحياء والأموات؛ ولهذا قال عليه الصّلاة والسّلام: «**اذْكُرُوا مَحَاسِنَ مَوْتَاكُمْ، وَكُفُّوا عَنْ مَسَاوِئِهِمْ**».

✿✿◊✿✿

وَعَنْ أَبِي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْهُ: أَنَّه سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ دَعَا رَجُلًا بالكُفْرِ، أَوْ قَالَ: عَدُوَّ الله، وَلَيْسَ كَذلكَ إلاَّ رَجَعَ عَلَيْهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وهـٰذا من الأذى، بل هو من أشدّه، أن يرميه بالكفر أو يقول عنه: عدوّ الله أو يا عدوّ الله، ونحو ذلك هـٰذا من أشدّ الأذى.

✿✿◊✿✿

صَفْوَانُ بنُ عَمْرٍو، عَنْ رَاشِدِ بنِ سَعْدٍ وَابنِ جُبَيْرٍ، عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلاَءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلاَءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ».

وهـٰذا حديث طويل سبق أن مر معنا، سبقت الإشارة إليه، وهو في صحيح البخاري ومسلم، واقتصر المصنف على الشاهد، أناس رآهم النبي ﷺ «هُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ،» أي بأظفارهم «فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلاَءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحومَ النَّاسِ وَيَقعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ» هـٰذا يدلّ على خطورة هـٰذا الأمر.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْكَبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِّ! وهَلْ يَشْتِمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

سب الرجل لوالديه سواء كان تسببا أو ابتداء كبيرة، تسببا في هـٰذا الحديث أن يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه، هـٰذا من الكبائر، أو أن يسب والديه ابتداء بأن يتوجه إليهما مباشرة، باللعن والسب فهـٰذا في كبائر الذنوب، سواء سب والديه ابتداء وهو أشنع، أو سب والديه تسببا بأن يسب أبا غيره فيرجع السب على أبيه، فهـٰذا من الكبائر. والصحابة ڤ قد قام في نفوسهم شناعة هـٰذا الأمر وفضاعته قالوا: وهل يسب الرجل والديه؟ لا يتصور، قال: «يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ» يعني يرجع السب إلى نفسه، ومع شناعة هـٰذا الأمر وإدراك الرعيل الأول شناعة بلغ ببعض الناس والعياذ بالله أن يسب والد ابنه، يعني يسب نفسه، إذا غضب من ابنه قال: الله يشتم والديك، بعضهم وصل به الموصل إلى هـٰذا الأمر، إذا غضب من ابنه يشتم نفسه، وهـٰذه كلها من الحماقات والسفه وقلة الدين.

وَفِي لَفْظٍ: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِّ! كَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ».

وَقَالَ ﷺ: «لا يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلا بِالْفِسْقِ وَلا يَرْمِيهِ بِالْكُفْرِ إِلاَّ ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وَقَالَ ﷺ: «لا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

الكبيرة الحادية والخمسون
أذية أولياء الله تعالى ومعاداتهم

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَّ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُّ فِي الدنيا والآخرة﴾ [الإسراء:٣٦].

ثم ذكر هنا أذية الأولياء ومعاداتهم؛ بالاستقامة والصلاح والديانة والمحافظة على العبادة مع أنهم داخلون فيما سبق لـٰكن أرد المصنف أن يخصهم بالذكر هنا لأنه ما لهم من حق وعظم ما لهم من مكانة ولم يعرفوا إلا بالصلاح والديانة والاستقامة والمحافظة على الطاعة ولا يجزم لأحد بعينه أنه من الأولياء لـٰكن قوله: (أَذِيَّةُ أَوْلِياء الله تَعَالى) يعني فيما يظهر للناس لا على وجه التزكية لأحد بعينه والجزم بأنه من الأولياء لا يجزم ولـٰكن من اشتهر بالصلاح وعرف بالخير والاستقامة ولا يعهد عنه إلا الصلاح هـٰذا أذيته أشد ومعاداته أشد وقد ورد فيه نصوص خاصة، قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَّ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُّ فِي الدنيا والآخرة﴾.

❀❀◇❀❀

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ». وَفِي لَفْظٍ: «فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

هـٰذا يدلّ على خطورة معاداة أولياء الله، وقد دلّ هـٰذا الحديث بسياقه أنّ أولياء الله على رتبتين تعرف الرتبتان من فهم الحديث:

قال: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه» فالرتبة الأولى وهي رتبة المحافظة على الفرائض وهي درجة المقتصدين، وهؤلاء من أولياء الله، المقتصد الذي يفعل الواجب ويترك المحرم، والرتبة الأعلى من هـٰذه جاءت بعد؛ قال: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل» فهـٰذه رتبة أعلى زاد المحافظة على الفرائض والبعد عن المحرمات المسابقة للخيرات والرغائب والمستحبات فهـٰذه رتبة أعلى.

وكل منهما من أولياء الله المقتصد والسابق بالخيرات، فمن عرف عنه البعد عن المحرمات والمحافظة على الفرائض والواجبات وأيضا عُرف عنه المحافظة عن السنن والمستحبات وظهر منه الخير، فمعاداته وأذيته أشد من أذية غيره من أفراد المسلمين.

❀❀◇❀❀

وَفِي الْحَدِيثِ: «يَا أَبَا بَكْرٍ! إِنْ كُنتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ» يَعْنِي: بَعْضَ فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ.

✿✿✿✿

الكبيرة الثانية والخمسون
إسبالُ الإزار تعززًا ونحوه

قَالَ اللهُ تَعَالى: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان:١٨].

ثم ذكر هـذه الكبيرة، كبيرة (إِسْبَالُ الْإِزَارِ تَعَزُّزًا وَنَحْوُهُ) يعني نحو التعزز يعني يجر إزاره على وجه التعزز وعلى وجه الخيلاء أو على وجه الفخر، (قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾) أي مختالا فخورا معجبا بشخصك وبنفسك، وادة اللباس إذا كان فاخرا قد يفضي على الإنسان ما يكون عليه من تميز عن الآخرين يدخل عليه شيء من الفخر والخيلاء، فهـذا من الكبائر، ومما يجر الإنسان إلى الفخر والخيلاء ما جاء النهي عنه في الشريعة من إسبال الإزار على ما سيأتي والإشارة إليه في بعض الأحاديث التي ساقها المصنف رحمه الله.

❀❀◊❀❀

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا أَسْفَلَ مِن الْكَعْبَيْنِ مِن الْإِزَارِ فَفِي النَّار».

وهـذا الحديث ليس فيه ذكر للخيلاء، وإنما فيه ذكر للعمل نفسه وهو إسبال الإزار، وجعله تحت أسفل الكعبين، فالحكم متعلق بالعمل نفسه ولم يذكر معه الخيلاء، ولهـذا استفاد بعض أهل العلم من هـذا الحديث أن إسبال الإزار محرّم حتى لو كان على غير الخيلاء؛ لأن هنا لم يذكر الخيلاء إنما قال: «مَا أَسْفَلَ مِن الْكَعْبَيْنِ مِن الْإِزَارِ فَفِي النَّار»، وفي بعض الأحاديث جاء ذكر الخيلاء.

وهـذا الحديث الذي فيه مجرد ذكر الإسبال بناء الحكم عليه له نظائر، ولهـذا أذكر الشيخ عبد العزيز بن باز سئل: كنت أسبلت إزاري أو تركت إزاري مرخا ومسبلا ولكنني لم أفعل ذلك على وجه الخيلاء ، فهل هذا جائز أو أنه محرم؟

فقال الشيخ رحمه الله بعد أن أورد مثل هـذه الأحاديث وقال: هي تدل على تحريم الإسبال مطلقًا؛ يعني سواء كان على وجه الخيلاء أو بدون خيلاء، ولو زعم صاحبه إنه لم يُرد الكبر والخيلاء.

أما إن قصد بذلك التكبر فالأمر في ذلك أشد لقوله ﷺ «**من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه**» الأمر أشد إذا كان جره للخيلاء، أما إن كان إسبالا ويزعم أنه ليس للخيلاء فهو محرم لعموم هـذه الأدلة، مثل الدليل الذي بدأ به المصنف وأدلة أخرى ساق طرفا منها الشيخ عبد العزيز رحمة الله عليه وأيضا أهل العلم ممن قرروا ذلك.

❀❀◊❀❀

وَقَالَ: «لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا».

وهـٰذا يدل على أنه إن جره بطرا وخيلاء وكبرا هـٰذا أشد من مجرد الإسبال، فأفسبال عن خيلاء، وقد يكون ليس على الخيلاء، وسيأتي كلام جميل للمصنف ختم به هـٰذه الكبيرة، سنقف عليه في تمام الكلام على هـٰذه الكبيرة.

❀❀◊❀❀

وَقَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ».

هـٰذا الكلام يدل على الخطورة الشديدة لمن يجر إزاره ويرخيه قال: (الْمُسْبِلُ) أي إزاره ، وفيه وعيد شديد، فمن يسمع هـٰذا الحديث ثم يذهب إلى الخياط ويقول له: مدّد الثوب إلى أن يلمس الأرض، وإذا وجد الثوب فوق الكعب يغضب ويقول: لا، لا أرضاه ولا أقبله، وهو يسمع هـٰذا الحديث هـٰذا دليل على خيلاء، شاء أم أبى، ولو قال : أنا لست من أهل الخيلاء، هـٰذا دليل على الخيلاء، لأن الكبر رد الحق، فإذا بلغه هـٰذا الحديث (لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) لو كان يسترخي، كما جاء في حديث أبي بكر قال: إن إزاري يسترخي وإني أتعاهده، قال: «**إنك لست ممن يفعله خيلاء**» يعني يسترخي من غير قصد ثم يتعاهد رفعه، لـٰكن الذي يذهب وتعمد ويقصد، وإذا كان فوق الكعب غضب، فهـٰذا حتى وإن زعم أنه لا يفعله خيلاء ففي الحقيقة أنه يغالط نفسه في مثل هـٰذا القول.

❀❀◊❀❀

وَقَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ رَأْسَهُ، يَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ؛ إِذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

هـٰذه عقوبة معجلة لهـٰذا المختال الفخور، المعجب بحلته والمعجب بنفسه، والعجب داء خطير جدا، ومرض فتاك، يقول الشيخ حافظ في منظومته الآداب:

والعجب فاحذره إن العجب مجترف أعمال صاحبه في سيله العرم

يعني شبه العجب بالسيل الجارف الذي يجترف كل ما أمام، العجب خطير جدا على الإنسان، في غاية الخطورة، وهـٰذا الرجل خرج يمشي في حلة تعجبه نفسه مختالا «خَسَفَ اللهُ بِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

❀❀◊❀❀

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرو ﭬ، عَن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «الْإِسْبَالُ فِي الْإِزَارِ وَالْقَمِيصِ وَالْعِمَامَةِ، وَمَنْ جَرَّ (مِنْهَا) شَيْئًا خُيَلَاءَ، لَمْ يَنْظُرِ الله إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». رَوَاهُ أَبُو دَاودُ وَالنَّسَائِيُّ بإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

يعني ليس الحكم خاص بالإسبال في الإزار بما أسفل الكعبين من الإزار؛ بل في العمامة والسروال والمشلح .. ، وكلّ ما يلبسه الإنسان؛ الحكم شامل.

وَقَالَ جَابِرٌ بْنُ سليم: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «إِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ فَإِنَّهَا مِنَ المَخِيلَةِ، وَإِنَّ الله لَا يُحِبُّ المَخِيلَةَ». صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

المَخِيلة هي الخيلاء، وقد جاء في الحديث: «الْبس مَا شِئتَ وَكُلْ مَا شِئتَ مِن غَيْرِ إسرَافٍ وَلا مَخِيلَةٍ» يعني لا تُسرف، ولا -أيضا- تكون من أهل الخُيلاء؛ فالمَخِيلة والخُيلاء خطيرة جدا.

أحد العلماء يقول في المخيلة كلمة جميلة جدا، في أضرارها، قال: "المخيلة تضرّ بالنفس حيث تُكسبها العُجب، وتضر بالآخرة حيث تُكسب الإثم، وتضرّ بالدّنيا حيث تُكسب مقت الناس". مقت الناس للرجل الذي فيه المخيلة.

قال: «إِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ فَإِنَّهَا مِنْ المَخِيلَةِ..» لاحظ الحديث وتمعن معناه، قال: «إِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ فَإِنَّهَا مِنْ المَخِيلَةِ، وَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ المَخِيلَةَ» فجعل الإسبال من المخيلة، دعك ممن ثوبه أو إزاره ليس مسبلا ولكنه يسترخي، أو مثلا إزار قد ينحلّ رباطه وينزل ثم يعيده، مثل ما تلبس أنت في الحج، تجده مع طول المشي استرخى فتفاجأ أحيانا أنه نزل عن الكعب وأنت لا تريد ذلك، فإذا انتبهت رفعته.

هـٰذا ليس من المخيلة وليس أمرا اخترته أو طلبته أنت بنفسك، وهذا الذي كان من أبي بكر ﭬ.

أما من يعرف النصوص ويعرف الأدلة ويقف على الأحكام والوعيد الشديد بالنار "لا ينظر الله إليه"، "له عذاب شديد"، ثم يذهب ويقول: فصّل لي الثوب وليكن ملامسا للأرض. يضع الخياط يده أو إصبعه عند الكعبين فيقول: "هنا؟" يقول: "لا لا أسفل أسفل" إلى أن تنزل المتر وتلامس الأرض يقول: هنا مناسب، هنا جيد، ويعرف النصوص ويعرف الأدلة، ثم يقول: لا هذا ليس من المخيلة ؟! فلنقرأ الحديث، قال: «إِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ فَإِنَّهَا مِنْ المَخِيلَةِ.. »

الحافظ ابن حجر رحمه الله في كتابه (فتح الباري) ذكر قولا لبعض أهل العلم أن إسبال الإزار إذا كان عن غير خُيلاء لا يحرم وإنما يكره، وبيّن رحمه الله أن المُتجه هو التحريم، يعني حتى وإن كان يدَّعي صاحبه أنه

على غير وجه الخيلاء، قال: المتجه هو التحريم وليس الكراهة، لماذا؟

ذكر أمورا أربعة، قال:

يتجه المنع لكونه إسرافا.

ويتجه المنع لكونه تشبهًا بالنساء؛ لأن المرأة مأمورة بالإرخاء لسبب وهو ستر قدمها، فهي مأمورة لسبب، لمقصد شرعي فهي مأمورة بأن تستر قدمها.

والأمر الثالث قال: يتجه المنع لأن فيه ملامسة للنجاسة. وأورد أثر ابن عمر قال: "ارفع ثوبك فإنه أتقى لقلبك وأنقى لثوبك" فقال هـٰذا الأمر الثالث.

قال: ويتجه المنع -وهذا الأمر الرابع- أيضا في الإسبال من جهة أخرى، وهي كونه مظنّة الخيلاء، وأورد حديثا نظير حديث جابر بن سليم.

ونقل كلاما عظيما لابن العربي أُسمعكموه لحُسنه وجماله وفهمه في بابه؛ يقول ابن العربي: "لا يجوز للرجل أن يجاوز بثوبه كعبه، ويقول: لا أجره خيلاء؛ لأن النهي قد تناوله لفظًا -يعني تناول من أرخى ثوبه لفظا، قال: «من جر إزاره»- ولا يجوز لمن تناوله اللفظ حكما أن يقول: لا، أمتثله لأن تلك العلة ليست فيّ؛ فإنها دعوة غير مسلّمة، بل إطالته ذيله دال على تكبره" انتهى ملخصا يقول ابن حجر.

قال ابن حجر معقّبا: "وحاصله أن الإسبال يستلزم جرّ الثوب، وجرّ الثوب يستلزم الخُيلاء، ولو لم يقصد اللابس الخيلاء، ويؤيّده ما أخرجه أحمد بن منيع من وجه آخر عن ابن عمر في أثناء حديث رفعه، قال: «وإياك وجر الإزار فإن جرّ الإزار من المخيلة»، استشهد بهـٰذا الحديث وهو نظير حديث جابر بن سليم الذي بين أيدينا.

من أحب أن يقف على هذه الفائدة العظيمة فليرجع إلى فتح الباري للحافظ ابن حجر المجلد العاشر الصفحة ٢٦٤.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ يُصَلِّي مُسْبِلًا إِزَارَهُ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اذْهَبْ فَتَوَضَّأْ». فَذَهَبَ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: «اذْهَبْ فَتَوَضَّأْ». فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَالَكَ أَمَرْتَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ؟ ثُمَّ سَكَتَّ عَنْهُ؟، قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ يُصَلِّي وَهُوَ مُسْبِلٌ إِزَارَهُ، وَإِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ صَلَاةَ رَجُلٍ مُسْبِلٍ» رَوَاهُ أَبُو دَاودَ، وَهُوَ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وهـٰذا الحديث أيضا يدلّ على خطورة المسبل إزاره، وأن هـٰذا الأمر قد يكون سبب للضرر عليه في عبادته

وفي صلاته كما هو واضح في الحديث.

ﮁﮁ◊ﮂﮂ

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ إِزَارِي يَسْتَرْخِي إِلَّا أَنْ أَتَعَاهَدَهُ، فَقَالَ: «إِنَّكَ لَسْتَ مِمَّنْ يَفْعَلُهُ خُيَلَاءَ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

لاحظ الفرق العظيم بين كلمة أبي بكر وكلمة من يُسبل ويقول: أنا لست من أهل الخُيلاء، لاحظ الفرق، حتى نُدرك فقه الصحابة وقصور هؤلاء.

يعني من الناس من يقول: أنا مسبل، لكن لا أفعل هـٰذا خُيلاء، فهـٰذا نوع من الفقه وهو فقه أعوج، وانظروا إلى فقه الصحابة ﭫ.

أبو بكر لما سمع الحديث «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ما قال: الحمد لله أنا لست من أهل الخيلاء، ما قال هـٰذا، رأسا سأل النبي -عَلَيهِ الصَّلاة والسَّلام- عن قضية خشي أن تكون داخلة في الموضوع، وقال: (يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ إِزَارِي يَسْتَرْخِي) وفرق بين (إزاري يسترخي) وبين شخص يذهب ويقول: فصّل لي الثوب إلى أن يلمس الأرض، فرق بين هذا وذاك.

قال: (يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ إِزَارِي يَسْتَرْخِي إِلَّا أَنْ أَتَعَاهَدَهُ) وهـٰذا يدل على أنه مهتم بالقضية، مزعجته.

كل ما استرخى وانتبه له رفعه، قال: (إِنَّ إِزَارِي يَسْتَرْخِي) الإزار أنتم تعرفونه مثل الذي يُلبس في الحج وتلفه بهذه الطريقة، مع طول المشي تجده ينزل، ليس مثل الثوب، الثوب لا يسترخي لأنه ثابت على الكتف، لو مشيت آلاف الكيلومترات ما يسترخي، لكن الإزار مع طول المشي يبدأ ينحل إلى أن ينزل، فيحتاج في كل فترة ترفع إلى أعلى، فيقول: (إِلَّا أَنْ أَتَعَاهَدَهُ) يعني أنا منتبه للمسألة وحريص على ألا يسترخي، وكلما استرخى وانتبهت رفعته، فكان يسأل عن هذه القضية فقال: (إِنَّ إِزَارِي يَسْتَرْخِي إِلَّا أَنْ أَتَعَاهَدَهُ. فقال: «إِنَّكَ لَسْتَ مِمَّنْ يَفْعَلُهُ خُيَلَاءَ»).

فتجد بعض الناس يفصّل الثوب إلى أسفل الكعب ويقول: أنا لا أفعله خيلاء، وأن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر كذا. أين أنت من أبي بكر؟ يعني هـٰذا حقيقة يجني على نفسه ويغالط نفسه ليبرّر لهـٰذه المعصية التي هو يمارسها، والواجب إذا كان يريد أن يأتسي بأبي بكر ﭬ أن يكون بهـٰذه الصفة قال: (أَتَعَاهَدَهُ) فأين التعهد من شخص أن يُرخي ثوبه إلى أن يلامس الأرض وينزل أسفل الكعبين؟

ﮁﮁ◊ﮂﮂ

وَقَالَ ﷺ: «إِزْرَةُ الْمُؤْمِنِ إِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ».

وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِزْرَةُ الْمُسْلِمِ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ، وَلَا حَرَجَ أَوْ لَا جُنَاحَ - فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَعْبَيْنِ، مَا كَانَ أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَمَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إِلَيْهِ» رَوَاهُ أَبُو دَاودَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

هذا الحديث فيه «**اِزْرَةُ الْمُسْلِمِ إِلَى أنصاف السَّاقين، وَلَا حَرَجَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَعْبَيْنِ**»، المهم ألا ينزل أسفل الكعبين، وإذا كان فوق الكعب سنتيمتر، اثنين، ثلاثة، أربعة، إلى أنصاف الساقين هذه أزرة المؤمن.

أظن ذكرت لكم قصة الشّباب أو لم أذكرها؟ أتذكرونها؟ يعني مرة كانوا يستهزئون، ثم تحولوا إلى أقصار الفضيلة؛ لأن الغرب فعل ذلك -نسأل الله العافية-.

وليس فقط إلى الكعب، قصروا الثياب من تحت يعني قطعوها بالمقص وبشكل مقرف وبذيء جدا وقبيح (شرشروها) بالمقص وأصبحت مشوهة ولبسوها مثلهم؛ لأن موضة الغرب هكذا.

ولما لبس المسلم إزارا عملا بهذا الحديث سخروا منه، ولما لبس أولئك قلّدوهم، هـٰذه مصيبة، مصيبة عظيمة جدا.

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: "مَرَرْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ - ﷺ- وَفِي إِزَارِي اسْتِرْخَاءٌ؛ فَقَالَ: «يَا عَبْدَ اللهِ! ارْفَعْ إِزَارَكَ». فَرَفَعْتُهُ، ثُمَّ قَالَ: «زِدْ». فَزِدتُّ، فَمَا زِلْتُ أَتَحَرَّاهَا بَعْدُ". رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

الآن نستمع إلى الخاتمة الحقيقة جميلة. فيها خلاصة جيدة من الذهبي رحمه الله.

وَكُلُّ مَن اتَّخَذَ فرْجيَّة تَكَادُ أَنْ تَتمَسَّ الْأَرْضَ، أَوْ جبَّة، أَوْ سَرَاوِيل أَوْ خفاجيَّة، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي الْوَعِيدِ الْمَذْكُورِ إذا فعله ... زجر عنه.

قال: (زجر عنه) يعني ما فعله على وجه الكبر، ولـٰكن عادة البلد ، قال: (إذا فعله زجر عنه).

... والله أعلم.

هذه خلاصة بديعة جدا فعلا، هـٰذه الخلاصة من يجمع النصوص التي في الباب يصل إليها ويجد أنها نتيجة لجمع هذه النصوص والأدلة، فإذا كان خيلاء فهذا داخل في الوعيد المذكور، وإذا كان لا يفعله وإنما لعادة البلد يُزجر ويُنهى ويُمنع من ذلك، ويُخبَر أنه لا يحل له، محرم، لعموم الأدلة الواردة في ذلك.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس السادس

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد..

الكبِيرَةُ الثّالِثَةُ والْخمْسُون
لِبَاسُ الْحرِيرِ والذّهبِ لِلرِّجالِ

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ لَبَسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبِسْهُ فِي الْآخِرَةِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَقَالَ ﷺ: «إِنَّمَا يَلْبِسُ الْحَرِيرَ مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ. الْخَلَاقَ: النَّصِيبَ.

هـٰذه الكبيرة تتعلّق باللّباس، وقد مرّ معنا أيضا كبيرة أخرى تتعلّق باللّباس، والأصل في اللّباس الحلّ، كما ورد «**كُل ما شئت والبس ما شئت من غير إفراط ولا مخيلة**» الأصل فيه أن يلبس الإنسان ما شاء، ويكون مثل أهل بلده في لباسهم، ولا يتميّز بشيء، ولكن يجب عليه أن يجتنب من اللّباس ما خالف الشّرع، كالإسبال مثلا، أو كلبس الحرير فيما يتعلّق بالرّجال، أو التزيّن بالذّهب والفضّة فيما يتعلّق بالرّجال، فالأصل في اللّباس الحل إلاّ ما جاء الشّرع بالمنع منه والنّهي عنه، وهنا هـٰذه الكبيرة تتعلّق باللّباس، لبس الحرير ولبس الذّهب للرّجال، أمّا للنّساء فهو حلال، كما سيأتي في الحديث القادم والحديث الأوّل والثّاني، فيهما دلالة على أنّ هـٰذه الكبيرة، على أنّ هـٰذا العمل كبيرة، إذ في الحديث الأوّل قال: «**لَم يَلبَسهُ فِي الآخِرة**» وفي الحديث الآخر قال: «**لاَ خَلاَقَ لَهُ فِي الآخِرة**»، أي لا نصيب له.

وَقَالَ ﷺ: «حُرِّمَ لِبَاسُ الذَّهَبِ والْحَرِيرِ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي وَأُحِلَّ لِإِنَاثِهِمْ» صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

وَقَالَ حُذَيْفَةُ: "نَهَانَا رَسُولُ الله ﷺ أَنْ نَشْرَبَ فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَأَنْ نَأْكُلَ فِيهَا، وَعَنْ لِبْسِ الْحَرِيرِ وَالدِّيبَاجِ وَأَنِ نَجْلِسَ عَلِيهِ" رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ. وَقَالَ ﷺ: «مَنْ شَرِبَ فِي آنِيَةِ الْفِضَّةِ إِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَثَبَتَ أَنَّهُ ﷺ رَخَّصَ فِي الْحَرِيرِ لِلْحَكَّةِ، وَفِي مِقْدَارِ أَرْبَعِ أَصَابِعَ، وَفِي سِنِّ الذَّهَبِ وَنَحْوَهُ. فَمَنْ لَبَسَ خلعَةَ الْحَرِيرَ أَوْ كَلُوثَةَ الزَّرْكَشِ[١]، أَوْ طُرُزَ الذَّهَبِ[٢]، أَوْ خَوَائِصَ الذَّهَبِ؛ فَقَدْ دَخَلَ فِي الْوَعِيدِ الْمَذْكُورِ وَفَسُقَ بِذَلِكَ.

أي أنّه لا يحل من ذلك إلاّ ما كان للضّرورة وبقدر الضّرورة، سواء في الذّهب، كالسن الذّهب إن أمكن

١ كَلُوثَةَ الزَّرْكَشِ: ما تزركش به الثياب من خيوط الحرير.

٢ طُرُزَ الذَّهَبِ: جمع طراز، وهو ما توشى به الثياب من الذهب.

غيره وصار إليه، أو إذا كان بالإنسان حكّة، أو أذى في بدنه، اضطرّ إلى لبس الحرير في الموضع الذي فيه ضرر، أي بقدر الحاجة.

الكبيرة الرابعة والخمسون
العبدُ الآبقُ ونحوه

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا أَبَقَ الْعَبْدُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةٌ». وَقَالَ: «أَيُّمَا عَبْدٍ أَبَقَ فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّةُ». رَوَاهُمَا مُسْلِمٌ.

وَرَوَى ابْنُ خُزَيْمَةَ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِبْنِ ‌ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَقْبَلُ اللهُ لَهُمْ صَلَاةً وَلَا يَصْعَدُ لَهُمْ عمل: الْعَبْدُ الْآبِقُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى مَوالِيهِ، وَالْمَرْأَةُ السَّاخِطُ عَلِيهَا زَوْجهَا حَتَّى يَرْضَى، وَالسَّكْرَانُ حَتَّى يَصْحُوَ».

وَفِي الْمُسْتَدْرَكِ لِلْحَاكِمِ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ ‌ؓ مَرْفُوعًا: «لَعَنَ اللهُ مَنْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ».

وَفِي الْمُسْتَدْرَكِ لِلْحَاكِمِ عَلى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ مِنْ حَدِيثِ فُضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ مَرْفُوعًا: «ثَلَاثَةٌ لَا تَسْأَلَنَّ نَفسًا عَنْهُمْ: رَجُلٌ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ وَعَصَى إِمَامَهُ فَمَاتَ عَاصِيًا، وَعَبْدٌ (أبقَ) آبِقٌ فَمَاتَ، وَامْرَأَةٌ غَابَ عَنْهَا زَوجُهَا وَقَدْ كَفَاهَا الْمُؤْونَةَ فَتَبَرَّجَتْ».

العبد الآبق هو الفار من مواليه، فهـٰذا الفرار هو كبيرة من كبائر الذّنوب كما هو واضح، في النّصوص التي ساقها المصنّف رحمه الله.

الكبيرةُ الخامسةُ والخمسُون
مَنْ ذبح لِغيرِ اللّٰهِ

مِثْلَ أَنْ يَقُولَ: بِاسْمِ سِيدِي الشَّيْخ)

الشيخ: اليوم سأفعل هـٰذه الطّريقة عليكم .... (التلخيص) حتّى نستطيع أن ننهي الكتاب.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ..﴾ الآية [الأنعام:١٢١].

الْعَلَاءُ بْنُ عِبدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ هَانِيء مَوْلَى عَلِيٍّ، أَنَّ عَلِيًّا ‌ؓ قَالَ: "يَا هَانِيء مَاذَا يَقُولُ النَّاسُ؟"، قَالَ: يَدَّعُونَ أَنَّ عِندَكَ عِلْمًا مِن رَّسُولِ اللهِ ﷺ لَا تُظْهِرَهُ. فَاسْتَخْرَجَ صَحِيفَةً مِنْ سَيْفِهِ فِيهَا: "هٰذَا مَا سَمِعْتُهُ مِن رَّسُولِ اللهِ ﷺ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، وَمَنْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ، وَلَعَنَ اللهُ الْعَاقَّ لِوَالِدَيْهِ، وَلَعَنَ اللهُ مُنتَقِص

مَنَارَ الْأَرْضِ». أَخْرَجَهُ الْحَاكِمِ فِي صَحِيحِهِ.

وَقَالَ ﷺ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ». بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ ۵.

قوله: «مَن ذَبَح لِغيرِ الله» يتعلّق بالذّبح عبوديّة، عبوديّة الاستعانة بحيث يسمّي الله عند ذبحه للذّبيحة فيقول: (بسم الله)، وعبوديّة قصد الله للعمل، فتكون الذّبيحة لله، فهاتان عبوديّتان فيما يتعلّق بالذّبح، أن يذبح مستعينا لله (بسم الله) ، وأن يذبح قاصدا بذبيحته التقرّب إلى الله، ﴿قُل إِنَّ صَلاَتِي ونُسُكِي ومَحيَايَ ومَمَاتِي لله﴾ [الأعراف:١٦٢]، فهي لله قصدا وبالله استعانة، فهاتان العبوديّتان لا بدّ منهما في الذّبيحة التي يتقرّب بها إلى الله تعالى، وقد يقع الشّرك فيما يتعلّق بالذّبيحة في هذين، والمصنّف قال: (مثل أن يقول: باسم سيّد الشّيخ) هـٰذا الشّرك المتعلّق بالاستعانة ،وقد يقول: (بسم الله)، ولكنّه يذبحها متقرّبا بها لغير الله، فهـٰذا شرك في القصد، فإذن يتعلّق بذبح الذّبيحة نوعان من العبوديّة والمخالفة فيهما يوقع في الشّرك، إن ذبح مستعينا بغير الله مثل الإنسان الذي ذكره المصنّف قال: (باسم الشّيخ فلان) أو (باسم الولي فلان)، أو نحو ذلك، أو ذبح، حتّى وإن ذكر عليها اسم الله، لكنّه قصد بها التقرّب لغير الله تعالى من الأولياء والمقبورين، فذاك شرك في الاستعانة، وهـٰذا شرك في القصد.

الكَبِيرَةُ السَّادِسَةُ والْخَمْسُونَ
مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ.

لُعِنَ فِي حَدِيثِ عَلِيٍّ ۵.

في حديث علي المتقدم، في الكبيرة التي قبل هـٰذه.

لُعِنَ فِي حَدِيثِ عَلِيٍّ ۵، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. وَرَوَى عَمْرو بْنُ أَبِي عَمْرو، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسَ ۵ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ الله، لَعَنَ اللهُ مَنْ غيّرَ تُخُومَ الْأَرْضِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ كَمِهَ الْأَعْمَى عَنِ السَّبِيلِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ سَبَّ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَومِ لُوطٍ». رَوَاهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ الدَّرَاوَرْدِي عَنْ عَمْرو، وَزَادَ فِيهِ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ وَقَعَ عَلَى بَهِيمَةٍ».

تغيير منار الأرض: أي علامات الأرض، وعلامات الأرض يتناول أمرين:

الأمر الأوّل: العلامات التي تميّز حدود أملاك النّاس، ملك فلان عن ملك غيره، فيأتي أحد المالكين ويدخل العلامة في أرض صاحبه حتّى يزداد ملكه ويصغر ملك صاحبه، هـٰذا داخل في اللّعن.

والأمر الثّاني في تغيير منارات الأرض: أي المنارات التي يُهتدى بها إلى الطّريق، ويهتدي النّاس بها إلى طريقهم، العلامات التي يعرفون بها الطّرق، فمن غيّرها لإضلال النّاس وتعمية الطّريق عليهم فهـٰذا داخل في الحديث، ومن هـٰذا القبيل ما جاء في الحديث نفسه «مَن كَمَّهَ الأَعمَى عَنِ السَّبيلِ»، يعني توّهه وضيّعه عن السّبيل، وتغيير منارات الأرض التي يهتدي بها النّاس في الطّريق هو من تمويه النّاس عن السّبيل وتضييعهم عن السّبيل؛ فهو كبيرة، مثل أن يجد لوحة خشبيّة (مكة من هنا) ثمّ يعدّلها فيجعل النّاس مثلا يتّجهون إلى اتّجاه آخر، فيضيعون وينحرفون عن الطّريق، فهـٰذه كبيرة من كبائر الذّنوب.

۞

(الكبِيرَةُ السَّابِعَةُ والخَمسُون

سَبُّ أكابِرِ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللّٰهُ عنهُمْ أجمَعِين)

قوله: (سبّ الصّحابة ڤ أجمعين) هـٰذا من باب الاهتمام بالأكابر، وإلاّ سبّ الصّحابة عموما من كبائر الإثم، بل السبّ نفسه للمسلمين من كبائر الإثم، لكن شخصيّة أكابر الصّحابة من باب زيادة الاهتمام بهم، مثل ما سبق أن مرّ معنا ذكر باب في اللّعن والسبّ، ثمّ ذكر بابا آخر في لعن أولياء الله، مع أنّه داخل فيما قبله، لكن هـٰذا فيه مزيد اهتمام.

۞

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُول اللهُ تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ». رَوَاهُ البُخَارِيُّ. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنفقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

هـٰذا مثل ما سبق، يعني لمّا ذكر السبّ عموما فيما سبق، أفرد شيئا خاصّا في سبّ أولياء الله وأورد هـٰذا الحديث، وهنا أفرد شيئا خاصّا بالأكابر من الصّحابة وأورد هـٰذا الحديث، فالمراد المزيد من الاهتمام لا التّقسيم.

۞

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنفقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا "أُمِرُوا بِالْاسْتِغْفَارِ لِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَسَبُّوهُمْ" و ... (غير مفهومة ربما لعنوهم) رَوَاهُ هِشَامُ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ.

الذي أُمر به المسلم اتّجاه الصّحابة هو الاستغفار، وهـٰذا الأمر جاء في القرآن ﴿الَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِم يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفِر لَنا ولِإخوانِنَا الَّذِين سَبقُونَا بالإِيمَانِ﴾ [الحشر:١٠]، فالمسلم مأمور بالاستغفار، فهؤلاء أبدلوا ما أمرهم الله تبارك وتعالى به، وما أمرهم به رسوله ﷺ بالسبّ واللّعن، مع أنّ المسلم ليس باللعّان ولا الطعّان ولا الفاحش ولا البذيء، كما سبق أن مرّ معنا، فكيف يكون لعّانا لخيار الأمّة؟! «لَيسَ المُؤمِن بالطعَّانِ وَلاَ اللعّانِ وَلاَ الفَاحشِ وَلاَ البَذِيء»، فكيف يكون لعّانا لخيار الأمّة؟! بل إنّه لم يُشرع لنا أن نردّد ونكرّر في أيّامنا وأوقاتنا بلعن إبليس الذي هو شرّ الخلق وأعظمهم فسادا، ما أُمرنا، أُمرنا بالاستعاذة منه، ولم نؤمر بتكرار اللّعن، مع اعتقادنا بأنّه ملعون ومطرود من رحمة الله، لكن ما أُمرنا، ومع ذلك بلغ الخذلان بالقوم لقوم مبلغا عظيما فأصبحوا يلعنون الخيار والصّحابة في الصّباح والمساء، وجعلوا ذلك وردا لهم، لا يخلّون به في كلّ صباح وفي كلّ مساء والعياذ بالله.

❀❀◈❀❀

وَيُرْوَى عَن النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ الله».

قَالَ عَلِيٌّ ﭬ: "وَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةِ وَبَرَأَ النَّسْمَةِ، إِنَّهُ لَعَهْدُ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ إِلَيَّ: «لَا يُحِبُّنِي إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُنِي إِلَّا مُنَافِقٌ». وَرَوَاهُ عديٌّ بْنُ ثَابت عَنْ زرْ عَنْهُ.

فَإِذَا كَانَ هٰذَا قَالَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَقِّ عَلِيٍّ؛ فَالصِّدِّيقُ بِالْأَوْلَى وَالْأَحْرَى؛ لِأَنَّهُ أَفْضَلُ الْخَلْقِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَذْهَبُ عُمَرٍ وَعَلِيٍّ ﭭ أَنَّ مَنْ فَضَّلَ عَلَى الصِّدِّيقِ أَحَدًا فَإِنَّهُ يُجْلَدُ حَدَّ الْمُفْتَرِي.

الصدّيق و"عمر" ﭭ هما أفضل الخلق بعد الأنبياء في كلّ الأمم، أفضل الخلق بعد الأنبياء في كلّ الأمم، كما صحّ في بداية الحديث عن رسول الله ﷺ: «أَبُو بَكرٍ وَعُمَر سَيِّدَا كهول أَهلِ الجنَّة مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِين، خلا النّبيين والمُرسَلِينَ»، فأبو بكر وعمر ﭭ هما خير النّاس بعد الأنبياء، فليس في أمم الأنبياء من هو خير من أبي بكر وعمر، وإذا كان النّبي ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ قال ما قال في علي ﭬ، فإنّ أبا بكر وعمر من باب أولى، بل قال علي نفسه ﭬ «لا أجد أحد نفسه يفضّلني على أبي بكر وعمر إلاّ جلدته حدّ المفتري»، إلاّ جلدته حدّ المفتري، وسئل ﭬ من خير النّاس بعد رسول الله ﷺ: قال أبوبكر قيل، ثمّ من قال عمر، قال السّائل فخشيت أن أقول ثمّ من ؟ فيقول: عثمان، فقلت له ثمّ أنت، ثمّ أنت فقال ما أنا إلاّ رجل من المسلمين، فقال ما أنا إلاّ رجل من المسلمين، فـأبو بكر وعمر ﭭ هما خير منه، فإذا كان النّبي ﷺ قد قال فيه ما قال هنا، «فهما خَيرٌ مِنك»، فهـٰذا فيه الدّلالة على حرمة لعن أو شدّة لعن أكابر الصّحابة ﭫ، ولاسيما مقدّموهم وخيارهم وأفاضلهم الخلفاء الأربعة، وبقيّة السّتّة العشرة المبشّرين في الجنّة وأزواج النّبي ﷺ، ثمّ الذين شهدوا بدرا

وهكذا، في مراتب الصّحابة ﭫ في الفضل.

فَرَوَى شُعْبَةُ، عَنْ حُصَيْن، عَنْ عِبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى؛ أَنَّ الْجَارُودَ بْنَ الْمُعَلِّيّ الْعَبْدِيّ قَالَ: "أَبُو بَكْرُ خَيْرٌ مِنْ عُمَرَ"، فَقَالَ آخَرُ: "عُمَرُ خَيْرٌ مِنْ أَبِي بَكْر"، فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرُ؛ فَضَرَبَهُ بِالدُّرَّةِ حَتَّى شَغَرَ[١] بِرْجْلَيْهِ، وَقَالَ: "إِنَّ أَبَا بَكْرَ صَاحِبُ رَسُولِ الله ﷺ، وَكَانَ أَخْيَرَ النَّاسِ فِي كَذَا وَكَذَا، وَمَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ وَجَبَ عَلَيْهِ حَدُّ الْمُفْتَرِي.

وَرَوَى الْحَجَّاجُ بْنُ دِينَارٍ، عَنْ أَبِي مَعْشَر، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ علْقَمَةَ، قَالَ: "سَمِعْتُ عَلِيًّا ﭬ يَقُولُ: "بَلَغَنِي أَنَّ قَومًا يُفَضِّلُونِي عَلَى أَبِي بَكْر وَعُمَرَ، مَنْ قَالَ شَيْئًا مِنْ هٰذَا فَهُوَ مُفْتَرٍ، عَلَيْهِ مَا عَلَى الْمُفْتَرِي". وَعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ حجل؛ أَنَّ عَلِيًّا ﭬ قَالَ: "لَا أُوتَى بِرَجُلٍ فَضِّلَنِي عَلَى أَبِي بَكْر وَعُمَرَ إِلَّا جَلَدتُّهُ حَدَّ الْمُفْتَرِي.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ قَالَ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ! فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا». فَأَقُولُ: مَنْ قَالَ لِأَبِي بَكْروَدُونَهُ: يَا كَافِرُ! فَقَدْ بَاءَ الْقَائِلُ بِالْكُفْرِ هُنَا قَطْعًا؛ لِأَنَّ اللهُ تَعَالى قَدْ رَضِيَ عَن السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ؛ قَالَ تَعَالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠]. وَمَنْ سَبَّ هَؤُلَاءِ فَقَدْ بَارَزَ اللهُ تَعَالى بِالْمُحَارَبَةِ؛ بَلْ مَنْ سَبَّ الْمُسْلِمِينَ وَآذَاهُمْ وَازْدَرَاهُمْ فَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ ذَلِكَ مِن الْكَبَائِرِ، فَمَا الظَّنُّ بِمَنْ سَبَّ أَفْضَلَ الْخَلْقِ بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ؟!؛ لَكِنَّهُ لَا يُخَلَّدُ بِذَلِكَ فبي النَّارِ إلاّ .... عليٍّ ﭬ أو أَنَّهُ.........فهٰذا ملعون كَافِر.

استدلال المصنّف هنا عظيم جدّا بقول النّبي ﷺ: «مَنْ قَالَ لِأَخِيهِ يَا كَافِرِ فقَد بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا»، باء بها أحدهما، الصّحابة أبو بكر وعمر وغيرهم من أصحاب النّبي ﷺ هؤلاء مسلمون خيار عدول، فمن قال في حقّهم أنّهم كفّار أو أنّهم مرتدّين فهي قطعا راجعة إلى القائل بدون ردّ، ما يقال هنا باء بها أحدهما وإنّما يكون باء بها من قال ذلك ، لأنّهم خيار عدول من خيار المسلمين وعدولهم ، زكّاهم الله في القرآن وزكّاهم النّبي ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ ، بل شهد لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ولغيرهم من الصّحابة بالجنّة ، فمن قال إنّ أبا بكر كافر ، فهو الكافر ، القائل بهٰذه الكلمة هو الكافر لأنّ النّبي ﷺ قال: «قَد بَاءَ بِهَا أَحدُهُمَا»، وفيما يتعلّق بسبّ الصّحابة ، قال رحمه الله: «فما الظنّ بمن سبّ أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ ، لكنّه لا يخلّد بذلك في النّار» ، إذا قيل بكفره فهو مخلّد في النّار ، ولا سيما في مصادمته القرآن ولأحاديث النبيّ ﷺ الواضحة الصّريحة، في بيان فضل الصّحابة ومكانة الصّحابة وقدر الصّحابة، ولهٰذا استدلّ بعض العلماء بالقرآن على

[١] شَغَرَ بِرْجْلَيْهِ: أي رفعهما.

كفر من فعل ذلك ، وإذا اعتقد كفره فإنّه يكون مخلّد ليس فقط أن يعتقد النبوّة أو الألوهيّة لعلي بل أيضا ، يعني مثل من يعتقد في أمّ المؤمنين عائشةرضي الله عنها أنّها فعلت الفاحشة والعياذ بالله، والله عز وجل أنزل في براءتها ثمانية عشر آية في القرآن ، أنزل في براءتها ثمانية عشر آية في القرآن ، فمن قال بذلك أو من وصمها بذلك بعد ما أنزل الله فيها ما أنزل ، فإنّه كافر، فإنّه كافر بالقرآن، ومن قال في "أبي بكر" أنّه كافر ولعنه ، فهو الكافر ، ولا يكون الأمر مقصورا على المعنى الذي صار إليه المصنّف ، وبعض العلماء استدلّ على كفر هؤلاء في القرآن بآيات صريحة مثل الآية التي خُتمت بها سورة الفتح ، قال الله عز وجل: ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩]، قال بعض العلماء فمن غاظه أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فهو كافر ، كما أخبر الله جلّ وعلا.

الكبِيرَةُ الثامِنَةُ والخَمسُون، سَبُّ الأنصارِ رَضِيَ اللهُ تعالى عنهُمْ فِي الجُمْلَةِ

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ». وَقَالَ ﷺ: «لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ».

الأنصار من الصّحابة، لكن ذكرهم هنا للاهتمام أو لمزيد الاهتمام، أورد ماجاء في فضل حبّ الأنصار وأنّه آية الإيمان، وكيف لا يحبّ المسلم أنصار النّبي عليه الصّلاة والسّلام الذين نصروه بمالهم وأوقاتهم وجهدهم وأنفسهم، فهم أنصار النّبي عليه الصّلاة والسّلام، وأنصار دينه ، فحبّهم إيمان وبغضهم نفاق ، فالكبيرة هنا بغض الأنصار ، بغض الأنصار كبيرة، وبغض الصّحابة عموما كبيرة ، ولكنّ خصّ الأنصار بالذّكر مزيدا من الاهتمام لمجيء نصّ خاص يتعلّق بهم.

الكبِيرَةُ التاسِعَةُ والخَمسُون، مَنْ دعا إلَى ضَلالَةٍ أوْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا». وَقَالَ ﷺ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا». رَوَاهُمَا مُسْلِمٌ.

وَقَالَ ﷺ: «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ». وَفِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ: «وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ».

ثمّ أورد هـٰذه الكبيرة ، كبيرة إحداث المحدثات، وإنشاء البدع والدّعوة إلى الضّلالات، فهـٰذه من كبائر

الإثم، هـٰذه من كبائر الإثم، وخطرها على المحدث عظيم جدّا ، بل إنّ خطرها عليه بحسب عدد من تبعه، كما هو واضح في الحديث، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها، فإذا امتدّ العدد وزاد زاد الوزر وزاد الإثم، ولا يكون هـٰذا خاصا فيمن تلقوه مباشرة عنه، بل من تلقّوا عن تلاميذه وتلاميذ تلاميذه إلى أن تقوم السّاعة يحمل أوزار هؤلاء كلّهم ، يحمل أوزارهم كاملة يوم القيامة، ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل:٢٥]، فإحداث البدع وإيتاء المحدثات، هـٰذا من أخطر ما يكون على الإنسان، أن يسنّ في النّاس سنّة سيّئة، وان يحدث في الدين ما ليس منه، وان يدعو إلى الضّلال فهـٰذا من أعظم الذّنوب وأشدّها خطرا ، بل جاء النّبي ـ ﷺ ـ في الحديث الصّحيح من حديث ثوبان في سنن أبي داوود وغيره ، أنّه قال «إِنَّ أَخوفَ مَا أَخافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ المضلِّين»، فهؤلاء خطر خطر كبير على النّاس، لأنّه يدعو إلى الضّلالة بقالب الحق بقالب الهدى ولباس التّقوى، فيضلّ النّاس، ويقعون في العبادات الباطلة والأعمال المحدثة التي ليست هي من دين الله بسبب إضلال هؤلاء المضلّين ، والمصنّف رحمه الله نبّه هنا تنبيها لطيفا عندما حذّر من هـٰذه الكبيرة ، بذكر بعض النّصوص الواردة فيها، ذكر الحديث «كُلُّ بِدعةٍ ضَلاَلَة» «كُلّ بِدعةٍ ضَلالة»، فالأمر إمّا سنّة ثابتة عن النّبي ـ ﷺ ـ أو بدعة ،والبدعة هو ما أُحدِث في الدّين ، كما قال ـ ﷺ ـ «مَنْ أَحدَثَ فِي أَمرِنَا هـٰذا مَا لَيس مِنهُ فهو رد» فمن أحدث في دين الله تعالى ما ليس منه فهو مردود عليه، في العقائد في العبادات في الأذكار.

الكبيرةُ السّتّون، الْواصِلَة فِي شعْرِها والْمُتفلّجة والْواشِمَة

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَعَنَ اللهُ الْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ، وَالْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ، وَالنَّامِصَةَ وَالْمُتَنَمِّصَةَ، وَالْمُتَفَلِّجَاتَ لِلْحُسْنِ، والْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ الله» مُتَّفَقٌ عَلَيْه. وَقَالَ ﷺ: «ثَمَنُ الْكَلْبِ وَالدَّمِ حَرَامٌ، وَكَسْبُ الْبَغِيِّ، وَلَعَنَ الْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ، وَآكِلَ الرِّبَا وَمُؤْكلَهُ، وَلَعَنَ الْمُصَوِّرِينَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْه.

هـٰذه من الكبائر ، الواصلة في شعرها والمتفلّجة والواشمة ، الواصلة في شعرها يعني التي تزيد في شعرها شعرا آخر لتُظهر به طول شعرها، فهـٰذا يسمّى وصل ، ومثل الوصل تركيب الشّعر ، الشّعر الذي يركّب على الرّأس ، فهـٰذا مثل الوصل ، وكذلك المتفلّجة، والمتفلّجة هي التي تفلّج أسنانها ،وتضع بين الأسنان يعني مسافة يسيرة جدّا للحسن، تتفلّج للحسن ، يعني لتُظهر بذلك حسن أسنانها ومنظرها، والواشمة التي

تضع الوشم في يدها أو في خدّها أو في عضدها ، ويفعلون كلّ ذلك للتزيّن، وهو كلّه من التّغيير لخلق الله ، وهو ممّا يدعو إليه الشّيطان ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء:١١٩]، كلّه داخل من دعوة الشّيطان أو داخل في دعوة الشّيطان لتغيير.

خلْق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فالواصلة والواشمة والمتفلجة هؤلاء كلهن ملعونات بلعنة رسول الله ﷺ، ومن تفعل ذلك في غيرها؛ تصل شعر غيرها أو تقوم بالتفليج أو الوشم لغيرها فهي أيضا يشملها اللعن. فاللعن يشمل من فعلت ذلك ومن قامت بهـٰذا العمل، يعني من صنعت ذلك في نفسها ومن قامت بهـٰذه الصناع؛ الواشمة والمستوشمة؛ الواصلة والمستوصلة، يعني التي تصل شعرها والتي تقوم بوصله لها؛ كل منهما يشمله الوعيد واللعن، نعم.

(النامصة) يتعلق بالشعر أيضا، تأخذ جزءا من الشعر وتحدد مثلا شعر الحاجب فتجعله مثلا إذا كان كثيفا تجعله رقيقا وبمسافة معيّنة والباقي تزيله؛ (النمص) إزالة الشعر؛ فتزيل شعر حاجبها، ليس كله، وإنما أجزاء منه من أعلاه وأسفله بحيث يبقى رقيقا وتفعل ذلك قاصدةً التجمل وقاصدة الزينة، وهـٰذا من التغيير في خلق الله تعالى.

وفي زماننا هـٰذا استجد أمر يفعله بعض النساء يسمى (التشقير)؛ تشقير الحاجب. وتشقير الحاجب هو أن يوضع على الشعر -شعر الحاجب- لون أو طلاء مثل البشرة، مثل لون البشرة تماما وتشقّر حاجبها يعني تضع عليه الطلاء الذي هو مثل لون البشرة وتُبقي جزءا رقيقا من شعر الحاجب على لونه لا تضع عليه هـٰذا الطلاء فتكون مثل النامصة؛ يعني النتيجة هي نفس نتيجة النامصة، يظهر شعر حاجبها رقيقا؛ لكنها لا تفعل النمص، وهـٰذا حكمه مثل حكم النمص؛ لأن هـٰذه حيلة للوصول إلى نفس النتيجة التي يوصل إليها من النمص.

الكبِيرَةُ الحَادِيَةُ والسِّتُّون
مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

«مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ» كسكين أو [...] أو خنجر أو نحو ذلك، أشار إليه بها؛ يعني يُخوّفه بها أو يوهمه أنه سيضربه بها أو نحو ذلك؛ فمجرد الإشارة كبيرة وفيها لعن، فكيف بمن آذى بدن أخيه بالحديدة كأن يجرحه أو يسيل الدم من جسمه؟، وكيف إذا أزهق روحا وقتله بهـٰذه الحديدة؟، فهـٰذه كلها كبائر.

ومجرد الإشارة بدون الأذى؛ يعني بدون أن يطعن أو يؤذي بها صاحبه، مجرد الإشارة والتهييب بالحديدة هـٰذا من كبائر الإثم وقد ورد في هـٰذا الحديث الذي ساقه المصنف: «مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ».

والإشارة هنا في الحديث للأخ من الأب والأم على اعتبار أن الغالب بين الإخوان المسامحة في مثل هـٰذا النزاع؛ مَنْ بينهما هـٰذه القرابة المسامحة؛ فمع وجود المسامحة وبيانها بينهما فإن الملائكة تلعن بمباشرته لهـٰذا العمل؛ بمعنى أن الإنسان لا يقول أنا بيني وبينه المزح أو بيني وبينه الدعابة أو بيني وبينه المحبة وهو يسامحني لو فعلت مثل هـٰذه الأشياء ولا ينزعج مني؛ حتى وإن وُجدت هـٰذه المعاني فالإشارة بالحديدة فيها هـٰذا الوعيد.

ومن حكمة الشارع وللشارع في هـٰذا حِكَم؛ قد يرفع الحديدة ثم يدفعه الشيطان لفعل ما لم يقصده برفعه، وكم من إنسان رفع الحديدة ميهيّبا فقتل من أمامه؛ دفعه الشيطان فقتل من أمامه؛ فهـٰذا فيه حفظ المسلم؛ لأن ترويع المسلم حرام، مجرد الترويع والتخويف، وجاء فيه أحاديث في تحريم ترويع المسلمين؛ وفيه أيضا سد الذريعة، ذريعة الأذى والقتل، بالمنع من مباشرة هـٰذه الأعمال أن يرفع الحديدة تهيبا أو ترويعا لأخيه، فهـٰذا فيه البعد عن ترويع المسلم، وفيه أيضا سدّ الذريعة للوصول لإيذاء المسلمين أو قتلهم أو نحو ذلك.

الكبيرة الثانية والستّون
مَنْ ادّعى إلى غيرِ أبيه

عَنْ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبِيهِ فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

قوله: «ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ»؛ يعني انتسب إلى غير أبيه، فيحوّل النسبة من أبيه أو من قبيلته أو من جده إلى نسبة أخرى إلى أُناس آخرين؛ فمن فعل هـٰذا فهو منتسب لكبيرة عظيمة؛ بل جاء الوعيد على هـٰذا العمل بأن الجنة عليه حرام، وقد جاء في هـٰذا الأمر أحاديث كثيرة ذكر جملة منها المصنف رحمه الله.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ أَبِيهِ فَهُوَ كُفْرٌ». أَخْرَجَاهُ أَيْضًا.

قوله: «فَهُوَ كُفْرٌ» هـٰذا كما سبق أن مرّ معنا له نظائر، إطلاق الكفر لا على [الكفر] الأكبر الناقل من الملّة

وإنما هو كفر دون كفر.

﴿﴾◊﴿﴾

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ الله». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

هـٰذا فيما يتعلق بالْمُدَّعي لغير أبيه له أنواع من الوعيد: لا يدخل الجنة، الجنة عليه حرام، عليه لعنة الله، فهو كفر. أنواع من الوعيد جاءت في هـٰذه الكبيرة.

﴿﴾◊﴿﴾

وَعَنْ يَزِيدِ بْنِ شُرَيْكٍ قَالَ: "رَأَيْتُ عَلِيًّا رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: "وَاللهِ مَا عِنْدَنَا مِنْ كِتَابٍ نَقْرَؤُهُ إِلَّا كِتَابُ الله وَمَا فِي هـٰذه الصَّحِيفَةِ، فَنَشَرَهَا فَإِذَا فِيهَا أَسْنَانُ الْإِبِلِ، وَأَشْيَاءُ مِنْ الْجِرَاحَاتِ، وَفِيهَا: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الْمَدِينَةُ حَرَامٌ مَا بَيْنَ عَيْرٍ إِلَى ثَوْرٍ، فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ الله وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ اللهُ مِنْه يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا، ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ، فَمَنْ حَقَّرَ مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ الله وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَمَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، أَوْ انتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ؛ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ الله وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَمَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، أَوْ انتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ؛ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ الله وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ اللهُ مِنه يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

كأنها تكررت .. في الطبعة.

وهـٰذا الموضع الذي تكرر هنا هو موضع الشاهد من الحديث: «مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، أَوْ انتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ»؛ يعني انتماء العبد إلى غير مواليه «فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ الله وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ اللهُ مِنْه يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا»؛ أي لا يقبل الله منه فريضة ولا نفلا، نعم.

﴿﴾◊﴿﴾

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ؛ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «لَيْسَ مِنْ رَّجُلٍ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إِلَّا كَفَرَ، وَمَنْ ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ فَلَيْسَ مِنَّا وَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ، وَمَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكُفْرِ أَوْ قَالَ: عَدُوُّ الله، وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ، وَمَعْنَى «حَارَ»: رَجَعَ.

نعم.

﴿﴾◊﴿﴾

الكبيرة الثالثة والستون
الطيرة

وَيُحْتَمَلُ أَلَّا تَكُونَ كَبِيرَةً.

وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ كُهَيْلَ، عَنْ عِيسَى بْنِ عَاصِم، عَنْ زِرٍّ، عَنْ عَبْدِ الله قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ وَمَا مِنَّا إِلَّا، وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ». صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ. قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ: «وَمَا مِنَّا .. » هُوَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ، وَأُحِبُّ الْفَأْلَ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ الله! وَمَا الْفَأْلُ؟، قَالَ: «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ» صَحِيحٌ.

الطِّيَرَةُ: هي التشاؤم، والتشاؤم يكون بالطيور ويكون بغيرها؛ لكن لما كان غالب التشاؤم الذي عليه الجاهلية كان بالطيور، ببعض أنواع الطيور، أو بحركات الطيور ...، ولما كان هـٰذا الغالب أُطلق على كل تشاؤم تطيُّر؛ لأن الأصل فيه أو الغالب في التطير أو التشاؤم أنه بالطيور.

والتشاؤم شرك، وفيه ضرر على قلب الإنسان وإصابة بالوهن وضعف الدين ورقّته وكثرة المخاوف والمقلقات التي تنتاب القلب والأضرار الكثيرة التي تلحق الإنسان إذا كانت نظرته للأشياء وللأمور بمثل هـٰذه النظرة القاتمة المظلمة، النظرة المتشائمة؛ ولهـٰذا جاء الإسلام بتحريم التشاؤم والمنع منه والدعوة إلى أن يكون المسلم صاحب عزيمة وصاحب همة وصاحب إرادة طيبة وإقبال على الخير، لا أن يكون متثبطا متوانيا متقاعسا متكاسلا متشائما؛ إذا وُجد فيه التشاؤم وُجد فيه الخذلان والوَهَن والكسل والضعف؛ إذا كانت هـٰذه نظرته للأشياء، وتنتابه المخاوف في كل وقت وفي كل حين بهـٰذه النظرة المتشائمة.

والتشاؤم كبيرة. وقول المصنف رحمه الله: "وَيُحْتَمَلُ أَلَّا تَكُونَ كَبِيرَةٌ"؛ لعل المصنف رحمه الله وضع هـٰذا الاحتمال لاعتباره جانب من التطير يهجم على القلب هجوما لا يطلبه الإنسان ولا يقصده ويسعى في طرده؛ في هـٰذا الحد لا يقال عنه كبيرة، من هجم على قلبه ثم طرده؛ ولهـٰذا قال ابن مسعود: «وَمَا مِنَّا إِلَّا، وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ»؛ يعني ما منا إلا يدخل على قلبه أحيانا شيء؛ لكنه بإيمانه وتوكله وثقته بالله فهـٰذا الحد لا يقال عنه كبيرة؛ لكن من يطلب التطير ويسعى في طلبه ويذهب يبحث مثلا عن الطيور أو الأشياء التي يُتطير بها فهـٰذا لا شك أنه كبيرة بدون احتمال وبدون تردد، كبيرة طبعا من كبائر الإثم وشرك بالله عز وجل؛ لكن الأمر الآخر الذي هو يهجم على القلب، مثل شخص أراد أن يسافر فرأى شيئا أفزعه وأخافه وتشاءم وخشي أن يحصل له مثل هـٰذا الأمر ثم طرده، قال: توكلت على الله، استعنت بالله والحافظ هو الله ومضى في طريقه، ما ردّته الطيرة؛ ولهـٰذا ورد أن الطيرة: "ما أمضاك أو ردك" يعني ما أحدث فيك تأثيرا في سلوكك أو عملك؛ أما إذا طردتها؛ هجمت على قلبك وطردتها هـٰذه لا تضرّك، ولا تكون إثما؛ لأنّها حديثٌ خطر في نفس

الإنسان وطرده الإنسان، لكن إذا فعّل هـٰذا الأمر، ورتّب عليه امتناعا من عمل أو فعلا لعمل بناءً على هـٰذا التطيّر لا شكّ أنّ هـٰذا كبيرة من الكبائر.

وأورد حديث ابن مسعود أنّ النّبيّ ﷺ قال: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ»، وممّا يُعرف به الأمر أنّه كبيرة وصفه بأنّه شرك أو وصفه بأنّه كفر.

قال: «وَمَا مِنَّا إِلَّا» يعني ما منّا إلاّ ويهجم على قلبه شيء من هـٰذا؛ لكن المسلم يطرده بتوكلّه على الله، قال: «وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ» وهـٰذا الذي يهجم على القلب ما يضرّ ولا يؤثر إذا طارده المسلم وطرده بتوكّله على الله تعالى والتجائه إليه وإيمانه به.

وقوله: «لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ» هـٰذا نفي لما عليه أهل الجاهليّة من اعتقاد في العدوى وأنّها مؤثرة بنفسها، وكذلك ما هم عليه من التطيّر بالطيور وأشباهها ونحوها ممّا كانوا يتطيّرون به، هـٰذا كلّه من الجاهليّة التّي جاء الإسلام بنفيه وإبطاله.

قال: «وَأُحِبُّ الْفَأْلَ» قِيلَ: يَا رَسُولُ الله! وَمَا الْفَأْلُ؟، قَالَ: «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ»، والكلمة الطّيّبة لها أثر جيّد على المسلم، وتبعث فيه التّفاؤل والنّشاط والرّغبة، ولا تثنيه عن الخير، فكان عليه الصّلاة والسّلام يحبّ الكلمة الطّيبة، شخص مشى إلى السّوق ليبيع تجارة له، معه تجارة يريد أن يبيعها وهو في طريقه سمع شخصا ينادي صاحبه قال: "يا رابح تعال" ففرح وتفاءل أنّه يربح، هـٰذا لا شيء فيه، الكلمة الطّيّبة كانت تعجب النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام، أو شخص مريض سمع شخصا ينادي: "يا سالم" مثلا ففرح وتفاءل وقال.. ، مثل هـٰذا ما يؤثّر، هـٰذه الكلمة تبعث النّشاط، بخلاف التّطيّر، التّطيّر إذا وُجد يُظلم القلب ويُظلم الطّريق، وتبرد الهمّة ويحصل التّواني والكسل والإحزان و... الإنسان وتمنعه من أعمال الخير، أمّا الكلمة الطّيّبة فهي لا تضرّ الإنسان، هو ماضٍ فيما هو ماض عليه؛ بل يزداد نشاطا ورغبة، فكانت الكلمة الطّيّبة تعجب النّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الكبِيرةُ الرَّابِعةَ والسِّتُّون
الشّرْبُ فِي الذّهبِ والفِضّةَ

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ وَالدِّيبَاجَ، وَلَا تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلَا تَأْكُلُوا مِنْ صِحَافِهَا فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وِلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ»، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ أَوْ يَشْرَبُ فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ إِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ».

وَقَالَ: «مَنْ شَرِبَ فِي الْفِضَّةِ لَمْ يَشْرَبْ فِيهَا فِي الْآخِرَةِ». أَخْرَجَهُمَا مُسْلِمٌ.

هـٰذه الكبيرة قد جاء فيها وعيد كبير **"الشّرب في آنية الذّهب والفضّة"**، وقد جاء في هـٰذه الكبيرة أنواع من الوعيد، فذكر النّبيّ ﷺ في بعض الأحاديث أنّها للكفّار في الدّنيا وليست لهم في الآخرة، وهي ليست للمؤمنين في الدّنيا، يجتنبونها ويبتعدون عنها طاعة لله، ويجدون ذلك في الآخرة ثوابا، يشربون في الجنّة بآنية الذّهب والفضّة.

ومن الوعيد الوارد أنّ من شرب بها: «إِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ» هـٰذا كلّه يدلّ على أنّ الشّرب في آنية الذّهب والفضّة أو الأكل فيهما من كبائر الذّنوب، سواء في الأواني التي يوضع عليها الطّعام أو الآلات التي يُؤكل بها الطّعام مثل المِلْعقة إذا كانت من الذّهب، أو الملعقة إذا كانت من الفضّة أو نحو ذلك، فهـٰذا كلّه يشمله هـٰذا الوعيد.

الكبِيرَةُ الخَامِسَةُ والسِّتُّون
الْجِدالُ والْمِراءُ واللَّدَدُ، ووُكَلاءُ القُضاةِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا...﴾ الآيات[البقرة:٢٠٤-٢٠٥].

ثمّ ذكر هـٰذه الكبيرة: **"الجدال والمِراء واللّدد ووكلاء القضاة"**، وهـٰذه الأمور التي أشار إليها المصنّف هي من الكبائر؛ لأنّها ليست من أوصاف المسلم، ليس من أوصاف المسلم: الجدل والمراء واللّدد والمشادّات والخصومة ونحو ذلك ليست من خصال المسلم، فإذا كان الإنسان متّصفا بهـٰذه الصّفات فهـٰذا ليس من أمارات الخير ولا علاماته.

و**"وكلاء القضاة"** يعني من يتوكّلون لأمور النّاس عند القضاة، وهؤلاء منهم من يتوكّل على وجه الإحسان والمطالبة بحقوق النّاس بالمعروف دون تعدّي ودون جور، وهناك من يُحْسِن الخصومة ويُحْسِن الجدل ويُحْسِن المطالبة ويُحْسِن اللّحن بالحجّة حتّى يستخرج ما ليس له فيه حقّ أو ما ليس لمن يطالب له فيه حقّ؛ ولكن لجدله وقوّة عَارِضته وحسن معرفته بالنّقاش والجدال يستطيع أن يُقنع من أمامه من قاض أو غيره، فيلحن في حجّته ويقتطع بهـٰذا اللّحن مالا حراما، وحكم القاضي في مثل هـٰذه الحال لا يُحلل الحرام عليه؛ يعني لو لحن في حجّته أمام القاضي وحكم له القاضي فهـٰذا لا يُحلل الحرام؛ بل يبقى الحرام حراما،

فهـٰذه من الأمور التي هي ليست من خصال أهل الإيمان، وأورد من الأدلّة ما يشهد بذلك منها: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ [البقرة:٢٠٤]. وجاء في الحديث الصّحيح: «إِنَّ أَبْغَض النّاسِ إِلَى الله الْأَلَدُّ الْخَصِمُ»؛ يعني الذي يُجادل ويماري، فيه الجدال وفيه المراء، ولا يهمّه أن يكون مصيبا أو محقّا، المهمّ أنه يُسكِت من أمامه، وأن يقطع حجّة من أمامه، وأن يعلو على الآخرين، ليس همّه الحقّ والوصول إليه وبلوغه، وإنّما همّته أن يرتفع على الآخرين وأن يماري السّفهاء، وأن تظهر حجّته عليهم أو يظهر قوله عليهم، هـٰذا همّه، ولهـٰذا جاء المصنّف هنا بهـٰذه الآية: ﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ يقول: ﴿يُشْهِدُ اللَّهَ﴾ أو يعلم الله أنّني على حقّ أو أنني على صواب، ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ من أبغض النّاس إلى الله تعالى، نعم.

۞

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨].

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ جاء في الحديث عن النّبيّ ﷺ أنّه تلا هـٰذه الآية وذكر أنّ من فُتِح عليه باب الجدل أُغلق عليه باب العمل، بمعنى هـٰذا الكلام قال عليه الصّلاة والسّلام، نعم.

۞

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر:٥٦].

هـٰذه الآية سبق أن مرّت معنا، فيه إشارة أنّ الكبر له دور كبير جدّا في قضية المجادلة بالباطل، نعم.

۞

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦].

المجادلة التي هي بالتي أحسن هـٰذه ليست مذمومة، الذي يقصد المجادل باللّطف والإحسان بيان الحقّ لمن أمامه ودلالته على الطّريق وإزالة الشّبهة التي عرضت له، فهـٰذا أمر يُحمد ولا يُذمّ.

۞

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى الله تَعَالَى الْأَلَدُّ الْخَصِمُ».

«إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى الله الْأَلَدُّ الْخَصِمُ»، أنبّه هنا أيضا إلى أنّ قضيّة الخصومة وقوّة العارضة ليست هي وحدها التي بها الوصول إلى الحقّ، الوصول إلى الحقّ يوصل يعني يصيبه من أصاب الحقّ لا من قويت عارضته أو قويت حجّته، قد تكون عارضة الإنسان قويّة وجداله قويّا، والحقّ بعيد عنه، فليست العبرة،

حتى وإن أسكت خصمه أو أفحم خصمه أو أفحم من أمامه قد يفحم من أمامه ويسكته والحقّ ليس معه، ولهـٰذا يقولون أنّ رجلا جاء إلى الإمام مالك بن أنس رحمه الله وقال: أريد أن أتناظر معك، قال له الإمام مالك: **"فإن غلبتني؟"** قال: تتّبعني. قال: **"فإن غلبتك ؟"**، قال: أتّبعك. قال: **"فإن جاء شخص ثالث وغلبنا؟"**، قال: نتّبعه، قال: **" يا هـٰذا! ليس الدّين لمن غلب"**؛ يعني ليست إصابة الحقّ لمجرّد أن يغلب الإنسان في المجلس، قد يغلب ويُسكِت من أمامه والحقّ ليس معه؛ ولكنّه لقوّة الجدل وقوّة عارضته قد يُسكِت خصمه، فقال: **"يا هـٰذا! ليس الدّين لمن غلب"** هـٰذه كلمة عظيمة جدّا، الدّين ليس لمن غلب، إذًا الدّين لمن؟ لمن أصاب الحقّ؛ أصاب الكتاب والسنّة، ولهـٰذا أيضا جاء عنه أنّه قال في نفس القصّة: **"أو كلّما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا الكتاب والسنّة لجدله ؟!!"**، الدّين ليس لمن غلب، والدّين ليس بالجدال والخصومات؛ ولهـٰذا عامّة كتب العقيدة للسّلف يورَد فيها آثار في ذمّ الجدال والتّحذير منه وبيان خطورته على الإنسان، فالقضية ليست قضية جدل وخصومة، القضية قضية معرفة حق واتباع لكتاب الله وسنّة نبيه ﷺ.

٭٭٭

وَرَوَى رَجَاءُ -أَبُو يَحْيَى صَاحِبُ السَّقْطِ، وَهُوَ لَيِّنٌ- عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ جَادَلَ فِي خُصُومَةٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللهِ حَتَّى يَنْزِعَ».

هـٰذا ضابط في المسألة قوله: «بِغَيْرِ عِلْمٍ»، أمّا إذا كان عنده علم؛ يعني العلم هو كلام الله وكلام رسوله عليه الصّلاة والسّلام وفهم الكتاب والسنّة، فإذا كان بعلم وأراد إقامة الحجّة وبيان الهدى للنّاس وردّ الباطل فهـٰذا يؤجر، نعم.

٭٭٭

وَرَوَى حَجَّاجُ بْنُ دِينَارٍ -وَهُوَ صَدُوقٌ- عَنْ أَبِي غَالِبٍ، عَنِ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ، ثُمَّ تَلَا: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨]».

هـٰذا يفيد أنّ الإنسان إذا فُتِح عليه باب الجدل يكون سببا للحرمان من العمل، إذا فُتح إليه باب الجدل يكون سببا الحرمان من العمل، وإذا أردت أن تعتبر هـٰذا فاعتبره في مثال كبير وواضح في حياة كثير من الناس يسهرون اللّيل في الجدل وينامون عن صلاة الفجر

وينامون عن صلاة الفجر، و«مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ»، يُفتح عليهم باب الجدل

ويحرمون العمل، وهـٰذا من أخطر ما يكون على الإنسان تكون حياته في جدل، أما العمل الذي هو غاية العلم فهو في معزل عنه، نعم.

وَيُرْوَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي: زَلَّةُ عَالِمٍ، وَجِدَالُ مُنَافِقٍ بِالْقُرْآنِ، وَدُنْيَا تَقْطَعُ أَعْنَاقَكُمْ». رَوَاهُ يَزِيدُ بْنُ أَبِي زِيَادٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ.

هـٰذه ثلاثة أمور ذكر أنه عليه الصلاة والسلام أخوف ما يخافه على الأمة: زلة عالمٍ؛ ولهـٰذا يقولون: "زلة العالِمِ زلةُ العَالَمِ"، إذا زلّ العالِمِ الناس يتأثرون به في زلته لثقتهم به، والعالم ليس بالمعصوم؛ ولهـٰذا أيضًا العلماء نبهوا على مسألة في الباب ويقع فيها كثير من العوام: تتبع زلات العلماء، وذكر أهل العلم أن هـٰذا من الزندقة ومن الكفران والحرمان أن الإنسان يتتبع زلات العلماء، أو مثلًا يريد فتوى في حكم معين أو في عمل معين فيطوف بالعلماء إلى أن يجد من يفتيه على هواه أو على رغبته، يتتبع الزلات أو الهفوات أو الأخطاء أو العثرات، فزلة العالم خافها النبي على أمته خوفًا شديدًا، والعالم قد يزل ويكون معذور، وقد يزل ولا يكون معذور؛ لأنه لم يجتهد اجتهادًا تحرى فيه إصابة الحق وإصابة الهدى أو كان في اجتهاده له يكون فيه نوع من الهوى فلا يكون معذورًا، وقد يكون في زلته معذورًا اجتهد وأخطأ وتحرى الحق؛ لكنه أخطأ، نعم.

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «المِرَاءُ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ».

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ خَاصَمَ فِي بَاطِلٍ -وَهُوَ يَعْلَمُ- لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللهِ حَتَّى يَنْزِعَ». وَفِي لَفْظٍ: «فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِن اللهِ». أَخْرَجَهُ أَبُو دَاود.

نعم.

وَيُرْوَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمُ اللِّسَانِ».

وَعَنْهُ ﷺ قَالَ: «الْحَيَاءُ وَالْعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنْ الْإِيمَانِ، وَالْبَذَاءُ وَالْبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنْ النِّفَاقِ».

هنا ذكر في هـٰذا الحديث الأول: «**كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمُ اللِّسَانِ**»، في الحديث الذي قبله جدال المنافق بالقرآن هنا حقيقة مصيبة أو أمر خطير كان النبي عليه الصلاة والسلام يخاف على الأمة منه وهو: المنافق عليم اللسان، أو المنافق الذي على اطلاع على الأدلة وعلى النصوص، ويبدأ يتكلم ويورد الآيات ويورد الأحاديث ويورد الحجج والأقوال يوردها ويضرب بعضها بعضًا حتى يُلبِّس على الناس ويوقعهم في الشكوك في

دينهم، فخطورة مثل هـٰذا إذا كان عليم اللسان ويجادل بالقرآن يقرأ القرآن ويقرأ الأحاديث ليس هدفه أن يصيب الحق ولا أيضًا هدفه أن يهدي الناس للحق؛ ولكن يقرأ القرآن ويقرأ الأحاديث ليُلبِّس على الناس ويشكك عليهم في أديانهم، وهـٰذا يقع كثيرا، وتجده يطوف الآيات والأحاديث، فهـٰذا أخشى ما كان يخشى النبي ﷺ على أمته.

الكبِيرَة السَّادِسَة والسِّتُّون
فِيمَنْ خصَى عَبْدَه أَوْ جدَعَه أَوْ عذَّبه ظُلْمًا وبغيًا

قَالَ اللهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِبْلِيسَ -لَعَنَهُ اللهُ-: ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾ [النساء:١١٩].

قَالَ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ: هُوَ الخِصَاءُ.

ثم أورد هـٰذه الكبيرة من خصى عبده أو جدعه أو عذبه ظلمًا وبغيًا؛ أي أن هـٰذا من كبائر الإثم، وخصيُه: هو أن يدع خصيته بتعطيلها إما بكيها بنار أو بشيئ من هـٰذا القبيل، ويُقال له: الخِصاء.

وهنا أورد بعض الأدلة: بدأ بهـٰذا الدليل العام: ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾ هـٰذا الشاهد من الآية، "قَالَ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ: هُوَ الخِصَاءُ"، هـٰذا النوع من التفسير يُسمى: تفسير الآية ببعض أفرادها، هـٰذا نوع من التفسير، لا أن هـٰذا هو معنى الآية فقط؛ وإنما هـٰذا فردٌ من الأفراد الداخلة في معنى الآية، فالخصاء من التغيير لخلق الله الذي تتناوله الآية بعمومها، نعم.

رَوَى الحَسَنُ، عَنْ سَمُرَةَ ؓ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلْنَاهُ، وَمَنْ جَدَعَ عَبْدَهُ جَدَعْنَاهُ». هـٰذا خَبَرٌ صَحِيحٌ.

الجدع: القطع، جدعه: أي قطعه، مثل أن يجدع أذنه أو يجدع أنفه أو يجدع طرفًا من أطرافه، مثله ما جاء في الحديث قال عليه الصلاة والسلام: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» قال: «كما تنتج البهيمة بهيمةً جدعاء هل ترون فيها من جدعاء؟» إلا أن تكونوا أنتم الذين تجدعونها، الجدع هو القطع، فجدع عبده: يعني جدع طرف من أطرافه أو جزء من أجزاء بدنه الأنف أو الأذن، أي نعم.

وَرَوَى قَتَادَةُ عَنِ الحَسَنِ، عَنْ سَمُرَةَ مَرْفُوعًا قَالَ: «مَنْ أَخْصَى عَبْدَهُ أَخْصَيْنَاهُ». وَصَحَّحَ الحَاكِمُ -فَأَخْطَأَ-

حَدِيثًا فِي الْحُدُودِ مَتْنَهُ: «مَنْ مَثَّلَ بِعَبْدِهِ فَهُوَ حُرٌّ».

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ أُقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

«مَنْ مَثَّلَ بِعَبْدِهِ فَهُوَ حُرٌّ»: يعني مثل ما نبه الذهبي وأيضًا المحقق أن الحديث ضعيف «مَنْ مَثَّلَ بِعَبْدِهِ فَهُوَ حُرٌّ»؛ لكن مر معنا في الحديث ما يشهد لهٰذا الأمر؛ يعني قال لما رآه يعذبه قال: «لو لم تفعله لمستك النار»، قال هو حر لوجه الله، قال: «لو لم تفعل ذلك للفحتك النار»، والتمثيل تعذيب له فكفارته أن يعتقه وأن يطلقه حرًا لوجه الله عز وجل، نعم.

وَآخِرُ مَا حُفِظَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ! اتَّقُوا اللهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ».

هـٰذا من آخر ما أوصى به النبي وحُفظ عنه عليه الصلاة والسلام في وصيته: الوصية بالصلاة، متبع ذلك الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم؛ أي اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم، نعم.

وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ ﭫ: "نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ إِخْصَاءِ الْخَيْلِ وَالْبَهَائِمِ".

هـٰذا سنده ضعيف، نعم.

الكبِيرَةُ السَّابعَةُ والسِّتُّون
الْمُطَفِّفُ فِي وَزْنِهِ وَكَيْلِهِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)﴾ [المطففين]. وَذَلِكَ ضَرْبٌ مِن السَّرِقَةِ وَالْخِيَانَةِ، وَأَكْلِ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ.

التطفيف من الكبائر، والتطفيف بيانه كما جاء في القرآن: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢)﴾ يعني يأخذون حقهم وافيًا، ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣)﴾ فإذا كان لهم يأخذونه وافيًا، وإذا كان عليهم يدفعونه ناقصًا، هـٰذا هو التطفيف، ويكون في المكيلات وفي الموزونات، وهو كما قال المصنف رحمه الله نوع من السرقة والخيانة والغش وأكل لأموال الناس بالظلم والباطل.

الكبِيرَةُ السَّابعَةُ والسِّتُّون

الأمنُ مِن مَكْرِ اللهِ تعالي

قَالَ اللهُ تَعَالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

وَقَالَ تَعَالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام:٤٤].

وَقَالَ تَعَالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس:٧].

نعم.

الكبِيرَةُ التَاسِعةُ والسِّتُّون
الْإِياسُ مِن رَوْحِ اللهِ تعالي والْقنُوط مِن رَحْمَتِه

قَالَ اللهُ تَعَالى: ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

وَقَالَ تَعَالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى:٢٨].

وَقَالَ تَعَالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر:٥٣].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ حَسَنُ الظَّنِّ بِاللهِ».

العبودية؛ عبودية المسلم لله لا بد أن تكون قائمة على الرجاء والخوف، رجاء رحمة الله، وخوفُ عذابه تعالى، وأن يجمع بين الأمرين، لا أن يأتي بأحدهما دون الآخر، بأن يكون راجيًا ليس بخائف، أو خائفًا ليس براجي؛ بل يجمع بين الأمرين معًا ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء:٥٦]، ﴿يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠]، فهـٰذان ركنان لا بد منهما في التعبد مع المحبة للمعبود، فالله عز وجل يُعبد حبًّا فيه ورجاءً لثوابه وخوفًا من عقابه، فهـٰذه أركان للتعبد قلبية لا بُدَّ منها، إذا فرَّط في الرجاء وزاد في الخوف قنط من رحمة الله، وإذا زاد الرجاء وأهمل الخوف أمن من مكر الله، وكل من الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله كبيرة.

الأمن من مكر الله وهو الذي ذكره أولًا المصنف كبيرة من الكبائر، يتولد عند الإنسان إذا غلّب جانب الرجاء وأهمل جانب الخوف، فإنه يأمن مكر الله، وإذا غلّب جانب الخوف وأهمل جانب الرجاء تصيبه الكبيرة الثانية وهي القنوط من رحمة الله، وإذا أتى بالرجاء والخوف بالتوازن ومضى معتدلًا متوازنًا راجيًا خائفًا فإنه يسلم من اليأس ومن القنوط، ولا تكون السلامة من اليأس ومن القنوط إلا بالاعتدال في باب

الرجاء والخوف، إذا غلّب جانب الرجاء وأهمل الخوف يصيبه ماذا؟ اليأس والأمن من مكر الله، وإذا غلّب جانب الخوف وأهمل جانب الرجاء يصيبه القنوط من رحمة الله واليأس من روح الله، فهاتان كبيرتان يُصاب بهما الإنسان في عدم اعتداله في جانب الرجاء والخوف.

الكبِيرَةُ السَّبْعُون
كُفْرَانُ نِعْمَةِ الْمُحْسِنِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان:١٤].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ».

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: " كُفْرَانُ النِعْمَةِ مِن الْكَبَائِرِ، وَشُكْرُهَا بِالْمُجَازَاةِ أَوْ بِالدُّعَاءِ".

أيضا بالإضافة إلى هـٰذا ما جاء في الحديث: «إنكنّ تكفُرنَ العَشِيرَ»، «تكفُرنَ المُنعمين» في بعض ألفاظ الحديث، فكفران نعمة المحسن؛ يعني من أحسن إليه وصُنع إليه معروفا فكفر هـٰذه النّعمة وجحدها، فهـٰذا من الأمور العظيمة ومن الأمور الكبيرة.

﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾، «لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ»، «إنِّي أُرِيتُكنَّ أكثَرَ أَهلِ النَّار» قُلنَ: وبمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ الله قَالَ: «تُكثِرنَ اللّعنَ وتكفُرنَ العَشِيرَ»، جاء في بعض ألفاظ الحديث: «تَكفُرنَ المُنعمين»، نعم.

الكبِيرَةُ الحَادِيَةُ والسِّتُّون
مَنْعُ فَضْلِ الْمَاءِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ﴾ [الملك:٣٠].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَمْنَعُوا فَضْلَ الْمَاءِ لِتَمْنَعُوا بِهِ الْكَلَأَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَالَ ﷺ: «لاَ [تَمْلِكُوا] فَضْلَ الْمَاءِ» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ مَنَعَ فَضْلَ مَاءٍ أَوْ فَضْلَ كَلَإٍ مَنَعَهُ اللهُ فَضْلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ.

وَقَالَ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِالْفَلَاةِ يَمْنَعُهُ ابْنَ السَّبِيلِ، وَرَجُلٌ بَايَعَ الْإِمَامَ لَا يُبَايِعُهُ إِلَّا لِدُنْيَا؛ فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا وَفَّى لَهُ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ مِنْهَا

لَمْ يَفِ لَهُ، وَرَجُلٌ بَاعَ رَجُلًا سِلْعَةً بَعْدَ الْعَصْرِ، فَحَلَفَ بِاللهِ لَأَخَذَهَا بِكَذَا وَكَذَا فَصَدَّقَهُ، وَهُوَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَزَادَ: «وَرَجُلٌ مَنَعَ فَضْلَ مَاءٍ، فَيَقُولُ اللهُ: الْيَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ».

قوله: (منع فضل الماء)؛ أي الفاضل عن حاجة الإنسان والزّائد عن حاجة الإنسان؛ يعني لا يحتاجه زائدًا عن حاجته وحاجة أهله وولده، فهٰذا يسمّى فضل الماء، فإذا منعه ابن السّبيل ومنعه المحتاج، ويرى الشّخص الظّمآن العطشان وعنده فضل ماء ولا يعطيه منه فهٰذه كبيرة من الكبائر، وجاء فيها وعيد شديد كما مرّ معنا في الأحاديث التي ساقها المصنّف رحمه الله؛ ومنها ما ختم به في صحيح البخاري قال: «فَيَقُولُ اللهُ: الْيَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ» يعني ما مننت به عليك، ولك أن تربط بين هٰذا الحديث الذي ختم به المصنّف وبين الآية التي صدّر بها كلامه على هٰذه الكبيرة وهي أنّ الماء منّة الله على عباده «مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ»، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾؛ أي لا أحد غير الله تعالى، فالماء منّة الله، إمّا أن يخرج من الأرض أو ينزل مطرا من السّماء تفضّل به تعالى على عباده، فمن كان عنده فضل ماء ومنعه ابن السّبيل فهو على كبيرة وأمر وذنب عظيم.

الكَبِيرَةُ الثَّانِيَةُ والسَّبْعُون
مَنْ وسَمَ دابّةً فِي الْوَجْهِ

عَنْ جَابِرٍ ﭬ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِحِمَارٍ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ؛ فَقَالَ: «لَعَنَ اللهُ الَّذِي وَسَمَهُ». أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ. وَعِنْدَ أَبِي دَاوُدَ فَقَالَ: «أَمَا بَلَغَكُمْ أَنِّي لَعَنْتُ مَنْ وَسَمَ الْبَهِيمَةَ فِي وَجْهِهَا، أَوْ ضَرَبَهَا فِي وَجْهِهَا، وَنَهَى عَنْ ذَلِكَ».

فَقَوْلُهُ ﷺ: «أَمَا بَلَغَكُمْ أَنِّي لَعَنْتُ» يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَبْلُغْهُ الزَّجْرُ غَيْرُ آثِمٍ، وَأَنَّ مَنْ بَلَغَهُ وَعَرَفَ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي اللَّعْنَةِ، وَكَذَا نَقُولُ فِي عَامَّةِ هٰذِهِ الْكَبَائِرِ إِلَّا مَا عُلِمَ مِنْهَا بِالْاضْطِرَارِ مِن الدِّينِ.

ثمّ ذكر هٰذه الكبيرة: وسم الدّابة في الوجه، وسم الدّابة في الوجه؛ يعني أن يضع فيها وسما في وجهها، فهٰذا من كبائر الذّنوب، والوسم: علامة توضع في الدّابة حتّى يُميّز الإنسان دابّته أو دوابّه عن عوام النّاس حتّى لا تختلط أو يدّعيها أُناسٍ لأنفسهم، فالعلامة تُميّز دوابّه عن دوابّ غيره، فلعن النّبي ﷺ من وسم الدّابة في الوجه.

ونبّه هنا المصنّف على فائدة تتعلّق بعموم الكبائر، أخذها من قوله: «أَمَا بَلَغَكُمْ أَنِّي لَعَنْتُ مَنْ وَسَمَ الْبَهِيمَةَ

فِي وَجْهِهَا»، «أَمَا بَلَغَكُمْ» ففي هـٰذا فائدة أنّ الإثم متعلّق بمن بلغته الحجّة، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾ [النساء:١١٥]، أمّا الذي ما بلغته الحجّة ولم يتبيّن له الهدى فهو معذور؛ لأنّه ما وصله الحكم ولا بلغه الحكم، قال: «أَمَا بَلَغَكُمْ أَنِّي لَعَنْتُ مَنْ وَسَمَ الْبَهِيمَةَ»، يقول الذّهبي: (فَقَوْلُهُ ﷺ: «أَمَا بَلَغَكُمْ أَنِّي لَعَنْتُ» يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَبْلُغْهُ الزَّجْرُ غَيْرُ آثِمٍ، وَأَنَّ مَنْ بَلَغَهُ وَعَرَفَ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي اللَّعْنَةِ، وَكَذَا نَقُولُ فِي عَامَّةِ هٰذِهِ الْكَبَائِرِ إِلَّا مَا عُلِمَ مِنْهَا بِالاضْطِرَارِ مِنَ الدِّينِ.)؛ يعني الأمور المعلومة من الدّين بالضّرورة، وفعلا بالاضطرار من الدّين هـٰذه لا يُعذر الإنسان بالجهل بها.

الكبِيرَةُ الثَّالِثَةُ والسَّبْعُون
الْقِمارُ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١)﴾ [المائدة:٩٠-٩١]. وَأَنزَلَ اللهُ تَعَالى غَيْرَ آيَةٍ فِي مَقْتِ آكِلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ تَعَالَ أُقَامِرْكَ فَلْيَتَصَدَّقْ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

فَإِذَا كَانَ مُجَرَّدَ الْقَوْلِ مَعْصِيَةً مُوجِبَةً لِلْصَدَقَةِ الْمُكَفِّرَةِ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْفِعْلِ؟! وَهُوَ دَاخِلٌ فِي آكِلِ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ.

ثمّ ذكر المصنّف رحمه الله هـٰذه الكبيرة: كبيرة القِمَار، وهو الميسر الذي ذمّه الله تبارك وتعالى في القرآن، وهو أكلٌ لأموال النّاس بالباطل، والقمار له طرق كثيرة كان يمارسها أهل الجاهليّة، وكثير من القِمار يكون عبر ألعاب معيّنة بعضها يتطلّب الفوز، يتطلّب الفوز والغلبة، تتطلّب الغلبة بشيء من المهارة والتّفكير؛ يعني يلعبون لعبا فيها شيء من المهارة والتّفكير، ثمّ من يغلب يأخذ مال الآخر، وشيئا آخر لا يتطلّب مهارة وتفكيرا؛ وإنّما تكون الغلبة له بالاتّفاق؛ ولهـٰذا يمارسون لعبا بعضها تحتاج إلى شيء من التّفكير وبعضها لا تتطلّب تفكيرا؛ وإنّما يكون له الغلبة بالاتّفاق، فمثلا أن يضع المتقامرين كلّ منهما مالا معيّنا، قد يكون متساويا وقد يكون أحدهما يضع مالا أكبر من الآخر؛ كأن يقول للمتقامر معه أنا أضع ألف ريال وأنت تضع ثماني مئة ريال، ونلعب النّرد ومن كانت له الغلبة منّا أخذ المبلغ كاملا.

والنَّرْد: هو ما يعرف في زماننا هـٰذا بلعبة الطّاولة؛ يعني طاولة وفيها مثلا مربّعات ثمّ فيه قطعتين من الزّهر ومربّعة وفي كلّ جانب منها نقط تشير إلى أرقام، فيه جانب فيه نقطة واحدة، وجانب آخر نقطتين،

وجانب ثالث أربع نقط، وجانب خمس نقط وهكذا، ثمّ يتقابلان ويرمون [النرد]، وهـٰذه الإصابة بالاتّفاق، قد يرمي وتقع على خلاف ما يريد، ويرمي صاحبه وتقع على ما أراد ويَغْلِب، فهـٰذه صارت بالاتفاق وليس بالتّفكير، لعبة لا تحتاج إلى تفكير حتّى يصل إلى الفوز، فهـٰذا نوع من القمار.

ونوع من القمار لعب تحتاج إلى تفكير، وأشهرها لعبة الشّطرنج، الشّطرنج هي لعبة ويكثر فيها القمار بين اللاّعبين كلّ منهما يضع مبلغا معيّنا، ومن يفوز يأخذ المبلغ كاملا، وهـٰذه لعبة تحتاج إلى تفكير، يُقدِّم رقع الشّطرنج بطرق معيّنة حتّى يغلب صاحبه، فيأخذ المبلغ كاملا.

وكذلك من القمار ما يسمّى في زماننا باليانصيب، يشتري النّاس كرتا أو يشتري قطعا من الورق بمال رخيص، ثمّ يكون مثلا الفائز بهـٰذا المال واحد.

وكذلك المسابقات التي تعقد وتتصل لتأخذ رقما في المسابقة، وقسيمة الاتّصال مبلغا معيّنا؛ يعني يكون باتّصالك دفعت هـٰذا المبلغ وسُجّل على فاتورة هاتفك، فتدفع مبلغا معيّنا ويكون رمز الاتّصال هو كذا، ويفوز من هؤلاء المتّصلين وهم بالآلاف واحد مثلا، فهـٰذا كلّه من أكل أموال النّاس بالباطل؛ لأنّ مئات وآلاف النّاس دفعوا هـٰذا المبلغ المعيّن والفائز منهم واحد، فمن أموال النّاس يُدفع لهـٰذا الفائز الجائزة، والباقي يأكله أصحاب الجائزة بالباطل، كلّ هـٰذا من القمار، من الميسر الذي حرّمه الله تبارك وتعالى.

أشار المصنّف هنا إلى الحديث: «مَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ تَعَالَ أُقَامِرْكَ فَلْيَتَصَدَّقْ»، فَإِذَا كَانَ مُجَرَّدَ الْقَوْلِ مَعْصِيَةً مُوجِبَةً لِلصَدَقَةِ الْمُكَفِّرَةِ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْفِعْلِ؟!؛ يعني حتّى وإن لم يفعل قال: "أريد أن أقامرك"، بمجرّد القول يكون قد ارتكب معصية، كيف بمن باشر الأمر وأكل أموال النّاس بالباطل؟!.

الكبِيرَةُ الرَّابِعةُ والسَّبْعُون
الْإِلْحادُ فِي الْحرم

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ .. وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥].

قَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ: عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ سِنَانٍ –وَقَدْ وَثَّقَهُ ابْنُ حِبَّانَ– عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ الْمُصَلُّونَ، مَنْ يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيَصُومُ رَمَضَانَ، وَيُعْطِي زَكَاةَ مَالِهِ يَحْتَسِبُهَا، وَيَجْتَنِبُ الْكَبَائِرَ الَّتِي نَهَى اللهُ عَنْهَا»، ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا الْكَبَائِرُ؟، قَالَ: «هُنَّ تِسْعٌ: الشِّرْكُ بِاللهِ، وَقَتْلُ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ، [وَالسِّحْرُ]، وَفِرَارُ يَوْمِ الزَّحْفِ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ

الرِّبَا، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَةِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ الْمُسْلِمَيْنِ، واسْتِحْلَالُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ قِبْلَتِكُمْ، مَا مِنْ رَجُلٍ يَمُوتُ لَمْ يَعْمَلْ هَؤُلَاءِ الْكَبَائِرِ، وَيُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ؛ إِلَّا كَانَ مَعَ النَّبِيِّ فِي دَارٍ أَبْوَابُهَا مَصَارِيعُ مِنْ ذَهَبٍ». سَنَدُهُ صَحِيحٌ.

وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَعْدَى النَّاسِ عَلَى اللهِ مَنْ قَتَلَ فِي الْحَرَمِ أَوْ قَتَلَ غَيْرَ قَاتِلِهِ، أَوْ قُتِلَ بِذُحُولِ الْجَاهِلِيَّةِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ.

ثمّ أورد رحمه الله هـٰذه الكبيرة: (**الإلحاد في الحرم**)، و(**الإلحاد**) هو الميل والعدول، تقول العرب: ألحد السّهم عن الرَّمِيّة؛ أي مال، ويسمّى **"اللّحد"** لحدا لأنّ فيه ميلا إلى جانب القبلة، فاللُّحود هو الميل والعدول، والميل والعدول والانحراف في الحرم أشدّ؛ لأنّ المعصية يتضاعف حجمها في فضل المكان وأيضا فضل الزّمان، فالمعصية في الحرم ليست كالمعصية في غيره، والمعصية في رمضان الزّمن الفاضل ليست كالمعصية في غيره، فهـٰذه كبيرة: **"الإلحاد في الحرم"**، وأورد فيها الآية الكريمة: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وأيضا أورد الحديث الذي فيه عدّ النّبي ﷺ تسعا من الكبائر قال: «**هُنَّ تِسْعٌ**»، وذكر منها: «**اسْتِحْلَالُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ قِبْلَتَكُمْ**».

قوله: «**بِذُحُولِ الْجَاهِلِيَّةِ**» هل في تعليق عندكم عليها؟ في الطّبعات الأخرى، ...

«**ذُحُولِ الْجَاهِلِيَّةِ**» أي الثار والعداوات، نعم، «**ذُحُولِ الْجَاهِلِيَّةِ**» يعني الثّأر والعداوات التي في الجاهليّة، نعم. «**أَوْ قُتَلَ بِذُحُولِ الْجَاهِلِيَّةِ**» في أيدي ما بينهم ثارات وعداوات.

النّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لّما خطب في خطبة الوداع أبطل ذحول الجاهليّة وقال: «**كلّ دم كان في الجاهليّة فهو باطل**»، وأبطلها كلّها عليه الصّلاة والسّلام وانتهت بالإسلام، فمن قُتل بذحول الجاهليّة يعني بالعداوات والثّارات التي كانت بينهم فهو مرتكب لعظيمة من عظائم الذّنوب؛ لأنّها انتهت وقضى عليها الإسلام وأبطلها.

الكبيرةُ الخامسةُ والسَّبعون
تاركُ الجُمعةِ ليصلّي وحده

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِقَوْمٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الْجُمْعَةِ: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ رَجُلًا يُصَلِّي بِالنَّاسِ، ثُمَّ أُحَرِّقَ عَلَى رِجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الْجُمْعَةِ بُيُوتَهُمْ». أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

وَقَالَ ﷺ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمْعَاتِ أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ثُمَّ لَيَكُونَنَّ مِن الْغَافِلِينَ».

أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ أَبِي الْجَعْدِ الضَّمْرِيّ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا طَبَعَ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ» إِسْنَادُهُ قَوِيٌّ، أَخْرَجَهُ أَبُو دَاودُ وَالنَّسَائِيُّ.

وَعَنْ حَفْصَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «رَوَاحُ الْجُمْعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ.

ثمّ أورد هـٰذه الكبيرة: (**ترك الجمعة ليصلّيَ وحده**)؛ يعني لا يشهد الجمعة مع المسلمين وإنّما يصلّيها وحده ظهرا، فهـٰذه كبيرة وساق فيها المصنّف رحمه الله جملة من النّصوص.

وكذلك أيضا: "**التّخلف عن الجماعة بغير عذر**" والحديث الذي أورده المصنّف جاء في بعض ألفاظه عامّا في التّخلف عن الصّلوات: «**لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ برَجُل فيُصَلِّي بِالنَّاسِ، ثُمَّ أخالف إلى أقوام لا يشهدون الصلاة فأحرّق عليهم بيوتهم**»، وقال: «**من سمع النّداء فلم يُجِب فلا صلاة له إلاّ من عذر**»، والأحاديث التي في وجوب الصّلاة مع الجماعة كثيرة جدّا ومشتملة على التّهديد والوعيد للمتخلّف عنها كثيرة، حتى أنّ ابن مسعود ؓ قال: "**وما يتخلّف عنها إلاّ منافق معلوم النّفاق**".

الكَبِيرَةُ السَّادِسَةُ والسَّبْعُون
مَنْ جسَّ علَى الْمُسلِمِين ودلَّ علَى عورَاتِهِمْ

فِي الْبَابِ حَدِيثُ حَاطِبِ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ، وَأَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ أَرَادَ قَتْلَهُ بِمَا فَعَلَ، فَمَنَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ قَتْلِهِ لِكَوْنِهِ شَهِدَ بَدْرًا.

فَإِنْ تَرَتَّبَ عَلَى جَسِّهِ وَهَنٌ عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَقَتْلُ مُسْلِمِينَ، وَسَبْيٌ وَأَسْرٌ وَنَهْبٌ، أَوْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ؛ فَهٰذَا مِمَّنْ سَعَى فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَأَهْلَكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ، وَتَعَيَّنَ قَتْلُهُ، وَحُقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابِ، نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ.

وَبِالضَّرُورَةِ يَدْرِي كُلُّ ذِي جَسٍّ أَنَّ النَّمِيمَةَ إِذا كَانَتْ مِنْ الْكَبَائِرِ، فَنَمِيمَةُ الْجَاسُوسِ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ بِكَثِيرٍ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

ذكر المصنّف هـٰذه الكبيرة التي ختم بها عَدَّه لهـٰذه الكبائر وهي: "**الجسّ على المسلمين والدّل على عوراتهم**"، وأورد أو أشار إلى قصّة حاطب بن أبي بلتعة ؓ وقصّته معروفة، وهو ممّن شهد بدرا ؓ وأرضاه، وفيه دلّ على عورات المسلمين، يعني الذي حصل من حاطب فيه دلّ على عورات المسلمين؛ لكنّه خطأ وذنب وقع فيه وتاب منه وتاب الله عليه وهو ممّن شهد بدرا وفيهم قال عليه الصّلاة والسّلام: « **إنّ الله قال في أهل**

بدر: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

ولمّا ذكر هـٰذه الكبيرة ذكر التفاوت في حجمها وفي جرمها قال: "فَإِنْ تَرَتَّبَ عَلَى جَسِّهِ" يعني تجسّسه على المسلمين، وهن الإسلام وأهله وقتل المسلمين وسبي النساء وأسرهم إلى آخره، فهـٰذا من المفسدين في الأرض، "وَتَعَيَّنَ قَتْلُهُ، وَحُقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابِ" أي من الله تعالى.

فَصْلٌ

جَامِعٌ لِمَا يُحْتَمَلُ أَنَّهُ مِنَ الْكَبَائِرِ

يعني لمّا ذكر هـٰذه الكبائر بدلائلها ذكر فصلا يجمع فيه نصوص فيها وعيد لأعمال وأمور معيّنة يُحتمل أنّها من الكبائر؛ يعني كثير منها واضح أنّه من كبائر الذّنوب؛ بل بعضها سبق أن أورده رحمه الله في جملة الكبائر التي عَدَّها.

[المتن]

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

مرّ معنا قاعدة في الباب أنّ نفي الإيمان لا يكون إلاّ عن ترك واجب أو فعل محرّم، وقوله: «حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» هـٰذا القدر الذي هو واجب من واجبات الدّين أمرٌ متعلّق بالقلب، يحبّ لأخيه؛ يعني في قلبه بمعنى أن يكون قلبك نقيّا تّجاه إخوانك لا غلّ ولا حقد ولا حسد ولا بطانة سوء؛ وإنّما هو قلب نظيف تحبّ لهم من الخير ما تحبّ لنفسك، فهـٰذا قدر واجب، هـٰذا قدرٌ في الإيمان واجب وهو يتعلّق بالقلب، «حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» لم يُطلب منك هنا أن تقاسمه مالك أو أن تعطيه مالك؛ وإنّما المطلوب منك أن يكون قلبك محبّا الخير لإخوانك مثل ما تحبّ لنفسك، وإذا وُجدت هـٰذه الخَصْلة حبّ المسلم الخير لإخوانه مثلما يحبّ لنفسه تطرد عنه الحسد وتطرد عنه الغلّ وتطرد عنه أمراض كثيرة من أمراض القلوب، وإذا فرّط الإنسان في هـٰذه الخصلة الواجبة من خصال الدّين دخل عليه من أمراض القلوب الشّيء الكثير.

وَقَالَ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَنَفْسِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» صَحِيحٌ.

وَقَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتَ بِهِ» إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

هـٰذا يعني صحّح إسناده هنا الذّهبيّ، وكذلك النّوويّ رحمه الله في الأربعين حسّن إسناده، وبعض العلماء ومنهم ابن رجب يضعّف إسناده ويذكر فيه علل، وبعضهم يحسّنه بما له من الشّواهد، والمعنى تدلّ عليه

النّصوص، ابن رجب رحمه الله لمّا ضعّف إسناده في "جامع العلوم والحِكم" قال: "لكنّ معناه حقّ دلّ عليه القرآن والسنّة"، نعم.

๑๑◊๑๑

وَقَالَ: «وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ».

هـٰذا سبق أن مرّ معنا .

๑๑◊๑๑

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَفِي حَدِيثٍ لِمُسْلِمٍ فِي الظَّلَمَةِ: «فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةَ خَرْدَلٍ». وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَن لَّمْ يُنْكِرِ الْمَعَاصِي بِقَلْبِهِ، وَلَا يَوَدُّ زَوَالَهَا، فَإِنَّهُ عَدِيمُ الْإِيمَانِ، وَمِنْ جِهَادِ الْقَلْبِ التَّوَجُّهُ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي أَنْ يَمْحَقَ اللهُ الْبَاطِلَ وَأَهْلِهِ أَوْ أَنْ يُصْلِحَهُمْ.

قوله في الحديث: «لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةَ خَرْدَلٍ»؛ أي أنّ هـٰذا هو القدر الذي يُمكن أن يوجد في العبد ممّا يُسمّى إيمانا، إمّا أن يُنكر بيده أو يُنكر بلسانه أو يُنكر بقلبه وهـٰذا أضعف قدر يمكن أن يوجد في القلب ويُسمَّى إيمانا، فإذا انتفى هـٰذا القدر في منكر معيّن أو في بعض المنكرات لا يدلّ على انتفاء الإيمان وأنّ الشخص عديم الإيمان؛ وإنّما يدلّ على أنّ أقل قدر في مسمّى الإيمان في هـٰذا الباب لم يقم عنده، وإلاّ من المعلوم أنّ الّذي يعمل المعصية كشرب الخمر أو غيره يعمله وهو محبّ لهـٰذه المعصية مقبل عليها، ليس في قلبه كراهيّة لها، ولا يكون بذلك كافرا عديم الإيمان؛ ولهـٰذا بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتاب "الإيمان" أنّ معنى قوله: «لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةَ خَرْدَلٍ»؛ أي أنّ هـٰذا أقلّ قدر في هـٰذا الباب يُسمى إيمانا؛ فـ«لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةَ خَرْدَلٍ» يعني ليس وراء ذلك شيء يُسمى إيمانا.

๑๑◊๑๑

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ؛ فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ؛ وَلَكِن مَّن رَّضِيَ وَتَابَعَ» قِيلَ أَفَلَا نُقَاتِلَهُمْ؟ قَالَ: «لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

نعم، هـٰذا مرَّ معنا في باب للمصنّف.

๑๑◊๑๑

وَقَدْ مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِقَبْرَيْنِ يُعَذَّبَانِ فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ؛ بَلَى إِنَّهُ كَبِيرٌ: أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ

لاَ يَسْتَنْزِهُ مِنَ بَوْلِهِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»[١].

كذلك مرَّ.

ﮓﮓ ◊ ﮒﮒ

وَمِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَعَانَ عَلَى خُصُومَةٍ بِغَيرِ حَقٍّ كَانَ فِي سَخَطِ اللهِ حَتَّى يَنْزِعَ» صَحِيحٌ.

وَقَالَ: «الْمَكْرُ وَالْخَدِيعَةُ فِي النَّارِ» إِسْنَادُهُ قَوِيٌّ.

هـٰذا والذي قبله مرَّ في الخصومة؛ الأول مرَّ بلفظه، وهـٰذا في معنى الباب، نعم.

ﮓﮓ ◊ ﮒﮒ

وَقَالَ: «لَعَنَ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ» جَاءَ ذَلِكَ مِن وَجْهَيْنِ جَيِّدَيْنِ.

وقد عدّه المصنّف رحمه الله كبيرة كما سبق[٢].

ﮓﮓ ◊ ﮒﮒ

وَعَنْهُ ﷺ قَالَ: «مَنْ خَبَّبَ عَلَى امْرِئٍ زَوْجَتَهُ أَوْ مَمْلُوكَهُ فَلَيْسَ مِنَّا» رَوَاهُ أَبُو دَاوُد.

هـٰذا من الكبائر أن يُخبّب المرأة على زوجها أو أن يُخبّبَ المملوك على مواليه، فهـٰذا من الكبائر. وهو التخبيب: الإفساد؛ يعني المرأة بينها وبين زوجها عِشرة ومحبة وألفة فيُخبّبها على زوجها؛ يُفسدها على زوجها؛ مثل أن يُعيب زوجها ويُذمّه ويقول تجدين عندي ما لا تجدين عنده وسترين عندي كذا حتى تطلب منه الانفصال والطلاق لتكون عند هـٰذا الآخر؛ فهـٰذا التخبيب من الكبائر، نعم.

ﮓﮓ ◊ ﮒﮒ

وَقَالَ ﷺ: «الْحَيَاءُ وَالْعَيُّ شُعْبَتَانِ مِنْ الْإِيمَانِ، وَالْبَذَاءُ وَالْجَفَاءُ شُعْبَتَانِ مِنْ النِّفَاقِ». هـٰذا صَحِيحٌ.

وَقَالَ ﷺ: «الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْبَذَاءُ مِنَ الْجَفَاءِ، وَالْجَفَاءُ فِي النَّارِ».

نعم، مرّ معنا هـٰذا[٣].

رَوَاهُ هُشَيمُ عَنْ مَنْصُورِ بْنِ زَاذَان عَنْ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ. وَرَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو بْنُ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ.

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ إِمَامُ جَمَاعَةٍ؛ فَإِنَّ مَوْتَتَهُ مَوْتَةَ الْجَاهِلِيَّةِ» إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

---

١ الكبيرة الحادية والثلاثون: عدم التنزه من البول.

٢ الكبيرة التاسعة والعشرون: المحلل والمحلل له.

٣ الكبيرة الخامسة والستون: الجدال والمراء واللدد ووكلاء القضاة.

وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ مُوسَى؛ حَدَّثَنَا وَقَّاصَ بْنَ رَبِيعَةَ، عَنْ الْمستورد بْنِ شَدَّادٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ أَكَلَ بِمُسْلِمٍ أُكْلَةً؛ أَطْعَمَهُ اللهُ بِهَا أُكْلَةً مِن نَّارِ يَوْمِ الْقِيَامَة، وَمَنْ أَقَامَ بِمُسْلِمٍ مَقَامَ سُمْعَةٍ؛ أَقَامَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَة مَقَامَ رِيَاءٍ وَسُمْعَةٍ، وَمَنِ اكْتَسَى بِمُسْلِمٍ ثَوْبًا كَسَاهُ اللهُ ثَوْبًا مِن نَّارِ يَوْمِ الْقِيَامَةَ» صَحَّحَهُ الْحَاكِمُ.

وهـٰذا أيضا من الكبائر؛ يعني أن يكون أكله أو تحصيله للمال بإضراره للآخرين من إخوانه المسلمين؛ كأن يلحق بمسلم أذى، يُسمِّع به أو نحو ذلك ليأكل مالا بالباطل فقال: «كَسَاهُ اللهُ ثَوْبًا مِن نَّارِ يَوْمِ الْقِيَامَةَ»، نعم.

﴿﴾

وَصَحَّحَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي خُرَاش السُّلَمِيّ؛ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يقُولُ: «مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ سَنَةً فَهُوَ كَسَفْكِ دَمِهِ».

وهـٰذا فيه التحذير من التهاجر بين المسلمين والتدابر، وأن هـٰذا يتنافى مع الأخوة الإيمانية، كما قال عَلَيهِ الصَّلاة والسَّلام: «لا تحاسدوا، ولا تناشجوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا»، نعم.

﴿﴾

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ الله؛ فَقَدْ ضَادَّ اللهَ فِي أَمْرِهِ» إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ.

يعني من شفع ليمنع حدّ من حدود الله فقد ارتكب أمرا عظيما؛ لأنه ضادَّ الله في أمره.

﴿﴾

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِن رِّضْوَانِ الله، مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ الله، مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ» صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

هـٰذا فيه خطورة اللسان وجنايته على الإنسان، وقد مرَّ معنا أبواب عديدة هي من الكبائر التي يحصّلها الإنسان بلسانه، والحديث فيه: «وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ الله، مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ» يعني من الخطورة والشرّ والضرر «يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ». جاء في بعض الأحاديث: «لا يلق لها بالا».

﴿﴾

وَعَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقَ يَا سَيِّد، فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّدًا فَقَدْ أَسْخَطتُمْ رَبَّكُمْ عز

وجل» صَحِيحٌ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُد.

وهـٰذا فيه النهي عن تسييد المنافق بأن يقال له "يا سيّد"، أو كذلك أن يقال للكافر "يا سيّد"، نعم.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

تكرر معنا الحديث؛ لكن ينبّه المصنّف هنا.

فَأَمَّا الْكَذِبَ وَالْخِيَانَةَ فَقَدْ مَرَّا؛ وَأَمَّا خَلْفُ الْوَعْدِ فَهُوَ الْمَقْصُودُ بِالذِّكْرِ هُنَا. وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦)فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

هـٰذا خُلف وعد؛ يعني عاهدوا الله عز وجل إن آتاهم مالا يتصدقوا وأن يكونوا من الصالحين فأخلفوا هـٰذا الوعد؛ فهـٰذا من الكبائر، نعم.

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ مَرْفُوعًا قَالَ: «مَنْ لَمْ يَأْخُذْ مِنْ شَارِبِهِ فَلَيْسَ مِنَّا» صححه الترم صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ.

«مَنْ لَمْ يَأْخُذْ مِنْ شَارِبِهِ فَلَيْسَ مِنَّا»؛ يعني من سنن الفطرة قصّ الشارب وإعفاء اللحية؛ فمن لم يأخذ من شاربه فليس منا. وهـٰذا يدل على أنه كبيرة، والفطرة قد تنتكس في بعض الناس فيُرسل الشارب ويحلق اللحية مع أن الفطرة هو العكس أن يقصّ الشارب ويُرسل اللحية؛ ولكن بعضهم يعكس الفطرة، حتى أني أذكر قبل سنوات طويلة وكان سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله كتب ردًّا حول هـٰذا الأمر؛ عُقدت مسابقة عالمية أفضل شارب في العالم ففاز بالمسابقة رجل صوّرت صوره في الصحف وكان الشيخ رحمة الله عليه أنكر إيراد الخبر في الصحف عندنا وقال: يعني هـٰذا عمل باطل ومخالف للفطرة ولا يُذكر، كتب كتابة عظيمة وبيّن الحُكم، مخالفة الفطرة وما فيها من انتكاس، فكانت له صورة بشعة جدا يعني شاربه طويل نازل، كل فمه لا تراه؛ يعني فمه لا تراه من شاربه وكثافة الشارب واللحية محلوقة، منظر بغيظ جدا.

وهنا لما يخالف الإنسان الفطرة ويطيل الشارب ويترك الشارب على كثافته هـٰذا فيه أنواع من الأذى له وللآخرين: أما له ففي قضية الطعام يؤذي نفسه أذى شديدا عندما يتناول الطعام، وأنا أتصور أنه لو أراد أن يشرب مثلا إدام بالملعقة هو يحتاج إلى يده اليمين حتى يرفع بها الإدام ويده اليسار حتى يرفع بها الشارب

حتى يجد مدخل، فيده اليسار يرفع بها شاربه عن فمه ويده اليمين يرفع بها الطعام حتى يدخل بها الإدام؛ هـٰذه أذية لنفسه، وكذلك عندما ينظف أنفه هـٰذا أيضا يؤذي نفسه. أما إذا قبل طفله الصغير على وجه المداعبة فهـٰذه كارثة، وطفله الصغير سيقول: "ليت الله أراحنا من هـٰذه القُبلة"، أذيّة شديدة؛ لو أنه جاء يقبّل الطفل يداعبه رحمةً بالصغير وقبّله ثم آذاه بهـٰذا الشارب الكثيف الذي يغطي الفم؛ وأظنه أيضا لن يتمكن أيضا من قُبلة الصغير إلا بأن يأتي بيديه وينهض بها الشارب حتى يبرز فمه ويتمكن من التقبيل. يعني أذية –والعياذ بالله– وانتكاس. وهـٰذا الحديث يقول: «مَنْ لَمْ يَأْخُذْ مِنْ شَارِبِهِ فَلَيْسَ مِنَّا»؛ يعني هـٰذه انتكاسة في الفطرة والعياذ بالله، نعم.

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ تَعَالى عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَالِفُوا الْمُجُوسَ، وَفِّرُوا اللِّحَى وَاحِفُّوا الشَّوَارِبَ».

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ تَعَالى عَنْهُ: "لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَبْعَثَ رِجَالًا إِلَى هـٰذه الْأَمْصَار فَيَنْظُرُوا كُلَّ مَن لَّمْ يَحُجّ؛ فَمَنْ كَانَتْ لَه جِدَة وَلَمْ يَحُجّ فَيَضْرِبُوا عَلَيْهِ الْجِزْيَةَ، مَا هُمْ بِمُسْلِمِينَ. مَا هُمْ بِمُسْلِمِينَ". رَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ فِي سُنَنِهِ.

هـٰذا من كانت عنده قدرة على الحج؛ يعني من كانت عنده جِدَة؛ يعني نفقة وزاد واستطاعة بدنية على الحج ثم لم يحج فهـٰذه كبيرة؛ لأن المبادرة لأداء هـٰذا الفرض مطلوبة؛ لأن الإنسان لا يدري ما يَعرض له؛ ولهـٰذا قال عمر ڤ: "فَيَضْرِبُوا عَلَيْهِ الْجِزْيَةَ، مَا هُمْ بِمُسْلِمِينَ. مَا هُمْ بِمُسْلِمِينَ"، نعم.

وَعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ تَعَالى عَنْهُ، سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ وَالِدَةٍ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ.

وَيُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ فَرَّ مِن مِّيرَاثِ وَارِثِهِ، قَطَعَ اللهُ مِيرَاثَهُ مِنَ الْجَنَّةِ» فِي سَنَدِهِ مَقَالٌ.

وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللهِ سِتِّينَ سَنَةٍ ثُمَّ يَحْضُرُهُ الْمَوْتُ فَيُضَارُّ فِي الْوَصِيَّةِ فَتَجِبُ لَهُ النَّارُ». ثُمَّ قَرَأَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالى عَنْهُ: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ الآيات [النساء:١٢]. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ.

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ خَارِجَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ عَلَى نَاقَتِهِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ حَقٍّ حَقَّهُ، ذِي فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ» صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

في هـٰذه النصوص الوعيد على المضارة بالوصية بأن يحذف بعض الورثة أو يزيد بعض الورثة أو يتعامل معهم بغير العدل الذي أمر الله به؛ اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم.

ﮋﮋ ◊ ﮊﮊ

وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ».

مرَّ معنا نظيره في كبيرة اللَّعان: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش البذيء».

ﮋﮋ ◊ ﮊﮊ

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ وَتُفْضِي إِلَيْهِ ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

وهـٰذا من عظائم الذنوب أن يُفشي أحد الزوجين ما يقع بين الزوجين من أمور خاصة والمعاشرات الخاصة التي بينهما.

ﮋﮋ ◊ ﮊﮊ

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ.

وَفِي لَفْظٍ: «لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَى رَجُلٍ جَامَعَ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا».

وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى حَائِضًا [فِي فَرْجِهَا]، أَوْ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا، أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ، فَقَدْ كَفَرَ -أو قال: بَرِئَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ. وَلَيْسَ إِسْنَادُهُ بِقَائِمٍ.

هـٰذه الأحاديث فيها أن إتيان المرأة في دبرها من كبائر الذنوب وأن فاعل ذلك ملعون؛ في بعض الألفاظ «لا ينظر الله إليه»، فإتيان المرأة، يعني إتيان الزوج لزوجته في دبرها -أي مكان خروج العذِرة- هـٰذا من كبائر الذنوب.

وقال النبي ﷺ: «لو أن رجلا اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه؛ ما كان عليك جناح» متفق عليه.

الكبيرة هنا هي الإطلاع على عورات الناس والنظر إلى عوراتهم من خلال ثقب. وعينُ من يطلع هـٰذا الإطلاع هدر لأنه مرتكب جرم عظيم؛ فذهبت عينه هدرا. الأصل في عينه أنها معصومة ومحرمة، لكن لما أوقع نفسه في هـٰذا الإثم العظيم صارت عينه هدرا، فالكبيرة هنا هي الإطلاع على عورات الناس. في الحديث «إنما جُعل الاستئذان لأجل النظر».

ﮋﮋ ◊ ﮊﮊ

وقال ﷺ: «من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفقؤوا عينه» أخرجه مسلم.

روى زياد بن الحصين عن أبي عالية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «إياكم والغلو في الدين؛ فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين» وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ﴾ [المائدة : ٧٧]

وقد عدَّ ابن حزم الغلو في الدين من الكبائر.

الغلو من الكبائر؛ بل هو السبب لكثير من الكبائر، سبب وقوع الناس في مخالفة الدين والخروج عن هدي النبي الكريم ﷺ، وعدد من الكبائر التي أشار إليها المصنف فيما سبق هي تنجم عن الغلو وتنتج عنه.

٭٭٭

عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «من حلف له بالله فليرض ومن لم يرض فليس من الله في شيء» رواه ابن ماجه.

الكبيرة هنا هي ألا يرضى الإنسان بما حُلف له عليه بالله عز وجل «ومن لم يرض فليس من الله في شيء» فهـٰذا النهي يدل على انتفاء الإيمان الواجب «ومن لم يرض فليس من الله في شيء»، لكن إذا كان الذي حلف معروف بالأيمان الفاجرة ومعروف بالكذب والحلف كاذبا وعرف عنه هـٰذا، فكون الإنسان لا يرضى بذلك لتيقنه بالأمر ولمعرفته بكذب هـٰذا الكاذب لا يشمله الحديث.

٭٭٭

وعن أبي بكر الصديق ؤ قال: قال النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة خبّ ولا منان ولا بخيل» أخرجه الترمذي بسند ضعيف.

وقال النبي ﷺ: «كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت».

(الخِبّ) يعني الإنسان الذي لا يدري ما الأمور وإنما يقبل كل ما يقال له، كل ما يدعى إليها وهو لا يتحقق من صحة الأمور، فالمسلم ليس بالخِبّ وإنما هو يتأمل: إذا كان ما يدعى إليه حق وهدى قَبِله وإلا فإنه لا يستجيب ولا يقبل.

وقوله: «كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت» يعني أن يضيع قوت عياله ولا يبالي بالنفقة على من يعول وعلى من يلزمه، ومثل هـٰذا يكثر عند المتصوفة الذين يعطلون الأسباب فتجده لا يطلب القوت لأولاده ولا يسعى في النفقة عليهم وهو معطلٌ الأسباب في جلب الرزق وطلبه، فهـٰذا من الأمور العظيمة.

❁❁◈❁❁

وقال النبي ﷺ: «كفى بالمرء إثما أن يحدّث بكل ما سمع».

يعني أن يكون ما يسمعه ينقله وإن لم يتثبت من صحته، هـٰذا من الإثم، و«بئس مطية الرجل زعموا» فالإنسان لا ينبغي أن ينقل كل الأحاديث، بل من الأحاديث نقلها يشكل خطورة على الناس، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ...﴾ [النساء : ٨٣]؛ ولهـٰذا ظهرت الأمور خاصة التي تتعلق بأمن الأمة وصالح الأمة العامة، تناقلها بين الناس ليس من المصلحة، بل الواجب على عامة الناس أن يسألوا أهل العلم: هل من المصلحة نشر هـٰذا الخبر أو ليس من المصلحة؟ على أنه في زماننا هـٰذا اختلفت الأوضاع، يعني الخبر كان سابقا لا ينتشر إلا عبر تناقل الناس، فهـٰذا ينقل للآخر والثاني ينقل للآخر ويحتاج إلى وقت حتى ينتشر، أما الآن الخبر ينتشر في الصحيفة وينتشر في القنوات وينتشر في الإذاعات، يصل إلى الآفاق بلحظة واحدة. ويبقى الحكم هو الحكم، يعني الأمور التي تمس أمن الأمة وتمس صالح الأمة العامة ذِكرها لا ينبغي أن يبادَر إليه إلا بعد عرض الأمر على أهل العلم للنظر في المصلحة.

وإذا كان قديما يحمل إثم نشر هـٰذه الأخبار أفراد المسلمين بتناقلهم التدريجي لهـٰذه الأخبار فإن في زماننا هـٰذا يحمل إثم هـٰذا التناقل كله من بث الخبر في صحيفة أو بث الخبر في قناة أو بثه في الشبكة (شبكة الإنترنت) أو غيرها فـ«كفى بالمرء إثما أن يحدّث بكل ما سمع».

وحتى ندرك خطورة الأمر بشكل أفضل: تحديث الإنسان بما سمع لشخص واحد أمامه هـٰذا إثم، فكيف بمن يحدث بما سمع في لحظة واحدة عشرات الآلاف؛ ولهـٰذا يحدث من الأخطار ومن الأضرار بسبب ذلك والفساد بالأمن وإضرار الناس شيء لا حد له ولا عدّ، فقال عَلَيهِ الصَّلاة والسَّلام: «كفى بالمرء إثما أن يحدّث بكل ما سمع».

❁❁◈❁❁

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحديد : ٢٤]

البخل هنا هو الكبيرة، وكذلك الأمر به كبيرة أخرى أن يكون بخيلا يعني شحيحا لا ينفق ما أتاه الله أو آمرا الناس بالبخل.

❁❁◈❁❁

وقال تعالى: ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء ... ﴾ [محمد: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى(٨)وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى(٩)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى(١٠)وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ٨-١١]

يعني إذا وقع في الهلاك.

*****

وقال تعالى: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ﴾ [الحاقة: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]

وقال النبي ﷺ: «اتقوا الظلم فغن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح اهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم» أخرجه مسلم.

الشح بخل الإنسان بما آتاه الله تعالى، قال: «فإن الشح اهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»

*****

وقال ﷺ: «وأي داء أدوى من البخل».

«وأي داء أدوى من البخل» أي مرض أشد من البخل؛ الداء المرض.

*****

وفي الحديث: «ثلاث مهلكات: شح مطاع وهوى متبع وإعجاب كل ذي رأي برأيه».

وصحح الترمذي: أن النبي ﷺ لعن الجالس وسط الحلقة.

هـٰذا أمر آخر في الكبائر، قال: أن النبي ﷺ لعن الجالس وسط الحلقة، لكن الحديث كأن في سنده انقطاع كما مبين في الهامش.

*****

وعن أبي هريرة ‏ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والحسد؛ فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» أخرجه أبو داود.

الحسد كبيرة والحديث واضح في أن الحسد من كبائر الذنوب. والحاسد هو عدو نعمة الله تعالى على عباده،

والحسد هو تمني زوال النعمة عن الغير.

٭٭٭

وقال ﷺ: «لو يعمل المار بين يدي المصلي ماذا عليه؟ لكان يقف أربعين خيرا له».

وقال ﷺ: «إذا صلى أحدكم إلى ما يستره من الناس، فأراد أن يجتاز بين يديه فليدفعه في نحره؛ فغن أبى فليقاتله فإنما هو شيطان» وفي لفظ مسلم: «فإن أبى فليقاتله فإن معه قرين».

قوله: «**يقف أربعين خيرا له**»، وقوله: «**فإنما هو شيطان**» يدل على أن هـٰذا الأمر ذنب عظيم، ليس بالأمر الهيّن.

٭٭٭

وعن أبي هريرة ۏ قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا. ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

كأن المصنف يريد أن يشير هنا إلى أن من الأمور العظيمة: ترك السلام الذي هو سبب المحبة بين المسلمين وسبب من أسباب دخول الجنة، قال: «**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا. ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**» فإذا هُجر السلام وتُرك ولم يكن بين المسلمين فإن هـٰذا يؤدي إلى ضعف الإسلام وضعف أسباب دخول الجنة بينهم؛ لأنه إذا وُجد السلام وُجدت المحبة، وإذا وُجدت المحبة وُجد التعاون على البرّ والتقوى فكثُر في المجتمع وسائل وأسباب دخول الجنة؛ وإذا هُجر السلام وتُرك أدى بهم هـٰذا الترك إلى ضعف إيمانهم وتفكك جماعتهم واستحواذ الشيطان عليهم، فلعل المصنف رحمه الله أراد أن يُنبه بذلك إلى أن ترك السلام يُعد من الذنوب العظيمة.

٭٭٭

هـٰذا آخر كتاب الكبائر، والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيّدنا محمّد خاتم النّبيّين وعلى آله وأصحابه الطّيّبين الطّاهرين وسلّم تسليما كثيرا

عصمنا الله وإياكم من الكبائر أجمعين، آمين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ختم الإمام الذّهبيّ رحمه الله كتاب الكبائر بهـٰذه الدّعوة التّي استهلّ بها كتابه قال: (**عصمنا الله وإياكم من الكبائر**)أي سلّمنا الله وإياكم ووقانا وإياكم منها، والعصمة من الكبائر والسّلامة منها -كما قدّمت في أوّل الكتاب- تتطلّب من المسلم علما بهـٰذه الكبائر ودراية بها، وجهلُ النّاس بالكبائر وعدم علمهم بها، وعدم علمهم بالوعيد الذي ترتّب عليها في نصوص الشّرع، جعل أمرها يخفّ عند كثير من النّاس وأصبحوا

يقعون فيها ويقعون في الكثير منها، فكان من الأمور المتأكّدة والمتعيّنة والمحتاج إليها لدى النّاس العناية بمعرفة الكبائر، ثمّ إنّ هـٰذا الأمر يتأكد في زماننا بشكل أكبر مع وجود وسائل الفساد الكبيرة التي عمّت وطمّت وانتشرت وأضرّت بكثير من النّاس، وبدأ يظهر في كثير من النّاس أنواع من الفساد، وأنواع من الممارسة لأنواع من الكبائر بشكل لم يكن موجودا قبل، فهـٰذا الحقيقة- يؤكّد على ضرورة اهتمام طلاّب العلم والدّعاة بهـٰذه الكبائر: قراءة لها ومعرفة بها، وتحذيرا للأمّة منها.

والحقيقة، كلمة ردّدتها مرارا، وأرجو أن يكون لها صدى وتردّد بين الإخوة الكرام ، أرجو الله تعالى أن يحقّق بها نفعا، كلمة ردّدتها مرارا، أقول: **"كتاب الكبائر للذّهبيّ ينبغي أن يُقرأ ولو مرّة"** فأتمنّى أنّ هـٰذه الكلمة يتولَّى الإخوة ترديدها في النّاس، وحتّى يقرأ النّاس هـٰذا الكتاب ويقفوا على هـٰذه الكبائر بنيّة الاجتناب، والله جلّ وعلا أمرنا باجتناب الكبائر، والذّهبيّ وغيره من أهل العلم نصحوا في هـٰذا الباب وقرّبوا المسألة، ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء:٣١]، لك أن تقول لمن تنصحه: الكبائر كثيرة وهي مذكورة في القرآن الكريم ولكنّ العلماء اختصروا لك، أو يسّروا لك الوقوف على هـٰذا الأمر في كتب خاصّة تقرؤها في ساعة، كتاب الذّهبيّ إذا قرأته قراءة بدون أن يكون معك واحد ثقيل مثلي يطوّل عليك هـٰذا التّطويل الذي جلس فيه أسبوعا كاملا، تقرؤه في جلسة واحد، وجلستي معكم فيها تمطيط للوقت وإلاّ ما فيها كبير فائدة، لكن قراءة الكتاب نفسه والمرور على الفوائد التي فيه هـٰذا هو أهمّ ما ينبغي أن يكون، فأنا أتمنّى وأرجو وأؤكّد أن تُردّد هـٰذه الكلمة: **" كتاب الكبائر للذّهبيّ ينبغي أن يُقرأ ولو مرّة "** يمرّ عليه المسلم، أي تنصح قريبك ، تنصح جارك تنصح أهلك في البيت، أنت قرأته، أهلك يقرؤونه في البيت، أيضا أهلك ينصحون جيرانهم، وأتمنّى أنّ هـٰذا يتردّد، حتّى يكون وقوف من النّاس على هـٰذه الكبائر، وكلٌّ يقرأ بنيّة الاجتناب والبعد عن هـٰذه الكبائر التي حرّمها الله تعالى ونهى عباده عنها، ورتّب على اجتنابها الخير العميم والفضل العديد للإنسان في الدّنيا والآخرة.

ثمّ يتذّكر من قرأ هـٰذا الكتاب أنّ مقصود العلم العمل، وأنّ وقوف الإنسان على هـٰذه الأدلّة وعلى هـٰذه الحُجج وعلى هـٰذه البيّنات حُجّة إماّ له أو عليه، في الحديث الصّحيح يقول عليه الصّلاة والسّلام: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع**» وذكر منها: «**عن علمه ماذا عمل به**» فالعلم مقصوده العمل، ومن وفّقه الله تعالى للعلم النّافع، يسأل الله جلّ وعلا ويلّحّ عليه أن ينفعه بما علّمه، كما كان نبيّنا ﷺ يقول في دعائه: «**اللّهمّ عَلّمني ما ينفَعُنِي وانْفَعْنِي بما علَّمْتَنِي، وزِدنِي علما**».

وأتوجّه إلى الله تعالى وأسأله بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى أن يتقبّل جلوسنا هـٰذا بقَبول حسن، وأن يجعله في موازين حسناتنا يوم نلقاه، وأن يُجنّبنا كبائر الإثم وموجبات سخطه وأليم عقابه، وأن يوفّقنا لصالح الأعمال، وسديد الأقوال، وأن يصلِح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأن يُصلِح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأن يُصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، وأن يجعل الحياة زيادة لنا في كلّ خير، والموت راحة لنا من كلّ شرّ، وأسأله تعالى أن يهدينا وأن يهدي بنا، وأن يهدي لنا إنّه الهادي تبارك وتعالى إلى سواء السّبيل، وأن يغفر لنا ما قدّمنا وما أخّرنا، وما أسررنا وما أعلنّا، وما أسرفنا، وما هو أعلم به منّا تعالى، وأن يغفر لنا ذنبنا كلّه: دقّه وجِلّه، أوّله وآخره، سرّه وعلنه، إنّه تبارك وتعالى غفور رحيم.

وبعض العلماء الذين كتبوا في الكبائر ختموا كتاب الكبائر بالتّوبة، وهـٰذه لفتة جميلة، يعني عندما يقف الإنسان على الكبائر، وربّما يكون أتى بعضها أو كثيرا منها، يُنبّه في الختام أنّ باب التّوبة مفتوح مهما عظم الذّنب ومهما بلغ الجرّم، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزّمر:٥٣] والحمد لله أوّلا وآخرا، وله الشّكر ظاهرا وباطنا، وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمّد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

كنت طلبت من الإخوة كتابة، أوّلا إحضار ما يتعلّق بكلام ابن القيّم، فكثير من الإخوة وقفوا على الكلام، لكن الذي سبق هو أحد الإخوة وأعطانا المرجع لكلام ابن القيّم في كتاب «**مدارج السّالكين**» وكنت الحقيقة وددت أن تكون الورقة معي لكن نسيتها في البيت، لأقرأ عليكم النّص وأعطيكم الصّفحة، أتوقّع أنّ بعضكم يكون ربّما معه، منكم من معه الورقة الذي فيها كلام ابن القيّم؟ تتوقّع وجودها معك الآن؟ تفضّل.

حين يجد الأخ الورقة، أيضا موضوع آخر، فكنت طلبت كتابة بحث من الإخوة فيما يتعلّق بالكبائر، وشارك من الإخوة أربعا وعشرين مشاركا، إقرأ عليّ.

الطّالب:

يقول ابن القيّم ـ رحمه الله ـ في "مدارج السّالكين" الجزء الأوّل صفحة (٣٣٢):

(وقريب من هـٰذا: ما قام بقلب البغيّ التي رأت ذلك الكلب وقد اشتدّ به العطش يأكل الثرى فقام بقلبها ذلك الوقت مع عدم الآلة وعدم المُعَيَّن وعدم من تُرائيه بعملها ما حملها على أن....)

الشّيخ: غير واضح؟ إذًا يكفي المجلّد والصّفحة، أعدها علينا مرّة ثانية.

القارئ: الجزء الأوّل / ٣٣٢.

الشيّخ: هو الكلام واضح والخطّ جميل لكن الإضاءة ضعيفة.

كنت طلبت من الإخوة الكتابة في موضوع الكبائر، فشارك أربع وعشرون أخا، وأُعدّ من قبل الإخوة بعض الجوائز للمشاركين، فخصّوا الخمس الأوائل بجائزة متميّزة، وأيضا كلّ مشارك له جائزة لمشاركته، فأنا سأقرأ عليكم الخمس الأوائل حتّى يأخذون الشيء الخاصّ بهم من الإخوة، الآن يأخذونه، وكلّ مشارك أيضا له نصيبه فيمرّ على الإخوة يأخذ نصيبه لمشاركته.

فالخمس الأوائل: خالد بن محمّد حمّودة الجزائري، وأبو عبد الله حسين بن محمّد الجزائري، وخالد عمر العلمي، وأبو الحارث عادل العربي الجزائري، وأبو الحارث رابح فولة الجزائري.

وهؤلاء الخمسة يراجعون الإخوة، وكلّ مشارك أيضا يُراجع.

وكان عندي ملاحظة وأنا أقرأ الإجابات، يعني المشاركين أربع وعشرين، تقريبا عشرين من الجزائر فتكون الجزائر هي الفائزة، ما شاء الله هـٰذا شيء يسرّ جدّا، يدلّ على وجود طلبة علم وإقبال على العلم وحرص عليه، سرّني كثيرا ونكتفي بهـٰذا القدر.

والله أعلم وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

[الأسئلة]

سؤال (٠١): ما الفرق بين مغفرة الذنوب وتكفير السيئات؟

الجواب: مغفرة الذنوب وتكفير السيئات، مغفرتها هو: سترها وتجاوز الله تَبَارَكَ وَتَعَالى عن عبده فيها، فغفرانه له سترها والعفو والمجاوزة.

ويظهر -والله أعلم- أن كلًا من الأمرين إذا أطلق أو إذا أفرد شمل الآخر، وإذا ذكرا معًا (يعني إذا غُفرت له ذنوبه وكفرت عنه سيئاته) فيكون لكل منهما معنًى خاصًا، فيكون الغفران بسترها، ويكون التكفير بالتجاوز عنها وعدم العقوبة عليها .

سؤال (٠٢): ما حكم التعامل مع أصحاب الكبائر، وهل يهجرون هجرا مطلقا؟

الجواب: التعامل مع أصحاب الكبائر يكون بحسب المصلحة وتطبيق قواعد الشريعة، بجلب المصالح ودرء المفاسد. فالتعامل مع أصحاب الكبائر يكون بحسب المصلحة؛ المصلحة للمتعامل معهم، والمصلحة لهم، فينظر في هـٰذا الباب:

إذا كان أصحاب الكبائر يخشى على نفسه منهم؛ لأنه إنسان إيمانه ضعيف وعنده ميول، أو نفسه تدعوه للمعصية، فإذا خالطهم وجالسهم وحضر عندهم أثّروا عليه، فمثل هـٰذا الواجب عليه أن يكون بعيدًا عنهم ولا يقترب منهم.

وأما إذا كان شخص عنده إيمان وعنده علم وعنده صلاح، وأتى هؤلاء واقترب منهم وتلطّف معهم؛ جلبًا لهم وكسبًا لقلوبهم، ودعوة لهم بالخير، فهـٰذا في مثل هـٰذا المقام هو المطلوب.

فينظر في الأمر بحسب إن كان فيه ضرر على الإنسان فدرء المفاسد مقدم، إذا كان فيه مصلحة لهؤلاء فالمصلحة مطلوبة ويُسعى في استصلاحهم ودعوتهم، وهـٰذه المعاملة التي ينبغي أن تكون مع هؤلاء، أيضًا الدعاء لهم بالهداية والاستقامة ونصحهم متى أمكن، وتوجيههم متى تيسّر للعبد، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر والصبر على أذاهم، كل ذلك مما ينبغي أن يصار إليه في التعامل مع هؤلاء.

سؤال (٠٣): من تاب من ذنب هل له أن يخبر الناس بما كان عليه من ذنوب أو معاصٍ سابقة أو يستر على نفسه؟

الجواب: من تاب وستر الله عليه وتجاوز عنه وترك الذّنب وهجره لا ينبغي له أن يخبر بهـٰذا الذنب، أو أن يتحدث عن هـٰذا الذنب، وإنما يترك الكلام عنه، اللهم إلا إذا كان هناك مصلحة معينة، مثل: التحدّث بنعمة

الله عز وجل عليه، فقال: اللهم لك الحمد كنا في جاهلية وكنا في أعمال لكن الله فتح علينا ومنَّ علينا بهـٰذا الدين والهداية له، فيذكرها ذكر الحمد والثناء على اللهعز وجل والاعتراف بنعمته وفضله، فإذا كان هناك مصلحة معينة أو أمر معين للذكر، أما مجرّد ذكر الذنوب والأخطاء وتعدادها، في يوم كذا فعلت كذا، هـٰذا ليس فيه مصلحة.

وأيضا إذا كان ذكره لها للاستفتاء عند العالم يستفتيه عن ذنوب له، يقول: في جاهليتي في يوم كذا فعلت كذا، وفعلت كذا، ما الحكم؟ ماذا يتطلب هـٰذا الأمر من التوبة، هل المال أعيده؟ هل هـٰذا أردّه بكذا؟ ماذا أفعل؟ إذا كان على وجه الاستفتاء.

المهم أن هـٰذه المسألة فيها تفصيل.

سؤال (٠٤): بعضهم يتوب الناس ويطلب منهم أن يأتوا بالمعازف التي يستعلمونها ويكسرونها أمام الملأ. هل لهـٰذا الأمر أصل؟

الجواب: الله أعلم، لكن إراقة مثل الخمور أو كسر آلات اللهو من بيده ولاية وسلطة، هـٰذا فيه نوع من الزجر والتهييب والتأديب، للناس، أما أن يؤمر العاصي بإحضارها وإتلافها أمام الناس لا يظهر له معنى واضح؛ ولكنه يتوب إلى الله عز وجل بينه وبين الله وتكسر المحرمات وتراق الأشياء المحرمة وتتلف، والناس دعوتهم إلى ترك المحرمات يكون بتلاوة النّصوص والآيات وبيان المحاذير والأخطار والأضرار المترتبة على فعلهم لهـٰذه المعاصي.

سؤال (٠٥): ورد في الحديث «**من حج ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه**» هل يُفهم من هـٰذا الحديث أن الحج المبرور يكفر الصغائر والكبائر؟

الجواب: الحج المبرور يكفر الصغائر والكبائر إذا كان مبرورا، ومن برّ الحج التوبة إلى الله تعالى؛ أن يدخل حجه تائبا، ما لم يدخله مصرا على معاصيه وذنوبه، ولهـٰذا جاء في الآية ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٧]، في الحج، وفي الحديث قال: «**من حج ولم يفسق ولم يرفث**» فإذا استقبل حجه بالتوبة إلى الله عز وجل من ذنوبه ومعاصيه ودخل تائبا مقبلا على الله تعالى فإنه يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وقوله: «**كيوم ولدته أمه**» يشمل الكبائر والصغائر؛ ولكن هـٰذا ليس فيه من يحج وفي حجه مصرا على كبائره مصرا على ذنوبه، وإنما هو في حق من كان محققا بر الحج تائبا منه.

ولهـٰذا قال العلماء: من علامة الحج المبرور الذي يخرج فيه العبد من ذنوبه هو صلاح حلاله بعد الحج،

وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، ومن ثواب الحسنة الحسنة بعدها، فإذا صلحت حاله واستقامت بعد الحج ووجد نفسه مقبلا على الطاعات مجانبا ما كان عليه من المعاصي والآثام قبل الحج فهـٰذا علامة القبول.

أما -والعياذ بالله- إذا رجع بعد الحج كما كان في ممارسة المعاصي والذنوب أو أزيد، هـٰذا ليس من علامات القبول وليس من علامات الرضا.

سؤال (٠٦): هل لكتاب الكبائر للذهبي شروحا؟

الجواب: لا أعرف هل له شروح أو لا، إذا كان عند أحد الإخوة فائدة في هـٰذا يرسلها لي.

سؤال (٠٧): المداومة على ترك النوافل هل يعدّ معصية لله؟

الجواب: المداومة على ترك النوافل لا يعد معصية، وبعض أهل العلم في بعض النوافل المؤكدة عظّموا الأمر في ذلك مثل الوتر، وبعضهم يرد من كان كذلك، وهـٰذه نوافل ومستحبات، ومحافظة العبد ورعايته لها هي من كمال الفرائض، وتضييعه لها يُخشى أن يكون سببا للتهاون في الفريضة، فالمحافظة على النافلة والعناية بها فيه خير كبير من حيث ثواب النافلة نفسها ومن حيث أيضا عنايته بالفريضة.

واعتبر هـٰذا في الصلاة من يحافظ على النوافل قبل الصلاة خشوعه في صلاته وطمأنينته فيها وأداؤه لها، لا يكون في أدائه في هـٰذه الفريضة كالآخر الذي دائما يأتي متأخرا إلى الصلاة، ودائما تفوته الركعة والركعتين والثلاث، أو يأتي عندما يقارب أن يسلم الإمام، فالمحافظة على النافلة فيها بركة على العبد في الفريضة نفسها.

على كل حال لا يقال إن من ترك النوافل أنه بذلك ارتكب كبيرة؛ بل من حافظ على الواجبات وترك المحرمات فهو مقتصد، ومن اعتنى مع ذلك بالنوافل وواظب عليها وحافظ عليها فهو بإذن الله تعالى من السابقين للخيرات.

سؤال (٠٨): ما المراد من قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إن الله أبى عليّ من قتل مؤمنا**»؟

الجواب: «**إن الله أبى علي**» هـٰذا الرجل الذي قتل ذلك الرجل في المعركة وقد تشهد، قال: أشهد ألَّا إلـٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله، فقتله مع أنه نطق بالشهادتين قتله وقد أسلم، قتل نفسا معصومة، أسلم ونطق بالشهادتين فعصم دمه بإسلامه «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا**» فبإسلامه عصم دمه وكان دمه ليس معصوما لأنه محارب للمسلمين ومقاتل لهم، فدمه حل ليس بحرام، فلما أسلم ونطق بالشهادتين عصم دمه بهـٰذا الإسلام، فهـٰذا الصحابي قتله بعد أن نطق بالشهادتين فبلغ ذلك النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ واستاء من عمله وظهر على وجهه المساءة والاستياء من عمل هـٰذا الرجل، فجاء هـٰذا الرجل إلى النبي ﷺ وطلب

منه العفو عن هـٰذا الأمر، فمرة وثانية وثالثة وهو يطلب، فكان جواب النبي ﷺ أبى الله إلا القتل، قتلت نفسا معصومة، قتلت نفسا مسلمة، فمعنى هـٰذا أن النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ لم ذكر له التجاوز أو الصفح أو العفو عن هـٰذا الذي قتله؛ بل هو قد قتل نفسا معصومة.

سؤال (٠٩): هل لفظ (السبعين) يفيد عند العرب الكثرة؟

الجواب: هـٰذا اللفظ مستعمل عند العرب كثيرا في التكثير، السبعة والسبعين والسبعمائة، يعني يأتي كثيرا ويراد به التكثير، ومثله ما جاء في القرآن ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ [التوبة:٨٠]، يعني العدد مثل ما يعبر عنه أهل العلم لا مفهوم له؛ يعني لو استغفر ثمانين أو تسعين أو ألف فالحكم واحد، فلن يغفر الله لهم، ولكن ذُكر هـٰذا العدد للتكثير لا للتعيين.

ونكتفي بهـٰذا القدر، والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

المستوى الثاني/الكتاب الخامس

شرح

كتاب الكبائر

للعلامة شمس الدين الذهبي رحمه الله

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

حفظه الله تعالىٰ

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

من الدرس (٥) إلىٰ الدرس (١٠)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد الله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ إمام المرسلين، نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين، أما بعد؛ نواصل القراءة في كتاب الكبائر للإمام الذهبي - رحمه الله - حيث انتهينا إلىٰ الكبيرة الثالثة.

[المتن]

الكَبِيرَةُ الثَّالِثَةُ

السِّحْرُ

لِأَنَّ السَّاحِرَ لابُدَّ وَأَنْ يَكْفُرَ؛ قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾[البقرة:١٠٢]. وَمَا لِلْشَيْطَانِ الْمَلْعُونِ غَرَضٌ في تَعْلِيمِهِ الإِنسَانِ السِّحْرَ إِلاَّ لِيُشْرِكَ بِهِ.

وَقَالَ اللهُ تَعَالىٰ عَنْ هَارُوت وَمَارُوت: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ إلىٰ أَنْ قَالَ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ الآيات[البقرة:١٠٢]، فَتَرَىٰ خَلْقَاً (كَثِيراً) مِن الضُّلَّالِ يَدْخُلُونَ فِي السِّحرِ وَيَظُنُّونَ أَنَّهُ حَرَامٌ فَقَط، وَمَا يَشْعُرُونَ أَنَّهُ الْكُفْر، فَيَدْخُلُونَ فِي تَعَلُّمِ السِّيمْيَاءِ وَعَمَلِهَا، وَهِيَ مَحضُ السِّحْرِ، وَفِي عُقَدِ الْمَرْءِ عَنْ زَوْجَتِهِ وَهُوَ سِحْرٌ، وَفِي مَحَبَّةِ الزَّوْجِ لامْرَأَتِهِ وَفِي بَغْضِهَا وَبَغْضِهِ، وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ، بِكَلِمَاتٍ مَجْهُولَةٍ أَكْثَرُهَا شَرْكٌ وَضَلالٌ.

وَحَدُّ السَّاحِرِ الْقَتْلُ، لِأَنَّهُ كُفْرٌ بِاللهَ أَوْ ضَارَعَ الْكُفْرَ. قَالَ الْنَبِيُّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات ...)). فَذَكَرَ مِنْهَا السِّحْر. فَلْيَتَّقِ الْعَبْدُ رَبَّهُ وَلا يَدْخُل فِيمَا يَخْسَرُ بِهِ الدُّنيَا وَالآخِرَة.

ويُرْوَىٰ عَنِ الْنَبِيِّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: ((حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَهُ بِالسَّيْفِ)). وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ مِنْ قَوْلِ جندب. وقَالَ بجَالَةُ ابنُ عَبَدَة: "أَتَانَا كِتَابُ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَبْلَ مَوْتِهِ بِسَنَةٍ؛ أَن اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَة".

وَعَن أَبِي مُوسَىٰ -رَضِيَ اللهُ تَعَالىٰ عَنْهُ-، أَنَّ الْنَبِيَّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((ثَلاثَةٌ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّة: مُدْمِنُ خَمْرٍ، وَقَاطِعُ رَحِمٍ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ)). رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ.

وَعَن ابنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللهُ تَعَالىٰ عَنْهُ- مَرْفُوعـًا: ((الرُّقَىٰ وَالتَّمَائِمُ وَالتِّوَلَةُ شِرْكٌ)). رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُد. التِّوَلَةُ: نَوْعٌ مِن السِّحْرِ، وَهُوَ تَحْبِيبُ الْمَرْأَةِ إلىٰ الزَّوْجِ. والتَّمِيمَةُ: خَرَزَةٌ تَرُدُّ الْعَيْنِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ كَثِيراً مِن الكَبَائِرِ؛ بَلْ عَامَتِهَا إلاّ الأَقَل، يَجْهَلُ خَلْقٌ (كَثِيرٌ) مِن الأُمَّةِ تَحْرِيمَهُ؛ وَمَا بَلَغَهُ الزَّجْرُ فِيهِ وَلا الْوَعِيدَ، فهٰذَا الضَّرْبُ فِيهِم تَفْصِيل؛ فَيَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ لا يَسْتَعْجِلَ عَلىٰ الْجَاهِلَ؛ بَلْ يَرْفَقُ بِهِ وَيُعَلِّمَهُ مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ، وَلاسِيَّمَا إِذَا كَانَ قَرِيبَ الْعَهْدِ بِجَاهِلِيَّةٍ، قَدْ نَشَأَ في بِلادِ الْكُفْرِ الْبَعِيدَةِ، وَأُسِرَ وَجُلِبَ إِلىٰ أَرْضِ الإِسْلامِ، وَهُوَ تُرْكِيٌّ كافر أو كُرْجِيٌّ مُشْرِكٌ لا يَعْرِفُ بِالعَرَبِيّ، فَاشْتَرَاهُ أَمِيرٌ تُرْكِيٌّ لا عِلْمَ عِنْدَهُ ولا فِهْمَ، فَبِالْجُهْدِ إِنْ تَلَفَّظَ بِالشَّهَادَتَيْنِ، فَإِنْ فُهِّمَ بِالْعَرَبِيّ حَتَّىٰ يَفْقَهَ مَعْنَىٰ الشَّهَادَتَيْنِ بَعْدَ أَيَّامٍ وَلَيَالٍ؛ فَبِهَا وَنِعْمَتْ، ثُمَّ قَدْ يُصَلِّي وَقَدْ لا يُصَلِّي، وَقَدْ يُلَقَّن الْفَاتِحَةَ مَعَ الطولِ إِنْ كَانَ أُسْتَاذَهُ فِيهِ دِينٌ مَا، فَإِنْ كَانَ أُسْتَاذَهُ يَفْجُر، فَمِنْ أَيْنَ لِهٰذا الْمِسْكِينُ أَنْ يَعْرِفَ شَرَائِعَ الإِسلامِ وَالْكَبَائِرَ وَاجْتِنَابِهَا، وَالْوَاجِبَاتِ وَإِتْيَانِهَا؟! فَإِنْ عُرِّفَ هٰذا مُوبِقَاتُ الْكَبَائِرِ وَحُذِّرَ مِنْهَا، وَأَرْكَانُ الْفَرَائِضِ وَاعْتَقَدَهَا، فَهُوَ سَعِيدٌ، وَذَلِكَ نَادِرٌ. فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَحْمَدَ اللهَ تَعَالىٰ عَلىٰ الْعَافِيَةِ.

فَإِنْ قِيلَ: هُوَ فَرَّطَ لِكَوْنِهِ مَا سَأَلَ عَمَّا يَجِبُ عَلَيْهِ، قِيلَ: هٰذَا مَا دَارَ فِي رَأْسِهِ وَلاَ اسْتَشْعَرَ أَنَّ سُؤالَ مَنْ يعلِّمه يجبُ عليْه ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠)﴾[النور:٤٠]، فَلا يَأْثَمُ أَحَدٌ إِلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ، وَبَعْدَ قِيامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، وَاللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ رَؤُوفٌ بِهِم. قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[الإسراء:١٥]. وَقَدْ كانَ سَادَةُ الصَّحَابَةِ بِالْحَبَشَةِ، وَيُنَزَّلُ الْواجِبُ وَالتَّحْرِيمُ عَلىٰ النَّبِيِّ - صَلَّىٰ اللهُ تَعَالىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَلا يَبْلُغُهُمْ تَحرِيمُهُ إِلاّ بَعْدَ أَشْهُرٍ، فَهُم فِي تِلْكَ الأَشْهُرِ مَعْذُورُونَ بِالْجَهْلِ حَتَّىٰ يَبْلُغَهُمُ النَّصُ، فَكَذَلِكَ يُعْذَرُ بِالْجَهْلِ كُلُّ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ حَتَّىٰ يَسْمَعَ النَّص. وَاللهُ تَعَالىٰ أَعْلَمُ.

[الشرح]

قال المصنف رحمه الله: (الكبيرة الثالثة: السحر)، ومرّ معنا أن ذكر رحمه الله الكبيرة الأولىٰ الإشراك بالله، والكبيرة الثانية القتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والكبيرة الثالثة السحر، وعند مراعاة الترتيب في الأخطر فتقديم السحر أولىٰ علىٰ القتل؛ علىٰ قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، لأن السحر كفرٌ كما قال المصنف - رحمه الله - لأن الساحر لابد أن يكفر، يعني لابد أن يكون كافراً، لا يمكن أن يتعاطىٰ السحر إلا بالكفر بالله - عز وجل – وقد جاء السحر مقدّمًا علىٰ قتل النفس في حديث ((اجتنبوا السبع الموبقات))، قال: وما هن يا رسول الله، قال: ((الإشراك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا

بالحق))، فالأولىٰ تقديم السحر؛ لأنه قُدم في حديث اجتناب السبع الموبقات، ولأن الساحر لا يكون ساحراً إلا بالكفر بالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ -.

ثم أورد المصنف -رحمه الله- بعض الأدلة الدّالة علىٰ كفر السّاحر، وصدّر كلامه علىٰ هٰذه الكبيرة بقوله: (لِأَنَّ السَّاحِرَ لابُدَّ وَأَنْ يَكْفُرَ)، يعني لا يمكن أن يكون ساحرا إلا بالكفر بالله - جل وعلا -؛ بل إن قوة سحره بحسب قوة كفره، فكلّما ازداد كفراً بالله - جل وعلا - ازداد تمكنًا في السحر، والسحر أمر لا يُتوصّل إليه، ولا سبيل إلي تحصيله إلا بالكفر بالله - جل وعلا - والتقرب للشياطين وعبادتهم وطاعتهم من دون الله - عز وجل -.

وذكر هنا المصنف ما جاء في سورة البقرة فيما يتعلق بالساحر وكفره - بالله جل وعلا - حيث أورد قول الله - جل وعلا - ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾[البقرة:١٠٢]، وهٰذا الجزء من آية في سورة البقرة مع الآية التي قبلها، يعني مع تمام هٰذه الآية التي هٰذا جزء منها، والآية التي قبلها والآية التي بعدها، فيها دلالات عديدة من وجوه كثيرة علىٰ كفر الساحر، واكتفىٰ المصنف بالإشارة إلىٰ بعض المواضع من هٰذه الآية للدلالة علىٰ كفر الساحر، فأشار إلىٰ قوله: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾[البقرة:١٠٢]، فهٰذه ثلاثة مواضع في الآية تدل علىٰ كفر الساحر.

وإذا تأملت السياق بتمامه تجد أن هٰذه الآيات في هٰذا السياق دلت علىٰ كفر الساحر من وجوه سبعة:

الوجه الأول: في قوله - تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ -: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾[البقرة:١٠١]، فهٰذا هو الوجه الأول في الدلالة علىٰ كفر الساحر، وبيان أن السحر لا يكون إلا بنبذ القرآن؛ بل لا يكون إلا بامتهانه، ومما يتقرّب به الساحر للشيطان ليتمكن في السحر: امتهان القرآن، وإلقاؤه، ووضع الأذىٰ والقاذورات عليه، أو إلقاؤه في الخلاء.. أو غير ذلك، ولهٰذا كلما كان النبذ للقرآن أشد كان هٰذا أعظم تقرباً ممن يطلب السحر إلي الشيطان، فهٰذا الوجه الأول.

الوجه الثاني: في قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾[البقرة:١٠٢]، المرحلة الأولىٰ نبذ القرآن والثانية اتباع الشيطان، وأتباع الشيطان عبادة له من دون الله، وطاعة له من دون الله، وهٰذا كفرٌ

بالله – عز وجل –.

الوجه الثالث: في قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾[البقرة:١٠٢]، ونفي الكفر عن نبي الله سليمان في هٰـــذا السـياق الذي فيه ذم الســحر وبيان بطلانه وفســاده، وتبرئة نبي الله منه، بتبرئته من الكفر، دليلٌ علىٰ كفر الساحر.

الوجه الرابع: هو ما ذكره المصــنف فيما ذكر من الأدلة، ما ذكره أولاً وهو قول الله عز وجل: ﴿وَلَكِنَّ الشَّـيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّــحْرَ﴾[البقرة:١٠٢]، ففي الآية التنصـيص علىٰ كفر الســاحر لأن الساحر تلميذٌ للشياطين وخرِّيج لمدرستهم ومتتلمذ علىٰ يديهم في هٰــذا الذي هو كفر كما هو منصوص الآية: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾[البقرة:١٠٢].

فالساحر كافر وتلميذٌ لهٰــذه المدرسة الكفرية –مدرسة الشياطين–، فهو تلميذ للشيطان، ومتخرج في مدرسته، فهٰذا الوجه الرابع، ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾.

الوجه الخامس: ما أورده المصــنف وهو قول الله – تعالىٰ –: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[البقرة:١٠٢]، وهٰذا في قصة هاروت وماروت اللذين جعلهما الله – عز وجل – فتنة للناس في هٰـــذا الباب، وفي الآية التنصـيص علىٰ أن تعلم الســحر كفرٌ، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، إي بتعلمه، فلا تكفر إي بتعلمه، بتعلم السحر، فهٰذا الوجه الخامس في دلالة هٰذا السياق علىٰ كفر الساحر.

الوجه السادس: ما أشار وأورده المصنف – رحمه الله – وهو قول الله – تعالىٰ –: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْـتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾[البقرة:١٠٢]، أي ليس له أي حقٌ ونصـيب يوم القيامة، الخلاق هو النصيب، فلا خلاق له: أي لا نصيب له ولا حظ يوم القيامة، وهٰــذا النفي للحظ والنصيب والخلاق عن الساحر يوم القيامة، هٰذا من الدلائل علىٰ كفره.

الوجه السابع والأخير: في الآية التي تلي هٰــذه الآية، وهي قول الله – تعالىٰ –: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[البقرة:١٠٣]، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾، هٰــذا دليل علىٰ أنهم ليســوا بمؤمنين بل هم كفار، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ يعني ولو أنهم تركوا الســحر وتركوا الكفر وآمنوا بالله واتقوا الله – جل وعلا – لمثوبة من عند الله خير.

هٰــذه وجوه سبعة في هٰــذا السياق المبارك دالة علىٰ كفر الساحر، والمصنف – رحمه الله – صدّر الكلام علىٰ هٰـــذه الكبيرة لبيان كفر الســاحر، وأشـار إلىٰ بعض وجوه دلالات هٰـــذا السياق علىٰ كفر

الساحر، حيث أشار إلىٰ وجوه ثلاثة، والوجوه الدالة علىٰ كفر الساحر لهٰذا السياق سبعة.

ثم بيّن وجه من الوجوه التي يدخل بها السحر علىٰ بعض الناس، فيمارسونه ويتعاطونه، فقال: (خَلْقًا كَثِيراً) مِن الضُّلَّالِ يَدْخُلُونَ فِي السَّحِرِ وَيَظُنُّونَ أَنَّهُ حَرَامٌ فَقَط) يظنونه حراماً فقط وليس كفراً، وعلمهم بأنه حرام وحده كافي في عدم الدخول فيه؛ ولكن بعض الناس والعياذ بالله مخذولاً في هٰذا الباب، تجد أن ميول نفسه تنازعه لغشيان الكبائر وفعلها والتمادي فيها، حتىٰ إن بعضهم يغالط نفسه في هٰذا الباب في تهوين الأمر وتقليله:

فينازع أولاً في هل هو كبيرة أو صغيرة.

ثم هل هو كبيرة مجمع علىٰ أنها كبيرة أو لا.

ثم أيضاً يغالط نفسه في هٰذا الباب هل هو كبيرة كبيرة عظيمة جداً وإلا كبيرة يعني دون ذلك، فيبدأ يهون الأمر علىٰ نفسه.

ثم يصل إلىٰ مرحلة ويقول كبيرة وليست شركاً وليست كفراً، وهٰذا كله من اتباع خطوات الشيطان في غشيان الكبائر والوقوع فيها، ولهٰذا يقع كثيرٌ من الناس في الكبائر مع علمهم بأنها كبائر بسبب هٰذه المغالطات النفسية التي يدخلونها علىٰ نفوسهم طمعاً في تحقيق أهوائهم وميولاتهم إلىٰ هٰذه الأشياء، فهٰذا وجه أشار إليه المصنف إن بعض الضلال يظن أنه حرام وليس شركاً وليس كفراً بالله – عز وجل – فيغشىٰ هٰذا الأمر.

وكما قدمت يعني كونه يعلم انه حرام وأن الله -عز وجل- حرمه علينا هٰذا وحده كافي في بعده عنه واجتنابه له.

قال: (وَمَا يَشْعُرُونَ أَنَّهُ الْكُفْر)، ربما يعني يكون الأمر كذلك في بعض هؤلاء الضلال ما شعر أنه كُفر وظن أنه حرام مجرد، وربما أن هٰذه نوع من المخالطة النفسية التي أشرت إليها، يغالط نفسه في تهوين الأمر المحرم الذي يغشاه، فيقول في نفسه هٰذا محرم أو ليس تحريمه بحرمة شديدة، أو ليس هو بالكفر، يعني وإن كان هو كفرا يقول: ليس هو بالكفر الذي هو الناقل من الملة، أو نحو ذلك من المغالطات النفسية التي بها يزج بنفسه في فعل هٰذه الكبائر؛ بل هٰذه الكفريات الناقلة من الملة.

قال: (وَمَا يَشْعُرُونَ أَنَّهُ الْكُفْر، فَيَدْخُلُونَ فِي تَعَلُّمِ السِّيمْيَاءِ وَعَمَلِهَا)، (السِّيمْيَاءِ) هٰذه كلمة أعجمية

ليست عربية، وهي تعاطي أشياء ويكون فيها شيء من الإيهام والتخيّلات ونحو ذلك، فربما السيمياء ونظائرها من الأمور هي خطوات تأتي في مقدمة تعاطي السحر والتمكن فيه والضّلوع فيه، فيدخلون في تعلم السّيمياء وعملها، وربما أيضاً مثل الأشياء التي تسمىٰ الآن في زماننا: خفة اليد أو الحركات السحرية أو الألعاب البهلوانية التي يعتمد بعضها علىٰ سرعة الحركة، وكثير منها يعتمد علىٰ تعاطي السحر، مثل أن يقف أحدهم في الهواء غير ممسك بشيء، أو يكون جالساً في الهواء، أو يرتفع عن الأرض إلىٰ درجة متر أو مترين ويبقىٰ مرتفعاً، هٰذا سحر، وهٰذا من الشياطين وهي التي تقلهم، حتىٰ وإن أقسم في المقابلة معه وسؤاله أنه ليس بساحر وأنه لا يتعاطىٰ السحر، فهٰذا كثير في الدجاجلة للتغرير بالناس وإيقاعهم في الباطل، فهٰذا ولا شك أنه من السحر ورفعه هٰذا إنما هو من معونة الشياطين له وتعاملهم معه لإتباعه لهم وطاعته لهم وعبادته لهم من دون الله ولتقربه لهم، ولهٰذا يحصل منه مثل هٰذه الأشياء، وكثير من عوام المسلمين جهّالهم في مثل هٰذا الباب تنطلي عليهم أكاذيب هؤلاء بقولهم: هٰذه خفة يد أو مثلاً سرعة حركة أو مهارة أو أشياء من هٰذا القبيل وهو سحر، وهو سحر قطعاً وهو من عمل الشيطان ومن تعاون الشياطين معهم.

قال: (فَيَدْخُلُونَ فِي تَعَلُّمِ السِّيمْيَاءِ وَعَمَلِهَا، وَهِيَ مَحَضُّ السِّحْرِ)، يعني هي أعمال سحرية، وأيضاً هٰذا يفيدنا فائدة في أن السحر له مجالات متعددة، وأيضاً ثمة طرائق عديدة للدخول فيه، وكلها تصبّ في مصب واحد جاءت الإشارة إليه في الآية الكريمة: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾[البقرة:١٠٢]، اتباع الشيطان والتقرب إليه من أنواع القربات، طاعته في ما يأمر هٰذا هو المدخل.

وقد حدثني شخصٌ هداه الله – عز وجل – من هٰذا الأمر، وقد أوشك أن يدخل فيه، فقال: أنني أتيت ساحراً، فقلت له: أرىٰ عندك كذا وأرىٰ عندك كذا، وأرىٰ أنك تستطيع علىٰ كذا، وهو جارٌ لي، يقول: فقلت له: أنا أريد أكون مثلك، أريد أن تدلني علىٰ طريقة، يقول: أعطاني مقدمات طويلة، وقال: أريد أن أعطيك أموراً تفعلها بدقة ولا تترك شيئا منها، وغداً في الصباح ستكون مثلي تماماً وعندك كل هٰذه الأشياء، ولكن تلتزم بكل ما أوجهك إليه، فالتزمتُ له بذلك، يقول: فقال لي تذهب إلىٰ شاطئ النهر عند غروب الشمس –والشمس تغرب بين قرني شيطان اختار له هٰذا الوقت– وقربها من الغروب وتقف عند شاطئ النهر مستقبلاً الشمس بينك وبينه، قال: وأعطاني أسماء –وذكر لي هٰذا الشخص الأسماء أو

الاسم الذي أعطاه إياه، وهو اسم من اسماء الشياطين- قال: تقف عند الغروب، إذا دنت من الغروب تبدأ تنادي بهٰذا الاسم، قال: فإذا ناديت كم مرة بصوت سيأتيك من داخل النهر حيوان مفزع ووصف له هيأته، وذكر لي هو هيئته، قال: فيشق النهر ويأتي إليك ويناديك باسمك وسيطلب منك أشياء، فكل ما يطلب منك استجب ولا تتردد، افعل كذا قل: أفعل. لا تفعل كذا، قل: لا أفعل فتستجيب له، يقول: فذهبت إلىٰ حيث وجهني ووقفت في الوقت نفسه، ولما دنت الشمس من الغروب بدأت أنادي، يقول: بالفعل جاء حيوان من وسط البحر مقبلاً عليّ حتىٰ قرب مني وهيئته مفزعة ناداني باسمي، قال: فلان. قلت: نعم، يقول: من توفيق الله لي أن أول طلب طلبه مني أن أقوم به أمرٌ نشأت نشأة قوية علىٰ المحافظة عليه، يقول: هٰذا من نعمة الله عليّ ويحمد الله كثيراً ويخبرني يقولك من نعمة الله علي أن أول أمر طلبه مني، أمر نشأت علىٰ من صغري علىٰ نشأ قوية علىٰ المحافظة عليه، فأول ما بداني قال: تترك الصلاة، أول ما بدأ معي قال: تترك الصلاة، يقول: فرأساً بدون تردد ولا امتنعت، قلت: الصلاة لا، الصلاة ما أتركها، يقول: فصاح بصوت وذهب وساخ في البحر ولم أراه.

يقول: بعد أيام لقيت من، لقيت جاري هٰذا، فيقول: لما لقيته فإذا به مشتد غضباً عليّ، وقال: آذيتني وغررت بي، يعني بمعنىٰ انه أرسل له شخصاً غير مطاوعاً، والاتفاق معه أن لا يرسل لهم إلا من هو مطاوع، فآذوه وتعرضوا له بالأذىٰ؛ لأنه يعني أرسل لهم من ليس بمطاوع.

الشاهد من هٰذا هو أن السحر لا يكون إلا بهٰذه الطريقة، وإن قرأت تفسير ابن كثير أيضاً ذكر قصة طويلة فيها مثل هٰذا الأمر، فيها التقرب للشيطان بنبذ القرآن، التقرب للشيطان بترك الصلاة، التقرب للشيطان بطاعته في الفجور والفواحش، التقرب للشيطان بالذبح لغير الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ -، التقرب للشيطان بفعل العبادات المحرمة والأذكار المحرمة، وهجر القرآن والأذكار المشروعة، فهٰذه كلها منافذ ومداخل تكون أو يكون بها الوقوع في السِّحر وتعاطيه.

ثم أشار المصنف -رحمه الله- إلىٰ الآثار أو النتائج التي تقع من السحر والتأكيد علىٰ أن السحر منه ما هو حقيقة، يعني ليس السحر كله خيال:

منه ما هو خيال، يعني أشياء تخيلات للأبصار يضعوا سحراً فيجعل الأبصار تتخيل مثل ما قال الله -

عز وجل -: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[طه:٦٦]، فهي لا تتحول وإنما يكون خيالاً.

ومن السحر ما هو حقيقة، فيُمرض، ويقتل، ويفرق بين الزوجين.. ونحو ذلك.

فأراد المصنف أن ينبه علىٰ أن السحر له حقيقة، قال: (وَفِي عُقَدِ الْمَرْءِ عَنْ زَوْجَتِهِ وَهُوَ سِحْرٌ، وَفِي مَحَبَّةِ الزَّوْجِ لامْرَأَتِهِ وَفِي بَغْضِهَا وَبَغْضِهِ، وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ)، وهٰذه كلها حقائق تنشأ عن السحر وتترتب عليه، وهو يسمىٰ عند أهل العلم بسحر العطف والصرف، العطف قوله: (مَحَبَّةِ الزَّوْجِ لامْرَأَتِهِ)، هٰذا سحر عطف، يعني عطف أحد الزوجين علىٰ الآخر، والصرف صرف أحدهما عن الآخر، (وَفِي بَغْضِهَا وَبَغْضِهِ) يعني إنشاء البغض بين الزوجين، فهٰذه كلها من الأمور التي تترتب علىٰ السحر، ومنها الإضرار بالبدن ويعني حصول بعض الأمراض الشديدة والمزمنة والموت إلىٰ غير ذلك من الأمور التي تترتب علىٰ السحر وتنشأ عنه.

قال: (وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ)، يعني هٰذه مجرد أمثلة، (بِكَلِمَاتٍ مَجْهُولَةٍ أَكْثَرُهَا شَرْكٌ وَضَلالٌ)، قوله: (بِكَلِمَاتٍ مَجْهُولَةٍ) أي يقوم بها الساحر، بمعنىٰ أن الساحر عند بدئه بالسحر يتمتم بكلمات مجهولة، طلاسم وكلمات غير مفهومة، وأحياناً يأتي معها بآيات من القرآن امتهاناً للقرآن وخلطاً له بهٰذا الباطل وتقرباً للشياطين بذكر كلمات الله مع الشرك والباطل، ولهٰذا قد يكتب الساحر ورقة فيها آية الكرسي، ويضع مع آية الكرسي أسماء شياطين أو يضع طلاسم أو يضع صلبان أو يضع شيئًا من القاذورات القليلة التي قد لا تُرىٰ بالعين، يضعها مع آية الكرسي ويعطيها هٰذا الشخص ويقول: علقها أو ضعها في مكان كذا، ويكون الساحر قد تقرب للشيطان بامتهان القرآن فيقع السحر، فهي كلمات مجهولة، غالبًا، هٰذا نبه عليه عدد من أهل العلم، غالبًا السحر لا يُعمل إلا في الليل في الظلام، ولا يحب الساحر أن يعمل إلا في الظلام، وفي الظلام وفي الخفاء يقوم بممارسات أشياء لا يراها من عنده، وإذا كان عمل السحر في النهار فإنه يعمله في غرفة غير مضيئة، في غرفةٍ غير مضيئة، في الخفاء، وزيادة في الظلمة يأتي بأدخنة وأبخرة ويعجُّ المكان بالدخان والبخور وفي الظلام، في وسط الدخان وفي هٰذه العتمة يعمل أعماله السحرية، ويقوم بتقرباته للشياطين، ويقوم بامتهانٍ للقرآن، ويقوم بوضع الأذىٰ عليه، بأمور ربما لو رآها بعض من أتاه ممن عنده شيء من الإيمان لنفر وفر، ولكن غالبًا السحر لا يكون إلا في الليلة الظلماء أو في النهار في غرفة مظلمة، ومع أدخنة وجو معتم وفيه يتم تعاطي السحر.

قال:(أَكْثَرُهَا شَرْكٌ وَضَلالٌ) يعني الكلمات التي يقولها الساحر، وقوله: (أَكْثَرُهَا شَرْكٌ وَضَلالٌ)؛ لأن

بعض ما يقوله الساحر أو ما يأتي به الساحر آيات، لكن لا يأتي بها ولا يقرأ مقاطع من الآيات علىٰ وجه التعبد لله والتقرب إليه بتلاوة كلامه وطلب الشفاء منه، لا، يأتي بالآيات بنية امتهانها ومزجها بالباطل، ويكتب الآيات بيده علىٰ الأوراق ليس تقرّبًا إلىٰ الله بذلك، وإنما لإرادة امتهان القرآن تقرّبًا بذلك للشيطان.

قوله:(**وَحَدُّ السَّاحِرِ الْقَتْلُ**) أي: ضربة بالسيف، كما سيأتي فيما يروىٰ مرفوعًا إلىٰ النبي – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:((**حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةُ بِالسَّيْفِ**)) أو((**ضربةٌ بالسيف**)) فهٰذا حده سيأتي معنا بعض الآثار عن الصحابة في قتل الساحر، وأنه يقتل بمجرّد أن يقبض عليه متلبّسًا بالسحر متعاطيًا له، يقتل مباشرة بدون استتابة، لا يُعرَض عليه أن يتوب فإن تاب لم يقتل وإن لم يتب قتل، إنما يقتل مباشرة دون استتابة، وهٰذا معنىٰ قول أهل العلم: الساحر يقتل ولا يستتاب، وهو معنىٰ قولهم: الساحر لا توبة له، وليس معنىٰ: الساحر لا توبة له، أي: أنه لو تاب بينه وبين الله توبة صادقة لا يقبل الله توبته، ليس هٰذا المراد؛ فالله-عزَّ وجل- يقبل توبة من تاب مهما كان ذنبه ومهما بلغ جرمه؛ لكن قولهم: (لا توبة له) أي بينه وبين النَّاس، لا يقبلون منه توبة، فإذا قُبض وقال: إني تائب أو تبت إلىٰ الله، فيضرب بالسيف، ويفصل رأسه عن بدنه وإن كان صادقًا في التوبة، يتوب الله عليه؛ لكن لا تقبل له توبة، أي: عند النَّاس، إذا ضبط يعمل هٰذا العمل لا تقبل له توبة قال.

قال:(**وَحَدُّ السَّاحِرِ الْقَتْلُ، لِأَنَّهُ كُفْرٌ بِاللهِ أَوْ ضَارَعَ الْكُفْرَ**)، قوله:(**أَوْ ضَارَعَ الْكُفْرَ**) هٰذه لا يحتاج إليها لأن الأمر واضح، والأدلة التي ذكرها هو -رحمه الله- صريحة وواضحة الدلالة علىٰ كفر الساحر، وأن الساحر لا يتعلم السحر إلا بالكفر واتباع الشياطين، فالساحر يقتل لأنه كفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ، وهو بسحره مرتد عن الإسلام وخارج عن الملة مبدِّل لدينه، قد كفر بالله-جل وعلا- وعبد الشياطين وأطاعهم من دون الله- جل وعلا.

قال: (**قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات ...)). فَذَكَرَ مِنْهَا السِّحْر.**)

والسحر ذكره مباشرة يلي الشرك بالله-جل وعلا- وهو من الشرك بالله، وهو من الكفر بالله-عز وجل-، ولا إشكال في عطف السحر علىٰ الشرك مع أنه شرك وكفر؛ لأنه قد يعطف علىٰ الشيء بعض أفراده تأكيدًا عليه، قد يعطف الخاص علىٰ العام، وقد يعطف علىٰ الشيء بعض أفراده، فالسحر هو من الكفر

ومن الشرك بالله- جل وعلا-.

قال: (فَلْيَتَّقِ الْعَبْدُ رَبَّهُ وَلا يَدْخُل فِيمَا يَخْسَرُ بِهِ الدُّنيَا وَالآخِرَة)، قوله: (وَلا يَدْخُل فِيمَا يَخْسَرُ بِهِ الدُّنيَا وَالآخِرَة) هٰـذا فيه أن الإنسان بالسحر يبيع دينه، وبذهابه للساحر يكون بائعًا لدينه، فيخسر الدنيا والآخرة، وهٰـذه الحقيقة، الساحر من أذل الناس وأحقرهم في الدنيا وأقذرهم؛ فهو دائمًا عمله موحش؛ في الظلمة في القاذورات ومع القاذورات، في قذارة في شخصه، في هيئته، في مكانه، في بقعته، وهٰـذه خسارة له في الدنيا، وأما في الآخرة فكما قال الله-سبحانه وتعالىٰ-: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾[البقرة:١٠٢] أي: ماله من حظ، فالساحر خسر الدنيا والآخرة، لم يحصِّل لا في الدنيا ولم يحصل الآخرة، فهو باع دينه بالسِّحر، وكذلك من يأتيه فهو باع دينه بالسحر، فالسَّاحر بائع لدينه.

ويوجد رسالة صغيرة الحجم كبيرة الفائدة بعنوان (بائع دينه) ومطبوعة ومتداوله لفضيلة الشيخ عبد المحسن القاسم إمام المسجد النبوي، حقيقة رسالة قيِّمة جدًا بهٰـذا العنوان: (بائع دينه) وعنوانها مثل ما عندنا هنا في قول الإمام الذهبي: (وَلا يَدْخُل فِيمَا يَخْسَرُ بِهِ الدُّنيَا وَالآخِرَة)؛ لأنه إذا تعاطىٰ السحر أو أتىٰ الساحر فإنه يكون بذلك قد باع دينه.

وهنا أيضا بهٰـذه المناسبة أنبه إلىٰ أن إتيان الساحر حتىٰ وإن كان لقصد حلِّ سحرٍ فإنه يحرم، ولا يحل؛ وقد سئل النبي- صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عن النُّشرة وهي حل السحر عن المسحور فقال: ((**إنه من عمل الشيطان**))، وقوله- عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- أنها عمل من عمل الشيطان أي: حلُّها بسحر آخر، وبالذهاب إلىٰ السحرة، فهٰـذا من عمل الشيطان، أما حلُّ السحر بالقرآن والرقىٰ المشروعة فهٰـذا أمر يندب ويشرع؛ فقد رقىٰ جبريل النبي- عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- لما سُحِر قال: ((**باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، ومن شر كل شيطان وحاسد الله يشفيك. باسم الله أرقيك**)) فيرقي بهٰـذا وبالقرآن وبالمعوذتين وبالأذكار المشروعة. كل ذلك يُفعل وهو مما يشرع . أما أن يؤتىٰ الساحر لحل السحر فهٰـذا لا يَحِل، ولا يَحلُّ السحر إلا ساحر، هٰـذا معنىٰ قول السلف: (لا يَحُل السحر إلا ساحر) فلا يجوز أن يؤتىٰ. أما حَلُّه بالقرآن والدعوات المأثورة والالتجاء إلىٰ الله- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- فهٰـذا لا بأس به، وأما إتيان الساحر فلا يَحِل.

ومن ذهب لِحَلِّ السحر عن نفسه أو غيره، فإنه مثل من أراد أن يداوي زكامًا فسبب جذامًا، أراد أن يتخلص من مرض في بدنه أو في عضو من جسده فهدم دينه؛ لأنه بذهابه للساحر يهدم دينه فيكون أراد

ليطبب شيئًا يسيرا أو مرضا يسيرًا يزول بإذن الله -عز وجل- أو يصبر على المرض محتسبًا راجيًا ثواب الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- له فيكون كفارة له، فلا يقنع بذلك ويذهب إلىٰ الساحر ويبيع دينه عنده لعلاج أو للتخلص من هـٰذا المرض أو هـٰذه العلة التي أصابته. فعلىٰ كل حال إتيان الساحر لا يحل، حتىٰ وإن قصد بذلك حَلَّ السحر عن المسحور.

والقول بأنه يجوز (إتيان الساحر لحل السحر) هـٰذا إضافة لما فيه من شر وبلاء هو في الحقيقة فيه إقرار لوجود السحرة وإقرار للذهاب إليهم، بينما الواجب الشرعي والمطلوب من المسلم إذا علم بالساحر وبوجوده أن يبلغ عنه وان يوصل أمره إلىٰ ولاة الأمر، لتخليص المسلمين من شره، لا أن يقال: إذهب إليه، ولا يحث الناس بالذهاب إليه بعلة حَلِّ السحر.

ثم أورد ما يدل علىٰ هـٰذا الحكم الذي ذكره، وهو أن حد الساحر القتل، فأورد هـٰذا الحديث، وقال: (وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ مِنْ قَوْلِ جندب) وقد صح عن جندب قتل الساحر، وأيضًا عن عمر كما أشار إلىٰ هـٰذا المصنف (أَتَانَا كِتَابُ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَبْلَ مَوْتِهِ بِسَنَةٍ؛ أَن اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَة) وكذلك صح عن حفصة -رَضِيَ اللهُ عَنْها- أنها أمرت بقتل ساحرة سحرتها. وجميع هـٰذه الآثار أوردها الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- في كتابه التوحيد، باب ماجاء في السحر.

((ثَلاثَةٌ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّة)) وذكرهم: ((مُدْمِنُ خَمْرٍ، وَقَاطِعُ رَحِمٍ)) وهاتان كبيرتان من الكبائر: إدمان الخمر وقطيعة الرحم، هـٰذه من الكبائر العظيمة ومن أكبر الكبائر، ((وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ)) هـٰذه هي كفر بالله -جل وعلا- ((من أتىٰ كاهنًا أو عرافًا فصدّقه فيما يقول فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد))، كيف يصدق بالسحر والله -عز وجل- في مواضع من كتابه علىٰ ما مرَّ معنا بيَّن كفر الساحر بآيات تتلىٰ واضحات فكيف يصدق، فتصديق السحر كفر، وأما مدمن الخمر وقاطع الرحم فهـٰذه من الكبائر، وأما تصديق السحر فهو كفر بالله -عز وجل-.

ثم ذكر المصنف -رحمه الله- هـٰذا الحديث (((الرُّقَىٰ وَالتَّمَائِمُ وَالتِّوَلَةُ شِرْكٌ)). رَوَاهُ أَحْمَدُ)، هـٰذه الأشياء التي ذُكرت في الحديث: الرقىٰ، والتمائم، والتولة، غالبًا هـٰذه الأشياء توجد عند الساحر وهي من الأمور التي يمارسها، الساحر يمارس الرقية، وعنده هـٰذه الأشياء التولة والتمائم.

التمائم حجب وأشياء مثلاً رِقاع يكتب فيها وتغلّف وتوضع في علب أو في أشياء؛ أغلفة من الجلد أو

نحوه، وتعطىٰ لمن أتىٰ إلىٰ الساحر ليعلقها في بيته أو علىٰ رقبته أو في عضده أو نحو ذلك، فهٰـذه الأشياء يمارسها.

أيضـًا الرقية، السـاحر يرقي وهو يقرأ وهو ينفث، ينفث علىٰ من أتاه، وينفث أيضـًا علىٰ الشـيء الذي يعطيه للشخص من ورق أو من كتابات.

فالرقية عنده، والتمائم أيضـًا عنده، والتولة والخرز والودع والصدف، كل هٰـذه الأشياء، أشياء توجد عند الساحر، ويمارس بها سحره، إضافة إلىٰ العقد أو أيضـًا ما يطلبه ممن أتاه، بأن يأتي له بأجزاء من شعر من أراد سحره، أو مثلاً بعض ملابسه أو نحو ذلك فهٰـذه كلها أشياء توجد عند الساحر، وعندما يضبط السحرة يذكر في الموجودات التي تضبط في حوزتهم مثل هٰـذه الأشياء، وهو دائمـًا يوقف علىٰ مثل هٰـذه الأمور عند السحرة.

فالسـاحر عنده رقية؛ لكن رقيته طلاسـم مثل ما مر، وتمتمة وكلمات سـحرية، وقد يمزجها بقرآن أو آيات أو أحاديث أو أشياء من هٰذا القبيل.

وأيضـًا التمائم قد يكتب آيات قد يكتب آية الكرسـي كاملة، أو سـورة الاخلاص كاملة؛ لكن فوقها وتحتها وفي وسـطها أسـماء للشـياطين وحروف وصـلبان وكل ذلك قصـد به التقرب للشـيطان بامتهان القرآن الكريم.

وأيضـًا التولة، فالنبي صَـلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ قال: إن هٰـذا شـرك، الرقىٰ والمراد بالرقىٰ أي الرقىٰ المعهوده عند المشركين.

قال: (التِّوَلَةُ: نَوْعٌ مِن السِّـحْرِ) قالوا في تعريف التولة: إنه شـيء يزعمون أنه يحبب المرأة لزوجها، ويحبب الزوجين كل منهما إلىٰ الآخر، والتميمة خرزة يزعمون أنها ترد العين، والتميمة هي ما يعلق سـواء كانت خرزة ترد العين، أو أيضـًا مثل ما ضـرب الرقاع التي يكتب فيها، أو التعاليق التي ينفث فيها الساحر ويطلب ممن أتاه أن يعلقها.

ثم دخل المصنف هنا في مسألة الجهال والعوام ودخول السحر عليهم وذهابهم للسحرة بسبب الجهل وعدم العلم، وقد يكون هٰـذا في بعض العوام قد يكون فعلاً ما دار في رأسه ولا وقع في خلده أو لم يُخبر، مثل الأمثلة التي ذكرها وهي توضـح الأمر عندما قال: شـخص أسـر وجلب إلىٰ بلاد الإسـلام ولسـانه أعجمي ولا يعرف اللغة، وبالكاد فترة طويلة حتىٰ يحفظ الفاتحة وحتىٰ يعلم الصـلاة، فهٰـذه المراحل

التي تاخذ وقت طويل، وأشار المصنف أيضـًا مثل هـٰذا متىٰ أيضـًا يقيض له أستاذ صبور يصبر عليه حتىٰ يعلمه، وإلا إذا كان أستـــاذا فاجرا أو أستاذا لا يصبر علىٰ تعليم هؤلاء من أين له أن يتعلم هـٰـذا أمر معروف، وربما يدركه كثير ممن يرون من يسلم في بلاد الغرب، فتجد الأمر فيه معاناة، وفيه طول، وبعضهم مثل ما قال الإمام الذهبي رحمه الله هنا: بعضهم قد يفتح الله عليه فيعرف الموبقات، ويعرف الكبائر، ويعرف أركان الاسلام، ويعرف فرائض الدين، فيكون سعيدا، وقد تحصل لبعض هؤلاء في فترة سريعة، نحن رأينا حتىٰ بعضهم يعني ممن جاء ودرس هنا في المدينة، بعضهم نسأله يقول: لي في الاسلام ثلاث سنوات؛ لكن اذا رأيت معلوماته وعلمه بالنصوص وعلمه بالأدلة تجده أحيانـًا أفضل من كثير ممن نشأوا في الاسلام، فهـٰذه منة الله عليه، ويقول الذهبي: هـٰذا نادر؛ لكن الغالب الأعم أن مراحل معرفته بالدين وعلمه به تأتي في زمن طويل، لكي يحفظ الفاتحة يحتاج شهور حتىٰ يتمكن من قراءتها، وإذا أراد أن يعلَّم فرائض الإسلام يحتاج الىٰ وقت، فأمثال هؤلاء في مثل هـٰذه المرحلة التي هي مرحلة انتقالهم من الكفر إلىٰ الاسلام وتعلمهم أعمال الإسلام بخطوات يعذر.

حتىٰ المسألة التي أشار إليها قال: (فَإِنْ قِيلَ: هُوَ فَرَّطَ لِكَوْنِهِ مَا سَأَلَ عَمَّا يَجِبُ عَلَيْهِ) هـٰذه مراحل الآن هو يخطوها في تعلم الإسلام وما دار في خلده أن هـٰذا الأمر مثلاً محرم، وأنه يحتاج لهـٰذا الحكم ما دار في خلده مثل هـٰذا الأمر.

فالشاهد أن المسألة فيها تفصيل؛ لكن شخص نشأ في ديار الاسلام في وسط العلماء، وفي معقل الايمان، والعلم شائع، والخير منتشر، وحجة الله قائمة، فمثل هـٰذا ما يعذر، فالمسألة يفرق بين المثال الذي ذكره رحمه الله وبين من نشأ في الاسلام وديار المسلمين وبين العلماء، والكتب منتشرة، والعلم مشتهر، ووسائله تعددت، فالحجة عليه قائمة بذلك.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ الرَّابِعَةُ

تَرْكُ الصَّلاةِ

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَن تَابَ ..﴾ الآية [مريم:٥٩-٦٠].

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥)﴾[الماعون:٤-٥].

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣)﴾[المدثر:٤٢-٤٣].

وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُم الصَّلاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَر))، وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((مَنْ فَاتَتْهُ صَلاةُ الْعَصْرِ حَبِطَ عَمَلُه))، وَقَالَ: ((بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ تَرْكُ الصَّلاة))، وَعَنْهُ -صَلَّىٰ اللهُ تَعَالىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((مَنْ تَرَكَ الصَّلاةَ مُتَعَمِّداً فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ)). قَالَهُ مَكْحُول عَنْ أَبِي ذَرٍّ وَلَمْ يُدْرِكْهُ.

وَقَالَ عُمَر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: "أَمَا إِنَّهُ لا حَظَّ لِأَحَدٍ فِي الْإِسْلَامِ أَضَاعَ الصَّلاةَ".

وَقَالَ أَيُّوبُ السِّخْتِيانِي مِثْلُ ذَلِكَ، وَرَوَىٰ الْجَرِيرِي عَنْ عَبْدُ اللهِ بْنِ شَقِيق، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ-رَضِيَ اللهُ تَعَالىٰ عَنْهُ-، قال: "كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لا يَرَوْنَ شَيْئًا مِن الْأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصَّلاة. أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ، وَأَخْرَجَهُ التِّرمِذِيُّ دُونَ ذِكْرِ أَبِي هُرَيْرَة. وَقَالَ ابْنُ حَزْمٍ: "لا ذَنْبَ بَعْدَ الشِّرْكِ أَعْظَمَ مِنْ تَرْكِ الصَّلاةِ حَتَّىٰ يَخْرُجَ وَقْتهَا، وَقَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيرِ حَقٍ".

وَرَوَىٰ هَمَّامُ، نَبَّأَنَا قِتَادَةُ، عَن الْحَسَن، عَنْ حريب بْنِ قبيصة قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلاتُهُ، فَإِنْ صَلحت فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَح، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ)). حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ. وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُم وَأَمْوَالَهُم إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلامِ، وَحِسَابُهُم عَلَىٰ اللهِ)). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ أَبِي سَعِيد؛ أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! اتَّقِ اللهَ!. فَقَالَ: ((وَيْلَكَ أَلَسْتُ أَحَقّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ أَتَّقِي اللهَ؟!)) فَقَالَ خَالدُ بْنُ الْوَلِيد-رَضِيَ اللهُ تَعَالىٰ عَنْهُ-: أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ يَا رَسُولُ اللهِ! فَقَالَ: ((لا، لَعَلَّهُ أَنْ

يَكُونَ يُصَلِّي)). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَرَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدُ اللهِ بْنِ عَمْرٍو -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمَا-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: ((مَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَىٰ الصَّلاةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلا بُرْهَانٌ وَلا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنَ خَلَف)). لَيْسَ إِسْنَادُهُ بِذَلِكَ.

وَهٰذِهِ النُّصُوص تُشْعِرُ بِكُفْرِ تَارِك الصَّلاةِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِمُعَاذ: ((مَا مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا حَرَّمَهُ عَلَىٰ النَّارِ)). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

فَمُؤَخِّرُ الصَّلاةِ عَنْ وَقْتِهَا صَاحِبُ كَبِيرَة، وَتَارِكُهَا بِالْكُلِّيَّةِ -أَعْنِي الصَّلاةَ الْوَاحِدَةَ- كَمَنْ زَنَىٰ وَسَرَقَ؛ لِأَنَّ تَرْكَ كُلِّ صَلاةٍ أَوْ تَفْوِيتَهَا كَبِيرَة، فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ مَرَّاتٍ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ، فَإِنْ لَازَمَ تَرْكَ الصَّلاةِ فَهُوَ مِن الْأَخْسَرِينَ الْأَشْقِياءِ الْمُجْرِمِينَ.

[الشرح]

ثم قال المصنف رحمه الله: (الكبيرة الرابعة ترك الصلاة)، والصلاة عماد الدين، وهي أعظم أركانه بعد الشهادتين، وهي أحد مباني الإسلام العظام، وترك الصلاة كبيرة من كبائر الذنوب، وموبقة من الموبقات؛ بل إن تركها كفر بالله عزوجل، علىٰ ما سيأتي ذكر الدلائل علىٰ ذلك عند المصنف -رحمه الله.

والمصنف هنا أخذ يسوق الادلة الكثيرة من القرآن علىٰ خطورة ترك الصلاة، والتهاون بها، والتكاسل عن فعلها، وأن هٰذا من الذنوب الكبيرة والأثام العظيمة.

ومن يترك الصلاة هو علىٰ حالتين:

إما أن يتركها جاحداً لوجوبها وجاحداً لفرضيتها، وأنها فريضة من فرائض الاسلام فهذا كافر باتفاق أهل العلم من ترك الصلاة جاحداً لها فهٰذا كافر باتفاق أهل العلم.

والحالة الثانية أن يترك الصلاة ليس جاحداً؛ بل هو علىٰ علم علىٰ أنها فريضة وواجبة والله عزوجل يعاقبه علىٰ تركها ولكنه يتركها تهاونا يتعمد تركها تهاونـًا واتباعـًا لأهوائه، فهذا فيه خلاف في كونه كافر، والصحيح من أقوال أهل العلم أنه كافر للأدلة الواضحة الصريحة في ذلك، وقد ساق المصنف جملة منها تأتي معنا.

قال المصنف: (قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ

يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَن تَابَ ..﴾ الآية [مريم:٥٩-٦٠].) هٰذه الآية فيها أن تارك الصلاة يلقىٰ يوم القيامة غي، وقيل: إنه واد في جهنم.

قال المصنف رحمه الله: (وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥)﴾[الماعون:٤-٥].) وهٰذا أيضاً فيه التهديد تارك الصلاة والساهي عنها بأن له ويل، وقيل: هو العذاب الشديد وقيل هو واد في نار جهنم.

قال: (وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣)﴾[المدثر:٤٢-٤٣].) وهٰذا فيه أن أهل النار عندما يسألون ما الذي أدخلكم النار؟ ما الذي سلككم فيها وأوصلكم إليها؟ فيكون في أول إجاباتهم ترك الصلاة ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾.

قال المصنف: (وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُم الصَّلاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ)) وهٰذا فيه أن الصلاة عهد علىٰ المؤمن يجب أن يوفي به ويحافظ عليه، وأن يلتزم به وألا يتركه، وفي الحديث التوثيق علىٰ أن تارك الصلاة كافر.

قال المصنف: (وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((مَنْ فَاتَتْهُ صَلاةُ الْعَصْرِ حَبِطَ عَمَلُه)) وهٰذا أيضا واضح، في أنَّ ترك الصلاةِ مُحبطٌ للأعمالِ؛ ((من فاتته صلاة العصر حَبِط عمله)).

قال : (وَقَالَ: ((بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ تَرْكُ الصَّلاة))) وفي بعض ألفاظ الحديث ((بين العبد وبين الشرك والكفر تَرْكُ الصلاة)) وهذا صريح في كفر تارك الصلاة ، والشرك والكفر - مُعَرّفا لا يأتي إلا مُرادا بِه الشرك الأكبر والكفر الأكبر الناقل من المِلّة. فهٰذا من أصرح ما يكون في أنَّ تارك الصلاة كافرٌ بالله. والحُكم هنا متعلق بالترك ليس بالجحود؛ قال: ((بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة))، لم يقل جَحْدُها؛ جَحدُها هٰذا كُفر آخر؛ لكن هنا الحُكم مُتعلق بتركِ الصلاة. والجحد، جحد أي شيء من أمور الدين المعلومة من الدين بالضرورة، حتىٰ وإن لم يكن تَرْكُها كفرًا يكون بذلك كافر بالجحد. أما هنا الحُكم مُعَلّق بالتركِ نفسِه.

قال: (وَعَنْهُ- صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((مَنْ تَرَكَ الصَّلاةَ مُتَعَمِّداً فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ)). قَالَهُ مَكْحُول عَنْ أَبِي ذَرٍّ وَلَمْ يُدْرِكْهُ.) وهٰذا الحديث أيضا من الأدلة علىٰ كفر تارك الصلاة. قال ((من ترك الصلاة متعمدا فقد بَرِئت منه ذمة الله))؛ ذمة الله؛ أي أمانه وعهده للمُحافظِ علىٰ دينه بالحفظ والعون، وهذا من الأدلة علىٰ كُفر تارك الصلاة، لأنه لو كان باقيا علىٰ إسلامه لكان له ذِمة الإسلام، فحفظُ الله وكلاءته

ورعايته بما عنده من الإسلام، لكن برئت منه ذمة الله؛ أي ليس له هٰذه الذمة التي مِنَ الله عز و جل تفضّلا وتكرّما علىٰ عباده المسلمين.

قال المصنف: (وَقَالَ عُمَر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: "أَمَا إِنَّهُ لا حَظَّ لِأَحَدٍ فِي الْإِسْلَامِ أَضَاعَ الصَّلاةَ".) وهذا فيه أيضا دلالة علىٰ كفر تارك الصلاة، وأنه لا حَظَّ له في الإسلام.

ثم قال: (وَقَالَ عُمَر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: "أَمَا إِنَّهُ لا حَظَّ لِأَحَدٍ فِي الْإِسْلَامِ أَضَاعَ الصَّلاةَ".

وَقَالَ أَيُّوبُ السِّخْتِيانِي مِثْلُ ذَلِكَ، وَرَوَىٰ الْجَرِيرِي عَنْ عَبْدُ اللهِ بْنِ شَقِيق، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ-رَضِيَ اللهُ تَعَالىٰ عَنْهُ-، قال: "كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لا يَرَوْنَ شَيْئًا مِن الْأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصَّلاة. أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ، وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ دُونَ ذِكْرِ أَبِي هُرَيْرَة.)

وهذه بعض الآثار عن السلف في كفر تارك الصلاة، وأنَّ هذا الحُكم شائع بين الصحابة ومشهور بينهم؛ كانوا لا يرون شيء من الأعمال تَركُه كفرا غير الصلاة.

ثم قال: (وَقَالَ ابْنُ حَزْمٍ: "لا ذَنْبَ بَعْدَ الشِّرْكِ أَعْظَمُ مِنْ تَرْكِ الصَّلاةِ حَتَّىٰ يَخْرُجَ وَقْتَهَا، وَقَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيرِ حَقٍ".) كلام ابن حزم هذا ممكن أيضا نأخذ منه فائدة في مسألة الترتيب، وإنْ كان الذهبي لم يلتزم فيما يظهر بقضية ترتيب الكبائر. ترك الصلاة مُقدّم علىٰ قتل النفس.

قال المصنف: (وَرَوَىٰ هَمَّامُ، نَبَّأَنَا قِتَادَةُ، عَن الْحَسَن، عَنْ حريب بْنِ قبيصة قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلاتُهُ، فَإِنْ صَلحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ)). حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ.) وهٰذا يبين لنا مكانة الصلاة في الدين، ومنزلتها، وأنها أوّل الأعمال التي يحاسب عليها يوم القيامة. وأيضا فيه فائدة أنّ صلاح الصلاة صلاح للعمل وفسادها فساد للعمل، ((فَإِنْ صَلحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ)).

فهٰذا فيه مكانة الصلاة من الدين، وأنها أول ما يُحاسَب عليه العبد يوم القيامة.

وقوله: ((أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) أي من حقوق الله، وما افترضه علىٰ عباده. أما فيما يتعلق بحقوق العباد فقد مرَّ معنا حديث ((أول ما يُقضىٰ بين الخلائق يوم القيامة الدماء)).

فهناك في ما يتعلق بحقوق العباد وهنا في ما يتعلق بحقوق الله عز وجل.

قال: (وَعَنْ أَبِي سَعِيد؛ أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولُ اللهِ! اتَّقِ اللهَ!. فَقَالَ: ((وَيْلَكَ أَلَسْتُ أَحَقّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ أَتَّقِي اللهَ؟!)) فَقَالَ خَالدُ بْنُ الْوَلِيد-رَضِيَ اللهُ تَعَالىٰ عَنْهُ-: أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ يَا رَسُولُ اللهِ! فَقَالَ: ((لا، لَعَلَّهُ

أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي)). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.)، قال: ((لا، لعله أن يكون يصلي)) هذا هو الشاهد من الحديث، وفيه توضيح لما سبق في الحديث الأول: ((فقد برئت منه ذمة الله)) -من لا يصلي- أما الذي يصلي فهو في ذمة الله، ((من صلىٰ الفجر في جماعة فهو في ذمة الله، فلا [يطلبنكم] الله من ذمته بشيء)) فالذي يصلي فهو في ذمة الله، والذي لا يصلي برئت منه ذمة الله؛ ولهذا قال هنا النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ((لا، لعله أن يكون يصلي)) فالذي يصلي هو في ذمة الله.

قال: (وَرَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدُ اللهِ بْنِ عَمْرٍو-رَضِيَ اللهُ تَعَالىٰ عَنْهُمَا-، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: ((مَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَىٰ الصَّلاةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلا بُرْهَانٌ وَلا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنَ خَلَف)). لَيْسَ إِسْنَادَهُ بِذَلِكَ.) ثم أورد هذا الحديث في مسند الإمام أحمد والحديث، حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وفيه أولا قال: ذُكرت الصلاة عند رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوما فقال ((من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة. ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة يوم القيامة وحُشر مع قارون وفرعون وهامان وأبيّ بن خلف))؛ أي أنه يُحشر يوم القيامة إذا لم يكن مُحافظا علىٰ الصلاة مع صناديد الكفر وأعمدة الباطل ورؤوس الضلال، يُحشر معهم. فقوله: ((من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة)) (نورا) أي في طريقه وفي سيره، فالصلاة نور تضيء للعبد الطريق ويهتدي لكل خير بالصلاة؛ (وبرهانا) أي علىٰ إيمانه وصدق دينه وصلاح دينه و استقامته علىٰ طاعة ربه والصلاة برهان، برهان علىٰ الإيمان، وإذا انتفىٰ البرهان انتفىٰ الإيمان الذي هو جُعلت الصلاة برهانا عليه؛ فالصلاة برهان ونجاة يوم القيامة؛ أي من عذاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ فالصلاة نجاة، (مَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَىٰ الصَّلاةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلا بُرْهَانٌ وَلا نَجَاةٌ) يوم القيامة، ثم إنه يُحشر مع صناديد الكفر قارون، فرعون، هامان، أبيّ بن خلف.

قال بعض أهل العلم ذِكر هٰذه الأسماء لأن الشواغل عن الصلوات عند الناس متنوعة:

منهم من يشغله عن الصلاة رئاسته وزعامته، فهو بهذا مع فرعون.

ومنهم من يشغله عن الصلاة ماله وثراؤه وتجارته فهو مع قارون.

ومنهم من يشغله عن الصلاة مثلا وزارته وما إلىٰ ذلك فهو مع هامان.. وهكذا.

فالشواغل عن الصلوات قد تكون الرئاسة، قد تكون الزعامة، قد تكون أمور، وكيفما كان فترك الصلاة

سبيل لأن يُحشر الإنسان مع هؤلاء، وأن يكون لا نجاة له يوم القيامة.

وهذا الحديث إسناده حسن كما بيّن ذلك سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله- في مواضع من كتبه، ومنها مجموع فتاواه.

قال: (هٰذِهِ النُّصُوص تُشْعِرُ بِكُفْرِ تَارِكِ الصَّلاةِ.) نعم بعضها شأنه كذلك يُشعر بكفر تارك الصلاة و ليس صريحا؛ لكن فيها ما هو أدلة واضحة وصريحة. فقوله (تُشعر) هذا بعضها، أما عدد منها فهو واضح وصريح بأن تارك الصلاة كافر، ومن أوضحها قوله عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: ((بين العبد و بين الشرك ترك الصلاة)) وغيرها مما مرَّ معنا.

قال: (وَقَدْ قَالَ النَّبِيِّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِمُعَاذ: ((مَا مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا حَرَّمَهُ عَلَىٰ النَّارِ)). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.) ثم أورد المصنف رحمه الله هـٰذا الحديث، والسنّة يُفسر بعضها بعضا ويُبين بعضها بعضا. فهذا الحديث يُوضحه الحديث الذي قبله، وقد أورده المصنف ((أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم علىٰ الله)) وكذلك الأحاديث التي مرت معنا مُصرِّحةً بكفر تارك الصلاة.

قال: (فَمُؤَخِّرُ الصَّلاةِ عَنْ وَقْتِهَا صَاحِبُ كَبِيرَة، وَتَارِكُهَا بِالْكُلِّيَّةِ -أَعْنِي الصَّلاةَ الْوَاحِدَةَ- كَمَنْ زَنَىٰ وَسَرَقَ؛ لِأَنَّ تَرْكَ كُلَّ صَلاةٍ أَوْ تَفْوِيتَهَا كَبِيرَة، فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ مَرَّاتٍ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ، فَإِنْ لَازَمَ تَرْكَ الصَّلاةِ فَهُوَ مِنِ الْأَخْسَرِينَ الْأَشْقِيَاءِ الْمُجْرِمِينَ) هذه محاولة من المصنف -رحمه الله- لتقريب هـٰذا الأمر وتوضيح حُكم تارك الصلاة باعتبار من يترك بعض الصلوات أو يترك كثيرا منها. فهذه محاولة؛ ولكن الأوضح مِثل ما مرّ معنا في الدلائل الواضحة المصرِّحة بكفر تارك الصلاة؛ وحتىٰ أيضا من يتعمّد تأخيرها خلافا لما أمر الله عز وجلّ به ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣)﴾[النساء:١٠٣] الذي يتعمد ألا يصلي الفجر إلا بعد طلوع الشمس، الذي يتعمد أن يوقت مُنبه الساعة علىٰ الدوام الوظيفي الساعة السابعة صباحا فيستيقظ في هـٰذا الوقت ويُصلي. فما يتعلق بدنياه لا يخرمه ويضبط وقته تماما، وما يتعلق بحق سيده وربِّه ومولاه لا يبالي به ويتعمّد تأخيره. الوظيفة قد لا يُضبط عليه في سيرته الوظيفية أنّه تأخّرَ عن الدوام دقيقة.

وأمَّا الصلاة التي هي حقّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ علىٰ عباده فعندما ينام الثانية والواحدة ليلا يضع المنبه علىٰ

السابعة صباحا، يعني بعد طلوع وقت الصلاة. هذا تعمّد، بخلاف الذي يضع المنبه علىٰ وقت الصلاة وهو حريصٌ علىٰ القيام، هذا أمر آخر. وإذا كان مُستديما لهذا الأمر فهو علىٰ خطر عظيم ويُخشىٰ أن يكون من المُتهاونين في أمر الصلاة.

ثم بعد ذلك انتقل المُصنف – رحمه الله – للكلام علىٰ كبيرة أخرىٰ.

[المتن]

الكَبِيرَةُ الخَامِسَةُ

مَنْعُ الزَّكَاةِ

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧)﴾[فصلت:٦-٧]. وَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾ الآية[التوبة:٣٤-٣٥].

وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((مَا مِنْ صَاحِبِ إِبِلٍ وِلَا بَقَرٍ وَلَا غَنَمٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا زَكَاتَهَا إِلَّا بُطِحَ لَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَاعٍ قَرْقَرٍ تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا كُلَّمَا نَفِدَتْ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا عَادَتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَ النَّاسِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ يَرَىٰ سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَىٰ الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَىٰ النَّارِ. وَ مَا مِنْ صَاحِبِ كَنْزٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاتَهُ إِلَّا مُثِّلَ لَهُ كَنْزُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ ...)) الحديث.

وَقَدْ قَاتَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيق -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- مَانِعِي الزَّكَاةِ وَقَالَ: وَاللهِ لَو مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَقَاتَلْتُهُم عَلَىٰ مَنْعِهَا.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[آل عمران:١٨٠].

وَعَنْ النَّبِيِّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِيمَنْ مَنَعَ الزَّكَاةَ قَالَ: ((مَنْ مَنَعَهَا فَإِنَّا آخِذُوهَا وَشَطْرَ مَالِهِ، عزمةً مِنْ عَزَمَاتِ رَبِّنَا)). أَخْرَجَهُ أَبُو دَاود والنَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جِدِّهِ.

وَ(عَنْ) يَحْيَىٰ بْنِ أَبِي كَثِير، حَدَّثَنِي عَامِرُ الْعُقَيْلِيُّ؛ أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((أَوَّلُ ثَلاثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ: أَمِيرٌ مُسَلَّطٌ، وَذُو ثَرْوَةٍ لَا يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ فِي مَالِهِ، وَفَقِيرٌ فَخُورٌ)).

(وَعَنْ) شُرَيْك وَغَيْرِهِ، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ أَبِي الْأَحْوَص، عن عَبْدِ اللهِ قَال: أُمِرْتُم بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ، فَمَنْ لَمْ يُزَكِّ فَلا صَلاةَ لَهُ.

[الشرح]

ثم ذَكر هٰذه الكبيرة الخامسة وهي (منع الزكاة). والزكاة قَرينة الصلاة في كتاب الله عز وجلّ؛ فلا تكاد تُذكر الصلاة في القرآن إلاّ وتُذكر الزكاة مقرونة بها. فالزكاة رُكن من أركان الإسلام وأحد مبانيه كما قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «بُني الإسلام علىٰ خمس: شهادة أن لا إلـٰه إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة ...».

والزكاة هي حقٌّ في المال –في مال الأغنياء– جعله الله عز وجل حقًّا في مالِهِم – حقا معلوما ومُحدَّدا – في الشريعة أنواع الأموال الزَّكوية؛ أي إذا بلغت النصاب الزَّكوي ففيها حقٌّ معلوم في الشريعة للسائل والمحروم، في مصارفه الثمانية المُبينة في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ. فهٰذا حق في المال قد جعله الله –عز وجل– للفقراء من مال الأغنياء. كما قال –عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ– في حديث معاذ عندما بعثه إلىٰ اليمن: ((فإن هم أقاموها – أي الصلاة – فأعلمهم أن الله افترض عليه زكاة تُؤخذ من أغنيائهم و تُردُّ علىٰ فقرائهم)).

والزكاة لا تُؤخذ من كل أحد، وإنما تؤخذ من الأغنياء؛ الذي عنده مال بلغ النصاب، فيُؤخذ منه زكاةً تُعطىٰ للفقراء. وفيها خير عظيم للمُزكي ولماله وللفقراء وللمجتمع، فيها فوائد لا حصر لها ولا عدّ، وهي بركة علىٰ مال المزكي وبركة عليه وعلىٰ بيته، وفيها مواساة للفقراء والمحتاجين وفيها صدٌّ للحاجة وفيها تكافل اجتماعي وتحقيق للخيريّة، وفيها أيضا زوال كثير من الخصال السيئة والخلال القبيحة. ففيها ثمار وآثار كثيرة لا حدّ لها، وهي من فرائض الإسلام.

وأخذ يسوق المصنف – رحمه الله – بعض الأدلة علىٰ وجوب الزكاة وفرضيتها، فأورد قول الله عز وجلّ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[فصلت:٦-٧]

﴿لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قيل: المراد به الزكاة المفروضة التي هي حقٌّ في المال. وقيل: ﴿لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي لا يُزكّون أنفسهم بالتوحيد والإخلاص لله جل وعلا. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾[الأعلىٰ : ١٤-١٥]، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[الشمس : ٩-١٠]، ﴿زَكَّاهَا﴾ أي بالتوحيد و الإيمان، و﴿دَسَّاهَا﴾ أي غمسها في الكفر والعصيان.

وقال رحمه الله: (وَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ

أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾ الآية[التوبة:٣٤-٣٥].) وهـٰذا من أدلة القرآن التي فيها الوعيد الشديد علىٰ من لا يُزكي ماله؛ أي لا يصرف من ماله زكاته التي فرضها الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ عليه، قال: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾، فيُعذبون بهـٰذه الأموال التي حبسوها ومنعوها ولم يُخرجوا حقّها الذي افترضه الله عليهم، فالله جلّ وعلا أعطاهم المال الكثير وطلب منهم أن يُنفقوا الشيء القليل، وجاءت النصوص مُبينةً أن هـٰذا الشيء القليل لا يُنفق ماله بل يزده ويُبارك فيه، فمنعوه فكانت هـٰذه عقوبتهم أن يُعذبوا بهـٰذا المال ﴿يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾.

ثم أورد المصنف (وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((مَا مِنْ صَاحِبِ إِبِلٍ وَلَا بَقَرٍ وَلَا غَنَمٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا زَكَاتَهَا إِلَّا بُطِحَ لَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَاعٍ قَرْقَرٍ تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا كُلَّمَا نَفدَتْ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا عَادَتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَ النَّاسِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ يَرَىٰ سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَىٰ الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَىٰ النَّارِ. وَمَا مِنْ صَاحِبِ كَنْزٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاتَهُ إِلَّا مَثَلَ لَهُ كَنْزُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَع ...)) الحديث.) هـٰذا الحديث وهو في الصحيحين وسياقه أطول من هنا، المصنف - رحمه الله - اختصر الحديث وفيه عقوبة تارك الزكاة يوم القيامة، وأن صاحب الإبل والبقر والغنم الذي لا يؤدي الزكاة بأنه يُبطح يوم القيامة؛ أي يُسحب مطروحا علىٰ الأرض بقاع قرقر؛ أي أرض منبسطة، فتنطحه بقرونها و تطؤه بأخفافها، وهـٰذه عقوبة له بالمال الذي كان يمتلكه؛ إنْ كان صاحب إبل أو بقر فإنها تنطحه يوم القيامة وتطؤه وهو مُنبطح علىٰ الأرض، وإن كان صاحب ذهب وفضة، فكما مرَّ يُحمىٰ عليها في نار جهنم فتُكوىٰ بها الجباه والجُنوب والظهور.

وقال: «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» أي يوم القيامة. وهـٰذا فيه شاهد لما جاء في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[المعارج:٤]، فالصحيح في معنىٰ الآية من أقوال التي قيلت أنه (يوم القيامة)؛ و مما يشهد لهـٰذا هـٰذا الحديث في الصحيحين، قال: «حتىٰ يُقضىٰ بين الناس في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يُرىٰ سبيله إما إلىٰ الجنة وإما إلىٰ النار». وهـٰذا فيه -إذا كان عدم دفعه للزكاة عن شُحٍّ في نفسه وعن تقصير- أنه مُرتكب

لكبيرة من الكبائر وعظيمة من عظائم الذنوب، ولهٰـــذا قال: «ثم يُرىٰ سبيله إما إلىٰ الجنة و إما إلىٰ النار» ولو كان مُنتقلا بذلك من الملّة لم يكن له سبيل إلا إلىٰ النار؛ لا سبيل له إلىٰ الجنّة.

أما إن كان تركه للزكاة عن جَحْدٍ لها، وإنكار لها، فهٰـذا كافر منتقل من المِلّة لا سبيل له يوم القيامة إلا إلىٰ النار، لا سبيل له إلىٰ الجنة.

قال المصنف رحمه الله: (وَقَدْ قَاتَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيق -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- مَانِعِي الزَّكَاةِ وَقَالَ: وَاللهِ لَو مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ تَعَالىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَقَاتَلْتُهُم عَلَىٰ مَنْعِهَا.) وهٰذا فيه مانع الزكاة إذا امتنع الإنسان عن زكاة ماله، ولم يَقبل دفع ماله لجباة الزكاة الذين يُوظفهم وليّ الأمر لجبايتها فامتنع، فالحُكم أنه إذا امتنع يُلزم بدفعها، وإن امتنع وقاتل يُقاتل، إن قاتل في امتناعه يُقاتل ولو قُتل.

ثم قال: (قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[آل عمران: ١٨٠].) نُلاحظ في جميع هٰذه النصوص التي مرّت في عقوبة تارك الزكاة أنها كلها تعذيبٌ له بِمالِه، فكان يجمع المال ويَعُدّه مُتعة ويتمتع به ولا يُؤدي حقه، فتكون عقوبته بهٰذا المال الذي جمعه وكثّر منه وأخذ يتمتع به دون أن يؤدي حق الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- فيه الذي جعله للفقراء والمحتاجين، فتكون عقوبته بهٰذا المال.

قال رحمه الله: (وَعَنْ النَّبِيِّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِيمَنْ مَنَعَ الزَّكَاةَ قَالَ: ((مَنْ مَنَعَهَا فَإِنَّا آخِذُوهَا وَشَطْرَ مَالِهِ، عزمةً مِنْ عَزَمَاتِ رَبِّنَا)). أَخْرَجَهُ أَبُو دَاود والنَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ بَهْزِ بْنِ حَكِيم عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ.)

هٰذا الحديث -وهو في سُنن أبي داوود والنسائي وغيرهما- فيه ما يتعلق بمن منع الزكاة، يعني طُلب منه الزكاة فامتنع. يقول عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «من منعها فإنّا آخذوها وشَطر ماله» أي هٰذه عقوبة له لامتناعه أن يُؤخذ منه الزكاة، وإضافة إلىٰ ذلك يُؤخذ منه نصف ماله، فهٰذه عقوبة له.

قال: «عزمة من عزمات ربنا» أي حُكم من الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ وأمر من أوامره جل وعلا.

قال: «عزمة من عزمات ربنا». وهٰذا الحديث من أهل العلم من أخذ به علىٰ ظاهره، وقال: إنَّ من يمتنع عن الزكاة يُعاقب بهٰذه العقوبة، يُؤخذ منه قصرا وقهرا الزكاة، وإضافة إلىٰ ذلك يُؤخذ منه نصف ماله تعزيرا له وعقوبة لإمتناعه. ومن أهل العلم من قالوا إن هٰذا الحكم منسوخ. والله أعلم.

قال: (وَ(عَنْ) يَحْيَىٰ بْنِ أَبِي كَثِير، حَدَّثَنِي عَامِرُ الْعُقَيْلِيُّ؛ أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ

رَسُولُ اللهِ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((أَوَّلُ ثَلاثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ: أَمِيرٌ مُسَلَّطٌ، وَذُو ثَرْوَةٍ لا يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ فِي مَالِهِ، وَفَقِيرٌ فَخُورٌ)).) وهٰذا فيه هؤلاء الثلاثة الذين يدخلون النار وهم أوائل الداخلين: «أمير مُسلَّط» يعني فيه تجبر وتسلط وطغيان وتعدي علىٰ رعيته وإلحاق للمشقة والأذىٰ بهم.

والثاني -وهو الشاهد- ((وَذُو ثَرْوَةٍ لا يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ فِي مَالِهِ))؛ ((ذُو ثَرْوَةٍ)) يعني ذو مال. ((لا يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ فِي مَالِهِ)) يعني لا يخرج الزكاة المفروضة، والزكاة حق لله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- في المال جعله للأصناف التي بينها سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ في كتابه.

قال: «وَفَقِيرٌ فَخُورٌ»، قوله: «فقير فخور» مثل قوله في الحديث الآخر: «عَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ» يعني فقير ولا مال عنده، وفي حاجة، وفي عَوَز، وفي الوقت نفسه عنده كِبْر وتعالي علىٰ الناس، وهٰذا يقول فيه أهل العلم: توجد الخصلة الذميمة من غير وجود الباعِث لها والمحرك، يعني الغني أو الثري إذا تكبّر يُقال: الكبر دخل عليه من الباعث وهو المال أو الثراء أو مثلا الرئاسة أو الزعامة، فدخلت عليه من هٰذا. أمّا شخص فقير وفي عوز في حاجة ويتكبَّر! فالباعث علىٰ الكبر غير موجود، إذًا ما الذي جعله يتكبر؟ فساد عظيم في نفسه!، فساد عظيم في نفسه!؛ ولهٰذا كانت عقوبته أبلغ من غيره، مثل هٰذا «**الأشيمط** الزاني»: يعني الشيخ الكبير إذا زنا، الشاب إذا زنا من البواعث عليه قوة الشهوة التي به؛ لكن الشيخ الكبير المسن الشهوة عنده بردت وليس عنده قوة، فإذا زنا يكون زناه ليس مُحركًا له شهوة ثارت، وإنما فساد عريض فيه، ولهٰذا كان مثل هٰذا عقوبته أبلغ.

وفي هٰذا أيضا أنّ الذنب يتضاعف بسبب ما يحتفّ به، كما سبق الإشارة إلىٰ ذلك وسيأتي أيضًا التنبيه عليه، فقد لا يحتف به إما من وقت أو من حال الشخص أو من مكانه أو غير ذلك.

قال هنا: «وفقير فخور»: يعني فخور و مُتعَالي و مُتكبِّر و يرىٰ نفسه ويتعالىٰ علىٰ الآخرين، وهٰذه من أبغض الخصال و أشنعها، ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[البقرة:٢٥٤].

قال رحمه الله: ((وَعَنْ) شُرَيْك وَغَيْرِهِ، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ أَبِي الْأَحْوَص، عن عَبْدِ اللهِ قَالَ: أُمِرْتُم بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ، فَمَنْ لَمْ يُزَكِّ فَلا صَلاةَ لَهُ.) هٰذا فيه مكانة الزكاة من الصلاة، وهي كما مرّ معنا قرينة الصلاة في كتاب الله -جلّ و علا-.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ السَّادِسَةُ

عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ الآيات[الإسراء:٢٣-٢٥].

[الشرح]

ثمّ ذكر المصنف -رحمه الله- هٰذه الكبيرة، وهي كبيرة تتعلق بحقوق العباد، ما سبق يتعلق بحقوق الله، وهٰذه تتعلق بحقوق العباد، ولمّا بدأ ببعض الكبائر التي تتعلق بحقوق العباد، بدأ بالوالدين اللذَيْن هما أحق الناس بحسن الصّحبة وحسن المعاملة وطِيب المعاشرة وبالاهتمام، فبدأ بحق الوالدين، وهٰذا فيه لفت انتباه إلىٰ أنهما أحق الناس بالبر والإحسان، وسيأتي معنا قول النبي - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: **((أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك أدناك))** ، وفي الحديث قال: من أبر؟، قال: ((أمك))، قال: ثم من؟، قال: ((أباك)) إلىٰ أن ذكر بعض القرابة، البدْء بالوالدين، والوالدة مقدمة وحقها أعظم.

فالمصنف بدأ بهٰذه الكبيرة التي تتعلق بهٰذا الحق العظيم الذي هو حق الوالدين، قال: (**الكبيرة السادسة: عقوق الوالدين**)، والعُقُوق: هٰذه الكلمة مأخوذة من العَقّ وهو الشّق والقطع، وهنا سُميَّت الإساءة للوالدين والخروج عن البر الذي لهما عقّا وقطعا؛ لأنّ مَنْ أساء إليهما ولم يقم معهما بمقام الإحسان اللائق قد شقّ هٰذا الحق و قطعه -الذي هو حق عظيم للوالدين- شقَّهُ و قطعه؛ ولهٰذا سُمَّيَ من لا يَبَرُّ والديه ولا يقم بحقهما "عاقًّا"؛ لأنه قطع وشق هٰذا الحق الذي جعله الله - تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- للوالدين جزاء إحسانهما ومعروفهما وجميلهما الذي تحقق لهٰذا الولد علىٰ يديهما، فقال: (**عقوق الوالدين**)، ثمّ أخذ يذكر بعض الأدلة علىٰ ذلك.

فذكر قول الله -عزّ و جل-: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، وفي الآية قَرْنُ الإحسان للوالدين بحقه -جلّ وعلا- وهو التوحيد، وهٰذا يأتي في القرآن كثير؛ كقوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾[لقمان:١٤]، وقوله: ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[النساء:٣٦]،

وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[الأنعام:١٥١]، فيأتي في القرآن في مواضع قَرْنُ حق الوالدين بحقه -جلّ و علا-، وهٰذا فيه بيان عظم حق الوالدين والواجب الكبير الذي جعله الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- لهما .

قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ هٰذه الكلمة التي طُلِبَ من العبد أن يُحققها مع والديه تتناول كل بر، فليس البر المطلوب للوالدين والإحسان المطلوب للوالدين نوعًا واحداً أو مجالاً واحداً؛ بل هو مجالات، فكل مجال من البر والإحسان، وحسن المعاملة، وطِيب المعاشرة، وغض الصوت، والرفق والإحسان إلىٰ غير ذلك؛ كله داخل تحت قوله: ﴿إِحْسَانًا﴾، فكل ما كان من الإحسان والبر وطيب المعاملة فالوالدان أحق به، وإذا أراد الإنسان في هٰذا المقام ضابطًا لنفسه يعلم من خلاله ما هو الإحسان الذي ينبغي للوالدين، فأحسن ضابطٍ أظنه في هٰذا المقام أن يتصور الإنسان نفسه أنه هو الوالد، أو يتصوّر أنه هو الوالدة، ويتذكر ماذا قدّم لهٰذا الولد، ويستحضر ماذا قدمت الوالدة لهٰذا الولد، فيتذكر الحمل وأتعابه، والوَضْع وشدته، والرضاعة ومكابدتها، الرعاية...إلخ، يتذكر هٰذه الأمور، ثمّ لمّا يتذكرها ويستحضرها تمامًا، ينتقل إلىٰ مرحلة ثانية وهي أن ينظر ماذا يريد إذا كان في هٰذا المقام، فكل ما يريده لنفسه إذا كان هو في هٰذا المقام يقدّمه لوالديه، هٰذا المعنىٰ الذي أُشير إليه يدل عليه قول النبي – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : ((**أن تأتي للناس الشيء الذي تحب أن يؤتىٰ إليك**))، فهٰذا هو حسن البر وحسن المعاملة، أن تأتىٰ للوالدين الشيء الذي أنت تحب أن يؤتىٰ إليك لو كنت والداً، فلو كنت في مقامهما ماذا تريد لنفسك؟ هل تريد لنفسك أن تربي ولدك وتحسن رعايته وتحسن إطعامه والإنفاق عليه، وأيضا الأم والشدة التي كانت منها، والمعاناة الطويلة في الحمل تسعة أشهر، معاناة في حمل الجنين في بطنها؛ في قيامها؛ في قعودها؛ في نومها، مكابدة ما يعلمها إلا الله، ثمّ الوضع وشدَّته ثمّ الرضاعة، ثمّ سهر الليل حتىٰ إنّ ابنها يمرض وتتمنىٰ لو أنّ المرض فيها وليس فيه، ثمّ يكبر الابن وينسىٰ هٰذا المعروف كله وهو ينسىٰ هٰذا الإحسان.

فالشاهد أن بر الوالدين يكون باستحضار هٰذا الأمر، وتأملّوا هٰذا المعنىٰ الذي أشير إليه في الوصيَّة التي جاءت في سياق وصية لقمان لابنه في سورة لقمان، قال الله تعالىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾[لقمان:١٤]، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾[الأحقاف:١٥]، فهٰذه الأمور تعين علىٰ البر، و لهٰذا ذكّر الله بها في القرآن، هٰذه الأمور استحضارها وتذكّرها يعين علىٰ البر، والغفلة عنها توقع في العقوق؛ لكن إذا استحضرها وأوردها

علىٰ ذهنه، لو تجلس قليلا مع نفسك وتستحضر ما كان من معاناة من والدتك علىٰ وجه الخصوص ومن الوالد، والتّعب الشديد الذي كان، وتفكّر قليلا في الحمل ما هو؟ في الوضع ما هو؟ في الرضاعة ما هي؟ من غذائها تعطيك، ومن طعامها تطعمك، وأنت في رحمها وبعد أن ولدت، و لمّا تتذكر هٰذا الجميل السابق، البر يتحرك في القلب؛ لكن إذا نسيَ الابن الجميل السابق هٰذا كله وغاب عن ذهنه، ثمّ جاء يوم من الأيام وكان يريد حاجة في البيت ما تحقّقت، أمام هٰذه الحاجة التي يطلبها ويريدها ينسىٰ المعروف بالكامل ويقول: ما رأيت خيراً قط، والبيت هٰذا ما رأيت منكم خيراً وما قدمتم لي شيئا، ينسىٰ كل الخير أمام حاجة أو حاجتين أو ثلاث يريدها ولم تتحقق وهٰذا من العقوق، وهٰذا من العقوق، وباعثه نسيان الجميل السابق.

ولذلك فإنّ أنفع ما يكون في هٰذا الباب علىٰ الإنسان أن يستحضر دائمـًا هٰذه المعان ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾[لقمان:١٤]، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾[الأحقاف:١٥]، ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾[لقمان:١٤]؛ يعني مدّة الرضاعة الطويلة عامين، فهٰذه الأمور حقيقة يعني تُشعِر لهٰذا.

أحد الإخوة قال لي مرةً أنه عمل تجربة هو أراد أن يستفيد منها، قال: أنا يوما من الأيام أردت حقيقة أن أستحضر وأعرف ماذا قدمت لي الوالدة في الصغر من المعروف، يقول: أنا في غفلة عن هـٰذا، يقول: فيومًا من الأيام، من الفجر قلت لزوجتي: ولدي -وكان عمره سنة تقريبًا أو سنتين- قال: كل الأمور التي تتعلق به عندي، أنا الذي سأقوم بها، لا تفعلي معه أيَّ شيء، يقول: والله عانيت معاناة وتعبت تعبا شديدا في ذلك اليوم، -يعني: في تنظيف الوسخ الذي يخرج منه، في غذائه، في تسكيته إذا بكىٰ، في تنظيف الـ..- يقول: عانيت معاناة في ذلك اليوم، ودخلني شعور، وإحساس بمعروف قُدِّم لي في الصغر، نسيته في كبري وانشغالي بأمور الحياة، نسيته تمامًا، لكن يقول: قمت بهـٰذا العمل أريد أن أتذكَّر.

ولو لم يعمل الإنسان هـٰذا الأمر يقرأ القرآن، يقرأ ما أرشده الله إليه في القرآن، مثل هـٰذه الآيات ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾[لقمان:١٤]، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾[الأحقاف:١٥]، يقرأ هـٰذه الأمور ويقرأ هـٰذه المعاني، فهي التي تحرِّك في قلبه البر وإذا نسيها نسي البر.

أيضا يحرك في القلب البر أمر جاء أيضا في القرآن في هـٰذا الموضع -موضع البر بالوالدين- وهو قوله: ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[لقمان:١٤]، يعني تَذَكَّر أنَّ المرجع إلىٰ الله، وأمامك نصوص كثيرة أورد المصنِّف

جملة منها هنا في عقوبة العاق، فالعقوق لا يذهب ويضيع، بل أمام الإنسان عقوبة، وعقوبة معجَّلة في الدنيا وعقوبة مؤجَّلة يوم القيامة ((لا يدخل الجنة عاق)) سيأتي معنا، ويأتي معنا نصوص، فإذن تَذَكّر أمرًا ماضيًا وتَذكر أمرًا مستقبلاً، فهٰذا التذكر العظيم هو الذي –حقيقة يعني– فيه علاج للعقوق الذي يقع ولنقص البر الذي يقع، أن يتذكر هذين الأمرين ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾:

فقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ هٰذا تَذَكُّر الماضي والجميل، السابق والإحسان المتقدم من الوالدين، فهٰذا يعين علىٰ البر.

و قوله: ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ أمر يتعلق بالمستقبل: تَذَكُّر أنَّ المصير إلىٰ الله والمرجع إلىٰ الله وأنه سيحاسبك علىٰ هٰذه الأمور التي قدمتها؛ أمرك بالبرِّ ولم تبر، نهاك عن العقوق ووقعت في العقوق، والحساب شديد عندما يقف الإنسان بين يدي الله –جل وعلا–.

ثم قال: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾[الإسراء:٢٣]، هنا تكبر المشكلة، إذا كبر الوالدين دخلهما الضعف وأصبحا بحاجة إلىٰ الرعاية والعناية والمتابعة، والابن كبر وشبَّ ودخل في معمعة الحياة ومشغالها، والأولاد والمصالح الخاصة، وأموره وحاجياته، في مثل هٰذه المرحلة هي المحكُّ في الغالب في باب البرِّ، ويتميَّز، وتظهر المعادن وأصناف الناس في مثل هٰذا المقام وفي مثل هٰذا المحكِّ، فإذا وصلا إلىٰ هٰذه المرحلة ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ لمَّا يكون الأب نشيط وشاب وتعامله مع ابنه في نشاط وليس محتاجًا للابن، في مثل هٰذا المقام ما تظهر معالم البرِّ والحاجة إليه؛ لأن الأب في نشاطه وفي قوته، وربما هو الذي يقدم الخدمات والمساعدات للابن؛ لكن هنا المحكُّ وموضع الاختبار: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا﴾، وكثير من الناس يسقط في هٰذا الامتحان، وكثير منهم يملّ بسرعة ويتضجّر من الحاجة التي يحتاجها والده في كبره.

أنسي هٰذا المتضجر أنه إذا كتب الله له الحياة وأمدَّ الله له في العمر سيكون مثلهما وسيكون في حاجة شديدة مثلهما، كما أنه الآن في نشاطه هما أيضًا في يوم من الأيام كانا في نشاطهما وقوتهما، بل أنشط منه وأقوىٰ، لكن هٰذه سنة الله الماضية في خلقه، فأنت الآن ستكون يومًا من الأيام مثلهما في الكبر وستكون –إن مدَّ الله في عمرك– ستكون طاعنًا في السن، لن يبقَ لك الشباب ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾[الروم:٥٤]، هٰذا الذي سيكون، إن كُتبت لك حياة ستكون ضعيفًا وتكون محتاجًا لرعاية

الأولاد والأبناء، فَيَصِلُ هٰـذا المحك والاختبار هنا ليس في حال نشاط الأبوين، الاختبار هنا فيما ذكره الله في قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ كثير من الناس هنا يسقط، وتظهر منه مراتب العقوق وعلامته، يسقط هنا؛ ولهٰـذا جاء التأكيد علىٰ مرحلة الكبر والتنبيه عليها من رب العالمين وخالق الخلق أجمعين - تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- قال: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ لماذا؟ لأن حالة الكبر وضعف الكبير ووهنه، وربما بعضهم تكثر مطالباته، ويضعف رأيه، ويضعف فكره؛ بل يصبح في عقلتيه قد رُدَّ إلىٰ أرذل العمر في تعامله في مطالباته، يعني أشياء قد تكون مزعجة لكثير من الناس؛ فلا يحتمل فيبدأ يظهر التضجر والتنفّر والتأفف والنهر وأشياء من هٰذا القبيل.

وبعضهم في مثل هٰـذا الامتحان الذي يسقط فيه يلقي بوالديه في دار العجزة، ويتخلص منهما بأي طريقة، وبعضهم يضع والديه في دار العجزة ولا يأتيه، يعني لقيت أنا في بعض دور العجزة من أبناؤه وهم يمشون وأحياء ونشطاء، وعندهم أموال، لهم عشر خمس عشرة سنة ما رأوا والدهم، وربما يموت ما يدرون عنه ويدفن ما ..، ولا كأنه كان أبًا لهم، ولا كأنها كانت أمًا، ما هٰذا؟!

فهٰـذا عرضة لعقوبة شديدة في الدنيا يراها أمثال هؤلاء، وعقوبة شديدة يوم القيامة عندما يلقون الله ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

فعقوق الوالدين كبيرة من الكبائر وعظيمة من العظائم، ولها عقوبة شديدة عند الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- ، في الدنيا معجَّلة، و في الآخرة معجلة للعاق.

قال: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾، ﴿أُفٍّ﴾ هٰـذه كلمة يؤتىٰ بها للتضجُّر والتململ، وهي قريبة من اللسان؛ يعني يتنفس من الصدر من الضجر الذي فيه، فيخرج هٰـذه الضجر تأففا من فمه، فعند المطالبة أو مطالبتين أو عرض حاجة معينة، وقد تكون الحاجة لمصلحته هو، فلقلة رعايته لهٰـذا المقام يفرز هٰـذه الكلمة فيقول: "أف" فنهىٰ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- عن ذلك.

وانظر وصية الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- العظيمة بالوالدين، رب العالمين يقول: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ يعني إياك والتململ والتضجر وإخراج مثل هٰـذه الكلمات، فإذا كانت "أف" التي هي إخراج هٰـذا الصوت من الهواء علىٰ وجه التململ والتضجر ينهىٰ الله عنه، فكيف والعياذ بالله بسب الوالدين؟! فكيف بمجابهتهما بالشتم و اللعن؟! وسيأتي ما يتعلق بهٰذا، يسب والديه ابتداءً، فيبادرهما بالسب واللعن

أو الكلمات البذيئة أو الألفاظ السيئة والعياذ بالله.

قال: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ النَّهر: هو الزجر ورفع الصـوت والتعالي عليهما ومنعهما، من فعل شيء أو بصوت، حتىٰ ولو كان يريد أن ينهاهما عن منكر لا يجوز له أن يرفع الصوت عليهما؛ الله – جل وعلا– قال: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْـرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، ما قال: فعُقَّهما، قال: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ يعني حتىٰ لو بلغا هٰـذا المبلغ، قال: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ ما قال: عقهما. فكيف بالأبوين المسلمين الصالحين المستقيمين الذين قدما للابن الخير الكبير والإحسان والجميل؟ قال: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾[الإسراء:٢٣] ولم يحدد، فهٰـذا يشمل كل كلمة حلوة كل لفظة عذبة وكل عبارة طيبة تقدمها للوالدين.

وبعض الناس يكون موفق في انتقاء أطايب الكلام مع أصـحابه، يأتي عنده زميله الذي لم يقدم له من المعروف شـيء، فإذا أراد أن يحدثه بشـيء: "يا أخي الكريم، من فضـلك، ممكن، تتكرم عليَّ بكذا" بصوت هادئ وبعبارة منخفضة، وبأدب جم. ثم يدخل البيت ويأتي بوجه آخر: أنتِ كذا، وبصوت عالٍ، وبكلام بذيء، ولَمَّا يأتي عند صـديقه، وربما هٰـذا الصـديق ما عرفه إلا من شـهر أو من شـهرين، فيأتي بصـوت هادئ وبعبارة متطامنة وبكلمات جميلة وعذبة، وربما أصـدقاءه يقولون: هٰـذا ليس له مثيلا في حسن الأخلاق؛ لكن لو رأوا معاملته في البيت مع أمه لعرفوا أنه من أسوأ الناس خلقا؛ لأن هٰـذا الكلام الجميل وهٰـذه المعاملة الطيبة وهٰـذا الخلق الطيب أحق الناس به الوالدين من أحق الناس بحسـن صحابتي؟ قال: ((أمك)) هٰـذه الكلمة ينبغي أن تُفقه، يعني كل هٰـذا اللطف وكل هٰـذا الرفق، وكل هٰـذه المعاملة الجميلة والطيبة التي يقدمها الإنسـان لزملائه ورفقائه وإخوانه أحق الناس بها الوالدين، فعند الزملاء تفيض العبارات الجميلة، وعند الوالدين يكعّ عنها ولا يتمكن من الإتيان بشيء منها، ولا يحسن أن يتلفّظ، ومجرد ما يريد شيء: أعطـوني كذا، هٰـذه الكلمة ما يقولها لزميله، يُقدِّم قبلها بأربع خمس ست كلمات من التلطف حتىٰ يصل إلىٰ هٰـذه الحاجة، الوالدان أحق بهٰـذا، الوالدة هي الأحق أن تقول لها: يا أمي الكريمة، يا والدتي.

[المتن]

وَقَالَ تعالىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا..﴾ الآية[العنكبوت:٨].

وَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ ...)) فَذَكَرَ مِنْهَا عُقُوقَ الْوَالِدَيْنِ. مُتَّفَقٌ

عَلَيْهِ. وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((رِضَا اللهِ فِي رِضَا الْوَالِدِ، وَسَخَطُ اللهِ فِي سَخَطِ الْوَالِدِ)). صَحِيحٌ.

وَعَنْهُ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَإِنْ شِئْتَ فَاحْفَظْ، وَإِنْ شِئْتَ فَضَيِّعْ)). صَحَّحَهُ الْتِرْمِذِيُّ. وَعَنْهُ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((الْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الأُمَّهَاتِ)).

وَجَاءَهُ رَجُلٌ يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْجِهَادِ مَعَهُ فقال: ((أَحَيٌّ وَالِدَاكَ ؟))، قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: ((فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ)).

وَقَالَ: ((أُمَّكَ وَأَبَاكَ وَأُخْتَكَ وَأَخَاكَ وَأَدْنَاكَ أَدْنَاكَ)).

وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَاقٌّ، وَلَا مَنَّانٌ، وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ، وَلَا مُؤْمِنٌ بِسِحْرٍ)).

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولُ اللهِ! مَا الْكَبَائِرِ؟ قَالَ: ((الْإِشْرَاكُ بِاللهِ)). قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟، قَالَ: ((ثُمَّ عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ)). قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ((ثُمَّ الْيَمِينُ الْغَمُوسُ)).

[الشرح]

هٰــذه النصوص والأدلة ساقها المصنف -رحمه الله- من كتاب الله -جل وعلا- وسنة النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لبيان مقام الوالدين ومالهما من الحق العظيم والواجب الكبير من الأبناء اتجاههما.

وحقيقة الآية التي صدر المصنف ذكرها في هٰــذه الترجمة أو في الكلام علىٰ هٰــذه الكبيرة آية عظيمة جدًا.

ومن الأمور التي ينبِّه عليها أهل العلم والمفيدة في هٰـــــذا الباب: مداواة النفس بالقرآن، بمعنىٰ أن الإنسان ينظر إلىٰ جوانب الخلل التي عنده والنقص ويداوي نفسه بالآيات.

فمثلا: من كان عنده عقوق أو تقصير يداوي نفسه بهٰــذه الآية بأن يقرأها ويكرِّر التدبر لها والتأمل في معانيها ودلالاتها، ويستعين بكتب التفسير وأقوال أهل العلم حتىٰ تتحقق له هداية القرآن التي قال الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- عنها: ﴿إِنَّ هٰــــذا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء:٩]، وهداية القرءان تُطلب بتدبره ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾[النساء:٨٢]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد:٢٤]، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾[المؤمنون:٦٨]، فهداية القرءان تُطلب بتدبره ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[ص:٢٩]، فما يكفي الإنسان أنه يمر عليها مرورًا دون أن يتأمّل ودون أن يتدبر ودون أن يتفكر في المعاني والدلالات.

فحقيقة مثل هٰـــذه الآية لما تقف عندها مرة ومرتين وثلاث وأربع وتراجع كتب التفســير وتنظر في حالك، وتعرض حالك علىٰ الآية وتنظر ما هو حظك من الآية.

بمثل هٰذه الطريقة يكون العلاج، فهٰذا دواء ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾[الإسراء:٨٢]، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًىٰ وَشِـفَاءٌ﴾[فصـلت:٤٤]، ﴿وَشِـفَاءٌ لِمَا فِي الصُّـدُورِ﴾[يونس:٥٧]، هو دواء؛ ولكن نحتاج إلىٰ أن نتعالج، وطريقة التعالج وطلب الشفاء بالقرآن بأن يتدبر ويتفكر ويتأمل، ويعرض الإنسان نفسه وحاله وموقعه: ما هو موقعي من هٰذه الآية؟ وتنظر معاملتك، فإذا كانت الأمور حسنة وطيبة تحمد الله وتزيد، وإذا كان هناك تقصير فأمامك الفرصة مفتوحة والمناسبة سانحة.

[المتن]

وَعَنْهُ –عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ– قَالَ: ((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَاقٌّ وَلَا مُكَذِّبٌ بِالْقَدَرِ)).

وَرَوَىٰ عِيسَىٰ بْنُ طَلْحَة بْنُ عُبَيْدِ اللهِ، عَنْ عَمْرُو بْنِ مرَّةَ الْجُهَنِيِّ –رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ– أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولُ اللهِ! أَرَأَيْتَ إِنْ صَلَّيْتُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَصُمْتُ رَمَضَانَ، وَأَدَّيْتُ الزَّكَاةَ، وَحَجَجْتُ الْبَيْتَ، فَمَاذَا لِي؟، قال: ((مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَّالحين إِلَّا أَنْ يَعَقَّ وَالِدَيْهِ)).

وَعَنْ بَكَّار بْنِ عَبْدِ الْعَزِيز بْنِ أَبِي بَكْرَة،قال: حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ مَرْفُوعـًا: ((كُلُّ الذُّنُوبِ يُؤَخِّرُ اللهُ مِنْهَا مَا شَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا عُقُوقُ الْوَالِدَينِ؛ فَإِنَّهُ يُعَجِّلُ لِصَاحِبِهِ)).

وَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: ((لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالداً إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكـًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ)). رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَعَنْهُ –عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ– بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ قَالَ: ((لَعَنَ اللهُ الْعَاقَّ لِوَالِدَيْهِ)). وَقَالَ –عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ–: ((الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ)). صَحَّحَهُ الْتِرْمِذِيُّ.

وَعَنْ وَهْبِ بْنِ منبه قَالَ: إِنَّ اللهَ قَالَ: ((يَا مُوسَـىٰ! وَقِّرْ وَالِدَيْكَ؛ فَإِنَّ مَنْ وَقَّرَ وَالِدَيْهِ مَدَدتُ فِي عُمُرِهِ وَوَهَبْتُ لَهُ وَلَداً يَبِرّهُ، وَمَنْ عَقَّ وَالِدَيْهِ قَصِرْتُ عُمُرَهُ وَوَهَبْتُ لَهُ وَلَداً يَعُقُّهُ)).

وَقَالَ كَعْبُ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ اللهَ لَيُعَجِّلَ حَيْنَالْعَبْدِ إِذَا كَانَ عَاقًّا لِوَالِدَيْهِ لِيُعَجِّلَ لَهُ الْعَذَابَ، وَإِنَّ اللهَ لَيُزِيدَ فِي عُمُرِ الْعَبْدِ إِذَا كَانَ بَاراً بِوَالِدَيْهِ لِيُزِيدَهُ بِرًّا وَخَيْراً".

وَقَالَ أَبُو بَكْرَ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ: "قَرَأْتُ فِي التَّوْرَاةِ: مَنْ يَضْرِبَ أَبَاهُ يُقْتَلُ".

وَقَالَ وَهْبُ: " قَرَأْتُ فِي التَّوْرَاةِ: عَلَىٰ مَنْ صَكَّوَالِدَهُ الرَّجْمُ".

[الشرح]

فهٰذه كلها نصوص في هٰذا الباب العظيم.

والمصنف -رحمه الله- لم يذكر جميع ما ورد؛ لأن ما ورد في الكتاب والسنة في هٰــذا المقام أكثر من هٰذا بكثير، وقد أفرد بعض أهل العلم مصنفات واسعة في جمع النصوص والأدلة -أدلة الكتاب والسنة- فيما يتعلق ببر الوالدين.

واقتصر المصنف -رحمه الله- علىٰ بعض النصوص الواردة في هٰــذا الباب، وكما قدمت بدأ بهٰــذه الآية العظيمة من سورة الإسراء، وكما أيضا قدمت كم نحتاج إلىٰ مداواة النفس بعرضها علىٰ مثل هٰــذه الآيات والتفكر فيها مرات وكرات، مع رجاء الهداية والتسديد والتوفيق من الله -جل وعلا-.

ثم أورد -رحمه الله- قول الله -عز وجل-: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾[العنكبوت:٨] في سورة العنكبوت ثم ساق بعض الأحاديث.

الحديث الأول فيه: أن عقوق الوالدين كبيرة، بل هو من أكبر الكبائر، وهو نظير ما جاء في القرءان، قُرن حق الوالدين بحقه لأنه قال - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟)) قلنا: بلىٰ يا رسول الله. قال: ((الإشراك بالله وعقوق الوالدين)) فهٰذا نظير ما جاء في القرآن، قرن حق الوالدين بحقه- سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-.

أيضا نظير ذلك الحديث الذي يليه (وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((رِضَا اللهِ فِي رِضَا الْوَالِدِ، وَسَخَطُ اللهِ فِي سَخَطِ الْوَالِدِ)).) والوالد يتناول الأم والأب في الحديث..

قال : (وَعَنْهُ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ،)).) وهٰــذا أيضا فيه مكانة الوالدين، وأنهما باب من أبواب الجنة فيمن قام ببرهما ووفىٰ بحقهما.

ونلاحظ أن النصوص المتعلقة بالوالدين فيها الترغيب والترهيب؛ الترهيب بالعقوبات الشديدة المعجلة والمؤجلة للعاق، والترغيب بذكر الثواب العظيم في الدنيا والآخرة لمن بر بوالديه.

قال: (((الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَإِنْ شِئْتَ فَاحْفَظْ، وَإِنْ شِئْتَ فَضَيِّعْ)).) يعني إن شئت احفظ هٰذا الباب، وإن شئت ضيعه، الأمر بيدك الآن ما دمت في دار العمل، وقد تبقىٰ في دار العمل ويفوتك حظا ونصيبا من هٰــذا الباب؛ بل يفوتك الحظ الأوفر والنصيب الأكبر إذا فقدت والديك، وكثير ما يقع الندم هنا علىٰ التفريط بدون فائدة.

قال: (وَعَنْهُ –عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ–: ((الْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمَّهَاتِ)).) هٰـذا بهٰـذا اللفظ لم يثبت عن النبي – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، ولكن ثبت عنه فيما ما معناه قوله – عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ– للرجل قال: ((هل لك أم؟)) قال: نعم، قال: ((فألزمها فإن الجنة تحت رجليها)). فهٰـــذا من أعظم ما يكون في حق الأم وما لها من واجب من بر وإحسان من الأبناء. وأيضا يشهد لهٰـــذا المعنىٰ الحديث المتقدم ((الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ)).

ثم أورد الحديث في الرجل الذي استأذن النبي – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– (فِي الْجِهَادِ مَعَهُ فقال: ((أَحَيٌّ وَالِدَاكَ ؟))، قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: ((فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ)).) وهٰـــذا فيه أنه يشترط في الجهاد الكفائي وليس العيني أن يستأذن الأبوين ولا يخرج إلا بإذنهما؛ قال: ((فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ)).

ثم أورد قول النبي – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: ((أُمَّكَ وَأَبَاكَ وَأُخْتُكَ وَأَخَاكَ وَأَدْنَاكَ أَدْنَاكَ)) يعني هٰـــذا رعاية الحقوق، وقدَّم حق الأم ثم الأب ثم الأخت ثم الأخ، ولاحظ هنا تقديم الأخت علىٰ الأخ؛ لأن المرأة أضعف وهي أحوج؛ ولهٰـــذا قدمت علىٰ الأخ في الحديث، المرأة ضعيفة وهي أحوج من الرجل، ولهٰـــــذا قدمت الأخت علىٰ الأخ، قال: ((وَأَدْنَاكَ أَدْنَاكَ)) يعني تراعي حقوق القرابة بحســب الأدنىٰ فالأدنىٰ والأقرب فالأقرب.

ومثل هٰذا الحديث الآخر الذي سُئل فيه النبي – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ –يعني طيب المعاملة– قال: ((أمك))، قال:ثم من؟ قال: ((أمك))، قال: ثم من؟، قال: ((أمك))، قال: ثم من؟ قال: ((أبوك)).

والحديث الآخر الذي قال رجل للنبي – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: من أبرُّ؟ قال: ((أمك))، قال:ثم من؟ قال: ((أمك))، قال: ثم من؟، قال: ((أمك))، قال: ثم من؟ قال: ((أباك)).

والإمام البخاري –رحمه الله– في كتابه الأدب المفرد وهو كتاب أُفرد في الآداب –آداب الشــريعة الإســلامية– وهو كتاب حقيقة عظيم مبارك، للإمام البخاري لفتة بديعة جدا في هٰـــــذا الكتاب –كتاب الأدب– أول ما بدأ في كتاب الأدب، قال: بر الوالدين، أول باب يصــادفك في كتاب الأدب المفرد للإمام البخاري، أول باب يصادفك: باب بر الوالدين، ثم ذكر هٰذه النصوص أو جملة كبيرة منها.

وهٰـــــذه لفتة بديعة جدا يعني كأنه يقول: يا من تريد أن تتعلم الآداب وتتعرف عليها وتقف عليها، اعرف أن أحق الناس بها، الوالدان؛ أولاهما بها الوالدان. فــأورد هٰـــذه النصوص وبدأها بحديث ((من

أحقّ الناس بحسن صحابتي..)) أو حديث من أبرُّ؟ قال: ((أمك))، إلىٰ آخره.

ثم أورد هـٰـذا الحديث (قَالَ: ((لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَاقٌّ، وَلَا مَنَّانٌ، وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ، وَلَا مُؤْمِنٌ بِسِحْرٍ)).)؛ و(عاقٌّ) أي عاق لوالديه؛ وعرفنا معنىٰ (العقّ) في اللغة أنه: القطع والشـق، وأنّ من أهدر حقوق الوالدين وأضاعها، التي أمره الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ – بها فهو بمثابة من شقّ وقطع هـٰذا الحق؛ ولهـٰذا سُمّي من يُضيّع حقوق الوالدين سُمّي عاقا في نصوص الشريعة.

قال: ((لا يدخل الجنَّةَ عاقٌّ ولا منَّان..)) (المنّان) الذي لا يعطي شـيئا إلا بالمنّة علىٰ الناس، يمنّ عليهم بما أعطاهم؛ فيُعطي ويُتبع عطاءه بالمنّ؛ يمتنّ علىٰ من أعطاه. ربما يوم من الأيام يعطي شـخصـا كأس ماء ثم كل ما قابله يقول: تذكُر كأس الماء الذي أعطيتك إياه اليوم الفلاني؟ كنتَ عطشـانا عطشـا شـديدا وقدّمت لك الماء. وإذا قابله مرة ثانية وثالثة ورابعة يمنّ عليه بما أعطاه، حتىٰ أنّ من أعطي يتمنىٰ في نفسـه أنه ما عرفه ولا رآه ولا أخذ منه ويكرهه ويبغضـه البغض الشـديد. فهـٰـذا المنان هو الذي يمنّ بالعطيّة: يُعطي ويمنّ؛ ولا يزال يُؤذي من أعطاه بما أعطاه، وربما يعطيه شـيئا ويمنّ عليه ويُطالبه بأشـياء، وكلّ مرة يطالبه بشـيء ويقول له: أنت نسـيت اليوم الفلاني؟ نسـيت الموقف الفلاني؟ فلا يزال يمنّ عليه بعطيّته.

فالمراد من هـٰذا: الذي لا يعطي شيء إلا منّةً؛ يمتنّ علىٰ من أعطاه ويؤذيه بهـٰذه العطية.

قال: ((لا يدخل الجنَّةَ عاقٌّ ولا منَّان..)) وهـٰـذا فيه وعيدٌ شديدٌ ودلالة علىٰ أنه من الكبائر. وقد عرفنا في ضـابط الكبيرة أنّ من ضـوابطها أن يُقال عن فاعلها (لا يدخل الجنة) أو (لا يشـمّ رائحتها) أو الوعيد عليها بالنار؛ فهـٰذا كله من العلامات التي تُعرف بها الكبيرة.

قال: ((وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ)) أي المداوم علىٰ شـربها وتعاطيها؛ وليس هـٰـذا خاص بالخمر بعينه بل كل مسكر، كمدمن المسكرات والمخدرات الأمر فيه مثل ما جاء في الحديث.

قال: ((وَلَا مُؤْمِنٌ بِسِـحْرٍ)) مؤمن به أي مصـدّق. قد عرفنا أن التصـديق بالسـحر كفر بالله – سُـبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ – لأن الساحر لا يكون إلا كافر، ولا يُؤمن به ولا يصدق به إلا كافر مثله.

ثم أورد رحمه الله حديث عبد الله بن عمر –رضـي الله عنهما– أن أعرابيا (قَالَ: يَا رَسُـولُ اللهِ! مَا الْكَبَائِرِ؟ قَالَ: ((الْإِشْـرَاكُ بِاللهِ)). قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟، قَالَ: ((ثُمَّ عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ)). قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ((ثُمَّ

الْيَمِينُ الْغَمُوسُ))..)

قوله: ((الإشراك بالله ثم عقوق الوالدين)) هٰذا فيه ما سبق قَرْنُ حقّ الوالدين بحقه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- وقَرْنُ حقوقهما بالإشراك به - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-؛ وهٰذا يدلّنا علىٰ أن العقوق إثم عظيم وذنب خطير.

وقوله: ((ثُمَّ الْيَمِينُ الْغَمُوسُ)) هٰـــذا يدلّنا علىٰ أن اليمين الغَموس كبيرة من الكبائر؛ وهي سُـــميت غموسا قيل لأنها تغمس صاحبها في النار. وهي اليمين الفاجرة التي يقتطع بها الحالف أو المُقْسِم أموال الناس بغير حق، ويأخذها بغير حق، وإنما يحلف كذبا وجورا بالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- أنّ هٰـــذا له وهو كاذب؛ فهٰذه يمين غموس، وقيل: إنها سُميت بذلك لأنها تغمس صاحبها في النار.

ثم أورد -رحمه الله- قول النبي -صـلّىٰ اللهُ عليهِ وسـلَّم- (((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَاقٌّ وَلَا مُكَذِّبٌ بِالْقَدَرِ)).) وهٰـــذا بمعنىٰ ما سبق؛ ولكن فيه ذكر التكذيب بالقدر؛ والتكذيب بالقدر كفر بالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- كما قال ابن عباس - رَضِـيَ اللهُ عَنْهُما-: "القدر نظام التوحيد" يعني لا ينتظم التوحيد ولا يستقيم التوحيد ولا يستقيم الإيمان إلا بالإيمان بالقدر. قال: "القدر نظام التوحيد فمن آمن بالله وكذب بالقدر فقد نقض تكذيبُه توحيدَه". فالتكذيب بالقدر كفر بالله.

والقدر،كما يقول الإمام أحمد، "قدرة الله"؛ فأين إيمان من لا يؤمن بقدرة الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- وأن الأمور بمشيئته وقدرته -عز وجل-.

ثم أورد -رحمه الله- حديث (عِيسَىٰ بْنُ طَلْحَة بْنُ عُبَيْدِ اللهِ، عَنْ عَمْرُو بْن مرَّةَ الْجُهَنِيّ-رَضِيَ اللهُ تَعَالىٰ عَنْهُ- أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولُ اللهِ! أَرَأَيْتَ إِنْ صَلَّيْتُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَصُمْتُ رَمَضَانَ، وَأَدَّيْتُ الزَّكَاةَ، وَحَجَجَّتُ الْبَيْتَ، فَمَاذَا لِي؟ قال: ((مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَّالحين إِلَّا أَنْ يَعَقَّ وَالِدَيْهِ)).). فهٰـذا السياق يدلّ علىٰ خطورة عقوق الوالدين حتىٰ مع المحافظة علىٰ هٰــذه الفرائض فهو علىٰ خطر عظيم؛ يعني حتىٰ وإن كان محافظا علىٰ هٰــذه الفرائض؛ لكنه عاقٌّ لوالديه فهو علىٰ خطر عظيم.

نبّه المحقق أن زيادة (إلا أن يعقّ والديه) قال: " إلا أنه ليس في الحديث قوله: (إلا أن يعقّ والديه)".

ونرجو من بعض الإخوة التكرّم بمراجعة الحديث في مصادره العديدة، والنظر هل هٰـذه الزيادة هي في مصـادر أخرىٰ ثابتة صـحيحة أو لا؛ لكن المحقق نبّه وهنا أشـار إلىٰ أن الحديث رواه ابن حبان والبزار؛

فنرجو من الإخوة مراجعة المصادر الأخرىٰ التي فيها تخريج هـٰذا الحديث وهل لهـٰذه اللفظة وجود أو لا.

ثم قال: (حدثنا بَكَّار بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي بَكْرَة،قال: حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ مَرْفُوعـًا: ((كُلُّ الذُّنُوبِ يُؤَخِّرُ اللهُ مِنْهَا مَا شَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ؛ فَإِنَّهُ يُعَجَّلُ لِصَاحِبِهِ))). وهـٰذا أيضا فيه خطورة العقوق وأن العاق له عقوبة معجّلة وعقوبة مؤخرة يوم القيامة. والله –جلّ وعلا– يُعجّل للعاقّ عقوبةً إمّا بأولاد يعقونه أو بعقوبات أخرىٰ تجري عليه جزاءً لعقوقه لوالديه.

ثم قال: (وَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: ((لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالداً إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكـًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ))) وهـٰذا فيه أن الابن مهما قدّم من البِرّ لا يدرك بعض جميل الوالدين. ومَن الذي يدرك جميل الحمل وشدة الوضع وفترة الرضاعة؛ يعني هـٰذه المدة التي هي قرابة الثلاث سنوات: تسعة أشهر حمل وسنتان للرضاعة. هـٰذه الفترة بالذات من الذي يُدركها مهما قدّم من الجميل والإحسان. والأم كانت تعاني المعاناة الشديدة مع الولد في هـٰذه الفترة وهي تتمنىٰ صحته وعافيته وأن يُكرمه الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ– بالحياة الطيبة. وبعض من يحصل منه فعلا برّ الوالدين في الكِبَر ويعاني من الأتعاب التي يلقاها في الإحسان إليهما وهو ربما في قرارة نفسه يتمنىٰ أمرا آخر لم يكن قائما في قلب أمه لما كانت ترعاه وتُكرمه وتحسن إليه وترعىٰ حقه.

ومن يقرأ بالكتب وأيضا ما يأتي فيها من أخبار فيما يتعلق بالبِرّ وأخبار فيما يتعلق بالعقوق، في التاريخ من النماذج والشواهد الكثيرة التي تدلّ علىٰ هـٰذه المعاني والحقائق المشار إليها هنا.

فقوله: ((لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالداً إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكـًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ)) يعني مهما قدّم من البر والإحسان ما يستطيع أن يُدرك حق الوالدين إلا أن يشتريه، يجده مملوكا رقيقا فيُعتقه.

قال: (وَعَنْهُ –عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ– بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ قَالَ: ((لَعَنَ اللهُ الْعَاقَّ لِوَالِدَيْهِ))). وقد عرفنا أن الذنب إذا ذُكر صاحبه باللعن في القرآن والسنة، فهـٰذا من الدلائل علىٰ أنه كبيرة، واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله.

ثم أورد المصنف –رحمه الله– قول النبي –صلّىٰ اللهُ عليهِ وسلَّم– ((الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ)) وهـٰذه لفتة جميلة جدا من المصنف –رحمه الله– لما ساق الأحاديث ومن القرآن ومن السنة برّ الوالدين ختمها

بهٰذه اللفتة الرائعة، قال: ((**الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ**)) يعني وأنت تقرأ هٰذه النصوص وهٰذه الدلائل في حق الوالدة فتذكّر قول النبي -صلّىٰ اللهُ عليهِ وسلَّم- ((**الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ**))؛ فهٰذا يعني أن لها من البر والإحسان والصلة والتلطّف وحسن المعاملة شيئا كبيرا، فهي بمنزلة الأم.

فإذن هٰذه لفتة جميلة جدا من المصنف -رحمه الله-.

ثم ختم الكلام علىٰ هٰذه الكبيرة بذكر بعض الآثار وفيها من الأخبار التي تُروىٰ عن بني إسرائيل وعن الكتب السابقة.

والمصنف -رحمه الله- لم يذكر هٰذه الآثار ليعتمد عليها في الباب؛ لأن مثل هٰذا لا يُعتمد ولا يُعد عمدة في الباب؛ ولكن جرت عادة العلماء أن مِثل هٰذا ومِثل بعض القصص وبعض الأخبار ومِثل بعض الآثار والوقائع تُذكر علىٰ سبيل الاستئناس، ولهٰذا يقولون (ذُكر للاعتضاد لا للاعتماد) أو (ذُكر استئناسا).

فالمصنف ذكر هٰذه الأشياء لا لأنها عمدة في الباب؛ بل العمدة الآيات والأحاديث التي مرت؛ ولكن هٰذه ذكرها -رحمه الله- علىٰ وجه الاستئناس، أثرُ وهب بن منبه وكعب والأثر الأخير الذي ختم الذي ختم به هٰذه الترجمة.

ونسأل الله -عز وجل- أن يعيننا علىٰ البر وأن يُعيذنا من العقوق وأن يهدينا سواء السبيل، وأن يجزي والدينا عنا خير الجزاء، وأن يرحمهما كما ربيانا صغارا.

[المتن]

الكَبِيرَةُ السَّابِعَةُ

أَكْلُ الرِّبَا

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ..﴾ الآيتان [البقرة:٢٧٨-٢٧٩].

[الشرح]

ثم عقد المصنف -رحمه الله- هذا العنوان لبيان هذه الكبيرة: (أَكْلُ الرِّبَا).

وأكل الرِّبا هو في الحقيقية هو أكلٌ لأموال الناس بالباطل وبغير حق وبغير عوض وبغير مقابل، وهو من أمر الجاهلية، والنبي - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لمّا حجّ حجة الوداع وخطب الناس وهدم أمور الجاهلية ووضعها تحدت قدميه، ومن ضمن ما قال في ذلك الربا، وأخبر أنّ الربا وغيره من أمور الجاهلية كلها وضعها تحت قدميه - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-، فالربا يوضع تحت القدم وليس أمرًا يُطلب ومقصدا يُسعىٰ لتحصيله؛ بل هو أمر بغيض وأمر مهين مكانه تحت القدم.

ويشتغل للإنسان بالأعمال الصالحة والخيرات الزاكية وطلب المال مما شرع الله، بالوجه الذي أحلَّه.

والشريعة جاءت بتحريم الرِّبا لأنه يفسد المجتمع كله، حتىٰ من يستحوذ علىٰ المال، الكل يفسد:

فأما الذي استحوذ علىٰ المال فهو مال ممحوق.

وأما الذي أُخذ منه المال بغير حق فيبقىٰ صريع الفقر والحاجة والعوز.

فتكون الأموال مكدَّسة عند الأغنياء ممحوقة البركة، والفقر يشتد في المجتمع كأشد ما يكون، والحاجة تظهر علىٰ الناس أشد ما يكون، وأموال هؤلاء الفقراء والمحتاجين مكنوزة ومجموعة عند الأغنياء عن غير حاجة إليها؛ بل هي ممحوقة البركة، يعني أموال طائلة عندهم مجتمعة لا يستفيد منها ولا يَنتفع بها، وليس ببقائها عنده أي ثمرة عليه لا في دينه ولا في دنياه، المهم أن الخطر من أبلغ ما يكون؛ ولهذا جاء الإسلام بتحريمه، وجاء الإسلام بالصّفح والعفو والإحسان ومساعدة الآخرين ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾[البقرة:٢٨٠]، مراعاة الحقوق، والتعامل بالتآخي والمحبة، معاني عظيمة جاء

الإسلام بها.

وأما أكل الربا، فهٰذا أكل لأموال الناس بالباطل والظلم والبغي والعدوان فجاءت بتحريمه.

وجاءت النصوص المحرِّمة للربا ببيان العقوبات الشديدة للمرابي، وهنا في الآية الأولىٰ وصف المرابي بأنه محارب لله ورسوله قال: ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ﴾[البقرة:٢٧٩]، ومن كان بهذا الأمر -يعني أُذن له بحرب من الله ورسوله- فما أشد خسارته في دنياه وأخراه، خسارة في الدنيا والآخرة، قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ﴾[البقرة:٢٧٨- ٢٧٩].

والآية الثانية في تحريم الربا قال: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾[البقرة:٢٧٥]، ﴿لاَ يَقُومُونَ﴾: أي يوم القيامة من قبورهم، عندما يكون البعث والنشور لرب العالمين لا يقوم المرابي إلا علىٰ هذه الصفة التي ذكرها الله ﴿لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ يعني يقوم مثقلاً مترنِّحًا ثقيلاً في قيامه. قال بعض أهل العلم: لثقل بطنه وامتلاء بطنه بالمال المحرم الذي ملأ بطنه به في حياته، وجاء في الحديث: «كل جسد قام علىٰ السحت فالنار أولىٰ به».

[المتن]

وَقَالَ تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ..﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الآية[البقرة:٢٧٥].

[الشرح]

قوله: ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[البقرة:٢٧٥] إن كان مستحلا للربا فهو كافر مخلد في النار أبد الآباد، وإن كان غير مستحل له؛ ولكن غلبته نفسه فوقع في الربا أو وقع في بعض المعاملات الربوية، فهو مرتكب لجريرة عظيمة وجريمة كبيرة وإثمٍ عظيمٍ وهو عرضة للعقوبة.

[المتن]

فَهَذا وَعِيدٌ عَظِيمٌ بِالْخُلُودِ فِي النَّارِ كَمَا تَرىٰ لِمَنْ عَادَ إِلَىٰ الرِّبَا بَعَدَ الْمَوْعِظَةِ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ العَلَيّ العَظِيم.

وَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات» قَالُوا: وَمَا هُنَّ يَا رَسُولُ اللهِ؟! قَالَ: «الشِرْكُ بِالله، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ

الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ». وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكلَهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَالتِّرْمِذِيُّ فَزَادَ: «وَشَاهِدَيْهِ وَكَاتِبَهُ» وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ. وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: «آكِلُ الرِّبَا وَمُوكلَهُ وَكَاتِبَهُ إِذَا عَلِمُوا ذَلِكَ مَلْعُونُونَ عَلَىٰ لِسَانِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ.

[الشرح]

كما قدمت إن كان مستحلا فحكمه الخلود في النار أبد الآباد لأنه كافر، وإن كان غير مستحل فيكون قوله -تعالىٰ-: ﴿أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[البقرة٢٧٥] أي ما لم يمنع مانع، والتوحيد مانع من الخلود كما جاءت بذلك نصوص أخرىٰ، ومنها قوله: «أخرجوا من النار من قال لا إلٰـه إلا الله» فالتوحيد مانع من الخلود ما لم يكن الإنسان كافرا بالله، ما لم يكن ناقضًا لتوحيده، فالتوحيد مانع من الخلود، وفهم هٰذه النصوص يظهر بضم النصوص بعضها إلىٰ بعض: نصوص الوعيد ونصوص الوعد.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات» قَالُوا: وَمَا هُنَّ يَا رَسُولُ اللهِ؟! قَالَ: «الشِّرْكُ بِالله، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ».

[الشرح]

هٰذا الحديث ذكرت لكم فيما سبق أنه سيتكرر معنا بِحَسَب الكبائر، في الكبيرة القادمة أكل مال اليتيم سيأتي معنا، وعند قتل النفس سيأتي معنا، وعند السحر وعند الشرك مر، فهو يتكرر، والمصنف عادة في إيراده لهذا الحديث يذكر أول الحديث وموضوع الشاهد، في كل المواضع كان يذكر الحديث وموضع الشاهد، وهنا ذكر الحديث بتمامه مع أنه سبق أن ذكره بتمامه، وأظن -والله تعالىٰ أعلم- أن هٰذا نوع من النفع الذي قصد به المصنف قارئ الكتاب، يعني قرأتَه أولا ثم مرت عليك شواهد ولا يزال يتكرر معك، ثم يأتيكَ في موضع من هٰذه المواضع أعاده لك بلفظه، لعله قصد ذلك حتىٰ يذكرك ويثبت الأمور السَّبعة التي مرَّت معك في أول الحديث.

والشاهد من الحديث قوله فيه:« وَأَكْلُ الرِّبَا».

[المتن]

وَقَالَ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكلَهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَالْتِرْمِذِيُّ وَزَادَ: «وَشَاهِدَيْهِ وَكَاتِبَهُ» وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وَقَالَ –عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ–: «آكِلُ الرِّبَا وَمُوكلَهُ وَكَاتِبَهُ إِذَا عَلِمُوا ذَلِكَ مَلْعُونُونَ عَلَىٰ لِسَانِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ.

[الشرح]

قوله هنا: «لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكلَهُ»، «آكِلَ الرِّبَا»: أي المرابي الذي يأخذ الأموال الربوية من الناس، فهذا آكل الربا، وقُدِّم في الذكر هنا؛ لأنه هو الذي يحصل له الانتفاع بهذه الأموال بأخذها، أما المعطي فهو مأخوذ منه، المعطي الذي قال فيه: «وَمُوكلَهُ» أي معطيه، فالربا فيه آخذ وفيه معطي، فيه أخذ للربا وهو الذي ينتفع بالمال الربوي، وغالبا هٰـذا الصنف هم الأغنياء، يستغلون ما عندهم من مال لاستعماله في المراباة وأخذ ما عند الناس من الأموال بالباطل وسحب ما عندهم من الأموال بالباطل، فـ«آكِلَ الرِّبَا» هو الآخذ، «وَمُوكلَهُ» هو المعطي، وقد جاء في حديث أخر «والآخذ والمعطي سواء» الآخذ هو الآكل، والموكل هو المعطي الذي أعطىٰ المال الربوي لهذا الآخذ، قدَّم الآكل؛ لأن الأغلب في الانتفاع بهذا المال هو الذي ينتفع به، وخص الأكل بالذكر لأنه من وجوه الانتفاع، ليس كل الانتفاع، يعني ليس كل انتفاع المرابي بالمال أكل، عند بعض المرابيين من الأموال الطائلة لو أنهم أرادوا الأكل بها لاحتاجوا إلىٰ بطون أكبر من بطونهم، يحتاج إلىٰ بطن مثل المدينة الكبيرة حتىٰ يملأه أكلا بالمال الذي عنده، عنده أموالاً طائلة لا حد لها حصَّلها من الربا، فبطنه الصغير ما يمكن أن يأكل به كل ما عنده من أموال، فهو سيأكل شيئًا قليلاً، وإلا لو كان يحتاج إلىٰ أن يأكل بكلِّ المال الربوي الذي عنده لأحتاج إلىٰ مدينة كبيرة، بطن بحجم مدينة كبيرة حتىٰ يستوعب أكل ماله، ولا تكفي مدينة بل يحتاج دولة حتىٰ يأكل كل الطعام بالمال الذي عنده، فإذا هٰذا وجه من وجوه الانتفاع قال: «آكل الربا» لأنه وجه؛ بل هو أبرز وجوه الانتفاع الأكل، وإلاَّ سواء أكل به أو بنىٰ به أو اشترىٰ به دابة.. إلخ فهذا كله يتناوله الحكم.

قال: «آكِلَ الرِّبَا وَمُوكلَهُ» أي معطيه، وموكل الربا الذي هو معطي الربا ملعون، ليس الملعون المرابي وحده، فتجد بعض الناس عندما يحتاج يرابي، وتضيع أمواله عند الأغنياء ثم يقول: لعنة الله علىٰ هؤلاء المرابين! نقول: اقرأ الحديث: «وَمُوكلَهُ» المعطي، أنت ممنوع أن تأتيه حتىٰ إن كنت محتاج لا ترابي،

تبحث عن طريقة مشروعة صحيحة، أما أن يعطي ثم تضيع أمواله علىٰ أيديهم و يقول: قاتل الله هؤلاء المرابين، لعنة الله علىٰ هؤلاء المرابين، وينسىٰ الحديث! الحديث «**لعن لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكلَهُ**»، وقال: «**الآخذ والمعطي سواء**»لماذا المعطي؟ لأنَّه لو لم يعطِ لم يأخذ، فهو الذي أعانه علىٰ الإثم، وإلا لو امتنع النَّاس من إعطاء المرابين ما حصل.

فإذن هم الذين أعانوهم وتعاونوا معهم علىٰ الإثم والعدوان، فإذًا هـٰذا أمر مهم ينبغي أن يُنتبه له هنا، أن اللعن ليس خاصا بآكل الربا بل هو يشمل الآكل والموكِل الذي هو المعطي، يشمل الآخذ والمعطي، يشمل من أخذ الربا ومن أعطىٰ الربا، كلهم يشملهم اللعن، بل قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**الآخذ والمعطي سواء**» لأن هذا الربا عدوان وظلم اشتركا فيه، اشتركا فيه ذاك لحاجته لكثرة المال وهذا لحاجته لبعض المال، فحاجة مشتركة جعلتهما يدخلان في هذا الحُوب الكبير والذنب العظيم، فهما في الإثم سواء وكلٌ منهما جاء ملعونا .

إذًا أكل الربا حرام وإعطاء الربا حرام، وكل هـٰذا من التعاون، وليس هذا فقط، بل جاء في زيادة للحديث، وهي كما نبّه المحقق في مسلم أيضا قال: «**وَشَاهِدَيْهِ وَكَاتِبَهُ**»، «**وَشَاهِدَيْهِ**» يعني من شهد علىٰ الربا، مثل اثنان: آخذ ومعطي للربا، وأتيا إلىٰ شخص ثالث أو شخصين وقالوا: عندنا معاقدة، اشهد لنا عليها فقال: أشهد. وأدلىٰ بشهادته، أيضا هو يشمله اللعن؛ لأنه تعاون معهما علىٰ هـٰذا الأمر، يعني يشمله اللعن لأنه أعانهما علىٰ المحذور، وإلا لو أنهم ذهبوا إلىٰ الشاهد والثاني والثالث وقالوا: ما نشهد علىٰ الجور، ما نشهد علىٰ الربا، ما نشهد علىٰ حرام، يمكن يمتنعون، ويمكن يمتنع أحدهما لأنه وُجد من يكفه ويمنعه: هـٰذا حرام ،كيف نشهد عليه؟!! هذا جور، هذا ظلم، كلما ذهبوا إلىٰ واحد امتنع من الشهادة، والمرابي ما يريد أن يدفع ماله إلا بشهود حتىٰ يضمن أن فعلا له هذا المال، فإذا امتنع الناس من الشهادة لم يوجد هـٰذا الربا في الغالب؛ لأن المرابي لابد عند المراباة أن يكون هناك شهود يضبطون.

وأيضا يحتاجون إلىٰ كاتب يكتب لهما، فمن كتب لهما أيضا هو شريك لهما في الإثم؛ لأنه أعانهما علىٰ هـٰذه المعاملة الربوية.

إذًا هـٰذا فيه معنىٰ قوله: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَىٰ الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[المائدة:٢]، فآكل الربا ملعون، وموكل الربا -الذي هو معطيه- ملعون، والشاهد اثنين أو أكثر ملعونين، والكاتب -من يقوم بالكتابة- أيضا

ملعون، وهذا كله أيضا يدلنا علىٰ خطورة الربا وشدة عقوبة صاحبه عند الله، وأيضا عقوبة من يعين عليه، وإن لم يراب بنفسه ولكنه أعان علىٰ الربا، أعان علىٰ هذا الإثم فله العقوبة الشديدة.

[المتن]

وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: «آكِلُ الرِّبَا وَمُوكلَهُ وَكَاتِبَهُ إِذَا عَلِمُوا ذَلِكَ مَلْعُونُونَ عَلَىٰ لِسَانِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». [أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ.]

[الشرح]

فهٰذا الحديث نبَّه المحقِّق علىٰ أن سنده ضعيف، ولعْنُ آكل الرِّبا وموكله وكاتبه ثابت كما مرّ معنا في صحيح مسلم، قال: «آكِلُ الرِّبَا وَمُوكلَهُ وَكَاتِبَهُ إِذَا عَلِمُوا ذَلِكَ مَلْعُونُونَ عَلَىٰ لِسَانِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ولعنهما علىٰ لسانه موجود في الحديث الذي قبله، ويزيد في هٰذا الحديث قضية «إِذَا عَلِمُوا ذَلِكَ» يعني بلغهم الحكم وعرفوا حكم الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-.

[المتن]

الكَبِيرَةُ الثَامِنَةُ

أَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ظُلْمًا

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[النساء:١٠].

[الشرح]

ثم ذكر هٰذه الكبيرة: (أَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ظُلْمًا).

(الْيَتِيم) هو ذاك الولد الصغير أو البنت الصغيرة الذي مات عنه أبوه فأصبح يتيما، وترك له مالاً، وهو في صغره لا يدري عن مال والده ولا يدري عن حجمه ولا يستطيع أيضا أن يحفظه، فهو صغير وجاهل ولا معرفةَ له بالمال، بل لو أعطي المال له في صغره لضاع، فهٰذا المال يحتاج إلىٰ حفظ، واليتيم يحتاج إلىٰ من يكفله ومن يرعاه ومن يقوم به مقام والده، ولهذا جاءت نصوص كثيرة جدا في فضل كفالة اليتيم قال -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: «أنا وكافل اليتيم كهاتين» وورد في كفالة اليتيم أجر عظيم جدًّا، فكافل اليتيم والمحسن إليه ومن يرعاه هٰذا له أجر عظيم وثواب وله منزلة عالية ورفيعة في الجنة لقاء هٰذا الإحسان، وهٰذا صنف من الناس يوفقهم الله -جلّ وعلا-، بعضهم ينفق من أمواله أموالا طائلة ليرعىٰ بها الأيتام رأفة ورحمة وإحسانا وشفقة، وصنف آخر -والعياذ بالله- من الناس فيه شر وفيه فساد وفيه طمع وفيه شَرَه، فيتعدَّىٰ علىٰ مال اليتيم.

وانظروا إلىٰ أقسام الناس وأحوالهم وطبقاتهم:

يعني من الناس من فيه من الشفقة والرحمة والإحسان من يخرج من ماله ومن ينفق من ماله الشيء الكثير؛ رعاية للأيتام وشفقة ورحمة.

وقسم آخر غليظ وفيه شَرَه وفيه خصال بهيمية، فيتعدَّىٰ علىٰ مال اليتيم ويستغل جهل اليتيم بالمال وعدم علمه فيبدأ يأخذ منه.

وهٰذا الأخذ قد يكون أخذا تدريجيا، بمعنىٰ أن يأكل بالمعروف؛ لأنّ الأكل إذا كان بالمعروف -كما أيضا سيأتي التنبيه علىٰ ذلك عند المصنف- لا شيء فيه، إذا كان يرعاه ويأكل من ماله بالمعروف؛ لأنه هو محتاج ولكنه جَنَّد نفسه لرعاية هٰذا اليتيم أو رعاية هؤلاء الأيتام وتنمية مالهم فله أن يأكل بالمعروف، فقد يأتيه الشيطان هنا في قضية الأكل بالمعروف فيتأوّل لنفسه فيوسع دائرة المعروف، ويبدأ

يأكل من مال اليتيم بشَرَه وبغير حدٍّ، وهو في نفسه متأوِّل أنه يأكل بالمعروف، فهٰذا صنف ومن الناس.

وصنف آخر هو أصلا فاسد ويأكل أموال الناس بالباطل، واستغل حاجة هؤلاء وضعفهم وفقرهم وقلة علمهم وصغرهم فأكل أموالهم بالباطل، فجاءت الشَّريعة بحماية أموال الأيتام ورعايتها والتأكيد علىٰ حفظها، وعُدَّ في الشريعة أكل مال اليتيم كبيرة من الكبائر، عُدّ أكل مال اليتيم كبيرة من الكبائر، يعني ليس جرمًا صغيرًا ولا ذنبًا صغيرًا، وإنما هو ذنب من الذنوب الكبار، ووُصف بأنه موبق أي مهلك لصاحبه في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» أي المهلكات، وذكر منها أكل مال اليتيم، ونصّ في الحديث علىٰ أنه من الموبقات؛ يعني من الذنوب الكبيرة المهلكة.

والله -جلّ وعلا- ذكر عقوبة أَكَلَةَ أموال اليتامىٰ بالظلم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[النساء:١٠]، وذنبه الذي اقترفه في الدنيا أكلٌ وضعه في بطنه ظلما، يعني أدخل في بطنه ظلما مالاً لا يحلّ له، وذِكْر الأكل هنا لأنّه الأغلب لا لأن الحكم متعلّق به فقط، سواء أخذ مال اليتيم أكلا أو أخذه بأمور أخرىٰ، يعني لو أنّ إنسانا أخذ من أموال اليتامىٰ شيئا ولم يأكل منه، أكل من ماله الخاص، وهٰذه الأموال استخدمها في مشاريعه الخاصة وتموّلها وأخذها لنفسه هو داخل في قوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ لماذا ذُكر الأكل؟ لا لأن الحكم متعلق به مختص به، ولكن ذُكر الأكل لأنه هو الغالب في وجوه الانتفاع بالمال، الغالب الأكل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ الذنب أكلٌ والعقوبة أكلٌ، يأكل نارًا ويصلىٰ سعيرًا في بطنه تتأجج يوم القيامة، هٰذه عقوبته عند الله ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

[المتن]

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ..﴾ الآية[الأنعام:١٥٢].

[الشرح]

قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يعني إذا أكل منه أو أخذ منه يأخذ منه في حدود المعروف وفي حدود الحاجة، لا أن يبتزّ ماله أو يأخذ ماله أو يتعدّىٰ علىٰ ماله، وإنما يأخذ في حدود حاجته، ما دام أنه جنَّد نفسه لرعايته وخدمته وتربيته، وهٰذا يتطلَّب منه الجهد، فلا بأس أن يأخذ منه

بالمعروف شيئًا يسيرًا، والمعروف في كل مكان أو في كل وقت يقدَّر بقَدَرِه، لم يُقيّد بشيء معيَّن، ولكن يُنظر في كل موضع وكل مكان بحسبه.

قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ هنا أيضا انتبه، ما قال: لا تأكلوا، قال: ﴿لَا تَقْرَبُوا﴾ ما قال: لا تأكلوا أو: لا تأخذوا، وإنما قال: ﴿لَا تَقْرَبُوا﴾ وهٰذا إضافة إلىٰ ما فيه من النهي عن الأكل والأخذ، فيه نهي عن القربان، بمعنىٰ كن بعيدا عن هٰذا الحمىٰ؛ لأنّ من حام حول الحمىٰ يوشك أن يرتع فيه، فقوله: ﴿لَا تَقْرَبُوا﴾ هنا، وأيضا قوله في الآية التي قبلها: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾ في سورة الإسراء نهي عن الأمر ونهي عن قربانه وعن كل وسيلة تُفضي بالإنسان إليه. قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾.

[المتن]

وَقَالَ –عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ..» فَذَكَرَ مِنْهَا أَكْلَ مَالِ الْيَتِيمِ.

[الشرح]

وهٰذا الحديث كما قدمت يتكرر، والشاهد منه هنا قوله: «أكل مال اليتيم» حيث عدّ النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أكل مال اليتيم كبيرة من الكبائر.

[المتن]

فَكُلُّ وَلِيٍّ لِيَتِيمٍ كَانَ فَقِيراً فَأَكَلَ بِالْمَعْرُوفِ فَلَا بَأْسَ عَلَيْهِ، وَمَا زَادَ عَلَىٰ الْمَعْرُوفِ فَسُحْتٌ حَرَامٌ.

[الشرح]

قال: (فَكُلُّ وَلِيٍّ لِيَتِيمٍ كَانَ فَقِيراً) يعني لاحظ هٰذه التقييدات، (كَانَ فَقِيراً) يعني هو محتاج وبذل نفسه لرعاية هٰذا اليتيم وتنمية أمواله وحفظ أمواله، فله حق لهذا الجهد الذي قدَّمه، وإن كان غنيا فيحتسب ذلك عند الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-؛ لأنه غني وهٰذا حق لهذا اليتيم .

(فَكُلُّ وَلِيٍّ لِيَتِيمٍ كَانَ فَقِيراً فَأَكَلَ بِالْمَعْرُوفِ فَلَا بَأْسَ عَلَيْهِ) يعني إذا كان أكل بالمعروف، يعني في حدود الحاجة، فهٰذا لا بأس عليه، (وَمَا زَادَ عَلَىٰ الْمَعْرُوفِ فَسُحْتٌ حَرَامٌ) وفي الحديث «كل جسد قام علىٰ السحت فالنار أولىٰ به»، فإذا زاد عن المعروف وتمادىٰ في أكل مال اليتيم صار عُرضة لهذه العقوبة، عُرضة لهذا الوعيد الذي مرّ معنا في النصوص.

[المتن]

وَالْمَعْرُوفُ يُرْجَعُ فِيهِ إِلَىٰ عُرْفِ النَّاسِ الْمُؤْمِنِينَ الْخَالِيينَ مِن الْأَغْرَاضِ الْخَبِيثَةِ.

[الشرح]

هٰـذا حقيقة ضابط جميل جدا لنعرف به المعروف في هٰـذا الباب، يعني لو أن إنسانا أراد أن يرعىٰ مال يتيم، شـخص فقير ومحتاج وأراد أن يرعىٰ مال يتيم وأن يتكفّل برعايته بحيث أنه يأخذ من ماله بالمعروف، فكيف يَضبط المعروف؟

لو ذهب إلىٰ شخص من المعروفين بالابتزاز وأكل الأموال بالباطل وعدم الورع، لو استشار مثل هٰـذا وقال له: ما هو المعروف في أكل مال اليتيم؟ ماذا سيقول له؟ إذا ذهب إلىٰ مثل هٰـذا الشخص المعروف بالابتزاز والأكل يمكن يقول له: فرصتك التي لا تضيع، التي ليس بعدها فرصة، ولا تضيّعها، إن ضيعتها فإنك أحمق، هٰـذه فرصتك الآن، من يلقىٰ مثل هٰـذه الفرصة، مادام أنت الآن ستخدمه وسترعىٰ ماله خذ من ماله، لأنك أنت الآن ستتعب وتضيع منك أوقات، ويبدأ يُدخل عليه أشياء هي من الشيطان ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾[الأنعام:١١٢]، هٰـذا شأن دعاة الباطل؛ ولهذا مثل هٰـذه الأمور ما يستشار فيها إلا مثل ما قال الذهبي، الآن أعطانا ضابطا في هٰـذا الباب قال: (وَالْمَعْرُوفُ يُرْجَعُ فِيهِ إِلَىٰ عُرْفِ النَّاسِ الْمُؤْمِنِينَ الْخَالِيينَ مِن الْأَغْرَاضِ الْخَبِيثَةِ.) أما من عنده أغراض خبيثة في الأموال وفي الابتزاز وعدم مراعاة حرمة المال ونحوه، مثل هٰـذا ما يستشار، لأنه لو استشار فسينفق بمشورته ما عنده:

كل إناء بالذي فيه ينضح

فالذي ينضح فيه هو خبث عنده واعتاد عليه، فالذي سينضح فيه توجيهه ومشورته هو ما عنده؛ ولهذا الخبيث أو الذي عنده أغراض خبيثة ما يستشار، وإنما يستشار أهل الصلاح وأهل التقىٰ، الذين يوجهونه الوجهة الحسنة ويدلونه علىٰ المعروف الذي يمكن أن يأخذ في حدوده.

ونقف هنا، والله تعالىٰ أعلم، وصلّىٰ الله وسلّم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

❁❁❁❁

بسم الله الرحمٰن الرحيم

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله، وصلّىٰ الله وسلّم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أمّا بعد؛ نواصل مستعينين بالله -عزّ وجل- في القراءة في كتاب الكبائر للإمام الذّهبي رحمه الله.

[المتن]

الكَبِيرَةُ التَّاسِعَةُ

الْكَذِبُ عَلَىٰ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

قَدْ ذَهَبَ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَىٰ أَنَّ الْكَذِبَ عَلَىٰ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كُفْرٌ يَنْقُلُ عَنِ الْمِلَّةِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ تَعَمُّدَ الْكَذِبِ عَلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي تَحْلِيلِ حَرَامٍ أَوْ تَحْرِيمِ حَلَالٍ كُفْرٌ مَحْضٌ، وَإِنَّمَا الشَّأْنُ فِي الْكَذِبِ عَلَيْهِ فِي مَا سِوَىٰ ذَلِكَ.

قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَىٰ غَيْرِي، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

[الشرح]

قال المصنّف -رحمه الله-: (الكَبِيرَةُ التَّاسِعَةُ: الْكَذِبُ عَلَىٰ النَّبِيِّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-)، الكذب هو الإخبار عن الشّيء علىٰ خلاف ما هو عليه، وهو من قبائح الأعمال وسيّئ الأقوال، وعندما يكون هٰذا الإخبار إخبارًا عن الله، أو عن رسوله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فإنّه يكون من شنائع الأعمال وأعظمها ومن كبائر الذّنوب وأشدِّها، وقد عقد المصنّف -رحمه الله- هاهنا هٰذه الكبيرة أو عنون لهذه الكبيرة - مع أنّه سيأتي عنده لاحقا الكلام عن الكذب أو عن هٰذه الكبيرة من حيث هي- تنبيهًا علىٰ أنّ الكذب علىٰ الله والكذب علىٰ رسوله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ليس كالكذب علىٰ أيّ أحد؛ بل يترتّب عليه من المفاسد والأخطار والأضرار ما لا حدّ له ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلسِنَتُكم الكَذِبَ هَذَا حلالٌ وهَذَا حَرَامٌ﴾[النحل:١١٦]، الكذب علىٰ الله والكذب علىٰ رسوله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يترتّب عليه بِناء أحكام عند أقوام، إذا ظنّوا أنّ هٰذا الكذب صدقا وأنّه فعلا من كلام الله -جلّ وعلا- سيُبنىٰ علىٰ ذلك أحكام وأعمال وتحليل وتحريم، ولهذا خصّ هذا النّوع من الكذب بالكلام عليه هنا -مع أنّه سيأتي الكلام علىٰ الكذب عموما-.

وذكر المصنّف -رحمه الله- عن طائفة من أهل العلم أنّ الكذب علىٰ النّبي - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كفرٌ ينقل من الملّة، يعني أيّا كان هٰذا الكذب، ثمّ فصّل المصنّف -رحمه الله- في هٰذه المسألة، وذكر أنّ الكذب علىٰ النّبي - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- علىٰ نوعين:

- **نوع** واضح أنّه كفر ناقل من الملّة وهو الذي قال فيه: (وَلَا رَيْبَ أَنَّ تَعَمُّدَ الْكَذِبِ عَلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ فِي تَحْلِيلِ حَرَامٍ أَوْ تَحْرِيمِ حَلَالٍ كُفْرٌ مَحْضٌ)، فهٰذا النّوع الذي هو في تحليل ما حرّم الله أو في تحريم ما أحلّ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- هٰذا كفرٌ محض، وحتّىٰ أيضا الإتيان بأحكام وشرائع ودين لم يأذن به الله -جلّ وعلا- فهذا كفرٌ محض؛ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللهُ﴾[الشورىٰ:٢١]، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾[المائدة:٥٠]، فالإتيان بأحكام وشرائع وأحكام والادّعاء بأنّها هي حكم الله وحكم رسوله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هو من هٰذا القبيل.

- **والنّوع الآخر** من الكذب هو: أن يكذب ولا [يأتي] بحُكمه، مثل: ما يفعل بعض القصّاص أو الوعّاظ الذين يقولون، أو قال بعضهم عن فعلة قال: "نحن نكذب له لا عليه"، فيكذبون مثلا في التّرغيب في قراءة القرآن أو في قراءة سور معيّنة أو في المحافظة علىٰ الصّلاة المفروضة أو من هٰذا القبيل.

فالذّهبي -رحمه الله- ذكر أنّ النّوع الأوّل واضح أنّه كفر، وهٰذا النّوع الثّاني إن لم يكن كفرا فهو من كبائر الذّنوب ومن عظائمها؛ لأنّ كذبًا عليه -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ليس ككذب علىٰ أحد و«مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِن النَّارِ»، وسيأتي معنا من الأحاديث التي ساقها المصنّف -رحمه الله- مبيّنةً شناعة هٰذا العمل وفظاعته.

قال النّبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَىٰ غَيْرِي، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِن النَّارِ»، الكذب عليه ليس كالكذب علىٰ غيره؛ لأنّ الكذب علىٰ غيره لا يترتّب عليه بِناء أحكام وشرائع ودين، بخلاف الكذب علىٰ النّبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فإنّه يترتّب عليه تحليل أمور وتحريم أمور.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي جَهَنَّمٍ» صَحِيحٌ.

[الشرح]

قال: (وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي جَهَنَّمِ»)، وهٰذا من العقوبات التي

أعدّها الله -جلّ وعلا- لمن يكذب علىٰ النّبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنّه يُبنىٰ له بيت في جهنّم: أي يُعذّب فيه.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ يَقُلْ عَنِّي مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

[الشرح]

أي أنّ الله -عزّ وجلّ- يُعِدّ له لقوله علىٰ النّبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ما لم يقل مقعدًا في نار جهنّم يُعذّب فيه.

[المتن]

وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: «يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الْخِيَانَةَ والْكَذِب».

[الشرح]

ثمّ ذكر هذا الحديث، وسنده ضعيف، وهو في الكذب عموما، وإذا كان المؤمن ليس من خصاله الكذب فكيف يكون من خصاله الكذب علىٰ النّبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-؟!، ليس الكذب من خصال المؤمن، فكيف يكون من خصال المؤمن الكذب علىٰ النّبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- أو الكذب علىٰ الله -جلّ وعلا-؟!

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ رَوَىٰ عَنِّي حَدِيثًا وَهُوَ يُرَىٰ أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ». فَلَاحَ لَكَ بِهَذَا أَنَّ رِوَايَةَ الْمَوْضُوعِ لَا تَحِلُّ.

[الشرح]

ثمّ ختم -رحمه الله- هذه الكبيرة ببيان عدم جواز رواية المكذوبات والموضوعات علىٰ النّبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ومن روىٰ هٰـذه الموضوعات ونقلها ونشرها في الأمّة فهو من أعوان هؤلاء الذين هم كَذَبَة علىٰ الله وعلىٰ رسوله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فهي لا يحلّ ذكرها إلاّ ببيان كذبها ووَضْعِهَا علىٰ رسول الله - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ولهذا قال المصنّف: (فَلَاحَ لَكَ بِهَذَا أَنَّ رِوَايَةَ الْمَوْضُوعِ لَا تَحِلُّ) لا تحلّ حتّىٰ ولو كان المراد برواية الموضوع الترغيب في عملٍ صالح أو التّرهيب من عملٍ سيّء فإنّ هذا لا يحلّ، في كتاب الله -عزّ وجل- وسنّة نبيّه -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من المواعظ والزواجر والعظات ما

فيه كفاية وغُنية.

قال: «مَنْ رَوَىٰ عَنِّي حَدِيثًا وَهُوَ يُرَىٰ أَنَّهُ كَذِبٌ» و«يُرَىٰ» بضمّ الياء بمعنىٰ يظنّ، وجوّز بعضهم الفتح: وهو «يَرَىٰ أَنَّهُ كَذِبٌ»، وبالفتح تكون بمعنىٰ يعلم؛ يعني وهو علىٰ علم أنّه كذب ثمّ يرويه، والرّواية الأخرىٰ «وَهُوَ يُرَىٰ» أي يظنّ أنّه كذب، وهٰذا فيه أنّ الإنسان لا يروي الحديث إلاّ وهو علىٰ يقين من أنّه من كلام الرّسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

قال: (فَلَاحَ لَكَ بِهَذَا أَنَّ رِوَايَةَ الْمَوْضُوعِ لا تَحِلُّ) بهذه اللّفتة التي أشار إليها الذّهبي -رحمه الله- يتبيّن لنا أنّ النّسخة الثّانية من كتاب الكبائر والتي أشرنا إليها وفيها من الأحاديث الموضوعة والرّوايات الواهية دون أن يُنبَّه عليها ليس هٰذا من منهج الذّهبي -رحمه الله- في مؤلّفاته، فإمّا أن تكون ليست له ونُسبت إليه وهو الأقرب والأقوىٰ، أو تكون مُسَوَّدَة جمع فيها مادّةً للكتابة في الكبائر ثمّ حرّرها في هٰذا الكتاب، والأوّل هو الأقرب، والله أعلم.

❁❁❁❁

[المتن]

الكَبِيرَةُ العَاشِرَةُ

إِفْطَارُ رَمَضَانَ بِلَا عُذْرٍ

قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ أَفْطَرَ يَوْمًا مِنْ رَمَضَانَ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ وَلَا رُخْصَةٍ لَمْ يَقْضِهِ صِيَامُ الدَّهْرِ وَلَوْ صَامَهُ مَا دَامَ لَمْ يَصُمْهُ».

[الشرح]

ثمّ ذكر -رحمه الله- هذه الكبيرة (إِفْطَارُ رَمَضَانَ بِلَا عُذْرٍ)، وصيام رمضان فريضة من فرائض الإسلام وركنٌ من أركانه، كتبه الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- علىٰ عباده المؤمنين لعلّهم يتّقون، فهو فريضة من فرائض الإسلام وركن من أركانه، ووقت صيام رمضان هو نهار رمضان، من طلوع الفجر إلىٰ غروب الشّمس، هٰذا وقت صيام هذه الفريضة في شهر رمضان، فإن جاء هٰذا الوقت المعيّن والمحدّد شرعًا للصيام ولم يصم بلا عذر، ولم يصم دون عذر من مرض أو مانع أو عارض وإنّما تعمّد ترك الصّيام، فهل صيامه يُقبل لو صام بعد رمضان وهو قد تعمّد عدم الصّيام في الوقت المعيّن؟

أورد المصنّف هنا هذا الحديث ونبّه علىٰ أنّه لم يثبُت عن النّبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- «مَنْ أَفْطَرَ يَوْمًا

مِنْ رَمَضَانَ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ وَلَا رُخْصَةٍ لَمْ يَقْضِهِ صِيَامُ الدَّهْرِ وَلَوْ صَامَهُ»، والحديث كما نبّه المصنّف -رحمه الله- لم يثبُت؛ لكن بعض أهل العلم استدلّ علىٰ هٰذا الحكم وأنّ صيامه لا يُقبل ويردّ عليه بعموم قوله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، أي مردودٌ علىٰ صاحبه غير مقبولٍ منه، فهٰذه فريضة وقتها المعين لأدائها هو نهار رمضان، فمن تعمّد تركها في هٰذا الوقت ثم أتىٰ بها في وقتٍ آخر يكون قد أتىٰ بها علىٰ خلاف ما ورد عن النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وعلىٰ خلاف عمله، بخلاف من عرض له عارض المرض، أو كانت له رخصة كالسفر فهٰذا حكمه واضح؛ لكن من يتعمد، وعلىٰ كلّ حال وهذا يدلنا علىٰ خطورة هٰذا الذنب وعظم هٰذه الكبيرة: تعمد ترك صيام رمضان أو بعض أيامه في الوقت المعين والوقت المحدد الذي افترض الله -تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- علىٰ المسلمين الصيام فيه.

[المتن]

وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَىٰ رَمَضَانِ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ».

[الشرح]

ثم أخذ يسوق بعض النصوص التي فيها مكانة الصيام من الإسلام، ومنزلته من الدين، وما يترتب علىٰ المحافظة عليه وحفظه من الثمار والآثار، فذكر أولا: قول النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَىٰ رَمَضَانِ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ»، ففي هٰذا الحديث من فوائد صيام شهر رمضان: أنه مكفّر للذنوب ما اجتنبت الكبائر؛ لأن الكبائر أو الكبيرة لا يُكفّرها إلا التوبة؛ التوبة منها إلىٰ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-، وأما صغائر الذنوب واللّمم وما دون الكبائر فهٰذه تُكفَّر بالمحافظة علىٰ الفرائض: الصلوات الخمس، والجمعة إلىٰ الجمعة، ورمضان إلىٰ رمضان، هٰذه تكفر ما بينها من الصغائر التي تقع بينها، وأما الكبائر فلا يُكفّرها إلا التوبة، وقد ذكر بعض العلماء أن قوة هٰذه الفرائض؛ قوة استمساك العبد بهذه الفرائض وقوة حفظه لها ومحافظته عليها قد يكون فيها تكفيرا للصغائر ويَلْقَىٰ فيها قوة تُكفّر بعض الكبائر -كما أشار إلىٰ هٰذا ابن القيم ومن قبله شيخ الإسلام ابن تيمية وبعض أهل العلم- هي ليست مكفرة للكبائر؛ لأن في الحديث: «مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ»؛ لكن قد تكون في هٰذه المحافظة علىٰ الفرائض وهٰذه الطاعات العظيمة وما يكون فيها من خشوع وخضوع وذل لله -جل وعلا- ما يكون به أيضا تكفير لبعض الكبائر، وهٰذا شيخ الإسلام ابن تيمية انتصر له وتوسع في الكلام

عليه في كتابه (الإيمان).

[المتن]

وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

فيه أنّ الصيام؛ صيام رمضان من مباني الإسلام الخمسة، والإسلام بمثابة البناء، والبناء لا يقوم إلا علىٰ عماد كما قيل:

وَالْبَيْتُ لاَ يُبْتَنَىٰ إلاَّ بِأَعْمِدَةٍ	وَلاَ عِمَادَ إذَا لَمْ تُرْسَ أَوْتَادُ

وعماد الإسلام هٰذه المباني الخمسة، فهي دعائم الإسلام التي عليها قيامه.

[المتن]

وَقَالَ حَمَّاد بْنِ زَيْدٍ، عَنْ عَمْرُو بْنِ مَالكَ الْبكْرِيّ، عَنْ أَبِي الْجَوْزَاءِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسَ -رّضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمَا- قال: "عُرَىٰ الْإِسْلَامِ وَقَوَاعِدُ الدِّينِ ثَلَاثَةٌ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَالصَّلَاةُ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، فَمَنْ تَرَكَ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ فَهُوَ كَافِرٌ". وَتَجِدُهُ كَثِيرَ الْمَالِ وَلَمِ يَحُجْ وَلَمْ يُزَكِّ وَلَا يَحِلُّ دَمَهُ. هَذَا خَبَرٌ صَحِيحٌ.

[الشرح]

ثم أورد الذهبي -رحمه الله- هٰذا الأثر الموقوف علىٰ ابن عباس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُما- في عُرَىٰ الإسلام، والعُرْوَة: ما يُتمسك به ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ﴾[البقرة:٢٦٥]، العُرْوَة ما يُتمسك به، وعُرَىٰ الإسلام: أي أصوله وقواعده -وكما مرّ- مبانيه: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ»، (عُرَىٰ الْإِسْلَامِ وَقَوَاعِدُ الدِّينِ)، وقوله: (وَقَوَاعِدُ الدِّينِ) توضح قوله: (عُرَىٰ الْإِسْلَامِ).

قال: (ثَلَاثَةٌ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَالصَّلَاةُ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ) كون هٰذه الثلاثة من عُرَىٰ الإسلام وقواعد الدين يشهد له الحديث الذي قبله «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ» وذكر الشهادتين والصلاة والصيام.

قال: (فَمَنْ تَرَكَ وَاحِدَةً مِنْهُا فَهُوَ كَافِرٌ)، قال: (وَتَجِدُهُ كَثِيرَ الْمَالِ وَلَمِ يَحُجْ وَلَمْ يُزَكِّ وَلَا يَحِلُّ دَمَهُ. هَذَا خَبَرٌ صَحِيحٌ.) يعني هٰذا فيه التأكيد علىٰ عُرىٰ الإسلام التي هي الشهادتين والصلاة والصوم؛ ولكن هٰذا الأثر لم يثبت عن ابن عباس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُما-، وللشيخ الألباني -رحمه الله- كلام علىٰ سنده وذِكْر لتخريجه في كتابه السلسلة الضعيفة برقم (٩٤).

[المتن]

وَعِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ مُقَرَّرٌ أَنَّ مَنْ تَرَكَ صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ بِلَا مَرَضٍ وَلَا عَرَضٍ؛ أَنَّهُ شَرٌّ مِنَ الزَّانِي، وَالْمَكَّاسِ، وَمُدْمِنَ الْخَمْرِ. بَلْ يَشُكُّونَ فِي إِسْلَامِهِ، وَيَظُنُّونَ بِهِ الزَّنْدَقَةَ وَالانْحِلَالَ.

[الشرح]

هذا متقرر مثل ما ذكر الإمام الذهبي -رحمه الله- عند المؤمنين، وتعظيم الصيام أمر مُرتكز في نفوس كثير من المؤمنين، حتىٰ إن بعضهم يعني يحصل منه لا يفرط في الصيام، والصلاة التي هي أعظم من الصيام ولا قبول للصيام إلا بها لا يحافظ عليها ولا يعتني بها؛ لكن الصيام يعني أمره متمكن في قلوب المؤمنين حتىٰ صار بهذه الصفة أن من ترك صوم رمضان بلا مرض ولا عرض أنه شر من الزاني والمَكّاس ومدمن الخمر؛ بل يشكون في إسلامه ويظنون أنه من الزنادقة، إذا تبين لهم أنه لا يصوم أو يُفطر أو رأوه يأكل في رمضان، ويرونه متهاونا في الصلاة ولا يقع فيهم هـٰذا الإحساس، مع أن شأن الصلاة أعظم وأكبر.

وعلىٰ كل حال هـٰذه لفتة أشار إليها الذهبي -رحمه الله- في بيان واقع الصيام ومكانة الصيام في نفوس الناس.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ وَالْجَهْلَ فَلَا حَاجَةَ للهِ بِأَنْ يَدَعَ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ». صَحِيحٌ.

[الشرح]

ثم أورد -رحمه الله- هـٰذا الحديث ليبين أن الصيام لابد فيه أيضا من حفظ الصيام نفسه، والإتيان به علىٰ ما شرع الله -جلّ وعلا- وأمر عباده، وألّا يكون صيامه مجرد امتناع عن الطعام والشراب والجماع من طلوع الفجر إلىٰ غروب الشمس؛ بل يحقق غاية الصيام ومقصده وهو تقوىٰ الله -جل وعلا- بالبُعد عن الحرام والآثام والجهل وقول الزور والعمل بالزور. فجاء في الحديث: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ وَالْجَهْلَ فَلَا حَاجَةَ للهِ بِأَنْ يَدَعَ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ»؛ بل ترك الطعام والشراب الغرض منه التقوىٰ، فإذا لم يدع قول الزّور والجهل والعمل به ما [ظهر] عليه أثر الصيام، فنبه المصنف -رحمه الله- أن الصيام النافع والذي يكون به تكفير السيئات هو الذي يحقق للعبد تقوىٰ الله -عزّ وجلّ-، وكل ما كان أبلغ ذلك في العبد كان ذلك أعظم أثرا وأكبر أجرا.

[المتن]

وَعَنْ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «رَغِمَ أنفُ امْرِئٍ أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ».

[الشرح]

ثم أيضا نبه علىٰ هٰذه المسألة بهذا الحديث وهو قول النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «رَغِمَ أَنفُ امْرِئٍ أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ»؛ أي أن شهر رمضان موسم لمغفرة الذنوب، فيجدُر بالمسلم مع صيامه وحفظه لفريضة الصيام أن يستغل هذا الموسم للإقبال علىٰ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- والاستكثار من الطاعات والتوبة من الخطايا والسيئات لعله يكون من عتقاء الله -تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- من النار، ولعله يكون ممن كتبت لهم المغفرة والرحمة، فشهر رمضان موسم عظيم مبارك للعتق من النار وغفران الذّنوب وفيه إقبال القلوب علىٰ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-، فإذا كان قلب الإنسان خاملا ضعيفا متوانيا لم يُقبل علىٰ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- في هذا الشهر العظيم متىٰ يقبل علىٰ الله؟، وإذا لم تحصل منه الإنابة والاستغفار والتوبة في هٰذا الموسم الكبير ولم يتحرك قلبه متىٰ عسىٰ قلبه أن يتحرك؟ «من أدرك رمضان ثم خرج فلم يغفر له فأبعده الله» كما جاء في الحديث الآخر، وهنا قال: «رَغِمَ أَنفُ امْرِئٍ»؛ لأنه دخل في موسم عظيم للغفران وللعتق من النار والفوز برحمة الله -تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- وهو سَادر في غَيِّه مُعرِض عن طاعة ربه فيدخلُ موسم الغفران ويخرج ولم يتحرك مقبلا علىٰ طاعة الله -جلّ وعلا-.

❁❁❁❁

[المتن]

الكَبِيرَةُ الحَادِيَةُ عَشْرَةَ

الفِرَارُ مِن الزَّحْفِ

قَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[الأنفال:١٦].

وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ...» فَذَكَرَ مِنْهَا التَّوَلِي يومَ الزَّحْفِ.

[الشرح]

ثم أورد -رحمه الله- هٰذه الكبيرة (الفِرَارُ مِن الزَّحْفِ) وقد جاءت معنا في حديث السبع الموبقات وسيذكر المصنف هنا. و"الفِرَارُ يوم الزَّحْفِ" أي التولي والهروب من القتال عندما يزحف صف

المسلمين متجها إلىٰ صف الأعداء.

التولي يوم الزحف: أي عندما يزحف صف المسلمين متجها إلىٰ صف الأعداء، وهذا محك للصبر والصمود والإقبال عند معاينة المجابهة والملاقاة، فالتولي يوم الزحف في زحف جيش المسلمين لملاقاة الأعداء، هٰذا كبيرة من الكبائر إلا في حالتين جاءتا استثناؤهما في القرآن الكريم:

﴿إِلاَّ مُتَحَرِّفـًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ يعني يرجع، يفر ليكر، يرجع ليعود، يَرجع ليذهب إلىٰ جهة أحوج، فهذا فِرارٌ أو رجوعٌ من أجل مصلحة الجهاد، ليس هروبا منه، فهذا لابأس به.

﴿أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَىٰ فِئَةٍ..﴾ يعني احتاجت فئة أخرىٰ إلىٰ وقوفه معها، ففرّ وذهب إلىٰ الجهة الأخرىٰ.

فهاتان الحالتان لا إثمَ فيهما لأنه عملٌ من مصلحة الجهاد، لكن الفرار -من حيث هو- والتولّي يوم الزحف هٰذا كبيرة.

وإذا كان التولّي يوم الزحف كبيرةً من شخصٍ رغِب في الجهاد، وأقبل علىٰ الجهاد، وأقدم علىٰ الجهاد، وحمل سيفه في الجهاد واتجه إلىٰ مقابلة الأعداء، لكن لمّا وصل إلىٰ مرحلة المجابهة فرَّ، إذا كان هٰذا كبيرةً، فكيف بمن يكون عونا للكفار علىٰ المسلمين، أو يُمارس أمورا من هٰذا القبيل؟ إذا كان من يفرّ مع أنه مضىٰ للجهاد، وسعىٰ لتحقيق هذا القُربة، لكن عند المجابهة فرَّ، فكيف بمن يُعين الكفار علىٰ المسلمين؟ لا شك أن هٰذا أشنع وأعظم.

وهٰذا وجهٌ مما استدل به أهل العلم علىٰ أن هٰذا الحديث ليس حاصرا للكبائر، بل إنّ من الكبائر المذكورة أعمالٌ في الباب نفسه أشنع منها وأعظم؛ فإذن هٰذا ليس حصرا للكبائر؛ بل إن هناك كبائر كثيرة ذُكرت في السُنّة ودلت عليها النصوص زائدة علىٰ هٰذا القدر الوارد في حديث «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ».

والفرار من الزحف كبيرة لأنه له خطر عظيم، يعني لو لم يأت أصلا للجهاد ربما يكون أهون؛ لأنه إذا حصلت الملاقاة، يحتاج من الصفّ الإسلامي إلىٰ الصمود وثبات وإقدام وإقبال، هٰذا الذي يحتاجه هذا المقام؛ فإذا فرّ واحد وفرّ الثاني وفرّ الثالث صار للصف كُلّه ضعف وتقليل، وأيضا صار للأعداء تقوية علىٰ المسلمين عندما يرون بعضهم بدأ يلوذ بالفرار، ففيه أضرار كثيرة وخطر علىٰ المسلمين، ولهذا كان كبيرة من الكبائر.

❁❁❁❁

[المتن]

الكَبِيْرَةُ الثَّانِيَةُ عَشْرَة

الزِّنَا، وَبَعْضُهُ أَكْبَرُ إِثما مِنْ بَعْضٍ

قَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً﴾[الإسراء:٣٢].

[الشرح]

ذكر المصنف -رحمه الله- هـٰذه الكبيرة، كبيرة الزنا، وهي إتيان الإنسان لهـٰذه الفاحشة المعروفة التي هي عدوان (قال الله -تعالىٰ-: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾[المؤمنون:٥-٧]) أي المتعدّون لحدّ الشريعة وحدود الإسلام، فالزنا جريمة كبيرة، وفيه فساد عريض للمجتمعات، ويترتّب عليه من الآفات والأخطار والأضرار ما لا حدّ له ولا عدّ؛ ولهذا من نعمة الله بهذه الشريعة -شريعة الإسلام- تحريم الزنا، وعدّه فاحشة عظيمة وحُوبًا كبيرا، حرّمه الإسلام ومنعه ونهىٰ الناس عنه لما فيه من الأخطار التي لا حدّ لها ولا عدّ.

وذكر المصنف -رحمه الله- أنّ الزنا بعضه أكبر إثما من بعض، الزنا كله كبيرة كيفما كان، ولكن بعضه أكبر من بعض. وسيأتي في النصوص التي يوردها المصنف -رحمه الله- ما يُبيّن لنا تفاوت هـٰذه الجريمة -جريمة الزنا- في الكِبَر وأن بعضه أكبر من بعض.

أورد أولا قول الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً﴾[الإسراء:٣٢] وصف الله -جلّ وعلا- الزنا بأنه ﴿فَاحِشَةً﴾، والفاحشة هو ما قَبُح من الذنوب والمعاصي، أو ما اشتدّ قُبحه من الذنوب والمعاصي يُقال: فاحشة، فالزنا فاحشة. ﴿وَسَاء سَبِيلاً﴾ أي: أن سبيل الزنا سبيلٌ بالغٌ مبلغا عظيما في السوء والقُبح والشناعة، ويُدرك الناس قبحه بفِطَرهم حتىٰ من يمارسه، بدليل أنه ما يرضاه لبيته ولا يرضاه لأهله، إلا من زاد في ممارسة هـٰذا العمل وزاد فيه فإنه يصل إلىٰ مرحلة -يأتي الكلام عليها- وهي مرحلة الدياثة (إقرار الخَبَث في أهله) -والعياذ بالله-، وهـٰذه أيضا من نتائج ممارسة هذه الفاحشة، أن تذهب الغيرة وتُنتزَع من الصدر ويكون ديوثا، يرضىٰ الخَبث في أهله ولا يتأثر لحصوله أو لوقوعه.

قال الله -تعالىٰ-: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰ﴾ وتأمل هنا النهي عن الزنا جاء بهذا اللفظ: النهي عن قربانه،

وهـٰذا فيه دليل علىٰ أن الزنا محرّم، وأن كل طريق يُفضي إليه محرّم، والوسائل لها أحكام المقاصد، فالوسيلة التي تفضي إلىٰ الزّنا وتؤدي إليه فهي محرمة وهي داخلة تحت قوله –تعالىٰ-: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰ﴾.

ويدخل تحت قوله: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰ﴾ النظر المحرّم والسماع المحرم، وإتيان الأماكن التي يُخشىٰ علىٰ الإنسان أن تجرّه إلىٰ هـٰذه الفاحشة وأن تُحرك قلبه إليها، فهـٰذا كله داخل تحت قوله: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰ﴾.

[المتن]

وقَالَ اللهُ –تَعَالَىٰ-: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾الآيات[الفرقان:٦٨].

[الشرح]

في هـٰذا السياق، ما يدل علىٰ خطورة هذه الجريمة –جريمة الزنا–؛ حيث إن الله –عزَّ وجلَّ– ذكرها مضمومة إلىٰ الشرك بالله والقتل، فهـٰذا فيه دليل علىٰ أن الزنا من أكبر الكبائر، وذُكر في كتاب الله –عزَّ وجلَّ– مقرونا بالشرك بالله وقتْل النفس التي حرم الله إلا بالحق، ووصف الله وأخبر الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– أن فاعل ذلك ﴿يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا(٦٩) إِلَّا مَن تَابَ﴾[الفرقان:٦٨-٧٠].

[المتن]

وَقَالَ اللهُ –تَعَالَىٰ-: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ...﴾الآية[النور:٢].

[الشرح]

وهـٰذا الدليل فيه ذِكرُ حَدٍّ في الدنيا لهـٰذه الجريمة وهو الجَلد. قال: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ ..﴾[النور:٢]، فهذا حدٌّ في الدنيا، غير الوعيد الذي أعدّه الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– للزواني والزناة يوم القيامة.

وقد سبق أن عرفنا في المقدمة أنّ مما تُعرف به الكبيرة أن يُذكر لها حدٌّ في الدنيا، فالكبيرة ضابطها: ما فيه حدٌّ في الدنيا أو وعيد في الآخرة.

إذن هـٰذا الدليل، أورده المصنف للدّلالة علىٰ أن الزِّنا كبيرة من الكبائر لهذا الحدّ الذي ذُكر لفاعله في الدّنيا إضافة إلىٰ ما سبق من النّصوص الصحيحة الواضحة في أنّه من الكبائر بالوعيد في الآخرة علىٰ فعله بالنار، والعقوبة وسخط الله – تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ –.

وقوله: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾ هـٰذا إذا كان الزّاني بكرًا، فهـٰذه عقوبة أو هذا حدّه، أما إذا كان محصنا بالزواج فإن حدّه الرّجم حتىٰ الموت كما جاء ذلك مُبيَّنا في السُّنّة.

[المتن]

وَقَالَ: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ﴾[النور:٣].

[الشرح]

ثم ذكر هـٰذه الآية وفيها بيان شناعة الزنا، وما يترتب عليه من الخطر علىٰ من مارسه ومن عُرف به، فقال الله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ–: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ..﴾ لماذا؟ لأن من زنىٰ العفيفة لا تقبله ولا ترضاه لنفسها، فمن كان زانيا لا يجد إلا إنسانة بهذه الصفة، أو مشركة لا تؤمن بالله، فلا تبالي أن ترضىٰ بمثله، أما المرأة المؤمنة العفيفة الصالحة إن علمت أنّ من تقدّم لها من الزناة أو من أهل هـٰذه الفاحشة لا ترضاه لنفسها ولا تقبل. وكذلك ﴿الزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾، إذا عُرفت المرأة بالبغي والزنا والفاحشة فإن العفيف من الرجال لا يرضاها لنفسه ولا يقبلها، ولا يُقبل عليها إلا من هو علىٰ شاكلتها، أو مشرك لا يؤمن بالله وليس عنده وازع يجعله يقيس هـٰذه الأمور؛ فلا يبالي إذا أعجب بشكلها أو بمنظرها أو أشياء من هـٰذا القبيل، فهذا المقياس عنده في هـٰذا الباب.

فإذن الزاني والزانية من الأشياء التي تترتب عليه أن يكون مرفوضا في المجتمع وليس له مكانة، ولا يقبله أهل الإيمان ولا يُقبلون عليه، هـٰذا هو المعنىٰ في قوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ﴾ نكاح الزانية وحُرِّم علىٰ المؤمنة أن تنكح الزاني إذا كانت تعلم أنه رجل يمارس هـٰذه الفاحشة، فيحرم عليها أن تأخذه؛ بل بعض أهل العلم ذكر أن مثل هذا النكاح محرّم وباطل ولا ينعقد إذا كانت تعلم يقينًا أنّ الرجل علىٰ هـٰذه الصفة، وأما إذا عُلم أن الشخص أنه تاب وصدق مع الله في توبته،

ومع المدة وطول الزمان تبيّن فعلا اســتقامته وندمه وتوبته، فإن مثل هـٰـــذا لا يقال عنه أنه من الزناة؛ بل يقال عنه: إنه من التائبين.

[المتن]

وَقَالَ -صَــلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ- وَسُــئِلَ أيُّ الذَّنْبِ أعْظَمُ؟ قَالَ: «أنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ، قَالَ: ثُمَّ أيٌّ؟ قَالَ: أنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أنْ يَطْعَمَ مَعَكَ، قَالَ: ثُمَّ أيٌّ؟ قَالَ: أنْ تُزانِي حَلِيْلَةَ جَارِكَ».

[الشرح]

ثم ذكر المصنف -رحمه الله- هـٰـذا الحديث عن النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه (وَسُئِلَ أيُّ الذَّنْبِ أعْظَمُ؟ قَالَ: «أنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ، قَالَ: ثُمَّ أيٌّ؟ قَالَ: أنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْــيَةَ أنْ يَطْعَمَ مَعَكَ، قَالَ: ثُمَّ أيٌّ؟ قَالَ: أنْ تُزانِي حَلِيْلَةَ جَارِكَ») وهـٰـــذا الحديث ذُكر فيه علىٰ الترتيب الأمور الثلاثة المذكورة في الآيـة ﴿وَالَّـذِينَ لاَ يَـدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًـا آخَرَ وَلاَ يَقْتُـلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِـالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ﴾[الفرقان:٦٨].

والشــاهد من الحديث قوله: «أنْ تُزانِي حَلِيْلَةَ جَارِكَ». وحليلة الجار أي زوجة الجار، وهنا هـٰـــذا الحديث هو من الدلائل علىٰ تفاوت هـٰـــذه الكبيرة، فالزنا بحليلة الجار أعظم من الزنا ببعيدة الدار؛ لأنّ في هـٰـــذا الزنا أي بحليلة الجار تَعدٍّ علىٰ حق الجار، وفي الحديث «لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه»، فهو كبيرة من جهة الزنا، وكبيرة من جهة تعديه علىٰ جاره، وعدوانه علىٰ جاره، وإفســاده لفراش جاره، فهو كبيرة من جهة كونه زنا، ومن جهة كونه تَعدَّىٰ علىٰ الجار، وقد قال -عَلَيْهِ الصَّــلاَةُ وَالسَّـلاَمُ-: «لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه» وقد مرّ معنا أن نفي الإيمان لا يكون إلا عن كبيرٍ، نفي الإيمان لا يكون إلا عن كبير، لا يكون نفي الإيمان عن مســتحب أو أمور من الرغائب والمســتحبات، فلا يكون نفي الإيمان إلا عن كبير.

فنفي الإيمان هنا دليل علىٰ أن من يعتدي علىٰ الجار ومن يمارس العدوان مع جاره مرتكبا لكبيرة، وأي عدوان أعظم وأشـنع من أن يفسـد علىٰ جاره فراشـه، ومثله هو الذي يكون فيه معونة لجاره بحفظ فراشه وحفظ أولاده وحفظ بيته فإذا بلغ هذا المبلغ من السوء فهـٰـذا كبير وأكبر من مجرد الزنا، فالزنا إذاً يتفاوت وبعضـه أكبر من بعض بحسـب المكان وبحسـب الفاعل وبحسـب المفعول به وبحسـب الزمان، وسيأتي عند المصنف -رحمه الله- أيضا أدلة تشهد لهـٰذا المعنىٰ .

[المتن]

وَقَالَ- عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: «لاَ يَزْنِىٰ حِينَ يَزْنِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ، ولاَ يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ».

[الشرح]

وهٰـذا الحديث فيه دليل واضح علىٰ أن الزنا كبيرة؛ لأن النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نفىٰ عن الزاني الإيمان فقال: «لاَ يَزْنِىٰ حِينَ يَزْنِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ»، وعرفنا أن نفي الإيمان لا يكون إلا عن كبير، لا يُنفىٰ الإيمان عن أمر صغير، وإنما يُنفي الإيمان عن أمر كبير، إما ترك واجب أو فعل محرم، لا يأتي نفىٰ الإيمان إلا في هذين الحالتين: إما بترك واجب، أو في فعل محرم .

ولا يأتي في النصوص أبدا نفي الإيمان لترك مستحب أو لفعل أمر مكروه أو صغيرة من الصغائر، لا يأتي نفي الإيمان في مثل هٰذا.

فإذاً نفي الإيمان هنا دليل علىٰ أنّ الزنا كبيرة.

وفي الحديث فائدة أخرىٰ عظيمة جدًّا يحسُن أن نتنبه لها تتعلق بتعريف الإيمان وحدّه، حيث دلّ الحديث علىٰ أن ترك المعاصي إيمان، وأن تركها داخل في مسمىٰ الإيمان} لأن الإيمان نُفي بفعلها فتركها إيمان؛ لأنه بفعلها نُفي الإيمان، إذاً بتركها ومجانبتها والبعد عنها يتحقق الإيمان. فإذاً ترك المعاصي وترك الكبائر هذا داخل في مسمىٰ الإيمان؛ إذاً الإيمان كما أنه يشمل فعل الطاعات فإنه أيضا يشمل ترك المحرّمات، والحديث واضح الدّلالة علىٰ ذلك.

والمراد بالإيمان المنفي ليس أصل الإيمان، يعني ليس المراد «لاَ يَزْنِىٰ حِينَ يَزْنِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ» أي أنه خرج من الدين وصار به كافرا، ليس هٰذا المراد، وإنما الإيمان يُنفىٰ بترك واجب من الواجبات أو فعل أمر من المحرمات، فيُنفىٰ الإيمان ،ويكون علىٰ هٰذا المنفي ليس أصل الإيمان، وإنما المنفي كمال الإيمان الواجب بمعنىٰ أن من زنىٰ أو سرق أو شرب الخمر لم يصبح مستحقا للإيمان المطلق، ولم يكن في الوقت نفسه خارجا من مطلق الإيمان، فأصل الإيمان باقي؛ لكن خرج من الإيمان المطلق أي الإيمان الواجب التام الكامل الذي رُتب علىٰ فعله وعلىٰ تحقيقه حصول الثواب والسلامة من العقاب، أما من زنىٰ لم يكن من أهل هٰذا الإيمان، وأيضا لم يكن من الخارجين من الدين؛ لأنه لا يخرج من الدين بكبيرة؛ لكنه لا يؤمن يعني ليس من أهل الإيمان الذين لهم الوعد بالثواب العظيم والجنة والنجاة من

النار، ليس من أهل الإيمان الذي له هٰذا الوعد.

إذاً قوله «لَا يَزْنِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ» المنفي هنا الإيمان الواجب ليس المنفي أصل الإيمان، وليس المنفي أيضا الإيمان المستحب، وإنما المنفي هو الإيمان الواجب.

[المتن]

وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: «إِذَا زَنَى العَبْدُ خَرَجَ مِنْهُ الْإِيمَانُ فَكَانَ كَالظُّلَّةِ عَلَى رَأْسِهِ، ثُمَّ إِذَا أَقْلَعَ رَجَعَ إِلَيْهِ الإِيمَانُ» هَذَا عَلَى شَرْطِ البُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ.

[الشرح]

ثم أورد رحمه الله هٰـذا الحديث «إِذَا زَنَى العَبْدُ خَرَجَ مِنْهُ الْإِيمَانُ فَكَانَ كَالظُّلَّةِ» ومن المعلوم أن **"الظلة"** ملازمة للشيء ليست منفكة عنه تماما، وإنما هي ملازمة للشيء ومرتبطة به نوع ارتباط، فالحديث لا يدل على أن من زنى خرج من الملة وصار بزناه كافرا، وقوله: «إِذَا زَنَى العَبْدُ خَرَجَ مِنْهُ الْإِيمَانُ فَكَانَ كَالظُّلَّةِ»، **"الظلة"** ملازمة للشيء ولها به نوع ارتباط، فدل ذلك على أنه أصل الإيمان باقٍ عنده؛ ولكنه بالزنا خرج منه الإيمان الواجب الذي وُعد صاحبه بالثواب والجنة والنجاة من النار والعقوبة وسخط الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- ، يكون خرج من هذا الإيمان، ولا يكون خرج من الدين كلية؛ لأن الظلة كما علمنا لها ارتباط ونوع صلة وهي ملازمة للشيء؛ ملازمة لما هي ظل له وليست منفكة عنه تماما، فهٰذا يدلنا على أن من زنى خرج من الإيمان الواجب ولم يخرج من الدين كلية كما هو واضح في هذا الحديث.

قال: «إِذَا أَقْلَعَ رَجَعَ إِلَيْهِ الإِيمَانُ» يعني رجع إليه الإيمان الواجب الذي خرج منه، الذي خرج منه ليس أصل الإيمان، وإنما الذي خرج منه الإيمان الواجب، فينبغي أن يُفهم هٰذا الأمر حتى لا يذهب بالإنسان الفهم إلى مذهب سيئ فيظن في الحديث دلالة على ما ذهب إليه الخوارج أو المعتزلة بخروج المرتكب لهذه الكبيرة الخروج من الإيمان كلية، بمعنى أنه أصبح كافرا أو خارجا من ملة الإسلام، فالحديث لا يدل على هٰذا لا من قريب ولا من بعيد، فالإيمان الذي خرج هو الإيمان الواجب الذي لصاحبه الوعد والسلامة من الوعيد، وإذا رجع ونزع عنه هذه الكبيرة رجع إليه هذا الإيمان الواجب، أما أصل الإيمان لا يخرج بمجرد ارتكاب هذه الكبيرة .

[المتن]

وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «مَنْ زَنَىٰ أَوْ شَرِبَ الخَمْرَ نَزَعَ اللهُ مِنْهُ الإِيْمَانَ كَمَا يَخْلَعُ الإِنْسَانُ القَمِيْصَ مِنْ رَأْسِهِ» إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ.

[الشرح]

أورد المصنف -رحمه الله- هٰـذا الحديث وهو قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ زَنَىٰ أَوْ شَرِبَ الخَمْرَ نَزَعَ اللهُ مِنْهُ الإِيْمَانَ كَمَا يَخْلَعُ الإِنْسَانُ القَمِيْصَ مِنْ رَأْسِهِ» هٰـذا الحديث يختلف في سياقه عن الحديث السابق.

(الظلة) أمرها مثل ما أشرنا ملازمة لما هي ظل له؛ لكن أمر **(القميص)** يختلف، والشيخ الألباني -رحمه الله- في السلسلة الضعيفة برقم (١٢٧٤) حقق القول بأنّ هٰذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وإذا كان هذا الإسناد ضعيفاً لا يصح أن يقال أن الحديث الأول شاهدا له؛ لأن المثال مختلف، المثال في الحديثين مختلف، هناك **(كالظلة)** وهنا **(كالقميص)** فالمثال مختلف.

فعلىٰ كل حال فالحديث لم يثبت، وإن ثبت الحديث فإنه يُحمل معناه علىٰ معنىٰ الحديث السابق وعلىٰ أيضا معنىٰ عموم الأدلة والنصوص في كتاب الله وسنة نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي فيها الدلالة الواضحة علىٰ أن الإنسان لا يخرج بكبيرته من الإيمان.

فيكون معنىٰ الحديث إن صح «مَنْ زَنَىٰ أَوْ شَرِبَ الخَمْرَ نَزَعَ اللهُ مِنْهُ الإِيْمَانَ» أي الواجب وليس أصله، فالذي يُنزع ويخرج: الإيمان الواجب الذي لصاحبه الوعد والسلامة من الوعيد، هٰذا إن صح هذا الحديث وكما قدمت الشيخ الألباني -رحمة الله عليه- حقق القول بضعف هٰذا الحديث.

[المتن]

وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: «ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِم وَلاَ يُزَكِّيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

ثم أورد -رحمه الله- هٰذا الحديث، والشاهد منه قوله: «شَيْخٌ زَانٍ» والشيخ (الرجل الكبير)؛ وجاء في بعض الأحاديث «الأشيمط الزان» أي الرجل الـمُسنّ. وهٰذا الحديث ساقه المصنّف -رحمه الله- ليُبيّن ما ذكره في العنوان (**وبعضه أكبر إثما من بعض**)؛

فالزنا من الشيخ ليس كالزنا من الشاب، وكل منهما كبيرة من كبائر الإثم وذنب عظيم؛ لكن الزنا من

الشيخ أعظم وأشنع وأقبح؛ قال أهل العلم: لأنّ زنا الشاب له ما يحركه ويحتاج أن يقاوم ويدافع قوة الشهوة التي تأتي الشباب؛ لكن الشيخ الكبير بردت شهوته وضعفت فلا يكون المحرك له لفعل هٰذا الأمر شهوة ثائرة دفعته لمباشرة هٰذا الأمر، وإنّما يكون الباعث له فساد فيه؛ ليس الذي حركه الشهوة، وإنّما الذي حرّكه الفساد الذي فيه. فهٰذا يدلّنا علىٰ أن الزنا يتفاوت بحسب الفاعل وبحسب أيضا المفعول به -كما سيأتي-

الزنا بذوات المحارم أشنع؛ أو مثل ما تقدّم بحليلة الجار أشنع.

أيضا يتفاوت بحسب الزمان؛ في رمضان أشنع؛ المكان أيضا، المكان الفاضل والبلد الفاضل والبقعة الفاضلة؛ أشنع.

فإذن هو كله كبيرة كيفما كان؛ ولكنه يزداد حجمه بحسب إما الفاعل أو المفعول به أو المكان أو الزمان أو نحو ذلك. قال: «شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»، «وَمَلِكٌ كَذَّابٌ» هٰذه ستأتي معنا فيما ما بعد؛ «وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ» أي رجل فقير ويتكبّر ويتعالىٰ علىٰ الناس؛ فهٰذا ليس فيه ما يهيّج التكبر بنفسه؛ لأن المال والرئاسة والجاه ونحو هذه الأمور -إن وُجدت- قد تؤثر علىٰ بعض الناس لضعف إيمانه فيقع في الكبر؛ لكن رجل فقير ومُتقع وليس عنده طَول ولا مال ثم يتكبر، ما الذي حرّك فيه الكِبر؟ الجواب هو ما سبق؛ حرك فيه الكبر فساد في نفسه؛ ليس هناك أمور أثارت الكبر فيه وإنّما الذي أثار الكبر فيه فساد في نفسه.

[المتن]

وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: «حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَىٰ الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلاً مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ فَيَخُونُهُ فِيهِمْ إِلاَّ وُقِفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَأْخُذُ مِنْ عَمَلِهِ مَا شَاءَ، فَمَا ظَنُّكُم؟» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

وهٰذا ساقه المصنف في بيان الأمر نفسه؛ أن جريمة الزنا تتفاوت بحسب أمور من ضمنها بحسب من فُعل به؛ وهنا ذكر الزنا -والعياذ بالله- بامرأة المجاهد، التي ذهب زوجها في الجهاد في سبيل الله والقتال في سبيل الله؛ وحق امرأته أن تُصان وأن تُرعىٰ وأن تُكرم لا يُمارَس معها هٰذه الفاحشة وأن تُغرىٰ بهذه الفاحشة أو تُوقع في هٰذه الفاحشة.

وذكر النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- أن حرمة نساء المجاهدين علىٰ القاعدين كحرمة أمهاتهم؛ فإذن

هٰذا زنا؛ ولكنه أفضع من كل الزنا؛ لأنه زنا بنساء المجاهدين، وحرمة نساء المجاهدين عند الله كحرمة نكاح الأم؛ يعني أن ينكح الرجل أمه أو ينكح زوجة مجاهد هما في الحرمة سواء. هٰذا معنىٰ قوله «حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَىٰ الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ» ؛ أي أن الحكم في التحريم أو درجة الحرمة واحدة «كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ».

ثم قال: «وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلاً مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ فَيَخُونُهُ فِيهِمْ إِلاَّ وُقِفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» يعني وُقف هذا القاعد يوم القيامة للمجاهد ويقال للمجاهد: "خذ من عمله ما شئت"؛ يعني خذ من حسناته وأعماله الصالحة، خذ منها ما شئت.

يقول النبي -صلّىٰ اللهُ عليهِ وسلَّم- «فَمَا ظَنُّكُم؟» يعني كم سيأخذ؟ يأخذ حسنة واحدة ويكتفي، هل سيُبقي له شيئا؟ مقام طلب حسنات ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[عبس:٣٤-٣٧]، فكيف إذا جاء في هٰذا المقام واُوقِف له شخص وقيل له: "خذ ماشئت من حسنات"؟ يقول - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- : «فَمَا ظَنُّكُم؟» يعني كيف سيأخذ؟ حسنة واحدة ويقول: سامحتك في الباقي؟ حسنتين، عفوتُ عنك في الباقي؟ ثلاثة؟ «فَمَا ظَنُّكُم؟» الجواب علىٰ هٰذا واضح من كل أحد.

[المتن]

وَقَالَ- عَلَيْهِ الصَّـلاةُ وَالسَّـلامُ-: «أربعةٌ يُبْغِضُـهُمُ اللهُ: الْبَيَّاعُ الْحَلاَّفُ، والفقيرُ الْمُخْتَالُ، والشـيخُ الزاني، والإمامُ الجائرُ»أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ وَإِسْنَادُهُ صَحِيْحٌ.

[الشرح]

ثم أورد-رحمه الله- هذا الحديث؛ ذِكر أربعة يُبغضهم الله؛ «الْبَيَّاعُ الْحَلاَّفُ» يعني الذي ينفق سلعه بالحلف والأيمان؛ «والفقيرُ الْمُخْتَالُ» بمعنىٰ ما سبق «العائل المستكبر»؛ «والشيخُ الزاني» هٰذا هو موضع الشاهد من الحديث؛ «والإمامُ الجائرُ».

[المتن]

وَأَعْظَمُ الزِّنَا الزِّنَا بِالأُمِّ وَالأُخْتِ وَامْرَأَةِ الأَبِ وَبِالمَحَارِمِ، وَقَدْ صَــحَّحَ الحَاكِمُ وَالعُهْدَةُ عَلَيْهِ: «مَنْ وَقَعَ عَلَىٰ ذَاتِ مَحْرَمٍ فَاقْتُلُوهُ)).

[الشرح]

ثم ذكر المصنف -رحمه الله- قال: (وَأَعْظَمُ الزِّنَا الزِّنَا بِالأُمِّ وَالأُخْتِ وَامْرَأَةِ الأَبِ وَبِالمَحَارِمِ عُمُومًا) وهٰذا أيضا توضيح للعنوان السابق أن الزنا بعضه أشد من بعض؛ فذكر هنا أنّ أعظمه (الزنا بالأم) أو الأخت أو امرأة الأب أو بالمحارم. ثم ساق دليلا، فقال: (وَقَدْ صَحَّحَ الحَاكِمُ وَالعُهْدَةُ عَلَيْهِ: «مَنْ وَقَعَ عَلَىٰ ذَاتِ مَحْرَمٍ فَاقْتُلُوهُ»). هنا الذهبي -رحمة الله عليه- قال: (وَالعُهْدَةُ عَلَيْهِ)؛ لكن في تلخيصه للمستدرك الحاكم تعقبه بقوله: "قلت: لا" يعني لما قال الحاكم: "صحيح" قال الذهبي في المستدرك -وهو كثيرا ما يتعقّب إما بتأييد أو بردّ-: "قلتُ: لا" يعني لا يصح هٰذا الحديث؛ وهنا جعل العُهدة عليه وهناك استدرك. مثل هٰذه اللفتات قد يستفيد منها البعض في معرفة أي الكتابين متأخرًا عن الآخر، كتاب الكبائر أو تلخيص الذهبي -رحمه الله- للمستدرك.

[المتن]

وَفِي البَابِ أَحَادِيثٌ، مِنْهَا حَدِيْثُ البَرَاءِ، أَنَّ خَالَهُ بَعَثَهُ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَىٰ رَجُلٍ عَرَّسَ بِامْرَأَةِ أَبِيْهِ أَنْ يَقْتُلَهُ وَيُخَمِّسَ مَالَهُ.

[الشرح]

ثم أورد هذا الحديث وهو الصحيح، وهو يُغني عن الحديث السابق، أن (النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَىٰ رَجُلٍ عَرَّسَ بِامْرَأَةِ أَبِيْهِ) -أي: مارس معها هٰذا العمل- (عَرَّسَ بِامْرَأَةِ أَبِيْهِ أَنْ يَقْتُلَهُ)؛ وقد يكون عرّس بها يعني (نكحها)؛ فقال: (أَنْ يَقْتُلَهُ وَيُخَمِّسَ مَالَهُ). وذكر أهل العلم في هٰذا -الذي هو من عرّس بامرأة أبيه أو بذات المحرم- أنه يُقتل ولا يُفرّق في هٰذا بين المحصن وغير المحصن؛ ولا يُفرق أيضا بين ما هو زنا أو نكاح؛ يعني مارس هٰذا العمل سواءً بعقد نكاح أو مارس هٰذا العمل زنا أو كان الممارس محصنا أو كان بكرا؛ كلهم الحكم فيهم القتل.

ونقف هنا، والله تعالىٰ أعلم، وصلّىٰ الله وسلّم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

برنامج
دراسة الحديث
(المستوى الثاني)
@ahadeethahkam2

المستوى الثاني/الكتاب الخامس

شرح

كتاب الكبائر

للعلامة شمس الدين الذهبي رحمه الله

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

حفظه الله تعالىٰ

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

من الدرس (١١) إلىٰ االدرس (١٣)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد ألَّا إلٰـه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد،

[المتن]

الكَبِيرَةُ الْثَّالِثَةُ عَشْرَة

الإِمَامُ الغَاشُّ لِرَعِيَتِهِ، الظَّالِمُ، الجَبَّارُ

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَىٰ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الشورىٰ:٤٢].

[الشرح]

ذكر -رحمه الله- هـٰذه الكبيرة: (الإِمَامُ الغَاشُّ لِرَعِيَتِهِ، الظَّالِمُ، الجَبَّارُ.)

أي الظالم للرعية، الجائر في معاملاته وأحكامه و (الجور) هو التعدّي؛ فهـٰذا من الكبائر، والأصل في الحاكم أن ينصح للرعيّة وأن يرفُق بهم، وأن يسعىٰ في مصالحهم، وأن لا يكون غاشّا لهم، أو ظالما، أو خائنا أو جائرا؛ فإذا كان بهذه الصفة، كان مرتكبا لكبيرة عظيمة وحوب كبير. ويزداد إثمه بازدياد المضار والأخطار التي تترتب أو ينالها الرعيّة بسبب ظلمه وجوره؛ فكلما ازداد الظلم والجور زادت العقوبة عليه عند الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– وسيأتي في الأدلة التي ساقها المصنف -رحمه الله- ما يُبيّن خطورة هذا الأمر.

والإمام الغاشّ لرعيّته الظالم لهم يتناول هـٰذا الإمامة العظمىٰ والولاية العظمىٰ، وأيضا يتناول الولايات الصغرىٰ؛ «مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ شَيْئًا» كما سيأتي، «وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَتِهِ». فحتىٰ الولايات الصغرىٰ، يعني ولاية الرجل في بيته علىٰ أولاده؛ والمدير في إدارته ونحو ذلك. أيضا إذا كانت المعاملة له في هـٰذه الولاية بالغش فهو عرضة للوعيد، وسيأتي في النصوص ما يبين ذلك.

قال: (قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَىٰ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الشورىٰ:٤٢].)

يعني هٰذا الظلم الذي توعّد الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- فاعله بالعذاب الأليم والبغي هو لمن بيده ولاية أنكل ممن ليس بيده ولاية؛ قد يكون الإنسان يريد أن يبغي؛ لكن ما بيده سلطة فلا يتمكن؛ لكن من بيده السلطة إذا صار فيه صفة البغي والظلم والعدوان يترتّب علىٰ ذلك الأخطار العظيمة والأضرار الكبيرة في المجتمع الذي هو والٍ عليه.

[المتن]

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[المائدة:٧٩].

[الشرح]

قال: (وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[المائدة:٧٩].)، التناهي عن المنكر مطلوب من كلّ أحد، ويتأكّد في حق الوالي؛ لأنّ الوالي هو الذي بيده السّلطة، سواءً الوالي في الولاية العامّة أو الوالي الذي هو علىٰ أهله وولده في بيته، فبيده السّلطة وبيده التغيير، فإذا كان الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- يقول: ﴿كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾، فهٰذه الآية يؤخذ منها معنىٰ واضح في خطورة الأمر علىٰ الوالي سواء الولاية العامّة، أو غيرها من الولايات إذا لم يكن ناصحا لهم في هٰذا الباب الذي هو باب حماية المجتمع من المنكرات.

[المتن]

وقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُوْلٌ عَنْ رَعِيَتِهِ...».

[الشرح]

ذكر المصنّف -رحمه الله- هذا الحديث في المقدّمة حتىٰ لا يقول قائل: هٰذا لا يعنينا، هٰذه الترجمة لا تعنينا وهٰذه الأحاديث لا تعنينا، هذه خاصّة بالوالي ولا تعنينا، وأنا لست الوالي ولست الحاكم، الحاكم هو فلان فلا يعنيني هٰذا الباب، وربّما إذا وصل إليه يفتح الصفحات التي فيها الأحاديث في هٰذا الباب ويقرأ التي بعدها، يقول: "هٰذا ليس فيه شيء يخصّني أو يتعلّق بي"، فبدأ المصنّف بهذا الحديث وذكره في أوائل الكلام علىٰ هٰذه الكبيرة حتىٰ يتنبّه كلّ من يقرأه، يقال له: انتبه، لا يقع في نفسك الكلام في هذا المعنىٰ، وتقول: أنا خارج من هٰذا الموضوع، ولست الوالي ولست أنا الحاكم، فإن النّبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُوْلٌ عَنْ رَعِيَتِهِ»، ثمّ بيّن ذلك، وقال: «**الوالد راع وهو مسؤول عن رعيّته والأمّ راعية ومسؤولة عن بيت زوجها**»، فبيّن ذلك -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-، فدلّ ذلك علىٰ أنّ

النصوص الواردة في الباب كما أنها تتناول الولاية العامّة فهي أيضا تتناول الولاية الخاصّة؛ ولاية الرّجل لبيته، ولاية المرأة لشؤون بيت زوجها، ولاية المدير في إدارته، الأستاذ مع طلاّبه، إلىٰ غير ذلك من الأمور التي فيها ولايات، فمن كان عنده ولاية ولو في جزء يسير فكان غاشّا، كان ظالما، كان جائرا، كان معتديا، فيشمله أو يكون له حقّ من الوعيد.

فبَدْء المصنّف -رحمه الله- في هٰذا بهذا الحديث هذه لفتة مهمّة وتنبيه لمن يقرأ، عليه أن يتنبّه، ولا يقول أنّ هٰذه الأمور لا تعنينا.

[المتن]

وَقَالَ – عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا».

[الشرح]

(وَقَالَ – عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا».)، وهٰذا أيضا ما تعرف به الكبيرة علىٰ ما سبق بيانه، الكبيرة تعرف بأمور منها قول النّبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَيْسَ مِنَّا» كما في هٰذا الحديث: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»، وكما سيأتي لاحقا: «ليس منّا من لطم الخدود، وشقّ الجيوب ودعا بدعوىٰ الجاهليّة»، فهٰذا مما يُرىٰ به أنّ الأمر كبيرة، وقوله: «لَيْسَ مِنَّا» أي أهل الإيمان التّام الواجب، فليس المراد هنا بـ«لَيْسَ مِنَّا» نفي أصل الإيمان علىٰ ما تذهب إليه الخوارج، وليس أيضا المراد علىٰ ما تقول المرجئة ليس من خيارنا وأماثلنا، فقوله: «لَيْسَ مِنَّا» أي ليس من أهل الإيمان الواجب الذي يكون لصاحبه الوعد والسّلامة من الوعيد، والنّجاة من الوعيد، فليس منّا من كان بهذه الصّفة، قال: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»، وغشّ النّاس يتناول خداعهم، والتّدليس عليهم، والتلبيس، والاحتيال، والمكر بهم، وترويج البضائع الفاسدة أو الكاسدة، أو مخادعتهم، إلىٰ غير ذلك، هٰذا كلّه من الغشّ الذي قال النّبي -صلّىٰ الله عليه وسلّم- عن فاعله أنّه «لَيْسَ مِنَّا».

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ».

[الشرح]

(وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ».) أي ظلمات علىٰ صاحبه، وهٰذا فيه خطورة الظّلم، وخطورة عمل الظّالم إذا لقي الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- يوم القيامة بظلمه، سيكون ظلمه

ظلمات يوم القيامة.

[المتن]

وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: «أَيُّمَا رَاعٍ غَشَّ رَعِيَّتَهُ فَهُوَ فِي النَّارِ».

[الشرح]

«أَيُّمَا رَاعٍ» يتناول كلّ راع علىٰ العموم الذي مرّ معنا «كُلُّكُمْ رَاعٍ»، قال: «أَيُّمَا رَاعٍ» وهنا نتنبه أنّه ليس مراد الحديث الولاية العامّة كما قد يُظنّ أو كما يظنّ بعض النّاس، فإذا نظرت في التّعميم هنا «أَيُّمَا رَاعٍ» ونظرت في لفظ الحديث السّابق «كُلُّكُمْ رَاعٍ» فالأمر واضح، فهذا يشمل كلّ أحد «أَيُّمَا رَاعٍ غَشَّ رَعِيَّتَهُ فَهُوَ فِي النَّارِ»، وهٰذا من الدّلائل علىٰ أنّ الغشّ؛ غش الرّعية كبيرة من الكبائر عقوبة فاعله النّار.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنِ اسْتَرْعَاهُ اللهُ رَعِيَّةً ثُمَّ لَمْ يُحِطْهَا بِنُصْحِهِ إلاَّ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ».

وَفِي لَفْظٍ: «يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إلاَّ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ» مُتَفَقٌ عَلَيْهِ.

وَفِي لَفْظٍ: «لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ».

[الشرح]

ثمّ ذكر هٰذا الحديث وفيه الوعيد الشّديد للراعي الذي لم يحط رعيّته بنصحه أو عامل رعيّته بالغش لها، فذكر الوعيد الشّديد: «إلاَّ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ»، وفي لفظ: «لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ»، هٰذا وعيد شديد ودليل علىٰ أنّ هٰذا من كبائر الذّنوب وعظائمها، وفي هٰذا الحديث وغيره من أحاديثه استدلّ الشّيخ "ابن العثيمين" -رحمة الله عليه- في بعض فتاويه علىٰ خطورة من يجلب لأولاده في البيت أدوات الفساد، من القنوات الهابطة، والمجلاّت الخليعة، والأمور التي تهيّئ للفساد، هٰذا من الغشّ لولده، هٰذا من الغشّ لهم، فهو علىٰ خطر عظيم، يُخشىٰ عليه من هٰذا الوعيد الوارد في هٰذا الحديث؛ لأنّه غش أولاده، وإذا جلب لهم هذه الوسائل التي هي وسائل فساد أفسدهم وجنىٰ عليهم، حتّىٰ وإن قال: لم أُرِد أن يفسدوا، جئت بها لم أرد أن يفسدوا، يكون واقعه كما قيل:

أَلقَاهُ فِي اليمِّ مَكتوفًا وَقالَ لهُ	إِيّاكَ إِيَّاكَ أن تَبتلَّ بالماءِ

ما يمكن يضعه أمام وسائل الفساد وفي الوقت نفسه يقول أريد له السّلامة!، وكثير منهم رأىٰ فساد ولده وندم؛ ولكنّه لم ينفعه ندمه؛ لأنّه دخل بيته دخولا واسعا وعريضا في الفساد؛ بل بعض أبناء المسلمين لم يكن ما طاله من هٰذه القنوات فساد أخلاقي؛ بل ارتقىٰ الأمر إلىٰ بعضهم إلىٰ فساد ديني وانحراف عقدي،

ودخول في شكوك في الإيمان، وأيضا الدّخول في ممارسات شركيّة وكفريّة من السّحر والحظوظ وأشياء روّج لها أهل الباطل وأدرجوها وأدخلوها علىٰ أبناء المسلمين من خلال القنوات الفضائيّة، السّحر يروّج له بشكل واسع، والمراصد السحريّة يروّج لها بشكل واسع، وأيضا الدعوات إلىٰ الأديان الباطلة والمذاهب المنحلّة يُروّج لها بشكل واسع، ولم تصبح القضيّة قضيّة شهوات؛ بل دخل علىٰ كثير ممّن يشاهدون هذه القنوات، دخل عليهم في عقائدهم شكوك وشبهات وأوهام، وبعضهم فعلا دخل في بعض العقائد الباطلة، فمن الغشّ من الرّاعي الذي هو الأب في بيته أن يجلب لولده وبنيه ما يكون به فساده‍م، والله -عزّ وجل- ائتمنه علىٰ ولده وأمره أن يقيه من النّار: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا قُوا أنفُسَكم وأهلِيكُم نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ والحِجارةُ﴾[التحريم:٦].

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ إلاَّ يُؤْتَىٰ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مَغْلُولَةً يَدُهُ إِلَىٰ عُنُقِهِ، أطْلَقَهُ عَدْلُهُ أَوْ أَوْثَقَهُ جَوْرُهُ»[1].

[الشرح]

هٰــذا فيه أنّ الأمير ولو كان علىٰ عدد قليل علىٰ خطأ، وأنّه «يُؤْتَىٰ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مَغْلُولةً يَدُهُ إِلَىٰ عُنُقِهِ، أَطْلَقَهُ عَدْلُهُ أَوْ أَوْبَقَهُ جَوْرُهُ))، إمّا أن يكون عادلا فيطلقه عدله، ويكون بهذا العمل ناجيا من العقوبة، أو يوثقه جوره أي ظلمه وتعدّيه.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «اللَّهُم مَنْ وَلِيَ مِنْ أمْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ شَيْئًا فَرَفَقَ بِهَا فَارْفُقْ بِهِ، وَمَنْ شَقَّ عَلَيْهَا فَاشْقُقْ عَلَيْهِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

وهذه دعوة من النّبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لمن وَلِيَ من أمر الأمّة شيء، ومن يَلُون من أمر الأمّة علىٰ قسمين:

- قسمٌ: يرفقون بمن وَلُوا عليهم.
- وقسمٌ: يشقون عليهم.

[1] في النسخة: ((أوْ أَوْبَقَهُ جَوْرُهُ)).

فالنبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- دعا بهذه الدّعوة: «مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ شَيْئًا فَرَفَقَ بِهَا فَارْفُقْ بِهِ، وَمَنْ شقَّ عَلَيْهَا فَاشْقُقْ عَلَيْهِ»، فالمحسن الرّفيق جزاؤه الإحسان والرّفق، والمسيء الذي يُلحق بالأمّة المشقّة جزاؤه العقوبة وأن يشقّ الله - تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- عليه جزاء وفاقا.

[المتن]

وَقَالَ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: «سَيَكُونُ أُمَرَاءُ فَسَقَةٌ جَورَةٌ، فَمَنْ صَدَّقَهُمْ فِي كَذِبِهِمْ وَأعَانَهُمْ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّيْ وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَنْ يَرِدَ عَلَيَّ الحَوْضَ».

[الشرح]

ثمّ أورد هٰذا الحديث الذي فيه قال النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنّه سيكون أمراء يَلُون من أمر المسلمين شيئا، ووصفهم بأنّهم «فَسَقَةٌ جَوَرَةٌ»، فسقة في أعمالهم، وجورة في أحكامهم ومعاملاتهم للنّاس، قال: «فَمَنْ صَدَّقَهُمْ فِي كَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّيْ وَلَسْتُ مِنْهُ»، «فَلَيْسَ مِنِّيْ وَلَسْتُ مِنْهُ»؛ يعني الذي يصدّق هؤلاء ويكون عونا لهم علىٰ الظّلم مؤيّدا لهم علىٰ الظّلم مساندا لهم علىٰ الظّلم أو مصدّقا لهم في هٰذا الظّلم فحكمه حكم هؤلاء، فهم أهل غش، ومن صدّقهم وأيّدهم علىٰ هذا فهو مثلهم، هناك قال: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»، وهنا قال: من صدّقهم وأعانهم علىٰ ظلمهم، قال: «لَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ»، والقول في معنىٰ: «لَيْسَ مِنِّي» هو كما سبق بيانه في حديث «من غشّنا فليس منّا»، «وَلَنْ يَرِدَ عَلَيَّ الحَوْضَ»؛ لأنّه ثبت أنّه يُذاد أقوام عن الحوض ويقال: إنّك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك.

[المتن]

وَقَالَ- عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: «مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيْهِمْ بِالمَعَاصِي هُمْ أَغَشُّ وَأَكْفَرُ مِمَنْ يَعْمَلُهُ، ثُمَّ لَمْ يُغَيرُوا إلاَّ عَمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ».

[الشرح]

ثمّ أورد -رحمه الله- قول النّبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيْهِمْ بِالمَعَاصِي هُمْ أَغَشُّ وَأَكْفَرُ مِمَنْ يَعْمَلُهُ، ثُمَّ لَمْ يُغَيرُوا إلاَّ عَمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ»، و«عِقَاب» نكرة، فتدل علىٰ خطورته، ولم يعيَّن العقاب، فهٰذا أيضا فيه الدلالة علىٰ خطورته وكبره، لم يقل: فعقابهم كذا أو عقابهم ..لم يحدد مما يدل علىٰ عظم هٰذه العقوبة .

و«مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيْهِمْ بِالمَعَاصِي» المجتمع الذي تُعمل فيه المعاصي -علىٰ ضوء الحديث- لا

يخلو من حالتين:

١- إما حالة قوة لأهل الاستقامة وأهل الدين.

٢- وحالة ثانية يكون لهم ضعف.

فـ «**مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيْهِمْ بِالمَعَاصِي هُمْ أَغَشُّ وَأَكْفَرُ مِمَنْ يَعْمَلُهُ، ثُمَّ لَمْ يُغَيرُوا إلاَّ عَمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ**» إذا لم يغيروا.

ثم هنا قضية التغيير يُنظر فيها علىٰ ضوء الطرائق المشروعة والأعمال المسنونة، ولا يصح أن يأتي آتٍ ويدخل من خلال أمثال هٰـذه العمومات بأعمال منكرة بحجة أنّه يريد أن يغير المنكر، وقد قيل قديما: "ليكن أمرك بالمعروف بالمعروف ولا يكن تغييرك للمنكر بالمنكر" وإنما يغيَّر المنكر بالمعروف، فالتغيير ليس كيفما أراد الإنسان، وإنما يغير بالوسائل المشروعة، وهنا يخطئ كثير ويضل أقوام تأخذه الحمية والغيرة وإرادة تغيير المنكر فيسلك مسالك غير مشروعة. أحيانا تحت مسمّىٰ تغيير المنكر تراق دماء بريئة وتُتلف أموال محترمة ويُتعدىٰ ويحصل جور علىٰ المسلمين باسم تغيير المنكر، فهٰـذا لا يُعدُّ تغييرا وإنما هذا إجراما وفعلا منكرا، هو بنفسه من الأمور المنكرة التي جاء الإسلام بتحريمها والنهي عنها.

فإذاً قوله: (**لَمْ يُغَيرُوا**) التغيير مطلوب، ويكون التغيير بالوسائل المشروعة، والنبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «**من رأىٰ منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**» والتغيير باليد فيما للإنسان فيه عليه ولاية أو له فيه سلطة.

[المتن]

وَرَوَىٰ أَبُو عُبَيْدَةَ بن عَبْدِاللهِ بنِ مَسْعُودٍ، عَنْ أَبِيْهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَونَّ عَنِ المُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَىٰ يَدِ المُسِيءِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَىٰ الحَقِ أَطْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، ثُمَّ يَلْعَنُكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ -أيْ بَنِيْ إِسْرَائِيْلَ- عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيْسَىٰ ابنِ مَرْيَمَ».

[الشرح]

ثم أورد المصنف -رحمه الله- هذا الحديث العظيم في التأكيد علىٰ هٰذه الشعيرة المباركة، شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويصدّر النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تأكيده علىٰ هٰذه الشعيرة

بالقسم بالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-، قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوِنَّ عَنِ المُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَىٰ يَدِ المُسِيءِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَىٰ الحَقِ أَطْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، ثُمَّ يَلْعَنُكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ» أَيْ بَنِيْ إِسْرَائِيْلَ) الذين كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه.

[المتن]

وَعَنْ أغْلَبِ بنِ تَمِيْمٍ، حَدَّثَنَا المُعَلَّىٰ بنِ زِيَادٍ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بنِ قُرَّةَ، عَنْ مَعْقِلِ بنِ يَسَارٍ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-قَالَ: «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي لَنْ تَنَالَهُم شَفَاعَتِي: سُلْطَانٌ ظَلُومٌ غَشُومٌ، وَغَالٍ فِي الدِّيْنِ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ وَيَتبرَأُ مِنْهُم».

(أَغْلَبُ) ضَعِيْفٌ، وَقَدْ رَوَاهُ ابنُ المُبَارَكِ فَقَالَ: حَدَّثَنَا مَنِيعُ، حَدَّثَنِي مُعَاوِيَةُ ابنُ قُرَّةَ بِنَحْوِهِ، وَمَنِيعُ لاَ يَدْرِيْ مَنْ هُوَ؟!.

[الشرح]

ثم أورد -رحمه الله- هٰذا الحديث، والشيخ الألباني أورده في الصحيحة في (٤٧٠) كما هو في الهامش. قال : «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي لَنْ تَنَالَهُم شَفَاعَتِي» وذكر: «سُلْطَانٌ ظَلُومٌ غَشُومٌ، وَغَالٍ فِي الدِّيْنِ»، والسلطان الظلوم الغشوم هٰذا هو الشاهد هنا لهذه الكبيرة، أن السلطان الظلوم الغشوم في تعامله أو معاملته للرعية مرتكب لكبيرة، ولا تناله شفاعة النبي الكريم - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-. و«وَغَالٍ فِي الدِّيْنِ» كلٌ من هذين لا تنالهم الشفاعة: السلطان الظلوم الغشوم والغالي في الدين. نلاحظ هنا ملاحظة حقيقة مفيدة جدا من خلال هذا الحديث: أن الغالي في الدين ودخل في باب الغلو أصبح مع الوالي في رتبة واحدة، هو وإياه لا تنالهم الشفاعة، وقد يكون غلوا في الدين تجاوز في باب ما ينبغي أن يكون عليه المسلم في تعامله مع المؤمنين ومع جماعة المسلمين ومع وحدة صف المسلمين، فكون غلوّه في الدين إذا أراد به تغييرا لحال الأمة فأصبح هو والوالي الظلوم الغشوم، كلٌ منهما لا تناله الشفاعة، لا تناله شفاعة النبي الكريم - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-، «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي لَنْ تَنَالَهُم شَفَاعَتِي».

والحديث فيه دلالة علىٰ أن شفاعة النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تُنال بالأعمال الصالحة، قال رجل للنبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أسألك مرافقتك في الجنة، قال: «أعني علىٰ نفسك بكثرة السجود» فلابد من الأعمال الصالحة، ولابد أيضا من ترك الأعمال المحرمة، ونبينا - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- نهانا عن المحرمات وأمرنا بالفرائض والواجبات، فهذا السبيل لنيل الشفاعة؛ ولهذا جاء في الحديث الذي في

البخاري عن أبي هريرة أن النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ذكر الغلول يومًا وعظّم أمره وقال في خطبة عظيمة: «لا يأتين أحدكم يوم القيامة وعلىٰ رقبته شاة لها ثغاء، فيقول: يا رسول الله أغثني! فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغت. لا يأتين أحدكم يوم القيامة وعلىٰ رقبته بعير له غوار، فيقول: يا رسول الله أغثني! فأقول له: لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك. لا يأتين أحدكم يوم القيامة وعلىٰ رقبته فرس له حمحمة، فيقول: يا رسول الله أغثني! أقول: لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك. لا يأتين أحدكم يوم القيامة وعلىٰ رقبته رِقاع تخفُق)) الرقاع هٰذه هي مظالم للناس وحقوق وتعديات يحملها علىٰ رقبته يوم القيامة «يقول: يا رسول الله أغثني! فأقول: لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك. لا يأتين أحدكم يوم القيامة وعلىٰ رقبته صامت» العرب يقسمون المال إلىٰ قسمين: صامت وناطق، الصامت مثل الذهب والفضة والناطق مثل البقر والغنم والإبل ونحوها «لا يأتين أحدكم وعلىٰ رقبته صامت» يعني أموال من الذهب والفضة أخذها، فيأتي بها يحملها يوم القيامة علىٰ رقبته، ولو كانت الملايين يأتي بها علىٰ رقبته يحملها «فيقول: يا رسول الله أغثني! فأقول: قد أبلغتك».

فهذا يدل علىٰ أن الظلم ما تنفع فيه ولا ينال صاحبه الشفاعة «لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك»

قال: «سُلْطَانٌ ظَلُومٌ غَشُومٌ، وَغَالٍ فِي الدِّيْنِ».

ثم ذكر من صفة هٰذا الغالي في الدين أنه ماذا؟ قال: «يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ وَيَتبرَأُ مِنْهُم» أي المؤمنين، أي هٰذه صفته وهٰذه نحلته وهٰذه طريقته؛ ولهذا السّلف قالوا -كما في شرح الإبانة لابن بطة العكبري وغيرها من كتب السلف- قالوا: "الشهادة بدعة والبراءة بدعة" ومرادهم بالشهادة مثل ما جاء هنا في الحديث: الشهادة علىٰ أهل الإيمان بالكفر والبراءة من أهل الإيمان، يتبرأ منهم ويشهد عليهم، وتكون مهمته الشهادة والبراءة: أشهد علىٰ هٰذا بأنه كذا وأبرأ من...، لكن عمل ونصح وسعي في الخيرية في الأمة ونفع المسلمين لا يعتني بذلك، وإنما جالس في مكانه أو مع رفقائه ويشهد علىٰ هذا ويتبرأ من ذاك، أما إصلاح ونصح ودلالة علىٰ الخير هٰذا كله مجانب له؛ بل إنه لا يزال في هذه الطريقة حتىٰ ينفك عن جماعة المسلمين ويصبح شاذا خارجا علىٰ جماعة المسلمين منفصلا عنهم، يشهد عليهم بالكفر ويتبرأ منهم، فينفصل عن الجماعة ويشذ عن الجماعة، ويد الله علىٰ الجماعة، والمطلوب من المسلم أن يكون مع جماعة المسلمين مصلحا ناصحا ساعيا لهم بالخير، لا أن ينفك عنهم وتكون مهمته الشهادة عليهم والبراءة منهم، ولهذا قال السلف: "الشهادة بدعة والبراءة بدعة"؛ لأن هذا عُرف في المبتدعة ولاسيما

الخوارج ومن هم علىٰ شاكلتهم، ليس لهم همّ إلا الشهادة والبراءة، وهٰــذا هو المعنىٰ المراد هنا، قال: «يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ وَيَتبرَأُ مِنْهُم».

[المتن]

وَقَالَ مُحَمَّدُ بنُ جُحَادَةَ، عَنْ عَطِيَّةَ، عَنْ أَبِي سَعِيْدٍ الخُدْرِيِّ مَرْفُوعًا: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ إِمَامٌ جَائِرٌ»

[الشرح]

أورد هٰذا الحديث وفيه عقوبة الإمام الجائر عند الله -جلّ وعلا-، والحديث في إسناده ضعف علىٰ ما هو مبيّن في الهامش.

[المتن]

وَعَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ! مُرُوا بِالمَعْرُوفِ وَانْهَوا عَنِ المُنْكَرِ قَبْلَ أَنْ تَدْعُوا اللهَ فَلاَ يَسْتَجِيْبُ لَكُمْ، وَقَبْلَ أَنْ تَسْتَغْفِرُوا اللهَ فَلاَ يَغْفِرَ لَكُمْ، إِنَّ الأَحْبَارَ مِنَ اليَهُودِ وَالرُّهْبَانَ مِنَ النَّصَارَىٰ لَمَّا تَرَكُوا الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ لَعَنَهُمُ اللهُ عَلَىٰ لِسَانِ أَنْبِيائِهِمْ ثُمَّ عَمَّهُمُ بِالبَلاَءِ».

[الشرح]

أورد هذا الحديث وفيه خطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما يترتب عليه من الأضرار، وقد سبق أن مرّ معنا، ورد في الباب أحاديث كثيرة جدا، وهذا الحديث أورده الهيثمي في المجمع وقال: "فيه من لم أعرفهم".

[المتن]

وَقَالَ- عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ».

[الشرح]

ثم أورد هذا الحديث وهو قاعدة من قواعد الدين (قَالَ- عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ».) وأورده هنا في "الإمام الجائر والظالم والغشوم" لأن هٰــذا الأمر بحكم الولاية قد يعمّ المجتمع كله، بخلاف من ليس واليا إذا أحدث حدثا قد يكون حدثا يخص نفســه، أو يخص من حوله ممن يقبلون دعوته، أما الوالي إذا كان الحدث في الدين منه ضــرره علىٰ المجتمع كله، ولهذا قال أبو هريرة عندما ذكر بيان حال القلب من البدن قال: "القلب مَلِك، فإذا طاب الملِك طاب الجند، وإذا

فسد الملِك فسد الجند" فالحدث من الوالي له خبر واسع وعريض جدا علىٰ عموم الرعية إلا من رحم الله؛ ولهذا أورد المصنف لهذه النكتة هذا الحديث هنا «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ».

[المتن]

وَقَالَ: «مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا أَوْ آوَىٰ مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لاَ يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلاَ عَدْلاً».

[الشرح]

أي لا يقبل الله منه فريضة ولا نفلا، وهٰذا فيه خطورة الحدث في الدين من كلّ أحد، وهو من الوالي ، أو من بيده السلطة أشدّ؛ لأن الأضرار التي تترتّب علىٰ الحدث من مثله أخطر وأشنع.

[المتن]

وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: «مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ».

وَقَالَ: «لاَ يَرْحَمُ اللهُ مَنْ لاَ يَرْحَمُ النَّاسَ».

[الشرح]

(وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: «مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ»). أيضا أورد هذا الحديث؛ لأن من بيده ولاية وسلطة علىٰ الناس، قدرة علىٰ الحكم بالسلطة والولاية، قدرة علىٰ الظلم، وقدرة علىٰ التعدي، فَسَاقَ هٰذه النصوص تأكيدا علىٰ لزوم مراعاة من بيده ولاية للرحمة، ورعاية الرحمة لمن هم تحت سلطته، فأخبر النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن «مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ»، وأنه «لاَ يَرْحَمُ اللهُ مَنْ لاَ يَرْحَمُ النَّاسَ»، فمن لا يرحم لا يرحمه الله، من لا يرحم الناس لا يرحمه الله؛ بل أورد المصنف هٰذا؛ لأن من بيده السلطة، بيده القدرة علىٰ الظلم، فيتأكد في حقه ملاحظة الرحمة وملاحظة أيضا قدرة الله عليه، وأنه إذا عامل الرّعية بغير الرّحمة فمعنىٰ ذلك أنه جلب لنفسه سخط الله -عزّ وجلّ-.

[المتن]

وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: «مَا مِنْ أَمِيرٍ، يَلِيْ أُمُورَ المُسْلِمِيْنَ ثُمَّ لاَ يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ لَهُمْ إلاَّ لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الجَنَّةَ».

[الشرح]

ثم أورد هٰذا الحديث وفيه عظم مسؤولية الوالي بأن يجهد النصيحة للرعية وتحقيق ما فيه الخير

والسعادة والإيمان والاستقامة والصلاح وحفظ الدين والأسباب التي بها حفظ الدين والدنيا، فإذا لم يجهد ولم ينصح لم يدخل معهم الجنة.

[المتن]

وَعَنْهُ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «مَنْ وَلاَّهُ اللهُ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ المُسْلِمِينَ فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمُ وَخَلَّتِهِمُ وَفَقْرِهِمُ احْتَجَبَ اللهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقْرِهِ يومَ القِيَامَةِ»رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ.

[الشرح]

وهٰذا فيه أن الجزاء من جنس العمل، إذا كان وَلِيَ مصالح المسلمين ولكنه احتجب عنهم، ولا يمكن لهم أن يجدوا طريقا للوصول إلىٰ مصالحهم لاحتجابه عنهم: احتجاب إما بنفسه أو بعدم وضع نوّاب عنه، وهناك ينوبون عنه في النظر في مصالح الرّعية، فمحتجبا عنهم وعن تحقيق مصالحهم و سدّ خَلاّتِهم، فهذا علىٰ خطر عظيم، علىٰ خطر عظيم، والجزاء من جنس العمل، قال - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: «احْتَجَبَ اللهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقْرِهِ يومَ القِيَامَةِ».

[المتن]

وَقَالَ- عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلاَمُ -: «الإِمَامُ العَادِلُ يُظِلُّهُ اللهُ فِي ظِلِّهِ».

[الشرح]

ذكر هٰذا الحديث في فضل العدل، كما أن الأحاديث التي مرّت في خطورة الجور، فذكر هٰذا الحديث في فضل العدل، و المصنف- رحمه الله - أخذه في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وذكر منهم الإمام العادل.

[المتن]

وقال -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «الْمُقْسِطُونَ عَلَىٰ مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا».

[الشرح]

قوله المقسطون بيّنها في الحديث، أي: «الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»، هذا هو المقسط، يعني العادل، الذي يحكم بالعدل ويسوُسُ رعيته بالعدل، فمن كان بهذه الصفة يظله الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلا ظله كما في الحديث السابق، ويكون يوم القيامة علىٰ منابر من نور.

[المتن]

وقال -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «شِرَارَ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! أَفَلاَ نُنَابِذُهُم؟ قَالَ: «لاَ، مَا أَقَامُوا فِيْكُمُ الصَّلاَةَ» رَوَاهُمَا مَسْلِمُ.

[الشرح]

(رواهما مسلم) أي هٰذا الحديث والذي قبله، الذي هو «الْمُقْسِطُونَ عَلَىٰ مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ».

وقال -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «شِرَارَ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»، «شِرَارَ» هٰذه صفة لـ«أَئِمَّتِكُمُ» وهم من يكون رعيته يبغضونه وهو يبغضهم ويلعنونه ويلعنهم، يعني فيه التنافر والتباغض وعدم رضا وعدم الوئام بينه وبينهم، والأصل في الراعي والرعية أن يكونوا علىٰ قلب واحد، بينهم المحبة وبينهم المودة، ولكنه مُيِّزَ عليهم بالسياسة في أمرهم؛ لأن أمر الناس لا يصلحُ إلا بإمام، فإذا كان الإمام بلغ مبلغا في الشر والسوء، وُجِدَ التنافر بينه وبين الرعية.

قال: «تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»، وهٰذا إخبار لما يقع، إخبار بالذي يقع عندما يبلغ الإمام هٰذا المبلغ في الشر، وليس دعوة من النبي - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- للّعن، ليس دعوة للّعن، وتَوَجُّهْ للّعن، وإنما هٰذا إخبار بالذي يقع؛ لأنه يحدث بينه وبين الرعية التنافر والتباغض والتعادي والتهارج و التّساب، وليس دعوة للّعن، وإلا المطلوب هو الدعاء، الدعاء بالهداية بالصلاح.

والسُّنة مضت عند عامة أهل السنة بأن يُدعىٰ للوالي ولا يدعىٰ عليه، يُدعىٰ له أي الصلاح والاستقامة والهداية والرشاد.

حتىٰ في زمن الإمام أحمد - رحمه الله- والفضيل، قال: "لو كانت لي دعوة صالحة لجعلتها للإمام"، هٰذا من كمال الفقه، لأن صلاح الإمام صلاح للرعية، قال: "لو كانت لي دعوة مستجابة " يعني دعوة واحدة مستجابة،لم أجعلها لنفسي، جعلتها للسلطان، هٰذا قاله الفضيل بن عياض. علّق علىٰ هذا عبد الله بن المبارك قال: "لم يقدر علىٰ هٰذا إلا مثله"، يعني هذا، ما يقدر علىٰ هذا إلا من عنده فقه كبير جدًا، أما كلّ أحد، أو ضعيف الفقه فرأسا يتجه إلىٰ خاصة نفسه، لكن الفقيه والذي ينظر لمصالح المسلمين، له أن يخص بدعوة مستجابة يجعلها لمن فيه صلاح المجتمع كلّه.

و قوله : «لاَ»، عندما سألوه: (أَفَلاَ نُنَابِذُهُم؟)، قال: «لاَ، مَا أَقَامُوا فِيْكُمُ الصَّلاَةَ»، بعض الأحاديث: «ما

لم تروا كفرًا بواحًا»، إذا جمعنا بين هٰذا وهٰذا نعرف أيضا قدر الصلاة ومكانتها في الإسلام.

قال: «لاَ، مَا أَقَامُوا فِيْكُمُ الصَّلاَةَ»؛ أي ما كانوا في هٰـذه الحال لا ينابذون بالسيف، ولا يخرج عليهم بالسيف، ولا تنزع اليد من الطاعة.

ثم أيضـا لو رأىٰ الناس الكفر البواح ولم يُقِمْ الولاة الصلاة، لا يجوز الخروج عليهم إذا كان يترتّب علىٰ الخروج مفسدة، أو مفاسد عظيمة بإراقة دماء المسلمين و انتهاك أعراضهم والتعدي علىٰ حرماتهم واختلال أمنهم، وذهاب طمأنينتهم، إذا كان يترتب عليه مفاسـد؛ ليس المطلوب جلب المفاسـد، المطلوب جلب المصالح.

فحتىٰ لو رأىٰ الناس الكفر البواح الذي فيه عندهم من الله برهان، لا يجوز لهم الخروج، إذا كان الخروج مفسدة ظاهرة ومفسدة راجحة، لا يجوز؛ لأن هٰـذا ضرر علىٰ المسلمين، وشرّ ووبال، ولا يترتب عليه مصالح لهم.

[المتن]

وَقَالَ- عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلاَمُ -: «إِنَّ اللّهَ لَيُمْلي لِلظَّالِم، حَتَّىٰ إذا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وكَذلكَ أَخْذُ ربِّكَ إذَا أَخَذَ الْقُرىٰ وَهِي ظالمِةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَليمٌ شَديدٌ﴾[هود:١٠٢] »مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

ثم أورد -رحمه الله- هٰـذا الحديث في أنّ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- «يُمْلي لِلظَّالِم»، يعني يمهله؛ لكن لا يهمله، لا يتركه، يملي له بإبقائه، ويبقىٰ علىٰ ظلمه وقتا؛ لكن لا يتركه، وإذا أخذه أخذه بغتة، و تلا - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ -: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

[المتن]

وَقَالَ- عَلَيْهِ الصَّـلاةُ وَالسَّـلاَمُ - لِمُعَاذٍ لَمَّا بَعَثَهُ إِلَىٰ اليَمَنِ: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فِإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

ثم أورد هٰـذا الحديث للتحذير من الظلم من الولاّة، وفيه أنّ النبي - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- لما بعث معاذًا إلىٰ اليمن قال له: «وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ» يعني لا تظلم أحدًا، وبيّن أن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، أي أنها دعوة مستجابة لا ترد.

[المتن]

وقال –عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: «إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

(وقال –عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: «إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.) أظن أنها مضبوطة بالفتح وهي بكسر الرّاء.

الحطمة من الرجال هو: العنيف في سَوْقِ الإبِلْ، العنيف في سَوْقِ الإبل يقال له: الحطمة، يعني يسوقها بعنف وشدّة، فمن كان عنيفا في سوق الإبل، يسوقها بشدة يقال له: حطمة.

وضُرِبت هٰذه مثلا، أو جُعِلت مثلا للوالي الظالم الذي يَسُوسُ رعيته بالظّلمِ والجَوْر والتعدي فهو يُقال عنه: حطمة.

قال: «إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ»؛ يعني الولاة ومن بيدهم الرعاية «الْحُطَمَةُ»، يعني الذين يسوقون الناس مساق الشدّة وعدم الرفق والمشقة، بالشدّة والمشقة وعدم الرفق.

وهٰذا الحديث له قصة، والحديث في صحيح مسلم من حديث عائد بن عَمْرو وكان من أصحاب رسول الله –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، أنه دخل علىٰ عبيد الله بن زياد وكان واليًا فقال: أيْ بُنَيْ. عائد يقول لعبيد الله ، يقول لهذا الوالي أو لهذا الأمير، يقول له: أيْ بُنَيْ. لاحظ التّلطف في المخاطبة، قال: "أيْ بُنَيْ ، إنّي سمعتُ رسول الله –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: «إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ» فإيّاك أن تكون منهم"، وهٰذه نصيحة جميلة، تكلّم مع الأمير وقال: إيّاك أن تكون من هؤلاء. فقال: اِجلِسْ؛ يعني قال هٰذا الأمير الذي هو عبيد الله لعائد –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، قال له: اِجلِسْ ، فإنّما أنت من نُخَّالة أصحاب محمد –عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-. (النُّخَّالة) الحُثالة، وعادة النخالة تُرمىٰ ولا يُعبأ بها، فقال له: إنما أنت من نُخَّالة أصحاب محمد؛ يعني كأنه يقول له: ومن تكون؟ وماذا تكون؟ وهٰذا فيه دليل علىٰ أنه تضجّر وتململ من هٰذا الحديث الذي ساقه، والْمَقَام يقتضي أن يقول: جزاك الله خير علىٰ هٰذا الحديث الذي أخبرتني به، ورَجَوْتَ أن لا أكون من أهله.

فقال: اجلس، إنّما أنت من نُخالة أصحاب محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال عائد كلمة جميلة جدّا: وهل كانت لهم نُخالة؟ يعني أصحاب محمد عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ هل كانت لهم نُخالة؟ إنّما النُّقالة كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم، أصحاب محمد ليس فيهم النُخالة كلهم عدول، كلهم عدول، وكلهم

مشهود لهم بالفضل والخيرية، زكّاهم الله في القرآن وزكّاهم النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ في السنّة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران:١١٠]، «خير الناس قرني» وأحاديث هٰذا الباب كثيرة، قال: ما فيهم نخالة، النخالة بعدهم، وهٰـذا فيها أيضا فائدة في مكانة الصحابة وأيضا في خطورة الوقيعة في الصحابة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم- أو النيل منهم أو من بعضهم، فالصحابة عدول كلهم وليس فيهم نقالة، و النقالة هي إنّما كانت بعدهم.

[المتن]

وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلاَمُ-: «ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِمُهُمُ اللهُ...» فَذَكَرَ مِنْهُمُ «المَلِكُ الكَذَّابُ».

[الشرح]

ثمّ أورد -رحمه الله- هٰـذا الحديث والحديث تكرّر معنا واقتصر هنا علىٰ الشاهد فقال: «المَلِكُ الكَذَّابُ»، يعني من الثلاثة الذين لا يكلّمهم الله: الملك الكذاب، سبق أن مرّ بنا هٰـذا الحديث «العائل المستكبر والشيخ الزاني»، الشيخ الزاني ليس فيه ما يهيّجه للزنا، والعائل المستكبر ليس فيه أيضا ما يهيّجه للاستكبار، وإنّما الذي أوقعه الفساد الذي فيه، وهنا «المَلِكُ الكَذَّابُ» عادة الذي يوقعه في الكذب مقامه الضعيف، عادة الذي يدفع للكذب المقام الضعيف حتىٰ يبرر نفسه، هل فعلت كذا؟ يعني الذي فوقه في السلطة يقول له: هل فعلت كذا؟ فيخاف وهو في مقام ضعف فيقول: لا، لم أفعل، فيدفع للكذب، غالبا يدفع للكذب الضعف أو التخلص من مواقف معيّنة ونحو ذلك؛ لكن الملك، الملك ما الذي يدفعه للكذب، هو الذي بيده السلطة، هو الذي بيده السلطة، الضعيف ربما يكذب حتىٰ يتخلص ممن هو أقوىٰ منه أو ممن هو فوقه أو من له سلطة عليه أو ممن له ولاية، فقالوا الكذب هذا الذي يدفع إليه، فإذا كان الملك يكذب أو الوالي أو السلطان يكذب، فليس هناك ما يدفع للكذب؛ لأنه هو الذي بيده السلطة، فيكون الكذب دليل علىٰ فساده، دليل علىٰ فساده، و لهذا يكون الأمر اشتد في حقه وعرفنا أنّ الكذب كبيرة وعظيمة من عظائم الذنوب؛ لكن أيضا يختلف حاله من حال إلىٰ حال ومن أمر إلىٰ أمر.

[المتن]

قَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص:٨٣].

[الشرح]

وهٰذا أيضا فيما يتعلق بأمر الولاة و أنّ الدار الآخرة أعدها الله تعالىٰ وجعلها ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أمّا إذا كان من شأن الوالي العلو في الأرض والفساد في الأرض، هٰذا لاحظ له في الدار الآخرة؛ لأنّ الله تعالىٰ جعلها ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾.

[المتن]

وقال النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَىٰ الإمَارَةِ، وسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ القِيَامَةِ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

[الشرح]

ثمّ هنا فيما يتعلق بالإمارة و أنّ الإنسان لا ينبغي أن يحرص عليها أو أن يطلبها وأن يبحث عنها وإذا ابتلي بها يصبر و ينصح ويسعىٰ في ما فيه نفع العباد و المسلمين.

قال: «إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَىٰ الإمَارَةِ، وسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ القِيَامَةِ» الندامة يوم القيامة ليست لكل من ولي؛ بل الإمام العادل يظله الله في ظله يوم لا ظلّ إلّا ظله، والمقسطون علىٰ منابر من نور، فليست ندامة لكل أحد، وإنّما هي ندامة علىٰ من عمل بالولاية علىٰ غير الحق و إنما عمله بالجور والظلم والتعدي، فمن كان كذلك فهي ندامة عليه.

[المتن]

وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: «إنَّا وَاللهِ لا نُوَلِّي هَذَا العَمَلَ أحَدًا سَأَلَهُ أوْ أحَدًا حَرِصَ عَلَيْهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

وفيه أنّ من يحرص عليه لا يكون أهلاً، لا يكون أهلاً ؛ يحرص عليه و يطلبه ويسأله ويطالب به، لا يكون أهلاً للولاية.

الآن في قضية الانتخابات في طلب الولاية تجد الإنسان يعني يضع شعارات واسعة جدا ودعوة به وأنا فلان وأنا الذي سأفعل وأنا الذي سأترك ولا تجدوا مثلي ويمدح نفسه، سآتي بما لم يأت به الأوائل وسترون مني ما..، يقوم بجهود كبيرة، مما يتناسب مع مثل هٰذا الحديث لأنّ الإنسان لا ينبغي له أن يحرص علىٰ هٰذا، و قد ينظر إلىٰ هذه المسألة بنظرة أخرىٰ من باب ما تعم به البلوىٰ، وقد يكون لبعض الناس اجتهادات يعني في هٰذا الباب؛ ولكن عموما حرص الإنسان وسعيه وطلبه وعرضه لنفسه هٰذا محل إشكال.

[المتن]

وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: «يَا كَعْبُ بنُ عُجْرَةَ! أَعَاذَكَ اللهُ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ، أُمَرَاءٌ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِيْ لاَ يَهْتَدُونَ بِهَدْيِي، وَلاَ يَسْتَنُّونَ بِسُنَتِي» صَحَحَهُ الحَاكِمُ.

[الشرح]

ثمّ ذكر -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- هٰذا الحديث فقال: «يَا كَعْبُ بنُ عُجْرَةَ! أَعَاذَكَ اللهُ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ، أُمَرَاءٌ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِيْ لاَ يَهْتَدُونَ بِهَدْيِي، وَلاَ يَسْتَنُّونَ بِسُنَتِي»، فإذن إمارة السفهاء صفتها أنّ أهلها لا يهتدون بهدي النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ولا يستنّون بسنته.

[المتن]

وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-:«ثَلاَثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٍ لاَشَكَّ فِيْهِنَّ: دَعْوَةُ المَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ المُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الوَالِدِ عَلَىٰ وَلَدِهِ» سَنَدُهُ قَوِيٌّ.

[الشرح]

ثمّ أورد -رحمه الله- هٰذا الحديث؛ بل ختم به فيما يتعلق بكبيرة الوالي الظالم منبها لخطورة الظلم، وأنّ المظلوم دعوته مستجابة ولا ترد.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ

شُرْبُ الْخَمْرِ وَإِن لَّمْ يَسْكَرْ مِنْهُ

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ...﴾ الآية [البقرة:٢١٩].

[الشرح]

أورد -رحمه الله- هٰذه الكبيرة كبيرة شرب الخمر، قال: (وَإِن لَّمْ يَسْكَرْ) وهٰذا تنبيه جميل من المصنف -رحمه الله-، (شُرْبُ الْخَمْرِ وَإِن لَّمْ يَسْكَرْ مِنْهُ)، يعني وإن شرب منه قليلا لم يصل به إلىٰ حد الإسكار فشُربه له كبيرة، «**وما أسكر كثيره فقليله حرام**»، حتىٰ وإن لم يسكر؛حتىٰ وإن لم يصل إلىٰ درجة الإسكار ما شرب منه فهو يعد كبيرة من الكبائر، أورد قول الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ

﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ...﴾ وهٰذا فيه تنصيص علىٰ عظم إثم من يشرب الخمر وكبر ذنبه.

[المتن]

وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة:٩٠-٩١].

وَثَبَتَ عَن ابْنِ عَبَّاس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُما- قَالَ: لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ مَشَىٰ الصَّحَابَةُ بَعْضُهُم إِلَىٰ بَعْضٍ وَقَالُوا: حُرِّمَت الْخَمْرُ وَجُعِلَتْ عَدْلًا لِلشِّرْكِ.

[الشرح]

أورد المصنف -رحمه الله- قول الله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ وهٰذه الآية هي التي نزلت بتحريم الخمر والأمر باجتنابه قال: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ مثل ما قال: «اجتنبوا السّبع الموبقات» ومثل ما قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾[النساء:٣١]، فأمر باجتنابها، وهو أبلغ من الأمر بالترك كما سبق، الأمر بالاجتناب أبلغ من الأمر بالتّرك، يعني كونه في منأىٰ وفي بعد عنه، فهٰذه الآية التي نزلت بتحريم الخمر.

أنظروا إلىٰ حكم الصحابة لما نزلت هٰذه الآية، لمّا نزلت الآية يقول ابن عباس: (مَشَىٰ الصَّحَابَةُ بَعْضُهُم إِلَىٰ بَعْضٍ) يعني يتناقلون هٰذا الخبر و يقول بعضهم لبعض: (حُرِّمَت الْخَمْرُ وَجُعِلَتْ عِدْلًا لِلشِّرْكِ)، لماذا؟ لأنّ الآية التي نزل فيها تحريم الخمر ذُكر الخمر مع الشرك؛ الأنصاب وهي الأصنام التي تعبد من دون الله، فالخمر ذُكر معه، وهم يعرفون خطر الشرك وشدّة ضرره فقالوا: (جُعِلَتْ عِدْلًا لِلشِّرْكِ).

حقيقة هنا فقه عظيم للصحابة ينبغي أن تستفيد منه ليس في هٰذا الموضع؛ بل في كل موضع عندما يأتيك الذنب قد ذُكر مع الشرك، الشّرك هو أعظم الذّنوب فلما يذكر أمر مع الشرك في مقام النهي أو الشناعة أو العقوبة، لمّا يذكر أمر مع الشرك يدل علىٰ خطورة هٰذا الذنب.

فإذاً من فقه الصحابة هنا قولهم: (جُعِلَتْ عِدْلًا لِلشِّرْكِ) هٰذا من حكمهم وهو مأخوذ من الحديث.

وسيأتي معنا في تمام التّرجمة قول النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- «مُدْمِنُ الْخَمْرِ إِنْ مَاتَ لَقِيَ اللهَ كَعَابِدِ وَثَنٍ» وسيأتي الكلام علىٰ معناه في حينه.

[المتن]

وَذَهَبَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمر إِلَىٰ أَنَّ الْخَمْرَ أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ.

[الشرح]

(وَذَهَبَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمْر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُما- إِلَىٰ أَنَّ الْخَمْرَ أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ)، قوله: (أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ) يعني ما كان من هٰـذا الباب، لا يعني مثلا أنه مثلا أكبر من الشرك أو نحو ذلك وإنّما يعني ما كان من هٰـذا الباب، فالخمر أكبر الكبائر لماذا؟ لأنها أم الخبائث، لأنها أم الخبائث، ومعنىٰ أنها أم الخبائث أنها تجمع لصاحبها الخبائث إذا تعاطىٰ الخمر؛ لأنه بتعاطي الخمر يذهب عنه عقله الذي أعطاه إياه، وقد جاء عن عثمان بن عفان -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- في توضيح معنىٰ الحديث «**أن الخمر أم الخبائث**» أن رجلا عرضت عليه ثلاثة أشياء: أن يقتل نفسا بغير حق، أو أن يزني بمحارمه، أو أن يشرب قليلا من الخمر، فقال: بل الخمر أخف، فلمّا شرب ذهب عقله وفعل تلك الأشياء وزاد عليها؛ فالخمر أم الخبائث لأنه يجمع الخبائث وتتحقق في متعاطيه الخبائث؛ لأنه [باع] عقله بشربه للخمر.

[المتن]

وَهِيَ بِلَا رَيْبٍ أُمُّ الْخَبَائِثِ، وَقَدْ لُعِنَ شَارِبُهَا فِي غَيْرِ مَا حَدِيثٍ.

[الشرح]

قال: (وَهِيَ بِلَا رَيْبٍ أُمُّ الْخَبَائِثِ، وَقَدْ لُعِنَ شَارِبُهَا فِي غَيْرِ مَا حَدِيثٍ.)، فقد جاء عن النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه لعن في الخمر عشرة جاء في مقدمتهم شاربها.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فَاجْلِدُوهُ، فَإِنْ عَادَ فَاجْلِدُوهُ، فَإِنْ شَرِبَهَا فَاجْلِدُوهُ، فَإِنْ شَرِبَهَا الرَّابِعَة فَاقْتُلُوهُ». صَحِيحٌ.

[الشرح]

ثمّ ذكر حدّ شارب الخمر في الدنيا، و هو أنه يُجلد، وكنّا قد عرفنا فيما سبق أنّ من علامات الكبيرة أو ما تُعرف به الكبيرة الحد في الدنيا أو الوعيد في الآخرة.

[المتن]

وَعَنْ عَمْرُو بِنِ الْحَارِثَ، حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ شُعَيْب عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنُ عَمْرُو، عَنْ رَسُولِ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ سُكْرًا مَرَّةً وَاحِدَةً فَكَأَنَّمَا كَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا فَسُلِبَهَا،

وَمَنْ تَرَكَ الصَّــلَاةَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ سُــكْرًا كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ أَنْ يَسْـقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ» قِيلَ: يَا رَسُــولَ اللهِ! وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ؟ قَالَ: «عُصَارَةُ أَهْلِ جَهَنَّمَ». سَنَدُهُ صَحِيحٌ.

[الشرح]

ثمّ أورد -رحمه الله- هــٰذا الحديث في خطورة شرب الخمر وما يترتب عليه من أضرار، ومن أضرار شرب الخمر الاستهانة بالصلاة بسبب شربه وتعاطيه، وهنا في العقوبة قال: ((مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ سُكْرًا مَرَّةً وَاحِدَةً فَكَأَنَّمَا كَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا فَسُلِبَهَا، وَمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ سُكْرًا)) يعني بسبب السكر ((كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ))، ما هي طينة الخبال؟ سأل الصحابة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم- رسول الله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فقال: «عُصَارَةُ أَهْلِ جَهَنَّمَ» يعني صديدهم وقيحهم وما يخرج من نتن لهم؛ بحرق النار وصليّ النار لهم، فتارك الصلاة أربع مرات بشربه الخمر كان حقا علىٰ الله أن يسقيه عصارة أهل النار، ومن تاب تاب الله عليه.

[المتن]

وَعَنْ جَابِر، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «إِنَّ عَلَىٰ اللهِ عَهْدًا لِمَنْ يَشْرَبُ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ» قِيلَ: وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ؟ قَالَ: «عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ» أَوْ قَالَ: «عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ». خرَّجَهُ مُسْلِمٌ..

[الشرح]

ثم أورد هــٰذا الحديث في عقوبة شارب المسكر يوم القيامة أن يسقيه من طينة الخبال، وفي عامة النصوص الجزاء من جنس العمل، ولو تتبّعون خاصة في مثل هــٰذا الكتاب ذكر الكبائر، ذكر عقوبات الكبائر، عامة الذنوب تجد الجزاء من جنس العمل، آكل الربا: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[النساء:١٠]، شارب الخمر: يشرب من طينة الخبال، فتجد في النصوص كبيرا العقوبة من جنس العمل كما قال الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾[النبأ:٢٦].

[المتن]

وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا حُرِمَهَا فِي الْآخِرَةِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

وهــٰذه من جنس ما سبق، الجزاء من جنس العمل، فمن شرب الخمر فيحرم شربها في الآخرة، وفي الجنة خمر ﴿لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾[محمد:١٥]، كما أخبر الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-، فمن شرب الخمر في الدنيا

حُرِمَها في الآخرة.

[المتن]

وَعَنْهُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قَالَ: «مُدْمِنُ الْخَمْرِ إِنْ مَاتَ وَلَمْ يَتُبْ لَقِيَ اللهَ كَعَابِدِ وَثَنٍ». رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ.

[الشرح]

ثمّ أورد هٰــذا الحديث، قال: «مُدْمِنُ الْخَمْرِ إِنْ مَاتَ وَلَمْ يَتُبْ لَقِيَ اللهَ كَعَابِدِ وَثَنٍ»، وعابد الوثن مشرك كافر بالله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ–، وشرب الخمر ليس كفراً، ولهذا قال بعض العلماء في هٰــذا الحديث: يشبه أن يكون معنىٰ هٰـــذا الحديث «مُدْمِنُ الْخَمْرِ إِنْ مَاتَ» يعني مدمن الخمر مستحلاًّ له و مات علىٰ ذلك، يعني مدمنا له مستحلاًّ لشربه لقي الله كعابد الوثن؛ لأنه استوىٰ هو والكافر في الكفر، لأنه استوىٰ هو و إياه في الكفر، لقي الله كعابد الوثن لأنه استحلّ ما حرم الله، أمّا إذا كان يشرب الخمر ومعتقد الحرمة فهٰذا من عصاة الموحدين وليس من الكفّار.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ الْخَامِسَةُ عَشْرَةَ

الْكِبْرُ وَالْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ وَالْعُجْبُ والْتِّيهُ

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[غافر:٢٧].

[الشرح]

ثمّ ذكر -رحمه الله- هٰـذه الكبيرة، كبيرة (الْكِبْرُ وَالْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ وَالْعُجْبُ والْتِّيهُ)، وكلها تدور حول معاني متقاربة: الكبر والفخر والخيلاء والتعالي والترفع والتيه والعجب بالنفس ونحو ذلك، كلها تدور حول معنىٰ واحد.

وهٰـــذه الكبيرة من أشـنع الكبائر وأفظعها، لأنّ العبد يتعالىٰ بنفسـه ويترفّع ويرىٰ أنه أرفع من الناس وأعلىٰ من الناس وأميز منهم؛ و لهٰذا له من العقوبة ما ليس لغيره كما سيأتي في النصوص.

بدأ أولاً بقول الله -عزّ و جلّ-: ﴿وَقَالَ مُوسَــىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ

﴿الْحِسَابِ﴾[غافر:٢٧]، وهٰــذا فيه أن الكبر يرتقي بصاحبه إلىٰ جحد الحقائق وغمط الناس وبطر الحق، إضافة إلىٰ ما فيه من التعالي والترفع.

وفي الآية أن الإنسان يتعوّذ بالله من الكبر و يتعوّذ بالله من المتكبّرين.

[المتن]

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[النحل:٢٣].

[الشرح]

وهٰذا فيه أن المستكبر يبغضه الله ولا يحبه.

[المتن]

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾[غافر:٥٦].

[الشرح]

ثمّ أورد هٰــذه الآية، و فيها أيضا خطورة الكبر علىٰ صاحبه و أن من خطورته المجادلة بآيات الله بغير سـلطان، ويكون الباعث علىٰ هٰـــذه المجادلة الكبر الذي في صـدر الإنسـان، فالكبر خطره عظيم علىٰ صــاحبه، ومن خطورته أنه يردّ الحق ولا يقبله، ويجادل بغير علم كبْرا، لما قام في قلبه من الكبر، قال: ﴿فَاسْتَعِذْ بِالله﴾[1].

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

وهٰذا يدل علىٰ خطورة الكبر وعقوبة المتكبرين، أن من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر لا يدخل الجنة.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ – صَــلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ-: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي بَرْدَيْهِ إِذْ خَسَــفَ اللهُ بِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

[الشرح]

---

[1] وأيضا موجودة في السور التالية: الأعراف الآية (٢٠٠)، النحل الآية (٩٨)، فصلت الآية (٣٦).

هٰــــذه عقوبة له من جنس عمله، هو تعالىٰ فوضعه الله، خسف به الأرض «فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا» يتقلب فيها إلىٰ يوم القيامة، ويتردىٰ فيها إلىٰ يوم القيامة.

[المتن]

وَقَالَ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «يُحْشَرُ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ، يَطَؤُهُمُ النَّاسُ»

[الشرح]

وهٰذا جزاء من جنس العمل، يعني هم تكبّروا و تعالوا فوضعهم الله، ويؤتىٰ بهم يوم القيامة أمثال الذّر يطؤهم الناس بأقدامهم.

[المتن]

وَقَالَ بَعْضُ السَّــلَفِ: أَوَّلُ ذَنبٍ عُصِــيَ اللهُ بِهِ الْكِبْرُ، قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْــجُدُواْ لآدَمَ فَسَــجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْــتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة:٣٤]. فَمَن اسْــتَكْبَرَ عَلَىٰ الْحَقِّ كَمَا فَعَلَ إِبْلِيسُ لَمْ يَنْفَعْهُ إِيمَانُهُ.

[الشرح]

ثمّ ذكر بعض قول بعض الســلف أن أول ذنب عُصــي به الله الكِبر، وأورد الدليل علىٰ ذلك قوله – سُــبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ–: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْــجُدُوا لِآدَمَ فَسَــجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْــتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة:٣٤]، أول ذنب عُصي الله به الاستكبار، والاستكبار ترتَّب عليه الامتناع من السجود، أمره الله –تعالىٰ– بالسجود فامتنع للكبر الذي قام في نفسه، فأوّل ذنب عصي الله –تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ– به هو الكبر، فمن تكبّر شابه إبليس.

[المتن]

وَعَن النَّبِيِّ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: «الْكِبْرُ سفهُ الْحَقِّ وَغَمْصُ النَّاسِ» وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ».

[الشرح]

وهٰــذا أمارة الكبر وعلامته مبيّنة في هٰــذا الحديث، «الْكِبْرُ سفهُ الْحَقِّ وَغَمْصُ النَّاسِ»، أو «الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ» كما في اللفظ الثاني، فهٰــذه علامة الكبر إذا وُجِدت، هٰــذا دليل علىٰ الكبر، أن يقابل الحق بالسفه وأيضا يغمط الناس حقوقهم، فإذا كان بهٰــذه الصفة فهٰــذا متكبّر، ولهٰــذا مرّ معنا أولا ﴿إِنَّ

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾[غافر:٥٦]، فهٰذا كلّه مما يُورثه الكبر.

أيضا إبليس الكبر الذي قام في نفسه جعله يأبىٰ السجود كما أمره الله –جلّ و علا.

[المتن]

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[لقمان:١٨].

[الشرح]

ثمّ أورد هٰذه الآية وفيها أن المختال والفخور لا يحبهما الله –تعالىٰ–، المختال في مشيته، الاختيال في المشـي، يمشـي متبخترا مختالا يرىٰ نفسه أزيد من غيره، وهو الفخور بكلامه، فالاختيال في الفعل، والفخر بالكلام والقول.

[المتن]

وَقَالَ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «يَقُولُ اللهُ تَعَالىٰ: الْعَظَمَةُ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي فَمَن نَّازَعَنِي فِيهِمَا أَلْقَيتُهُ فِي النَّارِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ. الْمُنَازَعَةُ: الْمُجَاذَبَةُ.

[الشرح]

ثمّ أورد هٰذا الحديث في خطورة التكبر والتعالي والترفع علىٰ الناس، أن الله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– يقول: «الْعَظَمَةُ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي» والمعنىٰ أن العظمة بمثابة الإزار والكبرياء بمثابة الرداء، يعني بمنزلته، فصفة الله هنا هي العظمة و الكبرياء، فقوله: «الْعَظَمَةُ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي» أي هما بمثابة بمنزلة الإزار والرداء، مثل هٰـذا قول النبي –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– في الحديث: «الأنصار دثار والناس شعار»، فالدثار هو الذي يلي البدن من اللباس وهو أقرب، فالأنصـار بمنزلته، والدثار هو اللباس الذي يكون فوقه، وعموم الناس بمنزلته، فإذاً قول: «الأنصـار دثار والناس شـعار» هٰـذا المراد به أنه بمنزلة الشعار بمنزلة "الدِّثَار" وهٰذا معنىٰ معروف في اللّغة.

الصفة هنا العظمة والكبرياء، ابن تيمية –رحمه الله– استنبط من هٰذا الحديث استنباطا لطيفا أُشير إليه عندما تحدث عن التكبير الوارد في الصـلاة وأنّ افتتاحها التكبير، قال: "ولا يغني عنه لفظ آخر حتىٰ ولو كان بمعناه أو بما يقاربه"؛ بمعنىٰ لو أنّ قائلاً قال: الله أعظم لا يحصل افتتاح للصّلاة بذلك، وهو تحدّث عن هٰذا الموضـوع وأطال، قال: "والتكبير شـأنه أعظم من التعظيم"، التكبير فعلا أعظم من التعظيم،

وأورد هٰذا الحديث مُستدلًّا به قال: «الْعَظَمَةُ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي»، قال: "الرداء أعلىٰ من الإزار"، والرداء أعلىٰ، و هٰذه لفتة لطيفة جدّاً في الاستنباط في هٰذا الموضوع، موضوع المفاضلة.

[المتن]

وَقَالَ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «اخْتَصَمَتْ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ إِلَىٰ رَبِّهِمَا، فَقَالَت الْجَنَّةُ: يَا رَبِّ، مَا لِي لَا يدْخُلنِي إِلَّا ضُعفَاءِ النَّاسِ وَسُقَّاطُهُمْ، وَقَالَت النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْجَبَّارِينَ وَالْمُتكَبِّرِينَ، فَقَالَ اللهُ تعالىٰ لِلْجَنَّةِ: إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي»، الْحَدِيثُ.

[الشرح]

قوله: «اخْتَصَمَتْ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ إِلَىٰ رَبِّهِمَا» هٰذا اختصام حقيقة، والجنة تكلمت حقيقةً قالت هٰذا الكلام: «يَا رَبِّ، مَا لِي يِدْخُلنِي ضُعفَاءِ النَّاسِ وَسُقَّاطُهُمْ»، وهٰذا قولٌ بلسان المقال لا بلسان الحال؛ بل هٰذا قول حقيقة تكلمت الجنة والنار أيضا تكل|مت قالت: «أُوثِرْتُ بِالْجَبَّارِينَ وَالْمُتكَبِّرِينَ»، هٰذا كلام حقيقي، والله علىٰ كل شيء قدير، إن الله علىٰ كل شيء قدير، والله -عز وجل- ينطقها و ينطق الجنة، والشواهد علىٰ ذلك في أدلة كثيرة جدّاً، ولا يصح أن يقال هٰذا كلام بلسان الحال؛ بمعنىٰ أنها لم تتكلم حقيقة ولكن حالها هو هٰذا، لا؛ هٰذا تأويل، فهي تكلّمت كما أخبر النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-، وفي القرآن السمٰوات والأرض قالتا: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[فصلت:١١]، وفي القرآن قال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء:٤٤]، والنّصوص في هٰذا المعنىٰ كثيرة.

الصحابة – رَضِيَ اللهُ عَنْهُم- سمعوا حصىٰ في يد النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: "سبحان الله، سبحان الله"، و النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- قال: «إني لا أعلم في مكة حجراً يُسلِّم علي إلا مررت عليه».

فهٰذا الكلام حقيقي بلسان المقال ليس بلسان الحال والله علىٰ كل شيء قدير، ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[يس:٦٥]، الرِّجْل تتكلم يوم القيامة واليد تتكلم، الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- علىٰ كل شيء قدير، فلا يصح أن يقال هٰذا الكلام بلسان الحال.

الشاهد من الحديث: قول النار: «أُوثِرْتُ بِالْجَبَّارِينَ وَالْمُتكَبِّرِينَ»، وفيه أن المتكبّر والجبار من أهل

النار الذين أُوثرت بهم النار وكانوا من أهلها.

وقوله في الحديث: «إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي»، قوله في الحديث للجنة: «إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي»، (الرحمة) هنا مصدر مضاف إلىٰ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-، مصدر مضاف إلىٰ الله، وقال بعض العلماء أن المصدر المضاف إلىٰ الله تارة يراد به الصفة وتارة يراد به أثرها وهٰذا يُعلم بالسياق، فإذا نظرت السياق هنا قول: "الرحمة" قول الله جلّ: «إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي» السياق يدل علىٰ أن هٰذا المصدر المضاف إلىٰ الله صفة أو أثر الصفة؟ أثر الصفة، بينما قوله: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ﴾[الروم:٥٠]، "الرحمة" هنا المضافة إلىٰ الله الصفة وليس الأثر.

[المتن]

وقال الله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص:٨٣].

[الشرح]

والآية هٰذه فيها أن الله -عز وجل- جعل الآخرة لمن ليسوا أهل كبر وأهل علو في الأرض وتَرفُّع علىٰ الناس، وسبق أن مرت معنا هٰذه الآية فيما يتعلق بالإمام الجائر.

[المتن]

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[لقمان:١٨]. أَيْ: لَا تَمِلْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ مُعْرِضًا مُستكْبِرًا. وَالْمَرَحُ: التَّبَخْتُرُ.

[الشرح]

ثمّ أورد هٰذه الآية، وقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تمله كما قال المصنف، وقيل أن أصل الكلمة من: "الصَّعر" وهو داء يصيب الإبل في رقابها ويؤذيها ويؤلمها فتميل رقبتها بسببه فتصبح تمشي وهي مائلة برأسها ورقبتها بسبب الصَّعَر الذي أصابها في رقبتها وآلمها فأصبحت الرقبة مائلة، يقال: إنّ هٰذا أصلها، فهنا قال: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لا تُميل خدّك للناس علىٰ وجه التكبر والتعالي، وعادةً المتكبر يُظهر لمن أمامه كِبْرَه بتصعير خده، يُصْعِر يعني يُظهر تكبره وتعاليه بإمالة خده لمن أمامه أو لمن يتكبر عليه.

والأمر الثاني: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي مختالا في مشيتك متعاليا ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ

فَخُورٍ﴾، الآية الأخرىٰ في سورة الإسراء قال: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾[الإسراء:٣٧]، وهٰذه لو تَفَكَّر فيها المختال المتكبِّر منعته من الكبر؛ لأنه مهما ترفعت وتعاليت فطول الجبال إلىٰ جنبك لن يبلغ طولك طول الجبال، فمهما تعاليت بجسمك وترفَّعْت لن يبلغ طولك طول الجبال، ولهٰذا جاءت السنة إذا صعد الإنسان عالٍ ورأىٰ نفسه رفيع ومرتفع وعال قد يدخل في نفسه شيء من الكبر فيُسَن له في هٰذا المقام أن يقول: الله أكبر حتىٰ ينطرد عنه الكبر وتتطامن نفسه، فمهما ترفَّع الإنسان فإنه لن تبلغ طوله طول الجبال، حتىٰ ولو كان أطول رجل في العالم ما يبلغ طوله طول الجبال، و﴿لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ﴾ يعني وإن مشيت متبخترا فمشيك لا يؤثر في الأرض، من تكون أنت؟!، فهٰذا بيان لحقارة المتكبر ووضاعته، وأنه لو تفكر في هٰذا المحيط الذي حوله، الأرض التي يمشي عليها والجبال التي جنبه هٰذا كافٍ في طرد الكبر عنه وحصول التواضع.

وفي هٰذا أيضا دعوة للتفكر، وهٰذا باب عظيم حقيقة في الذّل والتواضع لله والبُعد عن التكبّر، وأبين لكم هٰذا بشكل واضح: عندما يدخل إنسان في تفكّر في هٰذا الباب فينظر أولا كما في الآية: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾، ينظر في الأرض التي يمشي عليها وفي الجبال المحيطة به، وينظر لخلق نفسه مع خلقها، يجد أنه لا شيء بالنسبة للجبال والأرض التي هي محيطة به، وسِّع الدائرة وانظر لحالك مع الأرض كلّها وما فيها، ماذا تكون أنت؟!، وسّع الدائرة أكبر وانظر لحالك مع السمٰوات والأرض، وسّع الدائرة وتفكر في الكرسي الذي وسع السمٰوات والأرض، وسّع الدائرة وانظر إلىٰ العرش العظيم، الكرسي في العرش كحلقة في فلاة، تجد نفسك شيء صغير يَذهب عنك التكبّر، أنت شيء صغير جدّاً، ذرّة في ملك عظيم يجعلك تتواضع لله وتذل وتنكسر ويَذهب عنك رؤيتك لنفسك، ينطرد عن قلبك رؤيتك لنفسك وإعجابك بشخصك يذهب كله، ما أنت إلا ذرة صغيرة من ذرات خلقها ربّ العالمين وأوجدها، فتعرف من أنت! ولهذا المتكبر لم يعرف نفسه! لم يعرف نفسه، وإلا لو عرف نفسه وعرف ماذا يكون لما وقع فيه هٰذا الكبر.

[المتن]

وَقَالَ سَلمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ؛ أَكَلَ رَجُلٌ عِندَ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِشِمَالِهِ، فَقَالَ: «كُلْ بِيَمِينِكَ» قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ. مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ. قَالَ: «لَا اسْتَطَعْتَ». فَمَا رَفَعَهَا إِلَىٰ فِيهِ بَعْد. رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

وهٰذا فيه خطورة الكبر علىٰ الإنسان، المتكبر يعني من أخطر ما يكون عليه في كبره أنه يرد الحق، دائما بسبب الكبر الذي عنده يرد الحق، بينما إذا كان متواضعا تجد أنه إذا قيل له الحكم أو بيّن له الأمر يسمع ويقول لك أعرف ويُصغي ويلوم نفسه بسبب التواضع الذي عنده؛ لكنّ المتكبر نفسه متجهة دائما إلىٰ رد الحق ومنعه، وهٰذا أخطر ما يكون علىٰ المتكّبر وهو يجني عليه جناية بالغة، ولهٰذا لو عدنا نتفكّر في ذات الكبر من خلال النصوص التي وردت، مرّ معنا في الآية الذين يردون آيات الله قال الله: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾[غافر:٥٦]، وهنا فيه قضية سهلة غير مكلفة قال له النبي –صلىٰ الله عليه وسلم-: «كُلْ بِيَمِينِكَ» وهٰذه دعوة مباركة اليمين أنظف وأنقىٰ وأكمل وأحسن يعني دعوة إلىٰ خير؛ لكن لم يمنعه من القبول إلا الكبر، لم يمنعه من القبول إلا الكبر، قال: (مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ) فكانت العقوبة قال: «لَا اسْتَطَعْتَ» ولاحظ أن المتكبر الذي منعه كبره من قبول الحق يكون عنده المخاصمة والمجادلة بالباطل، المخاصمة والمجادلة بالباطل، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ﴾[غافر:٥٦]، فهنا الرجل قال له: («كُلْ بِيَمِينِكَ»، قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ)، وهو مستطيع، ليس المانع عدم الاستطاعة إنما المانع هو الكبر، فالواجب علىٰ المسلم أن يتلقىٰ الشريعة كلها بماذا؟ بانشراح صدر، ولو رد سنّة من السنن لا يردها إلا لشيء من الكبر ولو قليل في نفسه، وإلا لو طرد عنه الكبر وأصبح متواضعا قَبِل.

وأيضًا هنا نستفيد فائدة أن الإنسان لا يستهين بأمور السنن، فهٰذه قضية قد يراها بعض الناس قضية سهلة، وربما يقول بعضهم يعني إيش المشكلة الكبيرة لو أن الإنسان شرب بيساره؟!، فبعض الناس يستهين بها أو يستهين بالأمر.

ومن العادات الآن حقيقة انتشرت في الآونة الأخيرة شرب الماء علىٰ الطعام أو شرب العصير أو المشروبات الباردة علىٰ الطعام باليد اليسار، هٰذا كثير ما يحصل، الشرب باليد اليسار بحُجة أن اليد اليمين فيها طعام وممسكة بالطعام فتجد إذا جاء وقت الشرب يمسكن الماء بيساره ويشرب، وهو في نفسه يعني كأنه قال: أنا أريد أن أعمل أمر طيب أني لا أريد أن ألوث كأس الماء، والكأس سيُغسل سيُغسل؛ يعني علىٰ كل حال سيُغسل، فكثير من الناس يلاحظ، هٰذه الملاحظة انتشرت في الآونة الأخيرة عند الطعام الماء والعصير وهٰذه الأمور كلها باليسار وأيضا نوع الطعام الحديث (الساندوتش) في اليد اليمين وكأسة عصير حدث ولا حرج بالشرب باليسار، اليمين فيها (الساندوتش) واليسار فيها العصير، ويأكل بهٰذه ويشرب بهٰذه، هٰذا مُحرَّم، لا يجوز الأكل باليسار إلاّ لمن فعلا يده اليمين غير مستطيعة، لا

يكون أن يمنعه من عدم الأكل بها مانع آخر.

الحديث (لَا أَسْتَطِيعُ) يدلّ علىٰ أنّ غير المستطيع معذور، إذا كان غير مستطيعا فعلا فهو معذور، لكن هنا هـٰذا أمره آخر قال: (مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ)، إذًا لو كان فعلا الذي منعه عدم الاستطاعة معذور، لكن هـٰذا ليس الذي منعه عدم الاستطاعة، وإنما الذي منعه هو الكبر.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ: كُلِّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

ثمّ أورد قول النّبي -صلىٰ الله عليه وسلّم-: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ: كُلِّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ»، العتلّ: الغليظ الشّديد في كلّ شيء، والجوّاظ: هو المختال في مشيته وقيل الفاجر، والمستكبر: أي المتكبر، فهؤلاء أخبر النّبي - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنّهم من أهل النّار.

[المتن]

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ يُونُس الْيَمَامِي، حَدَّثنَا أَبِي، نَبَّأَنَا عِكْرِمَة بْنَ خَالِد، أَنَّهُ لَقِيَ ابْنَ عُمَرَ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ وَيَتَعَاظَمُ فِي نَفْسِهِ إِلَّا لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ» هٰذَا عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ.

[الشرح]

وهـٰذا فيه غضب الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- علىٰ المتعاظم المختال.

[المتن]

وَصَحَّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «أَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ: أَمِيرٌ مُتَسَلِّطٌ، وَغَنِيٌّ لَا يُؤَدِّي الزَّكَاةَ، وَفَقِيرٌ فَخُورٌ».

قُلْتُ: وَأَشَرُّ الْكِبْرِ مَنْ تَكَبَّرَ عَلَىٰ الْعِبَادِ بِعِلْمِهِ، وَتَعَاظَمَ فِي نَفْسِهِ بِفَضِيلَتِهِ، فَإِنَّ هٰذا لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ، فَإِنَّ مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِلْآخِرَةِ كَسَرَهُ عِلْمُهُ، وَخَشَعَ قَلْبُهُ، وَاسْتَكَانَتْ نَفْسُهُ، وَكَانَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِالْمِرْصَادِ، فَلَمْ يَفْتَرْ عَنْهَا؛ بَلْ يُحَاسِبْهَا كُلّ وَقْتٍ وَيُثَقِّفُهَا؛ فَإِنْ غَفَلَ عَنْهَا جَمَحَتْ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ وَأَهْلَكَتْهُ. وَمَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِلْفَخْرِ وَالرِّيَاسَةِ، وَنَظَرَ إِلَىٰ الْمُسْلِمِينَ شَزَرًا، وَتَحَامَقَ عَلَيْهِمْ، وَازْدَرَىٰ بِهِمْ؛ فَهٰذَا مِنْ أَكْبَرِ الْكِبْرِ، وَلَا يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ.

[الشرح]

ثم نبّه المصنّف في خاتمة هٰذا الكلام علىٰ هٰذه الكبيرة، علىٰ أن أشرَّ الكبر من تكبّر علىٰ العباد بعلمه، من تكبّر علىٰ العباد بعلمه، لأنّ العلم هو الذي يهدي ويدلّ إلىٰ التّواضع ويرشد إليه، فبالعلم يعرف قدر التّواضع وفضيلته، ومكانة التّواضع، فإذا كان الإنسان بالعلم الذي به يُعرف التّواضع وخطورة الكبر يتكبّر، هٰذا أشرُّ النّاس، هٰذا من أشرِّ النّاس.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ السَّادِسَةُ عَشْرَةَ

شَهَادَةُ الزُّورِ

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ الآية [الفرقان:٧٢].

[الشرح]

ثمّ ذكر -رحمه الله- الكبيرة السّادسة عشرة، وهي شهادة الزور، وهي الشهادة الجائرة التي يقتطع بها حقوق الناس ويعتدىٰ علىٰ أموالهم بغيا وظلما وعدوانا، فهٰذه من الكبائر أن يشهد الإنسان علىٰ زور.

(شهادة الزّور) أن يشهد الإنسان علىٰ زور أو علىٰ ظلم أو علىٰ جور.

وأورد أوّلا قول الله -عزّ وجل-: ﴿وَالذِينَ لاَ يَشهَدُونَ الزُّورَ﴾ في صفات عباد الرّحمٰن في سورة الفرقان.

[المتن]

وَفِي الْآثَارِ: عَدَلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ بِالْإِشْرَاكِ بِاللهِ.

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾[الحج:٣٠].

[الشرح]

وأيضا يشهد لهذا المعنىٰ الحديث الذي مرّ معنا «**ألا أنبّئكم بأكبر الكبائر؟**» قلنا: بلىٰ، قال: «**الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزّور**».

[المتن]

وَفِي الْحَدِيثِ الثّابت: «لَا تَزُولُ قَدَمَا شَاهِدِ الزُّورِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّىٰ تَجِبَ لَهُ النَّارُ».

[الشرح]

ثمّ أورد هٰــذا الحديث، أنّ شاهد الزّور يوم القيامة لا تزول قدماه، يعني لا يتحرّك حتّىٰ تجب له النّار لشهادته الزّور.

المصنّف قال: (وَفِي الْحَدِيثِ الثَّابت)، والمحقّق يقول أنّه موضوع؛ في سنده محمد بن الفُرات، كذّبه غير واحد، والمصنّف نفسه -رحمه الله- أدخله في ميزان الاعتدال وأورد له هٰذا الحديث هناك.

[المتن]

قُلْتُ: شَاهِدُ الزُّورِ قَدِ ارْتَكَبَ عَظَائِمَ:

أَحَدِهَا: الْكَذِب وَالْافْتِرَاء، وَاللهُ تَعَالىٰ يَقُولُ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْــرِفٌ كَذَّابٌ﴾[غافر:٢٨].

وَفِي الْحَدِيثِ: «يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ لَيْسَ الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ»

وَثَانِيهَا: أَنَّهُ ظَلَمَ الَّذِي شَهِدَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ أَخَذَ بِشَهَادَتِهِ مَالَهُ وَعِرْضَهُ وَرُوحَهُ.

وَثَالِثِهَا: أَنَّهُ ظَلَمَ الَّذِي شَهِدَ لَهُ؛ بِأَنْ سَاقَ إِلَيْهِ الْمَالَ الْحَرَامَ، فَأَخَذَهُ بِشَهَادَتِهِ وَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِن مَّالِ أَخِيهِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِن النَّارِ».

وَرَابِعُهَا: أَنَّهُ أَبَاحَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَعَصَمَهُ مِن الْمَالِ وَالدَّمِ وَالْعِرْضِ؛ قَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: مَالُهُ وَدَمُهُ وَعِرْضُهُ».

وَقَالَ النَّبِي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ اَلْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ». فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّىٰ قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

ثمّ أنهىٰ الكلام علىٰ شــهادة الزّور بذكر العظائم التي اجتمعت لشــاهد الزّور، وأنّه اجتمع فيه عدّة عظائم، ذكر أوّلها: الكذب والافتراء، لأنه شــهادة كذب وهو كاذب، وهذه عظيمه. والعظيمة الثّانية: أنّه ظلم الذي شـهد عليه، لأنّه أخذ من ماله بغير حقّ فظلمه بذلك. وأيضـا: ظلم الذي شـهد له لأنّه ساق له مالا لا حقّ له فيه، فسيق له هٰــذا المال بهذه الشّهادة الظّالمة. وأمر رابع: أنّه أباح ما حرّم الله وعصمه من المال والدّم والعرض، يعني بهذه الشّـهادة، وقد قال عليه الصّـلاة والسّـلام: «**كلّ المسلم علىٰ المسـلم حرام، دمه وماله وعرضه**»، فإذن شاهد الزّور مرتكب لعدّة عظائم.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ السَّابِعَةَ عَشَرة

اللِّوَاطُ

قَدْ قَصَّ اللهُ عَلَيْنَا قِصَّةَ قَوْمِ لُوْطٍ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ مِنْ القُرْآنِ العَزِيْزِ، وَأَنَّهُ أَهْلَكَهُمْ بِفِعْلِهِمُ الخَبِيْثِ.

وَأَجْمَعَ المُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ المِلَلِ أَنَّ التَّلَوُّطَ مِنَ الكَبَائِرِ.

قَالَ اللهُ-تَعَالَىٰ-: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾[الشعراء:١٦٥-١٦٦].

واللِّوَاطُ أَفْحَشُ مِنَ الزِّنَا وَأَقْبَحُ.

قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «اقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُوْلَ بِهِ»إِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

وَعَنْهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوْطٍ»إِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: "يُنْظَرُ إِلَىٰ أَعْلَىٰ بِنَاءٍ فِي القَرْيَةِ فَيُلْقَىٰ مِنْهُ، ثُمَّ يُتْبَعُ بِالْحِجَارَةِ.

وَيُرْوَىٰ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «سِحَاقُ النِّسَاءِ زِنًا بَيْنَهُنَّ» إِسْنَادُهُ لَيِّنٌ.

وَمَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ-رَحِمَهُ اللهُ-أَنَّ حَدَّ اللُّوْطِيِّ حَدُّ الزِّنَا سَوَاءً.

وَأَجْمَعَتِ الأُمَّةُ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ فَعَلَ بِمَمْلُوْكِهِ فَهُوَ لُوطِيٌّ مُجْرِمٌ.

[الشرح]

ثمّ ذكر هٰذه الكبيرة (كبيرة اللّواط)، وهي أن يفعل الإنسان عمل قوم لوط، ألا وهو إتيان الذّكران، إتيان الذّكران وهٰذا عمل قبيح مستقرّ في الفطر بُغضه وكرهه وشناعته، بل كما قال أهل العلم: حتّىٰ عند الحيوان البهيم يعدّ هٰذا الأمر أمرًا مشينا، حتّىٰ عند الحيوان البهيم، ولهذا لا يعرف أنَّ تيسا ينزو علىٰ تيس أو حمارا ينزو علىٰ حمار، هٰذا لا يعرف حتّىٰ عند الحيوان البهيم، ولكن إذا فسدت فطرة الإنسان وانتكس، فعل فعلا حتّىٰ الحيوان البهيم لا يفعله.

وذكر المصنف بعض النصوص فيمن يفعل هذه الجريمة، وذكر إجماع المسلمين وغيرهم من أهل الملل أن التلوط من الكبائر، وذكر قول الله -عزّ وجلّ- في وصفه لقوم لوط بأنهم ﴿قَوْمٌ عَادُونَ﴾[الشعراء:١٦٦] أي لحرمات الله -سبحانه وتعالىٰ- وحدوده، ونصّ -رحمه الله- علىٰ أن اللواط أفحش من الزنا وأقبح؛ ولهذا عقوبته الأخروية والدنيوية أعظم، ولهذا قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «اقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُوْلَ بِهِ».

وأورد الحديث الذي فيه لعن من عمل هٰذا العمل (عمل قوم لوط).

والعلماء اختلفوا في طريقة قتله، واتفقوا علىٰ أنّه يقتل، ولكن اختلفوا في طريقة قتله، وابن عباس نقل عنه المصنف -رحمه الله- أنه يُلقىٰ من شاهق من مكان عالٍ ويُتبع بالحجارة. وأورد فيما يتعلق بالسّحاق، وهٰذا يقع بين المرأة والمرأة، وهٰذا أيضا من الأفعال الشَّنيعة. والحديث لم يثبت، لكن هٰذا فعل شنيع وأمر منكر، وهو من الفساد وقلة الدِّين.

وقال: (وَمَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ- أَنَّ حَدَّ اللُّوْطِيِّ حَدُّ الزِّنَا سَوَاءً. وَأَجْمَعَتِ الأُمَّةُ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ فَعَلَ بِمَمْلُوْكِهِ فَهُوَ لُوطِيٌّ مُجْرِمٌ.) مملوكه: أي من تحت يده من العبيد.

نقف، والله أعلم وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد.

۞۞۞۞

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ إمام المرسلين، نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين،

أما بعد؛ نواصل القراءة مستعينين بالله -عز وجل- في كتاب الكبائر للإمام الذهبي رحمه الله:

[المتن]

الكَبِيرَةُ الثَّامِنَةُ عَشْرَةَ

قَذْفُ المُحْصَنَاتِ

قَالَ اللهُ-تَعَالَىٰ-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[النور:٢٣].

[الشرح]

قوله رحمه الله: (قَذْفُ المُحْصَنَاتِ) القذف أصله الرمي بشدة، وأطلق في الشّرع علىٰ الرمي بالزنا أو الفاحشة، و(المحصنات) أي العفيفات البريئات مما رمين به سواء كن ثيبات أو أبكارا، فالمحصنة هنا أي العفيفة؛ لأن الإحصان أو المحصنة له إطلاقان:

- إطلاق يطلق تارة في النصوص ويراد بها العفيفة كما هنا.
- ويطلق تارة في النصوص ويراد به من ليست بكرا؛ أي ثيبا، أحصنت بالزواج.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي العفيفات ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ أي عمّا رمين به أي الشيء الذي رمين به وهو الفاحشة هن غافلات عنه لم يخطر في قلوبهن ولم يدر في نفوسهن، فهن بريئاتٌ منه غافلات عنه، ﴿الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله -عز وجل- ، وهٰذا دليل علىٰ القذف من كبائر الذنوب.

[المتن]

وَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً...﴾الآيتان[النور:٤-٥].

[الشرح]

في هذه الآية أن الرمي أو القذف بدون البينه وهم الشهداء؛ وعددهم أربعة من الرجال، يشهدون بأن هذا الأمر حصل وأنهم رأوه بأعينهم يباشر هٰذا الأمر، إذا لم يكن هناك شهداء علىٰ هذا القذف فيجلد، وقد عرفنا أنّ الحد في الدنيا دليل علىٰ أن الأمر كبيرة من كبائر الذنوب.

[المتن]

وَقَالَ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:((اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ...))فذكر منها:((قَذْفُ المُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ)).

وَقَالَ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ».

[الشرح]

سيأتي عند المنصف هٰذا الحديث وبعده بعض الأحاديث هي في حفظ اللسان عموما وصيانته من نيل النّاس وأذاهم، فتتناول هذه الأحاديث بعمومها القذف؛ بل هو من أشدّ الأذىٰ الذي يكون باللسان.

[المتن]

وَقَالَ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ! وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟».

وقَالَ اللهُ-تَعَالَىٰ-: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾[الأحزاب:٥٨].

[الشرح]

نعم، جميع هٰذه النصوص عامة في الإيذاء وإطلاق اللسان والتعدي باللسان، فهي نصوص عامة ومما تتناوله بعمومها القذف.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ بِالزِّنَا أُقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إلاَّ أَنْ يَكُوْنَ كَمَا قَالَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

«مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ» أي ملك يمينه من العبيد الذين يملكهم إذا قذفه بالزنا وهو برئ «أُقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وهٰذا يدل علىٰ أن هذا الأمر كبيرة؛ سواء قذف بالزنا من هو حر أو من هو عبد، فهٰذا محرّم وكبيرة من كبائر الذنوب.

[المتن]

أَمَّا مَنْ قَذَفَ أَمَّ الْمُؤمِنِينَ عَائشَةَ -رَضِيَ اللهُ تعالىٰ عَنْها- بَعْدَ نُزُولِ بَرَاءتِها مِنْ السَّماءِ فهُو كَافرٌ مُكذِّبٌ للقُرآنِ، فيُقْتَل.

[الشرح]

أم المؤمنين عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْها- أنزل الله -تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- في براءتها ثمانية عشر آية في القرآن الكريم في سورة الفتح فمن رماها بما برأها الله -تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- به في آيات تتلىٰ في القرآن الكريم فهو كافر مكذب بكلام الله -جل وعلا-.

وأم المؤمنين عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْها- لما رميت بالفاحشة وأخذ الناس يتكلمون كانت تتحرّىٰ أن تأتي براءتها من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-، ولما نزلت ثمانية عشرة آية في القرآن في تبرئتها تواضعت -رَضِيَ اللهُ عَنْها- وقالت: ولشأني في نفسي أحقر من أن يُنزل الله فيه وحيًّا يُتلىٰ -رَضِيَ اللهُ عَنْها وأرضاها- وعلىٰ كل حال من رماها بهذه الفاحشة وفي تبرئتها ثمانية عشرة آية من القرآن الكريم فهو كافر مكذب للقرآن.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَة

الغُلُوْلُ مِنَ الغَنِيْمَةِ وَمِنْ بَيْتِ الْمَالِ والزَّكَاةِ

قَالَ اللَّهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[آل عمران:١٦١].

[الشرح]

الغلول من الغنيمة التي تكون في الحرب أو بيت مال المسلمين أو من أموال الزكاة، هٰذا من الكبائر، والغلول أخذ الإنسان ما ليس له حق، أو ما ليس له حق فيه فهٰذا غلول ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[آل عمران:١٦١]، سواء غل من الغنيمة أو من بيت المال أو من أموال الزكاة إذا كان عاملا عليها فأخذ يختلس منها، فهذا كله من كبائر الذنوب؛ لأنه تعدي علىٰ أموال المسلمين، وأورد الآية الكريمة ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يأتي به يحمله يوم القيامة وزرا يحاسبه الله -تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- عليه ويعذبه عليه.

[المتن]

قَالَ أَبُو حُمَيْد السَّاعِدِي: اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَجُلًا مِنَ الْأَزْدِ يُقَالُ لَهُ ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ عَلَىٰ الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هٰذَا لَكُمْ وَهٰذَا أُهْدِيَ لِي، فَقَامَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَىٰ الْمِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ فَيَقُولُ: هٰذَا لَكُمْ، وَهٰذَا أُهْدِيَ لِي، أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ إِنْ كَانَ صَادِقًا، وَاللهِ لَا يَأْخُذَ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا لَقِيَ اللهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا أَعْرِفَنَّ رَجُلًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللهَ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ».

[الشرح]

ثم أورد الحديث في قصة ابن اللتبية فكان عاملا علىٰ الزكاة، فكان يأتي بأموال ويقول: هٰذا لي وهٰذا أهديته، ولو جلس في بيته أو لم يكن عاملا علىٰ هٰذه الصدقة أو هذه الزكوات، لم يعطَ هٰذه الهدايا، وإنما أعطيها بسبب عمله وقيامه علىٰ هٰذا العمل ولهذا أرشد النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لهذا فقال: «لولا جلس في بيته» يعني لو جلس في بيته ما أعطي هٰذه التي سماها هدايا فهي لا تحل وهي من الغلول، الأموال التي يأخذها العمال، أو يأخذها من هو علىٰ وظيفة من المراجعين أو نحو ذلك كلها داخلة في هٰذا الحديث الذي في قصة ابن اللتبية الذي جعله النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عاملا علىٰ الصدقة فكان يأتي ببعض الأموال ويقول: هٰذا أهديته وهٰذا لكم. ثم خطب النبي - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وهٰذا فيه كمال نصحه صلوات الله وسلامه عليه للأمة، فلم يكتفِ بتوجيه نصحًا لهذا الشخص بعينه، وإنما خطب

خطابة عامة للجميع يحذر من هٰذا الأمر بهذا المناسبة التي وقعت.

وقوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَاللهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلَّا لَقِيَ اللهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» هٰذا يعد قاعدة وضابط في هٰـــذا الباب يُعرف به نظائره، فكل أخذ للمال بغير حق أو بغير وجه شرعي هو من الغلول الذي يأتي به صاحبه يوم القيامة يحمله، وقد أشرت في درس ماضي إلىٰ حديث أبي هريرة وهو بهذا المعنىٰ أن النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وهو في صحيح البخاري أن النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ذكر يوما الغلول وعظم أمره وخطب الناس فيه فقال: «لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ..)) وذكر الإبل وذكر الخيل، وذكر الذهب والفضة، وذكر الرِّقاع في كل ذلك يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: فيقول: يا رسول الله أغثني. وأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك. فالغلول شأنه خطير ولو أن الذي غله الإنسان شيئا يسيرًا أو أمرًا تافها لا يُؤبه بِهِ كما سيأتي معنا في بعض النصوص التي أوردها المصنف.

[المتن]

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ تعالىٰ عَنْهُ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَىٰ خَيْبَرَ، فَلَمْ نَغْنَمْ ذَهَبًا وَلَا وَرِقًا، غَنِمْنَا الْمَتَاعَ وَالطَّعَامَ وَالثِّيَابَ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا إِلَىٰ الْوَادِي وَمَعَ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَبْدٌ لَهُ، وَهَبَهُ لَهُ رَجُلٌ مِنْ جُذَام، فَلَمَّا قَامَ عَبْدُ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَحُلُّ رَحْلَهُ، فَرُمِيَ بِسَهْمٍ فَكَانَ فِيْهِ حَتْفُهُ. فَقُلْنَا: هَنِيئًا لَهُ بِالشَّهَادَةِ يَا رَسُولَ اللهِ!، فَقَالَ: «كَلَّا، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ الشَّمْلَةَ لَتَلْتَهِبُ عَلَيْهِ نَارًا، أَخَذَهَا مِنَ الْغَنَائِمِ يَوْمَ خَيْبَرَ لَمْ تَصِبْهَا الْمَقَاسِمُ». قَالَ: فَفَزِعَ النَّاسُ، فَجَاءَ رَجُلٌ بِشِرَاكٍ أَوْ شِرَاكَيْنِ فَقَالَ: «شِرَاكٌ أَوْ شِرَاكَانِ مِنَ النَّارِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

وهٰـــذا مما يبين أن الغلول ولو كان في أمر تافه أو أمر لا يؤبه به مثل الذي يوضع علىٰ ضرع النوق أو بهيمة الأنعام يعني أمر تافه لا يؤبه به، وكذلك الشراك في الحديث الآخر الرجل الذي تدارك نفسه فجاء بشراك وشراكين، هٰــذه أمور يعني يسيرة؛ لكن الغلول محرم ولو كان في شيء يسير لا يحل ومن غل ولو شيء يسير يأتي بما غلّ يوم القيامة، وفي الحديث دلالة علىٰ أنّ العبرة ليست بظاهر الأعمال عند الله -عز وجل- وإنما بالظاهر والباطن، إقامة الباطن والظاهر والبعد عن ما حرم الله -تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ-. وفي الحديث نهي النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عن التزكية كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ: ﴿فَلَا تُزَكُّوا

أَنفُسَكُمْ﴾[النجم:٣٢] قالوا: هنيئًا له الشّهادة هٰـذه تزكية له بأنه شهيد، ولا يزكىٰ أحد بمثل هٰـذه التزكية لا يقال الشـهيد فلان أو فلان الشـهيد لأن هذه تزكية وجزم له بالشـهادة والمجزوم له بالشـهادة جزم له بالجنة، ولهذا في صـحيح البخاري عقد -رحمه الله- (باب لا يقال فلان شـهيد)؛ ولكن من أبلىٰ بلاء حسـنا وظهر منه الخير والإحسـان لا يُجزم له بالتزكية، وإنما يقال: نحسـبه من الشـهداء، نرجو أن يكون من الشهداء. ونحو ذلك مما فيه الرّجاء وليس فيه الجزم.

[المتن]

وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ عَمْرُو بْنِ شُعَيْب، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ حَرَّقُوا مَتَاعَ الْغَالِّ وَضَرَبُوهُ.

[الشرح]

وهٰذه عقوبة تدلّ علىٰ أنّ هٰذا الأمر من شنائع الأمور وطبائع الأعمال؛ عقوبة له وجزاءً علىٰ عمله، حرقوا متاعه يعني المتاع الذي كان علىٰ دابته يُنزع، ثم يحرَّق، وضربوه تأديبا له علىٰ ما حصل منه.

[المتن]

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرُو: كَانَ عَلَىٰ ثَقَلِ رَسُـولَ اللهِ -صَـلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ- رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: كِرْكِرَة، فَمَاتَ. فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «هُوَ فِي النَّارِ». فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَجَدُوا عَبَاءَةً قَدْ غَلَّهَا.

[الشرح]

(كِرْكِرَة) وتضـبط في بعض المصـادر (كَرْكَرة) بالفتح، بفتح الكاف أو كسـرها. (كَانَ عَلَىٰ ثقَلِ رَسُـولَ اللهِ) والثقل: ما يثقل حمله من المتاع، فكان مسؤولاً عن الأمتعة الثقيلةا هٰـذا معنىٰ قوله: (كَانَ عَلَىٰ ثَقَلِ رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: كِرْكِرَة، فَمَاتَ. فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «هُوَ فِي النَّارِ») فأخذ الصـحابة يتحرون عن السـبب، فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلَّهاا وهٰـــذا لأن الغلول كبيرة من الكبائر وموجب لدخول صاحبه النار.

[المتن]

وَفِي الْبَابِ أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ، وَيَأْتِي بَعْضُهَا فِي بَابِ الظُّلْم.

وَالظُّلْمُ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَام:

أَحَدِهَا: أَكْلُ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ.

وَثَانِيهَا: ظُلْمُ الْعِبَادِ بِالْقَتْلِ وَالضَّرْبِ وَالْكَسْرِ وَالْجِرَاحِ.

وَثَالِثِهَا: ظُلْمُ الْعِبَادِ بِالشَّتْمِ وَاللَّعْنِ وَالسَّبِّ وَالْقَذْفِ.

وَقَدْ خَطَبَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- النَّاسَ بِمِنَىٰ فَقَالَ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلِيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هٰذَا فِي شَهْرِكُمْ هٰذَا فِي بَلَدِكُمْ هٰذَا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

قوله -رحمه الله-: (وَالظُّلْمُ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ) أي ظلم العباد وذكر الأقسام الثلاثة:

القسم الأول يتعلق بالأموال.

والقسم الثاني يتعلق بالدماء.

والقسم الثالث يتعلق بالأعراض ثم اتبع هٰذا التقسيم الحديث الدال عليه «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ» فهي أقسام ثلاثة كلها حرام والتعدي عليها ظلم فظلم العباد ينقسم إلىٰ هذه الأقسام الثلاثة: ظلمهم في أموالهم ظلمهم في دمائهم ظلمهم في أعراضهم.

ظلم الإنسان في ماله بأكله بغير حق.

وظلمه في دمه بالقتل أو الضّرب أو الكسر أو الجرح.

ظلمه في عرضه بالشتم أو اللعن أو السب أو القذف.

فهٰذا تقسيم الظلم الذي هو ظلم العباد.

أما تقسيم الظلم من حيث هو فإنه ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام دلّ عليها قول النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((دواوين الظلم يوم القيامة ثلاثة: ديوان لا يغفره الله، وديوان لا يتركه الله وديوان لا يعبأ الله به))

أما الديوان الذي لا يغفر الله الشرك بالله وأما الديوان الذي لا يتركه الله فهو ظلم العباد بعضهم لبعض، وهو الذي يدخل تحته الأقسام الثلاثة التي ذكرها المصنف وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به، أي لا يبالي به فهو ما دون ذلك، وسيأتي إشارة للحديث عند المصنف في كبيرةٍ قادمة.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَا يَقْبَلُ اللهُ صَلَاةً بِغَيْرِ طُهُورٍ وَلَا صَدَقَةً مِنْ غُلُولٍ».

[الشرح]

وهٰذا فيه خطورة الغلول، و إن صدقات الغال أو ما يُتصدق به الغال لا ينفعه، يعني أن يأخذ الأموال

بالظلم وبغير حق ثم ينفق منها لا يقبله الله منه؛ لأن المال لا حق له فيه ومثل ما قال القائل: ومطعمة الأيتام من كدّ فرجها. يعني تزني حتىٰ تنفق علىٰ الأيتام، أو يسرق أو يغل حتىٰ يتصدّق، هٰذا لا يُقبل منه لا يقبل الله منه صدقته لأن المال الذي أخذه وتصدق منه لا حق له فيه.

[المتن]

وَقَالَ زَيْدُ بْنُ خَالِدَ الْجُهَنِيُّ: إِنَّ رَجُلًا غَلَّ فِي غَزْوَةِ خَيْبَر، فَامْتَنَعَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَقَالَ: «إِنَّ صَاحِبَكُمْ غَلَّ فِي سَبِيلِ اللهِ». فَفَتَّشْنَا مَتَاعَهُ فَوَجَدْنَا فِيهِ خَرَزًا مَا يُسَاوِي دِرْهَمَيْنِ. خَرَّجَهُ أَبُو دَاوُدَ والنَّسَائِيُّ.

[الشرح]

ما غلَّه هٰذا الرجل شي تافه، الصحابة قالوا: (ما يساوي درهمين) يعني شي تافه جدا ما يساوي درهمين يبينوا أن الأمر تافه ولكن النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- امتنع أن يصلي عليه لِما علم من حاله أنه غلَّ هاتين الخرزتين أو هٰذا الخرز.

[المتن]

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَد: مَا نَعْلَم أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تَرَكَ الصَّلَاةَ عَلَىٰ أَحَدٍ إِلَّا عَلَىٰ الْغَالِّ وَقَاتِلِ نَفْسِهِ.

[الشرح]

وهٰذا من الإمام أحمد تنبيه لهذا الأمر ومثل قول الإمام احمد -رحمه الله-: (مَا نَعْلَم) تأتي هٰذه الكلمة من رجل صاحب استقراء للسنة والأدلة وتتبع للأحاديث، قال: (مَا نَعْلَم أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تَرَكَ الصَّلَاةَ عَلَىٰ أَحَدٍ إِلَّا عَلَىٰ الْغَالِّ وَقَاتِلِ نَفْسِهِ) والنفي أشد من الإثبات الإثبات يمكن تقف علىٰ حديث واحد وتثبت من خلاله أما مثل هذا النفي لا يكون إلا عن استقراء.

ولاحظ دقه عبارة الإمام أحمد؛ لم يقل: لم يمتنع النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عن الصلاة إلا علىٰ الغال وقاتل نفسه، وإنما قال: (مَا نَعْلَم) فنفىٰ علمه، وهذا هو الصحيح في التعبير في مثل هذا المقام، لا يقول القائل: لا يوجد دليلا علىٰ كذا، وإنما يقول: لا أعلم دليلا علىٰ كذا أو لم أقف علىٰ دليلٍ يدل علىٰ كذا حسب اطلاعي وما رأيت أو نحو ذلك من العبارات.

❁❁❁❁

[المتن]

الكبيرة العشرون

الظلم بأخذ أموال الناس بالباطل

قال الله تعالىٰ: ((وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَىٰ الْحُكَّامِ))[البقرة:١٨٨]].

[الشرح]

الكبيرة التي مرَّت معنا وهي الغلول داخلة تحت هذه الكبيرة وهي الظلم بأخذ أموال الناس بالباطل؛ لكن لما كان الغلول أمراً شنيعـًا وذنبـًا عظيمـًا، وخُصَّ في نصوص كثيرة بالذكر أفرده المصنف رحمه الله بالذكر، وإلا فهو داخل تحت هذه الكبيرة؛ كبيرة الظلم بأخذ أموال الناس بالباطل.

وأورد قول الله تعالىٰ: ((وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَىٰ الْحُكَّامِ))[البقرة:١٨٨].

وفي قوله تعالىٰ: ((أَمْوَالَكُمْ)) إرشاد للحقوق التي ينبغي أن يرعاها أهل الإيمان، وكثيراً ما يأتي في النصوص مثل هذا، مما يُشعر بالرابطة الإيمانية والأخوة الدينية والصلة التي بين المؤمنين، ((فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ))[النجم:٣٢]، أي: لا يزكِّي بعضكم بعضـًا، ونحو هذا في النصوص كثير.

فهنا قال: ((وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَىٰ الْحُكَّامِ))[البقرة:١٨٨]، ((وَتُدْلُوا بِهَا إِلَىٰ الْحُكَّامِ))، أي: بالشهادات الظالمة، والدعاوىٰ الكاذبة، حتىٰ يستحوذ الإنسان من خلال شهاداته أو دعاواه علىٰ أموال الناس ويأكلها بالباطل.

[المتن]

[وقال تعالىٰ: ((إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَىٰ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ))[الشورىٰ:٤٢]].

[الشرح]

قوله: ((يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ))، هذا هو الشاهد لهذه الكبيرة وهو يتناول البغي بكلِّ أنواعه، والظلم بكلِّ أنواعه، البغي والظلم في الدماء، أو في الأموال، أو في الأعراض، وتكون هذه الآية بعمومها شاملة لهذه الكبيرة التي حذَّر منها المصنِّف؛ وهي: الظلم بأخذ أموال الناس بالباطل.

[المتن]

[وقال تعالىٰ: ((وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ))[الشورىٰ:٨]. وقال صلىٰ الله عليه وسلم: {الظلم ظلماتٌ يوم القيامة}. وقال صلىٰ الله عليه وسلم: {من ظلم شبراً من الأرض طُوّقه إلىٰ سبع أرضين يوم القيامة}. وقال تعالىٰ: ((إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ))[النساء:٤٠]].

[الشرح]

جميع هذه في التحذير من الظلم وهو يتناول هذه الكبيرة: الظلم الذي هو بأخذ أموال الناس بالباطل.

[المتن]

[وفي الحديث: {وديوانٌ لا يترك الله منه شيئًا وهو ظلم العباد}].

[الشرح]

وهذا الحديث اقتصر المصنف رحمه الله علىٰ موضع الشاهد منه وهو ما يتعلق بظلم العباد، والحديث بتمامه مرَّ معنا: {الدواوين يوم القيامة ثلاثة: ديوانٌ لا يغفره الله، وديوانٌ لا يتركه الله، وديوانٌ لا يعبأ الله به؛ أما الديوان الذي لا يغفره الله فهو الشرك، وأما الديوان الذي لا يتركه الله فظلم العباد بعضهم

لبعض، وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به فهو ما دون ذلك}. والمصنِّف رحمه الله اقتصر من الحديث علىٰ ذكر شاهده.

والحديث له طُرق، وبعض طُرقه حسَّنه الشيخ الألباني رحمه الله في بعض مصنفاته.

[المتن]

[**وقال عليه الصلاة والسلام: {مطلُ الغني ظلم}**].

[الشرح]

المطل يعني: المماطلة والتسويف والتأخير، يماطل أي: يماطل صاحب الحق في حقه فلا يعطيه إياه، وإنما في كلِّ مرةٍ يؤخره؛ فهذا ظلم، إذا كان واجداً غنياً فمطله ظلم، أما إذا كان لا يملك وليس عنده شيء فلا يكون بذلك ظالماً؛ لأنه لا يملك حتىٰ يعطي، وإنما يكون ظلماً إذا كان من غني.

[المتن]

[**ومن أكبر الظلم: اليمين الفاجرة علىٰ حقٍّ عليه؛ قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: {من اقتطع حقَّ امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله النار}، قيل: يا رسول الله، وإن كان شيئًا يسيراً؟ قال: {وإن كان قضيبًا من أراك}** رواه مسلم].

[الشرح]

قوله: (اليمين الفاجرة علىٰ حقٍّ عليه)، يعني: حق عليه للناس، ثم يحلف يمين فاجرة أنَّه ليس له عندي حق، وليس له عليَّ أيُّ مطالبة، وليس له في ذمتي أي شيء، ويحلف يمينًا فاجرة بذلك، فهذا من أكبر الظلم.

واستدلَّ المصنِّف بقول النبي صلىٰ الله عليه وسلم: {من اقتطع حقَّ امرئ مسلم بيمينه}، يعني: حلف يميناً فاجرة أنَّه ليس له عندي حق؛ وهو متعدٍّ علىٰ حقه ولكن بيمين فاجرة يتخلَّص بها من حُكم الدنيا، ويلقىٰ الله عز وجل فيكون ليس له إلا النار؛ قال: {فقد أوجب الله النار}.

قال الصحابة: يا رسول الله، وإن كان شيئًا يسيراً؟ يعني: هل هذا الحُكم خاص بالتعديات الكبيرة والأموال الكثيرة، أو أنه أيضـًا يتناول ولو شيئـًا يسيراً مثل أن يكون أخذ من غيره شيء تافه، أو لا يأبه الناس به؟ فقال عليه الصلاة والسلام: {وإن كان قضيبـًا من أراك}، القضيب من الأراك يعني: عود سواك، {ولو كان قضيبـًا من أراك}، يعني: أخذه من غيره وطالبه به، وقال: والله ليس لك، وأعطىٰ يمينـًا فاجرة، وأخذ هذا العود، فهذه عقوبته؛ ولو كان قضيبـًا من أراك.

[المتن]

[وقال صلىٰ الله عليه وسلم: {من استعملناه علىٰ عملٍ فكتمنا مخيطـًا فما فوقه؛ كان غلولاً يأتي به يوم القيامة} رواه مسلم].

[الشرح]

فيه: أنَّ الغلول ليس في الأمور الكبار، وإنما حتىٰ في الأمور التافهة: مخيط، خرزات، شملة، أيًّا كان، ولو كان قضيبـًا من أراك، فهذه عقوبته: يأتي بما غلَّ يوم القيامة، وتكون وجبت له النار.

[المتن]

[وقال صلىٰ الله عليه وسلم: {إن الشملة التي غلَّها لتشتعل عليه ناراً}، فقام رجل فجاء بشراك كان أخذه لم تصبيه المقاسم، فقال: {شِراك من نار}].

[الشرح]

وهذا فيه فائدة من فوائد الحديث: أن الموعظة وبيان الترهيب للناس فيه سبب ووسيلة لهدايتهم، فالنبي عليه الصلاة والسلام لما ذكر الشملة التي غلَّها ذلك الرجل وأنها تشتعل عليه ناراً؛ بيَّن الحكم وحصل ترهيب للناس، فرجل تدارك نفسه وجاء بشِراكٍ كان أخذه لم تصبه المقاسم، فقال: {شِراك من نار}، الرجل تدارك نفسه وجاء به وتخلَّص منه في الدنيا قبل أن يأتي يوم القيامة يحمله، فهذا فيه أن الموعظة والتخويف بالنار وذكر العقوبات ونحو ذلك، هذا مفيد لمن كتب الله تبارك وتعالىٰ له الهداية.

[المتن]

[وقال رجل: يا رسول الله، إن قُتلتُ صابراً محتسبًا مقبلاً غير مدبر، أَتُكفَّر عنِّي خطاياي؟ قال: {نعم، إلا الدَّين} رواه مسلم].

[الشرح]

{إلا الدَّين}، أعني: إلا أن يكون في ذمتك حقوق للناس، فهذا من الدواوين التي لا يتركها حتىٰ يقتص للمظلوم من ظالمه، قال: {إلا الدَّين}، فهذا شيء لا يتركه؛ لأنَّ الحقوق للعباد، فإن كان العبد أعطىٰ العباد حقوقًا في الدنيا، أو علىٰ الأقل طلب عفوهم ومسامحتهم انتهىٰ الأمر، وأما إذا لقي الله يوم القيامة وعليه حقوق للعباد فما ثَمَّ إلا الحسنات والسيئات.

[المتن]

[وقال صلىٰ الله عليه وسلم: {إنَّ رجالاً يتخوضون في مال الله بغير حق، فلهم النار يوم القيامة} رواه البخاري].

[الشرح]

{يتخوَّضون} أي: لا يبالون في المال كيفما حصل عليه أو كيفما اكتسبه، لا يبالي، يخوَّض في المال ولا يبالي هل هو بحق أو بغير حق، {فلهم النار يوم القيامة}.

[المتن]

[وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالىٰ عنه، أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال لكعب بن عجرة: {لا يدخل الجنة لحمٌ نبت من سحت، النار أولىٰ به} صحيح علىٰ شرط الشيخين}.

[الشرح]

السحت: الحرام، وكلُّ جسد غُذي بالحرام ونما علىٰ الحرام فالنار أولىٰ به؛ لأن الجنة دار الطيب، فالخبث لا يصلح للجنة، والجسم القائم علىٰ الخبث وعلىٰ المحرمات لا يصلح للجنة، فالنار أولىٰ به؛ لأن الجنة دار الطيب، ولهذا أهل الجنة يدخلون الجنة كما قال الله: ((طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ))[الزمر:٧٣]، أما إذا كان خبيثاً فليست الجنة دار الخبث، وإنما النار أولىٰ به من كان جسده قائماً علىٰ السحت.

[المتن]

[وقال عبد الواحد بن زيد، عن أسلم الكوفي، عن مرة الهمداني، عن زيد بن أرقم، عن أبي بكر، عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: {لا يدخل الجنة جسدٌ غُذي بالحرام}].

[الشرح]

{غُذي بالحرام} أي: تغذَّي به ونما علىٰ الحرام، فقال: {لا يدخل الجنة}.

[ويدخل في هذا الحديث المكَّاس، وقاطع الطريق، والسارق، والبطَّاط، والخائن، والزغلي، ومن استعار شيئاً فجحده، ومن طفَّف في الوزن والكيل، ومن التقط مالاً فلم يعرِّفه، ومن باع شيئاً فيه عيب فغطَّاه، والمقامر، ومُخبِر المشتري بالزائد. والله أعلم].

قوله: (والبطَّاط) من معانيه في اللغة: الكذَّاب.

وقوله: (والزغلي) من معانيه في اللغة: الزَّغَل: الغِش.

[المتن]

الكَبِيرةُ الحَادِيَةُ والعِشرُون

السَّرِقَةُ

قَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[المائدة:٣٨].

[الشرح]

قوله: (السَّرِقَةُ) هذه كبيرة من الكبائر، والسرقة أخذ الأموال -أموال الناس- خِلْسَة من حرزها وأماكن حفظها فهذه تسمىٰ سرقة، يأخذ أموال الناس خِلْسَة أو خُفْيَة من حرزها أو الأماكن التي حُفظت فيها، فهذا من كبائر الذنوب، وفيه حدٌّ في الدنيا، وفيه عقوبة في الآخرة، قال: ﴿فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ﴾ أي عقوبة من الله -عز وجل-، فهذا حدٌّ دنيوي للسارق.

[المتن]

وقَالَ النَّبِيُّ -صلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ-: «لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ يَسْرِقُ الْحَبْلَ فتُقْطَعُ يَدُهُ».

[الشرح]

وهذا وجهٌ آخر في الدلالة علىٰ أن السرقة كبيرة أن فيها لعن «لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ»، فاللعن والطرد والإبعاد من رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، وهذا من الدلائل علىٰ أن السرقة كبيرة، نعم.

[المتن]

وقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحمَّدٍ سَرَقتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا».

[الشرح]

أي أن السارق أيًا كان ومهما كان قدره أو مكانته فإن هذا حكمه وهذا حدُّه في الشريعة.

قال -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: «لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحمَّدٍ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سَرَقتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا)).

[المتن]

وقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ؛ وَلَكِنَّ التَّوْبَةَ مَعرُوضَةٌ بَعْدُ» صَحِيحٌ.

[الشرح]

وهٰذا وجهٌ ثالث في الدّلالة علىٰ أن السّرقة من الكبائر: نفي الإيمان عن السارق لقوله: «وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»، والنّفي هنا هو نفيٌ لكمال الإيمان الواجب، وليس نفيًا لأصله علىٰ ما سبق بيانه وتفصيله.

[المتن]

وَعَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ هِلالِ بْنِ يِسَاف عَنْ سَلَمَةَ بْنِ قَيسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «أَلَا إِنَّمَا هُنَّ أَرْبَعٌ: أَلَّا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَسْرِقُوا».

[الشرح]

هٰذا سمعه سلمة بنُ قيس من النبىٰ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في حجة الوداع كما جاء منصوصًا عليه في بعض الروايات، قال: سمعت رسول الله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في حجة الوداع يخطب ويقول: «أَلَا إِنَّمَا هُنَّ أَرْبَعٌ: أَلَّا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَسْرِقُوا».

قوله: «أَلَا إِنَّمَا هُنَّ أَرْبَعٌ» هٰـذا من كمال نصحه - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وجمال بيانه، «أَلَا إِنَّمَا هُنَّ أَرْبَعٌ» بهذا القدر من هذه الجملة تشوفت النفوس إلىٰ الأمر، «أَلَا إِنَّمَا هُنَّ أَرْبَعٌ»: أي فاحذروها يا أمة الإسلام، «أَلَا إِنَّمَا هُنَّ أَرْبَعٌ»، ثم ذكرها قال: «أَلَّا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَسْرِقُوا».

وهٰذه الأربع تنقسم إلىٰ قسمين: حقٌّ لله، وحقٌّ للعبيد.

حقُّ الله في قوله: «أَلَّا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا» أي أخلصوا له العبادة.

وحق العبيد في هذه الأمور الثلاثة: «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَسْرِقُوا».

وإذا ربطت بين هذا النهىٰ وبين قوله - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- في خطبته أيضًا في حجة الوداع: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا» تجد أن هٰـذا المقام العظيم يؤكد عليه النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مرات وكَرَّات وبأساليب متنوعة.

قوله – عَلَيْهِ الصَّـــلاَةُ وَالسَّـــلاَمُ-: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ» هنا قال: «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ». وقوله هناك: «وَأَعْرَاضَكُمْ»، هنا قال: «وَلَا تَزْنُوا». وقوله هناك: «وَأَمْوَالَكُمْ»، يقابل قوله هنا: «وَلَا تَسْرِقُوا».

فرجع ما في هٰـــذا الحديث إلىٰ ما في الحديث الأول: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا» وهٰذا يؤكد لنا خطورة ما يتعلق بالدماء والأموال والأعراض، وتحذير النبي – عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- وفي خطابته في الحج أكد علىٰ هذا القضية مرات كثيرة وفي أكثر من موضع وبأسـاليب متنوعة؛ منها قوله في حجة الوداع: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَىٰ دِمَائِهُمْ وَأَعْرَاضِهُمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِن لِّسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ» هٰـــذا قاله أيضا في خطابته في الحج، وفيه تأكيد علىٰ هذه القضية المهمة العظيمة: مسألة الدماء والأموال والأعراض.

[المتن]

قُلْتُ: وَلَا يَنْفَعُ السَّارِقَ تَوْبَتُهُ إِلَّا بِأَنْ يَرُدَّ مَا سَرَقَهُ، فَإِنْ كَانَ مُفْلِسًا تَحَلَّلَ مِنْ صَاحِبِ المَالِ.

[الشرح]

التوبة لها شـروط لتكون مقبولة، وشـروطها ثلاثة: وهي أن يندم الإنسـان علىٰ فعله للذنب، وأن يُقلِع عن الذنب، وأن يعزم علىٰ عدم العودة إليه، هذا في عموم الذنوب.

إما إذا كان الذنب يتعلق بحقوق الناس كالسـرقة مثلا، فيقول الإمام الذّهبي -رحمه الله-: (وَلَا يَنْفَعُ السَّارِقَ تَوْبَتُهُ) يعنىٰ لو أنه جاء بالتوبة بشـروطها المذكورة: ندِم، وأقلع؛ يعنىٰ لم يَعُد للسـرقة يفعلها مرة ثانية، وعزم عزمًا أكيدًا ألا يعود للسّـرقة، إلىٰ هذا الحد لا تُقبل توبته؛ لأن باق في ذمته حقوقا للناس وأموال للناس سرقها، فإلىٰ هٰـذا الحد لا تكون التوبة مقبولة؛ يعنىٰ لو أن إنسانا سرق أموالا ثم ندم علىٰ السرقة وعزم ألا يعود للسرقة، وأقلع عن السرقة لم يعد يسرق مرة ثانية، إلىٰ هٰـــذا الحد لا تكون توبته مقبولة، وإنما تُقبَل -كما يقول الإمام الذهبي رحمه الله- بأن يرد ما سـرق، يذهب إلىٰ أصحاب الحقوق ويعيد لهم أموالهم، المهم أن تصـل أموالهم إليهم سـواء قال: "هٰـــذه سـرقتها منكم" وأقدم بشـجاعة وقدّمها، أو جعل وسيطًا بينه وبينهم ثقةً يُسلِّمها لهم ويقول: "هٰـــذه يعنىٰ أُخذت منكم، أخذها شخص منكم وهو تائب الآن" أو نحو ذلك، المهم أن تصل هٰذه الأموال إلىٰ أصحابها.

و(إِنْ كَانَ مُفْلِسًا) يعنىٰ ليس عنده قدرة علىٰ إعادة هٰذه الأموال؛ فإنه يتحلل هؤلاء: يعنىٰ يطلب منهم

أن يسامحوه وأن يعفوا عنه، فإن عفوا عنه وسامحوه قُبلَت توبته، وإن لم يسامحوه بقىٰ الأمر في ذمته.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ الثَّانِيَةُ والعِشْرُون

قَطْعُ الطَّرِيق

قَالَ اللهُ -تَعَالىٰ-: ﴿إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[المائدة:٣٣].

فمُجرَّدُ إخَافَتِهِ السَّبِيلَ هُوَ مُرْتَكِبٌ الكَبِيرةَ، فَكَيْفَ إذا أَخَذَ المَالَ؟!

وَكَيفَ إذا جَرَحَ أو قَتَلَ وفَعَلَ عِدَّةَ كَبائِرٍ؟!

مَعَ مَا غالِبُهُم عَلَيهِ مِنْ تَرْكِ الصَّلاةِ وإنْفاقِ مَا يأْخُذُونَهُ فِي الخَمْرِ والزِّنا.

[الشرح]

قطع الطريق هو اعتداء وظلم، وأكلٌ لأموال الناس بالباطل، وفيه إخافة للسبيل، وقطع الطريق هو أن يقف جماعة أو أفراد -قلّوا أو كثروا- في طريق الناس وفي جادَّتهم، ثم إذا مرّت القوافل المسافرة قطعوا عليهم طريقهم بسلْب أموالهم، وهؤلاء الّذين هم قطّاع للطريق محارِبُون لله ولرسوله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ومن السّاعين في الأرض بالفساد؛ ولهذا جاءت عقوبتهم أشد من عقوبة من يسرق المال خِلسة -كما سبق أن مرّ معنا- لِما في قطع الطريق من إخافة السبيل وإخلال الأمن وإيذاء الناس والتعدِّي علىٰ أموالهم، وأيضًا لما يكون في قُطاع الطريق من غلظة وفساد وشر وعدوان وتعاطي للمحرّمات وتهاون في الفرائض، وهٰذا حالهم في الغالب الأعم، من كان بهذه الصفة فالغالب الأعمّ أنه فيه هٰذه الصفات، وقد جاءت عقوبة قاطع الطريق كما في الآية التي بيّن المصنِّف أو التي أورد المصنف: ﴿أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ﴾[المائدة:٣٣] وهٰذا بحسب الأمر الذي كان منه؛ لأنّ هٰذه الجريمة متفاوتة في حجمها ولهذا العقوبة تكون متفاوتة.

وذكر المصنف -رحمه الله- في تعليقه أن مجرّد إخافة السّبيل كبيرة من الكبائر؛ يعني إخلال الأمن وإخافة سبيل الناس وطريقهم وإدخال الخلل علىٰ الأمن هذا بمجردِهِ كبيرة، فكيف إذا انضمّ إليه أخذ

المال بالباطل، وانضـــم إليه جرح الناس بســـبب ضـــربهم أو أيضـــا القتل، وانضـــمّ إليه فعل عدة كبائر مثل: شرب الخمر والتهاون في الصلاة والفواحش.. وغير ذلك من قُطَّاع الطريق.

ونكتفي بهـٰذا القدر، والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

المستوى الثاني/الكتاب الخامس

شرح

كتاب الكبائر

للعلامة شمس الدين الذهبي رحمه الله

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

حفظه الله تعالىٰ

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

من الدرس (١٤) إلىٰ االدرس (١٦)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ إمام المرسلين، نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين،

أما بعد؛

[المتن]

الكَبِيرَةُ الثَّالِثَةُ والعِشْرُون

اليَمِينُ الغَمُوس

قَالَ عَبْدُ اللهِ بنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ-: «الْكَبَائِرُ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ» أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ.

وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ: الَّتِي يُتَعَمَّدُ فِيهَا الْكَذِب، سُمِّيتْ غَمُوسًا لِأَنَّهَا تَغْمِسُ الْحَالِفَ فِي الْإِثْمِ.

[الشرح]

«اليَمِينُ الغَمُوسُ»: قيل «الغَمُوسُ» لأنها تَغْمِس صاحبها في الإثم وفي العقوبة وفي النار؛ ولهذا سُميت غَمُوسا لعِظَم شأنها وشدة خطورتها، قال: «اليَمِينُ الغَمُوسُ».

قال: (قَالَ عَبْدُ اللهِ بنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ-: «الْكَبَائِرُ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وقَتْلُ النَّفْسِ، وَاليَمِينُ الغَمُوسُ» أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ.

قال: (وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ: الَّتِي يُتَعَمَّدُ فِيهَا الْكَذِبَ، سُمِّيتْ غَمُوسًا لِأَنَّهَا تَغْمِسُ الْحَالِفَ فِي الْإِثْمِ.)

واليمين الغموس كما بيّنت هي أن يحلف يمينًا فاجرةً كاذبةً خاطئة يتعدّىٰ بها علىٰ حقوق الناس ويأخذ بها أموالهم، فهي يمين غموس وهي من كبائر الإثم.

[المتن]

وقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ-: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: مَنْ ذَا الذي يَتَأَلَّىٰ عليَّ أَنِّي لَا أغْفِرُ لِفُلانٍ؟! قَدْ غَفَرتُ لهُ وأحبَطُّتُ عَمَلَكَ».

[الشرح]

هٰذا من أشد ما يكون في اليمين الغموس: التألِّي علىٰ الله -جلّ وعزّ-، هٰذا من أشد ما يكون في اليمين الغموس؛ التألي علىٰ الله، ومن التألِّي علىٰ الله أن يقول القائل: «وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ» يحلف بأن الله لا

يغفر لفلان؛ يعني لِمَا يراه في شخص من كثرة فسقه أو كثرة عصيانه أو كثرة مخالفاته، ثم يحلف يمينا أنّ الله لا يغفر له فهذا فيه تألّي على الله، الله -عزَّ وجلّ- مغفرته وسعت كل شيء، ورحمته كتبها لمن شاء من عباده، فمن قال :"والله لا يغفر الله لفلان" أو "لا يرحم الله فلانا" فهذا تَحْدِيث وتألّي على الله -تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- وقول على الله بلا علم، فهي يمين غموس، يمينٌ فاجرة.

قال: («قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: مَنْ ذَا الذي يَتَأَلَّىٰ عليَّ أَنِّي لَا أغْفرُ لِفُلانٍ؟! قَدْ غَفَرتُ لهُ وأحبَطُّتُ عَمَلَكَ»)، وحبوط عمل هٰذا المتألّي دليلٌ علىٰ أن تألّيه كبيرة، دليلٌ علىٰ أن تأليه علىٰ الله كبيرة من كبائر الإثم أوجبت حبوط عمله.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ-: «ثَلَاثةٌ لَا يُكَلِمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: الْمُسْبِلُ إِزَارَهُ، وَالمَنَّانُ، وَالْمُنفِقُ سِلْعَتَهُ بالحَلِفِ الكاذِبِ».

[الشرح]

ثم ذكر هٰـــذا الحديث فيمن لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، فذكر «الْمُسْـبِلُ إِزَارَهُ، وَالمَنَّانُ، وَالْمُنفِقُ -أو الْمُنَفِّقُ- سِـلْعَتَهُ بالحَلِفِ الكاذِبِ» فهٰـــذه الأمور الثلاثة كلها من الأمور العظيمة؛ بدليل أن النبي -صَـلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ- قال: «ثَلَاثةٌ لَا يُكَلِمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» فهي كلّها من عظائم الذّنوب؛ مع أن بعض النّاس فيما يتعلق بإسـبال الإزار يرون أنه من الأمور التي ليست بالمهمّة وليست بالعظيمة، وإذا قيل لهم في هٰذا الأمر تضايقوا وتضجروا وقالوا: "كل شيء حرام؛ يعني ماذا يضير إذا كان ثوب الإنسان يسترخي قليلا ويلامس الأرض، ماذا في هذا؟!" ولو أنهم تخلّوا عن أهوائهم وقرؤوا هٰـــذا الحديث وحده -وهو في صحيح مسلم- لكفاهم زاجرا، يقول -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «ثَلَاثةٌ لَا يُكَلِمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، وهٰـــذا الحديث مفيد جدًّا في مناصحة المسبل بأن يُذكر له الحديث أولًا؛ يعني يُذكر له هٰـــذه المقدمة أولا، يقال: جاء في صـحيح مسـلم عن النبيّ - صَـلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ- أنه قال: «ثَلَاثةٌ لَا يُكَلِمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، ثم يقول: نسأل الله أن يحفظنا وإياكم من هٰـــذه؛ وألّا نكون من هؤلاء، ويُوضح لهم خطورة الأمر، وإذا اسـتشـعرت القلوب خطورة الأمر يقول: سـبحان الله أوّل واحد من هؤلاء «الْمُسْـبِلُ إِزَارَهُ» نسأل الله العافية، هٰـــذا له وقع، وجربه الكثير من الإخوة له وقع في إصلاح الناس في هٰـــذا الأمر،

إضافةً إلىٰ الأحاديث الأخرىٰ، والناس فيهم خير ولله الحمد؛ يعني إذا ذُكرت لهم النصوص وعُرضت عليهم الأدلة بأسلوب مناسب وطريقة مناسبة وبحُسن تلطف في النصيحة ينفعهم الله بذلك.

وعمر بن الخطاب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- لما طعنه المجوسي جاءه غلام وقال له: "هنيئًا لك يا خليفة رسول الله، صحبت رسول الله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وقُتلت في سبيل الله" ثم مشىٰ الغلام بعد هٰذه التهنئة لعمر -رضي الله عنه-، فلما مشىٰ قال عمر -رضي الله عنه- :"ادعوا لي الغلام" والدم يثعب من بطنه، إذا سقوه الحليب خرج من بطنه، وكان في تلك الحال يُغمىٰ عليه ويُفِيق والدماء تسيل من بطنه، فقال: "ادعوا لي الغلام"، فدعوا له الغلام، فقال له: "يا غلام ارفع ثوبك"؛ يعني لم ينس المناصحة في هٰذا الباب في هٰذه الحالة!، "**ارفع ثوبك، فإنه أتقىٰ لقلبك وأنقىٰ لثوبك**"، فالأمر ليس بالهيِّن، كيف يكون هيِّنا ونبينا -عليه الصّلاة والسّلام- يقول: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**»؟!، في مثل هٰذا الحديث الصحابة في موضع آخر قالوا: "خابوا يا رسول الله وخسروا من هم؟"، ومن يسمع هٰذا الكلام لابد أن يؤثر فيه، وكيف لا يؤثر فيه ونبينا -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: «**لَا يُكَلِمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**»؟!، سبحان الله!، كيف يتغافل الإنسان ويتعامىٰ ويتّبع هواه ويدع قول رسول الله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في التحذير الكبير من هذا الأمر؟!، وفي الحديث الآخر قال: «**مَا أَسْفَلَ الْكَعْبَيْنِ مِنَ الْإِزَارِ فَفِي النَّارِ**».

وهنا أذكر أمرًا يدلّ علىٰ حال المُتَّبِع هواه، بعض المستقيمين وقفوا علىٰ بعض الأحاديث الصحيحة: «**أُزْرَةَ الْمُسْلِمِ إِلَىٰ أَنْصَافِ سَاقَيْهِ**» وعملوا بهذا الحديث، وبعضهم عمل بقوله - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «**مَا أَسْفَلَ الْكَعْبَيْنِ مِنَ الْإِزَارِ فَفِي النَّارِ**» فجعل إزاره فوق الكعب، وهذا كله سُنَّة، المهم ألّا يسترخي الإزار ولا ينزل عن الكعب، فأولئك الذين جعلوا إزارهم إلىٰ أنصاف الساقين صاروا مثارًا للسّخرية من بعض غير المُتديِّنين ويتهكَّمون بهم ويسخرون منهم، هٰذا قبل سنوات، ثم بعد فترة من الزمان حدثت موضة في الغرب يلبسون البنطال إلىٰ الركبة؛ فقلدهم هؤلاء الشباب ولبسوا البنطال إلىٰ الركبة وصاروا يخرجون بالبنطال إلىٰ الركبة في الشارع!، وكانوا قبل سنوات قلائل يسخرون ممن إزاره إلىٰ نصف السّاق! وهو متّبع للسنة، وهم فيما بعد جعلوا بنطالهم إلىٰ الركبة متبعين للغرب، وكانوا قبل فترة قليلة يسخرون ممن إزاره إلىٰ نصف الساقين.

فعلىٰ كلّ حال هذه مصيبة المتبع لهواه، فمصيبة المتبع لهواه يصبح في مثل هذه المنزلقات عياذًا بالله.

وعلىٰ كلِّ حال الواجب علىٰ المسلم أن ينصح لنفسه، وأن يُعطِي نفسه قاعدة في هـٰذا الباب أن السنة كلها بركة، كلها خير، كلها فضيلة، ويطّرح هواه، ويتبع سنة رسول الله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

[المتن]

وَعَنِ الحَسَنِ بْنِ عُبيدِ اللهِ النَّخَعِي، عَنْ سَعيدِ بنِ عُبَيْدَةَ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمَا-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ- قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ». وفِي لَفْظٍ: «فَقَدْ أَشْرَكَ» إِسْنادُهُ عَلىٰ شَرْطِ مُسْلِم.

[الشرح]

هذا أشد ما في مسألة الحلف؛ أن يحلف الإنسان بغير الله، والحلف بغير الله شرك وكفركما هو واضح؛ كأن يحلف بالنبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- أو بالكعبة أو بأي مخلوق من المخلوقات، الحلف بالله -جل وعلا- «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ»، الحديث الآخر قال: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ وَلَا أُمَّهَاتِكُمْ، مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ»، وفي حديث ابن عمر هنا قال: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ»أو «أَشْرَكَ»، وهذا أشد ما يكون في باب الحلف؛ ولهذا من فقه الصحابة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم- قول ابن مسعود -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: "لَأَنْ أحلف بالله كاذبًا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا"، فالحلف بالله توحيد، والكذب كبيرة، لاحظ في كلٍ من الأمرين حتىٰ يتبين لنا الأمر، في كلٍ من الأمرين حسنة وسيئة:

الأمر الأول: فيه حسنة التوحيد، وكبيرة الكذب.

والأمر الثّاني: قال: "أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا" فيه سيّئة الشّرك، وفضيلة الصّدق، وعندما تُقارن تجد أنّ حسنة التّوحيد لا توازيها حسنة، وتجد في المقابل أنّ سيّئة الشّرك مُبطِلة للحسنات، فهـٰذا من فقه الصّحابة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم- "لَأَنْ أحلف بالله كاذبا أحبّ إليّ من أن أحلف بغيره صادقا"، وهو بعيد عن الأمرين؛ ولكن هـٰذا لتوضيح الأمر ولبيان الحكم.

[المتن]

وقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ-: «مَنْ حَلَفَ عَلَىٰ يَمِينٍ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ». قِيلَ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا؟ قَالَ: «وَإِنْ كَانَ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ».

[الشرح]

تقدم معنا هذا الحديث، نعم.

[المتن]

وَصَحَّ تَغْلِيظُ إِثْمِ الْحَالِفِ كَاذِبًا بَعْدَ العَصْرِ، وَعِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

[الشرح]

لفضيلة المكان؛ يعني الروضة جاء في فضلها «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِن رِّيَاضِ الْجَنَّةِ»، وعادةً الإنسان عندما يكون في زمانٍ فاضل وفي وقتٍ فاضل قد صلّىٰ العصر في المسجد، وجالس في الروضة، فهي في مكان فاضل ووقت فاضل، وعلىٰ إِثْرِ عبادة، ثمّ يحلف فهذا أشدّ إثما وأعظم ذنبا.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: بِاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

[الشرح]

الحلف باللات والعزّىٰ شرك، والشرك لا يكون الخلاص منه إلاّ بالرّجوع إلىٰ التوحيد، و(لا إلٰه إلا الله) هي كلمة التّوحيد، نعم.

[المتن]

وَكَانَ مِنَ الصَّحَابَةِ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ- مَنْ هُوَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِالحَلِفِ بِهَا، فَرُبَّمَا سَبَقَهُ لِسَانُهُ بِالْحَلِفِ بِهَا، فَأَمَرَهُ [النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-] أَنْ يُبَادِرَ بِقَوْلِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

[الشرح]

حديث العهد بالشيء: إذا اقتنع بالحكم قد ينفلت لسانه بحكم مألوفه ومعتاده، قد ينفلت لسانه بحكم مألوفه ومعتاده، و قد أرشد النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلىٰ (لا إلٰه إلاّ الله) لتكون كفّارةً، ففي كلّ مرّة قد انفلت لسانه وأتىٰ بهذا الحلف الذي كان قد اعتاد عليه وسبق أن اعتاد عليه، فيأتي بهذه الكفّارة، يأتي بهذه الكفّارة يقول: (لا إلٰه إلا الله).

[المتن]

وَعَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «لَا يَحْلِفُ عَبْدٌ عِنْدَ هَذَا الْمِنبَرِ عَلَىٰ يَمِينٍ آثِمَةٍ، وَلَوْ عَلَىٰ سِوَاكٍ رَطْبٍ إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ.

[الشرح]

مثل ما مرّ لفضل المكان، عندما يكون الإنسان في مسجد ولا سيما مسجد النّبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أو في الرّوضة ثمّ يتغافل عن هذا المكان وهيبته وفضيلته ثمّ يحلف اليمين الفاجرة ويقتطع بها أموال النّاس، فلا شكّ أنّ هذا أعظم إثما.

[المتن]

الكَبِيرةُ الرَّابِعَةُ والعِشْرُون

الكَذَّابُ فِي غَالِبِ أقْوالِهِ

قَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[غافر:٢٨].

[الشرح]

قال: (الكَبِيرةُ الرَّابِعَةُ والعِشْرُون: الكَذَّابُ فِي غَالِبِ أقْوالِهِ)، والكذب كلّه مفسدة؛ لكن تتفاوت مفسدته من أمر إلىٰ أمر؛ إلاّ شيئا يسيرا منه قد يكون فيه شيء من إرادة الإصلاح أو الإحسان أو نحو ذلك، وقد جاء في الشّريعة ما يدلّ علىٰ عدم المنع منه، ثمّ ما كان في الكذب من مفاسد هي متفاوتة، والأضرار التي تنجم عنها وتترتّب عليها متفاوتة، ولهذا جاء في الحديث الصّحيح أن النّبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عدّ الكذب من صفات المنافقين، وأنّه ليس من صفات المؤمن وأنّ المؤمن مجانب للكذب بعيد عنه، قال: (الكَذَّابُ فِي غَالِبِ أقْوالِهِ: قَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾)، قال فيه خطورة الكذب علىٰ الكذّاب أنّه يكون سببًا في إغلاق باب الهداية عليه وحرمانه من الخير، وهذا المعنىٰ هو أيضا يدلّ عليه ما جاء في الحديث: «لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّىٰ الْكَذِبَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا».

[المتن]

وَقَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿قُتِلَ الخَرّاصُونَ﴾ [الذّاريات:١٠].

[الشرح]

الخرّاص: هو الذي يقول ما لا يعلم بالتخرّص والظنّون، ويخبر بأشياء ليس متحقّقا عنها فيكون بذلك كثير الكذب.

[المتن]

وَقَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَىٰ الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران:٦١].

[الشرح]

هـٰذه الآية تسمّىٰ آية المباهلة، تسمّىٰ المباهلة، وتكون بين الاثنين كلّ منهما يدّعي أنّه هو الذي علىٰ الحقّ، يدّعي أنّه هو الذي علىٰ الحقّ وهو الذي علىٰ الهدىٰ، فالمباهلة خطيرة جدًّا، والإقدام عليها من الكاذب جناية علىٰ نفسه بالغة وخطيرة، يعلم من نفسه أنّه كاذب وأنّه خاطئ ثمّ يباهل، يباهل من أمامه بأنّ لعنة الله علىٰ الكاذب وهو يعلم من نفسه أنّه هو الكاذب؛ هـٰذا من أخطر وأشدّ ما يكون في باب الكذب.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَىٰ الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

هـٰذا فيه تنبيه علىٰ خطورة الكذب من جهة أنّ وقوع الإنسان في شدته وفي أنواع الكبيرة هو عبر خطوات صغيرة في البداية؛ يعني يبدأ بكَذْبَة ثمّ يُلحقها بثانية ثمّ ثالثة ثمّ يُكتب كذّابا عند الله؛ ولهذا يُغلَق الإنسان علىٰ نفسه هـٰذا الباب حتّىٰ في تربية الأولاد الصّغار ينبغي أن يلاحظ هـٰذا الأمر، وكثير من الناس لا يتّقي الله في أولاده ولا يتّقي الله في أولاد المسلمين، فيفعل عندهم أفعالا تُنشِّئهم علىٰ كذب، مثل أن يقول: تعال أعطيك حلوىٰ، أو يوهمه أنّ بيده شيء ثمّ يصل الطّفل ويفتح اليد ولا يجد فيها شيء، كثيرًا ما يُداعب الأطفال بمثل هذه الطّريقة: يُغلق يده ويقول: تعال خذ، ثمّ يصل الطّفل فرحان يظنّ أنّ في يده حلوىٰ فيفتح اليد لا يجد فيها شيئا، هـٰذا تدريب علىٰ الكذب؛ لأنّ الطّفل ولد علىٰ الصّدق وبُغض الكذب، فإذا كان يُعامل بهذه الطّريقة أو مثلا يقول: تعال أو سأعطيك كذا أو نحو ذلك ثمّ لا يحصل هـٰذا الأمر، هذا كلّه تدريب له علىٰ الكذب والجناية علىٰ فطرته، والكذب يبدأ مع الإنسان مراحل وخطوات وقد يكون بعض النّاس الذي بلغ مبلغا واسعا في الكذب، وصار من كبار الكذّابين بدايةُ كذبه علىٰ يد والده أو علىٰ يد أحد أقربائه هو الذي غرس فيه الكذب، ولا يعلم ذلك، ولا يعلم الجناية التي جناها علىٰ ولده، ولهذا هـٰذه ممارسة خاطئة تُفعل كثيرًا، وهي جناية علىٰ النَّشْء، وغرس للكذب في نفوسهم، ولهذا يكثر الكذب في الأطفال؛ بسبب هـٰذه المخالفة من الآباء والأمّهات والأقارب في التّعامل مع الأطفال، ولهذا ينبغي أن يكون من أمام الطّفل قدوات صالحة يعلّمونه الصّدق ولا ينشِّئونه علىٰ الكذب وغيره من المخالفات.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ».

وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّىٰ يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

في هٰذا الحديث والذي قبله دليل علىٰ خطورة الكذب وأنّه من صفات المنافقين وليس من صفات أهل الإيمان، المؤمن مجانبٌ للكذب، كما قال ذلك أبو بكر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: "المؤمن مجانب للكذب"، والكذب من آيات النّفاق؛ يعني علامات النّفاق.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَفْعَلْ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

[الشرح]

«مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ» يعني قال لإخوانه: إنّني رأيت البارحة في المنام كذا وكذا، وهو لم ير ذلك، وإنّما يُخبر برؤيا مناميّة كاذبة، فيقول: رأيت في المنام كذا وكذا، البارحة أو قبل ليلتين رأيت في المنام أنّني ذهبت إلىٰ كذا أو حصل لي كذا أو نحو ذلك، وهو كاذب؛ يعني أن يُخبر بهذا وهو كاذب، «كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، «شَعِيرَتَيْنِ» الشّعيرة هي الحبّة المعروفة، فيُعطَىٰ حبّتين من الشّعير ويُقال: اعقد بينهما أو اربط الشّعيرتين بعضهما ببعض ولا يستطيع أن يفعل ذلك ويُعذّب، ويُعذّب علىٰ هٰذا الكذب، يُطلَب منه «أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ» أي حبّتين من الشّعير، وهنا هٰذا الحديث حقيقةً حديث عظيم في إغلاق باب مفسدة وشر علىٰ الأمّة، باب مفسدة وشرّ عندما يتذكّر النّاس هٰذا الحديث فيه إغلاق باب مفسدة وشرّ كثير من أرباب البدع والضّلالات روّجوا بدعهم بمثل هٰذا الكذب، وأدخل علىٰ النّاس من العقائد ومن الأعمال بمثل هٰذا الكذب، وأوهم النّاس أنّ له منزلة عند الله ومكانة يوم يقول: رأيت النّبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالمنام، ويوم يقول: رأيت أَبُو بَكْر، ويوم يقول رأيت عُمَر، واليوم الثّالث جاءني عَلِيّ، يقول: "هٰذا من أولياء الله المقرّبين!، كل يوم يأتيهم واحد من الصّالحين"، وهو يكذب، وهو يريد من

ذلك أن تُقبّل يده، ويريد من ذلك أن يعظم جاهه، ويريد من ذلك أن تزداد مكانته عند النّاس، وكلّ مرّة يأتيهم بكذبة جديدة ويزداد الإقبال عليه، ويبدأ النّاس يعطونه من أموالهم، ويبدأ النّاس يتسابقون علىٰ القُرب منه؛ لأنه بمثل هٰذا الكذب الفاضح أخذ يزكّي نفسه عندهم.

وكثير ما يستعمل أرباب البدع والضّلال مثل هٰذا الباطل.

أذكر أنّني مرّة وقفت علىٰ كتاب ملئ بالأذكار المُحدَثة وفي بعضها شركيّات! وبعضها طلاسم!، حتّىٰ إنني وأنا أقلّب الكتاب قلتُ: "سبحان الله من يقبل هٰذا الكتاب؟!"، كتاب يعني عباراته مفكّكة وفيه شركيّات وفيه بدع وفيه كلمات معقّدة غير مفهومة، قلت في نفسي: "سبحان الله من يقبل هذا الكتاب؟!"، ثمّ لمّا وصلت خاتمة الكتاب وجدت المؤلّف قال: "إنّني بعد ما ألّفت هٰذا الكتاب توقّفت في نشره، وتردّدت في طبعه، وبقيت فترة من الزّمن متردّدا في طبعه، ثمّ يقول: جاءني الرّسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في المنام وقال: يا فلان لماذا هٰذا التّأخير؟! لماذا لا تبادر؟!، النّاس في حاجة إلىٰ كتابك!!"، ويقول: "وأيضا توقّفت"، يقول: "وجاءني غدا أبو بكر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يقول: لماذا وقد جاءك النّبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في المنام؟!، وجاءني عمر، ووجدت أني مضطر لطبعه وأنّ الناس يستفيدوا منه، وإلاّ أنا كنت متردّد أصلا في طبع الكتاب"، العوام مساكين والجهّال؛ يعني أبو بكر جاء وعمر جاء، وقبل ذلك النّبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فيأخذون الكتاب مأخذ التّسليم ومثل هٰذا الكذب، راجت بدع علىٰ النّاس، وراجت ضلالات، ومن لا يتّقون الله -عزّ وجل- روّجوا لباطلهم بين النّاس بمثل هٰذه الطّريقة، وهذه العقوبة، والنّبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أغلق بهذا الحديث العظيم المبارك مثل هٰذا الباب لمن يخاف الله -عزّ وجلّ ويتّقيه.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّ أَفْرَىٰ الْفِرَىٰ: أَنْ يُرِيَ الرَّجُلُ عَيْنَيْهِ مَا لَمْ تَرَيَا» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا.

[الشرح]

«**أَفْرَىٰ الْفِرَىٰ**» أي أشدّ الكذب، و"**الفرية**" الافتراء وهو الكذب، و«**أَفْرَىٰ الْفِرَىٰ**» يعني أشدّ الكذب «**أَنْ يُرِيَ الرَّجُلُ عَيْنَيْهِ مَا لَمْ تَرَيَا**»: يعني يقول: رأيت كذا وهو كاذب، "**يُريها**" يعني يدّعي أنها رأت ما لم تر.

[المتن]

وَأَخْرَجَ حَدِيثَ سَمُرَةَ بنَ جُنْدُبٍ بِطُولِهِ فِي مَنَامِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَفِيه: «وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي

رَأَيْتَهُ عَلَيْهِ يُشَرْشَرُ شِدْقَيْهِ إِلَىٰ قَفَاهُ، وَعَيْنَيْهِ إِلَىٰ قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ، فَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ تَبْلُغُ الآفَاقَ».

[الشرح]

ثم أشار إلىٰ حديث سمرة بن جندب، وهو حديث طويل في منام النّبي - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- واصطحابه في المنام لجبريل، وذَكَر عقوبات في هٰذا الحديث لمن يثقل رأسه عن الصّلاة وللزناة وللذي يكذب الكذبة تبلغ الآفاق، حديث عظيم، من لم يقف عليه ينبغي أن يقف عليه وهو في صحيح البخاري ويقرأه بطوله، وهو حديث مليء بالفوائد في باب العقوبات والتحذير من الكبائر.

والمصنف-رحمه الله- اقتصر هنا علىٰ موقع الشاهد فيما يتعلق بالكذب قال: «وَأَمَّا الرَّجُلُ» والقائل هنا جبريل للنبي -عليه الصّلاة والسّلام- قال: «أَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي رَأَيْتَهُ» أي: يا رسول الله، «يُشَرْشَرُ شِدْقَيْهِ إِلَىٰ قَفَاهُ، وَعَيْنَيْهِ إِلَىٰ قَفَاهُ» يعني "الشرشرة": القطع، "يُشرشَر الشدق إلىٰ القفا" يعني يُؤخذ بطرف الفم ويُرفع إلىٰ الخلف بأن يُقطع إلىٰ الخلف، وأيضا في شرشرة العين إلىٰ القفا تُقطع إلىٰ الخلف.

والله أعلم أن هٰذه العقوبة من جنس العمل؛ لأنه يكذب بفمه، ويُخبر عن شيء بعينه رآه وهو لم يره، فالكذب متعلق بالعين ومتعلق بالفم، والشرشرة إلىٰ قفاه ستمرّ علىٰ الأذن قطعا فهٰذه عقوبة من جنس عمله، تُقطع هٰذه الآلات التي استخدمها لترويج الكذب: "والله رأيت بعيني وسمعت بأذني" هٰذا غالبا ما يكون من الكذّاب؛ يُخبر عن شيء سمعه أو عن شيء رآه بفمه كاذبا، فتكون له هٰذه العقوبة: "يُشرشر شدقه إلىٰ قفاه وتُشرشر عينه إلىٰ قفاه" يعني تُقطع ثم تعود ثم تُقطع، وهكذا لا يزال يُعذّب بسبب الكذب.

قال: «الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ، فَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ تَبْلُغُ الآفَاقَ» سبحان الله! هٰذا الحديث في زماننا يعني تتحقق بشكل واسع جدا في مسألة الكمبيوتر والإنترنت، يجلس الإنسان في حجرته وفي بيته ويكتب بيده أو ينطق بفمه بالكذبة، وفي ثانية واحدة تصل العالم كله، كل من عنده جهاز إنترنت تصله هذه الكذبة، تبلغ الآفاق في ثانية، مجرّد ما أن يكتبها ويرسلها في نفس اللحظة تصل إلىٰ الدنيا كلها، «تَبْلُغُ الآفَاقَ»، قديما كانت تبلغ الآفاق؛ ولكن تحتاج إلىٰ وقت؛ يعني يتناقلها أهل المدينة ثم مسافر يذهب إلىٰ مدينة أخرىٰ، وهكذا حتىٰ تنتشر عبر زمن طويل، أما في زماننا تبلغ الآفاق في ثانية واحدة!، الكذبة تبلغ الآفاق في ثانية واحدة.

وهٰذا الحديث فيه تنبيه وفيه فائدة لمن يتعامل مع الإنترنت: أن يتقي الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-، وألا يضع فيه شيء من الباطل والكذب والضلالات التي تبلغ الآفاق ويبوء بإثم كل من بلغته هٰذه الكذبة وكل من انطلت عليه وكل من ترتب علىٰ رواجها عنده مفاسد، فهذا يدل علىٰ خطورة الأمر، وأن الإنسان يعني هو

قد يظن أنه في حجرته ويكتب الكلمة وتذهب وما يقول، لا، الله مطلّع عليك، وهٰذه تُكتب في أعمالك، وكل من تضرر وجنىٰ عليه قولك أو عملك هذا كل ذلك يُكتب في موازين سيئات الإنسان.

[المتن]

وَعَنْهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «يُطْبَعُ المُؤْمِنُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ لَيْسَ الخِيانَةَ وَالكَذِبَ» رُوِيَ بإسنَادَينِ ضَعِيفَينِ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وَعَنْهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «إِنَّ فِي الْمَعَارِيضِ لَمَنْدُوحَةٌ عَنِ الْكَذِبِ».

[الشرح]

إذا الإنسان أصابه موقف معيّن ووجد نفسه مضطر فـ«فِي الْمَعَارِيضِ لَمَنْدُوحَةٌ عَنِ الْكَذِبِ» يُعرِّض ولا يأتي بالكذب الصُراح وإنما يُعرِّض، والتعريض أن يأتي بكلام موهم يعني ليس كذبا صريحا وإنما كلام موهم، ويتخلص به من الموقف الذي كان مضطرًّا فيه للكذب.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «كَفَىٰ بِالمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِ مَا سَمِعَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

تحديث الإنسان بكل ما سمع هذا هو قناة الكذب وسبيلها: أن يحدِّث بكلّ ما سمع، وأن تكون مطيَّته: زعموا، وقيل، وسمعت، وينقل كل ما يسمع، هٰذا فيه خطورة علىٰ الإنسان والجناية عليه وقناة تُفضي به إلىٰ الدّخول في الكذب، ولهذا قال - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: «كَفَىٰ بِالمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِ مَا سَمِعَ».

[المتن]

وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلاَمُ-: «الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ» رَوَاهُ مُسْلِم.

[الشرح]

تشبُّع الإنسان بما لم يُعط نوعٌ من كذب، "أنا الذي فعلت كذا ، أنا الذي حصل مني كذا"، يتشبَّع بما لم يعط، يُخبر عن نفسه بأمور ليس فيها حقيقة أو واقعا فيه، فيريد أن يجلب لنفسه مدحةً أو ثناء أو مكانةً عند الناس فيبدأ يذكر عن نفسه من الخصال أو الصفات أو الأعمال تشبُّعا بما لم يعط فهو «كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ».

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

أيضا هٰـذا من الأمور التي هي قناة للكذب: اتباع الظن، والتحدث والإخبار بالأمور الظّنّية التي لم يتيقن منها الإنسان، ولهذا قال : «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ» يعني احذروه «فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ».

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ...» الحَدِيثَ. وفِيهِ: «مَلِكٌ كَذَّابٌ» رَواهُ مُسْلِم.

[الشرح]

مرّ معنا هٰذا الحديث وعرفنا أن الذّنب إذا لم يكن هناك الباعث عليه فالجرم يكون أخطر، والملِك هو ليس بحاجة إلىٰ الكذب لأنه بيده سلطة، عادة الكذب من الضّعيف، فإذا كان وُجد فيه الكذب فهذا دليل علىٰ فساد، ولهذا جاءت العقوبة الشّديدة له إن كان كذلك.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ الخَامِسَةُ والعِشْرُون

قاتِلُ نَفْسِهِ وهِيَ مِنْ أعْظَمِ الكَبَائِر

قَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا (٣١)﴾[النساء:٢٩-٣١].

[الشرح]

ثم ذكر هٰذه الكبيرة (قاتِلُ نَفْسِهِ) وهو ما يسمّىٰ في زماننا بالانتحار، وقاتل النّفس سواء قتلها بسكين أو أغرق نفسه أو رمىٰ نفسه من شاهق أو أحرق نفسه أو بأي طريقة كانت فهو مرتكب لكبيرة هي من أعظم الكبائر وأشد الآثام.

وأورد المصنف قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، قوله: ﴿لَا تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾ هٰـذا هو الشاهد من الآية: قتل النفس، ﴿لَا تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾: أي لا يقتل الإنسان نفسه، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ بل عليه أن يطلب رحمة الله ويسعىٰ في تحصيلها ويستجلبها لنفسه.

قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ وهٰذا فيه قيد قال: ﴿عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾، أمّا إذا وقع هذا خطأً أو عن غير تعمُّد أو عن غير قصد أو نحو ذلك فلا يكون شاملا له هٰذا الحكم؛ لكن هذا

فيمن يفعل هذا الأمر عدوانا وظلما قال: ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

ثم قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ﴾ الإثم وهٰذا وذكر هٰذا في هٰذا السياق دليل آخر ووجه آخر في الدّلالة علىٰ أن قتل النفس كبيرة من الكبائر.

[المتن]

وَقَالَ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الآية [الفرقان:٦٨].

[الشرح]

الشاهد من الآية: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، ومن النّفوس التي حرّم الله قتلها: أن يقتل الإنسان نفسه، فالآية بعمومها دالةٌ علىٰ تحريم قتل الإنسان لنفسه.

[المتن]

وعَنْ جُنْدُبِ بنِ عَبْدِ اللهِ -رَضِيَ اللهُ تعالىٰ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ بِهِ جُرْحٌ فَجزِعَ، فَأَخَذَ سِكِّينًا فَحَزَّ بِهَا يَدَهُ، فَمَا رَقَأَ الدَّمُ حَتَّىٰ مَاتَ. قَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: بَادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ، حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

وهٰذا فيه دليل علىٰ أنّ قاتل نفسه مرتكب لكبيرة، قال: «حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»، وفي الحديث الآخر: «أنّه فِي النّار» عقوبته أنه في النار، وهٰـــذا رجل أصابه جرح فما تحمَّل؛ جزع، فحزّ يده بالسِّكين يعني وخزها بالســكين «فَمَا رَقَأَ الدَّمُ» يعني ما توقف إلىٰ أن مات، فكان بذلك قاتلا لنفســه، فقال الله: «بَادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ أوجبت له النار أو: حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ».

[المتن]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ تعالىٰ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِسُمٍّ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّىٰ مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّىٰ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا» مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

[الشرح]

ثم ذكر هـٰذا الحديث في عقوبة قاتل نفسه بأي طريقة كانت بالسمّ أو بالسِّكين أو بغير ذلك، وأن عقوبته النار خالدا مخلّدا فيها أبدا، والقول هنا كالقول الذي سبق معنا في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾[النساء:٩٣] فهـٰذه عقوبته، وإذا وُجد مانع التوحيد والإخلاص فإنّ مرتكب الكبيرة لا يكون في النّار خلوده أبد الآباد، وإنما يبقىٰ فيها علىٰ قدر جرمه وعلىٰ قدر ذنبه، ثم يخرج بالتّوحيد الذي هو مانع من موانع الخلود، كما أيضا يدل علىٰ هـٰذا قول الله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾[النساء:١١٦]، وكما يدلّ أيضا عليه: «أخرِجوا من النّار من قال: لا إلـٰه إلّا الله وفي قلبه أدنىٰ مثقال ذرّة من إيمان»، ونظائر ذلك من النصوص الواردة في الكتاب والسنة.

[المتن]

وفِي الصَّحِيحِ حَدِيثَ الَّذِي آلَمَتْهُ الجِرَاحُ فَاسْتَعْجَلَ المَوْتَ فَقَتَلَ نَفَسَهُ بِذُبَابِ سَيْفِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «هُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ».

رَوَىٰ يَحْيَىٰ بن أَبِي بُكَيْرٍ، عَنْ أَبِي قِلَابَةَ، عَنْ ثَابِتِ بن الضَّحَاكِ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «لَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ، وَمَنْ قَذَفَ مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَاتِلِهِ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عذّبَهُ اللهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

[الشرح]

الشاهد من الحديث آخره: «وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عذّبَهُ اللهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وفي الحديث دلالة علىٰ خطورة لعن المؤمن، وسيأتي هـٰذا في كبيرة قادمة والقذف وسبق معنا في كبيرة ماضية.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ السَّادِسَةُ والعِشْرُون

القَاضِي السُّوء

قَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْظَّالِمونَ﴾[المائدة:٤٤].

[الشرح]

(القَاضِي السُّوء) هو الذي لا يحكم بالعدل ولا يحكم بما شرع الله له أن يحكم به، وإنّما يحكم بهواه فيتجلّىٰ ويظلم ويُسيء إلىٰ النّاس، ولا تكون أحكامه عادلة، وإنّما يتّبع فيها هواه ولا يتّبع فيها ما شرع الله

-تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- له أن يحكم به.

وأورد جملة من النّصوص الدّالة علىٰ أنّ هٰذا من الكبائر، منها قوله الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمونَ﴾، ظالمون لأنفسهم بهٰذا الحكم، وظالمون لمن حكموا لهم بغير الحقّ، وظالمون لمن حكموا عليهم بغير الحقّ، ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمونَ﴾.

[المتن]

وَقَالَ -تَعَالَىٰ-: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾[المائدة:٥٠].

[الشرح]

تَرْك التّحاكم بحكم الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- الذي شرعه لعباده هو من التّحاكم بحكم الجاهليّة المبني علىٰ اتّباع الأهواء.

[المتن]

وَقَالَ -تَعَالَىٰ-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾[البقرة:١٥٩].

[الشرح]

وهٰذا ممّا قد يفعله القاضي السّوء: أن يكتم الحقّ أن يكتم ما يعرف من البيّنات والهدىٰ؛ لأنّه قاضي سوء يقضي بالسّوء، لا يقضي بالبيّنات والهدىٰ الذي عَلِمَه من كتاب الله وسنّة نبيّه -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، والعقوبة: ﴿أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾.

[المتن]

وَقَدْ رَوَىٰ الْحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ بِإِسْنَادٍ لَا أَرْضَاهُ أَنَا، عَنْ طَلْحَةَ بنِ عُبَيْدِ اللهِ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «لَا يَقْبَلُ اللهُ صَلَاةَ إِمَامٍ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ».

وَصَحَّحَ الْحَاكِمُ أَيْضًا، وَالْعُهْدَةُ عَلَيْهِ، مِنْ حَدِيْثِ بُرَيْدَةَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «قَاضٍ فِي الْجَنَّةِ وَقَاضِيَانِ فِي النَّارِ: قَاضٍ عَرَفَ الْحَقَّ فَقَضَىٰ بِهِ فَهُوَ فِي الجَنَّةِ، وَقَاضٍ عَرَفَ الْحَقَّ فَجَارَ مُتَعَمِّدًا فَهُوَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ قَضَىٰ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَهَوَ فِي النَّارِ».

[الشرح]

الحديث الأوّل الذي قال: (لا أرضىٰ إسناده) نبّه المحقّق في الهامش أنّ في سنده عبد الله بن محمد

العدوي وهو وضّاع.

والحديث الثّاني أخبر النّبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أنّ القضاة ثلاثة قاض في الجنّة وقاضيان في النّار، وبيّن ذلك - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- أنّ القاضي الذي في الجنّة هو الذي عرف الحقّ وحكم به، وأنّ القاضي الذي في النّار فالذي «عَرَفَ الْحَقَّ فَجَارَ»: يعني كتم الحقّ ولم يحكم به، أو قاضٍ قضىٰ بغير علم، فهٰذان في النّار.

[المتن]

قُلْتُ: فَكُلُّ مَنْ قَضَىٰ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا بَيِّنَةٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ عَلَىٰ مَا يَقْضِي بِهِ، فَهُو دَاخِلٌ فِي هٰذَا الْوَعِيدِ.

[الشرح]

نعم، منصوص عليه في الحديث: «وَقَاضٍ قَضَىٰ بِغَيْرِ عِلْمٍ».

[المتن]

وَرَوَىٰ شُرَيْكٌ، عَنِ الأعْمَشِ، عَنْ سَعْدِ بن عُبَيدَةَ عَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أبِيهِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «قَاضِيَانِ فِي النَّارِ وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ...» وَذَكَرَ الحَدِيْث. قَالُوْا: فَمَا ذَنْبُ الَّذِيْ جَهَلَ؟ قَالَ: «ذَنْبُهُ أَلَّا يَكُونَ قَاضِيًا حَتَّىٰ يَعْلَمَ» إِسْنَادُهُ قَوِيٌّ.

[الشرح]

هٰذا بمعنىٰ ما سبق قال: «وَقَاضٍ قَضَىٰ بِغَيْرِ عِلْمٍ»، ذنبه أنّه حكم بغير علم، نعم.

[المتن]

وَأَقْوَىٰ مِنْهُ حَدِيْثُ مَعْقِلِ بنِ سِنَانٍ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «مَا مِنْ أحَدٍ يَكُونُ عَلَىٰ شَيءٍ مِنَ أُمُوْرِ هَـٰذِهِ الأُمَّةِ فَلا يَعْدِلُ فِيهِمْ إلاَّ كَبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ».

[الشرح]

والعدل فيهم يكون ناتجا عن العلم بشرع الله، فمن عرف الشّرع ولم يحكم لم يعدل، ومن حكم بغير معرفة الشّرع لم يعدل.

[المتن]

وَرَوَىٰ عُثْمَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْأَخْنَسِيِّ -وَهَوَ صَدُوقٌ- عَنِ المَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «مَنْ جُعِلَ قَاضِيًا بَيْنَ النَّاسِ فَكَأَنَّمَا ذُبِحَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ».

[الشرح]

وهٰذا يدل علىٰ خطورة القضاء، وأنّ القاضي في أمر خطير، ويحتاج إلىٰ أن يجاهد نفسه دائمًا وأبدًا علىٰ موافقة حكم الله وإقامة الحُكم، ويجاهد نفسه علىٰ التوسّع بمعرفة الدّلائل والأحكام والفقه في دين الله -جلّ وعلا-، ومراجعة المسائل، فالأمر ليس بالهيِّن، أمر خطير، «فَكَأَنَّمَا ذُبِحَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ»، ولا يسلم إلاّ من سلّمه الله -تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ-، بتحرّي الإنصاف وملازمة العدل ومراجعة الأحكام، وسؤال الله -عزّ وجل- التّوفيق.

[المتن]

أَمَّا إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ وَقَضَىٰ بِمَا قَامَ الدَّلِيْلُ عَلَىٰ صِحَّتِهِ، وَلَمْ يَحْكُمْ بِرَأْيِ فَقِيهٍ، وَقَدْ لاَحَ لَهُ ضَعْفُ ذَلِكَ الْقَوْلِ فَهُوَ مَأْجُورٌ وَلاَبُدَّ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «وَإِنْ اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَيْنِ، وَإِنْ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

هٰذا في حقّ من يحكم بعلم، هٰذا في حقّ من يحكم بعلم ويتكلّم بعلم ويقضي بعلم، ويبني أحكامه علىٰ اجتهاد في معرفة النّصوص والأدلّة، فمن كان بهٰذه الصّفة إن أصاب فله أجران للإصابة وللاجتهاد، وإن أخطأ فله أجر واحد والذّنب مغفور؛ لأنّه ليس كلّ مجتهد مصيبًا للحق، ليس كلّ مجتهد مصيبا للحق، قد يخطئ، فإذا كان متحريّا للحق حريصا علىٰ إصابة الحق متّبعا للدّليل؛ ولكنّه مع تحرّيه واجتهاده أخطأ، فالخطأ مغفور وله أجرٌ علىٰ تحرّيه واجتهاده.

[المتن]

فَرَتَّبَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْأَجْرَانِ إِذَا اجْتَهَدَ فِي الْحُكْمِ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ مُقَلِدًا فِيْمَا يَقْضِي بِهِ فَلَمْ يَدْخُلْ فِي هٰذا الخَبَرِ فَلَا يَدْخُل فِي الخَبَرِ.

[الشرح]

يعني إذا كان لا يبني الأمر علىٰ الدّليل وعلىٰ مراجعة الأدلّة وكلام الله وكلام رسوله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فإنّه لا يكون قد اجتهد، والحكم هنا خاصٌّ بمن اجتهد في ضوء الأدلّة ونظر فيها وبنىٰ عليها.

[المتن]

وَيَحْرُمُ عَلَىٰ القَاضِي أَنْ يَحْكُمَ وَهُوَ غَضْبانٌ، لَاسِيَّمَا مِنَ الْخَصْمِ.

[الشرح]

لا سيما من خصم؛ يعني إذا كان غضبه من الخصم نفسه، فإذا كان غضبان من الخصم يُوقِف الحُكم، لا يحكم حال الغضب؛ لأنّ الإنسان حال غضبه قد يسيطر عليه الغضب فيحكم بغير الحق وبغير الصّواب، ولهٰذا جاء في الحديث: «أَسْأَلَكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا»، كلمة الحقّ في الرّضا يعني قد تكون سهلة؛ لكن كلمة الحقّ في الغضب صعبة، ولهٰذا أُمِرَ الغضبان كما في السنّة: «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ» يعني لا تتكلّم وقت غضب؛ لأنّ الغالب علىٰ كلام الإنسان وقت غضبه عدم الانضباط، الغالب علىٰ كلام الإنسان وقت غضبه عدم الانضباط؛ فلهٰذا يسكت حتّىٰ يسكن الغضب، والقاضي إذا كان غضبان ولا سيما من الخصم فلا يحكم، وإنّما ينتظر أو يؤجّل حتّىٰ يسكن ويهدأ غضبه، ثمّ يحكم بعد ذلك.

[المتن]

وَإِذَا اجْتَمَعَ فِي القَاضِي قِلَّةُ عِلْمٍ وَسُوءُ قَصْدٍ وَأَخْلَاقٌ زَعِرَةٌ وَقِلَّةُ وَرَعٍ، فَقَدْ تَمَّتْ خَسَارَتُهُ، وَوَجَبَ عَلَيهِ أَنْ يَعْزِلَ نَفْسَهُ وَيُبَادِرَ بِالْخَلَاصِ مِنَ النَّارِ.

[الشرح]

إذا اجتمعت في القاضي هٰذه الخصال: قلّة العلم، وسوء القصد، وأخلاق زَعرة يعني أخلاق سيّئة وعنيفة وشديدة، مع قلّة ورع، فهٰذا قد تمّت خسارته، والواجب عليه أن يتدارك نفسه ويعزل نفسه عن القضاء؛ لأنّ بقاءه في القضاء بهٰذه الطّريقة تزايد في الإثم وكثرة في الذّنوب يلقىٰ الله بها يوم القيامة، فأولىٰ له أن يعزل نفسه حتّىٰ يريح نفسه من هٰذا المنصب الذي هو ليس أهلاً له وليس صالحا للبقاء فيه.

[المتن]

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَعْنَةُ اللهِ عَلَىٰ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ» صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

[الشرح]

هٰذا الحديث إذا أورده المصنّف في باب القاضي السّوء للمناسبة؛ لأنّ القاضي إذا كان قاضي سوء فهو يرتشي؛ يعني لسوئه قد يرتشي، يأخذ الرِّشوة ليحكم لأجل الرّاشي، فلعن النّبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الراشي والمرتشي، الرّاشي الذي يدفع الرّشوة، والمرتشي الذي يأخذها، فقاضي السّوء قد يصل به سوؤه أن يرتشي يعني يقبل الرِّشوة، لأجل أن يحكم لصالح من رشاه؛ من أعطاه الرّشوة، فلهٰذه المناسبة أورد

المصنّف -رحمه الله- هٰذا الحديث وإن كان ليس مختصًّا في باب القضاء وإنّما هو في كلّ مجال، الرّشوة مُحرّمة في كلّ مجال؛ ولكن لمّا كان القاضي السّوء قد يصل به الأمر إلىٰ هٰذا الموصل نبّه المصنّف أو أشار المصنّف -رحمه الله- إلىٰ هٰذا الحديث، ثمّ تغيير الأسماء لا تُغيِّر الحقائق، تغيير الأسماء لا تُغيِّر الحقائق، فالعبرة في الحقائق ولو غُيِّرت الأسماء، وكثير من هٰذه الكبائر والمحرّمات يغيّر النّاس أسماءها، ثمّ يمضي متعاملا بها، فالرّشوة بعضهم يُسمّيها إكراميّة، يُسمّيها بعضهم إكراميّة، والرّبا يُسمّونه فائدة، والخمر يُسمّونه مشروبًا روحيًّا، والشّرك بالله يسمّونه توسُّلا، فهٰذه التغييرات في الأسماء ما تُغيّر الحقائق، لا تُغيّر الحقائق، العبرة بحقائق الأمور، فإذا دفع رشوة وسمّاها باسم طيّب إكراميّة أو شيء من هٰذا القبيل ما يتغيّر الحكم، الحكم باقٍ، وهو يغالط نفسه في هٰذا.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ السَّابِعَةُ والعِشْرُون

القَوَّادُ المُسْتَحْسِنُ عَلَىٰ أَهْلِهِ

قَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ﴾[النور:٣].

[الشرح]

(القَوَّادُ) هٰذه كبيرة من الكبائر، والقوّاد من القَوْد وهو أخذ الإنسان وقيادته إلىٰ مكان ما، وأُطلقت هٰذه الكلمة في الشّرع علىٰ من يقود إلىٰ فعل الفاحشة ويَجُرّ، ويقال له القوّاد وأيضا يقال له الجرّار؛ لأنّه يجرّ إلىٰ فعل الفاحشة، وسواء قاد إلىٰ الفاحشة في أهله -والعياذ بالله- مثل ما قال: (القَوَّادُ المُسْتَحْسِنُ عَلَىٰ أَهْلِهِ)، أو قادها إلىٰ الآخرين سواء كان رجلا أو امرأة، فهٰذا كبيرة من كبائر الإثم وعظيمة من عظائم الذّنوب، والدّال علىٰ الشرّ كفاعله، و«من دعا إلىٰ ضلالة»؛ يعني مثل هٰذه العمومات أيضا تشمل في عمومها شناعة هٰذا العمل وفظاعته، قال الله -تعالىٰ-: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ﴾، الحديث في عمومه -كما مرّ- يدلّنا علىٰ خطورة هٰذا الفاحشة، وأيضا يدلّنا علىٰ أنّ من يمارس هٰذه الفاحشة تقع في قلوب النّاس البُغْضَ له، ولهٰذا يصل حاله عند النّاس أنّ الزّانية لا يرضىٰ بها العفيف ولا يقبلها، فلا يرضاها إلاّ زانٍ مثلها أو مشرك غير مؤمن بالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-، فهٰذا يدلّ علىٰ شناعة الزّنا وقبحه وحرمته علىٰ المؤمنين، فإذا كان الأمر بهٰذه الصّفة وبهٰذه الشّناعة وبهٰذا القبح كيف يصل الأمر بإنسان أن يكون قوّادًا إليه!، أمر وصفه الله -عزّ وجلّ- بهٰذه الصّفة وبهٰذه الشّناعة فكيف يقبل الإنسان

به السوء والخبث إلىٰ أن يكون قوّادًا لهٰذا الأمر الذي حرّمه الله وبيّن شناعته وبيّن أنّه حتىٰ بلغت الشناعة عند المؤمنين أنّ من تمارس الزنا لا يقبلها الرجل العفيف، فلا يقبلها إلا من هو علىٰ شاكلتها أو من هو مشرك بالله -عزّ وجلّ-.

فالأمر والحالة هٰذه، كيف يصل الإنسان به مبلغا في الخبث فيكون قوآدا لهٰذا الأمر الذي حرّمه الله -عزّ وجل- ورتّب عليه الحدّ في الدنيا والعقوبة الأليمة في الآخرة؟!

[المتن]

وَعَنْ سُلَيْمَانَ بنِ بِلالٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ يَسَارٍ الأَعْرَجِ، قَالَ: حَدَّثنَا سَالِمُ بنُ عَبْدِ اللهِ، عَنْ أَبِيْهِ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «ثَلاثَةٌ لا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ: العَاقُّ [لِـ]وَالِدَيْهِ، وَالدَّيُوثُ، وَرَجُلَةُ[1] النِّسَاءِ» إِسْنَادُهُ صَحِيْحٌ، لَكِنَّ بَعْضَهَمْ يَقُولُ: عَنْ أَبِيْهِ عَنْ عُمَرَ مَرْفُوعًا.

فَمَنْ كَانَ يَظُنُّ بِأَهْلِهِ الفَاحِشَةَ وَيَتَغَافَلُ لِمَحَبَّةٍ فِيهَا،[2] فَهُوَ دُوْنَ مَنْ يُعْرِسُ عَلَيْهَا، وَلَا خَيْرَ فِيْمَنْ لا غَيْرَةَ لَهُ.

[الشرح]

ثم ذكر هٰذا الحديث في الثلاثة الذين لا يدخلون الجنة وهم: العاق والديه، قدّ مرّ معنا في كبيرة سبقت[3]، والديوث وهو موضع الشاهد هنا.

والديوث: هو الذي يقرّ الخَبَث في أهله ولا يَغار علىٰ أهله وحريمه، ولا يبالي يعلم عنهم أنهم يمارسون الفاحشة وتحصل منهم فلا ينزعج ولا يتضجّر ولا يهتمّ بالأمر ولا كأن شيئا حصل!!، فمن كان بهٰذه الصفة فهو دَيُّوث، وهو ممن أخبر النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عنهم أنه لا يدخل الجنة.

فهٰذا يدلّنا علىٰ أن الدِّيَاثَة كبيرة من الكبائر وعظيمة من عظائم الذّنوب.

قوله في العنوان: (القَوَّادُ الـمُسْتَحْسِنُ عَلَىٰ أَهْلِهِ)، ما أدري هل العنوان هكذا في كل النسخ (القَوَّادُ الـمُسْتَحْسِنُ عَلَىٰ أَهْلِهِ) ؟، غالبا النُّسخة التي مع الإخوان، نسختنا؛ لكن طبعات أخرىٰ، معك طبعة أخرىٰ؟.

هٰذا الكتاب الذي معك طبعة مختلفة؛ هٰذه الطبعة التي قلنا: إنّها يعني إما أن تكون منسوبة للذهبي أو

---

(١) الرَّجُلَةُ: المتَرَجِّلَةُ، وهي المرأة التي تَتَشَبه بالرَّجلِ في الزِّيِّ والهَيْئَة.

(٢) في نسخة: أَوْ لأَنَّ لَهَا عَلَيْهِ دَيْنٌ وَهُوَ عَاجِزٌ، أَوْ صَدَاقٌ ثَقِيْلٌ، أَوْ لَهُ أَطْفَالٌ صِغَارٌ، تَرْفَعُهُ إِلَى القَاضِي وَتَطْلُبُهُ بِفَرْضِهِمُ.

(٣) الكبيرة السادسة.

تكون يعني مُسوَّدة وهي مختلفة عن التي معنا في التّرتيب، في هٰذه الطبعة، قال: (الدّيوث المستحسن علىٰ أهله والقوّاد السّاعي بين الاثنين بالإفساد).

أنا يلوح لي و-الله أعلم- أن العنوان: (القَوَّادُ وَالمُسْتَحْسِنُ عَلَىٰ أَهْلِهِ)، فلعلّ بعضكم يُحقق ويراجع.

والقَوَّادُ: هو الساعي بين الاثنين؛ يعني يجرّ سواء علىٰ أهله أو علىٰ غيره، هٰذا هو القواد، والدَّيُوث: المستحسن علىٰ أهله، والنّصوص التي ذكرها المصنف -رحمه الله- تشمل هٰذا وهٰذا.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ الثَّامِنَةُ والعِشْرُون

الرّجُلَةُ مِنَ النِّسَاءِ وَالْمُخَنَّثُ مِنَ الرِّجَالِ

قَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾[الشورىٰ:٣٧] الآية.

[الشرح]

قال: (الكَبِيرَةُ الثَّامِنَةُ والعِشْرُون: الرّجُلَةُ مِنَ النِّسَاءِ وَالْمُخَنَّثُ مِنَ الرِّجَالِ).

(الرّجُلَةُ مِنَ النِّسَاءِ) هي المسترجلة التي تتشبه بالرجال، (وَالْمُخَنَّثُ مِنَ الرِّجَالِ): هو الذي يتأنث ويتشبه بالنساء، وكل منهما ملعونٌ علىٰ لسان رسول الله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

أورد أولا قول الله -عزّ وجلّ-: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾، فالآية بعمومها تدلّ علىٰ شناعة هٰذا الأمر، دلالتها بعمومها.

[المتن]

قَالَ ابنُ عَبَّاس -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمَا-: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْمُخَنَّثِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالْمُتَرَجِّلَات مِنْ النِّسَاءِ» صَحِيْحٌ.

وعَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «لَعَنَ اللهُ الرَّجُلَةَ مِنَ النِّسَاءِ» إسْنَادُهُ حَسَنٌ.

[الشرح]

هٰذا الحديث والذي قبله فيهما اللالة علىٰ أن الرّجلة من النساء والمخنث من الرجال كلٌّ منهما مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب؛ لأنّها مستوجبة للّعن، واللّعن: هو الطرد والإبعاد من رحمة الله -عزّ وجلّ-.

[المتن]

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةُ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ-: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ الْمَرْأَةِ، والْمَرْأَةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ» إِسْنَادُهُ صَحِيْحٌ.

[الشرح]

وهٰذا مثل ما سبق؛ يعني التّشبه باللباس أو بالمشي أو بالكلام أو غير ذلك، كلّه مستوجب للّعن.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مَائِلَاتٌ مُمِيلَاتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَتُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا» أَخْرَجَهُ مُسْلِمُ.

[الشرح]

الشاهد: من الحديث ذِكْرُ النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لهٰذا الصنف من أهل النار: «نِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ»، «كَاسِيَاتٌ»: يعني عليهن ثياب، «عَارِيَاتٌ»: أي أن الثياب ليست ساترة ولا محتشمة، إمّا أن تصف العورة أو تشفّ عنها أو تحجّمها أو تبينها، فهي في الظاهر كاسية وفي الحقيقة عارية فاتنة.

«مَائِلَاتٌ مُمِيلَاتٌ»؛ يعني مائلات في مشيهنّ أمام الناس، مميلات للرجال بطريقتهن في الحركة والمَشْي فِتْنَةً، ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[النور:٣١]؛ لأنّ هٰذا فيه إمالة للرجال، ومُتنافي مع العفّة التي ينبغي أن تكون عليها المرأة.

«رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ»؛ يعني تجمع شعرها فوق رأسها بهٰذه الصفة كأسنمة البخت المائلة.

قال -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَتُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا» أي مسافة بعيدة.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «أَلَا هَلَكَ الرِّجَالَ حِينَ أَطَاعُوا النِّسَاءَ».

[الشرح]

هٰذا «أَلَا هَلَكَ الرِّجَالَ حِينَ أَطَاعُوا النِّسَاءَ» هٰذا لم يثبت عن النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، والمرأة في عقلها أضعف وعقلها أقصر؛ لكن لا يعني هٰذا أنه ليس عندها رأي أو لا فَهم عندها، ليس هٰذا هو المعنىٰ.

لكن صحّ عن النبي - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أن المرأة ناقصة عقل ودين، ولهٰذا في الشهادة شهادتها

علىٰ نصف شهادة الرجل، فهي دونه، وهٰذا جعله الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ–، وهٰذا لا يعني انتفاء العقل أو عدم حصول فهم، ليس هٰذا هو المراد؛ لكن عقلها ناقص كما أخبر –عليه الصلاة والسلام–: «**ناقصات عقلٍ ودين**»، وبعض النساء التي ليس عندها مكانة، ليس في قلبها مكانة عظيمة للسّنّة قد تنزعج من هٰذا الحديث، وربما بعضهن؛ يعني يبلغ بها المبلغ أن تكتب معترضة كيف تكون (المرأة ناقصة عقل) وهي التي فعلت وهي التي حصل وهي...، وتبدأ تنتقد، ولهٰذا يقولون من الطرائف، يقولون بعض النساء أتين إلىٰ أحد العلماء معترضات علىٰ هٰذا الحديث، وبدأن عنده يعترضن: كيف يقال عن المرأة: إنّها ناقصة عقل ودين؟ وكيف؟ وكيف؟ والمرأة كذا؟، فلما انتهين من الاعتراض، قال: انتهيتنّ؟ قلن: نعم، قال – وهو رجل من علماء مصر–: النبي – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، قال: "النبي – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لما قال النساء ناقصات عقل ودين لم يقصدكن"، فأصابهن شيء من الفرح الآن خرجن من الحديث، قال: "لما قال ناقصات عقل ودين لم يقصدكن، وإنما قصد نساء الصحابة ومن كُنَّ علىٰ طريقة نساء الصحابة، أمّا أنتن لا عقل ولا دين!، أما أنتنّ لا عقل ولا دين"، كيف تعترضن علىٰ [الحديث]؟، يقولون: النساء واحدة منهن سمينة جدا وأرادت أن تلطف الموقف، قالت: "أليس النبي – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قال: «**رفقا بالقوارير**؟»، قال: "إي نعم، قال: «**رفقا بالقوارير**»، ما قال: رفقا بالبراميل"، كان مُغضب من الموقف.

علىٰ كل حال يعني هٰذه كانت إجابته، وربما يعني أنه الموقف جعله يغضب ويتكلم بهٰذه الطريقة، لكن الشاهد: أنه يوجد من النساء من يعني إذا قلّ حظّها من التعظيم للسّنّة في قلبها لا تبالي وتعترض بهٰذه الطريقة علىٰ حديث رسول الله –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

[المتن]

فَمِنَ الأَفْعَالِ الَّتِي تُلْعَنُ عَلَيْهَا المَرْأَةَ إظْهَارُ الزِّيْنَةِ وَالذَّهَبِ وَاللُّؤْلُؤِ مِنْ تَحْتِ النِّقَابِ، وَتَطَيُّبهَا بِالمِسْكِ وَالعَنْبَرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَلُبْسُهَا الصِّبَاغَات والمُدَلِّسِ، إلىٰ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ القَبَائِحِ.

[الشرح]

يعني كل هٰذه الأمور التي هي من إظهار المرأة للزينة وهي فتنة للرجال، تُظهِرُ الذهب أو الحلي أو يعني تُبيّن من تحت النقاب محاسنها أو كذلك تتطيب بالمسك والعنبر وما له رائحة، فتجذب الناس إليها، أو نحو ذلك، أيضا تلبس "المداس" يعني الذي لا يستر قدمها، فكل هٰذه من الأمور التي قال عنها المصنف: من القبائح التي لا تليق بالمرأة المسلمة العفيفة.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ التَّاسِعَةُ والعِشْرُون

الْمُحَلِّلُ والْمُحَلَّلُ لَهُ

صَحَّ مِنْ حَدِيْثِ ابنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللهُ تَعَالىٰ عَنَهُ-: أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- «لَعَنَ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَإِسْنَادُهُ جَيِّدٌ.

[الشرح]

المُحَلِّلْ وَالمُحَلَّلُ لَهُ هٰذا في النكاح، أن يُطلّق الرَّجل زوجة الطلقة الثالثة ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾[البقرة:٢٣٠]، فيأتي المحلل ويُسمىٰ "التّيس المستعار"، يأتي به لينكحها فقط ليُحلِّلُها له؛ يعني ينكحها لمجرّد أن يحللها له.

فالمُحَلِّلْ وَالمُحَلَّلُ لَهُ كل منهما مَلْعُون؛ لأن من باشر هٰذا العمل ليكون مُحلِّلا الزّوجة لزوجها أو طلب هٰذا العمل الزوج -الذي هو المُحلَّل له- طلب هٰذا العمل لتُحلّل له زوجته، فكل منهما ملعون.

و هٰذا يدلّ علىٰ أن الأمر من الكبائر، وهو واضح أنه من الكبائر للّعن، لَعَنُ النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وإن كان المصنف كأنه يعني عنده شيء من التردّد في هٰذا؛ لأنه في الأخير قال أمور يحتمل أنها من الكبائر وأورد هٰذا الحديث، أورد من ضمنها يعني هٰذا الحديث.

فالحديث واضح أنه من الكبائر، واللعن لا يكون إلا عن أمر كبير.

[المتن]

وَعَنِ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِثْلُهُ. رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ إلاَّ النَّسَائِي.

وَلَكِنَّ فَاعِلَ هَذِهِ القَاذُورَةِ مُقَلِّدٌ عَامِلٌ بِرُخَصِ المَذَاهِبِ، لَمْ يَبْلُغْهُ النَّهْيُ، فَلَعَلَ اللهَ أَنْ يَعْذُرَهُ وَيُسَامِحَهُ.

[الشرح]

يعني هٰذا نوع من الاعتذار من المصنف -رحمه الله- في حقِّ من لا يعلم أو أُفتِي فتوىٰ خاطئة وظنَّ أن الأمر صحيح، لعلّ مثل هٰذا يقول: يكون معذورا.

۞۞۞۞

[المتن]

الْكَبِيرَةُ الثَّلَاثُون:

أكْلُ المَيْتَةِ والدَّمِ ولَحْمِ الخِنْزِيرِ

قَالَ اللهُ-تَعَالَىٰ-: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ...﴾[الأنعام:١٤٥] الآيَةَ.

فَمَنْ تَعَمَّدَ أكْلَ ذَلِكَ لِغَيْرِ ضَرُوْرَةٍ فَهُوَ مِنَ المُجْرِمِينَ، وَمَا أحْسَبُ أنَّ مُسْلِمًا يَتَعَمَّدُ أكْلَ لَحْمِ الخِنْزِيرِ،وَرُبَمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ زَنَادِقَةُ الجَبَلِيةِ وَالتَّيامِنَةُ الخَارِجِينَ مِنَ الإِسْلامِ، وَفِي نُفُوسِ المُؤْمِنِيْنِ أنَّ أَكْلَ الخِنْزِيرِ أعْظَمُ مِنْ شُرْبِ الخَمْرِ.

وَصَحَّ أنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ، النَّارُ أوْلَىٰ بِهِ».

[الشرح]

ثم قال المصنف -رحمه الله-: (أكْلُ المَيْتَةِ والدَّمِ ولَحْمِ الخِنْزِيرِ) أي أن هذا من الكبائر. والخنزير هو الحيوان المعروف، وقد حرّم الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- أكله في القرآن الكريم؛ قال -جلّ وعلا- ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ...﴾[الأنعام:١٤٥]

وهٰذا فيه أن الأصل في الأطعمة الحِلّ إلا ما حرّمه الله، ومن ذلك هٰذه المحرّمات، وأيضًا ما جاء تحريمه في سنّة الرّسول الكريم -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمَ-.

ثم بيّن شأن الخنزير وأنه لا يظنّ أنّ الإنسان الأصل فيه أنه ما يظن أن مسلمًا يتعمّد أكله بغير ضرورة لظهور شناعة أكله عند المسلمين.

ومما ذُكر -يعني ذكره عدد من أهل العلم- في الآثار السيئة لأكل لحم الخنزير أنه يميت الغيرة ويولِّد الدّياثة فيمن يأكل هٰذا اللحم؛ ولعل في اللحم من الفساد أو الضرر ما يجلب للإنسان خلل في سلوكه وفي خُلقه وفي معاملته، فهٰذا أمر لا ريب أنّ الله -عزَّ وجلَّ- جعل فيه تأثيرًا، بل إن الأمر ليس فقط بالأكل؛ رعي الغنم يعطي السكينة والطُّمأنينة.

فعلىٰ كل حال هذا أمر محرم في كتاب الله -عزَّ وجلَّ-، وأكل لحم الخنزير كبيرة من الكبائر، يقول الذهبي: (وَفِي نُفُوسِ المُؤْمِنِيْنِ أنَّ أَكْلَ الخِنْزِيرِ أعْظَمُ مِنْ شُرْبِ الخَمْرِ) والخمر مرّ معنا أنها أم الخبائث، إذا شرب الخمر، أكل لحم الخنزير، وزنا وفعل كل المحرّمات وقول النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الذي

أورده المصنف: «لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ، النَّارُ أَوْلَىٰ بِهِ»، هٰذا -بعموم- يدلّ علىٰ تحريم أكل الخنزير وأنه من الكبائر.

[المتن]

وَقَدْ أَجْمَعَ المسْلِمُونَ عَلَىٰ تَحْرِيمِ اللَّعِبِ بِالنَّرْدِ، وَيَكْفِيْكَ مِنْ حُجَجِهِمْ عَلَىٰ تَحْرِيْمِهِ قَوْلُ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الَّذِيْ ثَبَتَ عَنْهُ: «مَنْ لَعِبَ بالنَّرْدَشِيرَ فَكَأَنْمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ الخِنْزِيرِ وَدَمِهِ».

[الشرح]

هٰذا استدلال لطيف أورده المصنف -رَحِمَهُ الله- هنا ليُبيّن الشّناعة القائمة في النفوس لأكل لحم الخنزير؛ فالنبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لمّا ذمّ اللعب بالنّرد -وهو يُعرف في هٰذا الزمان بالشطرنج وهي لعبة قديمة-، فلمّا ذمّ اللعب بالنرد (أو النردشير) بيّن شناعة هٰذه اللعبة لأمر متقرر في النفوس، قال: «فَكَأَنْمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ الخِنْزِيرِ وَدَمِهِ» يعني وقد قام في النفوس شناعة هٰذا الأمر: أن تُصبَغ اليد بلحم الخنزير ودم الخنزير، قائم في النفوس قذارة هٰذا وشناعته، فهذا وجه لطيف أورده المصنف هنا -رَحِمَهُ الله- لبيان شناعة لحم الخنزير، أي أنّه من المتقرّر في نفوس المؤمنين أنه أمر شنيع: أن يُلطخ الإنسان يده بلحم الخنزير ودمه؛ ولهذا جعل النبي -صلّىٰ اللهُ عليهِ وسلَّم- مَثَل تحريم النّرد مثل هٰذا الذي قام في النفوس قذارته وشناعته وهو أن يلطخ الإنسان يده بلحم الخنزير ودمه.

[المتن]

وَبَلا رَيْبٍ أَنَّ غَمْسَ المُسْلِمِ يَدَهُ فِي لَحْمِ الخِنْزِيرِ وَدَمِهِ أَعْظَمُ مِنَ اللَّعِبِ بِالنَّرْدِ، فَمَا الظَّنُّ بِأَكْلِ لَحْمِهِ وَشُرْبِ دَمِهِ؟!!

أَجَارَنَا اللهُ مِنْ ذَلِكَ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

[الشرح]

هٰذا وجه الاستدلال للمسألة، قال: إنه لا ريب أنَّ غمس اليد في لحم الخنزير ودمه أعظم من اللعب، فكيف بالأكل، أكل لحم الخنزير وشرب دمه، يعني الأمر أفظع.

واللعب بالنّرد ذمّه السّلف قديما وجمعوا فيه مصنفاتهم، وممن أفرده في مصنَّف: الآجريّ -رَحِمَهُ الله- له كتاب قيّم في تحريم النرد والشطرنج وهو مطبوع متداول.

قد جاء عن علي بن أبي طالب -رَضِيَ اللهُ عنه- أنه مرَّ علىٰ قوم يلعبون بالنرد أو الشطرنج، فقال: "ما

هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟" والأدوات التي تُحرَّك علىٰ رقعة الشطرنج هي تماثيل: تمثال لملك، وتمثال لحصان، وتمثال لجنود؛ تماثيل، ويعكفون عليها الساعات لهذه التماثيل، لهذا رآها علي -رضي الله عنه- فقال: "ما هٰذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟".

ومثل هٰذه التماثيل، التماثيل التي في اللعبة التي تسمىٰ بالفرفيرة يعني توضع كرة، وهناك تماثيل علىٰ شكل لاعبين، ثم يلعب اثنان متقابلان علىٰ هذه اللعبة وكلّ له مقابض يُمسكها من جهته وهو يمارس هذه اللعبة، وأمامه هذه التماثيل، وإحكام هٰذه اللعبة -لعبة الفرفيرة- تتطلب من اللاعب أن يركع في كل مرة يريد أن يُتقن الإصابة، فيكون علىٰ هذه الحالة السيئة أمام هذه التماثيل، يركع ركوعا من بعد ركوع أمام هٰذه التماثيل -نسأل الله السلامة والعافية-.

وكنت كتبتُ عنها كتابة مختصرة وقرأتها -زمان- علىٰ الشيخ عبد العزيز بن باز -رَحِمَهُ الله-، ومضمونها هٰذا المضمون، فقال لي -رَحِمَهُ الله- أن هٰذه اللعبة مثل ما في التقرير الذي ذكرته له، يعني واضح أنها محرمة ولا تجوز ولا يصح اللعب بها، وهي تماثيل واضحة، وإتقان اللعبة لا يكون إلا عن ركوع أحيانا حتىٰ يجيد ضبط الفوز علىٰ ما يتعاملون به، وتكثر هٰذه اللعبة في رمضان، ويا سبحان الله! المسلمون في الليل في المساجد ركعا وسجدا في بيوت الله يرجون رحمة من الله ورضوانا، والشّباب وأهل اللهو أشغلتهم أمثال هٰذه اللعب ونظائرها عن الإقبال علىٰ طاعة الله -سُبْحَانه وَتَعَالىٰ- والفوز برحمته -عزَّ وجلَّ-.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ الحَادِيَةُ وَالثَّلاثُوْن:

عَدَمُ التَّنَزُّهُ مِنَ البَوْلِ، وَهُوَ شِعَارُ النَّصَارَىٰ

قَالَ اللهُ-تَعَالَىٰ-: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[المدثر:٤].

[الشرح]

ثم ذكر هٰذه الكبيرة (عَدَمُ التَّنَزُّهُ مِنَ البَوْلِ، وَهُوَ شِعَارُ النَّصَارَىٰ)؛ النصارىٰ، إذا جاءه البول، في أي مكان، ثم يلبس ملابسه ولا يبالي بالقاذورات والنجاسة التي تؤذيه أو تكون فيه.

وأذكر أننا مرة كنا في سفر، وكان معي في ذلك السفر رجل كفيف، فكان في أثناء السفر ونركب الطائرة

ونجلس في أماكن، فكان إذا مرّ أحدهم يلتفت عليه يقول: "مرّ نصراني" يقول: "عرفته من رائحته"؛ كلّ ما مرّ يقول: "عرفته من رائحته"؛ لأنه يمرّ ثم تمرّ الرائحة الكريهة معه، فكلّما مرّ يلتفت عليّ ويقول لي: هٰذا نصراني مرّ، -أو عبارة من مثل هٰذا القبيل- من الرائحة. هٰذه طريقتهم، ما يستنزهون من البول، ولهذا رائحتهم كريهة، ويضع الطيب لكن الطيب ما يرقّع الرائحة، فالرائحته الخبيثة تغلب الطيب، والطيب فترته محدَّدة ثم تذهب رائحة الطيب ويبقىٰ خَبثه، ويريد أن يرقّع الرائحة بوضع الطيب والطيب يطير ما يبقىٰ، يعني يبقىٰ نصف ساعة، ساعة بالكثير ثم تذهب رائحة الطيب ويبقىٰ الخبث، وفي حال وجود الطيب فهو طيب ممزوج بالخَبث، والغالب علىٰ الخبث أنه يغلبه ثم تذهب رائحة الطيب ويبقىٰ خبثا محضا ورائحة كريهة. فالنصارىٰ هٰذه طريقتهم، لا يستنزهون من البول.

فعدم التنزّه من البول كبيرة وهو من التشبّه بالنّصارىٰ، فعدم التنزّه من البول كبيرة، واستدل بذلك بعموم قوله تعالىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[المدثر:٤].

فهٰذا فيه الاستنزاه من البول.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ومَرَّ بِقَبْرَيْنِ: «إِنَّهُمَا يُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَنْزِهُ مِنَ بَوْلِه، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

أذكر رفيقي هٰذا، أحيانا إذا مرّ يضع شماغه -بهذه الطريقة- ثم إذا انتهىٰ مروره قال: "نصراني مرَّ" يعني مرّ، رائحته تؤذيه جدا، فأوّل ما تراه أقبل يضع الشماغ بهذه الطريقة ثم إذا انتهىٰ قال: "أفّ نصراني مرّ" والرائحة هذه ناتجة من عدم الاستنزاه من البول.

الحديث الذي ساقه المصنف -رَحِمَهُ اللهُ- واضح في أن عدم الاستنزاه من البول كبيرة. قال: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ» تأتي بعض روايات الحديث «أما إنه لكبير» فقوله: «وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ» ليس المراد أن هذا الأمر ليس من كبائر الذنوب، وإنما المراد ليس كبيرا علىٰ النفوس، يعني أمر سهل ليس أمرا عظيما يشقّ علىٰ الناس، بل أمر سهل جدا:

الأول: عدم الاستنزاه من البول، والاستنزاه من البول سهل، يعني أن يتبوّل الإنسان باحتياط يعني لا يطير عليه من رشاشه، وإذا انتهىٰ غسله كما جاء في السنّة، أو استجمر كما جاء في السنّة، أمر سهل جدا

يعني لا يشقّ علىٰ الإنسان.

وعدم المشي بالنميمة أيضا سهل، كلّه عملية كفّ للسان، فليس أمرا كبيرا يعني ليس أمرا عظيما.

فهذا المراد بقوله: «وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ» أي في أمر كبير علىٰ النفوس.

ثم قال: «أما إنه لكبير» يعني من الأمور الكبيرة ومن الذّنوب الكبيرة، وهٰذا استدراك؛ حتىٰ لا يُفهم القول الأول خطأ.

«أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَنْزِهُ مِنَ الْبَوْلِ» يعني لا ينظّف نفسه من البول ولا يحتاط بنفسه من رشاش البول.

«وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ» والنّميمة كبيرة، وهي القالة بين الناس والمشي بينهم بنقل الكلام علىٰ وجه الإفساد بينهم.

[المتن]

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ الطُّرُقِ التِي فِي الصَّحِيْحَيْنِ لهذا الحديث فيها: «فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ بَوْلِهِ».

[الشرح]

«لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ بَوْلِهِ» المعنىٰ آخر «لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ بَوْلِهِ» يعني إذا ذهب ليتبوَّل لا يستتر عن أعين الناس، فلا يبالي أن يروه علىٰ هذه الحال ، وكان النبي ــ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ ــ إذا أراد أن يقضي حاجته أبعد ،وفي آداب لقضـاء الحاجة معلومة في السـنة و في كتب الأحكام، فعدم الاسـتتار هو عدم رعاية لحفظ العورة وسـترها عن أعين الناس، فالإنسـان إذا احتاج إلىٰ التبوُّل لا بد أن يُبعِد وأن يتوارىٰ عن الناس حفظًا لعورته و سترا لها ، ففي بعض ألفاظه «لا يستتر» من الاستتار، وفي بعضها «لا يسْتَنْزِه» يعني من التنزه وهو التنظف من آثار البول.

[المتن]

وَعَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللهُ تعالىٰ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «تَنَزَّهُوا مِنَ الْبَوْلِ فَإِنَّ عَامَّةَ عَذَابِ الْقَبْرِ مِنْهُ» رَوَاهُ الدّارقُطْنِي.

[الشرح]

وهٰذا فيه شاهد للمعنىٰ الأول في الحديث السابق «كَانَ لاَ يَسْتَنْزِهُ مِنْ الْبَوْلِ» هنا قال :«تَنَزَّهُوا مِنَ الْبَوْلِ فَإِنَّ عَامَّةَ عَذَابِ الْقَبْرِ مِنْهُ».

[المتن]

ثُمَّ إِنَّ مَنْ لَمْ يَحْتَرِزْ مِنَ البَوْلِ فِي بَدَنِهِا وثِيَابِهِ فَصَلاَتُهُ غَيْرُ مَقْبُوْلَةٍ.

[الشرح]

الصلاة لا تُقبل إلا بالطهارة ، مرَّ معنا قريبا «لا تُقبل صلاة بلا طهور» فإذا كان لا يسْـتَـنْزه من البول فيكون صلّىٰ علىٰ غير طهارة ولا تكون صلاته مقبولة.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ الثَّانِيَةُ والثَّلاثُون:

المَكَّاسُ

وَهُوَ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ-تَعَالَى-: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَىٰ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الشورىٰ:٤٢].

[الشرح]

(المَكَّاسُ) والمكْس هو أخذ للأموال ووضع ضرائب علىٰ الأموال وأخذها بغير حق، أخذ للمال بغير حق فيُسمّىٰ "المكس"، يدل علىٰ تحريمه عموم قول الله ــ سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ ــ : ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَىٰ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فكل بغيٍ و ظلمٍ للناس بغير الحق في المال أوفي الأعراض أو في الدماء فهو محرّم ، ومن ذلكم المكس الذي هو أخذٌ لأموال الناس بغير الحق.

[المتن]

وَفِي الحَدِيْثِ، فِي الزَّانِيَةِ الَّتِي طَهَّرَتَ نَفْسَـهَا بِالرَّجْمِ: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَـاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ، أَوْ لَقُبِلَتْ مِنْهُ».

[الشرح]

قوله : «لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ» يدل علىٰ أن صاحب المكس علىٰ كبيرة و علىٰ ذنب عظيم ويدل علىٰ كِبَر هذا الذنب قول النبي ــ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ــ : «تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ» يعني ذنب صاحب المكس عظيم جدا، وهٰذه التوبة التي تابتها هذه المرأة من الزنا ، لو تابـها صاحب مكس لقُبلت منه يعني لقوة التوبة التي حصلت منها، فهذا في مفهومه يدل علىٰ أن صاحب المكس ذنبه عظيم و جرمه كبير جدّا

.

[المتن]

والمَكَّاسُ فِيْهِ شَبَهٌ مِنْ قَاطِعِ الطَّرِيقِ، وَهُوَ شَرٌ مِنَ اللِّصِّ، فَإِنَّ مَنْ عَسَفَ النَّاسَ وجَدَّدَ عَلَيْهِمُ ضَرَائِبَ فَهُوَ أظْلَمُ وَأغْشَمُ مِمَّنْ أنْصَفَ فِي مَكْسِهِ وَرَفَقَ بِرَعِيَّتِهِ.

[الشرح]

ثم بيّن يعني خطورة المكّاس وأنها أشدّ وأشرّ من السارق، وهو شبيه بقاطع الطريق ووجه الشبه بينه وبين قاطع الطريق لأن كلاًّ منهما يقعد في الطريق و يقعد للأخذ، كلٌّ منهما يقعد في الطريق للأخذ و لهذا قال: (فِيْهِ شَبَهٌ مِنْ قَاطِعِ الطَّرِيقِ) لأن كُلاًّ منهما قاعد في الطريق للأخذ.

[المتن]

وَجَابِي المَكْسِ وَكَاتِبُهُ وَآخِذُهُ مِن جُنْدِيٍّ وَشَيْخٍ وَصَاحِبِ زَاوِيَةٍ شُرَكَاءُ فِي الوِزْرِ، أكَّالُونَ لِلسُّحْتِ.

[الشرح]

يعني الأمر في المكس يتناول الكاتب والآخذ والجندي وكل مَنْ هم متعاونون علىٰ هـٰذا الأخذ.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ الثَّالِثَةِ والثَّلاثُون:

الرِّيَاءُ وَهُوَ مِنَ النِّفَاقِ

قَالَ اللهُ –تَعَالَىٰ– عن المنافقين : ﴿يرَآءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[النساء:١٤٢].

[الشرح]

فالرياء كبيرة من الكبائر وهو من النفاق وهو من خصـال المنافقين كما قال الله –تعالىٰ– في وصف المنافقين: ﴿يرَآءُونَ النَّاسَ﴾ و **"الرياء"** يُظْهِر الإنسـان من العمل ما لا يُبطن، يُظهر الصـلاح ويُبطن الفسـاد، يُظهر الإخلاص ويُبطن خلاف ذلك، والمراءاة هي أن يُرِي الناس بأعينهم ما ليس حقيقتُه قائمةً في نفسه، يعني ما ليس له حقيقة قائمة في نفسه، فهـٰذا هو الرياء.

والرياء نوعان:

رياء خالص ﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾[البقرة:١٤]، ﴿إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ﴾[المنافقون:١]، ففي رياء خالص فهٰذا صاحبه كافر، من المنافقين الذين هم في الدَّرْك الأسفل من النار.

والنوع الثاني: يسير الرياء صاحبه مخلص لكن أحيانا وفي بعض الأعمال يخالط عمله رياء ،يزين عملا صالح لرؤية أحد له كما قال -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: «إنَّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي: يقوم الرجل فيُزَيِّن صلاته لِما يرىٰ من نظر الرَّجل» يعني يزيِّن عمله لكون أحدا رآه، فهذا يسير الرياء، وليس محبطا للأعمال كلّها ناقلا من الملّة ، ولكنه محبط للعمل الذي قام فيه لا يقبله الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- منه.

[المتن]

وقَالَ -تَعَالَىٰ-: ﴿...كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ﴾[البقرة:٢٦٤] الآية.

[الشرح]

هذا مثال من أمثلة الرياء **"الرياء في النفقة"** ينفق يعني مالا يعطيه للفقراء والمحاويج رياءً ليس طلبا لثواب الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- والله لا يقبل العمل ،النفقة أو غيره إلا إذا كان خالصا لوجه الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «أَوَّلُ النَّاسِ يُقْضَىٰ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ اللهُ نِعمَتَهُ فَعرَفَهَا، فقَالَ: مَا عمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّىٰ اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِيُقَالَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ اللهُ نِعمَتَهُ، فَعرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ .ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعمَهُ فَعرَفَهَا، فقَالَ: مَا عمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهِ لَكَ، قَالَ:كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ. فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ سُحِبَ إِلىٰ النَّارِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

ثم أورد المصنف ـــ رحمه الله ـــ هذا الحديث في بيان كبيرة الرياء ، والرياء يكون في كل الأعمال الصالحة، يكون في الجهاد ويكون في الصلاة ويكون في طلب العلم ويكون في الإنفاق والبذل، يكون في الأعمال الصالحة، فمن عمل عملا صالحا ليقال عنه أي ليُثنىٰ عليه وليُمدح وليُطرىٰ عند الناس فإنه لا يُحصِّل عند الله شيئا، لأنه لم يعمل لله، ولا يقبل الله العمل إلا إذا كان له ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾[الإسراء:١٩] فإذا كانت لله وقدَّم العمل متقرِّبا به إلىٰ الله كان في صالح عمله، أما إذا قدَّم العمل للنّاس فإنه يُحصِّل ما عند الناس بأن يقولوا: فلان جريء، فلان عالم، فلان منفق. وتنتهي بموته، تنتهي هذه الأمور بموته ، و لا يجد عليها ثوابا يوم القيامة بل إنه يُسحب إلىٰ النار كما جاء في الحديث: «فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ» لأنه لم يتقرّب بهذه الأعمال لله، وهي أعمال لا يُتقرّب بها إلاّ إلىٰ الله ،و لكنه فعلها ليُمدح و ليُثنىٰ عليه، و ليقال عنه جريء، أو يقال عنه عالم أو ليقال عنه مجاهد أو يقال عنه منفق أو نحو ذلك.

فالشاهد أن الحديث دليل علىٰ أن الرياء من الكبائر وذلك للوعيد لفاعله بأنه يوم القيامة يُسحب علىٰ وجهه حتىٰ يلقىٰ في النار، نسأل الله –جلّ و علا– العافية والسّلامة.

[المتن]

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ –رَضِيَ اللهُ تعالىٰ عَنْهُمَا– أَنَّ أُنَاسًا قَالُوْا لَه: "إِنَّا نَدْخُلُ عَلَىٰ أُمَرَائِنَا فَنَقُولُ لَهُمْ بِخِلافِ مَا نَتَكَلَّمُ به إِنْ خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِمْ." قَالَ ابْنُ عُمَرَ: "كُنَّا نَعُدُّ هَذَا نِفَاقًا عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–". رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

[الشرح]

ثم أورد الإمام الذهبي –رحمه الله– هٰذا الحديث لبيان وجه من وجوه المراءاة أن يتظاهر الإنسان بأقوال أو أشياء من هٰذا القبيل في مقام من المقامات ثم لا يكون عليه في مقام آخر ، فيكون يتزين لما يرىٰ، يتزين بالصلاح يتزين بالتُقىٰ، يتزين بنحو ذلك لما يرىٰ من نظر الرجل إليه، سواء أمير أو وزير أو غير ذلك ثم لا يكون في معتاد وقته كذلك، فيقول ابن عمر: «كُنَّا نَعُدُّ هَذَا نِفَاقًا عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ–صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–».

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

ثم ذكر هـٰذا الحديث في خطورة الرياء و عقوبة المرائي والعقوبة من جنس العمل « مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ »أي أن الله -عزَّ و جلَّ- يفضحه يوم القيامة ،و كذلك المرائي والمسَمِّع ،**"المسمِّع"** هو الذي يُسمِّع بعمله يُسمِّع الناس بعمله ، و المرائي الذي يُرِي الناس عملَه، المسمّع هو الذي يسمّع بعمله أن الذي كذا وكذا وأنا الذي كذا ، فيذكر أعماله للناس جلبا للمدح أو جلبا للثناء، والمرائي هو الذي يرائي أي يري الناس عمله والعقوبة من جنس العمل «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ ، وَمَنْ رَاءىٰ يُرَائِي اللهُ بِهِ».

[المتن]

وَعَنْ مُعَاذٍ -رضي الله تعالىٰ عنه- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «اليَسِيرُ مِنَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ» صَحَّحَهُ الحَاكِمُ.

[الشرح]

«اليَسِيرُ مِنَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ» يعني شرك أصغر، والرياء الخالص شرك أكبر ناقل من الملَّة ، أمّا اليسير من الرياء فهو شرك أصغر لا ينتقل به صاحبه من الملَّة، والنبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أرشد إلىٰ دعوة نافعة في هـٰذا الباب لأنّ الإنسان يحتاج إلىٰ مُجاهدة تامّة للخلاص من الرياء والسمعة، يحتاج إلىٰ مجاهدة، وقد تغلبه نفسه في مقامات ومقامات ، فأرشد النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- الصحابة إلىٰ دعاء نافع في هـٰذا الباب وهو في الأدب المفرد للبخاري وغيره بسند ثابت أن النبي -صلّىٰ الله عليه سلّم- قال : «الشّرك فيكم أخفىٰ من دبيب النّمل، ألا أدلكم علىٰ شيء إذا قلتموه أذهب عنكم قليل الشرك وكثيره». قلنا: بلىٰ يا رسول الله. قال: «اللّهمّ إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم»؛ لأنه قد يتسلل إلىٰ نفس الإنسان أشياء خفية تدخل إلىٰ قلبه ولا يشعر بها، فالمواظبة علىٰ هذا الدعاء نافع جدا ومفيد للمسلم، كما أرشد إلىٰ ذلك رسول الله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «اللّهمّ إنّي أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم».

❁❁❁❁

[المتن]

الكَبِيرَةُ الرَّابِعَةُ والثَّلاثُون:

الخِيَانَة

قَالَ اللهُ –تَعَالَىٰ–: ﴿لا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الأنفال:٢٧].

[الشرح]

الخيانة ضدّ الأمانة، ومن أوصاف المؤمنين الأمانة، والمؤمن صاحب أمانة، ولا إيمان لمن لا أمانة له، فالخيانة ليست من صفات أهل الإيمان، الخيانة ضدّ الأمانة، وهي من أوصاف المنافقين، والمنافق إذا اؤتمن خان، يعني لا يفي ولا يلتزم بما اؤتمن عليه، بل يخون، فالخيانة من أوصاف المنافقين وليست من صفات أهل الإيمان، وهي من الكبائر.

ومن الأدلّة علىٰ هذه الكبيرة قول الله –تعالىٰ–: ﴿لا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وفيها خطورة الخيانة، وأعظم الخيانة أن يخون الله ورسوله فيما ائتمنه عليه من القيام بدين الله، لأنّ الدّين أمانة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَىٰ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[الأحزاب:٧٢-٧٣]، هٰذه أحوال النّاس مع الأمانة (أمانة الدّين)، وهم ينقسمون مع هٰذه الأمانة إلىٰ أقسام ثلاثة:

القسم الأوّل: حمل الأمانة في الظّاهر والباطن خراب تباب وهو المنافق.

والقسم الثّاني: لم يحمل الأمانة لا في ظاهره ولا في باطنه، وهو المشرك.

قال الله –تعالىٰ–: ﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾.

القسم الثّالث: هو من حمل الأمانة في باطنه وظاهره، وسرّه وعلنه، وهو المؤمن، قال الله –تعالىٰ–: ﴿وَيَتُوبَ اللهُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

هذه أحوال الناس مع الأمانة وفي حمل الأمانة التي هي حمل الدّين، وأعظم الخيانة الخيانة في هٰذه الأمانة؛ لهذا قال الله –تعالىٰ–: ﴿لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾[الأنفال:٢٧]، وهٰذا نوع من الخيانة، خيانة الأمانة التي تكون بين الناس فيما يأتمن بعضهم بعضا عليه.

[المتن]

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾[يوسف:٥٢].

[الشرح]

وهٰذا خطورة الخيانة وجنايتها علىٰ صاحبها، قال: ﴿وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾.

[المتن]

وقال تعالىٰ-: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَومٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾[الأنفال:٥٨].

[الشرح]

هٰــذا إذا كان بين المسلمين وبين الكفار عهد، إذا كان؛ فالواجب علىٰ المسلمين أن يفوا بالعهد وأن يلتزموا به، وإذا بلغ الأمر أنّ المسلمين خافوا من الكفّار ألاّ يلتزموا، يعني ظهرت منهم علامات واضحة أنّهم لن يلتزموا بالعهد الذي بينهم وبين المسلمين، فإذا بلغ حال الكفّار هٰــذا المبلغ ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ يعني تخبرهم أنّ العهد الذي بيننا أنهيناه، أو توقّفنا عنه، فليس بيننا وبينكم عهد، يعني إذا ظهر منهم علامات الخيانة وعدم الالتزام ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ يعني انبذ إليهم العهد الذي بينك وبينهم.

ومن دلائل الآية في الباب قول الله –تعالىٰ-: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾ فهٰــذا يدلّ علىٰ أنّ الخيانة كبيرة وعمل لا يحبّه الله.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:((لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ، وَلاَ دِيْنَ لِمَنْ لاَ عَهْدَ لَهُ)).

[الشرح]

النّفي كما سبق نفي للإيمان الواجب، ليس نفيا لأصل الإيمان، وإنّما هو نفي للإيمان الواجب، ولا يكون إلاّ عن أمر كبير وأمر عظيم، فالحديث دليل علىٰ أنّ الخيانة وعدم الأمانة كبيرة من كبائر الذّنوب.

[المتن]

وقال ـ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ ـ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ:إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ».

[الشرح]

«آية المنافق» أي: علامته، علامة النّفاق، وذكر منها «إذا اؤتمن خان»، وهو موضع الشّاهد من الحديث.

[المتن]

وَالخِيَانَةُ فِي كُلِّ شيءٍ قَبِيْحَةٌ، وَبَعْضُهَا شَرٌّ مِنْ بَعْضٍ، وَلَيْسَ مِنْ خَانَكَ فِي فِلْسٍ كَمَنْ خَانَكَ فِي أَهْلِكَ

وَمَالِكَ وَارْتَكَبَ العَظَائِمَ.

[الشرح]

أراد المصنّف -رحمه الله- أن يختم هنا في بيان تفاوت الخيانة في درجتها، يعني ليست الخيانة في رتبة واحدة، حتىٰ الخيانة بين الناس، وضرب علىٰ ذلك مثالا قال: (من خانك في فلس) يعني في شيء قليل ويسير جدا من النّقود والمال (وَلَيْسَ .. كَمَنْ خَانَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ وَارْتَكَبَ العَظَائِمَ)، فأراد أن يبيّن أنّ الخيانة كلّها مذمومة، وهي متفاوتة في كبرها وحجمها وقبحها.

[المتن]

الكَبِيرَةُ الخَامِسَةُ والثَّلاثُون:

التَّعَلُّمُ لِلدُّنيَا وَكِتْمَانُ العِلْمِ

قَالَ اللهُ-تَعَالَىٰ-: ﴿إِنَّمَا يَخْشَىٰ اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر:٢٨].

[الشرح]

ثم ذكر هٰذه الكبيرة وهي (التَّعَلُّمُ لِلدُّنيَا وَكِتْمَانُ العِلْمِ)، هاتان كبيرتان:

الأولىٰ: التعلّم للدّنيا، يعني أن يطلب العلم للدّنيا، والعلم عبادة وقربىٰ لله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-، فطلب العلم للدّنيا كبيرة، أن يتعلّم العلم ليطلب به الدّنيا هٰذا كبيرة.

وكذلك كتمان العلم كبيرة من كبائر الذّنوب، والعلم عبادة وقربىٰ وطاعة لله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- لا يطلبه الإنسان إلاّ لطلب رضا الله -عزّ وجلّ-.

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَىٰ اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، فهٰذا هو ثمرة العلم الصّحيح والعلم النّافع، أنّه يورث الخشية والإقبال علىٰ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-، لا الإقبال علىٰ الدّنيا وقصدها بطلب العلم.

[المتن]

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾[البقرة:١٥٩].

[الشرح]

هٰذه الآية فيها تحريم كتمان العلم، تحريم كتمان العلم ممّن آتاه الله -عزّ وجل- البيّنات والْهُدىٰ،

وأخبر الله -عزّ وجل- أنّ كاتم العلم يلعنه الله ويلعنه اللاّعنون، وكتمان العلم إخفاؤه وعدم إظهاره، هٰذا المراد بكتمانه، وقت الحاجة إليه، إخفاءً للعلم وإخفاءً للحق وإخفاءً للهدىٰ وتضليلا للنّاس، فهٰذا كبيرة من كبائر الذّنوب.

أمّا إذا كان الغرض صيانة العلم، يعني كتمه عن بعض النّاس صيانةً للعلم عمّن لا يحمله ولا يُحسن حمله، أو إذا كان الإنسان منزلته في العلم لم يصل إلىٰ مثل بعض المسائل المتقدّمة، فلا يجيبه، لا يجيبه بالعلم، ليس هٰذا كتمانًا وإنّما هٰذا مصلحة.

[المتن]

وَقَالَ -تَعَالَىٰ-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾[البقرة:١٧٤].

[الشرح]

(وقال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾) أيضا هٰذه نظير الآية التي قبلها في سورة البقرة في بيان عقوبة وحكم مرتكب هٰذه الكبيرة، وهي كتمان العلم.

[المتن]

وَقَالَ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾[آل عمران:١٨٧] الآية.

[الشرح]

ثمّ أيضا ذكر هٰذه الآية وفيها خطورة كتمان العلم، وأنّ الله أخذ الميثاق علىٰ أهل العلم أن يبيّنوا العلم للنّاس ولا يكتمونه، فمن كتمه خالف هٰذا الميثاق وهٰذا العهد الذي أخذه الله -عزّ وجل- علىٰ من آتاه الله العلم.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ تعلَّمَ عِلما مِمَّا يُبْتَغَىٰ بِهِ وَجهُ اللهُ، لا يتعَلَّمُه إلا ليُصِيبَ بِهِ عَرَضا مِن الدُّنيا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يومَ القِيامَةِ» يعني: رِيحها. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ صَحِيْحٍ.

[الشرح]

هٰذا فيه عقوبة الذي يتعلّم العلم الذي يُبتغىٰ به وجه الله لا يتعلّمه إلاّ ليصيب به عرض الدّنيا، يعني نيّته فيه ليست خالصة لله وإنّما نيّته في طلبه نيْل عرض الدّنيا، فعقوبته أنّه لا يجد عرْف الجنّة أي رائحة

الجنّة.

[المتن]

وَقَدْ تقدّمه حَدِيْثُ أَبِيْ هُرَيْرَةَ -رَضِـيَ اللهُ عَنْهُ- فِي الثَّلَاثَةِ الذِيْنَ يُسْـحَبُونَ إِلَىٰ النَّارِ، أَحَدُهُمُ الَّذِيْ يُقَالُ لَهُ: «إِنَّمَا تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَدْ قِيْلَ».

روىٰ يَحْيَىٰ بْنُ أَيُّوبَ، عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ مَرْفُوعًا: «لَا تَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ تُمَارُوا بِهِ السُّـفَهَاءَ، وَلَا تَحيزوا بِهِ الْمَجَالِسَ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالنَّارُ النَّارُ» رَوَاهُ ابْنُ وَهْبٍ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ فَأَرْسَلَهُ.

[الشرح]

هـٰذا ممّا يتنافىٰ مع الإخلاص في طلب العلم، أن يتعلّم المرْء العلم ليباهي به العُلماء، يعني ليحصل له المباهاة والمفاخرة في مجالس أهل العلم.

ومن الأمثلة علىٰ ذلك أن يضبط مسألة من المسائل الدّقيقة ثمّ يذكرها في مجلس عالم، ثمّ يبدأ يتكلّم فيها لأنّه راجعها مراجعة واسعة حتّىٰ يحصل له المفاخرة والمباهاة وأنّه عنده ما ليس عند العالم، ويقصد بذلك في قرارة نفسه أن يبرز وأن يظهر، وأن يكون له الفخْر، وأن يفتخر في المجلس، فهـٰـذه نيّة فاسدة، ولو جلس ليالي يضبط مسألة لا تكون في صالح عمله، لأنّه ضبطها للمفاخرة والمباهاة، وهـٰذا ممّا يتنافىٰ مع الإخلاص.

وكذلك مماراة السّفهاء، مماراة السّفهاء لأجل الخصومة والجدل، والظّهور في المجالس، وغلبة الآخرين، حتّىٰ ولو كان علىٰ غير الحقّ يحرص أن يكون له الغلبة، وإفحام الآخرين وإسكاتهم، هـٰـذه مماراة السّفهاء؛ يعني طلب العلم من أجل مماراة السّفهاء.

أو كذلك ليحيز به المجالس، أن تكون المجالس له، ويشتهر ويفخر علىٰ النّاس، هـٰذا كلّه يتنافىٰ مع الإخلاص، فلا يكون عمل الإنسان مقبولاً، بل هو يتنافىٰ مع الإخلاص، يتنافىٰ مع طلب العلم قاصدا به وجه الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-، العقوبة قال: «فالنّار النّار».

[المتن]

وَرَوَىٰ إِسْحَاقُ بنُ يَحْيَىٰ، عَنْ عَبْدُ اللهِ بنِ كَعْبِ بنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنِ ابْتَغَىٰ العِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ العُلَمَاءَ أَوْ يُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ تُقْبِلَ أَفْئِدَةُ النَّاسِ إِلَيْهِ فَإِلَىٰ النَّارِ» وَفِيْ لَفْظٍ:

«أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ» أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، لَكِنَّ إِسْحَاقَ وَاهٍ.

[الشرح]

نعم، وهو بمعنىٰ ما سبق.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ» إِسْنَادُهُ صَحِيْحٌ، رَوَاهُ عَطَاءٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

[الشرح]

هٰـــذه عقوبة كاتم العلم أنّه يوم القيامة يُلجم بلجام من نار، يعني ليس كاللُّجُم التي في الدّنيا، اللّجام الذي يوضع علىٰ الدّابة من القماش، يوضع علىٰ فمها حتّىٰ لا تأكل، إذا أراد صاحبها أنّها لا تأكل يضع عليها لجاما علىٰ فمها، فلا تستطيع أن تأكل، والذي يكتم العلم ويمنعه مع حاجة النّاس إليه يُلجم يوم القيامة ليس بقماش وإنّما بلجام من نار، لجام لا كاللُّجُم، وإنّما لجام من نار عقوبة له علىٰ كتمانه للعلم.

[المتن]

وقال عبد الله بن عيّاش القتباني، عن أبي أبيه، عن أبي عبد الرحمٰـــن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «من كتم علمًا ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار» قال الحاكم علىٰ شرطهما، ولا أعلم له علة.

[الشرح]

نعم، وهو بمعنىٰ ما سبق.

[المتن]

وقال النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «اللَّهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع».

[الشرح]

قوله في الحديث: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع» فيه تعوذ بالله من العلم الذي لا ينفع؛ إما أن يكون العلم نفسه غير نافع أو أن يكون العلم نفسه نافع لكن لا ينتفع به صاحبه، ولهٰـــذا جاء في الدعاء الآخر ((اللهم علمني ما ينفعني وانفعني بما علمتني)) فقد يكون العلم نافعا لكن صاحبه لا ينتفع به، يحصّله ولكن لا ينتفع به، فالإنسان يتعوذ بالله من العلم الذي لا ينفع، ومقصود العلم العمل كما قال

علي بن أبي طالب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-:

يهتف بالعلم العمل فإن أجابه وإلا ارتحل.

[المتن]

وعن النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «من تعلم علما لغير الله -أو أراد به غير وجه الله- فليتبوأ مقعده من النار» حسنه الترمذي.

[الشرح]

وهٰذا يدلّ عليه ما سبق لأن العلم عبادة، والعبادة لا تقبل إلا إذا كانت خالصة لله، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[البينة:٠٥].

[المتن]

وعن ابن مسعود -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: من تعلم علما لم يعمل به لم يزده الله إلا كبرا.

[الشرح]

(**من تعلّم علما لم يعمل به**) يعني لم يكن محافظا علىٰ العمل بما يتعلم يصاب بالكبر؛ ويصاب بالكبر، والكبر مرّ معنا قُبْحُه وبيان الأدلة في ذمِّه، فالذي يتعلم ولا يعمل يصاب بالكبر، ولهٰذا تطامن الإنسان وتواضعه أن يكون كلّما ازداد علما ازداد عملا، يقول ابن القيم رحمه الله: كل علم لا يزداد به الإنسان عملا مدخول. يعني نية صاحبه فيه مدخولة؛ لأنه لو كانت خالصة لازداد به عملا وصلاحا وإقبالا علىٰ الله عز وجل.

[المتن]

وروي عن أبي أمامة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عن النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «يجاء بالعالم السوء يوم القيامة فيقذف في جهنم فيدور بقصبه كما يدور الحمار بالرحىٰ، فيقال: بم لقيت هٰذا وإنما اهتدينا بك؟ فيقول: كنت أخالفكم إلىٰ ما أنهاكم عنه».

[الشرح]

هٰذا الحديث ثابت في الصّحيحين من حديث أسامة بن زيد -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، والحديث فيه عقوبة العالم السوء يوم القيامة أنه يؤتىٰ به يوم القيامة ويقذف به في النار، ويطاف بها كما يطاف بالحمار بالرحىٰ، يعني يدور وتندلق أمعاءه كما جاء في الحديث، ويسأله أهل النار: أي فلان ما كنت تأمرنا

بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر فآتيه. فهٰـــذه عقوبته يوم القيامة أن يُلقىٰ في النار علىٰ هٰــذه الصفة (كنت أخالفكم إلىٰ ما أنهاكم عنه)، وفي قول شعيب لقومه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾[هود:٨٨].

ولهٰـذا يقول بعض العلماء: ثلاث آيات في القرآن ينبغي علىٰ كل متعلم أن يجعلها نصب عينيه هٰـذه الآية ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾[هود:٨٨].

والآية الثانية قول الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢)﴾[الصف:٠٢].

والآية الثالثة في ســورة البقرة: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَــوْنَ أَنفُسَــكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (٤٤)﴾[البقرة:٤٤].

[المتن]

وقال هلال بن العلاء: طلب العلم شديد، وحفظه أشد من طلبه، والعمل به أشد من حفظه والسلامة منه أشد من العمل به .

[الشرح]

أي أنّ هٰـــــذا المقام مقام مجاهدة قال الله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[العنكبوت:٦٩]:

مجاهدة أولا علىٰ الطلب والتحصيل.

مجاهدة علىٰ الفهم والاستذكار.

مجاهدة علىٰ العمل والتطبيق.

مجاهدة علىٰ إخلاص النية في ذلك كله لله.

مجاهدة علىٰ الثبات علىٰ ذلك حتىٰ الممات.

فالأمر يحتاج إلىٰ مجاهدة متواصلة.

[المتن]

الكَبِيرَةُ السَّادِسَةُ والثَّلاثُون

المَنَّـان

قَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾[البقرة: ٢٦٤].

[الشرح]

(المَنَّـــان) هو الذي يعطي ويُتبع عطيته بالمنّ علىٰ من أعطاه، بذكر عطيته وتذكيره بها، وإيذائه بها، هٰـــذا هو المنان الذي يمنّ علىٰ أعطىٰ بما أعطاه، (قَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿لا تُبْطِلُوا صَـدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾) يعني الذي يتصدق ويتبع ما تصدق به بمنٍّ وأذىٰ علىٰ من أعطىٰ هٰـذا مبطل للصدقة، والمنان عمله هٰذا من كبائر الذنوب.

[المتن]

وَفِي الحَدِيْثِ الصَّـحِيْح: «ثَلاثَةٌ لا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: الْمُسْـبِلُ إِزَارَهُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ».

[الشرح]

هٰذا الحديث سبق أن مر معنا والشاهد منه قوله: (الْمَنَّانُ).

[المتن]

عُمَرُ بنُ يَزِيد الشَامِيُّ، عَنْ أَبِي سَلاَّمٍ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «ثَلاَثَةٌ لاَ يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُمْ صَرْفًا وَلاَ عَدْلاً: عَاقٌّ، وَمَنَّانٌ، وَمُكَذِّبٌ بِالْقَدَرِ» عُمَرُ: صُوَيْلِحٌ.

[الشرح]

ثم ذكر رحمه الله هٰذا الحديث «ثَلاَثَةٌ لاَ يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُمْ صَرْفًا وَلاَ عَدْلاً: عَاقٌّ، وَمَنَّانٌ، وَمُكَذِّبٌ بِالْقَدَرِ» الشاهد منه قوله: (وَمَنَّانٌ)

[المتن]

الكَبِيرَةُ السّابِعَة والثّلاثُون:

الْمُكَذِّبُ بالقَدَر

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)﴾[القمر:٤٩].

وقال تعالىٰ: ﴿وَاللّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾[الصافات:٩٦].

وقال تعالىٰ: ﴿مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾[الأعراف:١٨٦]،

وقال: ﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[الجاثية:٢٣].

وقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللهُ﴾[الإنسان:٣٠]

وقال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) ﴾[الشمس:٠٨].

[الشرح]

قوله رحمه الله: (الْمُكَذِّبُ بالقَدَر) هٰـذا كبيرة؛ بل هو كفر بالله -عز وجل-؛ لأن الإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان والتكذيب به كفر بالله عز وجل، وقد قال ابن عباس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُما-: القدر نظام التوحيد فمن آمن بالله وكذب بالقدر نقض تكذيبُه توحيدَه. فلا يكون مؤمنا ولا يكون موحدا من يكون مكذبا بالقدر التكذيب بالقدر كبيرة وهو كفر بالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-.

وقد ساق المصنف رحمه الله تعالىٰ جملة من آيات القرآن الكريم الآيات الدالة علىٰ الإيمان بالقدر وأنه أصل من أصول الإيمان؛ قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)﴾ وقوله: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾، ﴿مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾، ﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللهُ﴾، ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)﴾، هٰـذه واضحة في الدلالة علىٰ أن الأمور كلها بقدر، والآيات التي أوردها المصنف -رحمه الله- فيها إشارة إلىٰ مراتب القدر، ويحتاج أن يضاف إليها آية واحدة حتىٰ تجمع مراتب القدر الأربعة التي لا يكون العبد مؤمنا بالقدر إلا بها؛ وهي العلم والمشيئة والكتابة والإيجاد، والآيات التي ذكرها اشتملت علىٰ المراتب عدا مرتبة الكتابة ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾[الحج:٧٠]، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢)﴾[القمر:٥٢]، آيات كثيرة فيها الكتابة، فمراتب القدر التي لا يكون العبد مؤمنا بالقدر إلا بها أربعة وهي العلم والكتابة والمشيئة والإيجاد جمعها بعضهم بقوله:

علم كتابة مولانا مشيئته وخلقه وهو إيجاد وتكوين

[المتن]

وفي الصحيح حديث جبريل عليه السلام، قال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت، والقدر خيره وشره».

[الشرح]

عدّ النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في هٰـذا الحديث الإيمان بالقدر أصلاً من أصول الإيمان وركنا من أركانه، والحديث من رواية ابن عمر عن أبيه وهو في صحيح مسلم، وفيه عن ابن عمر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-

أن نفرا من العراق أتوه وذكروا له أن من قبلهم أقواما ينكرون القدر فقال: أخبروهم أني بريء منهم وأنهم مني برءاء. ثم قال: والذي يحلف به ابن عمر لو أن أحدهم أنفق مثل أحد ذهبا ما تقبل منه ما لم يؤمن بالقدر. وهٰذا فيه دليل علىٰ أنّ عدم الإيمان بالقدر كفر محبط للأعمال.

[المتن]

قال عبد الرحمٰن بن أبي الموالي حدثنا عبيد الله بن موهب عن أبي بكرة بن محمد بن عمرو بن حزم عن عمرة وعن عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْها- قالت: قال رسول الله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «ستة لعنتهم ولعنهم الله وكل نبي مجاب: المكذب بقدر، والزائد في كتاب الله، والمتسلّط بالجبروت، والمستحل حرم الله، والمستحلّ من عترتي ما رحم الله، والتارك لسنتي» إسناده صحيح.

[الشرح]

ثمّ ذكر هٰذا الحديث، ونقل المحقق في الهامش، عن الذهبي -رحمه الله- في تلخيصه لمستدرك الحاكم أنه قال: الحديث منكر بمرّة، وأورد هنا الشاهد الذي فيه والمكذب للقدر؛ ولكن يغني عنه الأدلة الأخرىٰ في الباب منها ما مر ومنها ما سيأتي.

[المتن]

روىٰ سليمان بن عتبة الدمشقي، حدّثنا يونس بن ميسرة، عن أبي إدريس، عن أبي الدّرداء -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عن النبي ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قال: «لا يدخل الجنّة عاق ولاَ مُكذّبٌ بِقدرٍ ولا مدمن خمر» سليمان ضُعف رواه عنه جماعة.

[الشرح]

ثمّ ذكر هٰذا الحديث فيمن لا يدخل الجنّة، ونفي الدّخول هنا سبق أن مرّ معنا في أحاديث نظير هٰذا في كبائر ليست كفرا، فالنّفي هنا ليس المراد به النّفي المطلق لدخولها، فإنّ مرتكب الكبيرة مآله إلىٰ الجنّة ما دام من أهل التّوحيد. فالنّفي هنا ليس نفيا مُطلقا، وإنّما نفي إمّا لرتب عالية في الجنّة، أو لدُخول أوّلي، أو لا يدخلها إلاّ بعد أن يُعذّب علىٰ كبائره، وليس المراد أنّه يُنفىٰ عنه دخول الجنّة نفيًا مطلقًا، يعني لا يكون النّفي لأصل الدّخول، وإنّما يكون النّفي لكمال رُتبة الدّخول أوليًّا، أو الدّخول في منزلة عالية في الجنّة أو نحو ذلك.

[المتن]

قَالَ عَبْدُ العَزِيْزِ بن أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِيْهِ، عَن ابنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ تعالىٰ عَنْهُما- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «القَدَرِيةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ، فَإِنْ مَرِضُوا فَلاَ تَعُودُوهُم، وَإِنْ مَاتُوا فَلاَ تَشْهَدُوْهُم» رُوَاتُهُ ثِقَاتٌ لَكِنَّهُ مُنْقَطِعٌ.

[الشرح]

هٰذا الحديث ورد من طرق وحسّنه بعض العلماء.

ووصف النّبيّ -عليه الصّلاة والسّلام- للقدريّة بأنّهم «**مجوس هٰذه الأمّة**»، لأنّهم شبيهين بالمجوس، والمراد بـــــ**"القدريّة"** هنا نفاة القدر الذين يقولون: لا قدر، والأمور ليســـت بمشـــيئة الله، وأفعال العباد مخلوقة للعبد وليست مخلوقة لله. فهؤلاء مجوس الأمّة؛ لأنّهم يشبهون المجوس من جهة أنّ المجوس قالوا بخالقين: خالق للنّور وخالق للظّلمة، وهؤلاء القدرية قالوا بخالقين: الله خالق للإنسان، والإنسان خالق لفعل نفسه، ولهذا كانوا مجوس هٰــذه الأمّة لشبههم بالمجوس من جهة القول بخالقين: الله خالق الإنسان، والإنسان خالقُ فعْلِ نفسه، لأنّ الأفعال عندهم ليست مخلوقة لله، وإنّما هي مخلوقة للإنسان نفسه.

[المتن]

وَقال ابنُ عُمَرَ ـ رضي الله تعالىٰ عنهما ـ، سَمِعْتُ رسول الله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُوْلُ: «سَيَكُونُ فِي أُمَتِي قوم يُكَذِّبُونَ بِالْقَدَرِ» وَهَذَا عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِم.

[الشرح]

ثمّ أورد هٰـــذا الحديث علىٰ وجه التّحذير للأمّة والنّصح لها «**سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي مكَذِّبُونَ بِالْقَدَرِ**» يعني فاحذروهم، مثل قوله في الحديث الآخر: «**لا تقوم السّـــاعة حتّىٰ يعبد فئام من أمّتي الأوثان**» يعني هٰـــــذا الأمر سيوجد، فاحذروا من هٰـــذا الأمر واحذروا الوقوع فيه، سيكون في الأمّة من يعبد الأوثان، سيكون فيه من يكذّب بالقدر، سيكون فيهم من يتّبع من كان قبلنا «**لتّتبعنّ سنن من كان قبلكم**»، فهٰذه الأمور أخبر النّبيّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنّها ستوجد، وهو الذي لا ينطق عن الهوىٰ -صلوات الله وسلامه عليه- وهٰذا ذكره علىٰ وجه التّحذير.

[المتن]

وَصَـــحَّحَ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيْثِ أَبِي صَـــخْرٍ عَنْ نَافِعٍ، أَنَّ ابنَ عُمَرَ -رَضِـــيَ اللهُ تعالىٰ عَنْهُما- جَاءَهُ رَجُلٌ

فَقَالَ: إِنَّ فُلاَنًا يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلاَمَ، فَقَالَ: إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّهُ قَدْ أَحْدَثَ، فَإِنْ كَانَ قَدْ أَحْدَثَ فَلاَ تُقْرِئْهُ مِنِّيَ السَّلاَمَ؛ إِنِي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «يَكُونُ فِي هَذِه الأُمَّةِ خَسْفٌ وَمَسْخٌ، أَوْ قَذْفٌ فِي أَهْلِ القَدَرِ».

[الشرح]

يعني عقوبة لهؤلاء الذين هم «أهل القدر» يعني القدريّة المكذّبين له أو المكذّبين به، فسيكون فيهم هٰذه العقوبة: الخسف والمسخ أو القذف، عقوبة لهم علىٰ ذلك.

وفيه ابن عمر تبرّؤه ممّن يُحدث في الدّين ومن أحدث في الدّين قال: بلغني عنهم كذا وكذا، وأيضا في كلامه اعتدال وإنصاف قد يعزّ وجوده، قال: (إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّهُ قَدْ أَحْدَثَ، فَإِنْ كَانَ قَدْ أَحْدَثَ فَلاَ تُقْرِئْهُ مِنِّي السَّلاَمَ) يعني جاء بكلام علىٰ وجه طلب التثبّت من الأمر لا علىٰ وجه الجزم به بمجرّد أن بلغه، وهٰذا فيه أنّ الإنسان لا يكتفي بمجرّد ما يبلغه بعض الأمور، فيجعلها حقيقة أو يقبلها مقبل التّسليم، بل يتثبت ويتأنىٰ، ولاسيما النّقول التي تكون بين النّاس: فلان قال: كذا، فيتأنّىٰ الإنسان حتىٰ لا يظلم الآخرين، ولهذا قال: (إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّهُ قَدْ أَحْدَثَ، فَإِنْ كَانَ قَدْ أَحْدَثَ فَلاَ تُقْرِئْهُ مِنِّي السَّلاَمَ) كأنّه يقول استثبت أنت من الأمر، وجعل المسؤوليّة مسؤولية هٰذا الشّخص، استثبت وتأكد فإن كان الأمر كذلك (فَلاَ تُقْرِئْهُ مِنِّي السَّلاَمَ).

[المتن]

روىٰ مَنْصُوْرٌ، عَنْ رِبْعِيِّ بنِ خِرَاشٍ، عَنْ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللهُ تعالىٰ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ بِأَرْبَعٍ: يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِي رَسُوْلُ اللهِ [بَعَثَنِيَ بِالْحَقِّ]، وَيُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ، وَيُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ» أَخْرَجَهُ التِّرمِذِيُّ وَسَنَدُهُ جَيْدٌ. وَبَعْضُهُمْ يَقُوْلُ: عَنْ رِبْعِيٍّ عَنْ رَجُلٍ عَنْ عَلِيٍّ.

[الشرح]

ثمّ أورد هٰذا الحديث وفيه نفي الإيمان عن العبد حتّىٰ «يُؤْمِنَ بِأَرْبَعٍ: يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهَ وَأَنِي رَسُوْلُ اللهِ وَيُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ وَيُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ» وكلّ هٰذه الأربعة، عدم الإيمان بها كفر ناقل من الملّة، فعدم وجودها ينتفي به أصل الإيمان.

[المتن]

عن بَقِيَّة، قال: حَدَّثَنَا الأَوْزَاعِيُّ، عَنِ ابنِ جُرَيْجٍ، عَنِ أبي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ -رَضِيَ اللهُ تعالىٰ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّ مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ المُكَذِّبُوْنَ بِأَقْدَارِ اللهِ، إِنْ مَرِضُوا فَلاَ تَعُوْدُوْهُم، وَإِنْ مَاتُوْا فَلاَ تُصَلُّوا عَلَيْهِم، وَإِنْ لَقِيْتُمُوْهُم فَلاَ تُسَلِّمُوا عَلَيْهِم» رَوَاهُ أَبُو بَكْرِ بنِ أَبِي عَاصِمٍ فِي السُّنَةِ.

[الشرح]

هٰـذا يوضّح لنا الحديث الماضي: «القَدَرِيةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ» ما المراد بالقدريّة؟ الجواب هنا المكذّبون بالقدر، فالقدريّة نفاة القدر، لأنّ القدريّة نوعان: قدرية مُجْبِرة وقدرية نفاة:

- **القدرية المُجْبِرة**: الذين يثبتون القدر، قدرة الله، ويكون العبد مجبور، هؤلاء أطلق عليهم العلماء " القدريّة المجبرة " أو "القدريّة الجبريّة".
- **والقدرية النّفاة**: هؤلاء المعنيون بهٰـذا الحديث، فقوله في الحديث أوّلا: «القَدَرِيةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ» يوضّحه هنا «إِنَّ مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ المُكَذِّبُوْنَ بِالقدر» فأطلق عليهم القدريّة لأنّهم مكذّبون بالقدر.

والقدريّة النفاة يفرّون من هٰـذا ويقولون: نحن لسنا قدريّة، نحن نفاة للقدر، ويقولون: القدريّة هم المثبتون له، أمّا نحن لسنا قدريّة نحن نفاة للقدر، فهنا في الحديث قال: «إِنَّ مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ المُكَذِّبُوْنَ بِالقدر» فالقدريّة هم المكذّبون بالقدر، نفاته، وإن تبرّأ أولئك من هٰـذه النّسبة وقالوا: نحن لا يقال عنّا: قدريّة لأنّنا نفاة، حتّىٰ إنّي وقفت لأحدهم -أحد القدريّة المتقدّمين- ألّف كتابا عنوانه "الردّ علىٰ القدريّة" وفي مقدّمة الكتاب قال: لسنا قدريّة، القدريّة من أثبتوه وأمّا نحن فلسنا قدريّة، فهٰـذه اللّفظة في هٰـذا الحديث توضّح المراد بالقدريّة، أنّهم من ينفون القدر ويُكذّبون به، قال: «إِنَّ مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ المُكَذِّبُوْنَ بِالقدر».

[المتن]

وفي الباب عدّة أحاديث فيها مقال أوردها ابن أبي عاصم.

[الشرح]

(وفي الباب عدّة أحاديث فيها مقال أوردها ابن أبي عاصم) الحديث ورد من طرق كثيرة، ومن مجموع طرقه حسّنه بعض أهل العلم.

[المتن]

روىٰ بَقِيَّةُ، عَنْ أَبِي العَلاَءِ الدِّمَشْقِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بنِ جُحَادَةَ، عَنْ يَزِيْدَ بنِ حُصَيْنٍ، عَنْ مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ -رَضِيَ اللهُ تعالىٰ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا قَطُّ إلاَّ وَفِي أُمَّتِهِ قَدَرِيَّةٌ وَمُرْجِئَةٌ، إنَّ اللهَ لَعَنَ القَدَرِيَّةَ وَالمُرْجِئَةَ عَلَىٰ لِسَانِ سَبْعِيْنَ نَبِيًّا».

[الشرح]

هٰذا الحديث سنده ضعيف.

[المتن]

روىٰ بَقِيَة، عَنْ أَرْطَاةَ، عَنْ المُنْذِرِ، عَنْ أَبِي بُسْرٍ، عَنْ أَبِي مَسْعُوْدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ تعالىٰ عَنْهُ- مَرْفُوْعًا: «ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِمُهُم اللهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيْهِمُ: المُكَذِّبُ بِالْقَدَرِ، وَالمُدْمِنُ بِالْخَمْرِ، وَالمُتَبَرِّئُ مِنْ وَلَدِهِ».

[الشرح]

مرّ معنا الحديث بلفظ «والعاقّ لوالديه»، والشّاهد من الحديث هنا «المُكَذِّبُ بِالْقَدَرِ».

[المتن]

روىٰ سُفْيَانُ الثَّوْرِيِّ، عَنْ مَوْلَىٰ غُفْرَةَ، عَنْ رَجُلٍ، عَنْ حُذَيْفَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لِكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوْسٌ، وَمَجُوْسُ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّذِيْنَ يَزْعُمُوْنَ أنْ لاَ قَدَرٌ».

[الشرح]

ثمّ أورد هٰذا الحديث أيضًا، سنده ضعيف «لِكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوْسٌ، وَمَجُوْسُ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّذِيْنَ يَزْعُمُوْنَ أنْ لاَ قَدَرٌ».

[المتن]

وَعَنِ الحَسَنِ، عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ تعالىٰ عَنْهَا- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «الْقَدَرِيَّةُ مَجُوْسُ هَذِهِ الأُمَّةِ» وَهَذِهِ الأَحَادِيْثُ لاَ تَثْبُتُ لِضَعْفِ رُوَاتِهَا.

[الشرح]

هٰذا من الطّرق الكثيرة الذي ورد بها الحديث المتقدّم، وهو بمجموع هذه الطرق حسّنه بعض أهل العلم.

[المتن]

رَوَىٰ المُعَافَا بنِ عَمْرانِ وَغَيْرِ وَاحِدٍ، عَنْ نِزَارِ بنِ حَيَّانٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– مَرْفُوْعًا: «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِيْ لَيْسَ لَهُمْ فِي الإِسْلاَمِ نَصِيْبٌ: الْقَدَرِيَّةُ وَالمُرْجِئَةُ».

[الشرح]

هٰذا أيضا لم يثبت سنده، ضعيف وبيّن الذّهبي ذلك قال:

[المتن]

نِزَارٌ: تَكَلَّمَ فِيْهِ ابنُ حِبَّانٍ، وَقَدْ تَابَعَهُ غَيْرُهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ. قَالَ مُحَمَّدُ بنُ بِشْرٍ العَبْدِيِّ: حَدَّثَنَا سَلاَّمُ بنِ أَبِي عَمْرَةَ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوْعًا نَحْوُهُ.

روىٰ أَبُوْ عَاصِمٍ النَّبِيْلِ وَمُحَمَّدُ بنُ مُصْعَبِ القَرْقَسَانِيِّ، عَنْ عَنْبَسَةَ عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيْدِ بنِ المُسَيَّبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله تعالىٰ عنه– قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «أُخِّرَ كَلاَمٌ فِي الْقَدَرِ لِشِرَارِ هَذِهِ الأُمَّةِ».

[الشرح]

قوله: «أُخِّرَ كَلاَمٌ فِي الْقَدَرِ لِشِرَارِ هَذِهِ الأُمَّةِ» يعني أنّه يأتي كلامٌ في القدر، باطل، متأخر، لشرار هٰـذه الأمّة، يأتي كلام متأخر في القدر يتكلّم به شرار هٰـذه الأمّة، فهو أمرٌ أُخِّر لهم، وهو لائق بهم، شرار هٰـذه الأمّة سيتكلّمون في القدر.

[المتن]

روىٰ أَبُوْ مَالِكٍ الأَشْجَعِيِّ، عَنْ رِبْعِيٍّ، عَنْ حُذَيْفَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «خَلَقَ اللهُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنْعَتَهُ».

[الشرح]

ثمّ أورد هٰـذا الحديث وهو دليل علىٰ أنّ الأمور كلّها بقضاء الله –تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ– وقدره، قال: «خَلَقَ اللهُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنْعَتَهُ»، فالله –عزّ وجلّ– خالق الصّانع، يعني الإنسان الذي يصنع شيئا أو يعمل شيئا أو يقوم بأعمال، وصنْعَته أيضا ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصّافّات:٩٦]، وقال: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الزّمر:٦٢].

❁❁❁❁

[المتن]

الكَبِيرَةُ الثَّامِنَةُ والثَّلاَثُون

المُتَسَمِّعِ عَلَىٰ النَّاسِ مَا يُسِرُّونَهُ

وَلَعَلَّهَا لَيْسَتْ بِكَبِيْرَةٍ، قَالَ اللهُ-تَعَالَىٰ-: ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾[الحجرات:١٢].

[الشرح]

ثم قال -رحمه الله-: (الكَبِيرَةُ الثَّامِنَةُ والثَّلاَثُون: المُتَسَمِّعِ عَلَىٰ النَّاسِ مَا يسرّونه) يعني المتصنّت، الذي يتصنّت علىٰ النّاس فيما يسرّونه من أحاديث، وهو التّجسّس، وقد ذمّه الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- في كتابه، قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾[الحجرات:١٢]، وأيضًا جاء في السّنّة عن النّبيّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنّه قال: «لا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا».

فهٰذا ممّا يتنافىٰ مع الأخوّة الإيمانية ومقتضياتها، التّجسّس والتّحسّس والتّصنّت علىٰ الإخوان.

[المتن]

وقال النبي-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنِ اسْتَمَعَ إِلَىٰ حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ صُبَّ فِي أُذُنَيْهِ الآنِكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ صَوَّرَ صُورَةً عُذِّبَ وَكُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرّوح، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ» الآنك الرصاص المذاب، رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

[الشرح]

قول النّبيّ -صلّىٰ الله عليه وسلّم-: «مَنِ اسْتَمَعَ إِلَىٰ حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ» هذا هو المتسمّع علىٰ النّاس ما يسرّونه، وذكر فيه هذه العقوبة: «صُبَّ فِي أُذُنَيْهِ الآنِكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» والآنك: هو النّحاس المذاب، يعني أُحْرق حتّىٰ انصهر بالنّار ثمّ يُصبّ في أذنيه، فهٰذه العقوبة تُشعر أنّ هٰذا الذّنب من كبائر الذّنوب.

والله أعلم، وصلّىٰ اللّه وسلّم علىٰ نبيّنا محمّد وآله وصحبه أجمعين.

۞۞۞۞

المستوى الثاني/الكتاب الخامس

شرح

كتاب الكبائر

للعلامة شمس الدين الذهبي رحمه الله

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

حفظه الله تعالىٰ

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

من الدرس (١٧) إلىٰ االدرس (١٩)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمٰن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰـه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صَلَّىٰ الله وسَلَّم عَلَيه وَعَلىٰ آلِه وأصحَابِه أجمَعين-.

أما بعد،

فنواصل القراءة في كتاب الكبائر للذهبي ووصلنا إلىٰ كبيرة اللَّعَان.

[المتن]

الكَبِيرَةُ التَّاسِعة والثَّلاثون

اللَّعَّان

قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((لَعْنُ المُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ)) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

قال المصنف -رَحِمَهُ الله-: (**الكَبِيرَةُ التَّاسِعة والثَّلاثون: اللَّعَّان**) أي من هو صاحب لعن يجري علىٰ لسانه، اللعن، لعن المسلمين، واللعن: هو دعاء علىٰ الملعون بالطرد والإبعاد من رحمة الله -عزَّ وجلَّ- ، وليس هٰـذا من شأن المؤمن الذي قام في قلبه الرّحمة والشفقة والمحبة والإحسان، قال -عَلَيهِ الصَّلاة والسَّلام-: ((**إنّما بُعثتُ رحمة**))، فمُقتضىٰ الرّحمة الدعاء للمسلم لا الدعاء عليه، الدعاء له بالخير، بالصلاح، بالاستقامة، لا الدعاء عليه باللعن والطرد والإبعاد من رحمة الله وحلول غضب الله عليه؛ فصفة المؤمن الشفقة والرحمة؛ ولهٰـذا يأتي عند المصنف قول النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((**لَيْسَ المُؤْمِنُ بِالطَّعَانِ وَلاَ اللَّعَانِ**))؛ أي ليس هٰـذا من صفات أهل الإيمان، ولا يُبادر إلىٰ اللعن، لا لعن الناس ولا لعن الدواب ولا لعن الأشياء، وإنما علىٰ الإنسان الدعاء بالخير لا الدعاء بالشرّ.

فهٰـذه ترجمة في بيان هٰـذه الكبيرة، كبيرة اللعن، وأن من يجري علىٰ لسانه اللعن ويُبادر إليه هٰـذا مرتكب لكبيرة عظيمة وجُرم كبير.

ثم أخذ يسوق من النصوص ما يدلّ علىٰ خطورة اللعن، لعن المسلم، فذكر أولا قول النبي -عَلَيهِ الصَّلاة والسَّلام- («**لَعْنُ المُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.)

لعنه: أي الدعاء عليه باللعن، كأن يقول "لَعَنَه الله" ونحو ذلك، فهٰذا كقتله.

[المتن]

وَقَالَ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوْقٌ وَقِتَالُه كُفْرٌ)).

[الشرح]

((سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوْقٌ)) وهٰذا هو موضع الشاهد من الحديث للكبيرة، أنّ السباب -ومنه اللعن- فسوق، والفسق هو الخروج عن الطاعة، طاعة الله -عزَّ وجلَّ-.

قوله: ((وَقِتَالُه كُفْرٌ)) أي كفر أصغر، ليس بالكفر الأكبر الناقل من الملّة؛ لأنه لا ينتقل من الملّة بالقتل إلا إذا استحلّ قتل المسلمين، أما بمجرد القتل فإنه كفر دون كفر، وقد دلّت نصوصٌ علىٰ أن القاتل لا يكون كافرا، سبق الإشارة إلىٰ بعضها.

[المتن]

وَقَالَ: ((لاَ يَكُوْنُ اللَّعَانُوْنَ شُفَعَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ)) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

اللعانون وكذلك الطعانون مثل ما سيأتي معنا ((لَيْسَ المُؤْمِنُ بِالطَّعَانِ وَلاَ اللَّعَانِ)) اللَّعان: هو الذي يدعو علىٰ غيره باللعنة وبالشر، والطَّعان: هو الذي يخبر عن غيره بالشر، يعني يطعن فيه بالشر. ولاحظ الأمرين وهما منفيان عن المؤمن كما سيأتي: ((لَيْسَ المُؤْمِنُ بِالطَّعَانِ وَلاَ اللَّعَانِ)).

اللعان: هو الذي يدعو علىٰ غيره بالشر، والطعان هو الذي يخبر عن غيره بالشر، يعني يطعن فيه بالشرّ.

قال -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: ((لاَ يَكُوْنُ اللَّعَانُوْنَ شُفَعَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ)).

لماذا؟ لأنّ الذي يكون يوم القيامة هو ما قام عليه الإنسان في الحياة الدنيا، فإذا كان الإنسان في الحياة الدنيا حَفظ لسانه من الطعن في الناس والشهادة عليهم بالشر وصان لسانه من الولوغ في أعراضهم والطعن فيهم والسخرية إلىٰ غير ذلك، كان مؤهلا أن يكون شهيدا لهم يوم القيامة، شهيدا لهم في الخير، أما إذا كان يلغ في أعراضهم ويطعن فيهم ويقدح، وصاحب هَمزٍ ولمزٍ فمثل هٰذا ليس أهلا أن يكون يوم القيامة شهيدا لهم.

واللعان الذي يشتغل في الدنيا بلعن المسلمين ليس أهلا أن يكون يوم القيامة شفيعا لهم؛ لأنهم في الدنيا ما سلموا منه، لسانه يجري عليه لعنهم، فلا يصلح يوم القيامة أن يكون شهيدا؛ لأنّ الشهيد هو الذي يُخبر

عن غيره بالخير، والشفيع هو الذي يطلب له الخير ويدعو له بالخير، فمن كان في الدنيا طعّانا لعّانا ليس مؤهلا أن يكون يوم القيامة شهيدا شفيعا؛ لأنّه في الدنيا لم يكن كذلك، لم يكن في الدنيا إلا طعّانا ولم يكن إلا لعّانا. وهٰذا المعنىٰ اللّطيف الذي في هٰذا الحديث نبّه عليه العلامة ابن القيّم -رَحِمَهُ الله- في كتابه (الصواعق المرسلة).

[المتن]

وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: ((لا تَلاعَنُوا بِلَعنَةِ الله وَلا بِغَضَبِ الله وَلا بِالنَّار)).

[الشرح]

وهٰـذا يُعطينا أن مفهوم اللّعن ليس مقتصرا علىٰ هٰـذه اللفظة، كأن يقول القائل: "لعن الله فلانا" أو نحو ذلك، وإنما يشمل هٰـذه اللفظة، وكذلك دعاء بالغضب أو بالنار كأن يقول لغيره: "لعنه الله" أو يقول: "سخط الله عليه" أو "غضب الله عليه" أو "أحرقه الله بالنار"، "حرّم الله عليه الجنة"، أو نحو ذلك.

((لا تَلاعَنُوا بِلَعنَةِ الله وَلا بِغَضَبِ الله وَلا بِالنَّار)) فالمؤمن ليس هٰـذا من شأنه، إذا أُخطئ عليه، دعا علىٰ من أخطأ عليه باللعنة أو دعا عليه بالغضب أو بالسخط، أو دعا عليه بالحرمان من الجنة، أو دعا عليه بدخول النار؛ هٰذا ليس من شأن رحمة الإسلام القائمة في قلوب المسلمين.

فإذن هٰذا يدل علىٰ أن مفهوم اللعن واسع لا يقتصر علىٰ هٰذه اللفظة.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((لاَ يَنْبَغِي لِصِدِّيقٍ أَنْ يَكُوْنَ لَعَّانًا)).

[الشرح]

الصِدّيق: هي رتبة عَليّة من رُتب الدين ومنزلة رفيعة فيه، فالصدِّيقيّة ليس من شأن أصحابها وأربابها اللعن، وإنما من شأن أصحابها صيانة اللسان وحفظه وشغله بذكر الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يفيد.

[المتن]

وَعَنْهُ قَالَ: ((لَيْسَ المُؤْمِنُ بِالطَّعَانِ وَلاَ اللَّعَانِ وَلاَ الفَاحِشِ البَذِيء))حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ.

[الشرح]

قوله: ((لَيْسَ المُؤْمِنُ)) أي أنّ هٰـــذه ليســت من خصــال أهل الإيمان، والمراد بأهل الإيمان أهل الإيمان الكامل الواسع، أما إذا نقص الإيمان وضعف، قد يقع في لسان من ضعُف إيمانُه ونقص إيمانه أمثال هٰذه الألفاظ، مثل: اللعن والطعن ونحو ذلك.

وقوله: ((الطَّعَانِ .. اللَّعَانِ)) هٰـــذه صـيغة مبالغة، وصـيغة المبالغة في الغالب يكون مقصـودًا بها المبالغة، لكن قد تأتي صـيغة المبالغة ولا يكون مرادًا بها المبالغة، مثل هٰـــذا الحديث، فقوله: ((اللعان...الطعان)) ليس المراد نفي كثرة اللّعن واستدامته؛ بل نفي وجوده علىٰ ألسنتهم، فيكون المراد هنا: ليس بِذِي لعن وليس بِذِي طعن، يعني هو بعيد عن اللعن وبعيد عن الطّعن، ليس من صـفاته مثل هٰــذا الأمر، وإن وقع منه شيء نادر واستغفر الله –عزَّ وجلَّ– وتاب لم يهبط من رتبته، هٰــذه الرتبة، رتبة الإيمان الكامل، إذا كان شيئا نادر وبادر إلىٰ التوبة والاستغفار والدعاء بالخير، بدل هٰذه الكلمة التي انفرطت من لسانه.

فإذن هنا المراد بقوله: ((الطَّعَانِ .. اللَّعَانِ)) أي ليس بِذِي لعن وليس بِذِي طعن، ومثله قوله –تعالىٰ-: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ...﴾[فصلت:٤٦] الآية، هٰــذه صيغة مبالغة، لكن ليس المراد هنا المبالغة، وإنما المراد نفي الظلم أصلا، فالمعنىٰ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ...﴾ أي ليس بذي ظلم.

((وَلاَ الفَاحِشِ البَذِيء)) يعني الفاحش في قوله، البذيء بلسانه، بكلماته السيئة وألفاظه النابية.

[المتن]

وَعَنْهُ–صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–قَالَ: ((إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا صَعِدَتْ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاغًا رَجَعَتْ إِلَىٰ الَّذِي لُعِنَ: فَإِنْ كَانَ أَهْلًا لِذَلِكَ وَإِلَّا رَجَعَتْ إِلَىٰ قَائِلِهَا)) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدٍ.

[الشرح]

هٰـــذا يدل علىٰ أنّ اللعن في غاية الخطورة؛ هي ليســت مجرّد كلمة تخرج من اللســان وانتهىٰ الأمر، وإنما هي تصعد كما أخبر –عَلَيهِ الصَّلاة والسَّلام–، فإن لم تجد مساغا رجعت، ترجع هٰــذه الكلمة إلىٰ من لُعن، فإذا كان أهلاً وإلا رجعت علىٰ صاحبها، يرجع اللعن علىٰ اللاعن نفسه، ولهٰذا قد يكون بعض الناس يجلب لنفسه اللعن في اليوم عشرات المرات –والعياذ بالله–.

[المتن]

وَقَدْ عَاقَبَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الَّتِيْ لَعَنَتْ نَاقَتَهَا بِأَنْ سَلَبَهَا إِيَّاهَا، فَقَالَ عِمْرَانُ بنُ حُصَيْنٍ وَأَبُوْ بَرْزَةَ، وَالحَدِيْثُ لِعِمْرَانَ، قَالَ: بَيْنَمَا رَسُوْلُ اللهِ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَامْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ عَلَىٰ نَاقَةٍ، فَضَجِرَتْ فَلَعَنَتْهَا، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُوْلُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: ((خُذُوْا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوْهَا؛ فَإِنَّهَا مَلْعُوْنَةٌ)) قَالَ عِمْرَانُ: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهَا الآنَ تَمْشِي فِي النَّاسِ مَا يَعْرِضُ لَهَا أَحَدٌ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

وهٰذا يدل علىٰ أنّ المسلم لا يحل له أن يلعن شيئا: لا الجمادات ولا الحيوانات، لا يحلّ له أن يلعن.

وهٰذه المرأة لما حرنت هٰذه الناقة وتمنّعت، تضجّرت منها وبادرت إلىٰ هٰذه اللعنة، فقال النبي -صلّىٰ اللهُ عليهِ وسلَّم-: ((خُذُوْا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوْهَا؛ فَإِنَّهَا مَلْعُوْنَةٌ)) وهٰذا يدلنا علىٰ خطورة اللعنة وضررها.

[المتن]

وعن ابنُ لَهِيْعَةَ، عَنْ أَبِي الأَسْوَدِ، عَنْ يَحْيَىٰ بنِ النَّضْرِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((إِنَّ أَرْبَىٰ الرِّبَا اسْتِطَالَةُ المُسْلِمِ فِي عِرْضِ أَخِيْهِ المُسْلِمِ)).

[الشرح]

((إِنَّ أَرْبَىٰ الرِّبَا)) أي أخطره وأشدّه.

((اسْتِطَالَةُ المُسْلِمِ فِي عِرْضِ أَخِيْهِ المُسْلِمِ)) أن يتطاول علىٰ عرض أخيه بالنيل منه وقيعة وسبًّا وسلبا.

هٰذا فيما يتعلّق بعموم اللّعن، وأمّا -والعياذ بالله- لعن الدّين أو لعن النبيّ الكريم -عليه الصّلاة والسّلام- أو ربّ العالمين فهٰذه ردّة عن الإسلام، مُحبطة للأعمال، ولا يُعذر فيها أحد، ولا يُقال: معذور جاهل، ما يُعذر أحد، وكلّ واحد يُدرِك فظاعة هٰذا الأمر؛ ولهٰذا لا يكون لعن الدّين أو لعن الإسلام أو لعنُ ربِّ العالمين، لا يكون من مسلم، هٰذا لا يكون إلا من مرتدّ ليس بمسلم.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ الأَرْبَعُوْن

الغادِرُ بِأَمِيْرِهِ وغَيْرِ ذَلِكَ

قَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَأَوْفُوْا بِالْعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾[الإسراء:٣٤].

وَقَالَ -تَعَالَىٰ-:﴿يَاأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا أَوْفُوْا بِالْعُقُوْدِ﴾[المائدة:١].

وَقَالَ -تَعَالَىٰ-:﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾[النحل:٩١].

[الشرح]

ثمّ أورد المصنّف -رحمه الله- هٰـــذه الكبيرة (**الغادِرُ بِأَمِيْرِهِ وغَيْرِ ذَلِكَ**) أي ممّن له عليه عهد، فالغدر كبيرة من كبائر الذنوب، وقد جعله أو عدّه النبيّ -صــلّىٰ الله عليه وســلّم- في أوصــاف المنافقين، قال: ((**آية المنافق ثلاث...**))، وذكر منها: ((**إذا عاهد غدر**))، فمن صــفات أهل النفاق الغدر والخيانة وعدم الالتزام بالعهد.

وإذا كان بايع أميرًا وقام عليه عهد والتزم بالبيعة ثمّ غدر، فهٰذا ارتكب كبيرة وجُرما عظيما، جاء التحذير منه في نصوص عامّة وخاصّة: أمّا النّصوص العامّة فهي التي بدأ المصنّف -رحمه الله- بها، من الآيات القرآنيّة التي فيها الأمر بالوفاء بالعهود والعقود التي علىٰ الإنسان، فيدخل في عموم هٰذه الآيات الوفاء بالعهد الذي بين الرّعيّة والرّاعي، فهٰذا عهد اؤتمن المسلم عليه، وهو مُطالَب بالوفاء به والتزامه، فإذا غدر في هٰذا العهد الذي هو عليه والتزم به ثمّ غدر، فهو مرتكب لجريمة كبيرة وذنب كبير.

وسيأتي في الباب نصوص خاصّة يوردها المصنّف -رحمه الله-.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيْهِ كَانَ مُنَافِقًا حَقًّا: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا اؤتمِنَ خَانَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ)) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

الشّـاهد من الحديث قوله: ((**وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ**)) فهٰذا من صفات المنافقين.

والحديث بعمومه يشمل غدر الرّاعي بأميره الّذي عليه عهد أن يلتزم بطاعته وبيعته له قائمة.

[المتن]

وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: ((لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اسْتِهِ يُقَالُ: هٰذه غَدْرَةُ فُلاَنٍ، أَلاَ وَلاَ

غَادِرَ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرِ عَامَّةٍ))رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

ثمّ أورد -رحمه الله- هٰذا الحديث، أنّ النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- قال: ((لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ))، المراد بـ**"اللّواء"** علامة يشتهر بها عند النّاس، والغادر له يوم القيامة علامة تكون عند أُسته يعني عند مَقْعدته التي يجلس عليها، تكون علامة عليه ((هـٰذه غدرة فلان بن فلان)) علامة يُعرف بها علىٰ الأشهاد يوم القيامة، ويفتضح بها بين النّاس، فغدرته التي كانت منه في الدّنيا تكون تحت أسته أي تحت مقعدته؛ علامة وإشارة تشهيرا به أمام النّاس يوم القيامة، يُقال: ((هـٰذه غَدْرَةُ فُلاَنٍ)).

((أَلاَ وَلاَ غَادِرَ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيْرِ عَامَّةٍ))، قوله: ((مِنْ أَمِيْرِ عَامَّةٍ)) **لأهل العلم هنا قولان:**

- ((لا أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيْرِ عَامَّةٍ)) أي أن يغدر الأمير بالعامّة، فيكون المراد بالغادر هنا الأمير نفسه، بأن يغدر بالعامّة فيخون العهود ويخون المواثيق التي بينه وبينهم، وبينه وبين غيرهم، ممّا يسبّب الدّمار والأخطار والشّرور والجناية علىٰ المجتمع، والنّووي -رحمه الله- في شرحه لمسلم قال: **"وهو المشهور في معنىٰ الحديث"**.
- **والمعنىٰ الثّاني**: وهو أنّ المراد بـ**"غدر أمير عامّة"** أي أن يغدر به أحد من رعيّته، فقوله: ((أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيْرِ عَامَّةٍ)) أي أعظم غدرٍ، الغدرُ بأمير العامّة، فيكون من رعيّته من يغدر به، فهـٰذا من الكبائر وهو معنىٰ معروف في الحديث.

وإيراد الذّهبيّ -رحمه الله- الحديث هنا **" الغادر بالأمير"** يدلّ علىٰ أنّه أراد هـٰذا المعنىٰ لا المعنىٰ الأول.

[المتن]

وَقَالَ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:قَالَ-تَعَالَىٰ-: ((ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَىٰ بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا، فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَىٰ مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ)) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

[الشرح]

ثمّ أورد هـٰذا الحديث في الثلاثة الذين يكون الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- خصْمهم يوم القيامة، ثمّ ذكرهم:

الأوّل: وهو الشّاهد من الحديث لهـٰذه الكبيرة، ((رَجُلٌ أَعْطَىٰ بِي ثُمَّ غَدَرَ))، **"بي"** أي بالله، ومعنىٰ **"أعطىٰ بالله"** أي أعطىٰ عهدا يلتزم به، أقسم عليه بالله، كأن يقول لغيره أو لأمير أو نحو ذلك: "والله الذي

لا إلٰه إلاّ هو لك عليّ عهد أن ألتزم بالطّاعة أو ألتزم بكذا" ثمّ يغدر، فيكون من هؤلاء الثلاثة الذين الله – عزّ وجلّ– خصمهم يوم القيامة ((أَعْطَىٰ بِي ثُمَّ غَدَرَ)) وهو الشّاهد للكبيرة من هٰذا الحديث.

الأمر الثاني: ((وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا، فَأَكَلَ ثَمَنَهُ))، ((رَجُلٌ بَاعَ حُرًّا))أي باع رجلا حرّا، وجد رجلا حرّا فأخذه وقال: إنه رقيق لي، ثمّ باعه وأكل ثمنه.

وقوله : ((أَكَلَ ثَمَنَهُ)) هٰذا باعتبار الغالب في وجوه الانتفاع أنه الأكل، لكن لو باعه واستفاد بثمنه غير الأكل، أمرا آخر غير الأكل، كأن يشتري ثيابا، أو يشتري بيتا، أو يشتري دابّة أو نحو ذلك، الحكم واحد، فذِكْرُه الأكل ليس علىٰ وجه التّعيين والتّخصيص وإنّما علىٰ اعتبار أنّ هٰذا هو الغالب في وجوه الانتفاع.

الثالث: ((وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَىٰ مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ))، **"استوفىٰ منه"** يعني ما طلب منه أن يقوم به من عمل وصناعة استوفاها منه كاملة، ثمّ لمّا جاء وقت دفع الأجرة لم يعطه، فهٰذا من الثّلاثة الّذين يكون الله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ– خصيمهم يوم القيامة.

[المتن]

وَقَالَ–صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–:((مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِيْ عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً))رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

قوله: ((ولاَ حُجَّةَ لَه))، **" الحُجَّة"** الدِّين، والدِّين جاء بالأمر بالطّاعة في الكتاب والسنّة، فمن خلع اليد من الطّاعة لا حُجَة له، ليس عنده إلا الأهواء واتّباع النّفس واتباعه للشّرّ والفساد، أمّا القرآن والسنّة لا حُجَّة لمن يخلع اليد من الطّاعة، لا حُجَّة له في كتاب الله وسنّة نبيّه –صلّىٰ الله عليه وسلّم.

ومن يقرأ النّصوص الواردة في هٰذا الباب لا يجد فيها دعوة إلىٰ خلع اليد من الطّاعة، وإنّما فيها الدعوة إلىٰ السّمع والطّاعة والصّبر والدّعاء وإصلاح النّفس، وغير ذلك من المعاني الواردة في نصوص الباب، فلا يكون له حُجَّة، يلقىٰ الله –عزّ وجلّ– ولا حُجَّة له.

قال : ((وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِيْ عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً)) وأهل الجاهليّة الذين يموت ميتتهم كانت حالهم عدم السّمع والطّاعة، ويأنف الواحد منهم أن يكون يسمع أو يطيع أو أن يكون له أميرا، فجاهليّتهم تأبىٰ ذلك، مع أنّ فيه مصلحة لهم وللمجتمع، لكن جاهليّتهم تأبىٰ ذلك ولا ترضاه، فمن خصال الجاهليّة عدم السّمع والطّاعة، ولهٰذا شيخ الإسلام محمّد بن عبد الوهّاب –رحمه الله– لمّا ألّف كتابه **" مسائل**

الجاهليّة" التي جاء الإسلام بمخالفتها، فذكر في أوّل ثلاث خصال مسائل الجاهليّة **"عدم السّمع والطّاعة"**، ما ينطوون تحت أمير، وإنما هم متمزّقون ومتفرّقون، ولهٰذا بينهم تطاحن وحروب وعداوات وشرّ؛ والإمرة لا ينتظِم أمرُ الجماعة إلا بها، فلا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بسمع وطاعة، فإذا لم يكن هناك سمع وطاعة وكان بدل ذلك الافتيات علىٰ وليّ الأمر ونزع اليد من الطّاعة وشقّ العصا والخروج، هٰذا الذي هو يفرّق الكلمة ويشقّ الصّف ويُوجِد التطاحن والحروب وإراقة الدّماء وانتهاك الأعراض إلىٰ غير ذلك فـ((مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِيْ عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً)) لأن هٰذه الخصلة التي هو عليها إلىٰ أن مات هي من خصال أهل الجاهليّة؛ فيلقىٰ اللّهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- بعمل أهل الجاهليّة، ولا يلقىٰ اللّه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- بعمل أهل الإسلام.

[المتن]

وقال-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يؤمن بالله واليوم الآخر، وَلْيَأْتِ إِلَىٰ النَّاسِ ما يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَىٰ إِلَيْهِ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ فَلْيُطِعْهُ إِنْ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فاضربوا عُنُق الآخر)) رواه مسلم .

[الشرح]

ثمّ ذكر هٰـذا الحديث المشتمل علىٰ التّرغيب العظيم لمن أراد لنفسه أن يُزحْزح عن النّار ويُدخَل الجنة ﴿وَمن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥] ، فذكر -عليه الصّلاة والسّلام- أنّ من أحبّ ذلك ((فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يؤمن بالله واليوم الآخر، وَلْيَأْتِ إِلَىٰ النَّاسِ ما يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَىٰ إِلَيْهِ)).

وهٰذه قاعدة عظيمة جمعت الدّين كلّه في المعاملة بين الله والمعاملة بين العباد:

- **أما المعاملة مع الله** فبالإيمان به واليوم الآخر، وما يتطلّب هٰذا من استعداد وسعي له بسعيه.
- **وأمّا المعاملة مع العباد** بأن يأتي لهم الشيء الذي يحب أن يؤتىٰ إليه، قال: ((وَلْيَأْتِ إِلَىٰ النَّاسِ ما يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَىٰ إِلَيْهِ))، وهٰذا الحديث يُعتبر قاعدةً في باب الأخلاق والمعاملة، قاعدة عظيمة؛ بل لا تجد أوفىٰ منها بيانا ولا أحسن منها إيضاحا لحقيقة الخلُق الحسن والمعاملة الكريمة.

ولو قيل لك: أعطنا ضابطا في حسن المعاملة وحسن الأخلاق، لما وجدت جوابا أوفىٰ من هٰذا الحديث، حسن والمعاملة وكمال الأخلاق أن تأتي للناس بالشّيء الذي تحب أن يؤتىٰ إليك، وهٰذه قاعدة عظيمة.

بمعنىٰ لو سألت ما هو الخلق الحسن مع الوالدة؟ طبّق الحديث أن تأتي لها الشّيء الذي تحب أن يؤتىٰ إليك، يعني لو كنت أنت الوالدة، ما الذي تريد؟.

ما الخلق الحسن مع من أشتري منه بضاعة ، أن تأتي له الشّيء الذي تحبّ أن يؤتىٰ إليك لو كنت أنت الذي تبيع.

زميلك ما المعاملة التي تحب أن يعاملك بها، وما الخلق الحسن الذي ترجوه منه أن تأتي إليه الشّيء الذي تحب أن يؤتىٰ إليك.

فهٰـــذا حقيقة قاعدة من أروع ما يكون في حســن المعاملة، فحســن المعاملة وكمال الأخلاق يكون بتحقيق هٰـــذا الحديث، وهو أن يأتي للنّاس الشّــيء الذي يحب أن يؤتىٰ إليه، أي الذي يحب أن يتعامل النّاس معهم به ، مثل هٰـذا الحديث قوله ــ صلّىٰ الله عليه وسلّم ــ «لاَ يُؤمِن أَحدُكُم حَتَّىٰ يُحِبَّ لأخِيه مَا يُحبَّ لِنفسِــه»، وقوله: «يحبّ لأخيه» هٰـــذا فيما يخص القلب اتجاه الإخوان، والحديث الذي أورده الذّهبي هنا يتعلّق بالمعاملة الظّاهرة كيف تكون بين المســلم وبين إخوانه، والشّــاهد من الحديث قوله: ((وَمَن بَايَعَ إمَامًا فأعطَاه صَــفْقَةَ يدِه وَثمرَةَ قَلبِه)) يعني التزم له بالطّاعة والتزم بالعهد وبايعه ، فليطعه إن استطاع، ((فإن جاء أحدٌ يُنازِعه فَاضرِبُوا عُنقَه))، وهٰــذا هو الشّاهد ((إنْ جَاءَ أحدٌ يُنازِعُه))، يعني غدر وخرج عن العهد ونازع الإمام وغدر به، قال: ((فاضربوا عنقه))، وهٰذا الدّليل علىٰ أنّ هٰذا العمل كبيرة ، لأنّ فيه حدّ وهو أن يقتل .

[المتن]

وَقَالَ–صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–:((مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَىٰ اللهَ، وَمَنْ يُطِعْ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي)) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

الشّاهد من الحديث ((ومن يُطع الأميرَ فَقد أَطَاعَنِي، وَمن يَعصِ الأَميرَ فَقَدْ عَصَانِي)) ، لأنّ النّبي ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ جاءت عنه نصوص متكاثرة في الأمر بطاعة الأمير ، والسّمع له، والعلماء رحمهم الله

بسطوا هٰذه الأحاديث في مصنّفات خاصّة، وأفردوا لها أبوابا خاصّة لكثرتها في الكتب الجوامع ، ككتاب الإمارة في صحيح مسلم، ساق فيه كثير من الأدلّة في السنّة فيما يتعلّق بحقوق الوُلاة والسّمع والطّاعة لهم.

وينبغي أن يعلم المسلم هنا أنّ الذي أمر بالسّمع والطّاعة للأمير هو الذي أمر بالصّلاة، وهو الذي أمر بالصّيام، وهو الذي أمر بالحجّ، الذي أمر بالسّمع والطّاعة للأمير هو الذي أمر بهٰذه الطّاعات؛ بل جاء في بعض الأحاديث ذكر السّمع والطّاعة للأمير مضموما إلىٰ هٰذه الطّاعات وأنّه من أسباب دخول الجنّة، كما ثبت عن النّبي ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ أنّه قال في حجّة الوداع في خطبة له، قال ((**اتّقُوا رَبّكُم وَصَلّوا فَرضَكُم، وَصُومُوا شَهرَكُم، وَأدُّوا زَكَاةَ مَالِكُم، وَأَطيعُوا ذَا أَمرِكُم تَدخُلُوا جَنّةَ رَبِّكُم**))، فذكر طاعة وليّ الأمر مضمومة إلىٰ الصّلاة والصّيام والزّكاة، ذكرها مضمومة لفرائض الإسلام وجعل كلّ ذلك من موجبات دخول الجنّة، قال: ((**تَدخُلُوا جَنّةَ رَبِّكُم**))، فالذي أمر بطاعة الأمير هو الذي أمر بالصّلاة وهو الذي أمر بالحجّ، وهو الذي أمر بالزّكاة، ولكن بسبب الأهواء التي تدخل النّفوس وتلج إلىٰ الصّدور، يتضجّر بعض النّاس من الأحاديث التي تتعلّق بالسّمع والطّاعة لولاة الأمر، فتجده مثلا لو قرأ في صحيح مسلم، إذا قرأ كتاب الصّلاة يقرأ بصدر منشرح غير منزعج أبدا، وإذا قرأ كتاب الصّيام في صحيح مسلم لا يجد أيّ انزعاج بل يقرأ بإقبال وحرص ونهم ورغبة، فإذا قرأ كتاب الزّكاة كذلك الحال، الحج، وإذا وصل كتاب الإمارة ، وجد في قلبه حسيكة هٰذه بسبب الأهواء، أنّ الإنسان يجد تضجُّر، أو يسمع مثلا موعظة أو خطبة في حقّ الأمير تورد فيها الآيات والأحاديث فينزعج ويتضجّر، هٰذا من الأهواء ، لأنّ الذي أمر بالسّمع والطّاعة للأمير، هو الذي أمر بالصّلاة، وهو الذي أمر بالصّيام، وهو الذي أمر بعموم العبادات، فلماذا يجد الإنسان في صدره هنا وينشرح صدره هناك إلاّ لوجود الهوىٰ، الهوىٰ هو الذي يحرّك في النّفوس ما يحرّك.

والواجب علىٰ المسلم أن يطّرح الأهواء، وأن يكون ملزما لنفسه بالسنّة في كلّ أبواب الدّين، يكون ملزما لنفسه بالسنّة في كلّ أبواب الدّين، والسنّة خير وبركة، والأهواء خطر علىٰ الإنسان وضرر في دينه ودنياه.

ولهٰذا خروج الإنسان عن قواعد الشّريعة فيما يتعلّق بالسّمع والطّاعة للولاة ينشأ عنه اختلال الأمن ، واختلال الأمن ينشأ عنه عدم قرار النّاس في عبادتهم، فلا تؤدّىٰ الصّلاة ولا يؤدّىٰ الحجّ ولا يؤدّىٰ الصّيام، ولا يطلب العلم، كلّ هٰذه الأمور لا تؤدّىٰ إلاّ مع قلق وخوف وعدم اطمئنان، تجد الإنسان قد

يخرج للصّلاة وقد لا يخرج، يخشىٰ علىٰ نفسه، يخشىٰ علىٰ بيته، أمّا الحجّ ففيه خطر عظيم في الذّهاب إليه لاختلال الأمن، أمّا الطاعات الأخرىٰ أيضا لا تتيسّر لاختلال الأمن، فالأمن يختل، والطّاعات لا تتيسّر للنّاس، ولا يتيسّر للنّاس أن يؤدّوا عبادة الله عزّ وجلّ بطمأنينة إلاّ بجماعة ولا جماعة إلاّ بإمام ولا إمام إلاّ بسمع وطاعة، ولهٰذا جاءت النّصوص متكاثرة بالسّمع والطّاعة ((عَليكُم بِالسَّمعِ وَالطَّاعَة)) ، أحاديث كثيرة في هٰذا الباب ،والواجب أن تُتلقّىٰ هٰذه الأحاديث بالقبول وانشراح الصّدر، وأن يعلم المسلم أنّ الذي قال هٰذه الأحاديث هو الذي جاءت عنه أحاديث الصّيام، وجاءت عنه أحاديث الحجّ، فإذا كنتُ قبلتُ أحاديث الصّيام وأحاديث الحجّ وأحاديث الزّكاة وغيرها بانشراح صدر، فهٰذه أيضا يجب أن نتلقّاها بانشراح صدر ، لأنّه –عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلاَمُ– لا يأمر إلاّ بخير ولا ينهىٰ إلاّ عن شرّ، أمّا إذا دخلت الأهواء ودخلت الجاهليّة علىٰ الإنسان، وقال: لا كيف أسمع وأطيع وأنا ابن فلان، وأنا كذا وأنا الذي كذا، ولا يمكن أن أسمع أو أطيع، هٰذه الجاهليّة، هٰذه هي الجاهليّة ، وهٰذه أعمال الجاهليّة، عدم السّمع والطّاعة والخروج علىٰ الجماعة، جماعة المسلمين.

[المتن]

وَقَالَ: ((مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئا فَلْيَصبِرْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِن السُّلطانِ شِبرا مَاتَ مِيتَة جَاهِلِيَّة)) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ

[الشرح]

الخروج من السّلطان ولو قدرا يسيرا هو من أعمال الجاهليّة ، ومن مات علىٰ ذلك مات علىٰ خصالهم، لأنّ الجاهليّة من شأنهم في هٰذا الباب عدم السّمع والطّاعة، ويرىٰ الواحد منهم أنّ سمعه وطاعته للأمير ينقص من قدره ، ويتنافىٰ مع شأنه ومع مكانته ،وأنّه صاحب المكانة الفلانيّة والشّأن الفلاني ، فكيف يكون... ! هٰذه هي الجاهليّة، لا يراعي مصلحة الأمّة ولا يراعي مصلحته، ولا يراعي ما يترتّب علىٰ خروجه من الفساد والشّر، وإنّما الذي أمام ناظريه أنّ مكانته لا يليق بها أن يكون منها سمع وطاعة للأمير ،أمّا الأمور الأخرىٰ والتّبعات والأضرار والمفاسد والأخطار التي تترتّب علىٰ عدم السّمع والطّاعة ، كلّ هٰذه لا يلتفت إليها ، فهٰذه جاهليّة وهٰذا من عمل الجاهليّة، فلو خرج من الطّاعة ولو شبرا ، يعني ولو قدرا يسيرا، وأمرا قليلا ومات علىٰ ذلك، يعني مات ولم يتب من ذلك، مات ميتة جاهلية.

[المتن]

وَقَالَ–صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: ((مَنْ خَرَجَ مِنَ الْجَمَاعَةِ شِبْرا فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلامِ مِنْ عُنُقِهِ)) وَهٰذا

صَحِيْحٌ مِنْ وُجُوهٍ عِدَّةٍ صِحَاحٍ.

[الشّرح]

وهٰذا أيضا فيه خطورة الخروج ولو شيئا قليلا، وأكيد أنّه يترتّب عليه ما يترتّب من الانحلال واللّحوق بخصال الجاهليّة وأعمالهم وصفاتهم.

[المتن]

وَأَيُّ جُرْمٍ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تُبَايِعَ رَجُلاً ثُمَّ تَنْزِعَ يَدَكَ مِنْ طَاعَتِهِ وَتَنْكُثَ الصَّفْقَةَ وَتُقَاتِلَهُ بِسَيْفِكَ، أَوْ تَخْذُلَهُ حَتَّىٰ يُقْتَلَ؟

[الشرح]

هٰذه خلاصة ذكرها المصنّف عندما أنهىٰ إيراد هٰذه الأحاديث قال: (أيّ جرم أعظم من أن تبايع رجلا..) إلىٰ آخره، يعني علىٰ ضوء ما وقفنا عليه من النّصوص والأدلّة، أيّ جرم أعظم أن يكون الإنسان بهٰذه الصّفة وبهٰذه المصادمة والمخالفة لهٰذه النّصوص العظيمة عن رسول الله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

[المتن]

وَقَالَ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((مَنْ حَمَلَ عَلَيْنا السِّلاَحَ فَلَيْسَ مِنّا)) صَحِيْحٌ

[الشرح]

قوله: ((فَلَيْسَ مِنّا)) هٰذا دليل علىٰ أنّ هٰذا الأمر كبيرة ((مَن حمَلَ علينا السِّلاحَ)) يعني من حمل علينا السّلاح وأشهره، وشقّ العصا، ونزع اليد من الطّاعة، وحمل السّلاح ، فقال -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: ((فَليسَ مِنّا)).

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ الحَادِيَة والأَرْبَعُوْن

تَصْدِيقُ الكَاهِن والمُنَجِّم

قَالَ-تَعَالَىٰ-: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[الإسراء:٣٦].

وَقَالَ-تَعَالَىٰ-: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[الحجرات:١٢].

وَقَالَ-تَعَالَىٰ-: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُوْلٍ﴾[الجن:٢٦-

.[٢٧

[الشرح]

الكاهن والمنجّم كلّ منهما يدّعي علم الغيب، كلّ منهما يدّعي علم الغيب،ومثلهما العرّاف والرمّال، ومن يقرأ ما يســمّونه قارئ الكفّ، أوقارئ الفنجان، أو ما يســمّىٰ بأهل الحظوظ، أو غير هؤلاء ممّن يدّعون علم الغيب، ممّن يدّعون علم الغيب،والغيب أمر اختصّ به ربّ العالمين جلّ وعلا ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾[النمل:٦٥]، فالغيب لله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- هو الذي يعلم الغيب، ويعلم ما يكون وما كان، ومالم يكن ولو كان كيف يكون، ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[الطلاق:١٢]، هٰذا أمر اختصّ به ربّ العالمين، سمع نبيّنا ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ امرأة تمدحه تقول في مدحها له: "وَ فِينَا رَسُول اللهِ يَعلمُ مَا فِي غدٍ"، فغضب قال: «لاَ يَعلَمُ مَا فِي غَدٍ إلاّ الله، لاَ يَعلمُ مَا فِي غَدٍ إلاّ الله»، فهؤلاء الكاهن والمنجّم والعرّاف والرمّال وأهل الضّرب بالحصىٰ، وأيضا المشتغلون بالأباجاد حروف المعجم، ويرتّبونها ترتيبات معيّنة ومن خلال ذلك يدّعون معرفة علم الغيب، أو من يخطّ بالأرض، أو يطرق بالحصىٰ، أو ينظر في كفّ الإنسان أو في غير ذلك، ويدّعي من خلال هٰذه الأشياء وهٰذه الأمور أنّه يعلم علم الغيب، فهٰذا مدّع لعلم الغيب، وعلم الغيب لله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-، فمن صدّقه فقد كفر، وارتكب كبيرة من كبائر الذّنوب.

من صدّق الكهان أو صدق المنجّم أو صدق العرّاف أو صدق الرَّمَّال أو صدق أشباه هؤلاء فهو مرتكبٌ لكبيرة؛ بل وقع في الكفر -كما سيأتي في النصوص التي أوردها المصنف رحمه الله-.

ثم أورد نصوصًا عامّة في البعد عن هٰذه الأشياء. قال: (قَالَ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[الإسراء:٣٦]. وَقَالَ: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[الحجرات:١٢]. وَقَالَ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾[الجن:٢٦]). فهٰذه النّصوص العامة يُستفاد منها عدم تصديق هؤلاء، وأن تصديق من يدَّعي علم الغيب من كاهن أو منجّم أو عرّاف قُفُوْ من الإنسان بما ليس له به علم، أي علم يُحصَّل من خلال الكهانة أو من خلال التنجيم أو من خلال الضرب بالحصىٰ أو من خلال الخط في الأرض أو غيرها؛ فكل منهم وكل من هؤلاء وكل مصدق لهؤلاء قافٍ لما ليس له به علم ومتبع للظن، فهٰذه نصوص عامة في التحذير من هٰذا الأمر، وسيأتي نصوصا خاصة في الباب.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ أَتَىٰ عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُوْلُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-» إِسْنَادُهُ صَحِيْحٌ، رَوَاهُ عَوْفٌ، عَنِ ابْنِ سِيْرِيْنَ، عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنَهُ-، عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

[الشرح]

ثم أورد -رحمه الله- هٰذا الحديث قال: «مَنْ أَتَىٰ عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا».

العرَّاف: الذي يدَّعي معرفة الأمور، والعراف وصف جامع يتناول الكاهن ويتناول المُنجِّم ويتناول الرَّمَّال وأهل الضرب بالحصىٰ وغيرهم، كلهم هؤلاء عرافون يدعون معرفة الأمور المغيبة ونحو ذلك.

والكاهن: هو من يتكهّن ويدّعي أنه يعرف الأمور المستقبلة بكهانته، "يوم كذا سيحدث لك كذا"، "يوم كذا يموت كذا أو يمرض كذا أو يغنىٰ فلان" أو غير ذلك.. بالكهانة.

فالعراف يتناول هؤلاء كلهم، وقيل العراف: هو من يدعي معرفة الأشياء المفقودة، والكاهن: يدعي معرفة الأشياء المستقبلة بكهانته. أما العراف: الذي يدعي معرفة الأشياء المفقودة الغائبة علىٰ الإنسان من مسروق أو غيره فيدعي معرفته، وكل منهما يتعامل بإدعاء علم الغيب، وعلم الغيب لله -سبحانه وتعالىٰ-، ومُصدِّق الكاهن والعراف وأشباههم كافرٌ كما هو مبين هنا في الحديث قال: «فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُوْلُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-»؛ لأن الذي أُنزل علىٰ محمد -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- هو عدم التصديق لهؤلاء، هٰذا الذي أُنزل عليه، فمن صدقهم فقد كفر بالذي أُنزل علىٰ محمد -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صَبِيْحَةَ لَيْلَةٍ مَطِيْرَةٍ: «يَقُولُ اللهُ -عَزَّ وَجَلْ-: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ، فَمَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَمَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِيْ مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

[الشرح]

وهٰذا من التّنجيم ومن أعمال أهل التنجيم، ولا يُصدَّقون فيما يكون منهم من أقوال بالتنجيم وبالنظر إلىٰ النجوم أو إسناد الحوادث الأرضية للنجوم، لا يُسندونها إلىٰ رب العالمين، لا يقول: إذا نزل المطر: "مطرنا بفضل الله ورحمته"، وإنما يقول: "مطرنا بنوء كذا وكذا"، فيربطون الحوادث الأرضية من أمطار

وخيرات بالنجوم لا بالله، لا يقولون: "مُطرنا بفضل الله ورحمته"، "صلح نباتنا بفضل الله ورحمته"، وإنما يقولون: "بنوء كذا وكذا". وهٰذا كما جاء في الحديث مؤمن بالكوكب كافر بالله، ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[النحل:٨٣] أي بإضافتها لغير المُنعِم والمُتفضِّل بها وهو الله –سبحانه وتعالىٰ–، حتىٰ فيما جعله الله سببا، النعمة تُضاف للمُنعِم وهو المتفضل وهو الله –جل وعلا.

[المتن]

وَقَالَ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «مَنْ أَتَىٰ عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

في بعض ألفاظ الحديث يأتي بدون "صَدَّقَه"، ولهٰذا جمع العلماء بين هٰذا الحديث والحديث الأول: أن من أتاه مصدقا مؤمنا به فهٰذا كافر ليس بمسلم، ومن أتاه غير مصدق له؛ ولكن لاعتبار آخر أو لأمر آخر وقصده فبهٰذا الإتيان وبهٰذا القصد لا تُقبل منه صلاةٌ أربعين يوما.

[المتن]

وَقَالَ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ» رَوَاهُ أَبُوْ دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيْحٍ.

[الشرح]

«اقْتَبَسَ» أي أخذ أو اقتطع، «شُعْبَةً» أي خصلة أو جزءًا «مِنَ النُّجُومِ»؛ أي من علم النجوم، وعلم النجوم هنا المراد [به]: علم النجوم المذموم؛ لأن علم النجوم علىٰ نوعين: علم تأثير، وعلم تسيير، فعلم التأثير هٰذا الذي جاءت النصوص بذمه، أما علم التسيير وهو أن يعرف الطريق من خلال النظر إلىٰ النجوم أو يعرف القبلة هٰذا لا شئ فيه، هٰذا النظر في النجوم لا شئ فيه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٦]، فلا شيء أن يعرف الإنسان قبلته أو طريقه من خلال نظره إلىٰ النجوم، فـ«مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ» بتعلم هٰذا العلم الذي هو علم التنجيم الذي يُدَّعَىٰ فيه معرفة الأمور المُغيَّبة أو الحوادث الأرضية من خلال النظر إلىٰ النجوم فمن فعل ذلك فقد «اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ»، جاء في بعض ألفاظ الحديث «زاد ما زاد» أي كلما زاد من هٰذا الاقتباس زاد حظه من السحر؛ ولهٰذا التنجيم يعدّ نوع من أنواع السحر.

❁❁❁❁

[المتن]

الكَبِيرَةُ الثَّانِيَةُ والأَرْبَعُون

نُشُوْزُ المَـرْأَةِ

قَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَالَّلاتِيْ تَخَافُوْنَ نُشُوْزَهُنَّ فَعِظُوْهُنَّ وَاهْجُرُوْهُنَّ فِيْ المَضَاجِعِ وَاضْرِبُوْهُنَّ...﴾[النساء:٣٤].

[الشرح]

ثم ذكر -رحمه الله- هٰذه الكبيرة (**نُشُوْزُ المَرْأَةِ**) أي خروجها عن طاعة الزوج؛ لأنها مأموره بطاعته وله القوامة، له الطاعة، فهي مأمورة أن تكون مطيعة لزوجها، وهٰذا شأن المؤمنات، فشأنهن أنهن ﴿قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ﴾[النساء:٣٤]، فقانتة مطيعة لله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- وحافظة لبيت زوجها مطيعة له، قائمة بحقوقه. فالمرأة الناشز هي المرأة التي خرجت عن الطاعة، فالمرأة إذا خرجت عن الطاعة تكون بهٰذا الخروج مرتكبة لكبيرة، وسيأتي معنا من النصوص ما يدل علىٰ فظاعة هٰذا الأمر وكبره وما فيه من العقوبة والوعيد لفاعلته عند الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- مما يدل علىٰ فظاعة هٰذا الأمر وكبره.

والآية التي بدأ بها المصنف -رحمه الله- فيها تأديب المرأة الناشز؛ أي التي خرجت علىٰ الطاعة؛ طاعة الزوج، وأن الطريق في هٰذا أن تؤدب بالأسهل فالأسهل؛ يعني يبدأ معها بالتأديب بالأسهل فالأسهل كما قال الله -سبحانه وتعالىٰ-: ﴿فَعِظُوْهُنَّ وَاهْجُرُوْهُنَّ فِيْ المَضَاجِعِ وَاضْرِبُوْهُنَّ﴾، أن يتدرج معها في معالجة هٰذا النشوز، فيبدأ معها بالوعظ: يعظها اتقي الله يا أمة الله!، خافي الله، الله يقول كذا، الرسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول كذا، لا يحل لك أن تفعلي هٰذه الأمور، يكرر عليها الوعظ والتخويف بالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- والتذكير، ويمضي في هٰذه الطريقة واعظا مذكرا ناصحا مبيّنا، فقد تكون هٰذه المواعظ كافية في صلاحها وتركها لهٰذا النشوز، أن يذكرها بوعيد الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-، ونبيه -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وما يترتب علىٰ النشوز من خطأ، يبين لها، وهٰذا يبين لنا فضيلة العلم ومكانة الإصلاح؛ ولهٰذا العوام والجهال عندما يقع في البيوت شيء من النشوز ما يستطيع يعالج؛ لأنه لا يحمل علما ولا يحفظ نصوصا ولا يحفظ أدلة، بينما النصوص إذا ذُكِرَت فالقرآن له بركة، السنة لها بركة، فإذا ذُكِرَت النصوص بين أهل الإسلام وبسطت قال الله تعالىٰ، قال -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أينك من هٰذه الآية، أينك من هٰذا الحديث، اتقي الله، خافي الله، هٰذا كلام الله، هٰذا كلام رسوله -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-، الكتاب والسنة فيهما أبلغ

زاجر وأعظم وعظ، والمرأة تحتاج إلىٰ ذلك، أن تُذكر لها النّصوص، وإذا كان الرجل جاهلا بالأحاديث وجاهلا بالأدلة ليس عنده إلا مد اليد وهٰذا خطأ، هٰذا من الخطأ، لا يلجأ الإنسان إلىٰ مد اليد وإلىٰ الضرب؛ بل هٰذا آخر ما يكون، آخر الدواء الكيّ، ولا يصار إليه ابتداءً؛ بل بعض حمقىٰ العوام وجهال العوام يوصون به في أول ليلة من الزواج، أول ما تدخل عليها ابدأ بالضرب!! حتىٰ تعرف رجولتك وتعرف شهامتك!، وبعضهم يقول: أول ما تبدأ في ليلة الزواج تأتي معك بديك أو بدجاجة تتركها معكم في الغرفة التي فيها الدخول علىٰ الزوجة وفي لحظة من اللحظات امسك رأس الديك واقطعه! حتىٰ تعرف شدتك وقوتك وشهامتك!!، هٰذا جهل العوام وسفه العوام!! هٰذه الأمور كلها من الجاهلية ومن الجهل وقلة الدين، فلا يصار إلىٰ ذلك، وإنما أول ما يبدأ الكلمة الطيبة والموعظة الخفيفة وذكر الآيات وذكر الأحاديث وكلام الله وكلام رسوله -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-.

ثم ينتقل بعد ذلك إذا جرّب إذا كرر ومر وقتا ووجدها لم تنتفع ولم تستفيد، وعظها بآية ثم وعظها بأخرىٰ ثم ذكرها بحديث ثم ذكرها بحديث آخر، ولا يكتفي بمرة واحدة ويأتي بالآية سريعا ويقول: وعظتُها!، لا، الموعظة تحتاج إلىٰ شيء من الصبر والإعادة والتكرار، أما أن يقرأ عليها الآية ثم بعد قراءة الآية بثانية يبطش بها، ويقول: وعظتها بالقرآن ووجدتها ما تنجر بالقرآن ولا تستفيد، قرأتُ عليها القرآن وما استفادت، لا، هٰذا ما فعل المأمور به، وإنما يتأنّىٰ ويصبر ويترفّق ويكرر عليها المرة تلو الأخرىٰ، ثم إن وجدها معاندة وفعلا ناشز ولا تبالي ولا تسمع ولا تُصغي ومستهينة بالأمر يلجأ إلىٰ الطريقة الثانية أو الدواء الثاني وهو: الهجر، والهجر يكون في المضاجع؛ يعني يترك المبيت معها في الفراش مدة بقدر ما تحتاج إليه من علاج، وبعض النساء قد لا يفيد فيها الهجر؛ يعني الموعظة والهجر ما يفيد مثل أحد العوام قيل له: اهجرها، قال: كم يوم يعني مثلا؟، قال: يعني عشرة أيام حسب حاجتها، قال: عشرة أيام تهجرها، قال: والله إذا هجرتها عشرة أيام وانتهت العشرة أيام أحتاج أني آتي إليها وهي معطية لي ظهرها وأقبل رأسها حتىٰ ترجع وتوافق؛ يعني ما يفيد فيها الهجر ولا ينفع!، فبعض النساء حتىٰ هٰذا الدواء ما يفيدها مما فيها من العناد والعنجلية وعدم الطواعية، ما يفيد فيها، فمثل هٰذه الحالة يُؤتَىٰ إلىٰ المرحلة الأخيرة الذي هو آخر الدواء الكي، ثم أيضا إذا وصل إلىٰ هٰذه المرحلة مرحلة الضرب: أيضا الضرب له ضوابط في الشريعة «إِذَا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجه».

وغالب ما يحصل الضّرب في الوجه والعياذ بالله، وهٰذا له سرٌّ وله سبب، غالبا الضّرب يكون في الوجه

وله سبب وهو: أنّ المُشادّة التي تكون بين الزّوج والزّوجة أو بين المتخاصمَيْن مُشادّة بالكلام، والكلام يخرج من الفم، فالسبب الذي جاء الضّرر منه هو الفم ولهٰذا اليد تتّجه إلىٰ المصدر، إلىٰ هٰذا المكان الذي صدر منه ما أغضبه، فدائمًا الضّرب يتّجه إلىٰ الفم وإلىٰ الوجه يلطم الوجه أو يضرب الوجه؛ ولهٰذا جاءت السنّة بالمنع من ذلك لأن غالبًا النّفس تتّجه إلىٰ هٰذا المكان قال: «إِذَا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجتنبْ الْوَجْهَ فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ»، وفي بعض الرّوايات: «علىٰ صورة الرّحمن»، فهٰذا فيه النّهي الشّديد علىٰ أن يكون الضرب علىٰ الوجه، قرأت مرةً فتوىٰ: امرأة أو رجل يستفتي أحد أهل العلم وفي قصة الفتوىٰ أنّ زوجها ضربها بجُمع يده فهشّم أسنانها في غضبه عليها، أيُّ تأديب هٰذا؟! هٰذا دمار هٰذا!، هٰذا ليس تأديبا، أو ربّما يضربها علىٰ وجهها فيفقأ عينها!، هٰذا ليس تأديبا! هٰذا دمار!، فإذا لجأ الإنسان إلىٰ الضّرب في مرحلة ضيّقة واضطر إليه بعد أمور وبعد محاولات فيضرب ضربًا يجتنب فيه الوجه وأيضا ضربًا غير مُبرِّح؛ يعني لا يكسر عظمًا ولا يُدمي جلدا، وإنما يكون ضربًا رفيقا يحقّق المقصود.

فعلىٰ كلّ حال إذا حصل النّشوز يتدرّج في العلاج الأسهل فالأسهل بالموعظة ثمّ الهجر ثمّ الضّرب.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَىٰ فِرَاشِهِ، فَلَمْ تَأْتِهِ فَبَاتَ غَضْبَانًا عَلَيْهَا لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّىٰ تُصْبِحَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

وهٰذا دليل علىٰ أنّ النّشوز كبيرة، نشوز المرأة كبيرة، ومن نشوزها: تأبّيها عن طواعيّة الزّوج في الفراش، فإذا دعاها؛ دعا امرأته إلىٰ فراشه «فلم تأته» يعني تأبّت وامتنعت، «فَبَاتَ غَضْبَانًا عَلَيْهَا» يعني بات الزوج غضبانا عليها لامتناعها عن الفراش، فإنّ الملائكة تلعنها، وهٰذا دليل علىٰ أنّ هٰذا الأمر من كبائر الذنوب؛ لأنّ اللّعنة لا تكون إلا في كبير.

[المتن]

وَفِي لَفْظٍ فِيْ الصَّحِيْحَيْنِ: «إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا لَعَنَتْهَا الْمَلاَئِكَةُ».

[الشرح]

وهٰذا في معنىٰ ما سبق: «هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا»؛ يعني متأبيّة عليه وممتنعة وليست مهيَّأةً نفسَها له، وإنما معرضة عنه «هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا لَعَنَتْهَا الْمَلاَئِكَةُ». وفي الحديث دليل علىٰ ضرورة

اهتمام المرأة بفراش الزّوج وعنايتها به وتحسينها له، من حيث هي أن تتهيّأ وتترتب وتعتني بهٰذا الأمر عناية كبيرة جدّا، فإذا كانت مهملة له، متأبيّة، ممتنعة، والزّوج لا يجد حاجته عندها ويبيت غضبان فإنها تلعنها الملائكة.

[المتن]

وَفِيْ لَفْظٍ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَىٰ فِرَاشِهَا فَتَأْبَىٰ عَلَيْهِ إِلَّا كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا حَتَّىٰ يَرْضَىٰ عَنْهَا زَوْجُهَا».

[الشرح]

«إِلَّا كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا» يعني ربّ العالمين، وهٰذا من الأدّلة علىٰ علوّ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- علىٰ خلقه. وقوله: «إِلَّا كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا» هٰذا كبير، يدل علىٰ أن الأمر كبير جدّا يسخط عليها ربّ العالمين، فمثل هٰذه النّصوص لو أنّ المرأة قرأتها ثمّ قرأتها ثمّ تدبّرت فيها ثمّ تأملت تَصْلُح حالها ويستقيم أمرها، وكثير من النّساء تُؤْتىٰ من جهلها، فإذا قرأت هٰذه النّصوص ووقفت علىٰ هٰذه النّصوص اعتدل أمرها واستقامت حالها؛ لأنّ الكتاب والسنّة فيهما الهداية لأقْوَم الطّرق وأحسن السُّبل، ولهٰذا حقيقةً مثل هٰذه النّصوص ينبغي أن يُعْتَنىٰ بها في التّعليم ولاسيما مَن هنّ مقبلات علىٰ الزّواج، من أهمّ ما ينبغي أن تتعلّمه المقبلة علىٰ الزّواج أن تقف علىٰ هٰذه النّصوص وعلىٰ هٰذه الأدلّة حتّىٰ تدخل حياتها الزّوجيّة علىٰ بصيرة بالأمر عارفة بالحقوق، وكان الأمر قديما يُعلَّمنّ عند إقبالهنّ علىٰ الزّواج مثل هٰذه الضوابط ومثل هٰذه الأمور، ولهٰذا العناية بها في المرأة تعليما وتوجيها وإرشادا حتّىٰ تدخل هٰذا الباب ببصيرة، ولا تعرّض نفسها لسخط الله ولا تعرّض نفسها للعنة الملائكة ولا تعرّض نفسها لعقوبة الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-؛ بل تكون قائمة بحقّها مؤديّةً له علىٰ التّمام سائلةً الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- الذي لها، تؤدّي الذي عليها وتسأل الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- الذي لها.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لاَ يَحِلُّ لامْرَأَةٍ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلا بِإِذْنِهِ، وَلا تَأْذَنُ فِي بَيْتِهِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

[الشرح]

وهٰذا أيضا يدل علىٰ حقّ الزّوج، والصّيام يحصل به امتناع ما يكون بين الزّوجين، فلا يحلّ لها أن تصوم

إلا بإذنه، تستأذنه تقول: اليوم تأذن لي أن أصوم أو لا؟ فإذا قال: نعم. تصوم ولا حرج عليها، أمّا أن تكون صائمة بغير إذنه ثمّ تتأبّىٰ منه بحجّة الصّيام وتمتنع، لا، لا يحلّ لها، لا يجوز، يحرُم عليها، «لاَ يَحِلُّ لامْرَأَةٍ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إلا بِإِذْنِهِ»، أمّا إذا كان غائبا فالأمر لا يحتاج إلىٰ استئذان؛ لكن إذا كان شاهدا موجودا في البلد قد يأتي بعد لحظة أو بعد ساعة أو نحو ذلك فلا يحلّ لها أن تصوم إلا بإذنه.

كذلك فيما يتعلق بالبيت، البيت بيته فلا يحلّ لها أن تستضيف فيه وأن تدعوَ إليه إلاّ بإذن الزّوج؛ لأنّه بيته ومكانه.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحِدٍ غَيْرَ اللهِ لأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا» صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

[الشرح]

والمراد بـ: **"السّجود"** هنا: سجود التّحية؛ يعني أن تسجد له تحيّةً له؛ ولكن -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- يقول: «لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ غَيْرَ اللهِ لأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا»، فالمراد بالسّجود هنا: سجود التّحيّة لا سجود العبادة؛ لأنّ من يقول أنّ المراد سجود العبادة سيكون المعنىٰ ماذا؟ لو كنت آمرا أحدا أن يعبد أحدا لأمرت، هٰذا لا يقوله النبي -عليه الصّلاة والسّلام-، فالمراد هنا سجود التّحيّة، أن تسجد له علىٰ وجه التّحيّة له؛ لكن هٰذا الأمر لا يجوز، ولو كان مشروعا للأمّة لأمر النبيّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كما أخبر في هٰذا الحديث المرأة أن تسجد لزوجها، وهٰذا يدلّ علىٰ عِظَم حقّ الزّوج وأنّ الواجب علىٰ المرأة أن تلقىٰ زوجها بالاحترام، بالأدب، بالتّقدير، بالتّحية، حقُّه بلغ هٰذا القدر «لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحِدٍ لأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا»، فإذا كانت مطالَبَة بالاحترام والتوقير بدلالة هٰذا الحديث فإنّ الواجب عليها أن تكون دائما علىٰ هٰذا هو الطريق والأسلوب الذي تلقىٰ به زوجها، تلقاه بالتّحيّة، بالاحترام، بالتّقدير، بالانبساط، بانشراح الصدر، بحسن الاستقبال، هٰذا حقّ من حقوقه كما يدلّ عليه ويرشد إليه هٰذا الحديث.

[المتن]

وَقَالَتْ عَمَّةُ ابْنِ مِحْصَنٍ وَذَكَرَتْ زَوْجَهَا لِلنَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: «انْظُرِي أَيْنَ أَنْتِ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ جَنَّتُكِ وَنَارُكِ» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ.

[الشرح]

«انْظُرِي أَيْنَ أَنْتِ مِنْهُ» أي زوجك أين أنت منه؟ هل أنت منه امرأة مطيعة سمحة قائمة بالحقوق أم بخلاف ذلك؟ فيك النّشوز وفيك الإساءة، فيك عدم الطّواعيّة، أين أنت منه؟

«فَإِنَّهُ جَنَّتُكِ وَنَارُكِ» فطاعته من أسباب دخول الجنّة، وعصيانه من أسباب العقوبة واللّعنة والنّار، «أَيْنَ أَنْتِ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ جَنَّتُكِ وَنَارُكِ» ولهٰذا جاء في الحديث أنّ النّبيّ -عليه الصّلاة والسّلام- قال: «إذا صامت المرأة شهرها وصلّت فرضها وأدت زكاة مالها وأطاعت بعلها قيل لها ادخلي الجنّة من أيّ أبوابها شئت».

فقال: «فَإِنَّهُ جَنَّتُكِ وَنَارُكِ» يعني إذا كنت مطيعة قائمة بحقوقه فلك الجنّة، وإذا كانت عاصية وناشزا وليست قائمة بالحقوق فهي عُرضة للعقوبة بالنّار.

[المتن]

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لاَ يَنْظُرُ اللهُ لِامْرَأَةٍ لاَ تَشْكُرُ لِزَوْجِهَا وَهِيَ لاَ تَسْتَغْنِيْ عَنْهُ» إِسْنَادُهُ صَحِيْحٌ أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ.

[الشرح]

قوله في الحديث الذي مرّ: «فَإِنَّهُ جَنَّتُكِ وَنَارُكِ» هٰذا يدلّ علىٰ عظم حق الزّوج، فالمسألة ليست بالهيّنة، المسألة جنّة ونار، وماذا يكون -تقول بعض النساء- إذا لم أستجب أو إذا لم أطعه؟ لا، المسألة جنّة ونار ليست المسألة هيّنة فإنما هو: «جَنَّتُكِ وَنَارُكِ». والجنة لها طريقة في التعامل مع الزّوج، والنّار أيضا لها طريقة في التعامل مع الزّوج، وقوله: «أَيْنَ أَنْتِ مِنْهُ»؛ يعني انظري إلىٰ الطّريقة التي تكونين عليها معه، ففيه طريقة تكون سببا للجنّة، وفيه طريقة تكون سببا للعقوبة والنّار، فالأمر ليس بالهيّن.

والحديث الآخر قال: «لاَ يَنْظُرُ اللهُ لِامْرَأَةٍ لاَ تَشْكُرُ لِزَوْجِهَا وَهِيَ لاَ تَسْتَغْنِيْ عَنْهُ»، «لاَ تَشْكُرُ لِزَوْجِهَا» شُكْر الزّوج من شُكْر الله و«لا يشكر الله من لا يشكر النّاس»، فإذا كانت المرأة بهٰذه الصّفة لا تستغني عن الزّوج ثمّ لا تشكره؛ بل تكفر النّعمة كما قال في الحديث الآخر: «إنكنّ تَكْفُرْنّ العشير» يعني المرأة تطول أيْمَتُها وتتمنّىٰ أن يأتيها الزّوج، وكلّ يوم تنتظر: يا ربّ، يا ربّ يسّر لي الزّوج ، ثمّ يُكرمها الله -عزّ وجلّ- بزوج، وهٰذا الزّوج أيضا يحسن إليها ويكرمها وينفق عليها الطّعام والشّراب واللّباس، ثمّ إذا غضبت منه يوم من الأيّام نسيت طول الأيْمة التي كانت فيها بانتظار الزّوج، ونسيت نفقته عليها من طعام وشراب وكساء إلىٰ آخره، وقالت بملء فِيها: ما رأيت منك خيرا قَطّ! ما رأيت منك حسنة! هٰذا معنىٰ «إنّكنّ تَكْفُرنّ

العشير»، تطول أيْمتها وهي تتمنّىٰ أن يأتيها زوج: يا ربّ أن ترزقني زوجا، ثمّ يكرمها بزوج، ثمّ ينفق عليها طعام، شراب، لباس، مسكن إلىٰ آخره، ثمّ إذا نقص عليها حاجة أو طلبت شيئا تريده فلم يتيسّر أولم يتحقّق فتقول هٰذه الكلمة بملء فيها: ما رأيت منك خيرا! لم أر منك خيرا! منذ تزوّجتك ما شفت الخير! كلمات تقولها بعض النّساء، فهٰذا الحديث فيه بيان خطورة هٰذا الأمر «لاَ يَنْظُرُ اللهُ لامْرَأَةٍ لاَ تَشْكُرُ لِزَوْجِهَا وَهِيَ لاَ تَسْتَغْنِيْ عَنْهُ» وهٰذا يدلّ علىٰ أنّ هٰذا الأمر أمرٌ عظيم.

[المتن]

وَيُرْوَىٰ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِ زَوْجِهَا لَعَنَتْهَا المَلاَئِكَةُ حَتَّىٰ تَرْجِعَ أَوْ تَتُوْبَ» وَفِيْ البَابِ أَحَادِيْثُ كَثِيْرَةٌ.

[الشرح]

خروج المرأة من بيت الزّوج لابدّ أن يكون بإذنه، وهٰذا جزء من الذي علىٰ المرأة من الطواعيّة والقوامة للرّجل، فليس لها أن تخرج من بيته إلاّ بإذنه، تستأذنه فإذا أذن تخرج وإلاّ فإنّه لا يحلّ لها، والحديث الذي ساقه المصنّف لم يثبُت عن النّبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ الثَّالِثَةُ والأَرْبَعُون

قَاطِعُ الرَّحِمِ

قَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَاتَّقُوْا اللهَ الَّذِيْ تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾[النساء:١].

وَقَالَ -تَعَالَىٰ-: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾[محمد:٢٢-٢٣].

[الشرح]

(الكَبِيرَةُ الثَّالِثَةُ والأَرْبَعُون: قَاطِعُ الرَّحِمِ)، يعني الذي يقطع رحمه ولا يصل الرّحم الذي أمر الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- به أن يوصل، والرّحم هو الذي يجمع الإنسان به رحم؛ قرابة، وصلة الرّحم أيضا تتفاوت بحسب الأقرب فالأقرب، مثل ما سبق معنا «أمّك وأباك ثمّ أختك وأخاك ثمّ أدناك أدناك»، فالرّحم تُوصل ولا تُقطع، ويُعتنىٰ بالرّحم بحسب الأقرب فالأقرب، يُعتنىٰ بها بحسب الأقرب فالأقرب، ويصلهم طاعة

لله، وتقرّبا له وطلبا لثوابه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-، وصِلةً بما أمر الله به -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- أن يوصل، وفي صلة الرّحم ثواب عظيم ومنافع كثيرة في الدّنيا والآخرة، وفي قطيعة الرّحم شرّ عظيم ووعيد شديد علىٰ فاعله في الدّنيا والآخرة، أورد أوّلا قول الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿وَاتَّقُوْا اللهَ الَّذِيْ تَسَاءَلُوْنَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ بفتح الميم أي واتّقوا الأرحام، والمعنىٰ اتّقوا الأرحام بصلتها وعدم قطيعتها وليكن الواحد منكم واصلاً لها، هٰذا معنىٰ قوله «واتَّقُوا الأرحَامَ»، و«اتَّقُوا الأرحام»، ﴿وَاتَّقُوْا اللهَ الَّذِيْ تَسَاءَلُوْنَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾؛ أي واتّقوا الأرحام بالصّلة وعدم القطيعة والقيام بحقوق الرّحم، وأيضًا قول الله تعالىٰ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾، فاللّعن يدلّ أنّ الأمر كبير.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ».

[الشرح]

قوله: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ» هٰذا دليل علىٰ أنّ الأمر كبيرة؛ لأنّ الكبيرة تُعْرف بأمور؛ منها: القول بعدم دخول الجنّة، وقوله: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ» هٰذا دليل علىٰ أنّه كبيرة، وقد سبق أن مرّ معنا معنىٰ هٰذا الحديث، معنىٰ «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ» ليس النّفي هنا لأصل الدّخول، نعم.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

قوله: «مَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»؛ أي أنّ صلة الرّحم من مقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر؛ لأنّ الله -عزّ وجل- من الإيمان به طاعته فيما أمر، والله أمر بصلة الرّحم، واليوم الآخر هو يوم الجزاء والحساب، الذي يصل رحمه يجد الثّواب العظيم، والذي يقطع رحمه يجد العقاب، فمن كان يُؤمن بالله ربًّا إلهًا مطاعًا ويؤمن باليوم الآخر وأنّه يوم حساب وعقاب ويجازىٰ النّاس فيه علىٰ أعمالهم؛ فليصل رحمه.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّىٰ إِذَا فَرَغَ مِنْهُم قَامَتِ الرَّحِمُ فَقَالَتِ: هٰذا مَقَامُ

الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ. قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَىٰ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

ثمّ أورد هٰــذا الحديث؛ لأنّ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- لمّا خلق الخلق قامت الرّحم، قامت وتكلّمت، والله -عزّ وجل- قدير علىٰ كلّ شيء، فنطقت بهٰـذه الكلمات، قالت: «هٰــذا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ» يعني أنا مستعيذة بك من القطيعة، والعائذ هو طالب العَوْذ، طالب العوذ، فهي قالت: «هٰــذا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ» يعني استعاذت بالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- من القطيعة -قطيعة الرّحم-، «قَالَ: نَعَمْ» أي قال ربّ العالمين: «نَعَمْ»؛ يعني أعاذها، وقال لها: «أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَىٰ» يعني رضيت بذلك، فهٰذا فيه أنّه من وصل رَحِمَه وصله الله، ومن قطعها قطعه الله.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَجَلِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَجَلِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» فيه أنّ الصّلة، صلة الرّحم من أسباب بسط الرّزق يعني سعته والبركة فيه، ومن أسباب أن يُنسأ للإنسان في أجله يعني أن يطوّل له في أجله، بأن يبارك له في حياته وفي عمره، فالحديث أفاد أنّ صلة الرّحم من أسباب البركة في الرّزق وأسباب البركة في العمر.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَقُولُ: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ» وَفِي لَفْظٍ: «يَقُولُ اللهُ: مَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ».

[الشرح]

قول الرّحم هنا: «مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ» هو مبني علىٰ إخبار الله لها بذلك، «قَال ألا ترضين بكذا، قَالَت: بَلىٰ»، فصارت هي تقول: «مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ»؛ لأنّ الله -عزّ وجل- قال: «أَمَا تَرضين بِهٰذا، قَالَت: بَلَىٰ»، فصارت بعد ذلك تقول «مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ

قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ»، وفي لفظ يقول الله: «مَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتّه» أي قطعته.

[المتن]

وَقَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[الرعد:٢٥].

[الشرح]

قوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ هو الشّاهد من الآية لهٰذه الكبيرة، وممّا أمر الله به أن يوصل الرّحم، وجاء فيها نصوص كثيرة في الكتاب والسنّة، فمن قطع هٰذا الذي أمر الله به أن يوصل تعرّض للّعنة، كما في تمام الآية ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾.

[المتن]

وَقَالَ مُحَمَّدُ بنُ عَمْرٍو عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «يَقُولُ اللهُ: أَنَا الرَّحْمَنُ وَهِيَ الرَّحِمُ، مَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ»

[الشرح]

وهو بمعنىٰ ما سبق ويدلّ علىٰ مكانة الرّحم، وأنّ من وصل رحمه وصله الله، ومن قطعها قطعه الله.

[المتن]

فَنَقُوْلُ: مَنْ قَطَعَ رَحِمَهُ الْفُقَرَاءِ وَهُوَ غَنِيٌّ فَهُوَ مُرَادٌ وَلابُدَّ، وَكَذَا مَنْ قَطَعَهُمْ بِالْجَفَاءِ وَالإِهْمَالِ وَالْحَمَقِ.

[الشرح]

وهٰذا بيان من المصنّف لبعض معاني قطيعة الرّحم، فمن ذلكم أن يكون الرّجل غنيّا ووسّع الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- عليه بالمال فيقطع رحمه الفقراء، يقطع رحمه الفقراء؛ يعني لا يحسن إليهم ولا يتصدّق عليهم ولا ينفق عليهم من ماله، من هٰذا المال الذي وسّع الله عليه فيه، فهٰذا من قطيعة الرّحم، يغنيه الله ويوسّع عليه في المال ولا يبالي بالعوز الشّديد والفقر الشّديد والحاجة الشّديدة التي عليها قرابته؛ بل بعض النّاس ربّما أنّ أخاه القريب أو أخته القريبة تبيت اللّيالي طاوية لا تجد طعاما تأكله أو لباسا، أو لا تجد بيتا لتأوي فيه، ويكون عنده مال واسع جدّا وثراء؛ ولكنّه شَحيح لا ينفق، ولو تفكّر في هٰذا الأمر، لو كان مقامها هي الغنيّة وهو الفقير لما رضي ذلك منها؛ لكنّه في غفلة المال وفي غفلة الثّراء لم يبال بهٰذا الأمر، وإلاّ لو تفكّر قليلا وقال لو أنّ هٰذا المال عندها، فهل أرضىٰ لنفسي هٰذه المعاملة؟، يدرك بهٰذه الطّريقة خطأ نفسه،

وشناعة ما هو عليه؛ لكنّه في غفلة المال وفي غفلة الثّراء يكون بهٰذه الصّفة.

وكذلك من أنواع القطيعة ملاقاة القرابة بالجفاء والإهمال؛ يعني فظاظة وغلظة وكلمات سيّئة وقلّة أدب وسوء معاملة، فهٰذا أيضا من القطيعة.

[المتن]

قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «بُلُّوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالسَّلَامِ».

[الشرح]

يعني أنّ باب صلة الرّحم واسع، ومن أقلّ ما يكون في هٰذا الباب: السّلام، أن يلقي السّلام، يبلّ الرّحم، حتّىٰ تبقىٰ الرّحم طريّة، وتبقىٰ الصّلة قائمة، ولا تكون الوحشة بين الأرحام والقطيعة، فتُبل ولو بالسّلام، يعني بين الفينة والأخرىٰ يلقي السّلام عليهم حتّىٰ تبقىٰ الصّلة، ويبقىٰ التّواصل، فـ«بُلُّوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالسَّلَامِ»، والسّلام هو أقل ما يكون، ومع السّلام الذي ينبغي للإنسان أن يجتهد في حسن الكلام وطيب المعاملة وحسن التودّد ومداومة الصّلة، والبعد عن الأذىٰ، والتّعاون والمساعدة إلىٰ غير ذلك ممّا تقتضيه الصّلة.

❁❁❁❁

[المتن]

الكَبِيرَةُ الرَّابِعَةُ والأَرْبَعُوْن

المُصَوِّرُ فِي الثِّيَابِ وَالْحِيْطَانِ وَنَحْوِ ذَلِكَ

قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ».

[الشرح]

التّصوير من الكبائر، التّصوير من الكبائر، ومن موجبات سخط الله وحلول اللّعنة، وقد ورد فيها نصوص شديدة في الوعيد عليه والتّهديد علىٰ فعله، سواءً صوّر الإنسان في ورقة، أو صوّر علىٰ حائط، أو في ثوب أو غير ذلك، فهٰذا العمل هو من كبائر الذّنوب، وقد جاءت نصوصٌ كثيرة في التّهديد والوعيد للمصوّرين، والتّصوير والبناء علىٰ القبور هما في قديم الزّمان وحديثه أعظم أسباب الشّرك؛ ولهٰذا قال النّبي -عليه الصّلاة والسّلام- لعليّ عندما بعثه، قال: «لاَ تَدَعْ صُورة إلاَّ طَمَستَهَا، وَلاَ قَبرًا مَشيدًا إلاَّ سَوّيتَه»، فالبناء علىٰ القبور والتّصوير هٰذا من أعظم أنواع الشّرك في قديم الزّمان وحديثه؛ ولهٰذا أيضا قال النّبي -صلّىٰ الله عليه وسلّم- لزوجه أمّ سلمة لمّا ذكرت ما رأت في الكنيسة التي رأتها في الحبشة،

قال: «أُولئِكَ شِرارُ الخَلق، إِذَا مَاتَ فِيهم الرَّجلَ الصَّالحَ بَنَوا عَلىٰ قَبرِهِ مَسجدًا، وَاتَّخذُوا لَه صُورًا»، فاتّخاذ الصّور وكذلك البناء علىٰ القبور والقباب علىٰ القبور ونحو ذلك هـٰذا من أعظم أسباب الشّرك في قديم الزّمان وحديثه.

وأورد المصنّف في بعض النّصوص في التّحذير من هـٰذه الكبيرة قال: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوْحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ»، يعني كلّ صورة صوّرها يُطلب منه يوم القيامة أن ينفخ فيها الرّوح، «يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»؛ يعني أنت صوّرت هـٰذه الصّور فأحييها أُنفخ فيها الروح، «وَلَيْسَ بِنَافِخٍ»، فيُعذّب يوم القيامة بكلّ صورة صوّرها، كانت عشر أو كانت مئة أو كانت ألف أو ألفين، كلّما ازدادت الصّور ازداد العذاب.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ. يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

أشد النّاس عذابا، الأشديّة هنا إمّا أن تكون مطلقة: فيكون هـٰذا الوعيد في حقّ من صوّر للشّرك؛ يعني قصدا للشّرك؛ لأن تعبد من دون الله، وأن تكون أصناما تعبد من دون الله.

أو تكون الأشديّة هنا بالنسبيّة، بالنسبة للذنوب والمعاصي التي هي مثل هـٰذه المعصيّة «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا» في الكبائر التي دون الشرك «المصوّرون»؛ إلا إذا قُصد بالتصوير الذي هو تصويرها للتّعاون علىٰ الشّرك وإقامة الشّرك، فهـٰذه الأشديّة مطلقة قال: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ، يُقَالُ لَهُمْ: » -أي يوم القيامة- «أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ» وهـٰذا هو معنىٰ قوله: «يؤمر أو يُكلَّف أن ينفخ فيها الروح» يقال له: أحيي ما خلقت؛ يعني أحيي ما صوّرت، ثمّ يعذّب بكلّ صورة صوّرها، نعم.

[المتن]

وَقَالَتْ عَائِشَةُ -رَضِيَ اللهُ تعالىٰ عَنْهَا-: قَدِمَ رَسُوْلُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ سَفَرٍ، وَقَدْ سَتَرْتُ سَهْوَةً لِي بِقِرَامٍ فِيْهِ تَمَاثِيْلُ، فَهَتَكَهُ، وَتَلَوَّنَ وَجْهُهُ، وَقَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللهِ الَّذِيْنَ يُضَاهُونَ بِخَلق اللهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

السَّهْوَةِ: كَالْمَجْلِسِ وَالصُّفَّةِ فِي البَيْتِ.

والقِرَامُ: السِّتْرُ الرَّقِيْقُ.

[الشرح]

ثمّ أورد هٰذا الحديث فيما ذكرته أمّ المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قالت: (قَدِمَ رَسُوْلُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ سَفرٍ، وَقَدْ سَتَرْتُ سَهْوَةً لِي بِقِرَامٍ)، (والقِرَامُ: السِّتْرُ الرَّقِيْقُ) يعني الخفيف و" السّهوة ": قسم من البيت.

ومن فوائد الحديث: أنّ المرأة ينبغي لها أن تهيّئ البيت، وخاصّة إذا كان الزوج قادم من السّفر؛ ولهٰذا أيضا نُهي أن يطرق الزّوج بيته ليلا قال: «حتىٰ تمتشط الشَّعِثة وتستحدّ المغيّبة»؛ يعني تتهيأ في نفسها وتتهيأ أيضا في بيتها، تُهيئ البيت وتهيئ نفسها له، وهٰذا من فوائد الحديث.

قالت: (قَدِمَ رَسُوْلُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ سَفرٍ، وَقَدْ سَتَرْتُ سَهْوَةً لِي بِقُرَامٍ فِيْهِ تَمَاثِيْلُ) يعني تهيّأت، هيّأت البيت بمناسبة مقدم النّبيّ -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-؛ يعني أدخلت علىٰ البيت شيئا من التّحسين أو نحو ذلك.

(فَهَتَكَهُ، وَتَلَوَّنَ وَجْهُهُ)؛ لأنه كان فيه تماثيل؛ أي فيه صور، (فتلوّن وجهه)؛ يعني تغيّر وجه النبيّ -عليه الصّلاة والسّلام- (وهتكه) أي قطعه، وقال: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللهِ الَّذِيْنَ يُضَاهُونَ بخَلْقِ اللهِ».

وأيضا هنا يمكن أن نستفيد فائدة في المعنىٰ السّابق في قوله: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا» إذا كان صوّر قاصدا المضاهاة فهو في الأشديّة علىٰ الإطلاق، أو صوّر قاصدا الشّرك وعبادة غير الله فالأشدية علىٰ الإطلاق.

أما إذا كان التصوير لأغراض أخرىٰ دون ذلك فالأشديّة هنا بالنسبة للذنوب والكبائر التي دون الشرك، فلا يكون من كان كذلك أشد عذابا من المشرك، نعم، فالمسألة فيها تفصيل بحسب هٰذه المعاني.

[المتن]

وَفِي السُّنَنِ بِإِسْنَادٍ جَيّدٍ: «يَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ فَيَقُولُ: إِنِّي وُكِّلْتُ بِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، وبِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبالْمُصَوِّرِينَ» صَحَّحَهُ التِّرْمِذْيُّ.

[الشرح]

ثمّ ذكر هٰذا الحديث في الوعيد للمصورين أنه يوم القيامة «يخرج عنق من النّار» يعني جانب طويل من النّار فيقول: «إِنِّي وُكِّلْتُ بِكُلِّ مَنِ دَعَا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، وبِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبالْمُصَوِّرِينَ»؛ يعني بهؤلاء الثّلاثة: المشرك والجبار المتكبّر والمصوّر، فهٰذا العنق وُكِّل بهؤلاء؛ يعني أن يعذّبهم وأن يكون فيه

تعذيب لهؤلاء، وهٰذا العنق من النار يتكلّم بهٰذه الكلمات حقيقةً كما أخبر النّبيّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في هٰذا الحديث.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّ الَّذِينَ يَصْنَعُونَ هٰذه الصُّوَرَ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

وهٰذا دليل علىٰ أن هٰذا الأمر كبيرة، أن المصوّرين الذين يصنعون الصور «يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ» وما هم بقادرين علىٰ ذلك فيُعَذّبون بكلّ صورة صوّروها.

[المتن]

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ تعالىٰ عَنْهما-: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ، يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسًا، فَتُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

وهٰذا بمعنىٰ ما سبق، ويدلّ علىٰ خطورة التّصوير: أنّ كلّ مصوِّرٍ في النّار «يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسًا، فَتُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ»؛ يعني نفس الصّورة التي هو صوّرها يجعل الله فيها نفسا وتكون من الوسائل التي يُعذَّب بها في النّار، وكلّ ما زاد عدد الصور التي صوّرها زاد عدد هٰذه الأنفس التي يُعذَّب بها في نار جهنّم والعياذ بالله.

وقول النّبيّ -عليه الصّلاة والسّلام-: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ» يجعل الإنسان يحتاط لنفسه في باب التّصوير غاية الاحتياط ولا يستهين ولا يفتح علىٰ نفسه باب الرُّخَص، هٰذه ليست بصورة وهٰذه ليست بكذا ويبدأ يُدخل علىٰ نفسه باب التّساهل والتّهاون والاستهانة بالأمر والتهوين من شأنه، فالأمر ليس بالهيّن، عقوبات شديدة وعقوبات مغلّظة ووعيد شديد، فيجب علىٰ الإنسان أن يحتاط لنفسه بالبعد عن ذلك ولا يفعل شيئا منه إلاّ إذا كان هناك ضرورة ملّحة تقتضي ذلك فإنه يفعله وهو كاره ليس راغبا ولا محبّا ولا منشرح الصدر، وإنّما يفعله كارها للضّرورة التي ألجأته إلىٰ الصورة قال: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ».

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: يَقُوْلُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ خَلْقًا كَخَلْقِي،

فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً، فَلْيَخْلُقُوا شَعِيرَةً، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

وهٰذا فيه وصف هؤلاء بالظلم، وأنهم من أشدّ النّاس ظُلما؛ الذي يذهب ويخلق خلقا كخلق الله؛ يعني يضع صورا يضاهي بها خلق الله، وهؤلاء يُقال لهم يوم القيامة: اخلقوا حبّة، اخلقوا شعيرة، اخلقوا ذرّة. فما هم بخالقين، ولهٰذا يُعذّبون يوم القيامة بكلّ صورة صوّروها.

[المتن]

وَصَحَّ عَنْهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: «لَعَنَ اللهُ المُصَوِّرَ».

[الشرح]

واللّعن يدلّ علىٰ أن الأمر كبيرة من الكبائر.

[المتن]

الكَبِيرَةُ الخَامِسَةُ وَالأَرْبَعُوْن

النَّمَّامُ

قَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾[القلم:١٠-١١].

[الشرح]

ثم أورد المصنّف -رحمه الله- هٰذه الكبيرة (النَّمَّامُ)، وأورد قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾، والنّمام: هو الذي يمشي بين النّاس بالقالة، القالة بين النّاس علىٰ وجه الإفساد والوقيعة بينهم وإيجاد العداوات، والنّمّام مفسد، يفسد بين الزّوجَيْن ويفسد بين الأخوين ويفسد بين الأقارب ويفسد في المجتمعات، والفساد الذي يترتب علىٰ النّمّام فساد عريض حتىٰ قال بعض العلماء وهو يحي بن أبي كثير اليماني قال: **"يفسد النّمّام في ساعة مالا يفسده السّاحر في سنة"**، فالنّمّام له خطورة بالغة، والواجب أن يُتّقىٰ النّمّام وتُتّقىٰ النّميمة، فلا يكون الإنسان نمّاما ولا يكون الإنسان أيضا قابلا للنّميمة بحيث أنّه تؤثر فيه فينشأ الفساد، وهٰذا المعنىٰ واضح في قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ لا تطع المشّاء بالنّميمة لا تسمع له، لأنّك إذا أعطيته سمعك وأرخيت له سمعك، أفسد العلاقات التي بينك وبين إخوانك، أنت منهي عن طاعته وعن السّماع له؛ لأنّ السّماع له طاعة فهي التي توجد الفساد، والنّميمة من الكبائر.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

«لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ» أي من يمشي بالنّميمة بين النّاس مفسدا علاقاتهم، هٰذا لا يدخل الجنّة، والمراد بنفي الدّخول ليس نفيا لأصله وإنّما نفيا لكمال الدّخول الذي هو الدّخول أوليا أو الدخول في المنازل العالية والرُتب العليّة في الجنّة، وإلاّ النّميمة ليست مانعة من أصل الدّخول، فهو كبيرة فإذا كان النّمام موحّدا فإنّ مآله إلىٰ الجنّة.

[المتن]

ومَرَّ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِقَبْرَيْنِ فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ: أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِىٰ بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

سبق الكلام علىٰ هٰذا الحديث عند كبيرة **"عدم الاستنزاه من البول"**.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «تَجِدُ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ، هُوَ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ».

وفِيْ لَفْظٍ: «تَجِدُ شِرَارَ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

ذو الوجهين هو وجها يتظاهر به بالإصلاح ووجها آخر وهو حقيقة مراده ومقصده الإفساد، فهٰذا ذو الوجهين وهو من شرار النّاس وهو يدلّ علىٰ خطورة النّميمة والقّالة بين النّاس.

[المتن]

وَعَنْ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «لاَ يُبَلِّغْنِي أَحَدٌ عَنْ أَصْحَابِي شَيئًا؛ فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْهِمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ» رَوَاهُ أَبُوْ دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

[الشرح]

هٰذا السّند فيه كلام؛ لكن المعنىٰ حقّ وهٰذا الذي ينبغي أن يكون بين المسلمين، ما ينبغي أن يُبْلَغ

الإنسان عن أصحابه بشيء يؤثّر علىٰ العلاقة حتّىٰ لو زلّ لسان الإنسان تجاه صاحبه بكلمة، فنقلُها لصاحبه ليس فيه خير وليس فيه فائدة بل هو يُوجِد العداوة والبغضاء، وبعض النّاس ينقل ما يسمع ويزيد عليه أو يعرضه بعرض يعني يجعل له وقعا في النّفس، فمثلا تكون صدرت من شخص تجاه أخ له كلمة جاءت يعني هكذا عَرَضًا ولم يُلق لها بالا وما كان قاصدا لها وإنما صدرت منه مثل ما يعبَّر الآن عفويا مثلا فسمعها هٰذا النّمّام فأقام عليها مثل ما يقولون: أقام من الحبّة قُبّة، فأقام عليها بناء كبيرا جدّا فذهب إلىٰ صاحبه وقال: "أنا اليوم والله العظيم الذي لا إله إلاّ هو، بأذني سمعت زميلك وصاحبك والذي يدّعي أنّه صديقك ويدّعي أنّه معك سمعته بأذني يتكلم فيك بكلام شنيع وكلام سيّئ"، ويضع عليها كلاما طويلا جدّا، والخلاصة أنّ الكلمة خرجت يعني ما كانت مقصودة وكانت خرجت هكذا؛ لكن بنىٰ بناءً، يعطي أيمان وقسم: "والله أنا لك ناصح وعليك مشفق، والله ما أردت لك إلا الخير، وحتىٰ تعرف مكانة هٰذا الشّخص وكيف شأنه"، ويعطيه محاضرة طويلة والنتيجة أن العداوة تنشب، وهٰذا عمل النّمام، عداوة بين هٰذا وذاك، والآخر والثاني، ولا تقَر عينه ولا يأمن قلبه ولا يسعد إلا إذا نشبت العداوة، إذا نشبت العداوة ورأىٰ نارها تتأجّج عندئذ يجد ....، فالعياذ بالله هٰذا لا يطاع ولا يُستمع له ويوقف عن المواصلة في الحديث ويُقال له: إيش الثمرة الآن؟، لم تنقل لي هٰذا الكلام؟، إيش الثمرة؟، إيش ترجو؟

وليكن أنّه قال، وأيش الفائدة أنّك تنقلها الآن؟، أنا عفوت عنه إن كان قال ذلك، هٰذه تطفئ جمرة النّمّام وتجعله يكف؛ لكن إذا وجد الآذان مرخاة له، كلّ من ذهب إليه يسمع، فينشأ الفساد العريض.

ولهٰذا ينبغي للإنسان أن يحذر هو من النّميمة، وأن يحذر أيضا من سماع النّمّامين، ولا يفتح لهم المجال، أوّل ما يبدأ بمحاضرته يقطعها عليه، أوّل ما يبدأ المحاضرة، أوّل ما يكتشف من كلامه أنّه يريد الكلام من هٰذا القبيل يقول له: لحظة، ويدخله في موضوع آخر مفيد.

[المتن]

وَعَنْ كَعْبٍ قَالَ: "اِتَّقُوْا النَّمِيْمَةَ، فَإِنَّ صَاحِبَهَا لاَ يَسْتَرِيْحُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ".

[الشرح]

وَعَنْ كَعْبٍ قَالَ: "اِتَّقُوْا النَّمِيْمَةَ، فَإِنَّ صَاحِبَهَا لاَ يَسْتَرِيْحُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ". الحديث مرّ معنا قريبًا بهٰذا المعنىٰ.

[المتن]

وَرَوَىٰ مَنْصُوْرٌ عَنْ مُجَاهِدٍ: حَمَّالَةُ الحَطَبِ. قَالَ: "كَانَتْ تَمْشِيْ بِالنَّمِيْمَةِ".

[الشرح]

يعني هٰذا ممّا قيل في معنىٰ قول: **"حَمَّالَةُ الحَطَبِ"**؛ يعني أنّها كانت تحمل النّميمة وتسعىٰ بها؛ لكن كانت هي تحمل نميمةً هي شرّ نميمة وُجِدت؛ يعني نميمة بين النّاس للصّد عن النّبي -عليه الصّلاة والسّلام- ودعوته، فكانت تحمل شرّ نميمة، والنّميمة تبلغ أوج فسادها وأعلىٰ وذروة فسادها عندما تكون صدّ عن الدّين، وعن الدّعاة إلىٰ الدّين، وعن العلماء، هٰذا أخطر ما يكون، عندما تكون بهٰذه الرّتبة، صدّ عن العلماء وصدّ عن دعاة الهدىٰ ودعاة السّنّة ودعاة الحقّ، فهٰذه أشد ما يكون، وهي أضرّ من النّميمة التّي هي إيقاع بين المتحابَّيْن والمتآخِيَيْن.

❁❁❁❁

[المتن]

الكَبِيرَةُ السَّادِسَةُ وَالأَرْبَعُوْن

النِّيَاحَةُ واللَّطْمُ

قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «اثْنَتَانِ هُمَا بِالنَّاسِ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَىٰ الْمَيِّتِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

"النّياحة" برفع الصّوت بالبكاء، و**"اللّطم"** يعني لطم الخدود وكذلك شَقّ الجيوب عندما تحلّ بالإنسان المصيبة، هٰذا من أعمال الجاهليّة، فمن أعمالهم: لطم الخدود وشقّ الجيوب والصّياح، فهٰذه من أعمال الجاهليّة وهو من الكبائر، وقد جاءت نصوص كثيرة جدّا تدلّ علىٰ أنّ هٰذا العمل من الكبائر وأنّه من أعمال الجاهليّة، منها هٰذا الحديث الذي بدأ به المصنّف: «**اثْنَتَانِ**» أي خصلتان، «**هُمَا بِالنَّاسِ كُفْرٌ**» والمراد بـ**"الكفر"** هنا كفر دون كفر، ليس بالكفر النّاقل من الملّة؛ لكن وصفه بأنّه كفر دليل علىٰ أنّه من كبائر الذنوب.

«**الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ**» أي الوقيعة في أنساب النّاس بغيا وعدوانا.

«**وَالنِّيَاحَةُ عَلَىٰ الْمَيِّتِ**» النّياحة رفع الصّوت بالبكاء والعويل، فهٰذا من أعمال الجاهليّة وهو كفر.

[المتن]

وَفِي الحَدِيْثِ الصَّحِيْحِ لِمُسْلِمٍ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ أُلْبِسَتْ دِرْعًا مِنْ جَرَبٍ، وَسِرْبَالاً مِنْ قَطِرَانٍ يَوْمَ

القِيَامَةِ».

[الشرح]

وهٰـذا دليل علىٰ أنّ النّياحة كبيرة، وخُصَّت المرأة بالذّكر هنا، لا لأنّ الحكم مختص بالنّساء وإنّما لأنّ هٰذا الغالب وجوده في النّساء، فلهٰذا خُصّت بالذّكر، وإلاّ الحكم للرّجال والنّساء.

وقوله: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ»؛ يعني إذا حصل من المرأة نياحة ثمّ تابت وأنابت ورجعت، من تاب تاب الله عليه، إذا استوفت شروط التّوبة: بالنّدم والإقلاع وعدم العودة، فمن تاب تاب الله عليه ولهٰذا قال: «إِذَا لَمْ تَتُبْ»، أمّا إذا ماتت علىٰ هٰذه الكبيرة فإنّها -والعياذ بالله- تُقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب، و"**القطران**" هو النّحاس المذاب، و"**الجرب**" معروف، فتُقام يوم القيامة وهي علىٰ هٰذه الصّفة، تُعذّب بذلك جزاءً لهٰذه النّياحة التي كانت منها.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَىٰ الْجَاهِلِيَّةِ».

[الشرح]

قوله: «لَيْسَ مِنَّا» يعني أهل الإيمان الواجب، الحقيقين بما وجب عليهم من الإيمان، «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَىٰ الْجَاهِلِيَّةِ».

و«دَعْوَىٰ الْجَاهِلِيَّةِ» في مثل المصيبة؛ التّسخّط ورفع الصوت بالبكاء وعدم الرّضا بالقضاء ونحو ذلك من الأمور التي قد تصدر منهم، فيقول -عليه الصّلاة والسّلام -: ليس منّا من فعل هٰذه الأمور عند المصيبة.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ فِيْ قَبْرِهِ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ».

[الشرح]

قوله: «إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ فِيْ قَبْرِهِ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ» هٰذا لا يتنافىٰ مع قوله -تعالىٰ-: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الأنعام:١٦٤]؛ لأنّ إذا كان هٰذا الأمر بإقراره أو بوصية منه ورضي بذلك وأحبّه وربّىٰ أهله وولده عليه فإنّه يُعذّب؛ لأنّه سبب في ذلك، أمّا إذا كان لا يرضىٰ ذلك أو أوصىٰ، وكان بعض السلف يوصي، يكتب في وصيّته: "أنّني لا أرضىٰ وأبرأ إلىٰ الله أن يُناح عليّ أو أن يُشقّ عليّ ثوبا أو أن يُضرب

خدا" بعضهم كان يكتب في وصيّته ذلك، فإذا كان لا يرضىٰ ذلك ولا يُقرُّ به وينهىٰ عنه ويُحذّر منه فلا يضرّه بكاؤهم؛ لكن إذا كان يقرّ ذلك أو ربّاهم عليه أو مثلا أوصاهم به قال: "إذا أنا متُّ فلا تتركوا النّياحة وافعلوا كذا وافعلوا كذا وهٰذا من صلتي" فهٰذا يُعذّب ببكاء أهله، أمّا إذا كان لا يُقرّ ذلك ولا يرضاه وينهىٰ عنه أو نحو ذلك فهٰذا لا يضرّه كما قال –تعالىٰ-: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤].

[المتن]

وَبَرِئَ النَّبِيُّ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنَ الصَّالِقَةِ وَالحَالِقَةِ وَالشَّاقَةِ.

اتَّفَقَا عَلَىٰ الأَحَادِيْثِ الثَّلاثَةِ.

[الشرح]

هٰذا كلّه برئ النّبيّ –صلّىٰ الله عليه وسلّم –منه، **"الصّالقة"** التي ترفع صوتها بالبكاء والعويل، و**"الحالقة"** التي تحلق شعرها أو تمزّق شعرها أو تُقطّع شعرها عند المصيبة، وهٰذا يحصل من النّساء؛ نساء الجاهليّة، ومن فيهنّ جاهليّة يحصل منهنّ هٰذا عند المصيبة، تمسك بشعر رأسها وتمزّقه وتقطّعه، وأيضا تمسك بثيابها **"الشّاقّة"** يعني التي تشقّ ثوبها تقطّعه وتمزّقه، وأيضا تضرب خدّها وجسمها بيدها، فكل هٰذه الأعمال من أعمال الجاهليّة، والنّبيّ –صلّىٰ الله عليه وسلّم- برئ منها، وكلّ مسلم ينبغي ويجب عليه أن يبرأ من هٰذه الأمور وألاّ يرضاها، وأن يُبغضها وأن يبغض فعلها، وأن يُحذّر منها وأن يُبيِّن حرمتها.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ السَّابِعَةُ والأَرْبَعُوْن

الطَّعْنُ فِيْ الأَنْسَابِ

قَدْ صَحَّ أَنَّ ذَلِكَ كُفْرٌ.

قَالَ النَّبِيُّ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((اثْنَتَانِ هُمَا بِالنَّاسِ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَىٰ الْمَيِّتِ)).

[الشرح]

(**الطّعن في النّسب**)كبيرة من الكبائر؛ لأنّ النّبيّ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عدّه كفرا ولهذا قال المصنّف: صَحَّ عن النّبيّ –صلّىٰ الله عليه وسلّم –أنّه عدّ ذلك كفرا، وأورد علىٰ ذلك الحديث.

[المتن]

الكَبِيرَةُ الثَّامِنَةُ وَالأَرْبَعُوْن

البَغْيُ

قَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الشورىٰ:٤٢].

[الشرح]

ثمّ ذكر كبيرة " **البغي** " وهي الاستطالة علىٰ النّاس ومجاوزة الحدّ والتّعدّي عليهم سواء في أعراضهم أو أموالهم أو أنفسهم؛ دمائهم، فالبغيّ كبيرة ومحرّم، وأورد عليه بعض الأدلّة منها قوله: ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فهٰذا من كبائر الإثم، قال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فهٰذا دليل علىٰ أنّه كبيرة. وقوله: ﴿يَبْغُونَ﴾ شامل للبغيّ علىٰ النّاس في أموالهم أو في أعراضهم أو في أنفسهم ودمائهم.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((إِنَّ اللهَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ: أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّىٰ لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ، وَلا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ)) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

ثمّ ذكر هذا الحديث، وفيه التّحذير من البغيّ، وذِكْر العلاج الذي تكون به السّلامة منه، وهو علاج ناجع ودواء نافع: ((أَنْ تَوَاضَعُوا))، "**التّواضع**" هو الذي يسلم به الإنسان من البغيّ والعدوان، قال -عليه الصّلاة والسّلام-: ((إِنَّ اللهَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ: أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّىٰ لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ، وَلا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ))، وهذا دليل علىٰ أنّ الإنسان إذا خرج من حدّ التّواضع جرّه ذلك إلىٰ البغي وإلىٰ الفخر والخُيَلاء، فعدم تواضعه يجرّه إلىٰ البغي علىٰ النّاس، والتّعدّي علىٰ حقوقهم وأموالهم وأعراضهم، ويرىٰ أنّ الأموال التي عندهم -وهي حقّ لهم- ليسوا أهلًا لها وليست بحقّ لهم فيبغي، فالخروج عن التّواضع يُفضي لأمور منكرة وشنيعة كبيرة جدًا، ولهذا التّواضع دواء نافع ومفيد للإنسان، مفيد له في دينه وعبادته لله، ومفيد له أيضا في تعامله مع النّاس.

[المتن]

وفي بعض الآثار: "لَوْ بَغَىٰ جَبَلٌ عَلَىٰ جَبَلٍ، لَجَعَلَ اللهُ البَاغِيَ مِنْهُمَا دَكًّا".

[الشرح]

وهٰذا فيه خطورة البغي حتّىٰ ولو من الجمادات، "لَوْ بَغَىٰ جَبَلٌ عَلَىٰ جَبَلٍ، لَجَعَلَ اللهُ البَاغِيْ مِنْهُمَا دَكًّا"؛ أي أنّ الباغي معرّض لعقوبة الله -عزّ وجلّ- وسخطه ومقته.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ اللهُ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ)).

[الشرح]

وهـٰـذا فيه خطورة البغي، وخطورة أيضا قطيعة الرّحم وهي كبيرة مرّت، وأنّه ذنب يُخشىٰ علىٰ صاحبه أن تبادره عقوبة الله وأن تُعجّل له العقوبة في الدّنيا مع -أيضــا- ما ادّخره الله له عقوبةً يوم القيامة، فتُجمع له العقوبتان: العقوبة الدنيويّة والعقوبة الأخرويّة.

[المتن]

وَقَالَ ابْنُ عَوْنٍ، عَنْ عَمْرِو بن سَـعِيْدٍ، عَنْ حُمَيْد بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنَ قَالَ: قَالَ ابْنُ مَسْـعُوْدٍ: قَالَ مَالِكٌ الرَّهَاوِيُّ: يَا رَسُـولَ اللهِ! قَدْ أُعْطِيتُ مِنَ الْجَمَالُ مَا تَرَىٰ، وَمَا أُحِبُّ أَحَدًا يَفُوقَنِي بِشِـرَاكِ[نَاَعْلِي]، أَفَذَاكَ مِنَ البَغْيِّ؟ قَالَ:((لَيْسَ ذَلِكَ مِنَ الْبَغْيِّ، وَلَكِنَّ الْبَغْيَّ بَطَرُ الحَقِّ -أَوْ قَالَ: سَـفَهُ الحَقِّ- وَغَمْطُ النَّاسِ)) إِسْنَادُهُ قَوِّيٌّ.

[الشرح]

وهٰذا من الأدلّة علىٰ حرص الصّحابة علىٰ الخير -رضي الله عنهم وأرضاهم- وشدّة ورعهم واحتياطهم لأنفسهم، فهٰذا الصّحابيّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- كان جميلا وكان أيضا يحبّ أن يكون مظهره جميلا في لباسه وفي حذائه وفي هيئته؛ ولكنّه أراد أن يطمئنّ لنفسه، هل هٰذا نوع من البغيّ والتّعدّي والتّطاول أو أنّه ليس بذلك؟، وهٰذا من حرص الصّحابة وكمال رغبتهم في الخير، وبعدهم عن الشرّ، فجاء -رضي الله عنه- إلىٰ النّبيّ -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- قال : (يَا رَسُولَ اللهِ! قَدْ أُعْطِيتُ مِنَ الْجَمَالُ مَا تَرَىٰ، وَمَا أُحِبُّ أَحَدًا يَفُوقنِي بِشِرَاكِ) يعني من حيث مظهره وهيئته ولباسه؛ يعني يحبّ أن يكون مظهره طيّب ومظهره حسن، وما يحبّ أن يفوقه أحد في هٰذا، قال: (أَفَذَاكَ مِنَ البَغْيِّ؟) علىٰ النّاس، هل أكون بغيت

وارتكبت البغيّ الذي حرّمه الله وجاء عليه الوعيد؟، هل أنا من هؤلاء؟ قال: ((لَيْسَ ذَلِكَ مِنَ الْبَغْيِّ)) ثمّ بيّن البغيّ، قال: ((وَلَكِنَّ الْبَغْيَّ بَطَرُ الحَقِّ -أَوْ قَالَ: سَفَهُ الحَقِّ- وَغَمْطُ النَّاسِ)) فمن كان بهٰذه الصّفة فهو باغٍ، يردّ الحقّ لا يقبله وأيضا يؤذي النّاس بالسّفه وغمط الحقوق.

[المتن]

وَقَدْ خَسَفَ اللهُ بِقَارُوْنَ لِبَغْيِهِ وَعُتُوِّهِ.

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:((عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّىٰ مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَالخَشَاشُ:الحَشَرَاتُ.

[الشرح]

البغي محرّم حتّىٰ في بهيمة الأنعام، بهيمة الأنعام والحيوانات تعامَل بالرّحمة، ولا تعامل بالبغي والأذيّة، فهو محرّم، والبغي معرَّض صاحبه للعقوبة ولو كان في حيوان، لو كان بغيه في حيوان، فهٰذه امرأة دخلت النّار في هرّة، لأنّها بغت علىٰ هٰذه الهرّة، حبستها في حجرة في دارها، فـ((لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا)) عندما حبستها، ((وَلَا هِيَ)) أيضا ((تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))، يعني الحشرات التي في الأرض، فبغت، يعني عاملت هذه الهرّة بالبغي، فدخلت النّار بسبب ذلك، فالبغي محرّم، ليس البغي علىٰ النّاس، بل حتّىٰ البغي علىٰ الحيوانات، والحيوانات تُعامل بالرّفق وبالرّحمة وبالإحسان، ومن بغىٰ ولو علىٰ حيوان تعرّض للعقوبة، وفي المقابل معاملة الحيوان بالرِّفق سبب للرّحمة، مثل ما جاء في قصة المرأة البغي التي دخلت الجنّة في كلب، وجدت كلبا اشتدّ به الظّمأ والعطش فرحمته، ونزلت في بئر وملأت خفّها ماءً، وأمسكت بخفّها بفمها وأخرجته وسقت هٰذا الكلب، سقت هٰذا الكلب فغُفر لها.

ابن القيّم -رحمه الله- نبّه في هٰذا الحديث علىٰ تنبيه فريد جدّا، كثير من النّاس يقرأ الحديث ولا ينتبه له، قال: يدلّ هٰذا الحديث علىٰ عظم حسنة التّوحيد، هل انتبهتم لهٰذه الفائدة وأنتم تقرؤون الحديث؟ قال: هذا يدلّ علىٰ حسنة التّوحيد؛ لأنّ هذه المرأة قامت بهذا العمل الشّاق العظيم تريد ثواب الله مخلصة، لم تفعله أن يراها فلان ويمدحها، أو يراها علاّن فيثني عليها، ويقول: إنّها فعلت، لا، ما فيه إلاّ هي والكلب، فقام في قلبها رحمة وشفقة، ونزلت إلىٰ البئر وقامت بهٰذا العمل الشّاق المضني تريد ثواب الله، قامت به مخلصة موحّدة ترجو به ثواب الله، فهٰذه حسنة التّوحيد، وإلاّ لو قامت بهٰذا العمل وأشدّ منه

وأشق منه، وهي تريد ثناء أحد عليها، وتريد مدح النّاس لها، ولم ترد وجه الله لا تُغفر ذنوبها به، لأنّ الله – عزّ وجلّ- لا يقبل من العمل إلاّ الخالص، فهٰذه فائدة عظيمة وجليلة نبّه عليها ابن القيّم، قال: فهٰذا يدلّ علىٰ عظم مقام التّوحيد وعظم فائدته، وإلاّ لو كانت هٰذه المرأة قامت بهذا وأمثاله وأكثر منه لا تبتغي به وجه الله لم تكن مخلصة به لله، وإنّما للرّياء والسّمعة ولمدح النّاس ونحو ذلك لا يكون هٰذا سببا للغفران، فهذا فيه دلالة علىٰ عظم مكانة التّوحيد.

[المتن]

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((لَعَنَ رَسُوْلُ اللهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا)) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

وهٰذا من البغي والعياذ بالله، يعني أن يتخّذ شيء فيه الرّوح غرضا، يعني هدفا للرّمي، مثل أن يأتي الإنسان بطير ويتعلّم عليه الرّمي وإصابة الهدف، يعني لا يريده ليأكله أو ليطعمه، وإنّما ليجعله غرضا للرّمي فهٰذا من البغي، ولهٰذا قال –عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: ((لَعَنَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَن اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا))، يعني غرضا له للرّمي ولإصابة الهدف، فهٰذا والعياذ بالله من البغي.

[المتن]

وَقَالَ أَبُوْ مَسْعُوْدٍ:كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي: ((اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ)) فَلَمْ أَفْهَمِ الصَّوْتَ مِنَ الغَضَبِ، فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُوْلُ اللهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَإِذَا هُوَ يَقُوْلُ: ((إِنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ)). فَقُلْتُ: لاَ أَضْرِبُ مَمْلُوْكًا لي بَعْدَهُ أبدا.

وَفِي لَفْظٍ: فَسَقَطَ السَّوْطُ مِنْ يَدِيَّ مِنْ هَيْبَتِهِ.

وَفِي رِوَايَةٍ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ! هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ.فقال: ((أَمَا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ)) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

هٰذا الحديث فيه كمال رغبة الصّحابة في الخير وسرعة استجابتهم للرّسول –عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-، وكنت اقترحت علىٰ بعض الإخوة –وأذكر أنّ أحدهم قطع في هٰذا البحث شوطا كبيرا- أن تُجمع الأحاديث التي من هٰذا القبيل وتكون تحت عنوان (سرعة استجابة الصّحابة للرّسول –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ

وَسَــلَّمَ-)، وهذا فيه نماذج كثيرة وفيه تربية للإنســان وتأديب له، بعض النّاس يُذكر له الحديث فيبدأ يتعلّل، ويحاول أن يوجد المخارج والاحتمالات، وربّما ولعلّ وهكذا، أمّا الصّحابة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم- ففيهم استجابة عجيبة وسريعة جدّا لما يأتيهم من توجيه من رسول الله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، هذا نموذج:

أبو مسعود -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- كان عنده غلام وقد أغضبه واشتدّ غضبه عليه، فأخذ سوطا وأخذ يضربه، وأخذ يضربه وهو مغضب، حتّىٰ إنّه لمّا ناداه الرّسول -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- ما فهم الصّوت من الغضب الذي كان عليه، لهذا يقول: (**فَلَم أَفهَم الصَّوتَ مِنَ الغَضَب**)، وهذا يدلّنا علىٰ أنّ الغضب يؤثّر علىٰ الإنسان، يؤثّر عليه في كلامه وفي فهمه وفي استيعابه، في أيضًا تقديره للأمور ووزنه للأشياء؛ ولهـٰذا أُمر من غضب أن يسكت، يعني أن يسكت فلا يتكلّم، وأن يجلس فلا يُباشر عملًا، وقت الغضب يكفّ لسانه ويكفّ جوارحه حتّىٰ يسكن الغضب، أمّا كفّ اللّسان ففي قوله: ((**إِذَا غَضِبَ أَحَدكُم فَليَسكُت**))، وأمّا في كفّ الجوارح ففي قوله: ((**إذا غضب أحدكم فليجلس، فإن سكن غضبه وإلاّ فليضطجع**))، الشيطان يأتيه هنا في هـٰذا المقام يقول، يُغضبك بالكلام: تضطّجع؟! أين الرّجولة؟! ويجعله ما يضطجع، ويجعله ما يسكت، يقول: تقعد وأَغْضَبَكَ؟! ولا وأعظم من ذلك تضطجع أيضا! أين رجولتك، وأين شهامتك؟! وينفخ فيه حتّىٰ يجعله يفعل، ولهـٰذا الشّيطان من أعظم فرصه للدّخول علىٰ الإنسان في وقت الغضب، ولهذا أُمر الغضبان أن يكفَّ عن الأمرين معا: عن الكلام وعن الفعل، أمّا عن الكلام قال: ((**إذا غضب أحدكم فليسكت**))، وأمّا عن الفعل: ((**إذا غضِب أحدُكم فَليَجلِس، فإِن سَكَن غَضبُهُ وإلاَّ فليَضطَّجع**))، لا تباشر شيئا أبدا وقت غليان الغضب، لأنّ كلامك، حركاتك، تفكيرك، عقلك، كلّها غير موزونة وقت الغضب، فأنت تنتظر دقيقة، دقيقتين، ثلاث، إذا برد الغضب قم وتكلّم، وقت الغضب ما يمكن أن تقول: يا أخي الكريم أنت أخطأت علي، ما تقول هـٰذا، وقت الغضب هـٰذا الكلام المعتدل الهادئ لا يمكن أن يخرج، يخرج سب، يخرج شتم، يخرج كلام غليظ، فإذا جلست وسكتّ إلىٰ أن يذهب الغضب، تجدك تستطيع أن تتكلّم كلامًا معتدلا؛ ولهذا الإنسان مأمور وقت الغضب أن يمتنع عن الحديث، ويمتنع عن مباشرة العمل؛ لأنّ أيّ حديث وأي عمل سيكون غير معتدل، ولن يكون موزونًا.

أبو مسعود يقول: (**فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُوْلُ اللهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَإِذَا هُوَ يَقُوْلُ**: ((**إِنَّ اللهَ أَقدَر عَليكَ مِنكَ عليَهِ**))، وهـٰذه أيضا فائدة وفيها تربية للإنسان، يعني إذا وجد نفسه متّجهة لإنسان بضرب أو

نحو ذلك أو شدّة، يتذكّر قدرة الله عليه، يعني إذا كنت أنت قادرا علىٰ هذا فتذكّر قدرة الله عليك، وقد يسلّط الله عليك من هو أقوىٰ منك، ومن هو أشدّ منك، وفي الأمثال قديما يقولون: "إذ كُنت ريحًا فقَد لاَقيتَ إعصَارًا"، قد يتسلّط عليك من هو أشدّ منك، فلا تستعمل قوّتك وشدّتك بقسوة، قال: ((إِنَّ اللهَ أقدَر عَليكَ مِنكَ علَيهِ))، فقلت: (لاَ أَضرِب مَملُوكًا لِي بَعدَهاَ أبدًا)، لاحظ سرعة الاستجابة (لاَ أَضرِب مَملُوكًا لِي بَعدَهاَ أبدًا)، هٰذه واحدة، والثّانية سقط السّوط من هيبة الرّسول-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، من هيبته سقط من يده السّوط، وهٰذا من كمال أدبه وحُسن إيمانه -رضي الله عنه وأرضاه-، وفي رواية قال: (هو حرّ لِوجِه الله)، ويعني هٰذا من الأشياء التي هي آثار مباركة، فالنّبي -صلّىٰ الله عليه وسلّم- قال: ((إِنَّكَ لَو لَم تَفعَل لَلفَحتكَ النّار))، هذا يدلّ علىٰ أنّ الأمر كبير وعظيم الذي هو البغي علىٰ المملوك بشدّة الضّرب.

[المتن]

وَقَالَ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:((مَنْ ضَرَبَ غُلاَمًا لَهُ حَدًّا لَمْ يَأْتِهِ، أَوْ لَطَمَهُ، فَإِنَّ كَفَّارَتَهُ أَنْ يُعْتِقَهُ)) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

إذا ضربه أو لطمه فله العقوبة علىٰ ذلك، ولهٰذه العقوبة كفّارة أن يُعتقه.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:((إِنَّ اللهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا)) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

وهٰذا خطورة البغي، الذي يعذّب النّاس ويؤذي النّاس ويتسلّط علىٰ النّاس ويستطيل علىٰ النّاس، يعذّبه الله -جلّ وعلا-.

[المتن]

وَمَرَّ رسول الله-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِحِمَارٌ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: ((لَعَنَ اللهُ مَنْ وَسَمَهُ)) إِسْنَادُهُ صَحِيْحٌ.

[الشرح]

وهٰذا من البغي، وسْمُ الحيوان في وجهه، وهٰذا إيذاء له، فهٰذا من البغي، فقال النّبي -صلّىٰ الله عليه وسلّم-: ((لَعَنَ اللهُ من وَسَمهُ)).

[المتن]

وَقَالَ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((مِنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدَةً بِغَيْرِ حَقِّهَا لَمْ يَجِد رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ خمسمائة عَامٍ)) وَهَذَا عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ.

[الشرح]

البغي ولو كان علىٰ إنسان كافر أيضا حرام، وكبيرة من الكبائر، ولهذا جاء في هذا الوعيد قال: ((لَم يَجِدَ رَائحَةَ الجنَّة))، فالمعاهد إنسان كافر بين المسلمين وبينه عهد، فمن قتله فهٰذا بغي ، فالبغي محرّم، و لو كان المبغي عليه كافرا، وفيه هٰذا الوعيد.

والله أعلم، وصلّىٰ اللّه وسلّم علىٰ نبيّنا محمّد وآله وصحبه أجمعين.

المستوى الثاني/الكتاب الخامس

شرح

كتاب الكبائر

للعلامة شمس الدين الذهبي رحمه الله

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

حفظه الله تعالىٰ

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

من الدرس (٢٠) إلىٰ االدرس (٢٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمٰن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰـــه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صَلَّىٰ الله وسَلَّم عَلَيه وَعَلىٰ آلِه وأصحَابِه أجمَعين-.

أما بعد،

[المتن]

الكَبِيرَةُ التَّاسِعَةُ وَالأَرْبَعُوْن

الخُرُوْجُ بِالسَّيْفِ وَالتَّكْفِيرُ بِالكَبَائِرِ

قَالَ اللهُ-تَعَالَىٰ-: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[البقرة:١٩٠].

وَقَالَ-تَعَالَىٰ-: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾[الأحزاب:٣٦]

[الشرح]

ثمّ ذكر هاتين الكبيرتين (**الخُرُوْجُ بِالسَّيْفِ**) يعني الخروج علىٰ جماعة المسلمين بالسيف، و(**التَّكْفِيْرُ بِالكَبَائِرِ**) تكفير المسلمين بالكبائر، يكفِّرهم بفعلهم للكبائر، فهٰذا الأمر من كبائر الذنوب.

وأورد أدلّة عامّة ثمّ أورد أدلّة خاصّة:

أولا : قول اللهُ-تَعَالَىٰ-: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[البقرة:١٩٠]، فالخروج اعتداء والتّكفير اعتداء.

وأيضا قول الله -عزّ وجلّ-: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦]؛ لأنّ الله -عزّ وجلّ- نهىٰ عن ذلك، ورسوله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نهىٰ عن ذلك، فهٰـــذا ضلال مبين، مَن ارتكب هٰذا الذي نهىٰ الله عنه فقد وقع في هٰذا الضّلال المبين.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:((مَنْ قَالَ لِأَخِيْهِ الْمُسْلِمِ: يَا كَافِرُ! فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا)).

[الشرح]

هٰـذا يدلّ علىٰ خطورة التّكفير فـ((**مَنْ قَالَ لِأَخِيْهِ الْمُسْلِمِ: يَا كَافِرُ! فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا**)) يعني إن كان الذي قيل فيه أنّه كافر فهي له وإن لم يكن كذلك رجعت علىٰ القائل، فهذا يدلّ علىٰ خطورة التّكفير، إن

كانت الكلمة منطبقة علىٰ من قيلت في حقّه ولا تكون منطبقة إلاّ إذا كان قالها بعلم وفهم، علم بالنّصوص والأدلّة وعلم بحال من أطلقها عليه، وهٰـــذا يدلّ أن التّكفير ما يصـير من كلّ أحد، وإنّما من أهل العلم وأهل الفهم وأهل الدّراية، أمّا عوام النّاس وأشـباههم فليس لهم هٰـــذا الأمر، فإذا قال: يا كافر! أو قال: فلان كافر، إن كان كذلك وإلاّ رجعت عليه، فهٰذا يدلّ علىٰ خطورة التّكفير.

[المتن]

وَقَدْ وَرَدَ فِي وَصْـفِ الخَوَارِجِ آثَارٌ كَثِيْرَةٌ، وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي تَكْفِيْرِهِمْ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ -صَـلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ- قَالَ فِيْهِمْ: ((يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّـهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، أَيْنَمَا لَقِيْتُمُوْهُمْ فَاقْتُلُوْهُمْ)) وَقَالَ فِيْهِمُ: ((شَرُّ قَتْلَىٰ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، خَيْرُ قَتْلَى مَنْ قَتَلُوْهُ)).

[الشرح]

ثمّ ذكر الخوارج لأنّهم مشـهورون بهٰـــذا الأمر، مشـهورون بالتّكفير والخروج علىٰ الجماعة، وشـقّ العصا، ونزع اليد من الطّاعة، فهم مشهورون بهٰـذا، فذكر بعض النّصوص التي جاءت في الخوارج، فذكر أنهم مستحلّون للدّماء والتّكفير، يكفّرون عثمان وعليًّا وجماعة من سادات الصّحابة، ثمّ ذكر الحديث في الخوارج أنّهم كلاب النّار.

[المتن]

فَالْخَوَارِجُ مبتدعة مُسْـتَحِلُّوْنَ الدِّمَاءَ وَالتَّكْفِيْرَ، يُكَفِّرُونَ عُثْمَانَ وَعَلِيًّا -رضـي الله تعالىٰ عنهما- وَجَمَاعَةً مِنْ سَادَةِ الصَّحَابَةِ-رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ-

روىٰ إِسْحَاقُ الأَزْرَقُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ ابْنِ أَبِي أَوْفَىٰ-رَضِـيَ اللهُ تعالىٰ عَنْهُ-قَالَ: سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُوْلُ:((الخَوَارِجُ كِلاَبُ [أَهْلِ] النَّارِ)).

رَوَىٰ حَشْـرَجُ ابْنُ نُبَاتَةَ: قَالَ :حَدَّثَنِيْ سَـعِيْدُ ابْنُ جُهْمَانَ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ ابْنِ أَبِي أَوْفَىٰ وَهُوَ مَكْفُوْفٌ فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ:سَعِيْدُ بْنُ جُهْمَانَ. قَالَ: مَا فَعَلَ وَالِدُكَ؟ قُلْتُ: قَتَلَتْهُ الأَزَارِقَةُ، فَقَالَ: قَتَلَ اللهُ الأَزَارِقَةَ، ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُوْلُ اللهِ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-أَنَّهُمْ كِلاَبُ النَّارِ.قُلْتُ: الأَزَارِقَةُ وَحْدَهَا؟ قَالَ: الخَوَارِجُ كُلُّهَا.

[الشرح]

(الأَزَارِقَةَ) فرقة من الخوارج، والصّـحابيّ هنا يسـأل سـعيد بن جُهمان يقول: (مَا فَعَلَ وَالِدُكَ؟) قال:

قتلته الخوارج، (فَقَالَ: قَتَلَ اللهُ الأَزَارِقَةَ، ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُمْ كِلاَبُ النَّارِ). (أَنَّهُمْ) أي الخوارج، والأزارقة فرقة منهم ، فكان فَهِم سعيد بن جُهمان أنّ الحديث نصّ للأزارقة نفسهم، والحديث في عموم الخوارج، والصّحابي -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: (أَنَّهُمْ كِلاَبُ النَّارِ) يعني الخوارج الذين هؤلاء فرقة منهم، ولكن هٰذا سعيد ما فهم، ظنّ أن الحديث نصّ في هؤلاء، فقال: (الأَزَارِقَةُ وَحْدَهَا) يعني نصّ عليهم؟ **قال:** (الخَوَارِجُ كُلُّهَا)، فالحديث عام في الخوارج كلّهم، الأزارقة وغيرهم.

الأثر له قصّة يعني له بقيّة، يمكن أن تُراجع في مصادر الحديث فيها فائدة، لأنّ سعيد هٰذا لمّا انتهىٰ ابن أبي أوفىٰ من هذا البيان قال: **(الأمراء فعلوا والأمراء فعلوا)** فأعطاه نصيحة جميلة جدًّا ممكن أن تطالعوها.

يعني مع أنّه اكتوىٰ بنار الخوارج وأذاهم؛ لكنّه مع ذلك عنده بعض الأمر، قال: "والأمراء فعلوا، والأمراء فعلوا" يعني هٰذه النّصوص في ذمّ الخوارج، طيّب والأمراء فعلوا والأمراء فعلوا، كأنّه يستروح لهٰذا الأمر، فعلىٰ كلّ حال يمكن أن تطالعوا بقيّة القصّة.

[المتن]

روىٰ حَمَّادُ بنُ سَلَمَةَ، حَدَّثَنَا أَبُوْ حَفْصٍ، أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدُ اللهِ ابْنُ أَبِيْ أَوْفَىٰ وَهُمْ يقاتلُوْنَ الخَوَارِجِ يَقُوْلُ: سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُوْلُ: ((طُوْبَىٰ لِمَنْ قَتَلَهُمْ وَقَتَلُوْهُ)).

[الشرح]

ثمّ أيضا هذا فيما يتعلّق بالخوارج، وأيضا قتال الخوارج وما فيه من الأجر، وأنّ من قتلهم أو قتلوه طوبىٰ له، وهي الجنّة أو الثّواب العظيم من الله -جلّ وعلا-.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ الخَمْسُون

أَذيَّةُ المُسْلِمِينَ وَشَتْمُهُمُ

قَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾[الأحزاب:٥٨].

وَقَالَ-تَعَالَىٰ-: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾[الحجرات:١٢].

وَقَالَ-تَعَالَىٰ-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾الآية[الحجرات: ١١]

وَقَالَ-تَعَالَىٰ-: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾[الهمزة:١].

[الشرح]

ثمّ ذكر هٰـــذه الكبيرة (أَذيَّةُ المُسْـلِمِينَ وَشَـتْمُهُمُ) والأذيّة والشّـتم هما من الكبائر، ولا يختصّ بنوع واحد، فالأذيّة باليد والأذية باللســان والأذيّة كيفما كانت، وكذلك الشّـتم أنواع وأصـناف، فهذا كلّه من الكبائر؛ ولهٰذا سنرىٰ أنّ النّصوص التي يسوقها المصنّف هنا متنوّعة في ذكر أنواع وأفراد من الأذىٰ الذي هو داخل في عموم هذه الكبيرة: إيذاء المسلمين والمؤمنين بغير ما اكتسبوا، التّجسّس والغِيبة، السّخريّة والاستهزاء، الهمز واللّمز، هٰذه كلّها أفراد داخلة تحت الأذيّة والشّتم.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ وَدَعَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ)).

[الشرح]

أي من اشتّد في أذاه يتّقيه النّاس.

[المتن]

وَقَالَ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ)).

وَقَالَ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((عِبَادَ اللهِ! إِنَّ اللهَ وَضَعَ الحَرَجَ إلاَّ مَنِ اقْتَرَضَ عِرْضَ أَخِيْهِ، فَذَاكَ الَّذِي حَرِجَ أَوَ هَلَكَ)).

[الشرح]

هٰــذا جاء في الحجّ أيضا في خطابة النّبيّ -عليه الصّلاة والسّلام - في الحجّ و((اقْتَرَضَ عِرْضَ أَخِيْهِ)) يعني تسلّط علىٰ عرض أخيه بالنّيْل منه والوقيعة، فمن كان كذلك فقد ((حَرِجَ أَوَ هَلَكَ)).

[المتن]

وَقَالَ -صَـلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ-:((كُلُّ الْمُسْـلِمِ عَلَىٰ الْمُسْـلِمِ حَرَامٌ عِرْضُـهُ وَدَمُهُ وَمَالُهُ. التَّقْوَىٰ هَهُنَا، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ)) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ.

[الشرح]

في الحديث ذكر حرمة الدّماء والأموال والأعراض، ثمّ إشارة النّبيّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلىٰ الصّدر دليل علىٰ أنّ الصّدر هو منبع الخير أو الشّرّ، وأنّ الإنسان ينبغي عليه أن يُصْلح قلبه وينقّيه، وفيما يتعلق بإخوانه يصلحه وينقّيه من الغلّ والحقد والحسد، ويَعْمُره بالخير والمحبّة والرّحمة والشّفقة والمعاني الطّيّبة حتّىٰ تستقيم جوارحه تبعًا له.

[المتن]

وَقَالَ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ وَلا يَخْذُلُهُ وَلا يَحْقِرُهُ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ)) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

هٰذه كلّها تتنافىٰ مع الأخوّة: ظلم الأخ وخذلانه في وقت الحاجة إليه واحتقاره وازدراءه، هٰذا كلّه يتنافىٰ مع الأخوّة الإسلاميّة.

[المتن]

وَقَالَ اللهُ-تَعَالَىٰ-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[النور:١٩].

وَقَالَ النَّبِيُّ-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ)).

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ)) لَفْظُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

((لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ)) يعني شرّه وأذاه، الجار الذي لا يأمن جاره شرّه ولا يأمن أذاه، هو واقع في هٰذه الكبيرة وله هٰذا الوعيد ((لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ)).

[المتن]

وَفِيْ الصَّحِيْحَيْنِ:((واللهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ)). قِيلَ : مَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: ((الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ)).

وَفِيْ لَفْظٍ عَلَىٰ شَرْطِ الصَّحِيْحَيْنِ: ((لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَبْدٌ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ)).

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلا يُؤْذِ جَارَهُ)) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

مثل ما سبق، هٰــذا من مقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر، وكثيرا ما يأتي مثل هٰذا في النّصوص " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يفعل كذا أو فليفعل كذا " لأنّ هٰـــذه الأعمال الصّـالحة والبعد عن الأعمال السيّئة هو من مقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر.

[المتن]

وَفِيْ لَفْظٍ لِمُسْـلِمٍ: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُحْسِـنْ إِلَىٰ جَارِهِ)). روىٰ الأَعْمَشُ، عَنْ أَبِيْ يَحْيَىٰ مَوَلَىٰ جَعْدَةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ -رَضِـيَ اللهُ تعالىٰ عَنْهُ- يَقُوْلُ: قِيْلَ: يَا رَسُوْلَ اللهِ! إِنَّ فُلاَنَةَ تُصَلِّيْ اللَّيْلَ وَ تَصُوْمُ النَّهَارِ، وَفِي لِسَانِهَا شَيْءٌ، تؤْذِي جِيْرَانَهَا، سلْطة، فَقَالَ: ((لاَ خَيْرَ فِيْهَا هِيَ فِيْ النَّارِ)) صَحَّحَهُ الحَاكِمُ.

[الشرح]

وهٰـــذا -والعياذ بالله- فيه خطورة الأمر علىٰ المرأة وكذلك الرّجل الذي هو سـلْط أو سـلْطة علىٰ الجيران بالكلام والوقيعة والســبّ والشّـتم وغيبة والنّميمة والسّــخرية، حتىٰ لو كانت من تفعل هذا أو يفعل هذا يُصلّي ويصوم فمثل ما قال: ((لاَ خَيْرَ فِيْهَا هِيَ فِي النَّارِ)) مصلّيّة وصائمة محافظة علىٰ العبادة، لكنّها كانت سلطة؛ يعني لسانها سليط، تقع في جاراتها وفي النساء وتغتاب وتقع في الهمز، فذُكر للنّبيّ -صَــلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ- من حالها وصـلاتها قال: ((لاَ خَيْرَ فِيْهَا هِيَ فِيْ النَّارِ)) لأنّها تؤذي جيرانها أي بلسانها، فهٰذا يدلّ علىٰ خطورة هٰذا الأمر وأنّه من الكبائر.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((اذْكُرُوا مَحَاسِنَ مَوْتَاكُمْ وَكُفُّوا عَنْ مَسَاوِئِهِمْ)) صَحَّحَهُ الحَاكِمُ.

[الشرح]

ذكر النّاس بالخير وعدم الوقيعة فيهم بالســبّ ونحوه يشــمل الأحياء والأموات؛ ولهذا قال -عليه الصّلاة والسّلام-: ((اذْكُرُوا مَحَاسِنَ مَوْتَاكُمْ وَكُفُّوا عَنْ مَسَاوِئِهِمْ)).

[المتن]

وَعَنْ أَبِيْ ذرٍّ -رَضِـيَ اللهُ تعالىٰ عَنْهُ-: أَنَّه سَـمِعَ النَّبِيَّ -صَـلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ- يَقُوْلُ: ((مَنْ دَعَا رَجُلاً بالكُفْرِ، أَوْ قَالَ: عَدُوَّ اللهِ، وَلَيْسَ كَذلكَ إلاَّ رَجَعَ عَلَيْهِ))مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

وهٰـــذا من الأذىٰ، بل هو من أشـدّه، أن يرميه بالكفر أو يقول عنه: عدوّ الله أو يا عدوّ الله، ونحو ذلك هٰذا من أشدّ الأذىٰ.

[المتن]

صَفْوَانُ بنُ عَمْرٍو، عَنْ رَاشِدِ بنِ سَعْدٍ وَابنِ جُبَيْرٍ، عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلاَءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلاَءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ)).

[الشرح]

وهٰـــذا حديث طويل سبق أن مر معنا، سبقت الإشارة إليه، وهو في صحيح البخاري ومسلم، واقتصر المصـنف علىٰ الشـاهد، أناس رآهم النبي -صَـلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ- ((هُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُـونَ وُجُوهَهُمْ وَصُـدُورَهُمْ،)) أي بأظفارهم ((فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلاَءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلاَءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ)) هٰذا يدلّ علىٰ خطورة هٰذا الأمر.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:((إِنَّ مِنَ الْكَبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! وهَلْ يَشْتِمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ))مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

سب الرجل لوالديه سواء كان تسببا أو ابتداء كبيرة، تسببا في هـٰـذا الحديث أن يسب الرجل أبا الرجل فيسـب أباه، ويسـب أمه، هـٰـــذا من الكبائر، أو أن يسـب والديه ابتداء بأن يتوجه إليهما مباشـرة، باللعن والسب فهـٰـذا في كبائر الذنوب، سـواء سب والديه ابتداء وهو أشنع، أو سب والديه تسببا بأن يسـب أبا غيره فيرجع السب علىٰ أبيه، فهـٰـذا من الكبائر. والصحابة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم- قد قام في نفوسهم شناعة هـٰـذا الأمر وفضـاعته قالوا: وهل يسـب الرجل والديه؟ لا يتصـور، قال: ((يَسُـبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُـبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ)) يعني يرجع السب إلىٰ نفسه، ومع شناعة هـٰذا الأمر وإدراك الرعيل الأول شناعة بلغ ببعض الناس والعياذ بالله أن يســب والد ابنه، يعني يســب نفســه، إذا غضــب من ابنه قال: الله يشــتم

والديك، بعضهم وصل به الموصل إلىٰ هٰـذا الأمر، إذا غضب من ابنه يشتم نفسه، وهٰـذه كلها من الحماقات والسفه وقلة الدين.

[المتن]

وَفِي لَفْظٍ: ((إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! كَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ)).

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((لا يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلا بِالْفِسْقِ وَلا يَرْمِيهِ بِالْكُفْرِ إِلاَّ ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ)) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:((لا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَىٰ مَا قَدَّمُوا)) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ الحَادِيَةُ وَالْخَمْسُون

أَذِيَّةُ أَوْلِياءِ الله تَعَالىٰ وَمُعَادَاتِهِم

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدنيا والآخرة﴾[الإسراء:٣٦].

[الشرح]

ثم ذكر هنا أذية الأولياء ومعاداتهم؛ بالاستقامة والصلاح والديانة والمحافظة علىٰ العبادة مع أنهم داخلون فيما سبق لٰكن أرد المصنف أن يخصهم بالذكر هنا لأنه ما لهم من حق وعظم ما لهم من مكانة ولم يعرفوا إلا بالصلاح والديانة والاستقامة والمحافظة علىٰ الطاعة ولا يجزم لأحد بعينه أنه من الأولياء لٰكن قوله: (أَذِيَّةُ أَوْلِيَاءِ الله تَعَالىٰ) يعني فيما يظهر للناس لا علىٰ وجه التزكية لأحد بعينه والجزم بأنه من الأولياء لا يجزم ولٰكن من اشتهر بالصلاح وعرف بالخير والاستقامة ولا يعهد عنه إلا الصلاح هٰذا أذيته أشد ومعاداته أشد وقد ورد فيه نصوص خاصة، قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدنيا والآخرة﴾.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((يَقُولُ اللهُ تَعَالىٰ: مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ)). وَفِي لَفْظٍ: ((فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ)). أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

[الشرح]

هٰـذا يدلّ علىٰ خطورة معاداة أولياء الله، وقد دلّ هٰـذا الحديث بسياقه أنّ أولياء الله علىٰ رتبتين تعرف الرتبتان من فهم الحديث:

قال: ((مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه)) فالرتبة الأولىٰ وهي رتبة المحافظة علىٰ الفرائض وهي درجة المقتصدين، وهؤلاء من أولياء الله، المقتصد الذي يفعل الواجب ويترك المحرم، والرتبة الأعلىٰ من هٰذه جاءت بعد؛ قال: ((ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل)) فهٰذه رتبة أعلىٰ زاد المحافظة علىٰ الفرائض والبعد عن المحرمات المسابقة للخيرات والرغائب والمستحبات فهٰذه رتبة أعلىٰ.

وكل منهما من أولياء الله المقتصد والسابق بالخيرات، فمن عرف عنه البعد عن المحرمات والمحافظة علىٰ الفرائض والواجبات وأيضا عُرف عنه المحافظة عن السنن والمستحبات وظهر منه الخير، فمعاداته وأذيته أشد من أذية غيره من أفراد المسلمين.

[المتن]

وَفِي الْحَدِيثِ: ((يَا أَبَا بَكْرٍ! إِنْ كُنتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ)) يَعْنِي: بَعْضَ فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ الثَّانِيَةُ وَالْخَمْسُون

إِسْبَالُ الْإِزَارِ تَعَزُّزًا وَنَحْوُهُ

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾[لقمان:١٨].

[الشرح]

ثم ذكر هٰـذه الكبيرة، كبيرة (إِسْبَالُ الْإِزَارِ تَعَزُّزًا وَنَحْوُهُ) يعني نحو التعزز يعني يجر إزاره علىٰ وجه التعزز وعلىٰ وجه الخيلاء أو علىٰ وجه الفخر، (قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾) أي مختالا فخورا معجبا بشخصك وبنفسك، وادة اللباس إذا كان فاخرا قد يفضي علىٰ الإنسان ما يكون عليه من تميز عن الآخرين يدخل عليه شيء من الفخر والخيلاء، فهٰـذا من الكبائر، ومما يجر الإنسان

إلىٰ الفخر والخيلاء ما جاء النهي عنه في الشـريعة من إسـبال الإزار علىٰ ما سـيأتي والإشـارة إليه في بعض الأحاديث التي ساقها المصنف رحمه الله.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((مَا أَسْفَلَ مِن الْكَعْبَيْنِ مِن الْإِزَارِ فَفِي النَّار)).

[الشرح]

وهٰذا الحديث ليس فيه ذكر للخيلاء، وإنما فيه ذكر للعمل نفسه وهو إسبال الإزار، وجعله تحت أسفل الكعبين، فالحكم متعلق بالعمل نفسه ولم يذكر معه الخيلاء، ولهٰذا استفاد بعض أهل العلم من هٰذا الحديث أن إسبال الإزار محرّم حتىٰ لو كان علىٰ غير الخيلاء؛ لأن هنا لم يذكر الخيلاء إنما قال: ((مَا أَسْفَلَ مِن الْكَعْبَيْنِ مِن الْإِزَارِ فَفِي النَّار))، وفي بعض الأحاديث جاء ذكر الخيلاء.

وهٰذا الحديث الذي فيه مجرد ذكر الإسبال بناء الحكم عليه له نظائر، ولهٰذا أذكر الشيخ عبد العزيز بن باز سئل: كنت أسبلت إزاري أو تركت إزاري مرخا ومسبلا ولكنني لم أفعل ذلك علىٰ وجه الخيلاء ، فهل هذا جائز أو أنه محرم؟

فقال الشيخ رحمه الله بعد أن أورد مثل هٰذه الأحاديث وقال: هي تدل علىٰ تحريم الإسبال مطلقًا؛ يعني سواء كان علىٰ وجه الخيلاء أو بدون خيلاء، ولو زعم صاحبه إنه لم يُرد الكبر والخيلاء.

أما إن قصد بذلك التكبر فالأمر في ذلك أشد لقوله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ((**من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه**)) الأمر أشد إذا كان جره للخيلاء، أما إن كان إسبالا ويزعم أنه ليس للخيلاء فهو محرم لعموم هٰذه الأدلة، مثل الدليل الذي بدأ به المصنف وأدلة أخرىٰ ساق طرفا منها الشيخ عبد العزيز رحمة الله عليه وأيضا أهل العلم ممن قرروا ذلك.

[المتن]

وَقَالَ: ((لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَىٰ مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا)).

[الشرح]

وهٰذا يدل علىٰ أنه إن جره بطرا وخيلاء وكبرا هٰذا أشد من مجرد الإسبال، فأفسبال عن خيلاء، وقد يكون ليس علىٰ الخيلاء، وسيأتي كلام جميل للمصنف ختم به هٰذه الكبيرة، سنقف عليه في تمام الكلام علىٰ هٰذه الكبيرة.

[المتن]

وَقَالَ: ((ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلفِ الْكَاذِبِ)).

[الشرح]

هٰذا الكلام يدل علىٰ الخطورة الشديدة لمن يجر إزاره ويرخيه قال: (الْمُسْبِلُ) أي إزاره ، وفيه وعيد شديد، فمن يسمع هٰذا الحديث ثم يذهب إلىٰ الخياط ويقول له: مدّد الثوب إلىٰ أن يلمس الأرض، وإذا وجد الثوب فوق الكعب يغضب ويقول: لا، لا أرضاه ولا أقبله، وهو يسمع هٰذا الحديث هٰذا دليل علىٰ خيلاء، شاء أم أبىٰ، ولو قال : أنا لست من أهل الخيلاء، هٰذا دليل علىٰ الخيلاء، لأن الكبر رد الحق، فإذا بلغه هٰذا الحديث (لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) لو كان يسترخي، كما جاء في حديث أبي بكر قال: إن إزاري يسترخي وإني أتعاهده، قال: ((**إنك لست ممن يفعله خيلاء**)) يعني يسترخي من غير قصد ثم يتعاهد رفعه، لٰكن الذي يذهب وتعمد ويقصد، وإذا كان فوق الكعب غضب، فهٰذا حتىٰ وإن زعم أنه لا يفعله خيلاء ففي الحقيقة أنه يغالط نفسه في مثل هٰذا القول.

[المتن]

وَقَالَ: ((بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ رَأْسَهُ، يَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ؛ إِذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ)). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

هٰذه عقوبة معجلة لهٰذا المختال الفخور، المعجب بحلته والمعجب بنفسه، والعجب داء خطير جدا، ومرض فتاك، يقول الشيخ حافظ في منظومته الآداب:

والعجب فاحذره إن العجب مجترف أعمال صاحبه في سيله العرم

يعني شبه العجب بالسيل الجارف الذي يجترف كل ما أمام، العجب خطير جدا علىٰ الإنسان، في غاية الخطورة، وهٰذا الرجل خرج يمشي في حلة تعجبه نفسه مختالا ((خَسَفَ اللهُ بِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ)).

[المتن]

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرو -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((الْإِسْبَالُ فِي الْإِزَارِ وَالْقَمِيصِ وَالْعَمَامَةِ، وَمَنْ جَرَّ (مِنْهَا) شَيْئًا خُيَلَاءَ، لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)). رَوَاهُ أَبُو دَاودُ وَالنَّسَائِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

يعني ليس الحكم خاص بالإسبال في الإزار بما أسفل الكعبين من الإزار؛ بل في العمامة والسروال والمشلح .. ، وكلّ ما يلبسه الإنسان؛ الحكم شامل.

[المتن]

وَقَالَ جَابِرُ بْنُ سليم: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((إِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ فَإِنَّهَا مِنَ المَخِيلَةِ، وَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ المَخِيلَةَ)). صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

[الشرح]

المَخِيلة هي الخيلاء، وقد جاء في الحديث: ((الْبس مَا شِئتَ وَكُلْ مَا شِئتَ مِن غَيْرِ إسرَافٍ وَلا مَخِيلَةٍ)) يعني لا تُسرف، ولا -أيضا- تكون من أهل الخُيلاء؛ فالمَخِيلة والخُيلاء خطيرة جدا.

أحد العلماء يقول في المخيلة كلمة جميلة جدا، في أضرارها، قال: "المخيلة تضرّ بالنفس حيث تُكسبها العُجب، وتضر بالآخرة حيث تُكسب الإثم، وتضرّ بالدّنيا حيث تُكسب مقت الناس". مقت الناس للرجل الذي فيه المخيلة.

قال: ((إِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ فَإِنَّهَا مِنْ المَخِيلَةِ..)) لاحظ الحديث وتمعن معناه، قال: ((إِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ فَإِنَّهَا مِنْ المَخِيلَةِ، وَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ المَخِيلَةَ)) فجعل الإسبال من المخيلة، دعك ممن ثوبه أو إزاره ليس مسبلا ولكنه يسترخي، أو مثلا إزار قد ينحلّ رباطه وينزل ثم يعيده، مثل ما تلبس أنت في الحج، تجده مع طول المشي استرخىٰ فتفاجأ أحيانا أنه نزل عن الكعب وأنت لا تريد ذلك، فإذا انتبهت رفعته.

هٰذا ليس من المخيلة وليس أمرا اخترته أو طلبته أنت بنفسك، وهذا الذي كان من أبي بكر -رضي الله عنه-.

أما من يعرف النصوص ويعرف الأدلة ويقف علىٰ الأحكام والوعيد الشديد بالنار "لا ينظر الله إليه"، "له عذاب شديد"، ثم يذهب ويقول: فصّل لي الثوب وليكن ملامسا للأرض. يضع الخياط يده أو إصبعه عند الكعبين فيقول: "هنا؟" يقول: "لا لا أسفل أسفل" إلىٰ أن تنزل المتر وتلامس الأرض يقول: هنا

مناسب، هنا جيد، ويعرف النصوص ويعرف الأدلة، ثم يقول: لا هذا ليس من المخيلة ؟! فلنقرأ الحديث، قال: ((إِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ فَإِنَّهَا مِنْ الْمَخِيلَةِ..))

الحافظ ابن حجر -رَحِمَهُ الله- في كتابه (فتح الباري) ذكر قولا لبعض أهل العلم أن إسبال الإزار إذا كان عن غير خُيلاء لا يحرم وإنما يكره، وبيّن -رَحِمَهُ الله- أن المُتجه هو التحريم، يعني حتىٰ وإن كان يدَّعي صاحبه أنه علىٰ غير وجه الخيلاء، قال: المتجه هو التحريم وليس الكراهة، لماذا؟

ذكر أمورا أربعة، قال:

- يتجه المنع لكونه إسرافا.
- ويتجه المنع لكونه تشبهًا بالنساء؛ لأن المرأة مأمورة بالإرخاء لسبب وهو ستر قدمها، فهي مأمورة لسبب، لمقصد شرعي فهي مأمورة بأن تستر قدمها.
- والأمر الثالث قال: يتجه المنع لأن فيه ملامسة للنجاسة. وأورد أثر ابن عمر قال: "ارفع ثوبك فإنه أتقىٰ لقلبك وأنقىٰ لثوبك" فقال هٰذا الأمر الثالث.
- قال: ويتجه المنع -وهذا الأمر الرابع- أيضا في الإسبال من جهة أخرىٰ، وهي كونه مظنّة الخيلاء، وأورد حديثا نظير حديث جابر بن سليم.

ونقل كلاما عظيما لابن العربي أُسمعكموه لحُسنه وجماله وفهمه في بابه؛ يقول ابن العربي: "لا يجوز للرجل أن يجاوز بثوبه كعبه، ويقول: لا أجره خيلاء؛ لأن النهي قد تناوله لفظًا -يعني تناول من أرخىٰ ثوبه لفظا، قال: ((من جر إزاره))- ولا يجوز لمن تناوله اللفظ حكما أن يقول: لا، أمتثله لأن تلك العلة ليست فيّ؛ فإنها دعوة غير مسلّمة، بل إطالته ذيله دال علىٰ تكبره" انتهىٰ ملخصا يقول ابن حجر.

قال ابن حجر معقّبا: "وحاصله أن الإسبال يستلزم جرّ الثوب، وجرّ الثوب يستلزم الخُيلاء، ولو لم يقصد اللابس الخيلاء، ويؤيّده ما أخرجه أحمد بن منيع من وجه آخر عن ابن عمر في أثناء حديث رفعه، قال: ((وإياك وجر الإزار فإن جرّ الإزار من المخيلة))، استشهد بهٰذا الحديث وهو نظير حديث جابر بن سليم الذي بين أيدينا.

من أحب أن يقف علىٰ هذه الفائدة العظيمة فليرجع إلىٰ فتح الباري للحافظ ابن حجر المجلد العاشر الصفحة ٢٦٤.

[المتن]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ يُصَلِّي مُسْبِلًا إِزَارَهُ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((اذْهَبْ فَتَوَضَّأْ)). فَذَهَبَ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ جاءَ، فَقَالَ: ((اذْهَبْ فَتَوَضَّأْ)). فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولُ اللهِ! مَالَكَ أَمَرْتَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ؟ ثُمَّ سَكَتَّ عَنْهُ؟، قَالَ: ((إِنَّهُ كَانَ يُصَلِّي وَهُوَ مُسْبِلٌ إِزَارَهُ، وَإِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ صَلَاةَ رَجُلٍ مُسْبِلٍ)) رَوَاهُ أَبُو دَاودَ، وَهُوَ عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ.

[الشرح]

وهٰذا الحديث أيضا يدلّ علىٰ خطورة المسبل إزاره، وأن هٰذا الأمر قد يكون سبب للضرر عليه في عبادته وفي صلاته كما هو واضح في الحديث.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)). فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللهُ تعالىٰ عَنْهُ-: يَا رَسُولُ اللهِ! إِنَّ إِزَارِي يَسْتَرْخِي إِلَّا أَنْ أَتَعَاهَدَهُ، فَقَالَ: ((إِنَّكَ لَسْتَ مِمَّنْ يَفْعَلُهُ خُيَلَاءَ)). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

[الشرح]

لاحظ الفرق العظيم بين كلمة أبي بكر وكلمة من يُسبل ويقول: أنا لست من أهل الخُيلاء، لاحظ الفرق، حتىٰ نُدرك فقه الصحابة وقصور هؤلاء.

يعني من الناس من يقول: أنا مسبل، لكن لا أفعل هٰذا خُيلاء، فهٰذا نوع من الفقه وهو فقه أعوج، وانظروا إلىٰ فقه الصحابة -رضي الله عنهم-.

أبو بكر لما سمع الحديث ((مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) ما قال: الحمد لله أنا لست من أهل الخيلاء، ما قال هٰذا، رأسا سأل النبي -عَلَيهِ الصَّلاة والسَّلام- عن قضية خشي أن تكون داخلة في الموضوع، وقال: (يَا رَسُولُ اللهِ! إِنَّ إِزَارِي يَسْتَرْخِي) وفرق بين (إزاري يسترخي) وبين شخص يذهب ويقول: فصّل لي الثوب إلىٰ أن يلمس الأرض، فرق بين هذا وذاك.

قال: (يَا رَسُولُ اللهِ! إِنَّ إِزَارِي يَسْتَرْخِي إِلَّا أَنْ أَتَعَاهَدَهُ) وهٰذا يدل علىٰ أنه مهتم بالقضية، مزعجته.

كل ما استرخىٰ وانتبه له رفعه، قال: (إِنَّ إِزَارِي يَسْتَرْخِي) الإزار أنتم تعرفونه مثل الذي يُلبس في الحج وتلفه بهذه الطريقة، مع طول المشي تجده ينزل، ليس مثل الثوب، الثوب لا يسترخي لأنه ثابت علىٰ الكتف، لو مشيت آلاف الكيلومترات ما يسترخي، لكن الإزار مع طول المشي يبدأ ينحل إلىٰ أن ينزل،

فيحتاج في كل فترة ترفع إلىٰ أعلىٰ، فيقول: (إِلَّا أَنْ أَتَعَاهَدَهُ) يعني أنا منتبه للمسألة وحريص علىٰ ألا يسترخي، وكلما استرخىٰ وانتبهت رفعته، فكان يسأل عن هذه القضية فقال: (إِنَّ إِزَارِي يَسْتَرْخِي إِلَّا أَنْ أَتَعَاهَدَهُ. فقال: ((إِنَّكَ لَسْتَ مِمَّنْ يَفْعَلُهُ خُيَلَاءَ)).)

فتجد بعض الناس يفصّل الثوب إلىٰ أسفل الكعب ويقول: أنا لا أفعله خيلاء، وأن رسول الله -صلّىٰ اللهُ عليهِ وسلَّم- قال لأبي بكر كذا. أين أنت من أبي بكر؟ يعني هٰذا حقيقة يجني علىٰ نفسه ويغالط نفسه ليبرّر لهٰذه المعصية التي هو يمارسها، والواجب إذا كان يريد أن يأتسي بأبي بكر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أن يكون بهٰذه الصفة قال: (أَتَعَاهَدَهُ) فأين التعهد من شخص أن يُرخي ثوبه إلىٰ أن يلامس الأرض وينزل أسفل الكعبين؟

[المتن]

وَقَالَ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((إِزْرَةُ الْمُؤْمِنِ إِلَىٰ أَنْصَافِ سَاقَيْهِ)).

وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ، قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((إِزْرَةُ الْمُسْلِمِ إِلَىٰ نِصْفِ السَّاقِ، وَلَا حَرَجَ -أَوْ لَا جُنَاحَ- فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَعْبَيْنِ، مَا كَانَ أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَمَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إِلَيْهِ)) رَوَاهُ أَبُو دَاودَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

[الشرح]

هذا الحديث فيه ((إِزْرَةُ الْمُسْلِمِ إِلَىٰ أنصاف السَّاقين، وَلَا حَرَجَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَعْبَيْنِ))، المهم ألا ينزل أسفل الكعبين، وإذا كان فوق الكعب سنتيمتر، اثنين، ثلاثة، أربعة، إلىٰ أنصاف الساقين هذه أزرة المؤمن.

أظن ذكرت لكم قصة الشّباب أو لم أذكرها؟ أتذكرونها؟ يعني مرة كانوا يستهزئون، ثم تحولوا إلىٰ أقصار الفضيلة؛ لأن الغرب فعل ذلك -نسأل الله العافية-.

وليس فقط إلىٰ الكعب، قصروا الثياب من تحت يعني قطعوها بالمقص وبشكل مقرف وبذيء جدا وقبيح (شرشروها) بالمقص وأصبحت مشوهة ولبسوها مثلهم؛ لأن موضة الغرب هكذا.

ولما لبس المسلم إزارا عملا بهذا الحديث سخروا منه، ولما لبس أولئك قلّدوهم، هٰذه مصيبة، مصيبة عظيمة جدا.

[المتن]

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: "مَرَرْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَفِي إِزَارِي اسْتِرْخَاءٌ؛ فَقَالَ: ((يَا عَبْدَ اللهِ! ارْفَعْ إِزَارِكَ)). فَرَفَعْتُهُ، ثُمَّ قَالَ: ((زِدْ)). فَزِدتُّ، فَمَا زِلْتُ أَتَحَرَّاهَا بَعْدُ". رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

الآن نستمع إلىٰ الخاتمة الحقيقة جميلة. فيها خلاصة جيدة من الذهبي –رَحِمَهُ الله–.

[المتن]

وَكُلُّ مَن اتَّخَذَ فرْجيَّة تَكَادُ أَنْ تَمَسَّ الْأَرْضَ، أَوْ جبَّة، أَوْ سَرَاوِيل أَوْ خفاجيَّة، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي الْوَعِيدِ الْمَذْكُورِ إذا فعله ... زجر عنه.

[الشرح]

قال: (زجر عنه) يعني ما فعله علىٰ وجه الكبر، ولٰكن عادة البلد ، قال: (إذا فعله زجر عنه).

[المتن]

... والله أعلم.

[الشرح]

هذه خلاصة بديعة جدا فعلا، هٰذه الخلاصة من يجمع النصوص التي في الباب يصل إليها ويجد أنها نتيجة لجمع هذه النصوص والأدلة، فإذا كان خيلاء فهذا داخل في الوعيد المذكور، وإذا كان لا يفعله وإنما لعادة البلد يُزجر ويُنهىٰ ويُمنع من ذلك، ويُخبَر أنه لا يحل له، محرم، لعموم الأدلة الواردة في ذلك.

والله أعلم وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

والحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، أما بعد..

[المتن]

الكَبِيرَةُ الثَّالِثَةُ وَالْخَمْسُون

لِبَاسُ الْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ لِلرِّجَالِ

قَالَ النَّبِيُّ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «مَنْ لَبَسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبِسْهُ فِي الْآخِرَةِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَقَالَ

-صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّمَا يَلْبِسُ الْحَرِيرَ مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ. الْخَلَاقُ: النَّصِيبُ.

[الشرح]

هٰذه الكبيرة تتعلّق باللّباس، وقد مرّ معنا أيضا كبيرة أخرىٰ تتعلّق باللّباس، والأصل في اللّباس الحلّ، كما ورد «كُل ما شئت والبس ما شئت من غير إفراط ولا مخيلة» الأصل فيه أن يلبس الإنسان ما شاء، ويكون مثل أهل بلده في لباسهم، ولا يتميّز بشيء، ولكن يجب عليه أن يجتنب من اللّباس ما خالف الشّرع، كالإسبال مثلا، أو كلبس الحرير فيما يتعلّق بالرّجال، أو التزيّن بالذّهب والفضّة فيما يتعلّق بالرّجال، فالأصل في اللّباس الحل إلاّ ما جاء الشّرع بالمنع منه والنّهي عنه، وهنا هٰذه الكبيرة تتعلّق باللّباس، لبس الحرير ولبس الذّهب للرّجال، أمّا للنّساء فهو حلال، كما سيأتي في الحديث القادم والحديث الأوّل والثّاني، فيهما دلالة علىٰ أنّ هٰذه الكبيرة، علىٰ أنّ هٰذا العمل كبيرة، إذ في الحديث الأوّل قال: «لَم يَلبَسهُ فِي الآخِرة» وفي الحديث الآخر قال: «لاَ خَلاقَ لَهُ فِي الآخِرة»، أي لا نصيب له.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «حُرِّمَ لِبَاسُ الذَّهَبِ والْحَرِيرِ عَلَىٰ ذُكُورِ أُمَّتِي وَأُحِلَّ لِإِنَاثِهِمْ»صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

وَقَالَ حُذَيْفَةُ: "نَهَانَا رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنْ نَشْرَبَ فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَأَنْ نَأْكُلَ فِيهَا، وَعَنْ لِبْسِ الْحَرِيرِ وَالدِّيبَاجِ وَأَنِ نَجْلِسَ عَلِيهِ" رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ. وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ شَرَبَ فِي آنِيَةِ الْفِضَّةِ إِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَثَبَتَ أَنَّهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَخَّصَ فِي الْحَرِيرِ لِلْحَكَّةِ، وَفِي مِقْدَارِ أَرْبَعِ أَصَابِعَ، وَفِي سِنِّ الذَّهَبِ وَنَحْوَهُ. فَمَنْ لَبَسَ خلعَةَ الْحَرِيرَ أَوْ كلُوثَةَ الْزَرْكَشِ[١]، أَوْ طُرُزَ الذَّهَبِ[٢]، أَوْ خَوَائِصَ الذَّهَبِ؛ فَقَدْ دَخَلَ فِي الْوَعِيدِ الْمَذْكُورِ وَفَسُقَ بِذَلِكَ.

[الشرح]

أي أنّه لا يحل من ذلك إلاّ ما كان للضّرورة وبقدر الضّرورة، سواء في الذّهب، كالسن الذّهب إن أمكن غيره وصار إليه، أو إذا كان بالإنسان حكّة، أو أذىٰ في بدنه، اضطرّ إلىٰ لبس الحرير في الموضع الذي فيه ضرر، أي بقدر الحاجة.

---

[١] كلُوثَةَ الْزَرْكَشِ: ما تزركش به الثياب من خيوط الحرير.

[٢] طُرُزَ الذَّهَبِ: جمع طراز، وهو ما توشى به الثياب من الذهب.

(الكبيرة الرابعة والخمسون، الْعَبْدُ الْآبِقُ وَنَحْوُهُ

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِذَا أَبِقَ الْعَبْدُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةٌ». وَقَالَ: «أَيُّمَا عَبْدٍ أَبِقَ فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّةُ». رَوَاهُمَا مُسْلِمٌ.

وَرَوَىٰ ابْنُ خُزَيْمَةَ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِبْنِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «ثَلَاثَةٌ لَا يَقْبَلُ اللهُ لَهُمْ صَلَاةً وَلَا يَصْعَدُ لَهُمْ عمل: الْعَبْدُ الْآبِقُ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَىٰ مَوالِيهِ، وَالْمَرْأَةُ السَّاخِطُ عَلِيهَا زَوْجَهَا حَتَّىٰ يَرْضَىٰ، وَالسَّكْرَانُ حَتَّىٰ يَصْحُوَ».

وَفِي الْمُسْتَدْرَكِ لِلْحَاكِمِ مِنْ حَدِيثِ عَلِيّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- مَرْفُوعًا: «لَعَنَ اللهُ مَنْ تَوَلَّىٰ غَيْرَ مَوَالِيهِ».

وَفِي الْمُسْتَدْرَكِ لِلْحَاكِمِ عَلىٰ شَرْطِ الْشَيْخَيْنِ مِنْ حَدِيثِ فُضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ مَرْفُوعًا: «ثَلَاثَةٌ لَا تَسْأَلَنَّ نَفسًا عَنْهُمْ: رَجُلٌ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ وَعَصَىٰ إِمَامَهُ فَمَاتَ عَاصِيًا، وَعَبْدٌ «أبق)آبِقٌ فَمَاتَ، وَامْرَأَةٌ غَابَ عَنْهَا زَوجُهَا وَقَدْ كَفَاهَا الْمَؤُونَة فَتبَرَّجَتْ».

العبد الآبق هو الفار من مواليه، فهٰذا الفرار هو كبيرة من كبائر الذّنوب كما هو واضح، في النّصوص التي ساقها المصنّف -رحمه الله-.

(الكَبِيرَةُ الْخَامِسَةُ وَالْخَمْسُون، مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، مِثْلَ أَنْ يَقُولَ: بِاسْمِ سِيدِي الشَّيْخِ)

الشيخ: اليوم سأفعل هٰذه الطّريقة عليكم .... (التلخيص) حتّىٰ نستطيع أن ننهي الكتاب.

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ..﴾ الآية [الأنعام:١٢١].

الْعَلَاءُ بْنُ عِبدِ الرَّحمَنِ، عَنْ أَبِيه، عَنْ هَانِيء مَوْلَىٰ عَلِيٍّ، أَنَّ عَلِيًّا -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: "يَا هَانِيء مَاذَا يَقُولُ النَّاسُ؟"، قَالَ: يَدَّعُونَ أَنَّ عِندَكَ عِلْمًا مِن رَّسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَا تُظْهِرَهُ. فَاسْتَخْرَجَ صَحِيفَةً مِنْ سَيْفِهِ فِيهَا: "هٰذَا مَا سَمِعْتُهُ مِن رَّسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، وَمَنْ تَوَلَّىٰ غَيْرَ مَوَالِيهِ، وَلَعَنَ اللهُ الْعَاقَّ لِوَالِدَيْهِ، وَلَعَنَ اللهُ مُنتَقِصَ مَنَارَ الْأَرْضِ». أَخْرَجَهُ الْحَاكِمِ فِي صَحِيحِهِ.

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ». بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُما-.

قوله: «مَن ذَبَحَ لِغيرِ الله» يتعلّق بالذّبح عبوديّة، عبوديّة الاستعانة بحيث يسمّي الله عند ذبحه للذّبيحة

فيقول: (بسم الله)، وعبوديّة قصد الله للعمل، فتكون الذّبيحة لله، فهاتان عبوديّتان فيما يتعلّق بالذّبح، أن يذبح مستعينا لله (بسم الله) ، وأن يذبح قاصدا بذبيحته التقرّب إلىٰ الله، ﴿قُل إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحيَايَ وَمَمَاتِي لله﴾ [الأعراف:١٦٢]، فهي لله قصدا وبالله استعانة، فهاتان العبوديّتان لا بدّ منهما في الذّبيحة التي يتقرّب بها إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-، وقد يقع الشّرك فيما يتعلّق بالذّبيحة في هذين، والمصنّف قال: (مثل أن يقول: باسم سيّد الشّيخ) هٰذا الشّرك المتعلّق بالاستعانة ،وقد يقول: (بسم الله)، ولكنّه يذبحها متقرّبا بها لغير الله، فهٰذا شرك في القصد، فإذن يتعلّق بذبح الذّبيحة نوعان من العبوديّة والمخالفة فيهما يوقع في الشّرك، إن ذبح مستعينا بغير الله مثل الإنسان الذي ذكره المصنّف قال: (باسم الشّيخ فلان) أو (باسم الولي فلان)، أو نحو ذلك، أو ذبح، حتّىٰ وإن ذكر عليها اسم الله، لكنّه قصد بها التقرّب لغير الله -سبحانه وتعالىٰ- من الأولياء والمقبورين، فذاك شرك في الاستعانة، وهٰذا شرك في القصد.

❁❁❁❁

[المتن]

(الكَبِيرَةُ السَّادِسَةُ وَالْخَمْسُون مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ.

لُعِنَ فِي حَدِيثِ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-.

[الشرح]

في حديث علي المتقدم، في الكبيرة التي قبل هٰذه.

[المتن]

لُعِنَ فِي حَدِيثِ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. وَرَوَىٰ عَمْرو بْنُ أَبِي عَمْرو، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ غيّرَ تُخُومَ الأَرْضِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ كَمِهَ الأَعْمَىٰ عَن السَّبِيلِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ سَبَّ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَومِ لُوطٍ». رَوَاهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ الدَّرَاوَرْدي عَنْ عَمْرو، وَزَادَ فِيهِ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ وَقَعَ عَلَىٰ بَهِيمَةٍ».

[الشرح]

تغيير منار الأرض: أي علامات الأرض، وعلامات الأرض يتناول أمرين:

الأمر الأوّل: العلامات التي تميّز حدود أملاك النّاس، ملك فلان عن ملك غيره، فيأتي أحد المالكين ويدخل العلامة في أرض صاحبه حتّىٰ يزداد ملكه ويصغر ملك صاحبه، هٰذا داخل في اللّعن.

والأمر الثّاني في تغيير منارات الأرض: أي المنارات التي يُهتدىٰ بها إلىٰ الطّريق، ويهتدي النّاس بها إلىٰ طريقهم، العلامات التي يعرفون بها الطّرق، فمن غيّرها لإضلال النّاس وتعمية الطّريق عليهم فهٰذا داخل في الحديث، ومن هٰذا القبيل ما جاء في الحديث نفسه «**مَن كَمَّهَ الأَعمَىٰ عَنِ السَّبيلِ**»، يعني توّهه وضيّعه عن السّبيل، وتغيير منارات الأرض التي يهتدي بها النّاس في الطّريق هو من تمويه النّاس عن السّبيل وتضييعهم عن السّبيل؛ فهو كبيرة، مثل أن يجد لوحة خشبيّة (مكة من هنا) ثمّ يعدّلها فيجعل النّاس مثلا يتّجهون إلىٰ اتّجاه آخر، فيضيعون و ينحرفون عن الطّريق، فهٰذه كبيرة من كبائر الذّنوب.

(الكَبِيرَةُ السَّابِعَةُ وَالْخَمْسُون، سَبُّ أَكَابِرِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ)

قوله: (سبّ الصّحابة -رضي الله عنهم أجمعين-) هٰذا من باب الاهتمام بالأكابر، وإلاّ سبّ الصّحابة عموما من كبائر الإثم، بل السبّ نفسه للمسلمين من كبائر الإثم، لكن شخصيّة أكابر الصّحابة من باب زيادة الاهتمام بهم، مثل ما سبق أن مرّ معنا ذكر باب في اللّعن والسبّ، ثمّ ذكر بابا آخر في لعن أولياء الله، مع أنّه داخل فيما قبله، لكن هٰذا فيه مزيد اهتمام.

[المتن]

قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «يَقُولُ اللهُ تَعَالىٰ: مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتَهُ بِالْحَرْبِ». رَوَاهُ البُخَارِيُّ. وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

هٰذا مثل ما سبق، يعني لمّا ذكر السبّ عموما فيما سبق، أفرد شيئا خاصّا في سبّ أولياء الله وأورد هٰذا الحديث، وهنا أفرد شيئا خاصّا بالأكابر من الصّحابة وأورد هٰذا الحديث، فالمراد المزيد من الاهتمام لا التّقسيم.

(وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَالَتْ عَائِشَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- "أُمِرُوا بِالاسْتِغْفَارِ لِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَسَبُّوهُمْ" و ... (غير مفهومة ربما لعنوهم) رَوَاهُ هِشَامُ، عَنْ أَبِيه، عَنْ عَائِشَةَ).

[الشرح]

الذي أُمر به المسلم اتّجاه الصّحابة هو الاستغفار، وهٰذا الأمر جاء في القرآن ﴿الذِينَ جَاءُوا مِن بَعدِهِم

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفِر لَنا وِلإِخوَانِنَا الذِين سَبقُونَا بالإِيمَان﴾[الحشر: ١٠]، فالمسلم مأمور بالاستغفار، فهؤلاء أبدلوا ما أمرهم الله -تبارك وتعالىٰ- به، وما أمرهم به رسوله -صلّىٰ الله عليه وسلّم- بالسبّ واللّعن، مع أنّ المسلم ليس باللعّان ولا الطعّان ولا الفاحش ولا البذئ، كما سبق أن مرّ معنا، فكيف يكون لعّانا لخيار الأمّة؟! «لَيسَ المُؤمِن بالطعَّانِ وَلاَ اللعّانِ وَلاَ الفَاحشِ وَلاَ البَذِئ»، فكيف يكون لعّانا لخيار الأمّة؟! بل إنّه لم يُشرع لنا أن نردّد ونكرّر في أيّامنا وأوقاتنا بلعن إبليس الذي هو شرّ الخلق وأعظمهم فسادا، ما أُمرنا، أُمرنا بالاستعاذة منه، ولم نؤمر بتكرار اللّعن، مع اعتقادنا بأنّه ملعون ومطرود من رحمة الله، لكن ما أُمرنا، ومع ذلك بلغ الخذلان بالقوم لقوم مبلغا عظيما فأصبحوا يلعنون الخيار والصّحابة في الصّباح والمساء، وجعلوا ذلك وردا لهم، لا يخلّون به في كلّ صباح وفي كلّ مساء- والعياذ بالله-.

[المتن]

وَيُرْوَىٰ عَن النَّبِيِّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ».

قَالَ عَلِيٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: "وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةِ وَبَرَأَ النَّسْمَةِ، إِنَّهُ لَعَهْدُ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ إِلَيَّ: «لا يُحِبُّنِي إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُنِي إِلَّا مُنَافِقٌ». وَرَوَاهُ عديُّ بْنُ ثَابت عَنْ زَرْ عَنْهُ.

فَإِذَا كَانَ هٰذَا قَالَهُ النَّبِيُّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي حَقِّ عَلِيٍّ؛ فَالصِّدِّيقُ بِالْأَوْلَىٰ وَالْأَحْرَىٰ؛ لِأَنَّهُ أَفْضَلُ الْخَلْقِ بَعْدَ النَّبِيِّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَمَذْهَبُ عُمَرٍ وَ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- أَنَّ مَنْ فَضَّلَ عَلَىٰ الصِّدِّيقِ أَحَدًا فَإِنَّهُ يُجْلَدُ حَدَّ الْمُفْتَرِي.

[الشرح]

الصدّيق و"عمر" رضي الله عنهما هما أفضل الخلق بعد الأنبياء في كلّ الأمم، أفضل الخلق بعد الأنبياء في كلّ الأمم، كما صحّ في بداية الحديث عن رسول الله ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ: «أَبُو بَكرٍ وَعُمَر سَيِّدَا كهول أَهلِ الجنَّة مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِين، خلا النّبيين والمُرسَلِينَ»، فأبو بكر" و"عمر" ـ رضي الله عنهما ـ هما خير النّاس بعد الأنبياء، فليس في أمم الأنبياء من هو خير من "أبي بكر" و"عمر" ، وإذا كان النّبي ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ قال ما قال في "علي" ـ رضي الله عنه ـ ، فإنّ "أبا بكر" و"عمر" من باب أولىٰ ، بل قال "علي" نفسه ـ رضي الله عنه ـ «لا أجد أحد نفسه يفضّلني علىٰ "أبي بكر" و"عمر" إلاّ جلدته حدّ المفتري»، إلاّ جلدته حدّ المفتري ، وسئل ـ رضي الله عنه ـ من خير النّاس بعد رسول الله ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ : قال "أبوبكر" قيل، ثمّ من قال "عمر" ، قال السّائل فخشيت أن أقول ثمّ من ؟ فيقول :عثمان ، فقلت له ثمّ أنت

، ثمّ أنت فقال ما أنا إلاّ رجل من المسلمين، فقال ما أنا إلاّ رجل من المسلمين ، فـ"أبو بكر" و"عمر" ـ رضي الله عنه ـ هما خير منه ، فإذا كان النّبي ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ قد قال فيه ما قال هنا ، «فهما خَيرٌ مِنك»، فهٰذا فيه الدّلالة علىٰ حرمة لعن أو شدّة لعن أكابر الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ، ولاسيما مقدّموهم و خيارهم وأفاضلهم الخلفاء الأربعة، وبقيّة السّتّة العشرة المبشّرين في الجنّة وأزواج النّبي ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ، ثمّ الذين شهدوا بدرا وهكذا، في مراتب الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ في الفضل.

[المتن]

فَرَوَىٰ شُعْبَةُ، عَنْ حُصَيْن، عَنْ عِبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَىٰ؛ أَنَّ الْجَارُودَ بْنَ الْمَعَلَّيّ الْعَبْدِيّ قَالَ: "أَبُو بَكْرٍ خَيْرٌ مِنْ عُمَرَ"، فَقَالَ آخَرُ: "عُمَرُ خَيْرٌ مِنْ أَبِي بَكْرٍ"، فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرُ؛ فَضَرَبَهُ بِالدُّرَّةِ حَتَّىٰ شَغَرَ[١] بِرِجْلَيهِ، وَقَالَ: "إِنَّ أَبَا بَكْرٍ صَاحِبُ رَسُولُ اللهِ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَكَانَ أَخْيَرَ النَّاسِ فِي كَذَا وَ كَذَا، وَمَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ وَجَبَ عَلَيْهِ حَدُّ الْمُفْتَرِي.

وَرَوَىٰ الْحَجَّاجُ بْنُ دِينَارٍ، عَنْ أَبِي مَعْشَر، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ علْقَمَةَ، قَالَ: "سَمِعْتُ عَلِيًّا –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– يَقُولُ: "بَلَغَنِي أَنَّ قومًا يُفَضِّلُونِي عَلَىٰ أَبِي بَكْر وَعُمَرَ، مَنْ قَالَ شَيْئًا مِنْ هٰذَا فَهُوَ مُفْتَرٍ، عَلَيْهِ مَا عَلَىٰ الْمُفْتَرِي". وَعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ حجل؛ أَنَّ عَلِيًّا –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَالَ: "لَا أُوتَىٰ بِرَجُلٍ فَضَّلَنِي عَلَىٰ أَبِي بَكْر وَعُمَرَ إِلَّا جَلَدتُّهُ حَدَّ الْمُفْتَرِي.

وَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «مَنْ قَالَ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ! فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا». فَأَقُولُ: مَنْ قَالَ لِأَبِي بَكْروَدُونَهُ: يَا كَافِرُ! فَقَدْ بَاءَ الْقَائِلُ بِالْكُفْرِ هُنَا قَطْعًا؛ لِأَنَّ اللهُ تَعَالىٰ قَدْ رَضِيَ عَنِ السَّابِقِينَ الأوَّلينَ؛ قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠]. وَمَنْ سَبَّ هَؤُلَاءِ فَقَدْ بَارَزَ اللهُ تَعَالىٰ بِالْمُحَارَبَةِ؛ بَلْ مَنْ سَبَّ الْمُسْلِمِينَ وَآذَاهُمْ وَازْدَرَاهُمْ فَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ ذَلِكَ مِن الْكَبَائِرِ، فَمَا الظَّنُّ بِمَنْ سَبَّ أَفْضَلَ الْخَلْقِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–؟!؛ لَكِنَّهُ لَا يُخَلَّدُ بِذَلِكَ فِي النَّارِ إلاّ .... عليٍّ ـ رضِيَ اللهُ عنهُ أو أنَّهُ.........فهٰذا ملعون كَافِر.

[الشرح]

استدلال المصنّف هنا عظيم جدًّا بقول النّبي ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ «مَنْ قَالَ لِأَخِيهِ يَا كَافِر فقَد بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا»، باء بها أحدهما، الصّحابة "أبو بكر" و"عمر" وغيرهم من أصحاب النّبي ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم

---

[١] شَغَرَ بِرِجْلَيْهِ: أي رفعهما.

ـ هؤلاء مسلمون خيار عدول، فمن قال في حقّهم أنّهم كفّار أو أنّهم مرتدّين فهي قطعا راجعة إلىٰ القائل بدون ردّ، ما يقال هنا باء بها أحدهما وإنّما يكون باء بها من قال ذلك ، لأنّهم خيار عدول من خيار المسلمين وعدولهم ، زكّاهم الله في القرآن وزكّاهم النّبي ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ ، بل شهد لـ"أبي بكر" و"عمر" وعثمان" و"علي" ولغيرهم من الصّحابة بالجنّة ، فمن قال إنّ "أبا بكر" كافر ، فهو الكافر ، القائل بهٰذه الكلمة هو الكافر لأنّ النّبي ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ قال «قَد بَاءَ بِهَا أَحدُهُمَا»، وفيما يتعلّق بسبّ الصّحابة ، قال ـ رحمه الله ـ «فما الظنّ بمن سبّ أفضل الخلق بعد رسول الله ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ ، لكنّه لا يخلّد بذلك في النّار» ، إذا قيل بكفره فهو مخلّد في النّار ، ولا سيما في مصادمته القرآن ولأحاديث النبيّ ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ الواضحة الصّريحة، في بيان فضل الصّحابة ومكانة الصّحابة وقدر الصّحابة، ولهٰذا استدلّ بعض العلماء بالقرآن علىٰ كفر من فعل ذلك ، وإذا اعتقد كفره فإنّه يكون مخلّد ليس فقط أن يعتقد النبوّة أو الألوهيّة لـ"علي" بل أيضا ، يعني مثل من يعتقد في أمّ المؤمنين "عائشة" ـ رضي الله عنها ـ أنّها فعلت الفاحشة والعياذ بالله، والله عزّ وجلّ أنزل في براءتها ثمانية عشر آية في القرآن ، أنزل في براءتها ثمانية عشر آية في القرآن ، فمن قال بذلك أو من وصمها بذلك بعد ما أنزل الله فيها ما أنزل ، فإنّه كافر، فإنّه كافر بالقرآن، ومن قال في "أبي بكر" أنّه كافر ولعنه ، فهو الكافر ، ولا يكون الأمر مقصورا علىٰ المعنىٰ الذي صار إليه المصنّف ، وبعض العلماء استدلّ علىٰ كفر هؤلاء في القرآن بآيات صريحة مثل الآية التي خُتمت بها سورة الفتح ، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ [الفتح:٢٩]، قال بعض العلماء فمن غاظه أحد من أصحاب رسول الله ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ فهو كافر ، كما أخبر الله جلّ وعلا.

❁❁❁❁

[المتن]

الكَبِيرَةُ الْثَّامِنَةُ وَالْخَمْسُون، سَبُّ الْأَنْصَارِ رَضِيَ اللهُ تعالىٰ عَنْهُمْ فِي الْجُمْلَةِ

قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ». وَقَالَ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ».

[الشرح]

الأنصار من الصّحابة، لكن ذكرهم هنا للاهتمام أو لمزيد الاهتمام، أورد ماجاء في فضل حبّ الأنصار وأنّه آية الإيمان، وكيف لا يحبّ المسلم أنصار النّبي ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ الذين نصروه بمالهم وأوقاتهم

وجهدهم وأنفسهم ، فهم أنصار النّبي ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ ، وأنصار دينه ، فحبّهم إيمان ويغضهم نفاق ، فالكبيرة هنا بغض الأنصار ، بغض الأنصار كبيرة، وبغض الصّحابة عموما كبيرة ، ولكنّ خصّ الأنصار بالذّكر مزيدا من الاهتمام لمجيء نصّ خاص يتعلّق بهم.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ التَّاسِعَةُ وَالْخَمْسُون، مَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلَالَةٍ أَوْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً

قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «مَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِن الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامَ مَنْ تَبِعَهُ لَا يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا». وَقَالَ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا». رَوَاهُما مُسْلِمٌ.

وَقَالَ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ». وَفِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ: «وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ».

[الشرح]

ثمّ أورد هـٰذه الكبيرة ، كبيرة إحداث المحدثات، وإنشاء البدع والدّعوة إلىٰ الضّلالات، فهـٰذه من كبائر الإثم، هـٰذه من كبائر الإثم، وخطرها علىٰ المحدث عظيم جدّا ، بل إنّ خطرها عليه بحسب عدد من تبعه، كما هو واضح في الحديث، كان عليه وزرها و وزر من عمل بها، فإذا امتدّ العدد وزاد زاد الوزر وزاد الإثم، ولا يكون هـٰذا خاصا فيمن تلقّوه مباشرة عنه، بل من تلقّوا عن تلاميذه وتلاميذ تلاميذه إلىٰ أن تقوم السّاعة يحمل أوزار هؤلاء كلّهم ، يحمل أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل:٢٥]، فإحداث البدع وإيتاء المحدثات، هـٰذا من أخطر ما يكون علىٰ الإنسان، أن يسنّ في النّاس سنّة سيّئة، وان يحدث في الدين ما ليس منه، وان يدعو إلىٰ الضّلال فهـٰذا من أعظم الذّنوب وأشدّها خطرا ، بل جاء النّبي ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ في الحديث الصّحيح من حديث ثوبان في سنن أبي داوود وغيره ، أنّه قال «إِنَّ أَخوفَ مَا أَخافُ عَلَىٰ أُمَّتِي الأَئِمَّةَ المضلِّين»، فهؤلاء خطر كبير علىٰ النّاس، لأنّه يدعو إلىٰ الضّلالة بقالب الحق بقالب الهدىٰ ولباس التّقوىٰ، فيضلّ النّاس، ويقعون في العبادات الباطلة والأعمال المحدثة التي ليست هي من دين الله بسبب إضلال هؤلاء المضلّين ، والمصنّف رحمه الله نبّه هنا تنبيها لطيفا عندما حذّر من هـٰذه الكبيرة ، بذكر بعض النّصوص الواردة فيها، ذكر الحديث «كُلُّ بِدعةٍ ضَلاَلة» «كُلُّ بِدعةٍ ضَلالة»، فالأمر إمّا سنّة ثابتة

عن النّبي ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ أو بدعة ،والبدعة هو ما أُحدِث في الدّين ، كما قال ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ «مَنْ أَحدَثَ فِي أَمرِنَا هـٰذا مَا لَيس مِنهُ فهو رد» فمن أحدث في دين الله سبحانه وتعالىٰ ما ليس منه فهو مردود عليه، في العقائد في العبادات في الأذكار.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ السِّتُّون،الْوَاصِلَةُ فِي شَعْرِهَا وَالْمُتَفَلِّجَةُ وَالْوَاشِمَةُ

قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَعَنَ اللهُ الْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ، وَالْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ، وَالنَّامِصَةَ وَالْمُتَنَمِّصَةَ، وَالْمُتَفَلِّجَاتَ لِلْحُسْنِ، والْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَقَالَ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «ثَمَنُ الْكَلْبِ وَالدَّمِ حَرَامٌ، وَكَسْبُ الْبَغِيِّ، وَلَعَنَ الْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ، وَآكِلَ الرِّبَا وَمُؤْكلَهُ، وَلَعَنَ الْمُصَوِّرِينَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

هـٰذه من الكبائر ، الواصلة في شعرها والمتفلّجة والواشمة ، الواصلة في شعرها يعني التي تزيد في شعرها شعرا آخر لتُظهر به طول شعرها، فهـٰذا يسمّىٰ وصل ، ومثل الوصل تركيب الشّعر ، الشّعر الذي يركّب علىٰ الرّأس ، فهـٰذا مثل الوصل ، وكذلك المتفلّجة، والمتفلّجة هي التي تفلّج أسنانها ،وتضع بين الأسنان يعني مسافة يسيرة جدّا للحسن، تتفلّج للحسن ، يعني لتُظهر بذلك حسن أسنانها ومنظرها، والواشمة التي تضع الوشم في يدها أو في خدّها أو في عضدها ، ويفعلون كلّ ذلك للتزيّن، وهو كلّه من التّغيير لخلق الله ، وهو ممّا يدعو إليه الشّيطان ﴿وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ﴾ [النساء:١١٩]، كلّه داخل من دعوة الشّيطان أو داخل في دعوة الشّيطان لتغيير.

خلْق الله –تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ–؛ فالواصلة والواشمة والمتفلجة هؤلاء كلهن ملعونات بلعنة رسول الله – صلّىٰ اللهُ عليهِ وسلَّم–، ومن تفعل ذلك في غيرها؛ تصل شعر غيرها أو تقوم بالتفليج أو الوشم لغيرها فهي أيضا يشملها اللعن. فاللعن يشمل من فعلت ذلك ومن قامت بهـٰذا العمل، يعني من صنعت ذلك في نفسها ومن قامت بهـٰذه الصناع؛ الواشمة والمستوشمة؛ الواصلة والمستوصلة، يعني التي تصل شعرها والتي تقوم بوصله لها؛ كل منهما يشمله الوعيد واللعن، نعم.

(النامصة) يتعلق بالشعر أيضا، تأخذ جزءا من الشعر وتحدد مثلا شعر الحاجب فتجعله مثلا إذا كان

كثيفا تجعله رقيقا وبمسافة معيّنة والباقي تزيله؛ (النمص) إزالة الشعر؛ فتزيل شعر حاجبها، ليس كله، وإنما أجزاء منه من أعلاه وأسفله بحيث يبقىٰ رقيقا وتفعل ذلك قاصدةً التجمل وقاصدة الزينة، وهٰذا من التغيير في خلق الله -سُبْحَانه وَتَعَالىٰ-.

وفي زماننا هٰذا استجد أمر يفعله بعض النساء يسمىٰ (التشقير)؛ تشقير الحاجب. وتشقير الحاجب هو أن يوضع علىٰ الشعر -شعر الحاجب- لون أو طلاء مثل البشرة، مثل لون البشرة تماما وتشقّر حاجبها يعني تضع عليه الطلاء الذي هو مثل لون البشرة وتُبقي جزءا رقيقا من شعر الحاجب علىٰ لونه لا تضع عليه هٰذا الطلاء فتكون مثل النامصة؛ يعني النتيجة هي نفس نتيجة النامصة، يظهر شعر حاجبها رقيقا؛ لكنها لا تفعل النمص، وهٰذا حكمه مثل حكم النمص؛ لأن هٰذه حيلة للوصول إلىٰ نفس النتيجة التي يوصل إليها من النمص.

[المتن]

الكَبِيرَةُ الحَادِيَةُ وَالسِّتُّون

مَنْ أَشَارَ إِلَىٰ أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ

قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ أَشَارَ إِلَىٰ أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

«مَنْ أَشَارَ إِلَىٰ أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ»كسكين أو [...] أو خنجر أو نحو ذلك، أشار إليه بها؛ يعني يُخوّفه بها أو يوهمه أنه سيضربه بها أو نحو ذلك؛ فمجرد الإشارة كبيرة وفيها لعن، فكيف بمن آذىٰ بدن أخيه بالحديدة كأن يجرحه أو يسيل الدم من جسمه؟، وكيف إذا أزهق روحا وقتله بهٰذه الحديدة؟، فهٰذه كلها كبائر. ومجرد الإشارة بدون الأذىٰ؛ يعني بدون أن يطعن أو يؤذي بها صاحبه، مجرد الإشارة والتهييب بالحديدة هٰذا من كبائر الإثم وقد ورد في هٰذا الحديث الذي ساقه المصنف: «مَنْ أَشَارَ إِلَىٰ أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ».

والإشارة هنا في الحديث للأخ من الأب والأم علىٰ اعتبار أن الغالب بين الإخوان المسامحة في مثل هٰذا النزاع؛ مَنْ بينهما هٰذه القرابة المسامحة؛ فمع وجود المسامحة وبيانها بينهما فإن الملائكة تلعن بمباشرته لهٰذا العمل؛ بمعنىٰ أن الإنسان لا يقول أنا بيني وبينه المزح أو بيني وبينه الدعابة أو بيني وبينه

المحبة وهو يسامحني لو فعلت مثل هٰذه الأشياء ولا ينزعج مني؛ حتىٰ وإن وُجدت هٰذه المعاني فالإشارة بالحديدة فيها هٰذا الوعيد.

ومن حكمة الشارع وللشارع في هٰذا حِكَم؛ قد يرفع الحديدة ثم يدفعه الشيطان لفعل ما لم يقصده برفعه، وكم من إنسان رفع الحديدة ميهيّبا فقتل من أمامه؛ دفعه الشيطان فقتل من أمامه؛ فهٰذا فيه حفظ المسلم؛ لأن ترويع المسلم حرام، مجرد الترويع والتخويف، وجاء فيه أحاديث في تحريم ترويع المسلمين؛ وفيه أيضا سد الذريعة، ذريعة الأذىٰ والقتل، بالمنع من مباشرة هٰذه الأعمال أن يرفع الحديدة تهيبا أو ترويعا لأخيه، فهٰذا فيه البعد عن ترويع المسلم، وفيه أيضا سدّ الذريعة للوصول لإيذاء المسلمين أو قتلهم أو نحو ذلك.

[المتن]

الكَبِيرَةُ الْثَّانِيَةُ وَالسِّتُّون

مَنْ ادَّعَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ أَبِيهِ

عَنْ سَعْدٍ -رَضِيَ اللهُ تَعَالىٰ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ ادَّعَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبِيهِ فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

قوله: «ادَّعَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ أَبِيهِ»؛ يعني انتسب إلىٰ غير أبيه، فيحوّل النسبة من أبيه أو من قبيلته أو من جده إلىٰ نسبة أخرىٰ إلىٰ أُناس آخرين؛ فمن فعل هٰذا فهو منتسب لكبيرة عظيمة؛ بل جاء الوعيد علىٰ هٰذا العمل بأن الجنة عليه حرام، وقد جاء في هٰذا الأمر أحاديث كثيرة ذكر جملة منها المصنف -رَحِمَهُ الله-.

[المتن]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ تَعَالىٰ عَنْهُ-، عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «لَا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ أَبِيهِ فَهُوَ كُفْرٌ». أَخْرَجَاهُ أَيْضًا.

[الشرح]

قوله: «فَهْوَ كُفْرٌ» هٰذا كما سبق أن مرّ معنا له نظائر، إطلاق الكفر لا علىٰ [الكفر] الأكبر الناقل من الملّة وإنما هو كفر دون كفر.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

هٰذا فيما يتعلق بالمُدَّعي لغير أبيه له أنواع من الوعيد: لا يدخل الجنة، الجنة عليه حرام، عليه لعنة الله، فهو كفر. أنواع من الوعيد جاءت في هٰذه الكبيرة.

[المتن]

وَعَنْ يَزِيدِ بْنِ شُرَيْكٍ قَالَ: "رَأَيْتُ عَلِيًّا -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ- يَخْطُبُ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: "وَاللهِ مَا عِنْدَنَا مِنْ كِتَابٍ نَقْرَؤُهُ إِلَّا كِتَابُ اللهِ وَمَا فِي هٰذه الصَّحِيفَةِ، فَنَشَرَهَا فَإِذَا فِيهَا أَسْنَانُ الْإِبِلِ، وَأَشْيَاءُ مِنْ الْجِرَاحَاتِ، وَفِيهَا: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «الْمَدِينَةُ حَرَامٌ مَا بَيْنَ عَيرٍ إِلَىٰ ثَوْرٍ، فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَىٰ مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ اللهُ مِنْه يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا، ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ يَسْعَىٰ بِهَا أَدْنَاهُمْ، فَمَنْ حَقَّرَ مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَمَنْ ادَّعَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ أَبِيهِ، أَوْ انتَمَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ مَوَالِيهِ؛ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَمَنْ ادَّعَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ أَبِيهِ، أَوْ انتَمَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ مَوَالِيهِ؛ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ اللهُ مِنْه يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

كأنها تكررت .. في الطبعة.

وهٰذا الموضع الذي تكرر هنا هو موضع الشاهد من الحديث: «مَنْ ادَّعَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ أَبِيهِ، أَوْ انتَمَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ مَوَالِيهِ»؛ يعني انتماء العبد إلىٰ غير مواليه «فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ اللهُ مِنْه يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا»؛ أي لا يقبل الله منه فريضة ولا نفلا، نعم.

[المتن]

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ-؛ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «لَيْسَ مِنْ رَّجُلٍ ادَّعَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إِلَّا كَفَرَ، وَمَنْ ادَّعَىٰ مَا لَيْسَ لَهُ فَلَيْسَ مِنَّا وَلِيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ، وَمَنْ دَعَا رَجُلاً بِالْكُفْرِ أَوْ قَالَ: عَدُوُّ اللهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ، وَمَعْنَىٰ «حَارَ»: رَجَعَ.

[الشرح]

نعم.

[المتن]

الكَبِيرَةُ الْثَّالِثَةُ وَالسِّتُّون

الطِّيَرَةُ

وَيُحْتَمَلُ أَنْ لَا تَكُونَ كَبِيرَةٌ.

وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ كُهَيْلَ، عَنْ عِيسَىٰ بْنِ عَاصِم، عَنْ زِرٍّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ وَمَا مِنَّا إِلَّا، وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ». صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ. قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ: «وَمَا مِنَّا .. » هُوَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ.

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «لَا عَدْوَىٰ وَلَا طِيَرَةَ، وَأُحِبُّ الْفَأْلَ»، قِيلَ: يَا رَسُولُ اللهِ! وَمَا الْفَأْلُ؟، قَالَ: «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ» صَحِيحٌ.

[الشرح]

الطِّيَرَةُ: هي التشاؤم، والتشاؤم يكون بالطيور ويكون بغيرها؛ لكن لما كان غالب التشاؤم الذي عليه الجاهلية كان بالطيور، ببعض أنواع الطيور، أو بحركات الطيور ...، ولما كان هٰذا الغالب أُطلق علىٰ كل تشاؤم تطيُّر؛ لأن الأصل فيه أو الغالب في التطير أو التشاؤم أنه بالطيور.

والتشاؤم شرك، وفيه ضرر علىٰ قلب الإنسان وإصابة بالوهن وضعف الدين ورقّته وكثرة المخاوف والمقلقات التي تنتاب القلب والأضرار الكثيرة التي تلحق الإنسان إذا كانت نظرته للأشياء وللأمور بمثل هٰذه النظرة القاتمة المظلمة، النظرة المتشائمة؛ ولهٰذا جاء الإسلام بتحريم التشاؤم والمنع منه والدعوة إلىٰ أن يكون المسلم صاحب عزيمة وصاحب همة وصاحب إرادة طيبة وإقبال علىٰ الخير، لا أن يكون متثبطا متوانيا متقاعسا متكاسلا متشائما؛ إذا وُجد فيه التشاؤم وُجد فيه الخذلان والوَهَن والكسل والضعف؛ إذا كانت هٰذه نظرته للأشياء، وتنتابه المخاوف في كل وقت وفي كل حين بهٰذه النظرة المتشائمة.

والتشاؤم كبيرة. وقول المصنف -رَحِمَهُ الله-: "وَيُحْتَمَلُ أَنْ لَا تَكُونَ كَبِيرَةٌ"؛ لعل المصنف -رَحِمَهُ الله- وضع هٰذا الاحتمال لاعتباره جانب من التطير يهجم علىٰ القلب هجوما لا يطلبه الإنسان ولا يقصده ويسعىٰ في طرده؛ في هٰذا الحد لا يقال عنه كبيرة، من هجم علىٰ قلبه ثم طرده؛ ولهٰذا قال ابن مسعود: «وَمَا

مِنَّا إِلَّا، وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ»؛ يعني ما منا إلا يدخل علىٰ قلبه أحيانا شيء؛ لكنه بإيمانه وتوكله وثقته بالله فهٰذا الحد لا يقال عنه كبيرة؛ لكن من يطلب التطير ويسعىٰ في طلبه ويذهب يبحث مثلا عن الطيور أو الأشياء التي يُتطير بها فهٰذا لا شك أنه كبيرة بدون احتمال وبدون تردد، كبيرة طبعا من كبائر الإثم وشرك بالله -عزَّ وجلَّ-؛ لكن الأمر الآخر الذي هو يهجم علىٰ القلب، مثل شخص أراد أن يسافر فرأىٰ شيئا أفزعه وأخافه وتشاءم وخشي أن يحصل له مثل هٰذا الأمر ثم طرده، قال: توكلت علىٰ الله، استعنت بالله والحافظ هو الله و مضىٰ في طريقه، ما ردّته الطيرة؛ ولهٰذا ورد أن الطيرة: "ما أمضاك أو ردك" يعني ما أحدث فيك تأثيرا في سلوكك أو عملك؛ أما إذا طردتها؛ هجمت علىٰ قلبك وطردتها هٰذه لا تضرّك، ولا تكون إثما؛ لأنّها حديثٌ خطر في نفس الإنسان وطرده الإنسان، لكن إذا فعَّل هٰذا الأمر، ورتّب عليه امتناعا من عمل أو فعلا لعمل بناءً علىٰ هٰذا التطيّر لاشكّ أنّ هٰذا كبيرة من الكبائر.

وأورد حديث ابن مسعود أنّ النّبيّ -صلّىٰ الله عليه وسلّم- قال: « الطِّيَرَةُ شِرْكٌ»، وممّا يُعرف به الأمر أنّه كبيرة وصفه بأنّه شرك أو وصفه بأنّه كفر.

قال: «وَمَا مِنَّا إِلَّا» يعني ما منّا إلاّ ويهجم علىٰ قلبه شيء من هٰذا؛ لكن المسلم يطرده بتوكلّه علىٰ الله، قال: «وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ» وهٰذا الذي يهجم علىٰ القلب ما يضرّ ولا يؤثر إذا طارده المسلم وطرده بتوكّله علىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- والتجائه إليه وإيمانه به.

وقوله: «لَا عَدْوَىٰ وَلَا طِيَرَةَ» هٰذا نفي لما عليه أهل الجاهليّة من اعتقاد في العدوىٰ وأنّها مؤثرة بنفسها، وكذلك ما هم عليه من التطيّر بالطيور وأشباهها ونحوها مماّ كانوا يتطيّرون به، هٰذا كلّه من الجاهليّة التّي جاء الإسلام بنفيه وإبطاله.

قال: «وَأُحِبُّ الْفَأْلَ» قِيلَ: يَا رَسُولُ اللهِ! وَمَا الْفَأْلُ؟، قَالَ: «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ»، والكلمة الطّيّبة لها أثر جيّد علىٰ المسلم، وتبعث فيه التّفاؤل والنّشاط والرّغبة، ولا تثنيه عن الخير، فكان -عليه الصّلاة والسّلام- يحبّ الكلمة الطّيبة، شخص مشىٰ إلىٰ السّوق ليبيع تجارة له، معه تجارة يريد أن يبيعها وهو في طريقه سمع شخصا ينادي صاحبه قال: "يا رابح تعال" ففرح وتفاءل أنّه يربح، هٰذا لا شيء فيه، الكلمة الطّيّبة كانت تعجب النّبيّ -عليه الصّلاة والسّلام-، أو شخص مريض سمع شخصا ينادي: "يا سالم" مثلا ففرح وتفاءل وقال.. ، مثل هٰذا ما يؤثّر، هٰذه الكلمة تبعث النّشاط، بخلاف التّطيّر، التّطيّر إذا وُجد يُظلم القلب ويُظلم الطّريق، وتبرد الهمّة ويحصل التّواني والكسل والإحزان و... الإنسان وتمنعه من أعمال الخير،

أمّا الكلمة الطّيّبة فهي لا تضرّ الإنسان، هو ماضٍ فيما هو ماض عليه؛ بل يزداد نشاطا ورغبة، فكانت الكلمة الطّيّبة تعجب النّبيّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ الرَّابِعَةُ وَالسِّتُّون

الشّرْبُ فِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ

قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَا تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ وَالدِّيبَاجَ، وَلَا تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلَا تَأْكُلُوا مِنْ صِحَافِهَا فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وِلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ»، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ أَوْ يَشْرَبُ فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ إِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ».

وَقَالَ: «مَنْ شَرِبَ فِي الْفِضَّةِ لَمْ يَشْرَبْ فِيهَا فِي الْآخِرَةِ». أَخْرَجَهُمَا مُسْلِمٌ.

[الشرح]

هٰذه الكبيرة قد جاء فيها وعيد كبير **"الشّرب في آنية الذّهب والفضّة"**، وقد جاء في هٰذه الكبيرة أنواع من الوعيد، فذكر النّبيّ -صلّىٰ الله عليه وسلّم- في بعض الأحاديث أنّها للكفّار في الدّنيا وليست لهم في الآخرة، وهي ليست للمؤمنين في الدّنيا، يجتنبونها ويبتعدون عنها طاعة لله، ويجدون ذلك في الآخرة ثوابا، يشربون في الجنّة بآنية الذّهب والفضّة.

ومن الوعيد الوارد أنّ من شرب بها: «إِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ» هٰذا كلّه يدلّ علىٰ أنّ الشّرب في آنية الذّهب والفضّة أو الأكل فيهما من كبائر الذّنوب، سواء في الأواني التي يوضع عليها الطّعام أو الآلات التي يُؤكل بها الطّعام مثل المِلْعقة إذا كانت من الذّهب، أو الملعقة إذا كانت من الفضّة أو نحو ذلك، فهٰذا كلّه يشمله هٰذا الوعيد.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ الْخَامِسَةُ وَالسِّتُّون

الْجِدَالُ وَالْمِرَاءُ وَاللَّدَدُ، وَوُكَلَاءُ الْقُضَاةِ

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا...﴾ الآيات[البقرة:٢٠٤-٢٠٥].

[الشرح]

ثمّ ذكر هٰذه الكبيرة: **"الجدال والمِراء واللّدد ووكلاء القضاة"**، وهٰذه الأمور التي أشار إليها المصنّف هي من الكبائر؛ لأنّها ليست من أوصاف المسلم، ليس من أوصاف المسلم: الجدل و المراء واللّدد والمشادّات والخصومة ونحو ذلك ليست من خصال المسلم، فإذا كان الإنسان متّصفا بهٰذه الصّفات فهٰذا ليس من أمارات الخير ولا علاماته.

و**"وكلاء القضاة"** يعني من يتوكّلون لأمور النّاس عند القضاة، وهؤلاء منهم من يتوكّل علىٰ وجه الإحسان والمطالبة بحقوق النّاس بالمعروف دون تعدّي ودون جور، وهناك من يُحْسِن الخصومة ويُحْسِن الجدل ويُحْسِن المطالبة و يُحْسِن اللّحن بالحجّة حتّىٰ يستخرج ما ليس له فيه حقّ أو ما ليس لمن يطالب له فيه حقّ؛ ولكن لجدله وقوّة عَارِضته وحسن معرفته بالنّقاش والجدال يستطيع أن يُقنع من أمامه من قاض أو غيره، فيلحن في حجّته ويقتطع بهٰذا اللّحن مالا حراما، وحكم القاضي في مثل هٰذه الحال لا يُحلل الحرام عليه؛ يعني لو لحن في حجّته أمام القاضي وحكم له القاضي فهٰذا لا يّحلل الحرام؛ بل يبقىٰ الحرام حراما، فهٰذه من الأمور التي هي ليست من خصال أهل الإيمان، وأورد من الأدّلة ما يشهد بذلك منها: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة:٢٠٤]. وجاء في الحديث الصّحيح: «إِنَّ أَبْغَض النّاسِ إِلَىٰ اللهِ الْأَلَّدُّ الْخَصِمُ»؛ يعني الذي يُجادل ويماري، فيه الجدال و فيه المراء، ولا يهمّه أن يكون مصيبا أو محقّا، المهمّ أنه يُسكِت من أمامه، وأن يقطع حجّة من أمامه، وأن يعلو علىٰ الآخرين، ليس همّه الحقّ والوصول إليه وبلوغه، وإنّما همّته أن يرتفع علىٰ الآخرين وأن يماري السّفهاء، وأن تظهر حجّته عليهم أو يظهر قوله عليهم، هٰذا همّه، ولهٰذا جاء المصنّف هنا بهٰذه الآية: ﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ يقول: ﴿يُشْهِدُ اللَّهَ﴾ أو يعلم الله أنّني علىٰ حقّ أو أنني علىٰ صواب، ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ من أبغض النّاس إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-، نعم.

[المتن]

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨].

[الشرح]

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ جاء في الحديث عن النّبيّ -صلّىٰ الله عليه وسلّم- أنّه تلا هٰذه الآية وذكر أنّ من فُتِح عليه باب الجدل أُغلق عليه باب العمل، بمعنىٰ هٰذا الكلام قال -عليه الصّلاة والسّلام-، نعم.

[المتن]

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر:٥٦].

[الشرح]

هٰذه الآية سبق أن مرّت معنا، فيه إشارة أنّ الكبر له دور كبير جدّا في قضية المجادلة بالباطل، نعم.

[المتن]

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦].

[الشرح]

المجادلة التي هي بالتي أحسن هٰذه ليست مذمومة، الذي يقصد المجادل باللّطف والإحسان بيان الحقّ لمن أمامه ودلالته علىٰ الطّريق وإزالة الشّبهة التي عرضت له، فهٰذا أمر يُحمد ولا يُذمّ.

[المتن]

قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالىٰ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ».

[الشرح]

«إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَىٰ اللهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ»، أنبّه هنا أيضا إلىٰ أنّ قضيّة الخصومة وقوّة العارضة ليست هي وحدها التي بها الوصول إلىٰ الحقّ، الوصول إلىٰ الحقّ يوصل يعني يصيبه من أصاب الحقّ لا من قويت عارضته أو قويت حجّته، قد تكون عارضة الإنسان قويّة وجداله قويّا، والحقّ بعيد عنه، فليست العبرة، حتىٰ وإن أسكت خصمه أو أفحم خصمه أو أفحم من أمامه قد يفحم من أمامه ويسكته والحقّ ليس معه، ولهٰذا يقولون أنّ رجلا جاء إلىٰ الإمام مالك بن أنس -رحمه الله- وقال: أريد أن أتناظر معك، قال له الإمام مالك: **"فإن غلبتني؟"** قال: تتبّعني. قال: **"فإن غلبتك ؟"**، قال: أتّبعك. قال: **"فإن جاء شخص ثالث وغلبنا؟"**، قال: نتّبعه، قال: **" يا هٰذا! ليس الدّين لمن غلب"**؛ يعني ليست إصابة الحقّ

لمجرّد أن يغلب الإنسان في المجلس، قد يغلب ويُسكِت من أمامه والحقّ ليس معه؛ ولكنّه لقوّة الجدل وقوّة عارضته قد يُسكِت خصمه، فقال: **"يا هٰذا! ليس الدّين لمن غلب"** هٰذه كلمة عظيمة جدّا، الدّين ليس لمن غلب، إذاً الدّين لمن؟ لمن أصاب الحقّ؛ أصاب الكتاب والسنّة، ولهٰذا أيضا جاء عنه أنّه قال في نفس القصّة: **"أو كلّما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا الكتاب والسنّة لجدله ؟!!"**، الدّين ليس لمن غلب، والدّين ليس بالجدال والخصومات؛ ولهٰذا عامّة كتب العقيدة للسّلف يورَد فيها آثار في ذمّ الجدال والتّحذير منه وبيان خطورته علىٰ الإنسان، فالقضية ليست قضية جدل وخصومة، القضية قضية معرفة حق واتباع لكتاب الله وسنّة نبيه -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

[المتن]

وَرَوَىٰ رَجَاءُ -أَبُو يَحْيَىٰ صَاحِبُ السَّقْطِ، وَهُوَ لَيِّنٌ- عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ تَعَالىٰ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**مَنْ جَادَلَ فِي خُصُومَةٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللهِ حَتَّىٰ يَنْزِعَ**».

[الشرح]

هٰذا ضابط في المسألة قوله: «**بِغَيْرِ عِلْمٍ**»، أمّا إذا كان عنده علم؛ يعني العلم هو كلام الله وكلام رسوله -عليه الصّلاة و السّلام- وفهم الكتاب والسنّة، فإذا كان بعلم وأراد إقامة الحجّة وبيان الهدىٰ للنّاس وردّ الباطل فهٰذا يؤجر، نعم.

[المتن]

وَرَوَىٰ حَجَّاجُ بْنُ دِينَارٍ -وَهُوَ صَدُوقٌ- عَنْ أَبِي غَالِب، عَنِ أَبِي أُمَامَةَ -رَضِيَ اللهُ تَعَالىٰ عَنْهُ-، عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدَىً كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ**، ثُمَّ تَلَا: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨]».

[الشرح]

هٰذا يفيد أنّ الإنسان إذا فُتِح عليه باب الجدل يكون سببا للحرمان من العمل، إذا فُتح إليه باب الجدل يكون سببا الحرمان من العمل، وإذا أردت أن تعتبر هٰذا فاعتبره في مثال كبير وواضح في حياة كثير من الناس يسهرون اللّيل في الجدل وينامون عن صلاة الفجر

وينامون عن صلاة الفجر، و«**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدَىً كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ**»، يُفتح عليهم باب

الجدل ويحرمون العمل، وهـٰذا من أخطر ما يكون علىٰ الإنسان تكون حياته في جدل، أما العمل الذي هو غاية العلم فهو في معزل عنه، نعم.

[المتن]

وَيُرْوَىٰ عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي: زَلَّةُ عَالِمٌ، وَجِدَالُ مُنَافِقٍ بِالْقُرْآنِ، وَدُنْيَا تَقْطَعُ أَعْنَاقَكُمْ». رَوَاهُ يَزِيدُ بْنُ أَبِي زِيَادِ، عَنْ مُجَاهِدِ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ.

[الشرح]

هـٰذه ثلاثة أمور ذكر أنه -عليه الصلاة والسلام- أخوف ما يخافه علىٰ الأمة: زلة عالِم؛ ولهـٰذا يقولون: "زلة العالِم زلةُ العَالَم"، إذا زلّ العالِم الناس يتأثرون به في زلته لثقتهم به، والعالم ليس بالمعصوم؛ ولهـٰذا أيضـًا العلماء نبهوا علىٰ مسألة في الباب ويقع فيها كثير من العوام: تتبع زلات العلماء، وذكر أهل العلم أن هـٰذا من الزندقة ومن الكفران والحرمان أن الإنسان يتتبع زلات العلماء، أو مثلاً يريد فتوىٰ في حكم معين أو في عمل معين فيطوف بالعلماء إلىٰ أن يجد من يفتيه علىٰ هواه أو علىٰ رغبته، يتتبع الزلات أو الهفوات أو الأخطاء أو العثرات، فزلة العالم خافها النبي علىٰ أمته خوفًا شديدًا، والعالم قد يزل ويكون معذور، وقد يزل ولا يكون معذور؛ لأنه لم يجتهد اجتهاداً تحرىٰ فيه إصابة الحق وإصابة الهدىٰ أو كان في اجتهاده له يكون فيه نوع من الهوىٰ فلا يكون معذوراً، وقد يكون في زلته معذوراً اجتهد وأخطأ وتحرىٰ الحق؛ لكنه أخطأ، نعم.

[المتن]

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «الْمِرَاءُ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ».

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمَا-، عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «مَنْ خَاصَمَ فِي بَاطِلٍ -وَهُوَ يَعْلَمُ- لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللهِ حَتَّىٰ يَنْزِعَ». وَفِي لَفْظٍ: «فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِن اللهِ». أَخْرَجَهُ أَبُو دَاودُ.

[الشرح]

نعم.

[المتن]

وَيُرْوَىٰ عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمُ اللِّسَانِ».

وَعَنْهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «الْحَيَاءُ وَالْعَيُّ شُعْبَتَانِ مِنْ الْإِيمَانِ، وَالْبَذَاءُ وَالْبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنْ

النِّفَاقِ».

[الشرح]

هنا ذكر في هٰذا الحديث الأول: «كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمُ اللِّسَانِ»، في الحديث الذي قبله جدال المنافق بالقرآن هنا حقيقة مصيبة أو أمر خطير كان النبي -عليه الصلاة والسلام- يخاف علىٰ الأمة منه وهو: المنافق عليم اللسان، أو المنافق الذي علىٰ اطلاع علىٰ الأدلة وعلىٰ النصوص، ويبدأ يتكلم ويورد الآيات ويورد الأحاديث ويورد الحجج والأقوال يوردها ويضرب بعضها بعضًا حتىٰ يُلبِّس علىٰ الناس ويوقعهم في الشكوك في دينهم، فخطورة مثل هٰذا إذا كان عليم اللسان ويجادل بالقرآن يقرأ القرآن ويقرأ الأحاديث ليس هدفه أن يصيب الحق ولا أيضًا هدفه أن يهدي الناس للحق؛ ولكن يقرأ القرآن ويقرأ الأحاديث ليُلبِّس علىٰ الناس ويشكك عليهم في أديانهم، وهٰذا يقع كثيرا، وتجده يطوف الآيات والأحاديث، فهٰذا أخشىٰ ما كان يخشىٰ النبي -صلىٰ الله عليه وسلم -علىٰ أمته.

والله أعلم، وصلّىٰ اللّه وسلّم علىٰ نبيّنا محمّد وآله وصحبه أجمعين.

المستوى الثاني/الكتاب الخامس

شرح

كتاب الكبائر

للعلامة شمس الدين الذهبي رحمه الله

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

حفظه الله تعالىٰ

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

من الدرس (٢٣) إلىٰ االدرس (٢٤)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلـٰـه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صَلَّىٰ الله وسَلَّم عَلَيه وَعَلىٰ آلِه وأصحَابِه أجمَعين-.

أما بعد،

[المتن]

الكَبِيرَةُ السَّادِسَةُ وَالسِّتُّون

فِيمَنْ خَصَىٰ عَبْدَهُ أَوْ جَدَعَهُ أَوْ عَذَّبَهُ ظُلْمًا وَبَغْيًا

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ إِبْلِيسَ -لَعَنَهُ اللهُ-: ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ﴾ [النساء:١١٩].

قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: هُوَ الْخِصَاءُ.

[الشرح]

ثم أورد هـٰذه الكبيرة من خصىٰ عبده أو جدعه أو عذبه ظلمًا وبغيًا؛ أي أن هـٰذا من كبائر الإثم، وخصيُه: هو أن يدع خصيته بتعطيلها إما بكيها بنار أو بشيئ من هـٰذا القبيل، ويُقال له: الخِصاء.

وهنا أورد بعض الأدلة: بدأ بهـٰذا الدليل العام: ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ﴾ هـٰذا الشاهد من الآية، "قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: هُوَ الْخِصَاءُ"، هـٰذا النوع من التفسير يُسمىٰ: تفسير الآية ببعض أفرادها، هـٰذا نوع من التفسير، لا أن هـٰذا هو معنىٰ الآية فقط؛ وإنما هـٰذا فردٌ من الأفراد الداخلة في معنىٰ الآية، فالخصاء من التغيير لخلق الله الذي تتناوله الآية بعمومها، نعم.

[المتن]

رَوَىٰ الْحَسَنُ، عَنْ سَمْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-؛ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلْنَاهُ، وَمَنْ جَدَعَ عَبْدَهُ جَدَعْنَاهُ». هـٰذا خَبَرٌ صَحِيحٌ.

[الشرح]

الجدع: القطع، جدعه: أي قطعه، مثل أن يجدع أذنه أو يجدع أنفه أو يجدع طرفـًا من أطرافه، مثله ما جاء في الحديث قال -عليه الصلاة والسلام-: «كل مولود يولد علىٰ الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو

يمجسانه» قال: «**كما تنتج البهيمة بهيمةً جدعاء هل ترون فيها من جدعاء؟**» إلا أن تكونوا أنتم الذين تجدعونها، الجدع هو القطع، فجدع عبده: يعني جدع طرف من أطرافه أو جزء من أجزاء بدنه الأنف أو الأذن، أي نعم.

[المتن]

وَرَوَىٰ قِتَادَةُ عَنْ الْحَسَنِ، عَنْ سَمُرَةَ مَرْفُوعًا قَالَ: «مَنْ أَخْصَىٰ عَبْدَهُ أَخْصَيْنَاهُ». وَصَحَّحَ الْحَاكِمُ -فَأَخْطَأَ- حَدِيثًا فِي الْحُدُودِ مَتْنَهُ: «مَنْ مَثَّلَ بِعَبْدِهِ فَهُوَ حُرٌّ».

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ أُقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

[الشرح]

«**مَنْ مَثَّلَ بِعَبْدِهِ فَهُوَ حُرٌّ**»: يعني مثل ما نبه الذهبي وأيضًا المحقق أن الحديث ضعيف «**مَنْ مَثَّلَ بِعَبْدِهِ فَهُوَ حُرٌّ**»؛ لكن مر معنا في الحديث ما يشهد لهٰذا الأمر؛ يعني قال لما رآه يعذبه قال: «**لو لم تفعله لمستك النار**»، قال هو حر لوجه الله، قال: «**لو لم تفعل ذلك للفحتك النار**»، والتمثيل تعذيب له فكفارته أن يعتقه وأن يطلقه حراً لوجه الله -عز وجل-، نعم.

[المتن]

وَآخِرُ مَا حُفِظَ عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ! اتَّقُوا اللهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ».

[الشرح]

هٰذا من آخر ما أوصىٰ به النبي وحُفظ عنه -عليه الصلاة والسلام- في وصيته: الوصية بالصلاة، متبع ذلك الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم؛ أي اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم، نعم.

[المتن]

وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: "نَهَىٰ النَّبِيُّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنْ إِخْصَاءِ الْخَيْلِ وَالْبَهَائِمِ".

[الشرح]

هٰذا سنده ضعيف، نعم.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ السَّابِعَةُ وَالسِّتُّون

الْمُطَفِّفُ فِي وَزْنِهِ وَكَيْلِهِ

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَىٰ النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)﴾[المطففين:١-٦]. وَذَلِكَ ضَرْبٌ مِن السَّرِقَةِ وَالْخِيَانَةِ، وَأَكْلِ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ.

[الشرح]

التطفيف من الكبائر، والتطفيف بيانه كما جاء في القرآن: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَىٰ النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢)﴾ يعني يأخذون حقهم وافيًا، ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣)﴾ فإذا كان لهم يأخذونه وافيـًا، وإذا كان عليهم يدفعونه ناقصـًا، هـٰذا هو التطفيف، ويكون في المكيلات وفي الموزونات، وهو كما قال المصنف -رحمه الله- نوع من السرقة والخيانة والغش وأكل لأموال الناس بالظلم والباطل.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ السَّابِعَةُ وَالسِّتُّون

الْأَمْنُ مِن مَّكْرِ اللهِ تَعَالىٰ

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام:٤٤].

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس:٧].

[الشرح]

نعم.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ التَّاسِعَةُ وَالسِّتُّون

الْإِيَاسُ مِن رَوْحِ اللهِ تَعَالىٰ وَالْقُنُوطُ مِن رَّحْمَتِهِ

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى:٢٨].

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ﴾ [الزمر:٥٣].

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ حَسَنُ الظَّنِّ بِاللهِ».

[الشرح]

العبودية؛ عبودية المسلم لله لا بد أن تكون قائمة علىٰ الرجاء والخوف، رجاء رحمة الله، وخوفُ عذابه -سبحانه وتعالىٰ-، وأن يجمع بين الأمرين، لا أن يأتي بأحدهما دون الآخر، بأن يكون راجيًا ليس بخائف، أو خائفًا ليس براجي؛ بل يجمع بين الأمرين معًا ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء:٥٦]، ﴿يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠]، فهٰذان ركنان لا بد منهما في التعبد مع المحبة للمعبود، فالله -عز وجل- يُعبد حبًّا فيه ورجاءً لثوابه وخوفًا من عقابه، فهٰذه أركان للتعبد قلبية لا بُدَّ منها، إذا فرَّط في الرجاء وزاد في الخوف قنط من رحمة الله، وإذا زاد الرجاء وأهمل الخوف أمن من مكر الله، وكل من الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله كبيرة.

الأمن من مكر الله وهو الذي ذكره أولاً المصنف كبيرة من الكبائر، يتولد عند الإنسان إذا غلّب جانب الرجاء وأهمل جانب الخوف، فإنه يأمن مكر الله، وإذا غلّب جانب الخوف وأهمل جانب الرجاء تصيبه الكبيرة الثانية وهي القنوط من رحمة الله، وإذا أتىٰ بالرجاء والخوف بالتوازن ومضىٰ معتدلاً متوازنًا راجيًا خائفًا فإنه يسلم من اليأس ومن القنوط، ولا تكون السلامة من اليأس ومن القنوط إلا بالاعتدال في باب الرجاء والخوف، إذا غلّب جانب الرجاء وأهمل الخوف يصيبه ماذا؟ اليأس والأمن من مكر الله، وإذا غلّب جانب الخوف وأهمل جانب الرجاء يصيبه القنوط من رحمة الله واليأس من روح الله، فهاتان كبيرتان يُصاب بهما الإنسان في عدم اعتداله في جانب الرجاء والخوف.

[المتن]

الكَبِيرَةُ السَّبْعُون

كُفْرَانُ نِعْمَةُ الْمُحْسِنِ

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾[لقمان:١٤].

وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ».

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: " كُفْرَانُ النِعْمَةِ مِن الْكَبَائِرِ، وَشُكْرَهَا بِالْمُجَازَاةِ أَوْ بِالدُّعَاءِ".

[الشرح]

أيضا بالإضافة إلىٰ هٰذا ما جاء في الحديث: «إنكنّ تكفُرنَ العَشِيرَ»، «تَكفُرنَ المُنعمين» في بعض ألفاظ الحديث، فكفران نعمة المحسن؛ يعني من أحسن إليه وصُنع إليه معروفا فكفر هٰذه النّعمة وجحدها، فهٰذا من الأمور العظيمة ومن الأمور الكبيرة.

﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾، «لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ»، «إِنِّي أُرِيتُكنَّ أَكثَرَ أَهلِ النَّار» قُلنَ: وبمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «تُكثِرنَ اللَّعنَ وتَكفُرنَ العَشِيرَ»، جاء في بعض ألفاظ الحديث: «تَكفُرنَ المُنعمين»، نعم.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ الحَادِيَةُ وَالسِّتُّون

مَنْعُ فَضلُ الْمَاءِ

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ﴾ [الملك:٣٠].

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَا تَمْنَعُوا فَضْلَ الْمَاءِ لِتَمْنَعُوا بِهِ الْكَلَأَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَا [تَمْلِكُوا] فَضْلَ الْمَاءِ» أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ.

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَن النَّبِيِّ- صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «مَنْ مَنَعَ فَضْلَ مَاءٍ أَوْ فَضْلَ كَلَأٍ مَنَعَهُ اللهُ فَضْلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ.

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمْ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ عَلَىٰ فَضْلِ مَاءٍ بِالْفَلَاةِ يَمْنَعُهُ ابْنَ السَّبِيلِ، وَرَجُلٌ بَايَعَ الْإِمَامَ لَا يُبَايِعُهُ إِلَّا لِدُنْيَا؛ فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا وَفَّىٰ لَهُ، وَإِنْ لَمْ يَعْطِهِ مِنْهَا لَمْ يَفِ لَهُ، وَرَجُلٌ بَاعَ رَجُلاً سِلْعَةً بَعْدَ الْعَصْرِ، فَحَلَفَ بِاللهِ لَأَخَذَهَا بِكَذَا وَكَذَا فَصَدَّقَهُ، وَهُوَ عَلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَزَادَ: «وَرَجُلٌ مَنَعَ فَضْلَ مَاءٍ، فَيَقُولُ اللهُ: الْيَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي كَمَا مَنَعَتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ».

[الشرح]

قوله: "منع فضل الماء"؛ أي الفاضل عن حاجة الإنسان والزّائد عن حاجة الإنسان؛ يعني لا يحتاجه

زائدًا عن حاجته وحاجة أهله وولده، فهٰذا يسمّىٰ فضل الماء، فإذا منعه ابن السّبيل ومنعه المحتاج، ويرىٰ الشّخص الظّمآن العطشان وعنده فضل ماء ولا يعطيه منه فهٰذه كبيرة من الكبائر، وجاء فيها وعيد شديد كما مرّ معنا في الأحاديث التي ساقها المصنّف -رحمه الله-؛ ومنها ما ختم به في صحيح البخاري قال: «فَيَقُولُ اللهُ: الْيَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي كَمَا مَنَعتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ» يعني ما مننت به عليك، ولك أن تربط بين هٰذا الحديث الذي ختم به المصنّف وبين الآية التي صدّر بها كلامه علىٰ هٰذه الكبيرة وهي أنّ الماء منّة الله علىٰ عباده «مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ»، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ﴾؛ أي لا أحد غير الله -سبحانه وتعالىٰ-، فالماء منّة الله، إمّا أن يخرج من الأرض أو ينزل مطرا من السّماء تفضّل به -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- علىٰ عباده، فمن كان عنده فضل ماء ومنعه ابن السّبيل فهو علىٰ كبيرة وأمر وذنب عظيم.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ الثَّانِيَةُ وَالسَّبْعُون

مَنْ وَسَمَ دَابَّةً فِي الْوَجْهِ

عَنْ جَابِرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-؛ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَرَّ بِحِمَارٍ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ؛ فَقَالَ: «لَعَنَ اللهُ الَّذِي وَسَمَهُ». أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ. وَعِندَ أَبِي دَاوُدَ فَقَالَ: «أَمَا بَلَغَكُمْ أَنِّي لَعَنتُ مَنْ وَسَمَ الْبَهِيمَةَ فِي وَجْهِهَا، أَوْ ضَرَبَهَا فِي وَجْهِهَا، وَنَهَىٰ عَنْ ذَلِكَ».

فَقَوْلُهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «أَمَا بَلَغَكُمْ أَنِّي لَعَنتُ» يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَبْلُغْهُ الزَّجْرُ غَيْرُ آثِمٍ، وَأَنَّ مَنْ بَلَغَهُ وَعَرَفَ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي اللَّعْنَةِ، وَكَذَا نَقُولُ فِي عَامَّةِ هٰذِهِ الْكَبَائِرِ إِلَّا مَا عُلِمَ مِنْهَا بِالاضْطِّرَارِ مِن الدِّينِ.

[الشرح]

ثمّ ذكر هٰذه الكبيرة: وسم الدّابة في الوجه، وسم الدّابة في الوجه؛ يعني أن يضع فيها وسما في وجهها، فهٰذا من كبائر الذّنوب، والوسم: علامة توضع في الدّابة حتّىٰ يُميّز الإنسان دابّته أو دوابّه عن عوام النّاس حتّىٰ لا تختلط أو يدّعيها أُناسٍ لأنفسهم، فالعلامة تُميّز دوابّه عن دوابّ غيره، فلعن النّبي -صلىٰ الله عليه وسلّم- من وسم الدّابة في الوجه.

ونبّه هنا المصنّف علىٰ فائدة تتعلّق بعموم الكبائر، أخذها من قوله: «أَمَا بَلَغَكُمْ أَنِّي لَعَنتُ مَنْ وَسَمَ الْبَهِيمَةَ فِي وَجْهِهَا»، «أَمَا بَلَغَكُمْ» ففي هٰذا فائدة أنّ الإثم متعلّق بمن بلغته الحجّة، كما قال الله -تبارك

وتعالىٰ-: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ [النساء:١١٥]، أمّا الذي ما بلغته الحجّة ولم يتبيّن له الهدىٰ فهو معذور؛ لأنّه ما وصله الحكم ولا بلغه الحكم، قال: «أَمَا بَلَغَكُمْ أَنِّي لَعَنتُ مَنْ وَسَمَ الْبَهِيمَةَ»، يقول الذّهبي: "فَقَوْلُهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «أَمَا بَلَغَكُمْ أَنِّي لَعَنتُ» يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَبْلُغْهُ الزَّجْرُ غَيْرُ آثِمٍ، وَأَنَّ مَنْ بَلَغَهُ وَعَرَفَ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي اللَّعْنَةِ، وَكَذَا نَقُولُ فِي عَامَّةِ هٰذِهِ الْكَبَائِرِ إِلَّا مَا عُلِمَ مِنْهَا بِالْاضْطِّرَارِ مِن الدِّينِ."؛ يعني الأمور المعلومة من الدّين بالضّرورة، وفعلا بالاضطرار من الدّين هٰذه لا يُعذر الإنسان بالجهل بها.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ الثَّالِثَةُ وَالسَّبْعُون

الْقِمَارُ

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١)﴾[المائدة:٩٠-٩١]. وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ غَيْرَ آيَةٍ فِي مَقْتِ آكِلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ.

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ تَعَالَ أُقَامِرُكَ فَلْيَتَصَدَّقْ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

فَإِذَا كَانَ مُجَرَّدَ الْقَوْلِ مَعْصِيَةً مُوجِبَةً لِلصَدَقَةِ الْمُكَفِّرَةِ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْفِعْلِ؟! وَهُوَ دَاخِلٌ فِي آكِلِ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ.

[الشرح]

ثمّ ذكر المصنّف -رحمه الله- هٰذه الكبيرة: كبيرة القِمَار، وهو الميسر الذي ذمّه الله -تبارك وتعالىٰ- في القرآن، وهو أكلٌ لأموال النّاس بالباطل، والقمار له طرق كثيرة كان يمارسها أهل الجاهليّة، وكثير من القِمار يكون عبر ألعاب معيّنة بعضها يتطلّب الفوز، يتطلّب الفوز والغلبة، تتطلّب الغلبة بشيء من المهارة والتّفكير؛ يعني يلعبون لعبا فيها شيء من المهارة والتّفكير، ثمّ من يغلب يأخذ مال الآخر، وشيئا آخر لا يتطلّب مهارة وتفكيرا؛ وإنّما تكون الغلبة له بالاتّفاق؛ ولهٰذا يمارسون لعبا بعضها تحتاج إلىٰ شيء من التّفكير وبعضها لا تتطلّب تفكيرا؛ وإنّما يكون له الغلبة بالاتّفاق، فمثلا أن يضع المتقامرين كلّ منهما مالا معيّنا، قد يكون متساويا وقد يكون أحدهما يضع مالا أكبر من الآخر؛ كأن يقول للمتقامر معه أنا أضع ألف

ريال وأنت تضع ثماني مئة ريال، ونلعب النّرد ومن كانت له الغلبة منّا أخذ المبلغ كاملا.

والنَّرْد: هو ما يعرف في زماننا هٰذا بلعبة الطّاولة؛ يعني طاولة وفيها مثلا مربّعات ثمّ فيه قطعتين من الزّهر ومربّعة وفي كلّ جانب منها نقط تشير إلىٰ أرقام، فيه جانب فيه نقطة واحدة، وجانب آخر نقطتين، وجانب ثالث أربع نقط، وجانب خمس نقط وهكذا، ثمّ يتقابلان ويرمون [النرد]، وهٰذه الإصابة بالاتّفاق، قد يرمي وتقع علىٰ خلاف ما يريد، ويرمي صاحبه وتقع علىٰ ما أراد ويَغْلِب، فهٰذه صارت بالاتفاق وليس بالتّفكير، لعبة لا تحتاج إلىٰ تفكير حتّىٰ يصل إلىٰ الفوز، فهٰذا نوع من القمار.

ونوع من القمار لعب تحتاج إلىٰ تفكير، وأشهرها لعبة الشّطرنج، الشّطرنج هي لعبة ويكثر فيها القمار بين اللاّعبين كلّ منهما يضع مبلغا معيّنا، ومن يفوز يأخذ المبلغ كاملا، وهٰذه لعبة تحتاج إلىٰ تفكير، يُقدِّم رقع الشّطرنج بطرق معيّنة حتّىٰ يغلب صاحبه، فيأخذ المبلغ كاملا.

وكذلك من القمار ما يسمّىٰ في زماننا باليانصيب، يشتري النّاس كرتا أو يشتري قطعا من الورق بمال رخيص، ثمّ يكون مثلا الفائز بهٰذا المال واحد.

وكذلك المسابقات التي تعقد وتتصل لتأخذ رقما في المسابقة، وقسيمة الاتّصال مبلغا معيّنا؛ يعني يكون باتّصالك دفعت هٰذا المبلغ وسُجّل علىٰ فاتورة هاتفك، فتدفع مبلغا معيّنا ويكون رمز الاتّصال هو كذا، ويفوز من هؤلاء المتّصلين وهم بالآلاف واحد مثلا، فهٰذا كلّه من أكل أموال النّاس بالباطل؛ لأنّ مئات وآلاف النّاس دفعوا هٰذا المبلغ المعيّن والفائز منهم واحد، فمن أموال النّاس يُدفع لهٰذا الفائز الجائزة، والباقي يأكله أصحاب الجائزة بالباطل، كلّ هٰذا من القمار، من الميسر الذي حرّمه الله -تبارك وتعالىٰ-.

أشار المصنّف هنا إلىٰ الحديث: «مَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ تَعَالَ أُقَامِرُكَ فَلْيَتَصَدَّقْ»، فَإِذَا كَانَ مُجَرَّدَ الْقَوْلِ مَعْصِيَةً مُوجِبَةً لِلْصَدَقَةِ الْمُكَفِّرَةِ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْفِعْلِ؟!؛ يعني حتّىٰ وإن لم يفعل قال: "أريد أن أقامرك"، بمجرّد القول يكون قد ارتكب معصية، كيف بمن باشر الأمر وأكل أموال النّاس بالباطل؟!.

[المتن]

الكَبِيرَةُ الرَّابِعَةُ وَالسَّبْعُون

الإِلْحَادُ فِي الْحَرَمِ

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿ .. وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ

بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥].

قَالَ يَحْيَىٰ بْنُ أَبِي كَثِيرٍ: عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ سِنَانٍ -وَقَدْ وَثَّقَهُ ابْنُ حِبَّانَ- عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ الْمُصَلُّونَ، مَنْ يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيَصُومُ رَمَضَانَ، وَيُعْطِي زَكَاةَ مَالِهِ يحْتَسِبُهَا، وَيَجْتَنِبُ الْكَبَائِرَ الَّتِي نَهَىٰ اللهُ عَنْهَا»، ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا الْكَبَائِرُ؟، قَالَ: «هُنَّ تِسْعٌ: الْشِرْكُ بِاللهِ، وَقَتْلُ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ، [وَالسِّحْرُ]، وَفِرَارُ يَوْمِ الزَّحْفِ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَةِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ الْمُسْلِمَيْنِ، واسْتِحْلَالُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ قِبْلَتِكُمْ، مَا مِنْ رَجُلٍ يَمُوتُ لَمْ يَعْمَلْ هَؤُلَاءِ الْكَبَائِرِ، وَيُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ؛ إِلَّا كَانَ مَعَ النَّبِيِّ فِي دَارٍ أَبْوَابُهَا مَصَارِيعُ مِنْ ذَهَبٍ». سَنَدُهُ صَحِيحٌ.

وَعَنْ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «إِنَّ أَعْدَىٰ النَّاسِ عَلَىٰ اللهِ مَنْ قَتَلَ فِي الْحَرَمِ أَوْ قَتَلَ غَيْرَ قَاتِلِهِ، أَوْ قُتَلَ بِذُحُولِ الْجَاهِلِيَّةِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ.

[الشرح]

ثمّ أورد -رحمه الله- هٰذه الكبيرة: **"الإلحاد في الحرم"**، و**"الإلحاد"** هو الميل والعدول، تقول العرب: ألحد السّهم عن الرَّمِيّة؛ أي مال، ويسمّىٰ **"اللّحد"** لحدا لأنّ فيه ميلا إلىٰ جانب القبلة، فاللُّحود هو الميل والعدول، والميل والعدول والانحراف في الحرم أشدّ؛ لأنّ المعصية يتضاعف حجمها في فضل المكان وأيضا فضل الزّمان، فالمعصية في الحرم ليست كالمعصية في غيره، والمعصية في رمضان الزّمن الفاضل ليست كالمعصية في غيره، فهٰذه كبيرة: **"الإلحاد في الحرم"**، وأورد فيها الآية الكريمة: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وأيضا أورد الحديث الذي فيه عدّ النّبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تسعا من الكبائر قال: «هُنَّ تِسْعٌ»، وذكر منها: «اسْتِحْلَالُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ قِبْلَتَكُمْ».

قوله: «بِذُحُولِ الْجَاهِلِيَّةِ» هل في تعليق عندكم عليها؟ في الطّبعات الأخرىٰ، ...

«ذُحُولِ الْجَاهِلِيَّةِ» أي الثار والعداوات، نعم، «ذُحُولِ الْجَاهِلِيَّةِ» يعني الثّأر والعداوات التي في الجاهليّة، نعم. «أَوْ قُتَلَ بِذُحُولِ الْجَاهِلِيَّةِ» في أيدي ما بينهم ثارات وعداوات.

النّبيّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- لمّا خطب في خطبة الوداع أبطل ذحول الجاهليّة وقال: «كلّ دم كان في الجاهليّة فهو باطل»، وأبطلها كلّها -عليه الصّلاة والسّلام- وانتهت بالإسلام، فمن قُتل بذحول الجاهليّة يعني بالعداوات والثّارات التي كانت بينهم فهو مرتكب لعظيمة من عظائم الذّنوب؛ لأنّها انتهت وقضىٰ

عليها الإسلام وأبطلها.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ الْخَامِسَةُ وَالسَّبْعُون

تَارِكُ الْجُمْعَةِ لِيُصَلِّي وَحْدهُ

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللهُ تَعَالىٰ عَنْهُ-، أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ لِقَوْمٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الْجُمْعَةِ: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ رَجُلًا يُصَلِّي بِالنَّاسِ، ثُمَّ أُحَرِّقَ عَلَىٰ رِجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الْجُمْعَةِ بُيُوتَهُمْ». أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَيَنتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمْعَاتِ أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ثُمَّ لَيَكُونَنَّ مِن الْغَافِلِينَ». أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ أَبِي الْجَعْدِ الضَّمْرِيّ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قَلْبِهِ» إِسْنَادُهُ قَوِيٌّ، أَخْرَجَهُ أَبُو دَاودُ وَالنَّسَائِيُّ.

وَعَنْ حَفْصَةَ -رَضِيَ اللهُ تَعَالىٰ عَنْهَا-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «رَوَاحُ الْجُمْعَةِ وَاجِبٌ عَلَىٰ كُلِّ مُحْتَلِمٍ» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ.

[الشرح]

ثمّ أورد هٰذه الكبيرة: **"ترك الجمعة ليصلّيَ وحده"**؛ يعني لا يشهد الجمعة مع المسلمين وإنّما يصلّيها وحده ظهرا، فهٰذه كبيرة وساق فيها المصنّف -رحمه الله- جملة من النّصوص.

وكذلك أيضا: **"التّخلف عن الجماعة بغير عذر"** والحديث الذي أورده المصنّف جاء في بعض ألفاظه عامّا في التّخلف عن الصّلوات: «**لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ برَجُل فيُصَلِّي بِالنَّاسِ، ثُمَّ أخالف إلىٰ أقوام لا يشهدون الصلاة فأحرّق عليهم بيوتهم**»، وقال: «**من سمع النّداء فلم يُجِب فلا صلاة له إلاّ من عذر**»، والأحاديث التي في وجوب الصّلاة مع الجماعة كثيرة جدّا ومشتملة علىٰ التّهديد والوعيد للمتخلّف عنها كثيرة، حتىٰ أنّ ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: **"وما يتخلّف عنها إلاّ منافق معلوم النّفاق"**.

۞۞۞۞

[المتن]

الكَبِيرَةُ السَّادِسَةُ وَالسَّبْعُون

مَنْ جَسَّ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ وَدَلَّ عَلَىٰ عَوَرَاتِهِمْ

فِي الْبَابِ حَدِيثُ حَاطِبِ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ، وَأَنَّ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ- أَرَادَ قَتْلَهُ بِمَا فَعَلَ، فَمَنَعَهُ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ قَتْلِهِ لِكَوْنِهِ شَهِدَ بَدْرًا.

فَإِنْ تَرَتَّبَ عَلَىٰ جَسِّهِ وَهَنٌ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَقَتْلُ مُسْلِمِينَ، وَسَبْيٌ وَأَسْرٌ وَنَهْبٌ، أَوْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ؛ فَهٰذَا مِمَّنْ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَأَهْلَكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ، وَتَعَيَّنَ قَتْلُهُ، وَحُقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابِ، نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ.

وَبِالضَّرُورَةِ يَدْرِي كُلُّ ذِي جَسٍّ أَنَّ النَّمِيمَةَ إِذا كَانَتْ مِنْ الْكَبَائِرِ، فَنَمِيمَةُ الْجَاسُوسِ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ بِكَثِيرٍ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

[الشرح]

ذكر المصنّف هٰذه الكبيرة التي ختم بها عَدَّه لهٰذه الكبائر وهي: **"الجسّ علىٰ المسلمين والدّل علىٰ عوراتهم"**، وأورد أو أشار إلىٰ قصّة حاطب بن أبي بلتعة -رضي الله عنه- وقصّته معروفة، وهو ممّن شهد بدرا -رضي الله عنه وأرضاه-، وفيه دلّ علىٰ عورات المسلمين، يعني الذي حصل من حاطب فيه دلّ علىٰ عورات المسلمين؛ لكنّه خطأ وذنب وقع فيه وتاب منه وتاب الله عليه وهو ممّن شهد بدرا وفيهم قال -عليه الصّلاة والسّلام-: «**إنّ الله قال في أهل بدر: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**».

ولمّا ذكر هٰذه الكبيرة ذكر التفاوت في حجمها وفي جرمها قال: "**فَإِنْ تَرَتَّبَ عَلَىٰ جَسِّهِ**" يعني تجسّسه علىٰ المسلمين، وهن الإسلام وأهله وقتل المسلمين وسبي النساء وأسرهم إلىٰ آخره، فهٰذا من المفسدين في الأرض، "**وَتَعَيَّنَ قَتْلُهُ، وَحُقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابِ**" أي من الله -سبحانه وتعالىٰ-.

❁❁❁❁

[المتن]

فَصْلٌ
جَامِعٌ لِمَا يُحْتَمَلُ أَنَّهُ مِنَ الْكَبَائِرِ

[الشرح]

يعني لمّا ذكر هٰـــذه الكبائر بدلائلها ذكر فصــلا يجمع فيه نصــوص فيها وعيد لأعمال وأمور معيّنة يُحتمل أنّها من الكبائر؛ يعني كثير منها واضــح أنّه من كبائر الذّنوب؛ بل بعضــها ســبق أن أورده -رحمه

الله- في جملة الكبائر التي عَدَّها.

[المتن]

قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

مرّ معنا قاعدة في الباب أنّ نفي الإيمان لا يكون إلاّ عن ترك واجب أو فعل محرّم، وقوله: «حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» هٰذا القدر الذي هو واجب من واجبات الدّين أمرٌ متعلّق بالقلب، يحبّ لأخيه؛ يعني في قلبه بمعنىٰ أن يكون قلبك نقيّا تّجاه إخوانك لا غلّ ولا حقد ولا حسد ولا بطانة سوء؛ وإنّما هو قلب نظيف تحبّ لهم من الخير ما تحبّ لنفسك، فهٰذا قدر واجب، هٰذا قدرٌ في الإيمان واجب وهو يتعلّق بالقلب، «حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» لم يُطلب منك هنا أن تقاسمه مالك أو أن تعطيه مالك؛ وإنّما المطلوب منك أن يكون قلبك محبّا الخير لإخوانك مثل ما تحبّ لنفسك، وإذا وُجدت هٰذه الخَصْلة حبّ المسلم الخير لإخوانه مثلما يحبّ لنفسه تطرد عنه الحسد وتطرد عنه الغلّ وتطرد عنه أمراض كثيرة من أمراض القلوب، وإذا فرّط الإنسان في هٰذه الخصلة الواجبة من خصال الدّين دخل عليه من أمراض القلوب الشّيء الكثير.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَنَفْسِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» صَحِيحٌ.

وَقَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتَ بِهِ» إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

[الشرح]

هٰذا يعني صحّح إسناده هنا الذّهبيّ، وكذلك النّوويّ -رحمه الله - في الأربعين حسّن إسناده، وبعض العلماء ومنهم ابن رجب يضعّف إسناده ويذكر فيه علل، وبعضهم يحسّنه بما له من الشّواهد، والمعنىٰ تدلّ عليه النّصوص، ابن رجب -رحمه الله- لمّا ضعّف إسناده في "جامع العلوم و الحِكم" قال: "لكنّ معناه حقّ دلّ عليه القرآن والسنّة"، نعم.

[المتن]

وَقَالَ: «وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بَوَائِقَهُ».

[الشرح]

هٰذا سبق أن مرّ معنا .

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَفِي حَدِيثٍ لِمُسْلِمٍ فِي الظَّلَمَةِ: «فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةَ خَرْدَلٍ». وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ مَن لَّمْ يُنْكِرِ الْمَعَاصِي بِقَلْبِهِ، وَلَا يَوَدُّ زَوَالَهَا، فَإِنَّهُ عَدِيمُ الْإِيمَانِ، وَمِنْ جِهَادِ الْقَلْبِ التَّوَجُّهُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ فِي أَنْ يَمْحَقَ اللهُ الْبَاطِلَ وَأَهْلِهِ أَوْ أَنْ يُصْلِحَهُمْ.

[الشرح]

قوله في الحديث: «لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةَ خَرْدَلٍ»؛ أي أنّ هٰذا هو القدر الذي يُمكن أن يوجد في العبد ممّا يُسمّىٰ إيمانا، إمّا أن يُنكر بيده أو يُنكر بلسانه أو يُنكر بقلبه وهٰذا أضعف قدر يمكن أن يوجد في القلب ويُسمَّىٰ إيمانا، فإذا انتفىٰ هٰذا القدر في منكر معيّن أو في بعض المنكرات لا يدلّ علىٰ انتفاء الإيمان وأنّ الشخص عديم الإيمان؛ وإنّما يدلّ علىٰ أنّ أقل قدر في مسمّىٰ الإيمان في هٰذا الباب لم يقم عنده، وإلاّ من المعلوم أنّ الّذي يعمل المعصية كشرب الخمر أو غيره يعمله وهو محبّ لهٰذه المعصية مقبل عليها، ليس في قلبه كراهيّة لها، ولا يكون بذلك كافرا عديم الإيمان؛ ولهٰذا بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في كتاب " الإيمان" أنّ معنىٰ قوله: «لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةَ خَرْدَلٍ»؛ أي أنّ هٰذا أقلّ قدر في هٰذا الباب يُسمىٰ إيمانا؛ فـ«لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةَ خَرْدَلٍ» يعني ليس وراء ذلك شيء يُسمىٰ إيمانا.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ؛ فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ؛ وَلَكِن مَّن رَّضِيَ وَتَابَعَ» قِيْلَ أَفَلَا نُقَاتِلَهُمْ؟ قَالَ: «لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

نعم، هٰذا مرَّ معنا في باب للمصنّف.

[المتن]

وَقَدْ مَرَّ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِقَبْرَيْنِ يُعَذَّبَانِ فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ؛ بَلَىٰ إِنَّهُ كَبِيرٌ: أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَنْزِهُ مِنَ بَوْلِهِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ».

[الشرح]

كذلك مرَّ.

[المتن]

وَمِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «مَنْ أَعَانَ عَلَىٰ خُصُومَةٍ بِغَيرِ حَقٍّ كَانَ فِي سَخَطِ اللهِ حَتَّىٰ يَنْزِعَ» صَحِيحٌ.

وَقَالَ: «الْمَكْرُ وَالْخَدِيعَةُ فِي النَّارِ» إِسْنَادُهُ قَوِيٌّ.

[الشرح]

هٰذا والذي قبله مرَّ في الخصومة؛ الأول مرَّ بلفظه، وهٰذا في معنىٰ الباب، نعم.

[المتن]

وَقَالَ: «لَعَنَ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ» جَاءَ ذَلِكَ مِن وَجْهَيْنِ جَيِّدَيْنِ.

[الشرح]

وقد عدّه المصنّف -رَحِمَهُ الله- كبيرة كما سبق.

[المتن]

وَعَنْهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «مَنْ خَبَّبَ عَلَىٰ امْرِئٍ زَوْجَتَهُ أَوْ مَمْلُوكَهُ فَلَيْسَ مِنَّا» رَوَاهُ أَبُو دَاوُد.

[الشرح]

هٰذا من الكبائر أن يُخبّب المرأة علىٰ زوجها أو أن يُخببّ المملوك علىٰ مواليه، فهٰذا من الكبائر. وهو التخبيب: الإفساد؛ يعني المرأة بينها وبين زوجها عِشرة ومحبة وألفة فيُخبّبها علىٰ زوجها؛ يُفسدها علىٰ زوجها؛ مثل أن يُعيب زوجها ويُذمّه ويقول تجدين عندي ما لا تجدين عنده وسترين عندي كذا حتىٰ تطلب منه الانفصال والطلاق لتكون عند هٰذا الآخر؛ فهٰذا التخبيب من الكبائر، نعم.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «الْحَيَاءُ وَالْعَيُّ شُعْبَتَانِ مِنْ الْإِيمَانِ، وَالْبَذَاءُ وَالْجَفَاءُ شُعْبَتَانِ مِنْ النِّفَاقِ».

هٰذا صَحِيحٌ.

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْبَذَاءُ مِنَ الْجَفَاءِ، وَالْجَفَاءُ فِي النَّارِ».

[الشرح]

نعم، مرّ معنا هٰذا.

رَوَاهُ هُشِيمٌ عَنْ مَنْصُورِ بْنِ زَاذَان عَنْ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ. وَرَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو بْنُ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ- وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ.

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ إِمَامُ جَمَاعَةٍ؛ فَإِنَّ مَوْتَتَهُ مَوْتَةَ الْجَاهِلِيَّةِ» إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ مُوسَىٰ؛ حَدَّثَنَا وَقَّاصَ بْنَ رَبِيعَةَ، عَنْ الْمستورد بْنِ شَدَّادٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ أَكَلَ بِمُسْلِمٍ أُكْلَةً؛ أَطْعَمَهُ اللهُ بِهَا أُكْلَةً مِن نَّارِ يَوْمِ الْقِيَامَةَ، وَمَنْ أَقَامَ بِمُسْلِمٍ مَقَامَ سُمْعَةٍ؛ أَقَامَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةَ مَقَامَ رِيَاءٍ وَسُمْعَةٍ، وَمَنِ اكْتَسَىٰ بِمُسْلِمٍ ثَوْبًا كَسَاهُ اللهُ ثَوْبًا مِن نَّارِ يَوْمِ الْقِيَامَةَ» صَحَّحَهُ الْحَاكِمُ.

[الشرح]

وهٰذا أيضا من الكبائر؛ يعني أن يكون أكله أو تحصيله للمال بإضراره للآخرين من إخوانه المسلمين؛ كأن يلحق بمسلم أذىٰ، يُسمِّع به أو نحو ذلك ليأكل مالا بالباطل فقال: «كَسَاهُ اللهُ ثَوْبًا مِن نَّارِ يَوْمِ الْقِيَامَةَ»، نعم.

[المتن]

وَصَحَّحَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي خُرَاش السُّلَمِيّ؛ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ سَنَةً فَهُوَ كَسَفْكِ دَمِهِ».

[الشرح]

وهٰذا فيه التحذير من التهاجر بين المسلمين والتدابر، وأن هٰذا يتنافىٰ مع الأخوة الإيمانية، كما قال عَلَيهِ الصَّلاة والسَّلام-: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا»، نعم.

[المتن]

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمَا-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ؛ فَقَدْ ضَادَّ اللهَ فِي أَمْرِهِ» إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ.

[الشرح]

يعني من شفع ليمنع حدّ من حدود الله فقد ارتكب أمرا عظيما؛ لأنه ضادَّ الله في أمره.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِن رِّضْوَانِ اللهِ، مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ، مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَاهُ» صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

[الشرح]

هٰذا فيه خطورة اللسان وجنايته علىٰ الإنسان، وقد مرَّ معنا أبواب عديدة هي من الكبائر التي يحصّلها الإنسان بلسانه، والحديث فيه: «وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ، مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ» يعني من الخطورة والشرّ والضرر «يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَاهُ». جاء في بعض الأحاديث: «لا يلق لها بالا».

[المتن]

وَعَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ يَا سَيِّد، فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّدًا فَقَدْ أَسْخَطتُّمْ رَبَّكُمْ -عَزَّ وَجَلَّ-» صَحِيحٌ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُد.

[الشرح]

وهٰذا فيه النهي عن تسييد المنافق بأن يقال له "يا سيّد"، أو كذلك أن يقال للكافر "يا سيّد"، نعم.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْه.

[الشرح]

تكرر معنا الحديث؛ لكن ينبّه المصنّف هنا.

[المتن]

فَأَمَّا الْكَذِبَ وَالْخِيَانَةَ فَقَدْ مَرَّا؛ وَأَمَّا خَلْفُ الْوَعْدِ فَهُوَ الْمَقْصُودُ بِالذِّكْرِ هُنَا. وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦)فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

[الشرح]

هٰذا خُلف وعد؛ يعني عاهدوا الله -عزَّ وجلَّ- إن آتاهم مالا يتصدقوا وأن يكونوا من الصالحين فأخلفوا هٰذا الوعد؛ فهٰذا من الكبائر، نعم.

[المتن]

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ مَرْفُوعًا قَالَ: «مَنْ لَمْ يَأْخُذْ مِنْ شَارِبِهِ فَلَيْسَ مِنَّا» صححه الترم صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ.

[الشرح]

«مَنْ لَمْ يَأْخُذْ مِنْ شَارِبِهِ فَلَيْسَ مِنَّا»؛ يعني من سنن الفطرة قصّ الشارب وإعفاء اللحية؛ فمن لم يأخذ من شاربه فليس منا. وهٰذا يدل علىٰ أنه كبيرة، والفطرة قد تنتكس في بعض الناس فيُرسل الشارب ويحلق اللحية مع أن الفطرة هو العكس أن يقصّ الشارب ويُرسل اللحية؛ ولكن بعضهم يعكس الفطرة، حتىٰ أني أذكر قبل سنوات طويلة وكان سماحة الشيخ ابن باز -رَحِمَهُ اللهُ- كتب ردًّا حول هٰذا الأمر؛ عُقدت مسابقة عالمية أفضل شارب في العالم ففاز بالمسابقة رجل صوّرت صوره في الصحف وكان الشيخ -رحمة الله عليه- أنكر إيراد الخبر في الصحف عندنا وقال: يعني هٰذا عمل باطل ومخالف للفطرة ولا يُذكر، كتب كتابة عظيمة وبيّن الحُكم، مخالفة الفطرة وما فيها من انتكاس، فكانت له صورة بشعة جدا يعني شاربه طويل نازل، كل فمه لا تراه؛ يعني فمه لا تراه من شاربه وكثافة الشارب واللحية محلوقة، منظر بغيظ جدا.

وهنا لما يخالف الإنسان الفطرة ويطيل الشارب ويترك الشارب علىٰ كثافته هٰذا فيه أنواع من الأذىٰ له وللآخرين: أما له ففي قضية الطعام يؤذي نفسه أذىٰ شديدا عندما يتناول الطعام، وأنا أتصور أنه لو أراد أن يشرب مثلا إدام بالملعقة هو يحتاج إلىٰ يده اليمين حتىٰ يرفع بها الإدام ويده اليسار حتىٰ يرفع بها الشارب حتىٰ يجد مدخل، فيده اليسار يرفع بها شاربه عن فمه ويده اليمين يرفع بها الطعام حتىٰ يدخل بها الإدام؛ هٰذه أذية لنفسه، وكذلك عندما ينظف أنفه هٰذا أيضا يؤذي نفسه. أما إذا قبل طفله الصغير علىٰ وجه

المداعبة فهٰذه كارثة، وطفله الصغير سيقول: "ليت الله أراحنا من هٰذه القُبلة"، أذيّة شديدة؛ لو أنه جاء يقبّل الطفل يداعبه رحمةً بالصغير وقبّله ثم آذاه بهٰذا الشارب الكثيف الذي يغطي الفم؛ وأظنه أيضا لن يتمكن أيضا من قُبلة الصغير إلا بأن يأتي بيديه وينهض بها الشارب حتىٰ يبرز فمه ويتمكن من التقبيل. يعني أذية –والعياذ بالله– وانتكاس. وهٰذا الحديث يقول: «مَنْ لَمْ يَأْخُذْ مِنْ شَارِبِهِ فَلَيْسَ مِنَّا»؛ يعني هٰذه انتكاسة في الفطرة والعياذ بالله، نعم.

[المتن]

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ –رَضِيَ اللهُ تَعَالىٰ عَنْهُمَا–، عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: «خَالِفُوا الْمَجُوسَ، وَفِّرُوا اللِّحَىٰ وَاحِفُّوا الشَوَارِبَ».

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: قَالَ عُمَرُ –رَضِيَ اللهُ تَعَالىٰ عَنْهُ–: "لَقَدْ هَممْتُ أَنْ أَبْعَثَ رِجَالًا إِلَىٰ هٰذه الْأَمَصَار فَيَنْظُرُوا كُلّ مَن لَّمْ يَحُجّ؛ فَمَنْ كَانَتْ لَه جِدَة وَلَمْ يَحُجّ فَيَضْرِبُوا عَلَيْهِ الْجِزْيَةَ، مَا هُمْ بِمُسْلِمِينَ. مَا هُمْ بِمُسْلِمِينَ". رَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُور فِي سُنَنِه.

[الشرح]

هٰذا من كانت عنده قدرة علىٰ الحج؛ يعني من كانت عنده جِدَة؛ يعني نفقة وزاد واستطاعة بدنية علىٰ الحج ثم لم يحج فهٰذه كبيرة؛ لأن المبادرة لأداء هٰذا الفرض مطلوبة؛ لأن الإنسان لا يدري ما يَعرض له؛ ولهٰذا قال عمر –رضي الله عنه–: "فَيَضْرِبُوا عَلَيْهِ الْجِزْيَةَ، مَا هُمْ بِمُسْلِمِينَ. مَا هُمْ بِمُسْلِمِينَ"، نعم.

[المتن]

وَعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيّ –رَضِيَ اللهُ تَعَالىٰ عَنْهُ–، سَمِعَ النَّبِيَّ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقُولُ: «مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ وَالِدَةٍ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ.

وَيُرْوَىٰ عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ فَرَّ مِن مِّيرَاثِ وَارِثِه، قَطَعَ اللهُ مِيرَاثَهُ مِنَ الْجَنَّةِ» فِي سَنَدِهِ مَقَالٌ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللهِ سِتِّينَ سَنَةٍ ثُمَّ يَحْضُرُهُ الْمَوْتُ فَيُضَارُّ فِي الْوَصِيَّةِ فَتَجِبُ لَهُ النَّارُ». ثُمَّ قَرَأَ أَبُو هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللهُ تَعَالىٰ عَنْهُ–: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ الآيات [النساء:١٢]. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ.

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ خَارِجَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– خَطَبَ عَلَىٰ نَاقَتِهِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ قَدْ

أَعْطَىٰ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ» صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

[الشرح]

في هٰذه النصوص الوعيد علىٰ المضارة بالوصية بأن يحذف بعض الورثة أو يزيد بعض الورثة أو يتعامل معهم بغير العدل الذي أمر الله به؛ اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم.

[المتن]

وَعَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ».

[الشرح]

مرَّ معنا نظيره في كبيرة اللَّعان: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش البذيء».

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ يُفْضِي إِلَىٰ امْرَأَتِهِ وَتُفْضِي إِلَيْهِ ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

وهٰذا من عظائم الذنوب أن يُفشي أحد الزوجين ما يقع بين الزوجين من أمور خاصة والمعاشرات الخاصة التي بينهما.

[المتن]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَلْعُونٌ مَنْ أَتَىٰ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ.

وَفِي لَفْظٍ: «لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَىٰ رَجُلٍ جَامَعَ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا».

وَعَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «مَنْ أَتَىٰ حَائِضًا [فِي فَرْجِهَا]، أَوْ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا، أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ، فَقَدْ كَفَرَ -أو قال: بَرِئَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ.

وَلَيْسَ إِسْنَادُهُ بِقَائِمٍ.

[الشرح]

هٰذه الأحاديث فيها أن إتيان المرأة في دبرها من كبائر الذنوب وأن فاعل ذلك ملعون؛ في بعض الألفاظ «لا ينظر الله إليه»، فإتيان المرأة، يعني إتيان الزوج لزوجته في دبرها -أي مكان خروج العذِرة- هٰذا من

كبائر الذنوب.

وقال النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لو أن رجلا اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه؛ ما كان عليك جناح» متفق عليه.

الكبيرة هنا هي الإطلاع علىٰ عورات الناس والنظر إلىٰ عوراتهم من خلال ثقب. وعينُ من يطلع هٰذا الإطلاع هدر لأنه مرتكب جرم عظيم؛ فذهبت عينه هدرا. الأصل في عينه أنها معصومة ومحرمة، لكن لما أوقع نفسه في هٰذا الإثم العظيم صارت عينه هدرا، فالكبيرة هنا هي الإطلاع علىٰ عورات الناس. في الحديث «إنما جُعل الاستئذان لأجل النظر».

[المتن]

وقال -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفقؤوا عينه» أخرجه مسلم.

روىٰ زياد بن الحصين عن أبي عالية عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: قال رسول الله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : «إياكم والغلو في الدين؛ فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين» وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ﴾ [المائدة : ٧٧]

وقد عدَّ ابن حزم الغلو في الدين من الكبائر.

[الشرح]

الغلو من الكبائر؛ بل هو السبب لكثير من الكبائر، سبب وقوع الناس في مخالفة الدين والخروج عن هدي النبي الكريم -صلّىٰ اللهُ عليهِ وسلَّم-، وعدد من الكبائر التي أشار إليها المصنف فيما سبق هي تنجم عن الغلو وتنتج عنه.

[المتن]

عن ابن عمر عن النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «من حلف له بالله فليرض ومن لم يرض فليس من الله في شيء»رواه ابن ماجه.

[الشرح]

الكبيرة هنا هي ألا يرضىٰ الإنسان بما حُلف له عليه بالله -عزَّ وجلَّ- «ومن لم يرض فليس من الله في

شيء» فهٰذا النهي يدل علىٰ انتفاء الإيمان الواجب «ومن لم يرض فليس من الله في شيء»، لكن إذا كان الذي حلف معروف بالأيمان الفاجرة ومعروف بالكذب والحلف كاذبا وعرف عنه هٰذا، فكون الإنسان لا يرضىٰ بذلك لتيقنه بالأمر ولمعرفته بكذب هٰذا الكاذب لا يشمله الحديث.

[المتن]

وعن أبي بكر الصديق -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: قال النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لا يدخل الجنة خبّ ولا منان ولا بخيل» أخرجه الترمذي بسند ضعيف.

وقال النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «كفىٰ بالمرء إثما أن يضيع من يقوت».

[الشرح]

(الخِبّ) يعني الإنسان الذي لا يدري ما الأمور وإنما يقبل كل ما يقال له، كل ما يدعىٰ إليها وهو لا يتحقق من صحة الأمور، فالمسلم ليس بالخِبّ وإنما هو يتأمل: إذا كان ما يدعىٰ إليه حق وهدىٰ قَبِله وإلا فإنه لا يستجيب ولا يقبل.

وقوله: «كفىٰ بالمرء إثما أن يضيع من يقوت» يعني أن يضيع قوت عياله ولا يبالي بالنفقة علىٰ من يعول وعلىٰ من يلزمه، ومثل هٰذا يكثر عند المتصوفة الذين يعطلون الأسباب فتجده لا يطلب القوت لأولاده ولا يسعىٰ في النفقة عليهم وهو معطلٌ الأسباب في جلب الرزق وطلبه، فهٰذا من الأمور العظيمة.

[المتن]

وقال النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «كفىٰ بالمرء إثما أن يحدّث بكل ما سمع».

[الشرح]

يعني أن يكون ما يسمعه ينقله وإن لم يتثبت من صحته، هٰذا من الإثم، و«بئس مطية الرجل زعموا» فالإنسان لا ينبغي أن ينقل كل الأحاديث، بل من الأحاديث نقلها يشكل خطورة علىٰ الناس، قال الله -تعالىٰ-: ﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَىٰ الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ...﴾[النساء : ٨٣]؛ ولهٰذا ظهرت الأمور خاصة التي تتعلق بأمن الأمة وصالح الأمة العامة، تناقلها بين الناس ليس من المصلحة، بل الواجب علىٰ عامة الناس أن يسألوا أهل العلم: هل من المصلحة نشر هٰذا الخبر أو ليس من المصلحة؟ علىٰ أنه في زماننا هٰذا اختلفت الأوضاع، يعني الخبر كان سابقا لا ينتشر إلا عبر تناقل الناس، فهٰذا ينقل للآخر والثاني ينقل للآخر

ويحتاج إلىٰ وقت حتىٰ ينتشر، أما الآن الخبر ينتشر في الصحيفة وينتشر في القنوات وينتشر في الإذاعات، يصل إلىٰ الآفاق بلحظة واحدة. ويبقىٰ الحكم هو الحكم، يعني الأمور التي تمس أمن الأمة وتمس صالح الأمة العامة ذِكرها لا ينبغي أن يبادَر إليه إلا بعد عرض الأمر علىٰ أهل العلم للنظر في المصلحة.

وإذا كان قديما يحمل إثم نشر هـٰذه الأخبار أفراد المسلمين بتناقلهم التدريجي لهـٰذه الأخبار فإن في زماننا هـٰذا يحمل إثم هـٰذا التناقل كله من بث الخبر في صحيفة أو بث الخبر في قناة أو بثه في الشبكة (شبكة الإنترنت) أو غيرها فـ«كفىٰ بالمرء إثما أن يحدّث بكل ما سمع».

وحتىٰ ندرك خطورة الأمر بشكل أفضل: تحديث الإنسان بما سمع لشخص واحد أمامه هـٰذا إثم، فكيف بمن يحدث بما سمع في لحظة واحدة عشرات الآلاف؛ ولهـٰذا يحدث من الأخطار ومن الأضرار بسبب ذلك والفساد بالأمن وإضرار الناس شيء لا حد له ولا عدّ، فقال -عَلَيهِ الصَّلاة والسَّلام-: «كفىٰ بالمرء إثما أن يحدّث بكل ما سمع».

[المتن]

قال الله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[الحديد : ٢٤]

[الشرح]

البخل هنا هو الكبيرة، وكذلك الأمر به كبيرة أخرىٰ أن يكون بخيلا يعني شحيحا لا ينفق ما أتاه الله أو آمرا الناس بالبخل.

[المتن]

وقال تعالىٰ: ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء ... ﴾[محمد : ٣٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ(٨)وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ(٩)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ(١٠)وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ [الليل : ٨-١١]

[الشرح]

يعني إذا وقع في الهلاك.

[المتن]

وقال تعالىٰ: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهْ﴾[الحاقة : ٢٨].

وقال تعالىٰ: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[الأعراف : ٤٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر : ٩]

وقال النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «اتقوا الظلم فغن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح اهلك من كان قبلكم حملهم علىٰ أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم» أخرجه مسلم.

[الشرح]

الشح بخل الإنسان بما آتاه الله -سُبْحَانه وَتَعَالىٰ-، قال: «فإن الشح اهلك من كان قبلكم حملهم علىٰ أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»

[المتن]

وقال -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «وأي داء أدوىٰ من البخل».

[الشرح]

«وأي داء أدوىٰ من البخل» أي مرض أشد من البخل؛ الداء المرض.

[المتن]

وفي الحديث: «ثلاث مهلكات: شح مطاع وهوىٰ متبع وإعجاب كل ذي رأي برأيه».

وصحح الترمذي: أن النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لعن الجالس وسط الحلقة.

[الشرح]

هٰذا أمر آخر في الكبائر، قال: أن النبي -صلّىٰ اللهُ عليهِ وسلَّم- لعن الجالس وسط الحلقة، لكن الحديث كأن في سنده انقطاع كما مبين في الهامش.

[المتن]

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلّىٰ اللهُ عليهِ وسلَّم- : «إياكم والحسد؛ فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» أخرجه أبو داود.

[الشرح]

الحسد كبيرة والحديث واضح في أن الحسد من كبائر الذنوب. والحاسد هو عدو نعمة الله -سُبْحَانه وَتَعَالىٰ- علىٰ عباده، والحسد هو تمني زوال النعمة عن الغير.

[المتن]

وقال -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لو يعمل المار بين يدي المصلي ماذا عليه؟ لكان يقف أربعين خيرا له».

وقال -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : «إذا صلىٰ أحدكم إلىٰ ما يستره من الناس، فأراد أن يجتاز بين يديه فليدفعه في نحره؛ فغن أبىٰ فليقاتله فإنما هو شيطان» وفي لفظ مسلم: «فإن أبىٰ فليقاتله فإن معه قرين».

[الشرح]

قوله: «يقف أربعين خيرا له»، وقوله: «فإنما هو شيطان» يدل علىٰ أن هـٰذا الأمر ذنب عظيم، ليس بالأمر الهيّن.

[المتن]

وعن أبي هريرة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتىٰ تؤمنوا ولا تؤمنوا حتىٰ تحابوا. ألا أدلكم علىٰ شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

[الشرح]

كأن المصنف يريد أن يشير هنا إلىٰ أن من الأمور العظيمة: ترك السلام الذي هو سبب المحبة بين المسلمين وسبب من أسباب دخول الجنة، قال: «لا تدخلون الجنة حتىٰ تؤمنوا ولا تؤمنوا حتىٰ تحابوا. ألا أدلكم علىٰ شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» فإذا هُجر السلام وتُرك ولم يكن بين المسلمين فإن هـٰذا يؤدي إلىٰ ضعف الإسلام وضعف أسباب دخول الجنة بينهم؛ لأنه إذا وُجد السلام وُجدت المحبة، وإذا وُجدت المحبة وُجد التعاون علىٰ البرّ والتقوىٰ فكثُر في المجتمع وسائل وأسباب دخول الجنة؛ وإذا هُجر السلام وتُرك أدىٰ بهم هـٰذا الترك إلىٰ ضعف إيمانهم وتفكك جماعتهم واستحواذ الشيطان عليهم، فلعل المصنف -رَحِمَهُ الله- أراد أن يُنبه بذلك إلىٰ أن ترك السلام يُعد من الذنوب العظيمة.

[المتن]

هـٰذا آخر كتاب الكبائر، والحمد لله ربّ العالمين، وصلّىٰ الله علىٰ سيّدنا محمّد خاتم النّبيّين وعلىٰ آله وأصحابه الطّيّبين الطّاهرين وسلّم تسليما كثيرا

عصمنا الله وإياكم من الكبائر أجمعين، آمين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

[الشرح]

ختم الإمام الذّهبيّ -رحمه الله- كتاب الكبائر بهٰـــذه الدّعوة التّي استهلّ بها كتابه قال: (عصـمنا الله وإياكم من الكبائر)أي سلّمنا الله وإياكم ووقانا وإياكم منها، والعصـمة من الكبائر والسّـلامة منها -كما قدّمت في أوّل الكتاب- تتطلّب من المسـلم علما بهٰـــذه الكبائر ودراية بها، وجهلُ النّاس بالكبائر وعدم علمهم بها، وعدم علمهم بالوعيد الذي ترتّب عليها في نصـوص الشّـرع، جعل أمرها يخفّ عند كثير من النّاس وأصـبحوا يقعون فيها ويقعون في الكثير منها، فكان من الأمور المتأكّدة و المتعيّنة والمحتاج إليها لدىٰ النّاس العناية بمعرفة الكبائر، ثمّ إنّ هٰـــذا الأمر يتأكد في زماننا بشكل أكبر مع وجود وسائل الفساد الكبيرة التي عمّت وطمّت وانتشـــرت وأضـــرّت بكثير من النّاس، وبدأ يظهر في كثير من النّاس أنواع من الفساد، وأنواع من الممارسة لأنواع من الكبائر بشكل لم يكن موجودا قبل، فهٰـذا -الحقيقة- يؤكّد علىٰ ضرورة اهتمام طلاّب العلم والدّعاة بهٰذه الكبائر: قراءة لها ومعرفة بها، وتحذيرا للأمّة منها.

والحقيقة، كلمة ردّدتها مرارا، وأرجو أن يكون لها صـــدىٰ وتردّد بين الإخوة الكرام ، أرجو الله -سـبحانه وتعالىٰ- أن يحقّق بها نفعا، كلمة ردّدتها مرارا، أقول: **"كتاب الكبائر للذّهبيّ ينبغي أن يُقرأ ولو مرّة"** فأتمنّىٰ أنّ هٰـذه الكلمة يتولَّىٰ الإخوة ترديدها في النّاس، وحتّىٰ يقرأ النّاس هٰـذا الكتاب ويقفوا علىٰ هٰـــذه الكبائر بنيّة الاجتناب، و الله -جلّ وعلا- أمرنا باجتناب الكبائر، والذّهبيّ وغيره من أهل العلم نصحوا في هٰـــذا الباب وقرّبوا المسألة، ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾[النساء:٣١]، لك أن تقول لمن تنصحه: الكبائر كثيرة وهي مذكورة في القرآن الكريم ولكنّ العلماء اختصروا لك، أو يسّروا لك الوقوف علىٰ هٰـذا الأمر في كتب خاصّة تقرؤها في ساعة، كتاب الذّهبيّ إذا قرأته قراءة بدون أن يكون معك واحد ثقيل مثلي يطوّل عليك هٰـــذا التّطويل الذي جلس فيه أسبوعا كاملا، تقرؤه في جلسة واحد، وجلستي معكم فيها تمطيط للوقت وإلاّ ما فيها كبير فائدة، لكن قراءة الكتاب نفسه والمرور علىٰ الفوائد التي فيه هٰـذا هو أهمّ ما ينبغي أن يكون، فأنا أتمنّىٰ وأرجو وأؤكّد أن تُردّد هٰـذه الكلمة: **" كتاب الكبائر للذّهبيّ ينبغي أن يُقرأ ولو مرّة "** يمرّ عليه المسلم، أي تنصح قريبك ، تنصح جارك تنصح أهلك في البيت، أنت قرأته، أهلك يقرؤونه في البيت، أيضا أهلك ينصحون جيرانهم، وأتمنّىٰ أنّ هٰـذا يتردّد، حتّىٰ يكون وقوف من النّاس علىٰ هٰـــذه الكبائر، وكلٌّ يقرأ بنيّة الاجتناب والبعد عن هٰـــذه الكبائر التي حرّمها الله -سبحانه وتعالىٰ- ونهىٰ عباده عنها، ورتّب علىٰ اجتنابها الخير العميم والفضل العديد للإنسان في الدّنيا والآخرة.

ثمّ يتذّكر من قرأ هـٰـــذا الكتاب أنّ مقصود العلم العمل، وأنّ وقوف الإنسان علىٰ هـٰــذه الأدلّة وعلىٰ هـٰذه الحُجج وعلىٰ هـٰذه البيّنات حُجّة إماّ له أو عليه، في الحديث الصّحيح يقول -عليه الصّلاة والسّلام- : «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتىٰ يُسأل عن أربع**» وذكر منها: «**عن علمه ماذا عمل به**» فالعلم مقصوده العمل، ومن وفّقه الله -ســبحانه وتعالىٰ- للعلم النّافع، يســأل الله -جلّ وعلا- ويلّحّ عليه أن ينفعه بما علّمه، كما كان نبيّنا -صلّىٰ الله عليه وسلّم- يقول في دعائه: «**اللّهمّ عَلّمني ما ينفَعُنِي وانْفَعْنِي بما علَّمْتَنِي، وزِدنِي علما**» .

وأتوّجّه إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- وأسأله بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العُلىٰ أن يتقبّل جلوسنا هـٰــذا بقَبول حســن، وأن يجعله في موازين حســناتنا يوم نلقاه، وأن يُجنّبنا كبائر الإثم وموجبات ســخطه وأليم عقابه، وأن يوفّقنا لصــالح الأعمال، وســديد الأقوال، وأن يصــلِح لنا ديننا الذي هو عصــمة أمرنا، وأن يُصلِح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأن يُصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، وأن يجعل الحياة زيادة لنا في كلّ خير، والموت راحة لنا من كلّ شرّ، وأسأله -سبحانه وتعالىٰ- أن يهدينا وأن يهدي بنا، وأن يهدي لنا إنّه الهادي -تبارك وتعالىٰ- إلىٰ ســواء السّــبيل، وأن يغفر لنا ما قدّمنا وما أخّرنا، وما أســررنا وما أعلنّا، وما أســرفنا، وما هو أعلم به منّا -ســبحانه وتعالىٰ-، وأن يغفر لنا ذنبنا كلّه: دقّه وجِلّه ، أوّله وآخره، ســرّه وعلنه، إنّه -تبارك وتعالىٰ- غفور رحيم.

وبعض العلماء الذين كتبوا في الكبائر ختموا كتاب الكبائر بالتّوبة، وهـٰذه لفتة جميلة، يعني عندما يقف الإنســان علىٰ الكبائر، وربّما يكون أتىٰ بعضــها أو كثيرا منها، يُنبّه في الختام أنّ باب التّوبة مفتوح مهما عظم الذّنب ومهما بلغ الجّرم، والله -تبارك وتعالىٰ- يقول: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾[الزّمر:٥٣] والحمد لله أوّلا وآخرا، وله الشّكر ظاهرا وباطنا، وصلّىٰ الله وسلّم علىٰ نبيّنا محمّد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

كنت طلبت من الإخوة كتابة، أوّلا إحضــار ما يتعلّق بكلام ابن القيّم، فكثير من الإخوة وقفوا علىٰ الكلام، لكن الذي ســبق هو أحد الإخوة وأعطانا المرجع لكلام ابن القيّم في كتاب(**مدارج السّــالكين**) وكنت الحقيقة وددت أن تكون الورقة معي لكن نسيتها في البيت، لأقرأ عليكم النّص وأعطيكم الصّفحة، أتوقّع أنّ بعضــكم يكون ربّما معه، منكم من معه الورقة الذي فيها كلام ابن القيّم؟ تتوقّع وجودها معك الآن ؟ تفضّل.

حين يجد الأخ الورقة، أيضا موضوع آخر، فكنت طلبت كتابة بحث من الإخوة فيما يتعلّق بالكبائر، وشارك من الإخوة أربعا وعشرين مشاركا، إقرأ عليّ .

الطّالب:

يقول ابن القيّم - رحمه الله - في "مدارج السالكين" الجزء الأوّل صفحة (٣٣٢):

(وقريب من هٰذا: ما قام بقلب البغيّ التي رأت ذلك الكلب وقد اشتدّ به العطش يأكل الثرىٰ فقام بقلبها ذلك الوقت مع عدم الآلة وعدم المُعَيَّن وعدم من تُرائيه بعملها ما حملها علىٰ أن ....)

الشّيخ: غير واضح؟ إذاً يكفي المجلّد والصّفحة، أعدها علينا مرّة ثانية .

القارئ : الجزء الأوّل / ٣٣٢.

الشيّخ: هو الكلام واضح والخطّ جميل لكن الإضاءة ضعيفة.

كنت طلبت من الإخوة الكتابة في موضوع الكبائر، فشارك أربع وعشرون أخا، وأُعدّ من قبل الإخوة بعض الجوائز للمشاركين، فخصّوا الخمس الأوائل بجائزة متميّزة، وأيضا كلّ مشارك له جائزة لمشاركته، فأنا سأقرأ عليكم الخمس الأوائل حتّىٰ يأخذون الشيء الخاصّ بهم من الإخوة ، الآن يأخذونه ، وكلّ مشارك أيضا له نصيبه فيمرّ علىٰ الإخوة يأخذ نصيبه لمشاركته.

فالخمس الأوائل: خالد بن محمّد حمّودة الجزائري، و أبو عبد الله حسين بن محمّد الجزائري، وخالد عمر العلمي، وأبو الحارث عادل العربي الجزائري، وأبو الحارث رابح فولة الجزائري.

وهؤلاء الخمسة يراجعون الإخوة، وكلّ مشارك أيضا يُراجع.

وكان عندي ملاحظة وأنا أقرأ الإجابات، يعني المشاركين أربع وعشرين، تقريبا عشرين من الجزائر فتكون الجزائر هي الفائزة، ما شاء الله هٰذا شيء يسرّ جدّا، يدلّ علىٰ وجود طلبة علم وإقبال علىٰ العلم وحرص عليه، سرّني كثيرا ونكتفي بهٰذا القدر.

والله أعلم وصلّىٰ الله وسلّم علىٰ نبيّنا محمّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين .